

جامعة الملك عبدالعزيز

بمكة المكرمة

الدراسات العليا العربية

فرع الأدب



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٣٤٨

التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث

٢٠٠٦

رسالة لنيل درجة الدكتوراه

اعداد : منير محمد خليل ندا

اشراف : الدكتور علي العمّاري



٢٤٨

المقدمة

بسم الله نبدأ ، وبه نستعين ، ونحمده سبحانه وتعالى أن هدانا لهذا (وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) .
ونصلي ونسلم على سيد الخلق ، وأشرف المرسلين ، امام الأنبياء ، وسيد البلغاء ، آتاه الله حوامع الكلم وسحر البيان ، وخمسه من بين رسله بمعجزة القرآن .
وبعد : فإن من المقاصد العالية التي يتطالع اليها الباحث ما يكون الهدف الاسمي من معالجتها خدمة اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، الذي أنزل بلسان عربي مبين ، فكان المعجزة الخالدة الى يوم الدين .
ومن أهم العلوم التي وضعت للبحث في هذه المعجزة ، وأسهمت فيه بتصويب موقور ، علم البلاغة ، علم الذوق والجمال والفن الأدبي .
ولقد كان لعلم البلاغة فضل كبير في بيان أساليب العرب وتراكيب لغتهم ، وما تتنازه من قوة وجمال في اللفظ والمعنى والعاطفة والخيال ، مما أعان كثيرا على فهم تراثنا ، وتقدير لغتنا ، وبيان اعداز كتابنا الكريم . بل ان دراسة الاعجاز وادراكه كان الهدف الاسمي الذي من أجله وضع علم البلاغة . يقول ابن خلدون (واعلم أن شجرة هذا الفن انما هي فهم الاعجاز من القرآن) (١) .
فالبلاغة العربية اذن دينية النشأة ، قرآنية المولد ، درجت ونمت في رحاب كتاب الله ، تستهدي آياته ، وتتشرب معانيه ، قبل أن تتناول الأدب العربي بوجه عام .
وعلى هذا فالبلاغة علم له قدره ومكانته ، وطينا نحن العرب والمسلمين أن نحله المكانة اللائقة به من الاهتمام والتقدير .
لكن البلاغة العربية - وان كانت لقيت عناية كبيرة في عصورها الأولى - تخلفت عن ركب العلوم الحديثة ، واعترض طريقها من الصعاب والعقبات ما وقف بها عن بلوغ الغاية ، وحاد بها عن مسار الذوق والفن والجمال .

(١) مقدمة ابن خلدون - باب البيان - ص ٢١ ط الشعب .

ذلك أن البلاغة بعد أن أئمنت على يد الامام عبد القاهر واستوت على سوقها
تعذب الزراع مالبثت أن استقرت في يد علماء الكلام والفلسفة والمنطق فحولوها الى
تعاريف وتقاسيم تقوم على جدل عقيم .

فمنذ ألف السكاكي في القرن السادس الهجري كتابه المفتاح ، وجعل القسم الثالث
منه في علم البلاغة ، وكتب المؤلفين تدور حوله ، وتبنى عليه ، وتنهج طريقته الكلامية
الجدلية ، بل وتزيد عليه تعقيدا واغرابا . (١)

وجاء القزويني في القرن الثامن الهجري فاتجه هو الآخر الى " مفتاح العلوم " ولخص
قسمه الثالث بعد أن رأى فيه حشوا وتطويلا وتعقيدا فهذه به ورثته ترتبها أقرب تنادلا
ولكن بنفس الطريقة والاسلوب ، ثم رأى أن هذا التلخيص غير واف بالغرض فوضع شرحا
على تلخيصه هو " الايضاح " وهذا الكتاب هو الذي وقفت عنده البلاغة لا تريم ، ولم
يكتب لها بعد . التطور والتحد يد .

وفي كتابي القزويني (التلخيص والايضاح) يجد الباحث الفلسفة وأساليب
المناقاة ومصطلحاتهم ماثلة أمامه ما يعوق الانتفاع من بلاغته في صقل الأذواق
وتربيتها . وللأسف فان كتاب التلخيص هو الذي دارت حوله وحول شروحه دراسة
البلاغة حتى العصر الحديث .

وقد نقد الدكتور احمد مطلوب كتابي القزويني نقدا جيدا ، (٢) وأبرز ما فيها
من عيوب واغراب عن مسائل البلاغة وفنها ، ونقل بعض عبارات القزويني عن الطلحة
والكيف والصدق والكذب والامع والدلالات وغيرها كأمثلة تؤيد وجهة نظره ، ثم قال :
لقد نقلنا هذا كله لنظهر خروجهم عن البلاغة ، والا فما علاقة هذا الكلام بها ،
وكيف يستفيد منه الأديب في نقد الأدب واظهار جماله ؟ (٣)

وقال في موضوع آخر : وننتهي من هذا كله الى أن النزعة الفلسفية والجدلية
تسيطر على بلاغة القزويني ، وهذا واضح في المنهج والتبويب وبيان المعاني البلاغية

(١) يستثنى من ذلك النذر اليسير مثل كتابي " ابن الأثير وابن سنان "

(٢) انظر " مناهج بلاغية " ص ٣٧٨ - ٤٢٠

(٣) المرجع السابق ص ٤٠٤

واستخدام الأساليب والمصطلحات الكلامية والفلسفية ، ومن هنا نرى أن لا فائدة من العكوف على بلاغة القزويني وشرح تلخيصه . (١)

والواقع أن الشكوى من جفاف علم البلاغة وإقدام سائل الفلسفة والمنطق فيه شكوى عامة وردت في كثير من كتب المعصرين الذين كتبوا في تاريخ البلاغة وعلومها أو دعوا إلى تجديدها ، كما وردت كذلك في كتب المتقدمين والمستأخرين ، من ذلك قول المغربي بعد أن تحدث عن اللذة والألم والأشكال والسمع والذوق : " وقد أثبت فيما يتعلق بهذه الكيفيات على حسب ما فسرهما الشارح ما هو من تدقيقات الحكماء بعد تفسير بعضها بما هو أقرب إلى الفهم قصد الإيضاح وزيادة في الفائدة ، وإن كان تفسيره - كما قيل - لا يناسب هذا الفن ، ولا يسهل على المتعلم ، بل يزيده حيرة (٢)

ومن ذلك أيضا قول عصام الدين بعد أن تكلم عن الحواس والكيفيات والحركات " وأعلم أنه لم يف المصنف بما وعد في ديباجة الكتاب من حذف الحشو والتطويل والتعقيد ، وسها عنه في هذا المقام ، لأن هذه التقسيمات مما لا نفع له في هذا الفن ، بل يوجب تحير الأفهام ، وإيقاع المبتدئين في الظلام . (٣)

اذن فالقدماء أنفسهم أحسوا بما في هذه البحوث من حشو وإقدام على الدراسات البلاغية ، ولكنهم - فيما يبدو - فعلوا ذلك ليشتمسوا ثقافتهم الواسعة وإطلاعهم العميق على أساليب الفلاسفة والمتكلمين .

ولقد كنا ونحن طلاب بالقسم الثانوي في معهد القاهرة الديني نحس بجفاف البلاغة وكتبها ، ونتساءل : أهذه هي البلاغة حقا ؟ وهل يجوز أن يتعلم طالب البلاغة أول ما يتعلم التنافر والتعقيد والغرابة وأن يكون ذلك أول ما ينطبع في ذهنه عن البلاغة ؟ ثم هو لا يجد بعد ذلك - إذا ما أخذ يتعمق في الدراسة - إلا طويلا عقيما ملا يخرج منه في النهاية بأن الخلاف لفظي أو أن الجهد لا يكافئ النتيجة وتبحث عن البلاغة فتجدها هائمة مطمورة تحت هذه الأمواج العارمة من المصطلحات والمحتررات والفرعيات التي لا حصر لها .

(١) المرجع السابق ص ٤١٠

(٢) مواهب الفتاح - شروح التلخيص ج ٣ ص ٣٤٣

(٣) الأول - ٢٧ ص ٧٧

وليس معنى ذلك أننا كارهون لقديم البلاغة ، نريد أن نلقى به ويكتبه في بحر
الظلمات " كلا " فان التراث القديم يستحق منا التقدير والاحترام ، ولكنى لا أعتقد
أبدا أنه يستحق التقديس والعبادة .

والدعوة الى التجديد في البلاغة ليست شيئا حديثا ابتدعناه ، فمنذ القرن
الثالث الهجرى دعا ابن قتيبة الى التجديد وقال قولته المأثورة " ان الله لم يقصر
العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك
مشتركا مقسوما بين عبادة في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره " . (١) .
وفى القرن السادس الهجرى ثار ابن بسام فى أقصى المغرب وشكا من الجمود
وتقليد المشاركة فقال : " وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل
المشرق بالاحسان ، والاحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصور ، وعزيز
على الفضل أن ينكر ، تقديم به الزمان أو تأخر ، ولحق الله قولهم : الفضل للمتقدم
فكم دفن من احسان ، وأخمل من فلان ، ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين
لضاع علم كثير ، ونذهب أدب عزيز " . (٢) .

ولو أمعنا النظر فيما تركه لنا الامام عبد القاهر - طيب الله ثراه - من تراث
بلاغى لوحدناه قد أفسح المجال للتجديد فى البحث البلاغى ، وترك الباب مفتوحا
أمام كل باحث مجدد مخلص ، وكان حريصا على أن يذكر فى أكثر من موضع أن هذا
الجهد الكبير الذى بذله لا يعد الكلمة الاخيرة ، وأنه ليس فى استطاعة أى باحث
مهما أوتى من حول وطول أن يستقصى مسائل الفن البلاغى ، أو أن يدعى لنفسه
العلم والاحاطة بذلك ، أو أن يسد باب الاجتهاد .

ومن ثم رأينا الأستاذ الامام يختم بعض مباحثه البلاغية بما يؤكد هذا المعنى
فمثلا نجد بعد حديثه عن أسرار حذف المفعول يقول : " وليس لنتائج هذا الحذف
أعنى - حذف المفعول - نهاية فانه طريق الى ضروب من الصنعة والى لطائف لا تحصى " .

(١) الشعر والشعراء ص ٧ وانظر " أبو هلال العسكري ومقاييسه النقدية للدكتور

بدوى ص ٥٦ و ٥٧

(٢) الذخيرة ج ١ ص ٢ ط ٣

(٣) دلائل الاعجاز ص ١٢٥ ط دار المعارف ببيروت .

وفى نهاية بحثه للكنائية والتعريف يقول : " وليس لشعب هذا الأصل وفروعه وأمثله
وصورة وطرقه ومسالكه حد ونهاية " (١) وفى حديثه عن العبرة والتفصيل فى هروب
التشبيه والتمثيل يقول : " واعلم أن هذه القسمة فى التفصيل موضوعة على الأغلب
الأعرف والا فدايقه لا تكاد تضبط " (٢)

وهكذا نجد الامام عبد القاهر فى بحوثه البلاغية كان من وقت لآخر يمنحنا
انطباعاً بأن فرصة الكشف عن الجديد مهيأة بل مألوفة .

ان الزمان لم يعقم ، وان الحياة لا تزال خصبة مشرة ، وان الطبيعة لم ينقطع
عطاؤها بعد ، وما يزال فى أمة الاسلام خير كثير ، وما زال بين علمائها وأدبائها من
يستطيع التجديد والتطوير .

وقد وجدت عدداً غير قليل نادى بتجديد البلاغة ، ووضع معلّم لهذا التجديد
من هؤلاء الشيخ أمين الخولى والشيخ عبد العزيز البشرى ، والأساتذة احمد
الشايب واحمد حسن الزيات وأنيس المقدسى ، والدكاترة : احمد بدوى وعلى العمارى
وعبد الرزاق محي الدين وأحمد مطلوب وعلى عبد الرزاق وبدوى طابانة وحفنى شرف
ومحمد نايل وكامل الخولى وغيرهم ، كما وجدت فى تقرير لجنة المعارف المصرية
تخطيها كاملاً لمنهج جديد للبلاغة . وقد عرضت كل ذلك ناقداً ومفنداً كما عرضت
لمعركة البلاغة التى قامت على صفحات الرسالة وبينت مالها من قيمة وأثر وكيف أنها
أثارت قضية التجديد من جديد .

ولأن بلاغتنا الحبيبة تعرضت فى العصر الحديث لهجوم ظالم خبيث باسم
الاصلاح والتجديد فقد عقدت باباً عن البلاغة بين الدفاع والهجوم وأوضحت وجه
الخطأ والصواب فى كل .

ولأن اعجاز القرآن هو الهدف الاسمى من أهداف البلاغة وغاياتها فقد عقدت
الباب الاخير لبيان ما حد من آراء فى أوجه الاعجاز .

(١) المرجع السابق ص ٢٤١

(٢) أسرار البلاغة ص ١٤٦ ط ه المنار .

وانى لأمل أن أخرج من هذه الدراسة بمنهج جديد صالح لبلاغتنا الحبيبة
 بيرز جمالها ، ويرضى عشاقها ، ويسعد دارسيها ، ويعيد اليها قدرها ومكانتها .
 وانى لأعلم أن طريق البلاغة طريق شائك مهجور ، يسير فيه علماء البلاغة وحدهم
 بلا أضواء ولا جمهور ، ومع ذلك فقد اخترت هذا الطريق ، لأنى منذ صباى أحببت
 البلاغة ، وأعجبت بأساليب البلغاء ، وحفظت مختارات منها . وعندما أخذت فى
 دراسة البلاغة صدمت كما صدم الآخرون بكتبها ومناهجها ، ووجدنا فرقا كبيرا بين
 البلاغة التى نحسها ونحسها وبين هذه الكتب التى ندرسها ، والتى ان صح أنها
 ملحت لعصرها فهى بالتأكيد لا تصلح لعصرنا .

ولقد هاجم بلاغتنا من هاجم ، وأيدها من أيد ، وأضاف اليها من أضاف ،
 وانتقى منها من انتقى ، فكان لابد من وقفة نعيد فيها النظر ، ونجلى رأى ،
 ونشخص الداء ، ونستقصى الحقيقة ، ونعرض على بساط البحث ماجد من آراء وبحوث
 ومناهج ، علنا بذلك نستطيع أن نتبين الترشد من الخفى فى تجديد بلاغتنا ، وما
 يجب أن تكون عليه فى العصر الحديث .

من أجل كل ذلك كان هذا البحث :

" التجديد فى علوم البلاغة فى العصر الحديث " .

وانى لأتقدم بوافر الشكر ، وجزيل التقدير ، الى أستاذى الفاضل الدكتور على
 العمارى ، على ما بذله معى من جهد مخلص فى الاشراف على هذه الرسالة .
 وقد كان لتوجيهاته القيصة ، وملاحظاته الدقيقة ، ومناقشاته العميقة ، وارشاده
 ايباى الى كثير من المراجع ، كان لكل هذا الأثر الكبير فى استواء هذا
 البحث ، وأداء هذه الرسالة .

والله أسأل أن يوفقنا لخدمة ديننا ولغتنا وبلاغتنا . انه سميع مجيب .

التمهيد

نشأة البلاغة وتطورها
مدارسها وخصائصها
صلة البلاغة بالمعلوم الأخرى
نضوجها على يد الإمام عبد القاهر
استقلالها على يد السكاكي
جمود البحث البلاغي بعده
حاجة البلاغة إلى التجديد

من الأسس الهامة التي يقوم عليها هذا البحث بيان وتقييم ما وصلت اليه البلاغة العربية في العصر الحديث من تطور وتحديث .
ولكى نحقق هذا الهدف كان علينا أن نعرض بادئ ذي بدء لنشأة البلاغة وتطورها على مر العصور ، حتى يمكننا أن نكشف عما صاحبها من تطورات ، وما جد عليها من تعديلات وإضافات . فالتحديث ومعرفة الجديد يحتاج كل منهما الى معرفة القديم .

وإذا كنا نريد أن نتحدث عن نشأة البلاغة وتطورها ، فعلينا أن نأخذ من أول التاريخ العربي ، من العصر الجاهلي ، حيث وجد لدينا - نحن العرب - هذا الحشد الهائل من القصائد والأشعار التي حفلت بأيام العرب وتاريخهم .

وإذا تأملنا في الأدب الجاهلي وتاريخه وجدناه حافلا بالملاحظات النقدية التي كانت (من أهم العوامل في إيجاد البلاغة ، وذلك أن هذه الملاحظات والأحكام النقدية أفادت جماعة العلماء فأحوالوها قوانين وأصولا ، ودونوها في فصول مخططة بالنقد حينها ، ومنفصلة أخيرا حتى كانت أساسا صالحا لتكوين قواعد بلاغية قامت بوظيفتها فيما مضى) (١) .
(ويمكن أن يستدل الباحث على أن العرب عرفوا كثيرا من الأحكام النقدية في العصر الجاهلي بأمرين :

الأول : عقلى لا يمكن إنكاره ، وهو أنه لا يصدق أن الشعر وصل الى ما وصل اليه في تلك الفترة ، وأن الخطابة بلغت ذروتها ، وأن اللغة أخذت صورتها ، من غير أن يكون هناك عقل مدبر لذلك ، ومن غير أن تكون هناك أصول عامة تعارف عليها الشعراء والمتكلمون ، وساروا عليها فيما نظموا أو قالوا . ومهما تحدث الباحثون عن السليقة العربية الصافية والذوق السليم ، ومهما وصفوهم بالفطنة والذكاء ، فإن العقل لينكسر أن يكون ما كان من غير ثقافة ودربة ، وقواعد تضيء لهم الطريق وتفتح أمامهم سبل القول .

الثاني : نقلى ، وهو ما أثر عنهم ، وما جاء عن خطابهم ووصف خطابهم .

وقد كان الخطباء يعترّون ببيانهم ويفخرون بأنفسهم . ولما دخل ضمرة ابن ضمرة على النعمان بن المنذر زرى عليه للذى رأى من دمايته وقصره . وقلته ، فقال النعمان : " تسمع بالمعدي لا أن تراه " فقال ضمرة : " أبيت اللعن ، ان الرجال لا تكال بالققران ، ولا توزن بالميزان ، وليست بمسوك تستقى وانما المرء بأصغريه : بقله ولسانه ، ان حال حال بجان ، وأن قال قال ببيان " (١) . وكان ضمرة خطيبا فارسا شاعرا شريفا سريدا ، وكان يحكم وينفر بالأسجاع . قال الجاحظ : " ان ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن عابس ونفيل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع وكذلك ربيعة بن حذار " (٢) (٣٠٠٠) (٣)

وعلى هذا فيمكننا أن نطمس بذور البلاغة الأولى فى مناظرات الشعراء الحاهلين وأحاديتهم ، وخاصة فى أسواقهم الشهيرة مثل : سوق عكاظ ، ومجنة ، وذى الحجاز . حيث كان الحكام الحكماء وكبار الشعراء يتصدرون مجالس الحكم ، وينقدون الشعر ، ويحكمون للجيد بجودته ، وللردئ بردائه . ومن تلك الأحكام النقدية والملاحظات الفطرية التى تعتمد على الذوق العربى الأصيل بدأت تتكون البلاغة فناً ميلا بين فنون اللغة العربية يعتاز بذكاء الناضرة وحال الفكرة .

من ذلك ما روى عن النابغة الذبياني أنه جلس مرة فى سوق عكاظ فتتابع عليه الشعراء ينشدون بين يديه أجود أشعارهم وما أن سمع النابغة قصيدة الأعشى حتى قضى له . ثم جاءت بعده الخنساء فأنشدته رايتها التى ترش بها أخاها صخر ، والتى تقول فيها :

وان صخر لمولانا وسيدنا وان صخر اذا نشتلنحار
وان صخر لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٧١

(٢) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٩٠

(٣) مناهج بلاغية : د . مطلوب - ص ٢٠ و ٢١

فيحب النابغة بقولها ويقول لها : (لولا أن أبا بصير أنشدني آنفا لقلت
 أنك أشعر الحن والانس) ، ويسمع حسان هذا الحكم على الخنساء
 فتأخذه الغيرة ، ويذهب به الغضب ، فيقول للنابغة : أنا والله أشعر منها
 ومنك ومن أبيك . . فيقبل عليه النابغة فيسأله : (حيث تقول ماذا ؟) . .
 فيقول حسان حيث أقول :

لنا الحففات الغر يلعبن بالضحى

وأسيافنا يقطرن من نعدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محسرق

فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابننا

لكن النابغة لا يعجبها هذا التصوير من حسان فيقول له : أنت شاعر ،
 ولكنك أقللت من جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك
 وقلت يلعبن بالضحى ولو قلت يبرقن بالدمى لكان أبلغ في السديح لأن
 الضيف في الليل أكثر ، وقلت يقطرن من نعدة دما ولو قلت يحترقن لكان
 أكثر لصباب الدم . ولن تستطيع أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن قلت أن المنتأى عنك واسع (١) .

وسواء صحت هذه الرواية أم لا فإنها على أية حال تعطينا صورة عما كان
 يجري بين الشعراء في ذلك العصر من مساجلات أدبية ونقدية كانت نواة
 لما ظهر بعد من اصطلاحات البلاغية المعروفة .

ومن ذلك أيضا ما روى عن طرفة بين العبد أنه لاحظ على المتطمس -
 أو المسيب بن عيسى - أنه وصف في بعض شعره البعير بوصف خاص بالناقة
 قال سائرا : " استنوق الجميل " . وهذا البيت هو :

وقد أتتاسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

وذلك أن الصيعرية سمة تكون في عنق الناقة لا في عنق البعير (٢) .

(١) الأغاني ٣٤٠/٩ طبع دار الكتب .

(٢) الأغاني (طبع الساسي) ١٣٢/٢١ وتاريخ النقد الأدبي عند العرب

ت/ طه احمد ابراهيم ص ١٣ طبع بيروت .

(هذا وقد وصف العرب كلامهم في أشعارهم كبرود العصب وكالحلل والمعاطف والدباج والوشى وأشتباه ذلك . (١))
 كما وصفوا شعراءهم وأضافوا عليهم ألقاباً ، ولأمر يتعلق بمكانتهم أطلقوا عليهم تلك الألقاب : كالمهمل والمرقش والأفوه والناخبة وغيرها . وهذه الأوصاف تتصل بأحكامهم النقدية وبذوقهم الذي ميزوا فيه بين شاعر وشاعر وكان بعض الشعراء في الجاهلية يعنون بأشعارهم وينقحونها قبل أن يذيعوها بين الناس ، وقد اشتهر زهير بن أبي سلمى بالحوليات ، وتبعه في ذلك الحطيئة وغيره ممن اهتموا بتنقيح الشعر وتحويده . وكان الحايثة يقول : " خير الشعر الحولى المحكك " ، وقال الأصمعي : " زهير بن أبي سلمى والحايثة وأشباههما عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين " (٢))

ان وقوف الشعراء عند قصائد هم لينقحوها ويعيدوا النظر فيها يدل على الروح النقدية التي كان الشاعر نفسه يمارسها قبل أن ينقده السامعون ذلك ومثله ما يتخلل ثنايا أدبنا الجاهلي يدلنا على أن الشعراء كانوا يدققون في اختيار الألفاظ والمعاني والصور ، وكانوا يبدون أحياناً ملاحظات نقدية ذكية مهدت لظهور البلاغة وبروزها الى عالم الوجود . هذا الى أن أشعار العرب تزخر بالتشبيهات والاستعارات وتتناثر فيها بين الحين والحين ألوان من المقابلات والحنايات مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعنون عناية واسعة بإحسان الكلام على وجهيه الحقيقي والمجازي قبل أن يعرفوا الحقيقة والمجاز بالمعنى الاصطلاحي بزمان طويل

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٢٢٢

(٢) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٧٨

(٣) مناهج بلاغية : ص ٢١-٢٣ بتصرف .

وقد أستدل الجاحظ على أن العرب في الجاهلية قد عرفوا عيوب
البلاغة والخطابة فقال : (وكلام الناس في طبقات ، كما أن الناس أنفسهم
في طبقات ، فمن الكلام . الحزل والسخيف والمليح والحسن والقيبح
والخفيف والثقيل ، وكله عربي ، وكل قد تكلموا ، وكل قد تمارحوا وتعايوا
فان زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل ، ولا بينهم في ذلك تفاوت ،
للم ذكروا : العيب (١) والبكى (٢) والحصر (٣) والفحم (٤) والخطل (٥) والمسهب (٦)
والمتشدد (٧) والمتفهيق (٨) والهماز والمهماز (٩) والشرثار والمكثار (١٠) وقالوا :
رجل تلقاة (١٠) وطماعة (١١) وفلان يتلهمع في خطبته ، وقالوا : فلان يخطئ
في جوابه ويحيل في كلامه ويناقض في خبره ، ولولا أن هذه الأمور قد
كنت تكون في بعضهم دون بعض لما سعى ذلك البعض والبعض الآخر بهذه
الأسماء (١٢) .

فالعرب في الجاهلية كانوا اذن - كما يرى الجاحظ - يحسون بفطرتهم
مواضع البلاغة ، ويستعملونها دون تفهيم أو تعريف .

-
- (١) العيب : من عيب أى حصر في النطق ولم يستطع المضي فيه . المنجد ص ٥٤٢
(٢) البكى : كثير البكاء .
(٣) حصر حصرا : عيب في النطق ، وأمله من الحصر أى التضييق . المنجد ص ١٣٧
(٤) فحم فحما : لم يستطع جوابا . المنجد ص ٥٧١
(٥) خطل خطلا : واخطل في كلامه ، أتى بكلام كثير فاسد ، والخطل : الخطأ
يقول الشاعر : أمالة الرأي صانتني من الخطل . والخطل الأحمق . المنجد
ص ١٨٧ .

- (٦) أسهب الكلام في الكلام : أطال فهو مسهب . المنجد ص ٣٥٩
(٧) شدد شدا : اتسع شدة فهو أشدد ، تشدد : لوى شدة للتفصح ، وتشدد :
استهزا بالناس يلوى شدة بهم وعليهم . المنجد ص ٣٧٩
(٨) همزه : غمزه وغمضا ونخسه ودفعه واغتابه فهو هماز وهمزة ، وهمز الفرس نخسه
بالمهماز ، والهماز والهمزة ، الخياب والعياب والطعان . المنجد ص ٨٧٣
(٩) المكثار : الكثير الكلام (للمذكر والمؤنث) منجد ص ٦٧٤
(١٠) تلقع بالكلام : رمى به رميا ، والتلقاة : العيبة الطبق للناس - والكثير الكلام
والأحمق . منجد ص ٧٣٠
(١١) لهع في الكلام : تشدد ، والطماعة : الغفلة . منجد ص ٧٣٦
(١٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١١٠ تحقيق حسن الندوى .

وذكر أبو هلال العسكري أن القدماء أشاروا إلى الفصل والوصل في الكلام قال : " وكان
أكرم بن عيسى إذا كاتب طوك الأهلية يقول لكتابه : افصلوا بين كل معنى منقنسين ،
وصلوا إذا كان الكلام معجونا بعبءه ببعض ، وكان الحارث بن أبي شمر الغساني يقول
لكتابه المرقش : إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين
تبعيته من الألفاظ ، فانك إذا حذفْتَ الفاظك بغير ما يحسن أن تحذف به نفرت القلوب
عن وعيها ، وطمته لأسماع ، واستثقلت الرواة " (١)

وشك بعض الباحثين في هذه الروايات فقال الدكتور جميل سعيد : ونحن نستبعد
أن يكون عند العرب هذا النوع من النقد الذي يرويه الرواة ، لأننا لا نعرف لهم شيئا
به في ذلك العصر . وقد رأينا نقدهم للقرآن الكريم فما رأينا فيه مثيلا له ، ونرجح أن
يكون هذا من إضافات النقاد في القرن الثالث الهجري أو نحوه ، يوم نما النقد ونمت
بذرة البلاغة (٢)

سنا مع هذا الشك نقرر أن هذه الروايات تعكس أنها من فهم العرب للنقد في
المرحلة الأولى ، وليس بعيدا أن تصدر مثل هذه الأحكام في الجاهلية بعد ما رأينا
من الدلائل التي تؤيد ذلك . هذا بالإضافة إلى أن هذه الروايات ليس فيها التعديل
القائم على النارة العلمية لكي ننكرها فما هي الأحكام عابرة أطلقها الشعراء والمحكمون
معتمدون على الذوق الفطري الذي عرف به العرب (٣) . وليس في تلك اللحظات النقدية
شيء غريب عن البيئة التي قيلت فيها ، بل إنها أشبه ما تكون ببيئة الجاهليين الذين
لم يكن لديهم من أسباب الحضارة واللوان الثقافية ما يسمح لهم بمحاولة تأييد الرأي
بالملة المعقولة والدليل الواضح (٤)

وقد ورد أن شعراء اليونان القدماء كانوا يصدون بعض الأحكام النقدية التي تعبر
عن رأي ذاتي أبعد ما يكون عن القاعدة العلمية (٥) فلم نستبعد ذلك عن العرب وهم
أهل الذوق الرفيع والشعر البديع .

مناعتين ص ٤٤٠

(١) دروس في البلاغة وتطورها ص ١٠ وتاريخ النقد الأدبي عند العرب للمرحوم

طه أحمد إبراهيم ص ١٩

(٢) انظر مباحث بلاغية ص ٢٧ وما بعدها .

(٣) دراسات في نقد الأدب العربي . د . طهانه ص ١٢٢

(٤) النقد الأدبي عند اليونان - د . صقر خفاجه ص ١٢

كان ذلك في العصر الجاهلي . . فلما أرسل الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا وشيئا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، وايده بمحذرة بيانية كبرى هي القرآن الكريم . . أنزله بلسان عربي مبين فأخرس بفصاحته فصحاء العرب ، وأنزل ببلاغته فرسان البلاغة ، وحاول أمراء البيان وسادات القوافي أن يأتوا بمثله ، أو بسورة من مثله ، أو حتى بآية من مثله (١) فما استطاعوا وعجزوا عن محاراته ومعارضته ، وعجز عليهم عجزهم وفشلهم فقالوا : هو شعر أو كهانة أو سحر ، ولو كان شيئا من ذلك الذي قالوه لاستطاعوا أن يأتوا بمثله . (٢)

وقصة الوليد بن المغيرة عندما ذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع منه شيئا من القرآن . . عاد الى قومه بوجه غير الوجه الذي ذهب به وقال لهم : خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه . ولما سأله قال : * والله لقد سمعت من محمد أنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن والله ان له لحلاوة ، وان عليه لحلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمفدق ، وانه يعملو ولا يعمل على عليه ، وفي رواية : وما هو بقول بشعر . (٣)

وتعطينا هذه القصة صورة صادقة عما كان يفعله القرآن الكريم في نفوس العرب عندما كانوا يسمعون شيئا منه ، وما ذلك الا لما فيه - بدانيب المعنى والمضمون - من بلاغة وفصاحة بلغا حد الاعجاز .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الحباس سأله ، فقال : يا رسول الله فيم الجمال ؟ قال صلى الله عليه وسلم : * في اللسان * (٤)

(١) من الذين حاولوا تقليد القرآن الشاعر أمية بن أبي الصلت ومسيلمة الكذاب فمن قول الأول : * انا أعطيناك العمق ، فصل لربك وأزغ . ان شائناك هو الحصان الأملق .

(٢) وهناك مذهب " الصرفة " الذي يقول بأن العرب البلغاء كان بإمكانهم محاربة القرآن لشدة فصاحتهم لكن الله صرفهم عن ذلك فلم يأتوا بمثله . وعلى ذلك فمذهب " الصرفة " يرى أن القرآن ليس بمعجز حيث كان في الامكان أن يقلد . ويحارب لولا أن الله صرف البلغاء عن ذلك . لكن ثبت على مر الدهور والعصور أن القرآن الكريم معجز بلفظه ومعناه بشكله ومضمونه وسيظل معجزا الى يوم الدين . هذا وسوف نعود الى الخوف في هذا الموضوع بتفصيل عند الحديث عن (قضية الاعجاز) .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٦٩ - ٥٧٠ تحقيق واختصار محمد الصابوني .

(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٤ .

ولاشك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يريد بجمال اللسان بلاغته وحسن حديثه . فقد ذكر صاحب البيان والتبيين : أن النبي عليه السلام كان في التكلف في القول والاعراب في البيان . وله الأحاديث الكثيرة التي تؤيد ذلك . منها قوله صلى الله عليه وسلم : " أن الله يخفض البليغ الذي تخلل (١) بلسانه كما تتخلل الباقرة (٢) بلسانها " ، وقال : " إياي والتشادة وقال : " أبفضكم إلى الثرثارون المتفهبون " . ثم قال الجاحظ بعد إيراد هذه الأحاديث : (وعاب رسول الله الفدادين (٣) والمتزبدون في جهارة الصوت ، وانتحال سعة الأشداق ، ورحب الغلاهم (٤) ، وهذا الشفاء . . .) (٥)

هذا وكان الرسول عليه السلام يراعى في كتبه إلى الطوبى والقبائل مطابقة كلامه لمقتضى الحال . فقد ذكر صاحب البيان والتبيين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس كتب اليهم بما يمكن ترجمته فسهل الألفاظ غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة بالعربية . . ولكن لما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب فغم اللفظ لما عرف من فضل قوتهم على فهمه وعادتهم لسماع مثله . وذلك مثل كتابه لوائل بن حجر الحضري . (٦)

-
- ١١١ خل الشيء : ثقبه ، وخلل بينهما : فرج ، وتخلل القوم : دخل بينهم . وتخلله بالرمح : طعنه طعنة اثر أخرى . . . المنجد ص ١٩٠
- (٢) بقره بقرا : شقه . . . والبقر والبقارى : الكذب الداهية . المنجد ص ٤٤
- (٣) فد الرجل : رفع صوته . منجد ص ٥٧٢
- (٤) الغلصمة : رأس الحلقوم ، وهو الموضع الناتق في الحلق . المختار ص ٣٧٦
- (٥) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨٤
- (٦) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٥ ، والمناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ص ١٦٠ و ١٦١

وعلى نهج الرسول الكريم في البلاغة والبيان سار الخلفاء الراشدون من بعده . . . فأبو بكر الصديق رضى الله عنه كان يفاضل بين الشعراء . . . ويروى أنه كان يفضل النابغة ويقدمه على غيره من الشعراء ويقول : هو أحسنهم شعرا ، وأعذبهم بحرا ، وأبعدهم قصرا . (١)

ونلاحظ من أسلوب أبى بكر السابق أنه يتحدث عن البلاغة بأسلوب بليغ .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان هو أيضا يفاضل بين الشعراء وكان يفضل زهير بن أبى سلمى ، لأنه لا يعاظم فى الكلام ، ولا يتبجح حوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه . (٢) وكان رضى الله عنه يوجه الشعراء فى القول ، ويدلهم على مواطن الصواب ، حتى قال له الحطيئة : أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى بمذاهب الشعر . (٣)

ويتضح من كلام عمر فى الشعر والشعراء أن البلاغة عنده : تحسن التعقيد ، وترك الغريب والوحشى ، والبعد عن المبالغة والكذب .

أما على كرم الله وجهه فكان من أنصار السهولة فى التعبير فعرف البلاغة بأنها : إيضاح المطبىس بأسهل عبارة . (٤)

وقريب من هذا التعريف قول الحسن بن على رضى الله عنهما : البلاغة تقريب بعيد الحكمة بأسهل العبارة . ومثله قول محمد ابنه : البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ . (٥)

هذا وكان على يفخر بالفصاحة ، ويعدها من خصائص قريش . وقد روى عنه قوله : ما رأيت بليفا قط إلا وله فى القول إيجاز ، وفى المعانى إطالة (٦)

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٩٥ تحقيق محمد محبى الدين .

(٢) المرجع السابق ص ٩٨

(٣) المرجع السابق ص ١٧٠

(٤) الصنائع ص ٥٨

(٥) المرجع السابق

(٦) المرجع السابق

ما تقدم نستطيع القول بأن البلاغة في العصر الاسلامي الأول (عصر صدر الاسلام) لم يدون لها علوم ، ولم توضع لها مصطلحات ، وأنهم ما زالت عبارة عن مجموعة من الملاحظات والتوجيهات النقدية النابعة من ذوق عربي سليم .

وإذا ما انتقلنا الى العصر الاسلامي الثاني (العصر الأموي) نجد طمسين كبيرين بارزين برزا في ميدان الكتابة والأدب ، وكان لهما في مجال البلاغة فضل لا ينكر . . هما :

• عبد الحميد الكاتب • و • ابن المقفع •

أما عبد الحميد : فكان زعيم الكتاب في عصره ، وصاحب مذهب منفرد في البلاغة والبيان ، وهو أول من خطا بالنثر الفني خطوة واسعة السبي ميدان الأدب الفسيح ، وأول من عنى بالمحسنات اللفظية واستعملها بركة وبراعة فائقة ، وكانت طريقته في الكتابة مدرسة سار عليها الكتاب من بعده الى عهد ابن العميد . ولذا قيل : (بدت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد) .

وأما ابن المقفع : فقد تأثر بالثقافة الأجنبية الفارسية ما جعله يعيل في كتابته الى الاسباب والاطناب والتحليل والتفريع . ولعله أول من شرح البلاغة وفسرها تفسيراً فنياً الى حد ما . قال اسحق ابن حسان : (لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع احد قط . سئل : ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة . . فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعا وخطباً ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون في هذه الأبواب الوحي فيهم والإشارة الى المعنى . والاحراز هو البلاغة . فأما الخطاب بين السماطين وفي اصلاح ذات البين ، فالأكثر في غير خطب ، والاطالة في غير ملل ، وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي اذا سمعت صدره عرفت قافيته)^(١)

ويخلص لنا من ذلك أن البلاغة عند ابن المقفع هي : الإيجاز في موضعه والاطّاب في موضعه ، والمعرفة بسياسة القول ، والمطابقة بين الكلام ومقتضى الحال . وكأن جرثومة التعريف الاصطلاحي نشأت عند ابن المقفع .^(١)

وبعد ذلك بحوالى قرن من الزمان ظهرت طائفة من العلماء أطلق عليهم : " علماء الكلام " . اتجه هؤلاء العلماء الى دراسة اعجاز القرآن الكريم وما يقوم عليه من ظواهر بلاغية ، وصارت معرفة البلاغة أمرا دينيا كلاميا يقرر حجة الله في عقول المتكلمين كما يقول عمرو بن عبيد في القرن الثالث الهجرى .^(٢)

أخذ علماء الكلام يشتغلون بالابحاث البلاغية فظهرت على أيديهم أوليات الاصطلاحات البلاغية . يقول ابن تيمية : (وإنما هذا - يقصد تقسيم الكلام الى حقيقة ومجاز - اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين ، فانه لم يوجد هذا في كلام أحد من أهل الفقه والأصول والتفسير والحدِيث ونحوهم من السلف . . .)^(٣)

وكانت مدرسة المتكلمين جدلية برهانية ، تستعين بالأبحاث الفلسفية ، وتتسلح بالمنطق ، وترجح جانب المنهج النظري العقلى ، وتتناول مسائل البلاغة تناولا منطقيا عقليا استدلاليا .^(٤)

(١) البلاغة العربية في دول نشأتها ص ١٠٧

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٩٠

(٣) الايمان : لابن تيمية ص ٢٥

(٤) محاضرات في البيان العربى : ص ١٠ للدكتور يوسف البيومي / طبعة ١٩٦٥

وكان بشر بن المعتز واحداً من هؤلاء المتكلمين الذين انتهت اليهم زعامة المعتزلة ببغداد ، يشتمع بثقافة واسعة ، وعقل نافذ وزوق حساس وصحيفة بشر^(١) في البلاغة مشهورة حاول فيها أن يوضح معالم وأسس صناعة البيان . وما يهمنا في هذه الصحيفة يتلخص في نقطتين تناولهما بشر في حقيقته :

اللفظ والمعنى : فكل عين وغرة من الكلام " لفظ شريف ومعنى بديع " ، والتعقيد هو الذي " يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريماً فليتمس لفظاً كريماً ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهينهما " .^(٢)

من هذه المبارات نستنبط أن بشراً يسوى في المنزلة بين اللفظ والمعنى ، ناكل منهما حقه في وجوب العناية والرعاية ، وهو يحكم على الأدب بقدر اجادته فيهما معاً . وتلك هي النظرة المثلى الى الفن الأدبي ، وما يجب أن يراعى فيه من جودة اللفظ والمعنى معاً ، وتناسق كل منهما مع الآخر .

مطابقة الكلام لمقتضى الحال : وفيه يقول بشر : " ان مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال " .^(٣) ويقول : " وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حال من ذلك مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات " .^(٤)

- (١) راجع نص صحيفة بشر في البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٤ - ١٠٧ ، والعمدة لابن رشيق ج ١ ص ٢١٢ - ٢١٤ ، والصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٤٠ - ١٤١ .
- (٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٦ .
- (٣) المرجع السابق .
- (٤) المرجع السابق ص ١٣٩ .

وهاتان النقطتان - اللفظ والمعنى ، ومقتضى الحال - من أهم ما تدور حوله الدراسات البيانية ، وحد يث بشر عنهما فى صحيفته يلفت نظرنا الى نقطة هامة ، هى أن الدراسات البيانية وضع أساسها ، وأبان أول معالمها المتكلمون .

ويرى الأستاذ أحمد أمين أن صحيفة بشر تشتمل على " أسس البلاغة " ، وقد كتبها بشر قبل أن يؤلف " البيان والتبيين " لأن الجاحظ نقلها عنه ، ولأن بشرا نضج قبل نضوج الجاحظ ، ومات قبله ينحو خمس وأربعين سنة ، فان بشرا مات سنة ٢١٠ هـ ومات الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ ، ولا نعلم قبل بشر من تعرض لوضع هذه الأسس ، فلو أسميناه مؤسس علم البلاغة لم نبعد (١) وفى هذا الكلام نظر ، فقد بينا منذ قليل فى الصفحات السابقة أن " عبد الحميد الكاتب " و " ابن المقفع " كان لهما سهم كبير فى ارساء أوليات البلاغة وخاصة ابن المقفع . كما ذكرنا فى الصفحات الأسبق الدعوة الصريحة فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين الى مجانية التكلف وترك التعقيد ومراعاة مقتضى الحال . وكذلك نلاحظ أن ابن المقفع قال ما هو أدخل فى باب البحث البلاغى مما قاله بشر .

وقد وضع الدكتور سيد نوفل صحيفة بشر فى إطارها الصحيح ، ولم يؤيد ما ذهب اليه الأستاذ أحمد أمين . . فقال : " ولكنى لا أستطيع أن أذهب مذهب الأستاذ أحمد أمين . . فلكى نحكم بجدّة قول بشر فى تاريخ البلاغة ، يجب أن نعلم أولاً قول ابراهيم بن جبلة الذى اعترض عليه بشر ، وربما كان أدخل فى البحث البلاغى منه ، ويجب أن نعلم كذلك ما كان يقوله غير ابراهيم من المعلمين لتلاميذهم ، وتوجيهات عبد الحميد الكاتب وسهيل بن هرون وكتابه : معانى القرآن والخطاب فى التوحيد والعدل ، وغيرهما من الكتب التى لم تصلنا ، فتاريخ البلاغة مملوء بالمجهولات ، والقول بأن فلانا مؤسس علم البلاغة لا يقوى أى باحث على تحمل عبئه .

على أنى لست بحاجة الى الاحالة على مجهول ، فقد رأينا الدعوة الى
مجانبة التكلف والتعقيد والى مراعاة مقتضى الحال فى كلام النبى والصحابه
والتابعين ، ورأينا أن ابن المقفع قد قال ما هو أدخل فى باب البحث
البلاغى من هذا ، وقيل عنه ان أحدا لم يفسر البلاغة تفسيره اياها ، وأنه
قد وجه الكتابة العربية توحيدا حديدا ، وابن المقفع توفى سنة ١٤٢ هـ .
وهذا أبو عبيدة قد عامر بشرا وعاش نحو مائة سنة وتوفى قبله بعامين ،
وألف فى مجاز القرآن وتحدث فى التشبيه والاستعارة ، وبشر توفى والجاحظ
فى الستين من عمره . فالقول بأن الجاحظ لم ينضج وقت هذا القول ليس
له ما يثبت به وخاتمة أن هذا القول جاء فى كتاب البيان والتبيين وهو من
آخر مؤلفات الجاحظ ^(١) .

وبعد بشر بن المعتمر يطالعنا على الطريق شيخ العربية وامها وعلم
القرن الثالث الهجرى أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فقد ترك لنا ثروة
 ضخمة من أثنائها كتابه " البيان والتبيين " .

فى هذا الكتاب تعرض الجاحظ لموضوعات البيان والفصاحة والبلاغة ،
ولم يكن لأحد من هذه الألفاظ مدلول خاص يميز كلا منها عن الآخر ، وعرف
البلاغة عند الأمم المختلفة من فرس ورومان ويونان وهنود ^(٢) ، ونقل أقوالا
كثيرة فى البلاغة وعلق على بعضها شرحا وتعليقا . من ذلك قوله : (حدثنى
صديق لى قال : قلت للعتابى : ما البلاغة ؟ قال كل من أفهمك حاجته من غير
اعادة ولا حبة ولا استعانة فهو بليغ) ^(٣) ثم قال بعد شرح وتوضيح : وانما
عنى العتابى افهامك كلام العرب حاجتك على مدارى كلام العرب الفصحا .

(١) انظر البلاغة العربية فى دور نشأتها ص ٨٨ و ٨٩

(٢) البيان والتبيين - ج ١ ص ٨٨

(٣) البيان والتبيين - ج ١ ص ١١٣

وأثار الجاحظ في كتابه هذا بعض التضايح البلاغية العامة : كالعيوب اللسانية ، ونسبه الى وجوب مراعاة مقتضى الحال ، وقسم الكلام الى طبقات والناس الى طبقات كذلك فقال : (وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا ، الا أن يكون المتكلم بدويا اعرابيا ، فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقى رمانسة السوقى ، وكلام الناس فى طبقات ، كما أن الناس أنفسهم فى طبقات ، فمن الكلام : الجزل والسخيف والمليح والعحسن والقبيح والخفيف والثقيل ، وكله عربى ، وكل قد تكلموا ، وكل قد تمارسوا وتعايخوا)^(١)

وهكذا نجد الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) تعرض لكثير من فنون البلاغة ، وعرضها عرضا رائعا يمتاز بالجمع بين التوضيح النطرى والنوزج التابيقى ، فذكر البديع والايجاز وعرض للاناب والازدواج والسجع والمجاز والتشبيه ، وله مع كل منها فقرة رائعة ولمحات ذكية .

وفى كتابه (الحيوان) وقفات أخرى فى الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة لا تقل روعة وذكاء عن وقفات فى البيان والتبيين .^(٢)

والواقع أن الجاحظ لم يختر فى كتابته أسلوب التعريف والتحديد ، وانما اختار أسلوب الأدب البليغ الذى ينطلق مع عقله وذوقه وفطنته ، فكان يستعرض النصوص الأدبية ويشرحها مستهدفا الوصول الى مواطن الجمال فيها مستعينا على ذلك بالشواهد الكثيرة من القرآن الكريم ومن كلام العرب .

(١) البيان والتبيين - ج ١ ص ١٤٤

(٢) انظر كتاب الحيوان : ج ٥ ص ٢٣ و ٢٥ و ٢٨ و ٣٩ و ٤٢٥

وقضى ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف (١) ان الملاحظ قد ألم فى كتاباته الصور البيانية المختلفة ، وسكّير من فنون البديع ، غير أنه لم يستق ذلك فى تعريفات وتحددات ، فقد كان مشغولاً بإيراد النماذج البلاغية ، وقلمها عنى بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التى يقررها (١) ، على أن عزوف الملاحظ عن المصاحات والتعريفات لم يمنع من جاءوا بعده من الكتاب أن يستخرجوا من كتاباته عن البلاغة كثيراً من الاصطلاحات والتعريفات ،

يقول الدكتور ضيف : (وقد ظلت كتابات الملاحظ وملاحظاته فى البيان والبلاغة معينة لا ينفذ لمد الأحيال التالية بكثير من قواعدهما ، كل يستمد منها حسب قدرته الذهنية) (٢)

ثم يقول : (ولعلنا لانبالغ اذا قلنا بعد ذلك كله : ان الملاحظ يعد - غير منازع - مؤسس البلاغة العربية ، فلقد أفرد لها لأول مرة كتابه " البيان والتبيين " ، ونشر فيه كثيراً من ملاحظاته وملاحظات معاصريه ، وتعمق وراء عصره ، فدكى آراء العرب السابقين ، والتمس آراء بعض الأجانب أو قل سجلها وقد مضى ينثر فى كتابه " الحيوان " تحليلات لبعض الصور البيانية فى الذكر الحكيم . وليس من شك فى أن كتابه المفقود الذى صنفه فى نظام القرآن كان يشتمل على كثير من ملاحظاته البلاغية . وهو حقا لم يكن يعنى بوضع ملاحظاته فى شكل قوانين محددة بالتعريفات الدقيقة ، ولكنه صورها فى أمثلة متعددة بحيث تمثلها من خلفه تماثلاً واضحاً) (٣)

(١) البلاغة تأور وتاريخ : ص ٥٦

(٢) البلاغة تأور وتاريخ : ص ٥٧

(٣) البلاغة تأور وتاريخ : ص ٥٧ و ٥٨

وقد شارك الدكتور سيد نوفل الدكتور غيف رأيه في أن الجاحظ هو مؤسس علم البلاغة فقال: (يعد الجاحظ في رأي مؤسس علم البلاغة العربي ذلك بأنه قد جمع ما يتصل به من كلام سابقين وملاحرين ، وشرحه وأضاف إليه . . .) ^(١)

هذا بينما نرى الدكتور بدوي طبانة يقرر أن الجاحظ: (واسع المعرفة ضليع في الثقافة ، عظيم الخبرة ، رحب العقل والتفكير ، ومن هنا تزامنت عليه الأفكار ، وتسابت الى قلمه ، فحشد كل ما استطاع أن يسجل مما جال بفرقه في كتابته ، وكان هذا هو السر فيما نرى من فقد التنظيم العلمي حتى ليسبب الازدحام في جنبات مؤلفاته الى الفكرة والرأى لمن يبحث عن الفكرة والرأى .

وعلى هذا النحو كتاب "البيان والتبيين" الذي تضل فيه الابانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفصاحة ، أنها مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتشرة في أثنائه ، فهي ضالة بين الأمثلة ، لاتدرك الا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير) ^(٢) . ومع ذلك يرى الدكتور طه حسين أن: (الحرب لم يخطئوا حين عدوا الجاحظ مؤسس البيان العربي ، وليس ذلك لأنه وصل بجهد الخاضع الى قاعدة بيانية بعينها ، فشخصيته القوية تكاد تكون معدومة في كتابه البيان والتبيين ، ولكن لأنه جمع في هذا الكتاب طائفة من النصوص توضح لنا توضيحاً حسناً كيف كان العرب يتصورون البيان في القرن الثاني والنصف الاول من القرن الثالث ، وتطينا صورة مجملة لنشأة البيان العربي ، ان لم نسمح لنا بتاريخ هذه النشأة) ^(٣)

(١) البلاغة العربية في دور نشأتها ص ١٧٠

(٢) البيان العربي: ص ٦٥ و ٦٦

(٣) مقدمة نقد النثر: د . طه حسين ص ٣ و ٤

ويبدو أن هذا الرأي للدكتور طه حسين والدكتور بدوي طبانة مأخوذ من كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري^(٥).

ورأى أن كتاب البيان والتبيين على ما فيه من قيمة بلاغية يحتاج لمجهود كبير، وتأمل طويل، لاستخراج هذه القيم. فهي ليست منظمة تنظيماً علمياً بحيث يشمل ادراكها والاستفادة بها. كما أن القول بأن الجاحظ مؤسس علم البلاغة مردود بما قلناه من بشر بن المعتمر حين قيل عنه بأنه مؤسس علم البلاغة.

ومن الذين كان لهم باع لا ينكر في التأليف البلاغي العالم الجليل ابن قتيبة صاحب كتاب "تأويل مثل القرآن" ... فهذا الكتاب قد أولى البلاغة عناية كبيرة وإن كان صاحبه قد ألفه أصلاً للرد على الطاعنين في بلاغة القرآن، الذين اتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وقد تحدث ابن قتيبة في هذا الكتاب عن كثير من فنون البلاغة وعقد لها أبواباً، هي القول في المجاز، والاستعارة، والمقلوب، والحذف والاختصار، وتكرار الكلام والزيادة فيه، والكتاتبة والتعريض ومخالفة ظاهر اللفظ معناه، ولانجد في الكتب المتقدمة هذا المنهج في دراسة البلاغة، وهذه الأبواب الواضحة المعالم. وبذلك يعد ابن قتيبة من أوائل اللذين فتحوا باب التأليف في هذا الفن لابن المعتمر^(٦).

وأهم كتاب جاء بعد ذلك هو كتابه (البديع) لابن المعتمر^(٧) ... ذلك أنه أول كتاب في البلاغة العربية لم يجاوز في موضوعاته وفنونه دائرة البحث البلاغي.

(٥) انظر كتاب الصناعتين: ص ٥

(٦) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٢٠٨

(٧) من أعلام القرن الثالث الهجري، انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١٠ / ٩٥ والافاني (ط دار الكتب) ١٠ / ٢٧٤، ونزهة الألباء ٢٩٩، وشذرات الذهب

وكلمة " البديع " التي وضعت عنوانا لهذا الكتاب ليست جديدة مستحدثة، بل كانت مستعملة في لغة العرب من قبله وكانت تدل على كل طريف مستحسن، وفي القرآن الكريم: " بديع السموات والأرض " وقد ذكر الجاحظ هذه الكلمة حين ذهب إلى أن البديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقطع لغيرهم كل لغة، وأثبت على كل لسان،

فأذن ليس لابن المعتز فضل في هذه التسمية، ولكن فضله يعزى إلى أنه أول من جمع فنون البديع ووضحها ووثق بشواهد لها من القرآن الكريم، والسنة الشريفة، وكذلك من روائع الأدب،

ويحترابن المعتز بسبقه إلى التأليف البلاغي فيقول: (وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد) ١

ويذكر ابن المعتز أن السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه (البديع) هو تلك الخصومة القائمة بين القدامى والمحدثين، وأنصار القديم يرون أن القدماء هم أهل الفصاحة واللسان، وهم أصحاب المعاني والأخيلة، وهم السابقون إلى وضع الأوزان والقوافي، وأن المحدثين عالة عليهم. وأنصار الحديث يرون أن المولدين هم أهل المواهب وأصحاب البديع ومخترعوه. وانبرى ابن المعتز يفسد دعاوى المحدثين، ويثبت أصالة العرب في البديع، وإن كان للمحدثين شيء فهو مغالاتهم فيه واسرافهم في استعماله يقول ابن المعتز: (وانما غرغنا في هذا الكتاب تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع ٢٠٠) ٢

والبديع عند ابن المعتز يشمل خمسة فنون هي: الاستعارة - والتجنيس - والمطابقة - ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها - والمذهب الكلامي.

١ كتاب البديع ص ١
٢ المرجع السابق ص ٣

على أن ابن المعتز لم يقصر كتابه على هذه الفنون الخمسة ، وإنما ذكر بعدها ثلاثة عشر فناً ، . قال أنها من محاسن الكلام ، وهى : الالتفات ، الاعتراض ، الرجوع ، حسن الخروج ، تأكيد المدح بما يشبه الذم ، تجاهل العارف ، الهزل يراد به الحد ، حسن التضمين ، التعريف والكنائية ، الافراط فى الصفة ، حسن التشبيه ، لزوم ما لا يلزم حسن الابتداء ، وضرب لكل ذلك أمثلة كثيرة .

(ونلاحظ أن ابن المعتز اعتبر التعريف والكناية شيئاً واحداً . كما نلاحظ أن ما ذكره ابن المعتز من البديع والمحاسن خليط ببعضه أخيراً من علم المعانى : كالاتفات والاعتراض ، وبعضه من علم البيان : كالاستعارة وحسن التشبيه والتعريف والكنائية ، وبعضه من البديع الاصطلاحى كالتجنيس والمطابقة .

وبالرغم من ذلك فكتاب البديع هو أول محاولة جديدة فى وضع اصطلاحات والقاب لوجوه الحسن فى الكلام ما أسرع ما بنى عليه من بعده قواعد هذا العلم وشادوا من بنيانه (١)

وإذا كان لابن المعتز فضل كبير على البلاغة بتأليفه هذا الكتاب ، فإن له كذلك فضلاً كبيراً على النقد ، إذا أدخل فيه جانب البلاغة ، وجعل أساس النقد الأدبى تمييز الأسلوب بما فيه من فنون البديع ، وأولها عنده (الاستعارة) ، وهذا يعنى أن ابن المعتز أدخل الصورة بين عناصر النقد الأدبى ، بعد أن كان النقد متجهاً الى الكلمة وما فيها من خطأ أولحن ، والى المعنى وما يتضمنه من جودة أو رداءة .

(١) المدخل الى البلاغة العربية : د . يوسف البيومي ص ١٥

وكتاب البدیع - فوق ما تقدم - يمتاز بأنه عمل عربى صرف لم يتأثر
بنزعة أجنبية كما حدث بعد ذلك عند ما ألف قدامة بن جعفر كتابه
" نقد الشعر " فقد جاء منهجه متأثرا بما عرف من قواعد البلاغة
عند أرسطو وفلاسفة اليونان وما ترجم منها فى ذلك الحين .
وكان قدامة (١) قد اشتهر بين معاصريه بثقافته العميقة ومعرفته
بالفلسفة والمناطق فـاء كتابه " نقد الشعر " لأنه تحد لابن المعتز
ومدرسته العربية الأصلية .

ويرى الدكتور طه حسين أن قدامة لم يتأثر بتفكير أرسطو وفلسفته (٢)
بينما لا يشك باحث فى كتاب قدامة أن صاحبه كان مطالعا على آراء أرسطو
ومتأثرا بها الى حد بعيد (٣)

وقد رد الدكتور شوقي ضيف على الدكتور طه حسين ردا مقننا
أثبت فيه أن قدامة تأثر فى كتابه " نقد الشعر " بكتايب الخطابة
والشعر لأرسطو ، كما تأثر بكتابات الجاحظ وابن المعتز والاعمى وغيرهم
من سابقيه (٤)
وبنظرة عاجلة على كتاب (نقد الشعر) لقدامة نحده نظامه
ورتبته فصولا ثلاثة :

الفصل الاول : لتعريف الشعر وبيان أجزائه .

الفصل الثانى : تحدث فيه عن نعوت الجودة فى الشعر .

الفصل الثالث : خصه بعيوب الشعر ونعوت رداءته .

ومجمل القول أن قدامة وفق فى هذا الكتاب توفيقا عظيما جعل من يكتبون
بعده فى البدیع يلهمون باسمه وفى مقدمتهم أبو هلال العسكري صاحب
كتاب الصناعتين .

(١) انظر تاريخ قدامة وترجمته فى : معجم الادباء لياقوت (طبعة القاهرة)

ج ١٧ ص ١٢١ ، وتاريخ بغداد ٢٠٥ / ٧

(٢) مقدمة نقد النثر ص ١٧

(٣) انظر (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) د . ابراهيم سلامة ،

(والنقد المنهجي عند العرب) د . محمد مندور ص ٦٢ - ٦٨

(٤) (البلاغة تطاور وتاريخ) د . شوقي ضيف ص ٨١ وما بعدها الى ص ٩١

هذا وقد ظهرت - فيما بين قدامة وأبى هلال العسكري كتب نقدية تناول أصحابها كثيرا من الأمور البلاغية ، مثل كتاب (عيار الشعر) لابن طباطبا سنة ٥٣٢٢ هـ ، وكتاب (الموازنة بين الطائيين) للامدى سنة ٥٣٧١ هـ ، وكتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) للقاضى الجرجاني سنة ٥٣٩٢ هـ .

وقد اشتهرت هذه الكتب فى تاريخ النقد الأدبى ، وهى كتب كثر الحديث فيها عن التشبيه والاستعارة والجناس والطباق ، وما يستحسن من هذه الفنون ويستقبح . والظاهرة العامة فى هذه الكتب أن النقد الأدبى فيها قد اخطط بالبلاغة ، والبلاغة اخطط بالنقد ، وبات من الميسر على الباحث فيها أن يميز نقدا من بلاغة أو بلاغة من نقد . يقول صاحب الموجز : " وذلك فى اعتقادنا أمر محمود ، وكان ينبغى أن يستمر ، فلا يقدم نقد بلا بلاغة ، لأنها عنصر من عناصره ، ولا تقدم بلاغة بلا أدب ، لأنها به تحيا وتظهر ، وما أظلمت البلاغة عندنا وحصدت الا يوم انزوت عن النقد والأدب جميعا لتصبح حدودا جامدة وتعريفات خالية من النبض والروح " (١)

ولأن هذه الكتب (عيار الشعر ، والموازنة ، والوساطة) لاتعد كتباً فى البلاغة بالمعنى الذى آلت اليه بعد ذلك فاننا نتجاوزها الى كتب أخرى تلتها ، واتخذت من فنون البلاغة موضوعا لها . ككتاب المناعتين لأبى هلال العسكري الذى أشرنا اليه آنفا .

(١) الموجز فى تاريخ البلاغة ص ٧٩ و ٨٠ للدكتور زكى المبارك .

ويعتبر كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري^(١) نقطة هامة على طريق التطور البلاغى وتحولا ملحوظا فى تاريخ الدراسات البلاغية ، فترك الملاحظات النقدية التى أشرنا اليها عند ابن المقفع وبشر بن المعتمر والجاحظ وغيرهم من الأدباء ، جميعها أبو هلال ونسقها فى قواعد بلاغية تمين على صناعة الكتابة والشعر ، ولذلك يمكننا أن نعتبر هذا الكتاب بداية تحول النقد الى بلاغة .

وقد ذكر أبو هلال فى مقدمة كتابه السبب الذى دعاه الى وضع كتاب فى البلاغة والفصاحة فقال : (ان أحق العلوم بالتعليم وأولها بالتحفظ ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ، الذى به يعرف اعجاز كتاب الله تعالى . . .)^(٢)

فالبلاغة على هذا - عند المؤلف - لها غاية دينية ، وهى اثبات اعجاز القرآن عن طريق معرفتها . وتلك الغاية الدينية هى التى لمسناها لدى أكثر السابقين الى علم البلاغة .

ونظرة فاحصة الى الأبواب والفصول التى اشتمل عليها كتاب الصناعتين ترينا مبلغ الجهد الشاق الذى بذله أبو هلال فى تأليف هذا الكتاب . وقد قسمه الى عشرة أبواب تشتمل على ثلاثة وخمسين فصلا ، تتناول الموضوعات البلاغية المختلفة من تحديد موضوع البلاغة لغة واصطلاحا ، الى تمييز حيد الكلام من رد يفسه ، ومعرفة صنعتة ، وحسن الأخذ وقبحه ، الى ذكر الایجاز والاطناب والتشبيه : وما يستحسن وما يستقبح ، وذكر السجع والازدواج والقول فى الهدى ووجهه وحصر أبوابه وفنونه . وذكر لكل ذلك أمثلة كثيرة عنى فى أحوال كثيرة بتحليل أطراف منها تحليلا يدل على رصافة حسه وصفاء ذوقه ونقائه .

وما يذكر بالفضل لأبى هلال فى كتابه الصناعتين ذلك الأسلوب الأدبى الصنع الذى سلكه فى تبويب البلاغة وتطبيق الأمثلة وشرحها ، وبعده عن طريقة علماء المتأخرين والكلام التى كانت قد طغت على أفكار الغوم وأساليبهم فى القرن الرابع ، وكأننا تنبه العسكري الى مخالفة هذه الأساليب لطبيعة البلاغة العربية الاصلية . وقد أشار الى ذلك فى آخر الفصل الاول من الباب الأول ان قال :

(١) انظر ترجمته فى : معجم الأدباء ١٣٥/٣ ، وخزانة الادب ١١٢/١ .

(٢) الصناعتين ص ١ .

(ليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وإنما قدمت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب ...)^(١)

وهكذا كان أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين كاتباً أدبياً يتذوق البلاغة ويبحث عن مواطن الجمال فيها مستدلاً بالشواهد والبراهين . وما فعله أبو هلال العسكري في علم البلاغة هو - لا شك - عمل قيم وعظيم ، ولكنه لا يمد شيئاً جانب ما أتى من علم البلاغة وعلمها الشامخ الأستاذ الامام عبد القاهر الجرجاني^(٢) . الذي يلزم نظرية النظام ورأى أن البلاغة تدور في فلكها ، وأن الأبحاث البلاغية يجب أن ترتبط بها وتنضوي تحتها . وما النظام عند الجرجاني إلا ائتلاف الالفاظ ووضعها في الجملة الموضع الذي يفرض معناها النحوى ، فالمعنى النحوى للكلمة هو الذى يفرض تقديرها أو تأخيرها ، تصريحها أو تنكيرها ، ذكرها أو حذفها . يقول الجرجاني : (واعلم أن ليس النظام إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناصحه التى نهجت فلا تزيع عنها ، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك فلا تخل بشئ منها ...)^(٣)

ويقول فى موضع آخر : (وليس الغرض بنظام الكلم أن توالى ألفاظه فى المنطق ، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى يقتضيه العقل)^(٤) . وفى كتابه (دلائل الإعجاز) نجد أن معظم الأبحاث البلاغية التى درسها عبد القاهر فى هذا الكتاب هى التى وضعت فيما بعد تحت اسم " علم المعانى " فقد عالج مسائل كثيرة ترتبط بالمعانى التى تستفاد من الجملة عندما توضع على نحو خاص من تقديم وتأخير وذكر وحذف وتصريف وتنكير الى غير ذلك من ألوان الصياغة ،

(١) الصناعتين ص ٨

(٢) انظر ترجمته فى : انباء الرواة ١٨٨/٢ ، وطبقات السبكي ٢٤٢/٣ ،

وبغية الوعاة ٣١٠

(٣) دلائل الإعجاز ص ٤٨

(٤) المرجع السابق ص ٣٣

فحاشا من بعده ورباوا بين هذه المسائل التي عالجهما على نحو جديد وسموها (علم المعاني) ، بل لعل الاسم نفسه مأخوذ عن عبد القاهر أيضا لأنه كثيرا ما ردد وأعاد وكرر أن النظام هو توحي معاني النحو فيما بين الكلم ،

وفي كتابه (أسرار البلاغة) يتابع عبد القاهر ويؤكد نظريته في النظام ، وأن مزية البيان إنما هي فيما بين الألفاظ من علاقات تنسجم مع المعنى ، وبدون ذلك لا فائدة للألفاظ " كيف والألفاظ لا تفيد حتى تولف ضربا خاصا من التأليف ، ويعمد بهما الى وجه دون وجه من التركيب والترتيب " (١) ويؤكد عبد القاهر ذلك في أكثر من موضع وهو أن العبرة ليست باللفظ وإنما بالمعنى ، لأن اتساق الألفاظ وترتيبها إنما يكون بحسب ترتيب معانيها في النفس وتقبلها في العقل ويضرب عبد القاهر لذلك أمثلة عديدة ، منها ما ذكره عن التحنيس فقال : (أما التحنيس فأنك لا تستحسن تحانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعا حميدا) (٢) . كما يقول في موضع آخر : (ولن تحد أيمن طائرا ، وأحسن أولا وآخرها ، وأهدى الى الاحسان وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعاني على سجيئتها ، وتدعها طالب الألفاظ لنفسها ، فانها إذا تركت وما تريد لم تكن إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها ، فأما أن تضع في نفسك أنه لا بد من أن تحنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت فيه بغرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم) (٣) .

وقد حشد عبد القاهر في (أسرار البلاغة) كثيرا من أبحاث علم البيان ، فبحث فيه التشبيه والتشيل والمجاز بنوعيه اللفوي والعقلي وهذه الأبحاث هي التي جمعها من حاشا وبعده عبد القاهر في علم واحد سموه " علم البيان " .

(١) أسرار البلاغة : ص ٣

(٢) المرجع السابق : ص ٦

(٣) المرجع السابق : ص ٣ و ١٤

وهذه الجهود العظيمة التي بذلها عبد القاهر في الابحاث البلاغية جعلت صاحب الطراز يذكر في فاتحة كتابه أن عبد القاهر هو واضع علم البلاغة يقول: (وأول من أسس من هذا الفن قواعد ، وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ، ورشأ أفانينسه ، الشيخ العالم الحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجاني . . فجزاه الله عن الإسلام خير الجزاء)^(١) . كما يرى د . بدوي صيانة أن عبد القاهر فاق أرسطو في هذا المجال يقول: (ولقد أفاد من دراسات عبد القاهر وبحوثه البلاغية من لا يحصى من علماء البلاغة ، وانتفعت الاجيال المتعاقبة بما بسط من الأفكار وبما عمق من البحث في أصول الفنون الادبية ، وما تزال أمدائه تتجاوب في بيئات الأدب وقاعات الدرس في جامعاتنا وفي كتبنا البلاغية ودراساتنا النقدية ، حتى يمكن القول بحق أن عبد القاهر هو أرسطو العرب في سعة باعه وغزارة معرفته بالفن الأدبي ، وإن فضل عبد القاهر أرسطو في نضاعة الحجّة وإسراق البيان)^(٢)

وهكذا نجد أن البحوث البلاغية تكاد تكون قد تمت وبلغت أوجها في دراسات عبد القاهر الجرجاني . ولكن كما يقول الشاعر: لكل شيء إذا مات نقصان فقد شاء الله تعالى أن تتحول البلاغة من علم ذوق وجمال وأدب إلى علم جاف يعتمد على المنطق بأصوله ومناهجه الخادة مما جعل علم البلاغة قوائين تسبك في قوالب منطقية جافة .

ولقد حدث هذا التحول الخطير على يد أبي يعقوب السكاكي^(٣) . الذي وضع كتابه (مفتاح العلم) وقسمه ثلاثة أقسام : القسم الأول للصرف ، والقسم الثاني للنحو ، والقسم الثالث للبلاغة وما تحتوى عليه من أقسام المعاني والبيان والبيدح وما يلحق بهذه العلوم من قافية وعروض . حقيقة أن هذا التحول يرجع قبل السكاكي إلى فخر الدين الرازي في كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) فهو أصل القسم الثالث من كتاب المفتاح . . إلا أن السكاكي أخذ هذه البداية وركز عليها ونمادها وزاد فيها حتى اعتبر لدى علماء البلاغة أمام هذه الطريقة .

(١) الطراز : ج ١ ص ٤

(٢) البيان العربي : ص ٢٥٠

(٣) انظر ترجمته في : معجم الأدباء ٣٠٦ / ٧ ، وبغية الوعاة : ٤٢٥

وما صنع السكاكي في مفتاح العلم من تقسيم البلاغة هو الذي أخذ به علماء البلاغة من بعده ، وهو الذي استقرت عليه البلاغة الى وقتنا الحاضر . فاذا عرفنا أن السكاكي كان متأثرا بثقافته النحوية والمنطقية والكلامية ، وعرفنا أنه صيغ البلاغة في كتابه بصيغة هذه العلوم ، عرفنا سبب طغيان القوالسب والحدود على علم البلاغة ، وعرفنا سبب التعقيد الذي أصابها عنده وعند من قلده وحذوا حذوه من بعده . ان ظل (مفتاح العلم) للسكاكي محورا للتأليف البلاغي ، فظهر حوله عدد كبير من كتب الشرح والايضاح والتلخيص والتهذيب فكانت كغيم تحجب صفاء السماء وتمنع عن البلاغة البهجة والرواء . ويرى الأستاذ احمد موسى أن البديع ساء حاله على يد السكاكي ولم يعد بديعا فقد (أخذ يتحدو رويدا رويدا الى هاوية الاسفاف والانحطاط ، ويفقد صبغته الأدبية التي أبرزته في معرض الاشراق والاعجاب ، ويتعثر في قيود ضيقة قد هال له المنطق والفلسفة ، حتى صار هم العلماء تحديد ألوانه والاكتفاء بتحديداتها كما تحدد الكلمات اللغوية وسوق الأمثلة التقليدية التي يتوارثونها لكابر عن كابر ، حتى أصبحت الكتب الكثيرة التي ألفت فيه بعد السكاكي كأنها كتاب واحد ، فمن وقف على أحدها غنى به عما عداه ، وقد زاده تعثرا على مر الزمن وقوعه فريسة للشرح والمقررين الذين يرون أن الحذق والتمهر انما يظهران في العناية بالجدل الذي لا يفيد وافتراض الافتراضات والشبه ثم الاشتطاط عليها مما قضى على البديع وذهب بروعته الأدبية وأورد موارد العم والجمسود (١)

من أجل ذلك قامت الدعوة الى تجديد البلاغة أو العودة بها الى عصر نضجها وازدهارها أو على الأقل تنقيتها مما شابها من أسلوب المناطق وطريقة الجدل العقيم الذي جاء كعاصفة مريبة وريح سم فغطى على جمال البلاغة وما امتازت به أصلا من فخامة اللفظ ورقة المعنى وحلاوة الصياغة وجمال الصورة وقوة الخيال .

(١) الصبح البديعي : ص ٢٤٢

مع روعة في التطبيق ومراعاة في الاستشهاد الى غير ذلك مما امتازت به المدرسة الأدبية قبل أن تظهر عليها وتطفي المدرسة الكلامية .
ويسوقنا هذا الى الحديث عن المدارس التي مرت بها البلاغة وخصائص كل منها حديثا موحدا يتناسب مع هذا التحديد الذي أحاذر فيه الإيجاز المخل والاطناب الممل .
المدرستان الأدبية والكلامية : وأعود فأقول : ان بلاغتنا العربية عاشت في أحضان مدرستين كان لكل منهما طابعها الخاص ومنهجها في البحث والدراسة . وهاتان المدرستان هما :

أ - المدرسة الأدبية ب - المدرسة الكلامية

وقد نشأت البلاغة كما عرفنا - منذ العصر الجاهلي - عربية السروح وترعرعت وأزهرت في رحاب الذوق الحساس ولغات الطبع الذكية في أسلوب أدبي هو من حوك البلاغة التي يصورها والدرر التي ينظمها ، فكانت النفوس تأنس لها وتنتعش بها تجد فيها من بهجة ومال وسحر .
ذلك هو العصر الأول للبلاغة الذي انتهى الى الشيخ عبد القاهر الجرجاني وتمثل في كتابيه (دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة) ذلك العصر الذي لا نستطيع أن نحكم على تراثه في البلاغة والأدب أي كتبه بلاغة وأيمها أدب لشدة الامتزاج وكثرة التداخل ووفرة ما أفاض كل منهما على الآخر فالبلاغة والأدب فرعان متعانقان من شجرة طيبة هي شجرة اللغة العربية الخالدة .

تلك هي المدرسة الأدبية ، وقد كان للكتاب والشعراء الأثر البالغ في نشأة تلك المدرسة فقد صبغوا كثيرا من مباحثها بصبغة أدبية رائعة ، وذلك لما امتازوا به من حس دقيق مرهف وطبع رقيق صاف وذوق ناقد وذلك بتفحص من حديث الباحث عن الكتاب حيث يقول : (أما أنا فلم أر قوما قط أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب . . .) (١)

ومن أهم ما تمتاز به تلك المدرسة هو مجافاتها الأحكام النظرية ،
وعندم التحاكم الى النطاق الميزاني ، والاعتبار العقلي ، والشعوري بأن
فى الانسان من قوى الحكم شيئاً غير هذا كله . . (١) فالذوق أساس
هام فى الاحساس بحمال الكلام وروعة الاسلوب وقد أدرك هذا الامام
عبد القاهر فعقد فصلاً فى آخر " دلائل الاعجاز " بعنوان (ادراك
البلاغة فى الذوق والاحساس الروحانى) .

وكذلك ما تمتاز به هذه المدرسة الأدبية اكتارها الصرف فى
استعمال الشواهد الأدبية شعراً ونثراً ، واقلالها من البحث فى
التعاريف والقواعد والأقسام والفروع ، مع الاعتماد على الذوق وحاسة
الجمال فى تقرير المعانى الأدبية . (٢)

ومن أبرز رجال هذه المدرسة الامام عبد القاهر وكتابه ، وضيأ
الدين بن الاثير الذى يعد قمة المدرسة الأدبية لأنه بحث البلاغة بحثاً
أدبياً فى كتابه : المثل السائر ، والجامع الكبير (٣) وكذلك أبو هلال
المسكوى فى كتابه : المناعتين ، ويمكن أن نعد من رجالها كذلك :
ابن رشيق القيروانى فى : العمدة ، وابن سنان الخفاجى فى : الفصاحة ،
والرمانى فى : التكت فى اعجاز القرآن .

أما العصر الثانى : فهو عصر المدرسة الكلامية التى حمل لواءها
أبو يعقوب السكاكى فى أواخر القرن السادس وامتدت حتى قبيل النهضة
الحديثة . وفى تلك الفترة طغت الروح الاعممية والافكار الأجنبية وأحباب
البلاغة منها رذائل كثير بل سيل جارف أغرقها فى دوامات المنطق والفلسفة
وعلم الكلام وتحولت البلاغة المسكينة الى حدود وتصريفات وشروح وتلخيصات
أبعد ما تكون عن روح البلاغة وما يجب أن يكون فيها من روعة وجمال .

(١) فن القول ص ٩٢

(٢) مناهج تهديد ص ٢٣٠

(٣) اتجاهات البلاغة العربية ص ١٢ / د . احمد مطلوب .

وقد يكون للمدرسة الكلامية فضل في استواء علم البلاغة وتكامل نموه وتقسيمه الى فروعها الثلاثة : المعانى ، والبيان ، والبديع ، وتخصيص كل قسم بما يضمنه ويندرج تحته من فنون البلاغة . ولكن ما لا شك فيه أن ضررها كان أكثر من نفعها وأن المدرسة الكلامية رغم ما بذلت من جهود وانتجت من كتب بعدت بالبلاغة عن روحها ودخلت بها في مآهات مازالت تتخبط في دياجيرها حتى اليوم .

تلك هى المدرسة الكلامية وتتلقى خصائصها في تطبيق المظاهر المنطقية والفلسفية فى الأبحاث البلاغية ، وإعداد أحكام عقلية فى الموضوع الوجدانى ، والصور على الناحية الأدبية بالاقبال من الشواهد الأدبية والاكثار من الأمثلة المصنوعة التافهة ، وعدم العناية بالناحية الفنية فى إدراك خصائص التراكيب ، واستعمال المقاييس الحكمية والخلقية والعقلية فى تقدير المعانى الأدبية . (١) هذا وربما تكون المدرسة الكلامية قد ظهرت مبكرة عما ذكرنا ، فنحن نعرف أن الجاحظ كان من أعلام المتكلمين وكان على رأس فرقة اعتزالية لها مبادئها الخاصة فى علم الكلام ، وكان الجاحظ مشغولاً بعلم الكلام لدرجة أنه تمنى أن يكون الأطباء متكلمين (٢) ولكن عصر الجاحظ كان عصرًا ذهبيًا ازدهرت فيه الآداب لذلك لم يظهر أثر المتكلمين واضحاً فى كتابته . هذا بالإضافة الى أن الجاحظ نفسه كان صاحب ذوق رفيع وإحساس مرهف وطبع صاف أصيل فغطى ذلك على ميوله الكلامية وهو يكتب فى البلاغة والأدب . لكن هذا لا يمنع أن المدرسة الكلامية كانت موجودة قبل السكاكى وإن كانت ضعيفة الأثر لم تطاغ بشكل واضح على الناحية الأدبية .

وليس عجيباً بعد ذلك أن نرى الجاحظ وهو من أعلام المتكلمين يشير الى المدرسة الأدبية ويبدى إعجابه بها وذلك عند ما تحدث عن الكتاب فقال : " أما أنا فلم أر قوماً قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب فانهم قد اتصوا من الألفاظ ما لم يكن متوهراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً " (٣)

(٢) انظر كتاب الحيوان : ج ٥ ص ٢٢

(١) انظر خصائص المدرستين الأدبية والكلامية فى مناهج تجديد ص ١٢٥

وص ٢٦ و ٢٣٠ ، وفن القول ص ٧٩ - ١٠٠

(٣) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٠٥

وفى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري نحوه هو الآخر يشير صراحة الى منبهين فى دراسة الادب والبلاغة هما : منهج المتكلمين الذى يعنى بتحديد الموضوعات وتقسيمها وبيان ما يتشعب منها ، ثم منهج الأدباء الذى يمتاز بالاكثار من الشواهد شعرا ونثرا وتلمس الجمال الفنى فيها . يقول أبو هلال : (وليس الغرض فى هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وانما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب) (١)

على أن هناك مدارس أخرى مرت بها البلاغة فى أيامها الاولى مثل : المدرسة الأصولية ، ومدرسة الرواة ، ومدرسة الكتاب التى تعتبر نواة للمدرسة الأدبية . ذلك أن البلاغة العربية نشأت وترعرعت فى أحضان علوم أخرى ترتبط بها أشد الارتباط ، وستظل مرتبطة بها مهما بلغت سن الرشد فأستقلت علومها وتحددت مسائلها . وهل تستغنى البلاغة عن علوم القرآن واللغة والأدب والنقد . هذه هى العلوم التى نشأت البلاغة فى أحضانها ونمت حتى استوت على سوقها علما ناضجا مزهرا . فعلماء أصول الفقه مثلا كانت لهم بحوث بلاغية تحتل المقدمة اللغوية لعلم الأصول ، وهى مقدمة تضخمت مع الوقت حتى صارت مسائلها من أهم ما يبحثه الأصوليون . فقد عرضوا فى مبادئهم اللغوية للبحث فى الحقيقة والمجاز والتشبيه والكناية وما إلى ذلك من أبحاث علم البيان ، كما تحدثوا عما يتصل ببحث أجزاء الجملة فى علم المعانى ، وفى حديثهم عن العموم والخصوص عرضوا للتنكير والتعريف ، واستفراق المفرد ، واستفراق الجمع ، والحصر ونحوه . وتلك الأبحاث البلاغية فى المدرسة الأصولية هى التى جعلت السكاكى يشير الى استئثار علم أصول الفقه بأبحاث علمى المعانى والبيان ويقول : " بل تمفح معظم أبواب أصول الفقه لترى من أى علم هى ومن يتولاها " (٢)

(١) الصناعتين : ص ١٥

(٢) مفتاح العلوم ص ١٩٩ ط ١ الحلبي .

أما الرواة فقد كانت لهم جهود طيبة في وصل ماضي العرب بحاضرهم وحفظ تراث اللغة والأدب بمعد ما اخطط العرب بالمعجم . وقد خاض هؤلاء النفر من أصحاب اللغة في الألفاظ العربية واستعمالاتها وما إلى ذلك من دراسة بلاغية يشير إليها الجاحظ في البيان والتبيين بمعد ما روى بيت الأشهب بن ربيعة :

هم ساعد الدهر الذي يتقى به وما خير كف لا تنوء بساعد

فيقول : (هم ساعد الدهر) إنما هو مثل ، وهذا الذي تسميه الرواة البديع (١) كما يشير عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز (٢) التي مانحده في كتب اللغة من ادخال ما ليس طريق نقله التشبيه في الاستعارة كما صنع أبو بكر بن دريد في الحمرة فانه ابتداءً باباً فقال : باب الاستعارات . . . وكالذي نحدده متفرقا في كتب الأمالي من هذا التناول البلاغي لأصحاب اللغة ودارسيها . (٣)

أما الكتاب فقد كان لهم بدراستهم ومؤلفاتهم أثر واضح في حياة البلاغة العربية يدركه من تتبع أعلامهم من ابن المقفع بأدبيه ، الى قدامة ابن جعفر بنقديه . (٤) الى ابن شيت القرشي صاحب كتاب " معالم الكتابة ومغانم الاصابة " والشهاب الحلبي الكاتب صاحب كتاب " حسن التوسل الى صناعة الترسل " ، وابن الأثير بمثله السائر ، والقلقشندي بـ " صبح الأعشى في صناعة الأنشأ " . فهؤلاء وغيرهم من الكتاب قد خدموا دراسة البلاغة العربية خدمات جليلة . (٥)

ويحاول بنا الحديث لو أردنا أن نتتبع ونستقرى كل ماورد في علوم القرآن واللغة والأدب والنقد من مسائل بلاغية تبلورت على مر الأيام وأصبحت فناله حدوده ومعالمه .

(١) البيان والتبيين : ج ٣ ص ٢٤٢

(٢) ص ٣٢٨ ط الترقى

(٣) المدخل الى البلاغة العربية ص ١٤

(٤) بعضهم يرى أنه ليس لقدامة الا نقد الشعر فقط .

(٥) المدخل ص ١٢

وكنا نود أن نعال البلاغة - بعلومها الثلاثة التي تعددت معالمها
فى بيئتها التى نشأت فيها . وترعرعت فى أكنافها ، فتسير فى موكب
هذه العلوم ، تتقدم معها ، وتتجدد فى ظلالها . لأن البلاغة يوم
بعد بها رجالها عن هذه العلوم ، وألقوا بها فى أحضان علوم أخرى
كالمنطق والفلسفة فقدت روائها وضلت أهدافها ودخلت فى مآهات
لم تخرج منها حتى اليوم .

ان علوم القرآن واللغة والأدب والنقد هى الأسرة الطيبة المباركة
التي أنجبت علوم البلاغة والتي يجب أن تظل البلاغة منتعشة اليها ، فى
رحابها ترقع وفى أفيائها تعيش . كما أن هذه الاسرة الطيبة من العلوم
لا تستغنى عن البلاغة ولا تجد حصرها بدىلا .

هذا وقد أشرنا من قبل وأوضحنا أن الذى قام بهذه القطيعة بسين
البلاغة وأسرتها العلمية هو السكاكى ، فبالرغم من أن استقلال البلاغة
بعلومها الثلاثة قد تم على يديه - فهو الذى حدد معالمها وأحسن
تبويبها - إلا أنه حنح بها بعيدا عن أسرتها وبيئتها ، وأسلمها الى
علوم المنطق والفلسفة ففرقت فى بحر من التقسيم والجدل المقيم
والذين جاءوا بعد السكاكى - للأسف - سلكوا طريقته (١) وساروا
سيرته ، فظل السكاكى محورا للتأليف البلاغى ، تدور كتبهم حوله
وتحذو حذوه (حتى ليخيل اليك وأنت تقرأ جمهورها أنك أمام عدة
علوم قوامها المنطق والفلسفة وعظم الكلام . أما البلاغة فالمفاء عليها
وسط هذه الأخطا أو قل ان شئت فأما البلاغة فهى كالبرق الخاطف
وسط هذه السحب المتركمة بيد و قليلا ثم يختفى كثيرا) (٢)

وإذا كان هناك شبه اجماع من المحدثين بأن السكاكى هو السبب
فى تقعيد البلاغة وتعميدها فان هناك بعض الأصوات تخالفه ذلك وترى
غير هذا الرأى . فقد وجدت فى كتاب (المتنبى وشوقي) للدكتور عباس
حسن رأيا مخالفا تماما ...

(١) يستثنى من ذلك قليلون مثل ابن الأثير وابن سنان الخفاى .

(٢) الصبح البديعى : ص ٢٤٣

ان يرى الدكتور عباس أن السكاكي خدم البلاغة خدمة جليلة ويشيد بفضل السكاكي ومن لف لفه برغم الناقمين عليه أو المتسرعين في حكمهم على آثاره ، وذهب يثبت ذلك بأراء ودجاج لانسلم له بكثير منها . (١)

ويبدو أن رأي الدكتور عباس حسن مأخوذ من ابن خلدون في مقدمته حين كان يؤرخ لعلم البيان حيث قال : " . . . ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئا فشيئا الى أن مضى السكاكي زبدته ، وهذب مسائله ، ورتب أبوابه على نحو ما ذكرنا آنفا من الترتيب ، وألف كتابه المسمى " بالفتاح " في النحو والتصرف والبيان فجعل هذا الفن من بعض أحزائه ، وأخذ المتأخرون من كتابه ولخصوا منه . . . " (٢)

والواقع أن ادخال السكاكي للمصطلح في البحث البلاغي وربطه بين علم الاستدلال وعلم المعاني كان ضرره أكثر من نفعه . ذلك أن العمل البلاغي النقدي يعتمد اعتمادا كبيرا على الذوق ، والادواق تتباين وتختلف ، ولا يلزم لهذا العمل التعريف الجامع المانع وانما يكفي وضع الملامح العامة . ومثالا على ذلك فان أنصار المنهج السكاكي قد ألقوا في وضع هذه التعريفات الجامعة المانعة للفنون البلاغية ولم يلتقوا عند رأي واحد في كثير منها . كرايهم مثلا في الاستعارة المكنية فهي عند السكاكي : لفظ المشبه المستعمل في المشبه به الادعائي ، وعند الخطيب : هي التشبيه المضمحل في النفس المتروك أركانه سوى التشبيه المدلول عليه باثبات لازم المشبه به للمشبه وعند الجمهور : لفظ المشبه به المحذوف المستعار في النفس للمشبه والرموز اليه باثبات شيء من لوازمه للمشبه . وهذا قليل جدا من كثير جدا جدا من الخلافات التي لا طائل تحتها والتي تهاشنا الدخول فيها تفصيلها لأنها ليست من مهمتنا في هذا البحث ، ويكفي أن نقول ان هذه الخلافات والطرائق الجدلية والفلسفية بعدت بالبلاغة عن روعتها وجمالها . (٣)

(١) انظر ص ٦٤ - ٦٩ من كتاب (المتنبي وشوقي)

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٠ ط الشعب .

(٣) انظر الرسالة البيانية للبيان بحاشية الشيخ الانبأ ص ٤٢-٤٨

وبالبلغة بين عهدين د . نايل ص ٢٢٠ ، ومنهج البحث البلاغي بين

السكاكي وعبد القاهر د . ح . اب ص ٣٧٤ و ٣٧٥

والعجيب أن السكاكي ومن أغرق البلاغة في بحار المنطق
ونأى بها عن نهر الذوق يقف في قيمة الاعجاز موقفا مخالفا
لمنتجبه فيرد الاعجاز الى الذوق ويقول : (واعلم أن شأن الاعجاز
عجيب يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها
وكالمسلاحة ، ومدرك الاعجاز عندى هو الذوق ليس الا ، وطريق
اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين) (١) !

ويرى الاستاذ احمد موسى أن البلاغة (استفادت الكثير على يد السكاكي
من حسن التنسيق والتبويب ، ودقة التقسيم والتفصيل ، واحكام
التمييز بين مباحث علم المعاني وعلم البيان . فان هذا مما يحمده
التاريخ للسكاكي . ولو سلم هذا القسم الثالث من (المفتاح) من
مزجه بالعلم العقلية لان هذا من خير المؤلفات في البلاغة في
جميع عصورها) (٢) .

وأما الدكتور سميح القاموي فانها تعفى السكاكي من مسئولية
جمود البحث البلاغي وتحقيده وتري . (أن كتاب " المفتاح " كتاب جاف
في ترتيبه ومعالجته للموضوعات ، وأن السكاكي ليس هو المسئول عن
جفاف هذه الدراسة التي نتجت عن جفاف الكتاب نفسه ، ولكن
الواقع أن البلاغة والنقد الادبي لابد أن يمر في هذه الاطوار دائما
ببداية نظرية مبشرة ، ثم دراسة حية قوية مثمرة مؤثرة وأخيرا
خلاصة وتقنين وتحقيد جاف يودي بحياة النظرية أو الفكرة أو
الناحية المدروسة ، ان هذه سبلة الحياة في الابحاث الأدبية والفنية .
أما المسئول عن جفاف هذه الدراسة فهو أمة بأسرها وظروف في جملتها
لقد تان عصره عصر جمع وتبويب ، وعصر تفحيد وتفنين ، فجمع فنون البلاغة
وكانت أشتاتا مفرقة في كتب كثيرة . .

(١) المفتاح ص ١٦٦

(٢) السبع البديعي ٢٤٩

وكتاب المفتاح بلا شك عمل على حفظ الصورة البلاغية القديمة وروح لها
ولكنه لم يسع الى تطويرها ، لأن مهمته الرئيسية كانت المصون والحمايصة
ونشر الذوق العربي السليم في كل الأرضين التي فتحها المسلمون - ان
في البلاغة العربية غابات بل أدغالا مازالت بكرات تنتظر الدارسين (١)
ونحن لانسلم بكل ماورد في كلام الدكتور سهير القلماوى ، فانه اذا
كان عصر السكاكى قد أسهم بنصيب وافى فى جفاف الدراسة البلاغية
فان السكاكى هو الآخر قد شارك فى صنع هذا الجفاف . ألا ترى
أن عصر عبد القاهر كانت تشيع فيه موجة السجع والجناس والزخارف
اللفظية حتى لتكاد تطفى على المعنى والمعتمون ، ومع ذلك شعر عبد
القاهر عن ساعد الجدد وأخرج لنا كتابيه دلائل الاعجاز وأسرار
البلاغة وما فيهما من نفائس بلاغية بأسلوب أدبى فى غاية الرقى ومازلنا
نحن فى القرن العشرين نتغذى برحيقهما ونتخني بروعتهما ونرجع اليهما
كقصة فنية فى ميدان البلاغة والأدب .
أما أن كتاب (المفتاح) كان أعون على نشر الذوق العربي السليم
فى كل الأرضين التي فتحها المسلمون . فهذا أيضا كلام لانسلمه
للدكتور فان السكاكى وان كان دعا الى استخدام الذوق فى ادراك قضية
الاعجاز الا أنه لم يطبق ذلك عمليا فخالف قوله فعله وسلك بالبلاغة
دروبا وأزقة منطقية وفلسفية ضلت فيها البلاغة وفترتها تلك الكثرة
الكاثرة من الحواشى والهوامش والتقارير التي ان صح أنها تعين على
شدن الأفكار فانها لا تبرى ذوقا ولا تنمى احساسا .
أما مانسلم به للدكتور فهو قولها : (ان فى البلاغة العربية غابات بل
أدغالا مازالت بكرات تنتظر الدارسين) فهذا قول حق ، ولعله هو الذى
دعا علماءنا القدامى أن يقولوا عن البلاغة : انها علم مانضج وما احترق ، وفى
ذلك حجة لنا أن نشمر عن ساعد الجدد لنجدد بلاغتنا وننهض بها بحيث
تساير الفنون الأدبية فى العصر الحديث .

(١) انظر تقديم د . سهير القلماوى لرسالة الماجستير (البلاغة عند
السكاكى) للدكتور احمد مطلوب .

أجل أن بلاغتنا اليوم في حاجة ماسة إلى التجديد والتطوير ،
 وأول ما يجب عمله هو تجريبها من أسدقاء السوء ، واستخلاصها من
 برائث تلك العلوم التي جنت عليها من أمثال المنطق والفلسفة وعلم الكلام
 والجدل والماحاكات التي بعدت بالبلاغة عن ميدانها وجعلتها مسخاً
 مشوهاً مع أنها فن الروعة والجمال . وبات علم البلاغة - للأسف
 الشديد - كريهاً إلى طالبنها ، ثقيل على أدبائنا ، بعيداً عن
 نقادنا .

من أجل ذلك كان لابد لرجال البلاغة والمهتمين بشئونهم من
 وقفة يعيدون فيها النظر ويدققون البحث من أجل تجديد البلاغة
 وتطويرها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الاول

بوادر التجديد واتجاهاته

(أ) التجديد - مفهومه - بوادره

(ب) اتجاهات التجديد ومآثره

الفصل الاول

التجديد - مفهومه - بواره

التجديد والتغير طبيعة الحياة ، وسنة الله في كونه ، والتجدد والتغير ظاهرة عامة في كل زمان ومكان ، تشمل الانسان والحيوان والنبات والجماد وكل ما خلق الله في هذا الوجود من ماديات ، ومن معنويات أيضا ، فالعلم والفنون والآداب على اختلاف أنواعها وأجناسها تتغير في كل عصر ، وتتجدد مع كل جيل .

والتجديد لا يأتي عادة طفرة واحدة ، وانما هو تغير حتمي يصاحب تغير الزمن ، وتغير المجتمعات ، وتغير الفكر .

واذا دقت النظر ، وأمنحت الفكر ، لا تجد شيئا يثبت على وضع ، ولا انسانا يدم على حال ، انما هو التطور الحتمي الذي يخرج بالخلقة من النقى الى الكمال ، ومن الحسن الى الأحسن ، تبعا لعوامل تؤثر في الفكر الاجتماعي من دين وعلم وحضارة وخلق ، واللغة وعلومها من أدب وقواعد وأساليب محكمة بهذا القانون الطبيعي ، لا تستطيع أن تجمد والانسان يتطور ، ولا أن تقف والعالم يسير .^(١)

واذا كان من رأى بعض العلماء والادباء أن التطور الحتمي يخرج بالخلقة من النقى الى الكمال ، ومن الحسن الى الأحسن . . . فانا لانرى ذلك في كل حال . بل نستطيع القول في ثقة وادراك بأن التغير والتجدد قد يكون أحيانا سموا وتقدما ، وقد يكون أحيانا أخرى هبوطا وتدنيا . وواقع الآداب يؤيد أن الأشعار القديمة هي خير ما أنتجته العقول ، فمن الثابت لدى معظم النقاد أن خير أشعار الأمم هو ما قاتلة أيام بداوتها الأولى ، وفي تاريخ الأدب العربى ما يزيد من رجحان كفة قديم الشعر على حديثه ، وهو صدور القديم عن طبع وحياة ، وصدور أغلب الحديث عن تقليد ونسب .^(٢)

(١) من تقديم الزيات لكتاب الصراع الأدبى بين القديم والجديد - د . على العمارى ٠٠ ص ٧ ط ١٩٦٥

(٢) النقد المنهجى عند العرب ص ١٣ د . محمد مندور .

وكان المأمون الخليفة العباسي - مع ثقافته الواسعة - يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بني أمية^(١) . (وينفرد ابن خلدون وحده - من بين نقادنا القدامى - فيما أعلم - بتفضيل الاسلاميين على الجاهليين ، وذلك أنه بنى حكمه على نظرية آمن بها وأشاعها في فصول الأدب من كتابه (المقدمة) وهي أثر المحفوظ من الكلام في تكوين الملكة . وهو يرى أن الاسلاميين قرءوا من جيد المنثور والمنظم ما لم يتح للجاهليين ، فقد تدارسوا القرآن الكريم وحفظوه ، أو حفظه كثير منهم ، كما حفظوا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحفظوا أشعار الجاهليين ، فتميأ لهم من هذا قدر كبير صالح حرم منه الجاهليون ، فجاءت أشعارهم - يعني الاسلاميين - أجود . بل جعل كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة ، وأصفى رونقا ، وأرصف معنى ، وأعدل تثقيفا .

وكلام الآمدى في (الموازنة) صريح في الرد على مثل ابن خلدون حيث يقول : " والذي يورده الأعرابي ، وهو محتذ على غير مثال أحلى في النفوس ، وأشهى في الاسماع ، وأحق بالزيادة والاستجادة مما يورده المحتذى على الامثلة^(٢) " وهكذا نجد الخلاف واضحا في أفضلية الجديد على القديم ، وبالتالي لانستطيع أن نحكم بأن الجديد الذي اقتضاه التطور الحتمى هو دائما أفضل ، ويخرج بالخلقة من النقص الى الكمال ومن الحسن الى الأحسن .

وإذا نظرنا في تاريخ الدول والشعوب نجد ذلك واضحا أيضا فالعصر الاسلامي - مثلا - من حيث الدولة والحكم والتشريع كان أفضل من العصر الجاهلي فالتطور هنا كان من النقص الى الكمال ومن الحسن الى الأحسن . ولكن العصر الأموي ليس كذلك ولم يكن التطور فيه ، من النقص الى الكمال ولا من الحسن الى الأحسن . كذلك العصر العباسي الثاني لم يكن أفضل من العصر العباسي الأول ، وليس ذلك بحاجة الى دليل وبرهان ، فيكفى أن نعرف أن العصر العباسي الأول كان عصر القوة أدبيا وسياسيا . وكان عصر الدولة الواحدة الموهوبة الجانب .

(١) فيهمان المصنف ج ١ ص ١٦١ .

(٢) الصراع الأدبي ص ٢٩٠ د . العماري

أما العصر الثانى - مع أنه وقع فيه جزء كبير من العصر الذهبى للعلوم والفنون والآداب العربية - فقد كان عصر الضعف والتخاؤل ، عصر الدويلات والانقسامات وملوك الطوائف . فهل بعد ذلك - وهو على سبيل المثال - نستطيع أن نجزم بأن التطور والتجدد دائما يخرج بالخلقة من النقص الى الكمال ومن الحسن الى الاحسن ؟

واذا عدنا الى الادب والشعر ، فنجد أن الشعر فى العصر الحديث تجدد وتطور ولكن من أحسن الى حسن ، ثم من حسن الى سيئ ، فالشعر الحديث والشعر الحر تأخر لا تقدم ، وتدنى لاسمو . وكذلك الأدب العربى - فيما يلوح لى - بوجه عام . هذا بينما علوم أخرى تقدمت وسمت حتى وصلت الى القمر . فالتجدد اذن طبيعة كونية ، وقاعدة يخضع لها كل موجود ، سواء كان هذا التجدد الى الاحسن أم الى الأسوأ ، الى الضعف أم الى القوة .

واللغة بوصفها كائنا حيا تتجدد مع الأحياء ، وتتطور مع أجيالها ، فلكل عصر لفتة ، ولكل جيل أسلوبه ، ولكل مقام مقال .

ولقد تطورت لفتتنا العربية ، ولقيت علومها اللغوية والشرعية الكثير من الاهتمام والعناية ، فسايرت ركب الحضارة ، وواكبت تقدم الزمن . .

الا علم البلاغة ، شذ عن القاعدة ، وخرج عن سنة الطبيعة ، وظل جامدا منذ القرن السادس الهجرى حتى اليوم .

وهانحن أولا (فى مستهل القرن الخامس عشر الهجرى) ننظر الى علوم البلاغة بحسرة وأسى ، فقد انصرف عنها الدارسون ، وزهد فيها الأرباء والكتابون ، مع أنها من أجل العلوم العربية قدرا .

يقول الامام عبد القاهر : (ثم انك لا ترى علما هو أرسخ أصلا ، وأسبق فرعا ، وأحلى جنى ، وأعذب وردا ، وأكرم نتاجا ، وأنور سراجا ، من علم البيان ، الذى لولاه لم تر لسانا يحوك الوشى ، ويصوغ الجلى ، ويلفظ الدر ، وينفث السحر ، ويقرى الشهد ، ويريك بدائع من الزهر ،

ويحنيك الحلو اليانع من الثمر ، والذي لولا تحفيه بالعلوم ، وعنايته بها ، وتصويره اياها ، لبقيت كأمثة مستورة ، ولما استبنت لها يد الدهر صورة ، ولا ستمر السرار بأهلتها ، واستولى الخفاء على حيلتها ، الى فوائد لا يدركها الاحصاء ، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء . (١)

فالبلاغة اذن لا غنى عنها لتذوق أدبنا ، ومعرفة مافى لغتنا من جمال وسحر ، ثم هي - كذلك - لا غنى عنها لمعرفة اعجاز القرآن الكريم المعجزة الكبرى الالهية التي أنزلها الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بلسان عربي مبين ، ليخرج الناس من الظلمات الى النور ويهدى بهم الى صراط العزيز الحميد . بل ان دراسة الاعجاز وادراكه كان الهدف الأساسى الذى من أجله وضع علم البلاغة . يقول ابن خلدون : (واعلم أن ثمرة هذا الفن انما هي فى فهم الاعجاز من القرآن) (٢)

ولما كانت البلاغة بهذه المنزلة من علو القدر وعظم الشأن ، وقد تعرضت فى العصور الأخيرة لما تعرضت له من توقف وحمود ، بل من هجوم وتحن ، كان من المحتم أن يدعوا بعض المهتمين بشئون الأدب واللغة الى تحديد علوم البلاغة فى العصر الحديث ، وأصبحت تلك الدعوة قضية تثار من وقت لآخر ، ومحاولات واهية ، تظاهر حيناً وتختفى أحياناً .

والشكوى من الحيف الذى لحق علوم البلاغة شكوى قد يمسة (فلا تكاد تطالع على مؤلف فى البلاغة العربية - منذ أخذت تتكون - علما له قواعد ورسوم ، وتسلك طريقها الى التحديد والتقصيد - حتى تجد العلماء يجهرون بالشكوى المرة ، من اجمال الناس لهذه العلوم ، وانصرافهم عنها ، ويعدوهم عن التعق فى دراستها ، واكتفائهم بالقشور دون اللباب وتقاعسهم عن اكتفاه أسرارها واستجلاء غوامضها وتفهم شواهد ها .

(١) مدخل دلائل الاعجاز ص ٤ طبعة السيد محمد رشيد رضا سنة ١٩٦١

(٢) مقدمة ابن خلدون - باب البيان - ص ٥٢١ طبعة الشعب .

فتمجد عبد القاهر الجرجاني الامام الجليل ، يطيل القول في وصف
الظلم الذي لحق بهذه العلوم ، وعذره واضح ، فهو يرى للنحو مدارس
ودارسين ، وكثيها تؤلف ، ومناظرات تقدم ، وتنافساً قويا حاداً .
ويرى للفقه مدارس تتدارسه ، وتأخذ في تحقيق أصوله ، واستخراج
فروعه ، فتخرج بحوثاً متجددة دائمة . ويرى لعلم الكلام حركة
نشيطة ، وحيوية غالية ، فيشغل هذا العلم كثيراً من الأذهان ،
ويسيطر على كثير من العقول ، ويبلغ ذروته في البحث والاستقصاء ،
والأخذ والرد . وهكذا يجد في التفسير والحديث والاصول والمنطق
والادب . . . ثم ينظر في علوم البلاغة فلا يجد لها حياة بين الدارسين ،
ويرى التعمق في دراستها أبعد ما تكون عن تفكير العلماء . وانما يكتفون
إذا درسوا - بالنظرة العابرة ، والجولة الحائرة ، والهمة الخائرة .
ولذا يقول عبد القاهر في مقدمة كتابه " دلائل الاعجاز " بمد
أن تحدث عن علم البلاغة وفضله على سائر العلوم : " الا أنك لن ترى
على ذلك نوعاً من العلم قد لقي من الضيم مالم يقيه ، ومنى من الحيف
بما منى به " (١)

ثم يجيء السكاكي في القرن السادس فيرد في مقدمة القسم الثالث
من كتابه (المفتاح) مقاله عبد القاهر ، فيقول : " ثم مع ما لهذا
العلم من الشرف الظاهر ، والفضل الباهر ، لا ترى علماً لقي من
الضيم مالم يقيه ، ولا منى من سوم الخسف بما منى ، أين الذي مهد له
قواعد ، ورتب له شواهد ، وبين له حدوداً يرجع اليها ، وعين له
رسوماً يمرج عليها ، ووضع له أصولاً وقوانين ، وجمع له حججاً وبراهين ،
وشمر لضبط متفرقاته ذيله ، واستنهض في استخلاصها خيله ورجله ؟
علم تراه أيدى سباً ، فجز حوته الدبور ، وجز حوته الصبأ " .

ولم يكن عصر السعد والسيد بأحدب على هذه العلوم ، ولم يكن أهله أحفل بها ، فنرى السعد يقول فى مقدمة شرحه للقسم الثالث من مفتاح العلوم : " وبعد انقراض علماء فن البيان ، المطلاع على نكست نظم القرآن ، وانتقاص أمره على الزمان ، وانتقاص مدده بتعاقب الحدثان كاد تبقى رباعه من غير طلل ورسم ، وتذهب ذهاب جد يس وطسم ، وتؤذن اليها بالطمس ، ويقرأ عليها : كان بالأُس " . ويقول فى مقدمة المختصر : " وان هذا الفن قد نضب اليوم ماؤه ، فصار جدالا بلا أثر ، وذهب رواؤه ، فعاد خلافا بلا ثمر ، حتى طارت بقية آثار السلف أدراج الرياح وسالت بأعناق مطايا تلك الأحاديث البطاح " . ويرد هذه المعانى بأسهاب فى مقدمة المطول .

ونلاحظ أن العلماء كذلك يحرصون فى أوائل كتبهم على أن يبينوا أن هذه العلوم جليلة القدر ، عظيمة المنزلة ، لما يترتب عليها من فهم اعجاز القرآن ، وأنها أولى العلوم بالدراسة ، وأحقها بالعناية ، فمن الرسوم المقررة أن تجد فى أوائل كتب البلاغة اشادة بمقادير هذه العلوم ، وشكوى من تقاصر الهمم عن تحصيلها . وهذه كلمة لأحد المؤلفين من علماء القرن الثامن تعطينا صورة قوية واضحة للنهج الذى سارت عليه جمهرة كتبهم .

قال أمير المؤمنين على بن حمزة صاحب كتاب " الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز " فى مقدمة كتابه .
 " أما بعد . فان العلوم الأدبية ، وان عظام فى الشرف شأنها ، وعلا على أوج الشمس قدرها ومكانها ، خلا أن علم البيان هو أمير جندها وواسطة عقودها ، وفلكها المحيط الدائر ، وقمرها السامر الزاهر ، وهو أبو عزرتها ، وانسان مقلتها ، وشعلة مصباحها ، وياقوتة وشاحها ، ولولا له لم تر لسانا يحوك الوشى من حلال الكلام ، وينفث السحر مفتر الاكام وكيف لا وهو المطلاع على أسرار الاعجاز ، والمستولى على حقائق المجاز ، فهو من العلوم بمنزلة الانسان من السواد ، والمهيمن عليها عند السير والحك والانتقاد ، ولما فيه من الغموض ودقة الرموز ، واحتوائه على الاسرار والكنوز ، استولت عليه يد النسيان والذهول ،

وآلت نحومه وشعوسه الى الانكشاف والأفول ، ولم يختص باحرازه من العلماء الا واحد بعد واحد ، وطالما قيل : اذا عظم المطالب قتل المساعد ، وما ذاك الا لقصور الهمم عن بلوغ غاياته ، وعجزها عن ادراكه والوصول الى نهاياته .

(فاذا وصلنا الى عصرنا الحاضر نجد الشكوى لا تزال مرة قاسية ، ونحن - ولا شك - أحق بالشكوى ، وأولى بتصوير الظلم الذى منيت به هذه المعلوم ، فالمطابع العربية تشهد كل يوم عشرات المؤلفات ، ومع ذلك فلا نجد منها فى علوم البلاغة الا التزوير اليسير ، فأكثره للتجارة لا للعلم ، وبعضه للهدم لا للبناء) (١)

وهكذا نجد أنه - بعد هذه الجهود الطويلة قد آن الأوان لتجديد علوم البلاغة وادراكها قبل أن تفرق فى محيط الإهمال والحدود والتأخر ، فقد سحت طويلا فى بحور الفلسفة والمنطق وعلم الكلام فلم تصادف جزيرة ، ولم تصل الى شاطئ .

والدعوة الى تجديد البلاغة لها جذور قديمة بدأت منذ بدأ البحث البلاغى ينبو ويتفرع ، ومنذ بدأت الآراء والأحكام تصدر وتتوالى من علماء البلاغة واللغة والأدب .

من ذلك ما ارتآه ابن قتيبة فى القرن الثالث الهجرى من رأى يعارض به ما ساد فى عصره وقبل عصره من بعض الآراء التى تجعل القداسة للقديم وحده ، فنجدده يقرر : أن الله عز وجل لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خير به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباد الله فى كل دهر . (٢)

واذا كان ابن قتيبة قد دعا الى تجديد البلاغة ، فهل ما جاء به الجاحظ وابن المعتز من إضافات لها وزنها فى البحث البلاغى يعد من قبيل التجديد .

(١) تضايا بلاغية : ص ١٣٦ د . العمادى .

(٢) الشعر والشعراء ص ٦ .

ان الجاحظ جمع ما تفرق في كتب السابقين من مباحث بلاغية ، وما تناثر هنا وهناك من أحكام وآراء نقدية وبلاغية ، وصاغ كل ذلك بأسلوب أدبي ، وأضاف من عنده بعض المباحث ، كبحثه في اللفظ والمعنى .

وابن المعتز وضع كتابه (البديع) فكان أول كتاب يجرّد مباحث البلاغة ، ويخلصها مما أختلطت به من مباحث علوم أخرى ، وقد اخترع سميات ووضع رموزا لكثير من ألوان البديع .

وكذلك فعل قدامة بن جعفر ، فانه جاء في كتابه (نقد الشعر) بصياغة جديدة للبلاغة العربية ، فاخضعها لنزعتة الأجنبية ، ولمنهجها المتأثر بالفلسفة والمنطق وما عرف من قواعد البلاغة عند أرسطو وفلاسفة اليونان حين ذاك .

وأبو هلال العسكري الذي يعتبر كتابه (الصنائع) بداية تحول النقد الى بلاغة ، والذي (يمكن أن يعد نقطة تحول في الدراسات البيانية والنقدية ، وأنه جنح بتمام المعالم الذوقية اتجاه قاعدة بيانها وضع من أسس فن البلاغة التي يعد كتابه مصدرا من أهم مصادرها)^(١)

ثم عبد القاهر الجرجاني الذي نضجت على يديه نظرية النظام ، وبلغ البحث البلاغي بفضله الى القمة ، وكان كتاباه - أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز - من أحدث وأفضل كتب البلاغة في عصره ، ومازالا الى يومنا هذا أروع ما كتب في علم البيان .

كل ذلك هل يعتبر تجديدا ؟ وهل كل ما أضافه واستحدثه هؤلاء العلماء يعد من قبيل التجديد ؟

أغلب الثامن أنه ليس كذلك . . فقد كانت البلاغة العربية في دور التكوين والبناء - لم تكتمل بعد - والتكوين والبناء لا يعتبران تجديدا ، بل هما انشاء وإيجاد .

(١) البيان العربي ص ١٢٦ - د . طابانة .

ولكن نستطيع أن نقول : انه لما نضجت البلاغة ومباحثها على يد عبد القاهر ، ثم بدأت تنحدر على يد السكاكي ومن تابعه من بعده حتى بداية العصر الحديث - كما أوضحنا من قبل - وجدنا البلاغة العربية وقد أجهدوا السير الطويل في شعاب مقفرة مظلمة فشحب لونها ، وحف عودها ، وذهب روائها ، فكانت حينئذ في حاجة الى التجديد .

ومن هنا ارتفعت أصوات بعض العلماء والمهتمين بشئون البلاغة يدعون الى تحديثها .

وهذا ليس عيبا توصم به البلاغة ، فكثير من العلوم جدت وطورت وأخذت مكانتها في العصر الحديث .

وإذا كان الأوان قد آن لتحديث علوم البلاغة ، والوصول بها الى ما نرجو لها من قوة وتمكن وتأثير ، فما هو الطريق الأسلم الذي نسلكه الى هذا التحديث ؟

وهل يكفي أن نفعل ما فعله الامام محمد عبده حين قام بتدريس كتابي عبد القاهر - دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة - في الأزهر الشريف؟ يقول الدكتور احمد مطلوب : ان الأزهر الشريف هو أول من حمل لواء التحديث في البلاغة (وذلك بأن قيض الله له الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الذي أخذ يحيى كتب السلف وعلومهم ، ويقوم ما اعوج من مناهج التأليف وطرائق التدريس ، فقد انصرف الشيخ الى تدريس كتابي " دلائل الاعجاز " و " أسرار البلاغة " لعبد القاهر وبذلك فتح أذهان الطلبة ، وقوى مداركهم ومواهبهم ، لأنهم وجدوا في تدريس الامام غير ما ألفوه ، وبذلك كان الجامع الأزهر أول معهد من معاهد التعليم الاسلامي والعربي قرئ فيه : دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة - بعد الفغوة الطويلة - درسا لطالاب البلاغة ، ولأجله طبع الكتابان وانتشرا . وقد تخرج في الأزهر الشريف في مطلع العصر الحديث جميل فيه عزم على البحث ، وفي روحه اندفاع الى التحديث (١)

ومع اعترافنا بجهد الامام الشيخ محمد عبده وحسن عنيجه ، وأنه أفاد طلاب
الازهر في البلاغة ، نرى أن مافعله الامام الجليل انما كان بداية طيبة
لنمضة بلاغية مأمولة ، ومحاولة لها قيمتها في ارواء شجرة البلاغة التي
جفت وكادت تذويها الرياح .

ولكن مافعله الامام محمد عبده - مع ماكان له من قيمة وفائدة جليلة -

هل يعتبر تجديدًا ؟

الواقع أنني لا أرى فيه أى تجديد ، فالامام الجليل اختار أفضل
الكتب في البلاغة ليدرسها لابنائها الطلاب في الازهر ، وهذا كان عملا
جليلا لاشك فيه ، ولكنه لايعتبر بحال من الأحوال تجديدًا ، وانما يعتبر
- في رأي - من قبيل احياء التراث والاستفادة به .

وعلى هذا فلا يمكننا أن نعتبر الامام محمد عبده من المجددين في علم
البلاغة وان كان أول من حاول في العصر الحديث أن يحيى تراثها ، ويضحي
أفضل قناديلها ، فأجاد وأفاد . رحمه الله .

مفهومنا عن التجديد

واذا لم يكن كل ما تقدم من قبيل التجديد ، فما مفهوم التجديد عامة ؟
وما المراد بتجديد البلاغة خاصة ؟

نقول وبالله التوفيق : ان مفهوم التجديد عامة يتضح اذا نظرنا الى الشئ
وضده ، فبضدها تتميز الأشياء .

فالجديد ضد القديم ، والقديم يتجدد ، والجديد يصبح قديما ، وتجديد
القديم ينبغى ويندب اذا دعت الحالة الى ذلك ، ويكون التجديد حينئذ
بازالة سمات القديم وما نتج عنه من ضعف ووهن ، ثم تزويده بعد ذلك بما
يقويه ويعيد اليه رونقه وجده وجماله ، بحيث يصبح لحسنه وقوته محبوبا
جاذبا للانتباه .

أما أن نترك القديم كله ، وندعه للفناء والبلى ، ثم نأتى بجديد آخر ، يحل
محله ويأخذ مكانه ، فليس ذلك بتجديد ولا تطوير ، بل هو وضع شئ مكان آخر .
فالتطوير والتجديد يستلزمان أن يكون هناك قديم أصلا يجرى عليه التجدد والتطور

هذا هو مفهومنا عن التجديد بمعنى عام .

وط هذا الاساس يمكن أن نفهم المراد بتجديد البلاغة . فإن القائلين بالقاء بلاغتنا القديمة ، والقاء كتبها في بحر الظلمات واستيراد بلاغة أخرى أجنبية تحل محلها . هؤلاء ليسوا بحال من الأحوال مجرد دين ، وإنما هم في الحقيقة غاشمون معتدون على تراثهم وتاريخهم مفضون لأمتهم ولغتهم .

فتجديد البلاغة في مفهومنا هو أن نتناول بلاغتنا القديمة - ولكل قديم رآه - فنخلصها من رائها ، ثم نضيف إليها ما يقويها ويرد شبابها ورواءها ، ثم نكسوها أحدث الحل وأبهاها حتى تصبح في العصر الحديث فتنة للناظرين .

وقد يكون من المفيد - والمؤيد لنا في هذا المقام - أن نعود الى المعاجم فنستأنس بما قالت في مادة (جدد) . فنجد لهذه الكلمة في (المنجد) أحد عشر معنى ، وكثيرا من الاستعمالات والتركييب نجترئ منها ما يأتي :-

جَدَّ = قطع ، والمجدود المقطوع .

وجد = في الأمر ، عجل وأسرع .

وجد = به الأمر ، اشتد

وجد = في أعين القوم : عظم .

وجد = اجتهد ، وجد في الأمر = حقق ، اهتم .

واجد الامر = حققه ، أحكمه .

والجد (جدد) بكسر الجيم = ضد الهزل .

والجد = المحقق المبالغ فيه ، يقال " عذاب جدّ " أي مبالغ فيه .

" وفلان عالم جدّ عالم " أي متناه في العلم ، و " عظيم جدا " أي بالغ الغاية في العظام .

والجد = يفتح الجيم وضمها ، الحظ - الحظوة - الرزق ، والجديد

والمجدود = ذو الحظ .

ونستطيع ما تقدم أن نستخدم في معنى التجديد عدة أساليب
 مثل : جد في أعين القوم : أي عظم . بمعنى أن القديم عندما يصير
 جديدا يعظم في أعين الناس ويعجبهم ويقلون عليه .
 ومثل : جد في الأمر : أي حقق واهتم . بمعنى أن القديم لابد أن
 يقوم تجديده على أساس من التحقيق والاهتمام . ومثله : أجد الأمر .
 أي حققته وأحكمه . وعظيم جدا : أي بالغ الغاية في العظام .
 أما الحد بمعنى : الحظ والحظوة فلا يخفى مناسبتها لمعنى الجديد
 فالجديد والمحدود : ذو الحظ ، لأنه بعد أن كان قديما لاحظ له ،
 أصبح بعد العناية به وتجديده ذا حظ عظيم .

وفي المنجد أيضا :-

جد الثوب حدة = صار جديدا .

وحد وأحد الشيء = صيره جديدا فتحد ، والجديد ج حدد :
 عكس القديم .

" والجديدان والأحدان " الليل والنهار ، لانهما لا يلبيان أبدا . وهما
 لا يفردان فلا يقال للواحد منهما الجديد أو الأحد . (١)

وفي المختار من صحاح اللغة نحترئ أيضا ما يأتي :-

والحد أيضا : الحظ والبخت ، والجمع الحدود ، تقول منه : حددت
 يافلان - على ما لم يسم فاعله - أي صرت ذا حد ، فأنت جديد : حظيظ
 ومحدود : محظوظ ، وحد - بوزن حد - ، وحدى - بوزن مكى . وفي
 الدعاء : " ولا ينفع ذا الحد منك الحد " أي لا ينفع ذا الفنى عندك
 غناه ، وإنما ينفعه العمل بطاعتك ، و " منك " معناه عندك .
 وقوله تعالى : " وأنه تعالى حد ربنا " أي عظمة ربنا ، وقيل : غناه .
 وفي حديث أنس : " كان الرجل منا إذا قرأ البقرة وآل عمران حد فينا " أي
 عظم في أعيننا .

تقول من العظمة ومن الحظ أيضا : حددت يارجل - بالكسر - حدا بالفتح
 والحد - بالكسر - : ضد الهزل ، تقول منه : حد في الأمر يحد ويحد
 والحد - بالكسر أيضا - : الاجتهاد في الأمر ، تقول منه : حد في الأمر
 يحد ويحد - بكسر الجيم في المضارع وضما . وتقول : أجد في الأمر أيضا .

والجدة - بالضم - الطريقة ، والجمع جدد ، قال الله تعالى : " ومن
الجمال جدد بيض وحمر " أى طرائق تخالف لكون الجبل .
وحد الشئ : قطعه ، وبابه رد . وثوب جديد ، وهو فى معنى مجدود
يراد به حين حذّه الحائك : أى قطعه . قال الشاعر :
أبى حبس سليب أن يبيدا وأهـ حبـلها خلقا جديدا
أى مقاصدا .

وتجدد الشئ : صار جديدا . وأجدّه ، وجدّده ، واستجدّه : أى صيره
جديدا . (١) ونخلص من ذلك كله إلى أن جميع الصيغ تدل على أن هناك
شيئا يجرى عليه التجديد أو التجدد . ففى المنجد مثلا : نجد قوله :
جدد وأحد الشئ : صيره جديدا فتجدد .
وفى المختار : تجدّد الشئ : صار جديدا . وأحدّه ، واستجدّه : أى
صيره جديدا .

هذا إلى ما فى معنى التجديد من القطع ، والعظمة ، والتحقق ،
والاهتمام ، والأحكام . إلى غير ذلك مما أوردناه آنفا .
وماد لنا بسبيل الاستئناس بالمعاجم فانه لمن المهم أن نبحث هنا
كلمة أكثر ذكرها وترد يد ها مع كلمة التجديد وهى : التطوير .
ففى المنجد فى مادة (طار) نجد لها عدة معان نختار منها
ما يأتى :-

طار = طورا وطوراننا بفلان ، قرب منه .
والطور = (مصر) ج أطوار : ما كان على حد الشئ ، أو بحذاء . يقال :
" عدا طوره " أى حده ، و " جاوز طوره " أى قدره . . .
والطور = ج أطوار : الهيئة - الحال . يقال : " الناس أطوار " أى أصناف
وعلى حالات شتى .

والطور = التارة . يقال : " أتيت طورا بعد طوره أى تارة بعد تارة " . (٢)

(١) ص ٧٠ و ٧١ ط ٣ .

(٢) المنجد ص ٤٧٥ ط ٢٣ .

وفى المختار من صحاح اللغة نحتزئ أيضا ما يأتي :-

ط و ر = عدا طوره ، أى جاوز حده .

والطور = التارة . وقوله تعالى : " وقد خلقكم أطوارا " قال الأخفش :

طورا طقة ، وطورا مضغة .

(١) والناس أطوار : أى أخياف على حالات شتى .

وانا أعدنا النظار ، وردنا الفكر ، فى مادة (ط و ر) كما فى المنجد

و (ط و ر) كما فى المختار ، وجدنا العبارات الآتية :

" عدا طوره " أى حده ، و " جاوز طوره " أى قدره ، ومعنى ذلك أنه

خرج عن شكله التقليدى ، وحدّه الذى ثبت عليه ، وقدره الذى عرف به ،

وذلك نوع من التغيير والتجديد .

ونجد أيضا : الطور . ج أطوار : الهيئة أو الحال ، يقال " والناس

أطوار " أى أصناف وعلى حالات شتى .

والأصناف تتعلق بالشكل ، والحالات تتعلق بالمعنى والمضمون .

و " الناس أطوار " أى تختلف فى المظهر والمخبر ، لأن الطور هو الهيئة

المتغيرة أو الحال المختطف أو كلاهما معا ، ولا تتغير الهيئة إلا اذا كان

لها شكل قديم سابق على التغيير ، وكذلك الحال المختطف . وفى ذلك

أيضا نلمح معنى التجديد .

ونجد أيضا : الطور = التارة ، يقال : " أتته طورا بعد طور "

أى تارة بعد تارة ، ومنه قوله تعالى : " وقد خلقكم أطوارا " أى - كما

قال الأخفش - طورا طقة ، وطورا مضغة .

وهنا يتبين لنا بصورة أوضح معنى التجدد والتغير من حال الى حال

وهو هنا فى الآية تغير من نقص الى كمال ، وهو تغير تدريجى اذا لاحظنا

الترتيب فى قوله تعالى :

" ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ، ثم حملناه نطفة في قرار مكين
ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغه ، فخلقنا المضغه عظاما ،
فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر . . . " (١) فهذه كلها
أماوار متتالية يربها الحنين ، وفي كل طور منها يتغير ويتجدد من
نقص الى كمال ، حتى يستوى خلقا سويا ، " فتبارك الله أحسن الخالقين "
اذن فمادة (طار) أو (طور) فيها معنى التحدد والتغير والخروج
من حال الى حال . وتبقى مشكلة الكلمة من الناحية اللغوية ، فانه لم يرد
في اللغة لفظ (طَوَّر) مضعفا ، وبالتالي فكلمة (تطویر) غير
صحيحة لغة ، وان كانت تتضمن معنى التغير والتحول .

ونقول ان العصر الحديث يتطلب منا التوسع في اللغة ، وعدم الحود
على الصيغ والاشتقاقات القديمة ، وخاصة اذا شاع استعمال الكلمة بين
الأدباء والكتاب ، وكانت على صلة بالمعنى الذي تستعمل فيه من قريب
أو بعيد .

وهذه الكلمة على صلة بالمعنى واللفظ ، فلماذا لا نشق من مادة
(طار) أو (طور) طَوَّر بالتضعيف ؟ خاصة وان كان لها في ذلك
شبيه ونظير ، مثل : مادة (طال) أو (طول) فانه يتصرف منها : طال
يطاولا ، طولا ، وطاول بالتضعيف يطاول تطاوila . وكذلك : خاف يخاف خوفا ،
وخوفاً يخوِّف تخويفا ، وتخوِّف يتخوِّف تخوفاً وأيضا : حال يحول حولا ،
وحول يحوِّل تحويلا ، وتحوِّل يتحوِّل تحوِّلا .

وغير ذلك كثير اذا رحت أتتبع وأرصد الأشياء والنشائر . ألا يحير لنا
كل ذلك أن نشق من (طار) أو (طور) طَوَّر يطوِّر تطويرا ، وتطوِّر
يتطوِّر تطورا ؟

وهل يجنى ذلك على اللغة أم يفيدها ويثريها ويعتبر كسبا لها ؟ وإلى
متى نظل مهسكين بزمام اللغة ، نشد لحامها ، ونخلق نوافذها وأبوابها ،
ونضرب حولها سورا حديديا ، ونمنعها من التوسع والانتشار ؟

وليس معنى ذلك أن نفتح باب التوسع في اللغة على مصراعيه ، حتى لا يحدث ما يخشاه المحافظون من شيوع العامية في الفصحى ، بل وربما أدى ذلك في المدى الطويل الى طغيان العامية وطمس معالم الفصحى ، ويصبح من العسير فهم كتاب الله وهو عقيدتنا وديننا وتشريع حياتنا ، ولكن نقول : افتحوا الباب بحساب ، فلا يدخل منه الا ما يستحق من الكلمات والألفاظ ، وما نجد له صلة بالفصحى ، وما نشعر أنه كسب لنا وللغتنا وقريب من طبعنا وأذواقنا ثم نخضعه بعد ذلك لقواعد النحو والصرف ويجب أن يشعر الأدباء والكتاب والنقاد أننا نفعل ذلك من باب التجديد والتطوير والتوسع في اللغة ، فلسنا حامدين ، ولا لغتنا حاملة ، وقد قبلت من قبل كلمات أعجمية ، ونزل القرآن ببعضها ، أفليس ذلك احياء لنا بأن لغتنا يمكن أن تتقبل وتهضم كلمات وأساليب قد تطرأ في المستقبل وتفيدنا في التصوير والتعبير .

ولا خوف على كتاب الله وفهمه من هذا التوسع المحدود ، اذا ركزنا في دروسنا وتعليمنا على أسلوب القرآن ولغته وعباراته وجعلناها مقياسا للحدود والفصاحة .

ومجامع اللغة العربية هي الحارس الأمين على تراثنا اللغوي ، وهي المسئولة عن هذا التوسع في اللغة ، فهل أدت المجامع العربية رسالتها ؟ . والى متى يظل موتها خافتا لا يحل ؟ ونعود الى كلمة (تطویر) أو (تطوّر) فنقول : ان لهذه الكلمة صلة بالفصحى من جهة المعنى ، ومن جهة اللفظ ، وطأتها موجودة في معاجم اللغة ، ولها من حيث الاشتقاق والتصريف أشباه ونظائر . وهي كلمة أثبتت وجودها وطاشت - رغما عنا - ^(١) في أساليب الكتاب والأدباء ، فما أحقها بالانضمام الى روضة الفصحى ، عضوا جديدا له مؤهلاته وكفاءته

(١) اعتمد معجم اللغة العربية هذا التعبير ، وأمله : على الرغم من كذا وبالرغم منه .

وهناك من دعاة التجديد من نادى بفكرة التوسع فى اللغة ، ولكن دعوتهم غير دعوتنا ، فنحن نرى التوسع فى حدود وقيود ، وهم يفتحون الباب على مصراعيه حتى ليحيزون اعزاز العامة بالفصحى وتداخلها ، ولسنا معهم فى ذلك مهما قدموا من اعتبارات ومبررات ، ومن هؤلاء الكاتب الكبير الأستاذ أحمد حسن الزيات ، فقد تحدث عن التجديد فى الأدب ، واللغة ، وقواعد النحو والصرف ، والعروض والقافية . ويعنينا من هذا كله قوله : (فأما التجديد فى اللغة فيكون بقبول ما وضع المولدون والمحدثون من الألفاظ والتراكيب والمصطلحات ، لأن اللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وأفكارهم والأغراض لا تنتهى ، والمعاني لا تنفذ ، والناس لا يستطيعون أن يعيشوا خرسا وهم يرون الأغراض تتحدد ، والمعاني تتولد ، والحضارة ترميهم كل يوم بمخترع ، والعلوم تطالبهم كل ساعة بمصطلح ، ولا طعة لهذا الخرس الا أن البدو والمحموريين فى حدود الزمان والمكان لم يتنبثوا بحدوث هذه الأشياء ، ولم يضعوا لها ما يناسبها من الأسماء .

بذلك ينهار السد الذى أقامه اللغويون والأدباء الأولون بين الفصحى والعامة ، فتكسب الفصحى من العامة السعة والمرونة والجدوة ، وتكسب العامة من الفصحى السلامة والصيانة والسمو ، فيكون لنا من تداخل اللغتين وتقاطعهما لغة تجمع بين محاسن هذه ومحاسن تلك . أما مساوئ الفصحى أو عجزيتها فتموت كما يموت الحوشى المهجور فى كل لغة . وأما مساوئ العامة أو حثالتها فتبقى على الأكسنة التى تستد يقها من دهما العامة ، وتكون هى العامة التى لا بد منها فى كل لغة من لغات العالم . ولكن بالنسبة للضئيلة التى لا تطفيها على الفصحى ، ولا تفرضها على الناس (١)

(١) من تقديم الزيات لكتاب: الصراع الأدبى بين القديم والجديد

ولكن كان هذا رأى الكاتب الكبير فأننا نعرف أنه قاله عن حسن نية وطيب طوية ، فاعزازه للفصحى وتقديره لها فوق كل شك . ولكن هناك من اتخذ مثل هذه الدعوى ذريعة لمحاربة الاسلام والمسلمين ، ونادى بها عن دهاء وخبت ، وأراد بها الكيد للعرب ولغة العرب وكل ما هو عربى . وسنعود لهذا الموضوع بالتفصيل فى الباب الرابع ان شاء الله .

ونعود الى كلامنا عن التجديد فى مجال البلاغة فنقول : انه قد آن الاوان للمعناية بعلوم البلاغة وتجريدها مما شأنها وأثقلها من مسائل علم الكلام والمنطق والفلسفة والرياضة وغير ذلك مما طغى على بلاغتنا فأخفى جمالها وحجب روائها ، حتى أطلق عليها بعض النقاد " بلاغة الأعاجم " أو طريقة الأعاجم . ولينا بعد أن نزيل عن كاهلها هذا الصب ، وننفض عنها هذا الثقل ، أن ننظر فيما يصلح لها وتحتاجه من الدراسات الحديثة ، فنأخذ منها بقدر ، وننقل اليها فى حدود وحذر ، بحيث يكون مانضيفه اليها كالأطار الجميل ، يحدد صورتها ، ويمرر سحرها وفتنتها ، ويؤثر فى النفوس .

بؤادر التجديد :

وقد كان لهذا التجديد - الذى نأمله وتدعو اليه - بؤادر وبدايات ، بدأت مع بداية هذا القرن العشرين ، وتمثلت فى محاضرات ومقالات تدعو الى تجديد البلاغة العربية بعد ما طال عليها الزمن ، ولم تغير ثوبها منذ القرن السادس الهجرى حتى اليوم . وقد كان لهذه البؤادر والبدايات أصوات تعلو حيناً ، وتخفت أحياناً ، الى أن كانت البداية التى أشعلت الحماس ، وأثارت الرأى ، تلك هى معركة البلاغة التى حمى وطيسها على صفحات مجلة الرسالة بين الدكتور العمارى والاستاذ أمين الخولى ثم انضم اليهما آخرون .

وتشور قضية التجديد البلاغى ، فيعكف الأستاذ أمين الخولى على كتابه " فن القول " ويضمنه آراءه وخطاته فى تجديد البلاغة .

ويشارك الاستاذ احمد حسن الزيات فى القضية فيدفع الى الميدان بكتابه : " دفاع عن البلاغة " .

ومن قبل وفى الجامعة الأمريكية يلقى البشرى محاضرة : " ثورة على علوم البلاغة " .

وفى المجمع اللغوى يلقى د . عبد الرزاق محبى الدين بحثه : " مفاهيم بلاغية "

وتعقد الندوات والمحاضرات بين المعنيين بالدراسات البلاغية والنقدية وتذاع على الهواء ، كالندوة التى عقدت بين الدكاترة : غنىم هلال ، وبدوى طابانه ، واحمد بدوى .

وفى جامعة الأزهر ينشأ قسم خاص بالبلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية ، ويقوم أساتذته بالدعوة الى تجديد البلاغة وتطويرها . وفى آداب القاهرة ، والاسكندرية ، وعين شمس ، ودار العلوم ، ترتفع الأصوات بضرورة اصلاح البلاغة وتجديدها حتى تخرج من عزلتها ، وتعود الى المشاركة والعمل فى ميادين الأدب ، بعد ما أوشكت مقاييس النقد الأدبى الجديد أن تزيجها وتحل محلها . بل أن ذلك قد حدث بالفعل فى السنوات الأخيرة .

كل ذلك أثار قضية البلاغة بعد ركود ، وأيقظها بعد سبات ، وأخذ العلماء والأدباء وأساتذة البلاغة ، يعبرون عن آرائهم ، ويعلنون عن اتجاهاتهم فى تطوير البلاغة وتجديدها .

الفصل الثاني

اتجاهات التجديد ومظاهره

عندما انطلقت أموات الدعاة في العصر الحديث تنادى بتطوير
البلاغة وتجديدها ، بدأ كل منهم يطرب عن رأيه في التجديد ،
ويبين وجهة نظره في التطوير .
وباستقراء آراء هؤلاء الدعاة ، نجدهم في دعوتهم الى التجديد
يتجهون في شبه اجماع الى تخليص البلاغة مما شابها من علوم المنطق
والفلسفة وغيرهما مما جنى عليها وأضر بها ، ثم يختلفون بعد ذلك ؛
أ - بعضهم يرى الاعتماد على تراثنا في البلاغة وجعله أساسا للتجديد
وأن التجديد يجب أن يكون نابعا من روحنا ومجتمعنا وتكويننا
وفطرتنا وذاقنا .

ب - وبعض آخر يرى أن الكتب القديمة التي تناولت البلاغة بمنهج
السكاكي والخطيب يجب أن تلغى ويحل محلها كتب أخرى حديثة
مؤلفة على منهج حديث . ومعنى ذلك أن التجديد عند هؤلاء
أن نلقى بتراثنا البلاغي في بحر الظلمات ، وأنه لابد من وأد
القديم ليظهر الجديد وينتمش .

ج - وبعض ثالث يرون مزج البلاغة العربية بأصول الدراسات البلاغية
في شتى اللغات الحديثة الأوروبية ، وأنه من الخير الجمع بين
ما يصلح من تراثنا وما يصلح من بلاغة الغرب ، وأن التعايش بين
القديم والحديث أفضل نتاجا وأقوى أثرا .

مظاهر التجديد الأولى :

كان لهذه الاتجاهات في تجديد البلاغة والدعوة الى تطويرها
آثار ومظاهر بدأت صغيرة بسيطة ، ولكنها أخذت تكبر وتقوى وتشقت حتى
صارت شمعا وهادة توضح معالم الطريق الى بلاغة عربية جديدة .
ومن أول المظاهر التي رأيناها - كآثر من آثار الدعوة الى التجديد -
مظهران : أولهما نظري ، والثاني عملي .

مقدمة لدراسة بلاغة العرب :

كان من أوائل الذين دعوا الى الاهتمام بالبلاغة وشجع يد هذا
الدكتور احمد ضيف الذي أصدر كتابه : (مقدمة لدراسة بلاغة العرب)
وكان ذلك عام ١٩٢١ .

وهذا الكتاب - فيما وجدنا - هو أول ظاهرة نظرية ، تحدثت عن
البلاغة وتعريفها بطريقة مفيدة لطريقة القدماء ، وقد يكون ماورد في
هذا الكتاب يمثل صلة الى المدرسة الأدبية ، ولكنه على أى حال كان
أول ظاهرة للخروج على نظام وروح المدرسة السكاكية .

وفي هذا الكتاب يرى الدكتور ضيف أن البلاغة هي : (كل قول
الغرض منه قبل كل شئ ، الاستيلاء على نفس السامع أو القارئ بفصاحة
العبارة وحسن التركيب وبراعة الكاتب أو الشاعر) . أو بعبارة أخرى :
(هي الكلام الفنى المستع ، والكلام الفنى يملأ نفس السامع وعواطفه فى أى
موضوع كان ، وعلى أى معنى دل) . ولعل الكاتب أراد بهذا التعريف
للبلغة أن يبعد عن التعريفات القديمة التقليدية ، وما ترتب عليها من
محتررات وشروح وتعليقات . ولئن كان هذا قصده فلقد أفلح الى حد
ما على الأقل .

ويفرق الكاتب بين البلاغة وعلومها . . (فعلوم البلاغة هي علوم البيان
المعروفة بالمعاني والبيان والبديع . أما البلاغة فهي عبارة عن أدب
اللغة ، فهي تحبير اللفظ واتقانه ليلغ المعنى قلب السامع أو القارئ
بلا حساب ، ولينال الكاتب أو الشاعر من الأثنية ما يريد ، وهي المقصودة
بقوله عليه السلام : " وان من البيان السحرا " ، وأنها ابلاغ المتكلم حاجته
بحسن افهام السامع ، ولذلك سميت بلاغة) .

ولا حديد فى هذا فالفرق بين البلاغة وعلومها وارد فى كتب
السابقين ، وكذلك هذا التعريف الذى ورد فى آخر الفقرة السابقة .

ويرى الدكتور أحمد ضيف : (أن البلاغة فن من الفنون الجميلة مثل التصوير والموسيقى ، والغرض منها تهذيب النفس ، وترقيق العواطف ، وتقوية الملاحظة ، فهو مسلاة النفوس ، وأنيس الجليس ، فعلى هذا هي ضرب من الكمال . أما من جهة أنها معرض عام للحياة ، وجعبة لأفكار الانسان ، ومسرح الآراء والفلسفة ، فهي شئ من الضروريات لتربية الافكار وتهذيبها .)

ويوضح د . ضيف كلامه هذا بأن هناك نوعين من البلاغة : (البلاغة الوجدانية ، والبلاغة الاجتماعية . فالبلاغة اما أن تكون عبارة عما يحول فى نفس الانسان من عواطف واحساسات وخيالات وغيرها مما يدل على شخصية الكاتب أو المتكلم فحسب . واما أن تكون صورة غير صورة نفس الكاتب أو الشاعر . فالأولى هي البلاغة الوجدانية ، والثانية هي البلاغة الاجتماعية (١)

وتقسيم البلاغة الى وجدانية واجتماعية يعتبر رأيا جديدا ، ان لم نسمع بهذا التقسيم من قبل ، ولكنه على أى حال تقسيم غير مقتنع ولا مفيد ولعل الكاتب خلط فى هذا التقسيم بين الأدب والبلاغة ، لأن من أنواع الأدب ، الأدب الوجدانى أو الذاتى : وذلك عندما يتحدث الأديب عن نفسه وعن مشاعره وأحاسيسه وتصوراتهِ . والأدب الاجتماعى : وذلك عندما يتناول الأديب مشاكل المجتمع وسور الحياة المختلفة . ويرجح هذا المزج بين البلاغة والأدب ما قاله الكاتب عندما فرق بين البلاغة وعلومها فعرف البلاغة بأنها : عبارة عن أدب اللغة .

هذا وقد فرق القدماء بين الشعر الوجدانى والشعر الاجتماعى . فهذا التقسيم ان بالنسبة للأدب شعرا ونثرا ليس جديدا ، ولكنه بالنسبة للبلاغة جديد وغريب .

(١) راجع ص ٢٧ - ٣٧ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

أما الغرض من البلاغة فيقول الكاتب : (بأن جماعة من العلماء أن)
 الغرض منها - أي البلاغة - نشر المعلومات الصحيحة بأسلوب يلذ للناس
 وقالوا : انه لا يصح أن يقول الشاعر ما لا معنى له ، أو يكتب الناثر صحيفة
 أو صحيفة بدون أن تحتوى على معلومات مفيدة ، وحتى قال " تين " في
 مقدمة كتابه " تاريخ البلاغة الانجليزية " ان البلاغة صورة كاملة
 صحيحة من الزمن والأشخاص الذين يعيشون فيه (١)
 وأعتقد أيضا أن " تين " في كتابه " تاريخ البلاغة الانجليزية "
 خلط كذلك بين الأدب والبلاغة . فالأدب هو الذي يوصف بأنه صورة
 كاملة صحيحة من الزمن والأشخاص الذين يعيشون فيه . وليس البلاغة .
 ويعود الدكتور فيقرر أن الرأي الصحيح السائد هو أن (الغرض من
 البلاغة اعماب القارئ أو السامع ببراعة الكاتب أو المتكلم ، وأنه لا يطلب
 من البليغ أن يملأ كلامه بشئ ، من المعلومات الصحيحة) (٢)
 والجزء الأول من هذا الكلام هو عودة من المؤلف الى قوله سابقا
 في تعريف البلاغة هي : (كل قول الغرض منه قبل كل شئ ، الاستيلاء
 على نفس السامع أو القارئ بفصاحة العبارة وحسن التركيب وبراعة
 الكاتب أو الشاعر) . ونسى الكاتب أن الغرض من البلاغة أولا وقبل كل
 شئ ، هو : تربية الطليعة لادراك الاعماز . ثم هو بعد ذلك - على حد
 تعبير الكاتب - : تهذيب النفس ، وترقيق العواطف ، وتقوية الملاحظة
 وهو أمر ضروري في تربية الآمال العربية وتهذيبها ، وليس ضربا من
 الكمال كما يقول الكاتب .

أما الجزء الثاني - وهو أنه لا يطلب من البليغ أن يملأ كلامه بشئ ،
 من المعلومات الصحيحة - فليس دأخلا في أغراض البلاغة من قريب أو بعيد
 ولعل الكاتب يقصد أن العبرة في البلاغة بالأسلوب لا بالمعنى ، وأن الشكل
 هو المعول عليه .

(١) لم يحدد الدكتور من هم جماعة العلماء الذين يقصد بهم .

(٢) (٣٩٢) راجع ص ٢٧ - ٣٧ من مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

وهو الذى ينفى على المضمون قوة وسحرا ، سواء كان المضمون يتضمن معلومات صحيحة أو خاطئة . وهو بذلك يدخل فى قضية اللفظ والمعنى . هذا والكتاب لم يعن بوضع خطة أو منهج جديد ، وإنما هو محاولة مبكرة للخروج على نظام المدرسة الكلامية فى تناول البلاغة ، والاستفادة بما جدد من حديث البلاغة عند النحريين .

البلاغة الواضحة :

ويعد كتاب الدكتور احمد ضيف الذى أصدره سنة ١٩٢١ - طهر فى مجال التأليف البلاغى فى العصر الحديث كتاب " البلاغة الواضحة " سنة ١٩٣٠ وقد قام بتأليفه الاستاذان : على الحارم ومصطفى أمين . . . وهذا الكتاب كان - فيما وجدنا أيضا - أول ظاهرة عملية تطبقية لدعوة التجديد البلاغى وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يتناول علم البلاغة بشئ . من التعديل الجوهرى ففسد أجاد الصغر وأحسن اختيار الأمثلة وشرحها بأسلوب معاصر قريب من أفهام الدارسين وأكثر من الشواهد الأدبية الحديثة . فهذا الكتاب عودة بعلم البلاغة الى المدرسة الأدبية التى هجرها أكثر المؤلفين منذ عهد السكاكى الذى أصل المدرسة الكلامية وكان من أعلامها وورثتها بعدة حتى العصر الحديث . والمؤلفان لم يدعيا أنها أتيا بمنهج جديد فى علم البلاغة أو زادا شيئا ذا أهمية وإنما عرضا علم البلاغة بطريقة علمية جديدة تشجع على الاقبال والدرس فقد نفخنا عنه كل الأساليب العقيمة والمسائل الجدلية وركزنا على اللباب والجوهر وعرضناه بأسلوب عبرى جميل مستساغ . وقالوا فى المقدمة : (وأملنا أن يكسبون لعملنا هذا شأن فى أحياء الأدب ، وتوجيه أذهان المعلمين والطلاب الى هذه الطريقة التى ابتكرناها فى دراسة البلاغة ، ولعلنا نكون قد وفقنا الى ما قصدنا اليه ، والله خير مستعان) .

وأكبر الشان أن هذا العمل فى حينه كان بداية طيبة واتجاها قيما نحو دراسة جديدة لعلم البلاغة . . . وقد قررت وزارة المعارف المصرية آنذاك هذا الكتاب على طلاب المرحلة الثانوية ومدارس المعلمين .

ومما بلغت للنظار أن الكاتبين الجليلين لم يتحدثا عن طريقتهما الجديدة في كتابهما الجديد . . . ولم يقوما بوضع نظرية مسببة لها . . . وإنما قاما بوضعها موضع التنفيذ دون مخب أو ضجيج . وقد ما الكتاب الذي أثبت أنه خير كتاب ألف في علم البلاغة حتى ذلك الوقت . وربما حتى اليوم . . . يبدأ الكتاب بمقدمة في : الفصاحة والبلاغة والأسلوب . فيتكلم عن الفصاحة كما وردت عند السابقين ولكن بمرض جميل شائق مقنع . ثم يتحدث عن البلاغة . . . فيأتي بتعريف جديد - غير بعيد عن التعريف القديم - لكنه سهل العبارة واضح المعنى يقول : (أما البلاغة فهي تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة ، لها في النفس أثر خلاب ، مع ملائمة كل كلام للمواطن الذي يقال فيه ، والاشخاص الذين يخاطبون به) (١) ووصفه المعنى بالجليل فيه نظار ، لأن القدماء لم يشترطوا ذلك ، ولأن البليغ قد يتناول المعنى التافه والردى . فيرفع قدره . ويعلى منزلته .

والواقع أن هذا التعريف قريب من تعريف الدكتور أحمد خفيف في كتابه (مقدمة لدراسة بلاغة العرب) الذي سبق الإشارة إليه . ولكن تعريف البلاغة الواضحة أشمل وأجمل .

ويعود الكتاب فيتحدث عن البلاغة بوصفها فنا في أسلوب شفاف رقيق فيقول : (فليست البلاغة قبل كل شيء إلا فنا من الفنون يعتمد على مقام الاستعداد الفطري ودقة ادراك الجمال ، وتبين الفروق الخفية بين صنوف الأساليب ، وللمرانة يد لاتحد في تكوين الذوق الفني ، وتنشيط المواهب الفاترة ، ولا بد للطالب إلى جانب ذلك من قراءة طرائف الأدب ، والتلو من نعيمه الفياض ، ونقد الآثار الأدبية والموازنة بينها ، وأن يكون له من الثقة بنفسه ما يدفعه إلى الحكم بحسن ما يراه حسنا ، ويقبح ما يحدده قبيحا .) (٢)

(١) ص ٨ البلاغة الواضحة ط ٢١

(٢) المصدر السابق .

ويستأورد الكتاب في عرض مقارنة طريفة مختصرة بين البليغ والرسام ثم يتطرق الى عناصر البلاغة بأسلوب جميل وأمثلة وشواهد أكثر مما لا يتحدث الكتاب بعد ذلك عن الأسلوب وهو شئ جديد أضيف الى الفصاحة والبلاغة . . . ويعرفه بأنه (المعنى المصوغ في ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفضل في نفوس سامعيه) (١) وهذا التعريف للأسلوب قريب من التعريف القديم لابن خلدون الذي يرى أن الأسلوب " يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها في الخيال كالقالب والنموال . . . (٢)

وعلى هذا المفهوم يرى الأستاذ الشايب في تعريفه للأسلوب ، فهو عنده " معان مرتبة قبل أن تكون ألفاظا منسقة ، وهو يتكون في العقل قبل أن يتطابق به اللسان أو يجرى به القلم " (٣) أما عبد القاهر فقد كان الأسلوب عنده : " الضرب من النظام والطريقة فيه " (٤) والأسلوب في البلاغة الواضحة " يتنوع الى ثلاثة أنواع :-

- (١) الأسلوب العلمي : وهو أهدأ الأساليب ، وأكثرها احتياجا الى النطاق السليم ، والفكر المستقيم ، وأبعدها عن الخيال الشعري ، لأنه يخاطب العقل ، ويناجي الفكر ، ويشرح الحقائق العلمية التي لا تخلو من غموض وخفاء . وأظهر ميزات هذا الأسلوب (الوضوح) ولا بد أن يبدو فيه أثر القوة والجمال . ثم يشرح هذا الكلام في وضوح وإيجاز .

(١) ص ١٢ المرجع السابق .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٨ ط ١

(٣) الأسلوب ص ٤٠ ط ٤

(٤) دلائل الأعجاز ص ٣٦١

(٢) الأسلوب الأدبي : و (جمال) أبرز صفاته ، وأهم مميزات . . . ويذهب الكتاب فيشرح جمال الأسلوب الأدبي بعرض مجموعة قيمة من الأمثلة والشواهد المريحة للنفس المفيدة للعقل بأسلوب شائق جذاب ثم يقول في النهاية : (وطمة القول أن هذا الأسلوب يجب أن يكون (ميلا) رائعا يبيع الخيال ثم (واضحا قويا) . ويتان الناشئون في صناعة الادب أنه كلما كثر المحاز ، وكثرت التشبيهات والأهيلة في هذا الأسلوب زاد حسنه ، وهذا خطأ بين ، فإنه لا يذهب بجمال هذا الأسلوب أكثر من التكلف ، ولا يفسده شر من تعدد الصنعة ونعتقد أنه لا يعجزها قول الشاعر :

فأطارت لؤلؤا من نرجس وسقت . . . وردا وهفت على العناب بالبرد

هذا ومن السهل عليك أن تعرف أن الشعر والنثر الفنى هما موطن هذا الأسلوب ففيها يزدهر ، وفيها يبلغ قنة الفن والجمال . (١)

(٣) الأسلوب الخطابي : وهنا تبرز " قوة " المعاني والألفاظ ، و " قوة " الحجة والبرهان ، و " قوة " العقل الخصب ، وهنا يتحدث الخطيب الى ارادة سامعيه لاثارة عزائمهم واستنهاض همهم ، و " جمال " هذا الأسلوب و " وضوحه " شأن كبير في تأثيره ووصوله الى قرارة النفوس . . . (٢) ويذهب الكتاب فيتحدث في أسلوب شائق واضح عن مميزات الخطيب ثم مميزات أسلوب الخطابة ويضرب مثلا بخطابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أغار سفيان بن عوف الأسد على الانبار وقتل عامته عليها . ويعلق على الخطابة تعليقا موزنا مقنعا ثم يقول :

(١) ص ١٥ المرجع نفسه .

(٢) ص ١٦ المرجع نفسه .

(ونرى أن نكون قد وفقنا إلى بيان أسرار البلاغة في الكلام وأنواع أساليبه حتى يكون الطالب خبيراً بأفانين القول ، ومواطن استعمالها ، وشرائط تأديتها ، والله الموفق) . (١)

ونلاحظ أن الكاتبين الحليين على الحارم ومصطفى أمين قد استعملا في كلامهما عن الأسلوب ألفاظاً : القوة - الجمال - الوضوح . وهي كلمات وردت في علم النفس الحديث ، وقد أحسننا تقسيمها على أنواع الأسلوب الثلاثة حسب مدلول كل لفظ منها - فحالا الوضوح : السمة المميزة للأسلوب العلمي ، والجمال ، السمة المميزة للأسلوب الأدبي ، والقوة : السمة المميزة للأسلوب الخطابي . على أن كل أسلوب

لا يستغنى عن اجتماع الثلاثة كل بنسبته . . فالوضوح في الأسلوب العلمي لا يستغنى عن القوة والجمال والا مازجاً فيهما ، والجمال في الأسلوب الأدبي لا يستغنى عن الوضوح والقوة والا مازجاً فيهما فائراً والقوة في الأسلوب الخطابي لا تستغنى عن الوضوح والجمال والا مازجاً غامضة باهتة . فاجتماع الثلاثة . . . الوضوح والقوة والجمال - في كل نوع من أنواع الأسلوب مهم . . غاية ما في الأمر أن كل أسلوب له سمته الأساسية - من هذه الصفات الثلاثة - التي يختاز بها .

ومن الملاحظ أيضاً أن كتاب البلاغة الواضحة أوجز الكلام عن " الأسلوب " في ست صفحات فقط ١٧ - ١٨ فأفاد وأجاد ، بينما سخر فيما يأتي أن كتاب " الأسلوب " للأستاذ أحمد الشايب استمر في هذا الموضوع فيما يقرب من مائتي صفحة ومع ذلك ففيه تافه .

ونعود إلى تصفح كتاب " البلاغة الواضحة " حيث يتناول بعد ذلك - علم البيان - فيتحدث عن التشبيه وأركانه ، ثم أقسامه ، ثم تشبيه التمثيل ثم التشبيه الضمني ، ثم أغراض التشبيه ، ثم التشبيه المقلوب ، ثم بلاغة التشبيه وبعد ما أثر منه عن العرب والمحدثين . (٢)

(١) ص ١٧ المرجع السابق .

(٢) ص ٦٨ - ٦٩ المرجع السابق .

ونجده قد استعمل فى عرضه طريقة الاستنباط التطبيقية ، أى أنه يعرض الأمثلة والشواهد أولاً ، ثم يشرحها ، ثم يستنبط القاعدة ، وأخيراً يضع لها نماذج وتطبيقات . وللهق أقول : ان الكتاب قد أحسن هذه الطريقة وأحاط استعملها .

وينتقل الكتاب بعد ذلك الى : الحقيقة والمجاز - فيبدأ بالمجاز اللغوى بنفس الطريقة الاستنباطية - ثم الاستعارة التصريحية والمكنية - ثم تقسيم الاستعارة الى أصلية وتبعية - ثم تقسيم الاستعارة الى مرشحة ومعدرة ومخالقة - ثم الاستعارة التشيلية - ثم بلاغة الاستعارة - ثم يتحدث بعد ذلك عن : المجاز المرسل وعلاقاته . . ثم المجاز العقلى . . ثم بلاغة المجاز المرسل والمجاز العقلى (١) . ويتحدث الكتاب بعد ذلك عن : الكناية وأنواعها وبلاغتها بنفس الطريقة الاستنباطية البديعة فتستقر المعلومات فى النفس وترسخ فى العقل . . ثم يختم علم البيان بحد يث قيم موجز - يعتمد على الشواهد والأمثلة - عن : أثر علم البيان فى تأدية المعانى (٢) .

ثم ينتقل الى علم المعانى : ونفس الطريقة الاستنباطية فيتحدث عن : تقسيم الكلام الى خبر وإنشاء ثم يعقد فصلاً للخبر يتحدث فيه عن : الغرض من القاء الخبر - ثم أضرب الخبر - ثم خروج الخبر عن مقتضى الظاهر . ثم يعقد فصلاً للإنشاء يتحدث فيه عن : تقسيمه الى طلبى وغير طلبى . . ثم يتحدث عن أنواع الطلبى فيتناول : الأمر - النهى - الاستفهام وأدواته - خروج بعض أدوات الاستفهام عن معانيها الأصلية - التمنى - النداء . (٣) .

وينتقل الكتاب بعد ذلك الى : القصر : تعريفه - طرقه - طرقاه ، تقسيم القصر الى حقيقى وإضافى (٤) .

(١) ص ٦٩ - ١٢٢ المرجع السابق .

(٢) ص ١٢٣ - ١٣٦ المرجع السابق .

(٣) ص ١٣٧ - ٢١٥ المرجع السابق .

(٤) ص ٢١٦ - ٢٢٦ المرجع السابق .

ثم يتحدث الكتاب عن: الفصل والوصل: مواضع الفصل . . ثم مواضع الوصل .
 وأخيرا ينتقل في علم المعاني الى الإيجاز والإطناب والمساواة فيتحدث
 عن كل منها بتركيز وإيجاز^(١) مع المحافظة على الطريقة الاستنباطية
 التي امتاز بها الكتاب .

بعد ذلك ينتقل الكتاب الى العلم الثالث من علم البلاغة (علم
 البديع) فيتحدث عن: المحسنات اللفظية ويورد منها: الجناس
 الاقتباس - السجع - ثم يتحدث عن: المحسنات المنوية ويورد منها:
 التورية - الطباق - المقابلة - حسن التعليل - تأكيد المدح بما يشبه
 الذم وعكسه - أسلوب الحكيم^(٢).

وبعد: فهذا الكتاب "البلاغة الواهجة" الذي أستعرضناه استعراضا
 عاجلا مجملا كتاب قيم في أسلوبه وطريقة عرضه . . وهو أول كتاب أخضع
 علم البلاغة لهذه الطريقة ذات العرض الجذاب . . وليس معنى ذلك
 أن هذا الكتاب وصل الى درجة الكمال المنشودة أو أنه انتهى الى نهاية
 ما نريد لعلم البلاغة . . ولكنه نقلة طيبة من القديم حققت بعض التجديد
 إذ محنت علم البلاغة ونفخت عنه كثيرا من الشوائب وعرفته عروفا أفضل
 ونسقته تنسيقا أجمل وعادت به الى أحضان المدرسة الأدبية التي حرم منها
 منذ عهد بعيد . . وليت هذا الكتاب يعاد وضعه في مناهج التدريس
 في المدارس ومعاهد المعلمين بعد حذف بعض الأبواب منه مثل: الاستعارة
 التصريحية التبعية - الفصل والوصل . . وإن كان الكتاب قد تناولهما
 في يسر وسهولة وإيجاز . . على أن لنا في الفصل والوصل رأيا سنعود
 إليه فيما بعد إن شاء الله .

(١) من ٢٢٧ - ٢٦٣ المرجع السابق .

(٢) من ٢٦٤ - ٢٩٨ المرجع السابق .

ومح إعجابنا الشديد بهذه الكتاب بوصفه بداية عملية في طريق التجديد البلاغى ، فإن لنا عليه بعض المآخذ منها :

(١) نحن فى ص ١٦٩ على أن (أنواع الانشاء غير الطلبى ليست من مباحث علم المعانى ولذلك نقتصر فيها على ما ذكرنا ولا نطيل فيها البحث) . بينما كان الواجب أن يوضح ولو بإشارة عابرة لماذا لم يعتبر الانشاء غير الطلبى من مباحث علم المعانى .

(٢) قسم المحسنات الى لفظية ومعنوية ولم يوضح الفرق بين ما ، ولماذا اعتبرنا السجع مثلاً محسناً لفظياً ، بينما اعتبرنا التورية محسناً معنوياً .

(٣) ترك أبواباً على قدر كبير من الأهمية مثل باب المسند اليه وباب المسند والحذف ، والتقديم ، وكان يمكن دراستها دراسة أدبية تبين مدى أصالتها فى البلاغة .

(٤) قصر فى أبحاث علم البديع إذ اقتصر منه على ألوان قليلة ، وترك ألواناً رائعة وكثيرة الدوران فى الكلام ، كالمبالغة ومراعاة النظر وغيرهما . وقد حرص المؤلفان اتعماً للفائدة على أن يحدرا ملحقاً للبلاغة الواضحة يستمل على حل جميع التمرينات التى تضمنها الكتاب - وما أكثرها - فجاء كتابهما " دليل البلاغة الواضحة " دليلاً على إخلاصهما للحرية وحرصهما على معاونة الجيل الجديد من دارسى البلاغة على فهم مسائلها وحل تمارينها يقول المؤلفان فى مقدمة دليل البلاغة : (وبعد ، فقد رأينا الحاجة دافعة الى خدمة كتابنا " البلاغة الواضحة " بالاجابة عن تمريناته ، لأن ما فيه من نصوص الأدب الثيرة ، وما فى مسائله وتطبيقاته من الجدة والابتكار ، قد يلجئ الطالب فى أول عهده بالبلاغة ، وبهذا الأسلوب الطريف منها ، الى الاستعانة بمن يأخذ بيده ويهديه الطريق السوى فى التفكير .

على أن إخلاص الطالب على نماذج كثيرة فى حل مسائل الأدب وشواهد يخرس فيه من غير شك ملكة البلاغة ، ويطبعه على الذوق العربى فى معالجة كثير من نصوصها ، ويبصره بأسرار الدام البليغ ، وما فيه من صنوب الحسن ، وبذائع البيان) (١)

وفي كتاب "مناهج بلاغية" يستعرض المؤلف كتب البلاغة في العصر الحديث فيقول عن هذا الكتاب (ومن أهم الكتب المتداولة "البلاغة الواضحة" للأستاذين على الجانم ومصطفى أمين، وهذا الكتاب حلقة الانتقال بالبلاغة من طابعها القديم المعتمد على تقرير القواعد وحفظ القوالب إلى الاهتمام بالتحليل، وقد اتبع المؤلفان أسلوباً تربوياً جديداً، يقوم على ذكر الأمثلة واستنهاط القواعد وشرحها... ولعل أهم ما يمتاز به كتابهما البحث في الأسلوب، وهو بحث جديد في البلاغة التي لم تخرج على ما خطه السكاكي وقرره القزويني^(١))

ومثل ذلك قال د. حنفى شرف في معرض حديثه عن المؤلفين في البلاغة في العصر الحديث (ومنهم أيضاً المرحومان على الجانم ومصطفى أمين نفسي كتابهما "البلاغة الواضحة" الذي تكلمنا فيه عن علم البلاغة الثلاثة، وأن كان يمتاز هذا الكتاب بأن فيه شيئاً من التحرر والبعد عن العقلية المنطقية التي أعابت البلاغة واللفظ الذي أعجاب علماءنا، فكانا يعرضان الشواهد للصورة البلاغية ثم يعقبان عليها بالتحليل الذي يؤدي إلى استنتاج القاعدة، وهذه الطريقة وذلك المنهج وأن عرف عنه الاختصار في القواعد والبعد عن الخلافات، إلا أن فيه أكثر من الشواهد وتحليلها والكشف عن النكتة البلاغية فيها)^(٢)

وقد شجع نجاح هذا الكتاب على صدور كتب أخرى مدرسية في البلاغة تدور حوله وتتبع طريقته. وما زالت هذه الكتب... مع تغييرات طفيفة - تتوالى على مدارسنا حتى اليوم.

أما الدكتور بدوي طيانة فنجد أنه يعرض لهذا الكتاب بإسهاب ضمن حديثه عن البيان البلاغي فيقول: (ومن أنفس كتب هذه المدرسة في القرن العشرين كتاب "البلاغة الواضحة" الذي ألفه الأستاذان مصطفى أمين وعلى الجانم.

(١) مناهج بلاغية د. أحمد مطلوب ص ٣٥٥ و ٣٥٦

(٢) الصور البيديعية : ط ١ ص ٣٥٥

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد ألف لغاية تعليمية مطابقا لمنهج وزارة المعارف لتدريس البلاغة في مدارسها الثانوية ، فإن مؤلفيه اتجها فيه كثيرا الى الأدب ، رجاء أن يجتلى الطلاب فيه محاسن العربية ، ويلمحوا مافي أساليبها من جلال وجمال ، ويدرسوا من أفانين القول وغريب التعبير ما يرب لهم نعمة الذوق السليم ، ويرى فيهم ملكة النقد الصحيح .

وقد درس المؤلفان في هذا الكتاب فنون البلاغة موزعة بين علومها الثلاثة فبدأ الكتاب بمباحث علم البيان ، فمباحث علم المعاني فبعض فنون من علم البديع مقسمة الى محسنات لفظية ومحسنات معنوية .

والحقيقة أن هذا الكتاب كان مطلع عهد جديد في كتابة البلاغة والتأليف فيها ، اذ اتجه الى استثارة الأذواق ، والتنبية على مواطن الجمال في النصوص الأدبية ، وذلك بعرض طائفة كبيرة من الأمثلة ، ثم دراسة هذه الأمثلة وبحثها بحثا جماليا ، يشرح أثرها في النفس ، وفعلها في الأدب ، ثم تلخير القاعدة البلاغية في كلمات قليلة ، واتباع ذلك بكثير من النصوص الأدبية ، ليتدرب الطلاب على دراستها واستخلاص مافيها من صفات الحسن البلاغي .

وكان هذا أول اتجاه للتخفيف من سيطرة القاعدة البلاغية ، ولتقريب البلاغة من الأدب الذي جعلت لخدمته . وكان هذا في الوقت نفسه أول تنبيه عملي للأذهان الى محاولة التحرر من المنهج المألوف في دراسة البلاغة العربية ، ذلك المنهج الذي يعنى بحفظ القواعد والتعاريف والأقسام ، واستطاع المؤلفان الى حد كبير التمهين من هذا المنهج المأثور ، فاتجهت الأذهان الى البحث عن منهج جديد يفتح لبعث البلاغة وتحريرها من منهج المدرسة القديمة .

ولقد حاول كثيرون من المؤلفين لتلاميذ المدارس اقتفاء أثر مؤلفي "البلاغة الواضحة" فنجح كثير منهم في تقليد الطريقة دون أن تظهر شخصيتهم في منهج جديد ، أو موضوع جديد — من الموضوعات التي تتجه البلاغة إلى دراستها والفحص عنها .

ومن أجمل ما يمتاز به كتاب البلاغة الواضحة بحثه في "الأسلوب" الذي عرفه بأنه "المعنى المدعو في الفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفضل في نفوس سامعيه" ثم بيان أنواع الأساليب وخمسة كل منها

ولقد كان هذا الكلام فيما أعلم أول كتابة في الأسلوب ، ومحاولة تقسيمه إلى أنواع ، وشرح خائص كل نوع منها ، وقد عني بعض الدارسين بهذا الموضوع فيما بعد ، فزادوا في أنواع الأساليب ، وفصلوا القول في خائص كل منها

ونستطيع أن نقول أن هذا الكتاب يمكن أن نعدّه حلقة اتصال بين ما استقرت عليه البلاغة ، وما يرجى أن يكون لها من بحث وحياة وازدهار (١)

وهكذا بدأت بوادر التجديد واتجاهاته تتضح معالمها ، وتبرز خطوطها ، مهددة الطريق لدعوات التجديد البلاغية .

الباب الثانى

(دعوات التجديد البلاغية)

ودعوات التجديد فى العصر الحديث إنما نمتى بها تلك التى بدأت مع هذا القرن العشرين ، حيث بدأت النهضة العربية فى العلوم والآداب تأخذ سبيلها وتشق طريقها بعد أن انفتح العرب على النهضة العربية الأوربية واطلموا على الكثير من علومها وآدابها ، فكان لذلك أثره فى حفز الهمم العربية للنهضة بالعلوم والفنون والآداب وكان نصيب اللغة العربية وآدابها - خاصة الأدب والنقد - نصيبا وافرا فى هذه النهضة الحديثة .

لكن البلاغة - كمهدنا بها منذ القرن السادس الهجرى - لم تأخذ حظها فى هذه النهضة وأن كانت لم تعدم أنصارا تحدثوا عنها ودعوا الى تجديدها .

وسوف يكون حديثنا فى هذا الباب على النحو التالى :

الفصل الأول - بحوث فى البلاغة وتجديدها .

الفصل الثانى - آراء فى التجديد البلاغى .

الفصل الثالث - حركة الرسالة .

الفصل الأول

بحوث في البلاغة وتجديدها

كان كتاب "البلاغة الواضحة" وما أعقبه وتلاه من كتب مدرسية مماثلة مجرد بدايات ، الغرر منها تخليص البلاغة من برائن المدرسة الكلامية وتقريبها الى أفهام الدارسين - والتأثير فيهم باتباع وسلوك مسلك المدرسة الأدبية في ايراد الأمثلة والسوائد من الروائع الأدبية والاكثار منها بحيث يمكن عقل موهبة الدارسين .

ولكن هذه النقلة من طريقة المتكلمين الى طريقة المتأديين لم تكن الا الخطوة الأولى على طريق تجديد البلاغة ، ولم تؤد الى النتيجة المطلوبة ، ولم تؤت اثمرة المرجوة .

كما أن هذه النقلة لا تعتبر - في رأينا - تجديدا ، وانما هي تغيير من حال الى حال ، ومن طريقة لأخرى ، خامة وأن كلا من الطريقتين - الأدبية والكلامية - ليس غريبا على البلاغة ، ولا جديدا عليها .

اذن هي - كما قلت - بدايات ومحاولات لتجديد البلاغة والنموذج بها وبالطبع لم تقف هذه البدايات ، ولم تنته هذه المحاولات . فقد رأينا بعد ذلك محاولات أفضل تشمل في دعوات صادقة لتجديد البلاغة وبحوث ومحااولات قيمة في البلاغة وتجديدها ، كان لها أثرا في دفع موجة التجديد ، والاهتمام بقضية البلاغة .

وأهم هذه البحوث والمعارف

- | | | |
|-------|-------------------------------------|---------------------------|
| (١) | البلاغة والفلسفة | للأستاذ أمين الخولى |
| (٢) | البلاغة وعلم النفس | “ “ “ |
| (٣) | ثورة على علم البلاغة | “ عبد العزيز البشرى |
| (٤) | البلاغة العربية بين التطور والجمود | د . احمد بدوى |
| (٥) | المسوغات العقلية للبلاغة | “ أنيس المقدسى |
| (٦) | البلاغة العربية وحاجتها الى التجديد | د . على الحمارى |
| (٧) | مفاهيم بلاغية | د . عبد الرزاق محبى الدين |
| (٨) | تخطيط رسمى جديد للبلاغة | لجنة المعارف المصرية |

البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها

كان من أوائل دعوات التجديد التي ارتفعت في أوائل هذا القرن العشرين هذا البحث الذي كتبه والقاء^(١) الشيخ أمين الخولي عن الفلسفة وأثرها في البلاغة العربية . وقد استهل بحثه بكلمات عن التجديد والتبديد قال : " تتحارب اليوم أصداؤ الوادي بدعايات التجديد ، وأقوى هذه الدعايات وأهمها صوتا دعاية التجديد الأدبي ، وهذا التجديد - فيما أؤمن أنا به - ليس إلا متابعة الحياة من حيث عاقتها بقوة اجتماعية ، ومواصلة النماء من حيث وقفته عوامل الجمود وليس يستبين المحدد طريقه ولا يدري من أين يبدأ جهاده ، إلا إذا استحلى تاريخ ما يعاني تنسيته ، وعرف كيف ومن أين بدأت حياته ؟ ومتى ، ولم وقف به الجمود ؟ فإذا ما تبين المحدد طريق غده بتجارب أسسه ، عرف ما يدع وما يأخذ ، وإن ذاك ينفي ويثبت عن بصيرة ، ويتر مظاهر الجمود في هدى وثقة كالطبيب كشفت له الأشعة عن دبيب العلة .

أما إذا مضى برغبة في التجديد مبهم ، وتقدم بحالة للماضي وغفلة عنه ، يهدم ويحطم ، ويشتمز ويتهكم ، فذلكم - وقيمت شره - تبديد لا تجديد . "

بهذه المقدمة الصغيرة وضع الشيخ أمين قاعدة للتجديد ، فليس التجديد فوضى ولا انطلاقا من لا شيء ، ولكن - كما قال الشيخ الخولي ورد أكثر من مرة - أول التجديد قتل القديم فهما " فأصدق عمل المجدد أن يعرف أن وراءه تاريخا يستطاع أن يتعلم منه أشياء كثيرة ، ولذا رأيت أن أتمتع اليوم جانباً من التاريخ الأدبي بالبحث في علاقة البلاغة العربية بالفلسفة ، وما لتلك فيها من أثر .

(١) التي هذا البحث في الجمعية الجغرافية الملكية مساء ١٩ / ٣ / ١٩٣١
ثم نشر في كتاب مناهج تجديد ص ١٤٣ - ١٧٦ .

وربما يكون تاريخ البلاغة قد تنوول ، لكن لم يثمد فيه لدرس هذه النقطة درساً واعياً مع مالها من الأهمية الكبرى في فهم ما بأيدينا من كتب البلاغة ونقدها . وإذا كان للموضوع بالفلسفة صلة فاني أنتصح بنصيحة شيخ الفلاسفة سقراط التي كان يوجهها دائماً الى طالبته مهيباً بهم أن " حددوا الالفاظ التي تستعملونها " وكذلك أفعل .

ماهي الفلسفة : أما الفلسفة " فليست الا البحث الحر العميق ، ولا حاجة بي الى أكثر من هذا في تعريفها ، والانسان وهو سيد الكون المنقب عن المعرفة قد كان موضع ذلك البحث من حيث عقله وشموره ، وعواطفه وإرادته ، فتوزعت البحث في هذا فروع الفلسفة ، وكان المنطق ، والجمال ، والنفس ، والأخلاق ، وغيرها من الفروع " .

ماهي البلاغة : " وأما البلاغة فما هي - بإيجاز - الا درس في القول ، والبحث عن الجمال فيه ، كيف ، وبم يكون ؟ .
تلك هي الفلسفة والبلاغة بتحديد قصير .

الصلة بين البلاغة والفلسفة : يرى الخولي أن الصلة بين البلاغة والفلسفة صلة متينة اذ الجمال موضع العناية لكل منهما . فالفلسفة تحاول " في بحثها عن الجمال أن تتعرف ماهو ؟ وكيف يحسه الانسان ويقع من نفسه ، وأي طرُق أداء الانسان لهذا الشئ بالجمال أدق ؟ وكيف يترجم عن احساسه به ؟ وبم يقتدر على هذا الأداء وتلك الترجمة حتى يكون فناً حقيقياً صادقاً . وهاتيك الابحاث الفلسفية كلها قريبة من البلاغة التي هي درس لفن الترجمة عن الاحساس بواسطة القول ، وبحث في جمال الكلام . وبهذا نجد بين الفلسفة والبلاغة صلة ذاتية دائمة ، لها في البلاغة أثرها .

البلاغة التي نبحث فيها : ^{١٠} الا أننا نبحث عن بلاغة قوم بعينهم ، لها زمانها ولها مكانها ، ولها ظروفها الخاصة . نبحث عن تلك البلاغة ذات العلوم الثلاثة - المعاني والبيان والبديع - المتداولة على النمط المعروف لنا المشتهر بيننا . نبحث عن تأثيرها بفلسفة أولئك القوم في زمانهم وبيئتهم ، وملابس حياتهم ، وفي هذا البحث لا يكفي القول بتلك الصلة العامة التي بين حقيقة الفلسفة وحقيقة البلاغة .

حقيقة الفلسفة العربية : " والفلسفة العربية " أو بعبارة أدق فيما نريده . الفلسفة الاسلامية انما هي - كما نعرف - بناء أجنبي الدعامة ، أجنبي المادة الى حد ما . أسس بعد العناية بالترجمة والاطلاع على ثمار العقول في الحضارات التي سبقت المدنية الاسلامية ، ولا سيما الحضارة الاغريقية فكان بين الفلسفة والدين ما كان من جذب ودفع ، استعان فيه رجال الدين بأسلحة الفلسفة نفسها فاقنيسوا المنطق وتمثلوه ، واعتمدوا عليه في أبحاثهم الاعتقادية ، وعرغوا لمسائل الفلسفة ومشاكلها على اختلافها فقامت حركة فلسفية كلامية ، واتسعت حتى كان أكبر مدارس الفلسفة الاسلامية المدارس الكلامية . وهكذا صار أظهر الفلسفة في الاسلام كلاما . واستحال علم الكلام فلسفة ، حتى صار القول وشاع بأنه لا يجترئ على الخوض في علم الكلام الا فلسفى أو متفلسف . ومن هنا يتبين أننا حينما نقول : ان البلاغة قد تأثرت بالكلام ، لانكون الا مقدرين أنها قد تأثرت بالفلسفة وعلى ضوء هذا الأيضاح نبحث عن أثر تلك الفلسفة الاسلامية في بلاغة اللغة العربية وأول ظاهرة سطحية نلمحها من الصلة بين الفلسفة والبلاغة هي :

أنا نرى البلاغة في جميع أدوارها قد عاشت في كنف رجال الفلسفة وتحست
رعايتهم ، وجمهرة الاقلام التي خدمتها أقلام فلاسفة أو متفلسفين ، ولم يكسده
ذلك يتخلف نفس عصر ما .

ففي دور نشأتها وتكونها نرى من رجالها سهل بن هارون المتوفى سنة ٢٢٠ هـ
كان حكيما يتعاطى الفلسفة ، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ
كان حكيما قرأ كتب الفلاسفة من اليونان والفرس والهنود ، وكان رأس فرقة
في الاعتزال نسبت اليه تسميت الجاحظية ، كما نجد قدامة بن جعفر المتوفى
أواخر القرن الثالث الهجري - أو أوائل الرابع - كان أحد الفلاسفة ومن يشار
اليهم نفس المنطق ثم نرى عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى
سنة ٤٧١ هـ كان متكلماً على مذهب الأشعرى ، والزمخشري الذي يقول أشياخنا
عنه وعن عنوه السكاكي : " لولا الاعرجان لذهبت بلاغة القرآن " فالأعرج الأول
أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ كان متكلماً محترلياً
قويماً في مذهبه مجاهراً به ، والأعرج الثاني هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر
محمد بن علي السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ كان له النصيب الوافر في علم الكلام .
ثم يبدأ دور التلخيص والشرح ، فالحواشي والتقارير ، فنرى من رجاله :
العزاد الأيجي عبد الرحمن بن أحمد المتوفى سنة ٧٥٦ هـ كان اماماً فسي
المحقولات ، له في علم الكلام كتاب " المواقف " المشهور وغيره . ونجد السعد سعد
الدين مسعود عمر التفتازاني المتوفى سنة ٧٩٢ هـ صاحب الكتاب الظافر في شرح
التلخيص ، كان متكلماً منطقياً له شرح العقائد ، والمقاصد في الكلام ، وله شرح
الشمسية في المنطق . والسيد الشريف الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ هـ كان نظاراً
فارساً في البحث والجدل متكلماً فيلسوفاً له شرح حكمة العيين ، وشرح كتاب المواقف
في الكلام .

كما نجد البسطامى والفنارى والعصام وحفيده والسيالكوتى وغيرهم من أصحاب الشروح والحواشى ، والتعاليق فى البلاغة لهذا الدور كلهم متكلمون ، بارعون فى المعقول ، متفلسفون ، لهم فى ذلك أكثر كثيرا مما لهم من الآثار فى البلاغة . وكأن البلاغة كانت وديعة فى يد المتفلسفين على مر الدهر . والواقع أن الاستناد الخولى قد لفت أنظارنا بشكل مثير ، ووضع أيدينا على أمر خطير ، ذلك هو وقوع بلاغتنا الحبيبة فريسة فى يد الفلاسفة وعلماء الكلام ، فأغرقوها فى البحث والجدل ، وحولوها من علم جميل ، يعلم الجمال ، ويطبعه فى النفس ، ويمتص العقل والقلب والحس ، الى علم يثير الغثاء والصداغ ، وينفر المعقول والاسماع ويضيق به الدارسون ، وينتفرون عنه الراغبون ، بعد أن يخيب فيهم أملهم ، وتضيق به صدورهم وعقولهم .

آثار الفلسفة فى البلاغة : " هذه ظاهرة بدائية سطحية من صلبه الفلسفة بالبلاغة ، وقد كان لها ولا شك أثرها فى اشراق كتب البلاغة بأبحاث الفلسفة اشرايا واضحا الأثر فيما بأيدينا منها . نرى النزعة الجدلية تسيدار عليها حتى لتكاد تخرجها تماما عن الغرض الأدبى : فترتيب الابواب فى تلك المؤلفات فلسفى ، وتنظيم مسائلها لعلل فلسفية ، وبيان المعانى البلاغية من خواص التراكييب وطرق الدلالة وأوجه الحسن فلسفى ولعلنا لو جردنا ما فى مختصر شرح السمد للتلخيص من هذا لخرجنا بموجز فى الفلسفة له قيمته . أما اذا تتبعنا ما فى الحواشى والتعاليق منه فاننا نأفرون بمجموعة فلسفية وافية

وقد جارت تلك النزعة الفلسفية على الناحية الأدبية جورا تحسه حين تراههم في المواطن الأدبية الحقيقية يد مجنون القول ويحملون ، ان لم يفسدوا المعنى الأدبي ويشتطوا في البعد عنه

تلك ظاهرة سطحية وحدنا لها فيما ذكرنا من تولي رجال الفلسفة التأليف في البلاغة وغلبيتهم في هذا الميدان . لكن ليس ذلك كل ما نريد أن نقوله من أثر الفلسفة في البلاغة ، ولا هو جوهره ، وإنما هو أيسره وأظهر ما يقع التنبيه إليه . ولو أمعنا النظر ومضينا في التقصى لوحدنا تأثر البلاغة بالفلسفة وفروعها من المنطق والكلام قويا بعيد المدى في نواح متعددة :

- (١) قويا باديها في نشأة البلاغة وظهورها .
- (٢) قويا في تطورها وسير دراستها .
- (٣) قويا في ضبط أبحاثها وتحديد دائرة درسها .
- (٤) قويا في تعيين غرضها وغايتها . وهذا ما نتولى بيانـه نقطة نقادة ، وسألة مسألة ، ثم نعود آخر الأمر فنمعرض بنظرة شاملة لما كان لذلك التأثير من عائدة على البلاغة ، وما جر عليها من نفع أو ضرر ^(١) ويذهب الأستاذ الخولي يستقصى هذه النقاط الأربع ، ويتحدث عنها بتفصيل ، ويسوق الحجج والبراهين ، وكنت أود أن أعرض البحث في هذه النقاط الأربع كاملا لما فيها من حقائق ولفترات دقيقة جيدة ^(٢) .
- ولكني أجتزئ منها أهم الحقائق واللفترات .

(١) مناهج تجديد ص ١٤٣ - ١٤٩ بتصرف .
 (٢) انظر البحث في هذه النقاط الأربع في كتاب مناهج تجديد ص ١٤٩ - ١٧٥ .

(١) الفلسفة ونشأة البلاغة :

نجد للفلسفة تأثيرا فى نشأة البلاغة من جهتين :

- أ - جهة منطقية أو فلسفية عامة .
 - ب - جهة كلامية أو فلسفية اسلامية خاصة .
- فأما الجهة المنطقية فذلك : أن القوم أيام عنايتهم بالفلسفة قد ترجموا منطق أرسطو على أنه ثمانية كتب هى :
- ١ - المقولات : أو كما عربوا اسمها اليونانى " قاطيفوريوس "
 - ٢ - العبارة : أو القضايا التمديقية وأصنافها .
 - ٣ - القياس : وصور إنتاجه أو " أنا لوطيقا الأولى "
 - ٤ - البرهان : أو القياس من حيث مادته وهو " أنا لوطيقا الثانية "
 - ٥ - الجدول : أو طويقا .
 - ٦ - السفطة : أو سوفسطيا .
 - ٧ - الخطابة : أو ريطوريقا .
 - ٨ - الشعر : أو بويطيقا .

ووقف الخولى عند القسمين السابع والثامن وهما : الخطابة والشعر . وبين ما بينهما وبين ما بأيدينا من أبحاث بلاغتنا من صلات كثيرة . وأما الناحية الثانية من نواحي تأثير الفلسفة فى البلاغة ، ناهية تأثير الفلسفة الخاصة أو الكلام ، فقد كان يعمل مباشر للمتكلمين أنفسهم وفلسفتهم فى الميدان البلاغى ، كان بعناية لهم خاصة وجهوها الى تناول الابحاث البلاغية وخلق المصطلحات فيها .

ولقد أشار ابن تيمية فى كتابه الايمان الى هذا التأثير حينما تكلم عن منشأ اصطلاح اللفظ على كلمة المجاز ما عباره : " وانما هذا اصطلاح حادث ، والغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين "

(٢) الفلسفة وتدرج البلاغة : أوسير دراستها في عصر تكوينها .

وهنا نجد كذلك حظ الفلسفة قويا ، فروحها مازالت سيطرة على درس البلاغة ، والتوسع في أبحاثها مازال يجرى أكثر مليجى على رسوم بحث الفلسفة . وذلك أن هذا البحث قد اتجه اتجاهين مختلفين . فكانت هناك طريقتان لدراسة البلاغة ، لكل واحدة منهما مزاياها وخواصها وهاتان الطريقتان هما :

أ - طريقة المتكلمين ب - طريقة الأدباء

فأما الطريقة الأولى فتستاز بخاتمة أهلها المتكلمين في الجدول والمناقشة والتحديد اللفظي ، والعناية بالتصريف الصحيح ، والقاعدة المقررة ، والاقبال من الشواهد الأدبية ، وعدم العناية بالناحية الفنية في خصائص التراكيب وتقدير المعاني الأدبية ، واستعمال المقاييس الحكيمة الفلسفية المعتمدة على قواعد منطقية ، أو نظريات خلقية ، أو مقررات طيبة في الحكم الأدبي دون نظر الى معاني الجمال وقضايا الذوق . ونرى هذه الطريقة حلية في نقد الشعر لقداصة حين يتكلم عن المدح فينظر الى مذهب أفلاطون في أصول الفضائل الأربع وأمهايتها ؛ من الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ، ويرى أن القاصد لمدح الرجال بهذه الخصال مصيب ، والقاصد السى مدحهم بغيرها مخطئ .

وأما الطريقة الثانية وهي طريقة الأدباء في درس البلاغة فتستاز بالاكثار المسرف من الشواهد الأدبية نثرها وشعرها ، والاقبال من البحث في المعارف والقواعد والاقسام ، وتعتمد في النقد الأدبي على الذوق الفني وحاسة الجمال أكثر من اعتمادها على تصحيح الاقسام وسلامة النظم المنطقي ولا ترجع في ذلك الى أصول الفلسفة من خلفيات وغيرها .

ونرى هذا فى مثل كتابة أبى هلال العسكري فى المناعتين ، يسوق فى المقام الواحد عشرات الأمثلة والشواهد من القرآن والحديث وكلام العرب نثرا وشعرا ، ويعتمد فى النقد الأدبى على الذوق .

هذا وقد تحدثنا فى مكان سابق عن هاتين المدرستين حديثا وافيا وما يهمنى هنا هو أن أنقل رأى الخولى فى المدرسة الكلامية وأثرها ، فهو يرى أننا لو رجعنا ننظر استبان المدرسين طوال حياة البلاغة لوحدنا أن المدرسة الكلامية كانت أوفر حظا عند المتقدمين ، كما أنها كانت الأرجح كفة عند المتأخرين ، ثم الغلبة الضفردة فى النهاية . ولا نرى إلا لمعا يسيرة من روح المدرسة الأدبية فى مثل كتابة أبى الفتح ضياء الدين بن الأثير فى كتابه " المثل السائر " وأغیره .

(٣) الفلسفة ومدى بحث البلاغة : أو تحديد دائرة بحثها . وقد رأينا فيما سلف تأثير المنطق فى نشأة البلاغة ، وفى طريقة درسها . وهنا نرى هذه الصلة تزداد توثقا وقوة ، فيكون للمنطق أثره الظاهر فى تحديد دائرة بحثها . هنا نرى السبكاكى حين يؤلف كتاب (مفتاح العلوم) فى العلوم الأدبية يردف علوم البلاغة بالبحث المنطقى فى الحد والاستدلال ، معللا ذلك بقوله : " . . لما كان تمام علم المعانى بعلمى الحد والاستدلال لم أربدا من التمسح بهما " . كما نرى مؤلفا آخر من أهل عصره هو القاضى ندين الدين أبوعبد الله التنوخى أحد رجال القرن السابع الهجرى حين يؤلف كتابه " الاقبسى القريب فى علم البيان " ^(١) يعتبر القواعد المنطقية فى القضايا وأنواعها مقدمات ضرورية للبحث البيانى ، ضرورة الأبحاث اللغوية والنحوية له ، فيقول فى مقدمته " ألفت هذا المختصر مبتدئا فيه بما يجب تقديمه من القواعد المنطقية ومعانى الأدوات العربية . . "

ويندفع فى الكلام عن العلم وأقسامه والقضايا وأنواعها كلاما غير قصير
 ملخصا فيه من المنطق الشئ الكثير ثم يشتذر عن عدم الأسهاب والشرح
 وفى هذين المثالين ترى المنطق يحيط ببحث البلاغة وينزل ضيفا غير
 متشم فى أول كتبها وآخرها : بل مازال بها حتى اعتبرت ميزانا
 مثله فوضحتها السكاكى فى المفتاح بأنها " علم معيارى يحترز بالوقوف
 عليه من الخطأ فى مطابقة الكلام لتسام المراد منه " (١) وهكذا
 تقى بحث البلاغة على خطى بحث المنطق وجرى فى مضماره ويكاد لا يعدوه
 وترى ذلك بينا فيما يأتى :

تبدأ البلاغة - على آخر نظام لها - بالبحث فى المفردات وخصائصها
 وهو علم المعانى . ثم البحث فى المركبات ودلالاتها وهو علم البيان .
 ثم تحسين ثانوى وهو علم البديع . وفى هذا كله لم يتصد البحث دائرة
 الجملة التى رأوها نظيرة القضية .

أما وراء بحث الجملة فلا تجد شيئا ، بل أن الأبحاث التى كان
 المرجو لها أن تتجاوز الجملة قدردت اليها وألزمت حدودها فقط .
 فالبحث فى الإيجاز والاطناب والمساواة مثلا كان يصح فيه النظر الى
 غرض الأديب كله وكيف تناوله ؟ وهل أسهب فى ذلك أو أوجز ؟ وقد رأينا
 فى أبحاث خطابة أرسطو السابقة بحث الإيجاز والاطناب فى الجمل وفى
 الأسلوب . لكنهم لم ينظروا من ذلك الا الى الجملة أو ما هو كالجملة ، وراحوا
 يفاضلون بين جملة " القتل أنفى للقتل " وجملة " فى القصص حياة "
 بعدد حروفها .

(١) المفتاح ص ٧٠ طبعة مصر سنة ١٣١٨ هـ

فهذا التضييق في دائرة بحث البلاغة أثر تسويتها بالاستدلال ،
ورجعها الى المنطق ، وأخذها بنظامه بعد ما اشتدت الملة بينهما ،
وزاد عليها ضفاه .

(٤) الفلسفة وغاية البلاغة : وفي هذا لانعجب اذا رأينا البلاغة
التي كانت تلك نشأتها التي سمعت ، وهذا نظام درسها الذي رأيت ،
وتلك حدود بحثها كما علمت ، لا تنتهي الا الى غرض كلامي اعتقادي ،
أعني الى غرض فلسفي خاص . وكذلك كان الأمر منذ العهد الأول ، ففي
الطليعة رأينا عمرو بن عبيد يجعلها أداة لتقرير حجة الله في عقول
المتكلمين رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم . كما رأينا
في ذلك رجال المدرسة الأدبية كأبي هلال يصرح بأن البلاغة انما
تدرس لأن اغفالها يؤدي الى عدم وقوع العلم باعجاز القرآن على وجه
استدلالي تحليلي كما نرى صاحب الطراز يقصر الضرر من البلاغة
على مسألة الاعجاز فقط . كما نراه يعتقد لبحث الاعجاز فصلا خاصا
متمما لدرس البلاغة ويبدأ هذا الفصل بلوم المؤلفين في البلاغة ممن
لم يفرقوا الموضوع بالبحث مع أنه الغرض المقصود . . .
وهكذا مضى القوم على أن الغرض من البلاغة والغاية منها انما هي
معرفة الاعجاز .

هل استفادت البلاغة من الفلسفة :

بعد أن بين الأستاذ الخولي نواحي التأثير المختلفة - عامة وخاصة -
على البلاغة يحيب عن هذا السؤال فيقول :
أما عن تأثير البلاغة بالفلسفة في نشأتها ، فذلك أمر له ما بعده ،
وقد ظهر أثره الحقيقي بما تلاه من أدوار حياة البلاغة ، فقد عدلت هذه
الملة بلاشك في تكوين البلاغة وظهورها لما أمدتها به من أبحاث وامساكيات
وعناية رجال ، فكانت تلك ناحية الاستفادة ان عدناها .

ومن ناحية أخرى نرى أن هذه النشأة قد تركت في البلاغة استعدادا للاتصال بالفلسفة فيما بعد ذلك من أيامها ، ففي طور التكون والدراسة رأينا المدرستين اللتين تولتا بحث البلاغة ، المدرسة الكلامية والمدرسة الأدبية ، وميزة كل واحدة منها وانتهاء الأمر بلعبة النزعة الفلسفية وظهور آثارها واضحة في البلاغة ، وهنا نرى البلاغة وهي البحث في الحسن القولي - ولهذا الغرض نفسه التمسها الكلاميون - نراها قد بعدت عن البحث في هذا الحسن القولي ، أو قل تولته على نحو غير مبين له ، إذ تركت الاعتماد في ذلك على الميزان الوحيد له ، والقياس الفرد فيه وهو الذوق الوجداني واعتمدت على قضاياء العقل ، وقياسات المنطق .

أبحاث ضرورية للبلاغة :

كان من أثر الفلسفة في تحديد البلاغة وقصور بحثها أن حرمتها من أبحاث ضرورية للفن الأدبي ، ضرورة لصناع القول من الكتاب والشعراء ، ضرورة لعلها بحثا في الحسن القولي مؤديا ثمرته ، أبحاث نراها في بلاغات اللغات الحية ويجب أن نتناولها بالدرس لنحقق وجود المدرسة الأدبية .

ومن تلك الأبحاث : البحث في الأسلوب واختلافه ، وأوجه تفاوته ، ومزايا أنواعه المختلفة .

ومن ذلك : البحث فيما وراء المعنى الجزئي - تشبيه أو استعارة أو كناية - من معنى كلي وغرض يقصد إليه الأديب ، وكيف يرسم له صورة كاملة ، يراعى تناسب أجزائها وملكة تلك الأجزاء ، وكيف يبرز كل جزء من هذه الأجزاء ، فتكون وحدة درسنا القصيدة الكاملة ، أو القاعية النثرية بتمامها ، لا البيت المفرد ، والفقرة الواحدة .

ومن ذلك : البحث فى ايجاد المعانى كيف يكون ؟ وفى ترتيبها كيف يتم ؟ وفيما يناسب كل فن منها وما لا يناسب .
 ومن ذلك : البحث فى فنون القول الأدبى نثرية وشعرية ، ودرسها فنا فنا ، وبيان طابع قوام كل فن منها وحسنه ، وما يلائمه من المعانى والتشبيهات والاستعارات والكنائيات وما لا يلائم .
 ومن ذلك : البحث فى فنون جديدة خلقتها الحياة بعد الرسائل والمقامات ، كالبحث فى المقالة التى هى أروع فنون القول النثرى مثلاً . ولا تنسى الفن القصصى الذى تافى على الفنون الأدبية الأخرى ، وحرم منه أدبنا ، ولا بد لأبنائنا الطامحين اليه بمعرفة أصوله ومناجى الحسن فيه .

ونحن فى الحق لسنا مبتدعين فى ذلك تماماً بل نجد نواة مثل هذه الأبحاث فى الدراسة البلاغية القديمة . كالذى كتبه الجاحظ فى بيانه عن صحة المعانى وفسادها ، ومناسبتها للسامعين كما نجد طرفاً صالحاً من ذلك الجديد المرجو فى نقد قدامة حين يتكلم عن نعمت الوصف ، ونعمت الهجاء ، ونعمت الرثاء ، ونعمت المديح ، ونعمت التشبيه وما الى ذلك ، لكن فى احوال وإجاز لم يتناوله أحد بعده بالبسط التى اليوم لكساد المدرسة الأدبية وسيطرة النزعة الجدلية وانتهاء البحث فى البلاغة الى ضروب من الخلاف والمناقشة تعقد لها محال المناظرة ، ويقعد لها المحكمون بين السعد التفتازانى والسيد الشريف ، حين يتناظران فى اجتماع الاستعارة التسميية والتمثيلية وعدم اجتماعهما (١) كأنهما يتناظران فى مشكل من أصول القوانين أو معضل من مسائل الفلسفة السى أن ينهزم السعد فيصوت رحمه الله كمدا ، ضحية الفلسفة الزائفة فسسى

(١) هى مناظرة مشهورة جرت فى بلاط تيمورلنك سنة ٧٩١هـ . إذ كان السيد قد اتهم بتيهور ، وارتحل معه الى ما وراء النهر . واشتغل بالتدريس هناك .

البلاغة المطالومة ولو أنه ليس آخر ضحايا هذه الفلسفة .
 ويتوجه الأستاذ الخولى الى أبناء اللغة ودارسيها قائلا : " وانسى
 لأمل أن يخرج قسم اللغة العربية بالجامعة المصرية أبحاثا نافذة
 فى تلك الموضوعات التى أشرت اليها . . . حتى يكون للبلاغة أثرها فى
 فهم الجيد والردى ، ومنع الجيد ، وتعود دراستها على صناع
 القول بالفائدة ، بل يحى ذلك فى هذا البلد الناهض فنونا جديدة
 من الأدب " . (١) ويذهب الخولى بعد ذلك يتحدث عن أثر الفلسفة
 أو البلاغة الفلسفية فى الاعجاز ، وما نال البلاغة من قصر الفلسفة
 الكلامية اياها على بيان الاعجاز .

وهو حديث ليس بالتفسير رأينا تأجيل عرضه الى الفصل التالى
 سنسوقه فى الباب الخامس عن قضية الاعجاز .
 ثم يقول أخيرا : " ان البلاغة تتسنى أن لو لم يكن لها بالفلسفة
 تلك العلاقات السابقة . . . وهذا لو لم يكن لها الا تلك العلاقة العامة
 التى أشرنا اليها أول المحاضرة ، وهى عناية الفلسفة والبلاغة بالجمال
 فتعمل البلاغة العمل المادى فى درس الجمال القولى . . . وعلى هذا
 البيان والتحرير يجب أن تؤيد المدرسة الفنية ، ونؤمل تلك الابحاث
 الجديدة التى أشرت اليها من قبل ، ونهجر المدرسة العلمية فى
 دراسة البلاغة . . . ونعنى فى كل ذلك التجديد بقدم ثابتة لا نخشى
 خطرا مألوفه : تحديد تاريخ وطيد الدعائم " . (٢)

خاتمة :

وفى نهاية هذا البحث القيم يضع الأستاذ الخولى خاتمة
 يلخص فيها القضايا التاريخية والقضايا الاصلاحية التى وردت فى هذا
 البحث بفرض الحث على تحديد البلاغة فيقول :

(١) مناهج تجديد ص ١٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٥ .

• أحببت أن أغش بين يدي معلمى البلاغة ومتعلميها فى أنحاء العالم العربى المختلفة ما فى ذلك البحث من قضايا تاريخية وتجديدية ، بعبارات موجزة ، لفتا لأنظارهم اليها ، وحثا لهم على نقدها واعمال الفكر فيها ، حتى اذا بدت لهم صحتها عملوا متكاتفين على تجديد درس البلاغة العربية انعاشا للأدب العربى ونقده ، وسعيا الى أن يجد فيه شباب الأقطار العربية طلبته الفنية ، وحاجته الوجدانية ، فلا يبعد عنه ويرميه بالجفاف والجمود ، وتستجد فى هذه الخلاصة فهرسة علمية للموضوع : —

القضايا التاريخية :

- (١) كانت جمرة الذين تولوا البحث فى البلاغة على اختلاف العصور فلاسفة أو متفلسفين ، وكان لذلك أثره الظاهر فى كتبها .
- (٢) قضايا مؤرخى الآداب العصريين فى تاريخ البلاغة قاصرة تارة وغير صحيحة
- (٣) علم المنطق وعلم الكلام هما أهم العوامل فى نشأة البلاغة ، وقد أشار القدماء الى ذلك ، ولو أنها إشارة يسيرة .
- (٤) للأقدماء فى درس البلاغة طريقتان : كلامية وأدبية ، ولكل طريقة مزاياها ، وكتبها ، ورجالها .
- (٥) نظرة تاريخية قصيرة فى نصيب كل مدرسة من الكتب والرجال ترينا غلبة المدرسة الكلامية وتفوقها .
- (٦) صلة الفلسفة — ولا سيما المنطق — بعلم البلاغة قد سببت شيق دائرة بحثها ، وحرمتها من أبحاث ضرورية .
- (٧) صلة الفلسفة — ولا سيما علم الكلام — قد جعلت الخاية منها كلامية .

القضايا الإصلاحية :

- (١) الدرس التاريخي يمدينا الى تجديد نظمنا اليه ، ونثق أن لا تبديد فيه .
 - (٢) في دراسة البلاغة كتبها الأخيرة تقصير أدبي وديني .
 - (٣) يجب ايجاد الطريقة الدلالية - أو العلمية - في درس البلاغة ، و احياها الطريقة الأدبية وتنميتها .
 - (٤) مانحتاج اليه من الأبحاث الجديدة التي يجب ادخالها في بلاغتنا .
- هذا هو عرض سريع لهذا البحث القيم الذي يعتبر به الأستاذ الخولي من أوائل الدعاة الى تجديد البلاغة .
- وهو يتفق معنا في مفهومنا عن التجديد ، وهو أن نتناول بلاغتنا القديمة فنخلصها من دائها - ولكل قديم دأؤه - ثم نضيف اليها ما يقيها ويرد جمالها ورواءها ، ثم نكسوها أحدث الحلول وأبهاها حتى تصبح في العصر الحديث فتنة للناظرين .

البلاغة وعلم النفس

بعد بحث البلاغة والفلسفة بشماني سنوات طالع الأستاذ الخولي بهذا البحث داعيا فيه الى تجديد البلاغة عن طريق امدادها بعلم النفس وارتكازها عليه في التحليل والتعليل . وقد بدأ البحث بـ خلاصة صغيرة يقول فيها ، :

- ١ - عاودت وأعود البحث في مسائل مفردة من البلاغة وتاريخها ، لأن حاجتنا العلمية اليوم انما هي الأبحاث الضيقة العميقة ، لا الواسعة الشاملة .
 - ٢ - اتملت البلاغة قد يما بعلم النفس اتمالا وثيقا ، ولو لم يلمح القدماء هذه الصلة ، أو يرتبوا عليها أثرها .
 - ٣ - نأرتنا المحدثنة في صلة الأدب بالحياة ، وفي أثر الخبرة النفسية على العمل الفني ودقته ، تقضى علينا بأن نوطن أصل البلاغة - بل دراسات الأدب جميعا - بعلم النفس .
 - ٤ - ومن سبيل ذلك أن نروغ المتأدبين على المشاهد النفسية ، وأن نحمل من مقدمات البلاغة مقدمة نفسية خاصة ، وأن نشق المتأدب " بعلم النفس الأدبي " .
 - ٥ - لهذا الوصل الوثيق بين البلاغة وعلم النفس أثر قوى في اصلاح الحياة الأدبية ، وفي اصلاح دراسة البلاغة ، وفي تغيير الآراء في مسائل أدبية سياسية كاعجاز القرآن وتعليله ، ثم في تغيير أساس نظرنا في تفسير القرآن .
- ولحكمة ما وربما من باب التجديد جعل الأستاذ الخولي هذه الخلاصة في مكان المقدمة من هذا البحث فخرج بذلك على التقليد الأدبي من جعل المقدمة في البداية ، والخلاصة في النهاية .

صلة قديمة :

تحت هذا العنوان ذهب الأستاذ الخولى يتحدث عن صلة علم النفس بالفلسفة ، وصلته بالبلاغة وقدم هذه الصلة يقول :
 " حينما تهافتت منذ أعوام عن البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها اكتفيت فى بيان الفلسفة بأنها : البحث الحر المميق فى هذا الكون كما اقتصررت فى بيان البلاغة على أنها ، فن القول ، والبحث عن الجمال فيه ، كيف وهم يكون ؟ .

وقد كان من الفلسفة قدما - ولا يزال على اتصال بها حديثا - ذلك الفرع الذى يتولى دراسة المظاهر والخصائص المعنوية ، أو العقلية ، أو الروحية فى الانسان ، فيتولى شرح الاحساس والرغبات والانفعالات والميول والنزوع الانسانى ، وما الى ذلك من المظاهر الحسوية غير المادية فاذا ما نظرنا النظرة الاولى الى البلاغة ، على هدى ذلك البيان القريب لها ، وجدنا محاولتها الفنية فى القول ليست الا تتبعها لمواقع رضا النفس ، وعناية بالتأثير فيها . ومن هنا تتصل بعلم النفس ، وتحتاج فى دراستها اليه . لكن ليس على هذا البيان الساذج وحده يقوم اتصال البلاغة بعلم النفس ، بل يتضح ذلك الاتصال بالنظر الدقيق

فالقدما قسموا البلاغة الى تلك الفنون الثلاثة : الممانى والبيان والبديع ، ووضعوا لها أقساما وأبوابا ، ودنوا لها الأصول والقواعد ، وهم فى ذلك انما يعترفون بلاغة الكلام بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته

ويشرحون هذا المقتضى بأنه : الاعتبار المناسب الذى يلاحظ . ويتحدثون عن انكار السامع لما يلقى اليه ، أو موافقته عليه ، أو خلو ذهنه . ويفرقون بين الذكى والغبى والمماند ، كما يتكلمون عن رغبات المتكلم واتجاه نفسه لما يتحدث عنه من حب أو كره ، وتلذذ أو تألم ، وما لكل ذلك من أثر فى القول

وليس هذا فقط مظهر وصلهم البلاغة بالابحاث النفسية عند هم ، بل هم يمرضون لذلك كثيرا حين يتحدثون خلال أبواب البلاغة عن الأحوال النفسية وما تقتضيه ، وما يلائمها من مظاهر كلامية ، وخصائص أسلوبية ، إذ تراهم يخالقون بين أضرب الخير باختلاف حال المخاطب ، ويتحدثون عما يلزم في كل ضرب من وسائل التقوية والتأكيد .

وهم يتكلمون عن الأمزجة الانسانية في الفصائل البشرية المختلفة ، وأثرها في سوغ المبارات ، فيفرقون بين المولدين والمرب ، ويمرون أن بناء الكلام للمزاج المربى يخالف بناءه للمزاج الدخيل المستعرب كما في قصة بشار المشهورة عن بيته ، الشاهد المصروف :

بكرأ صاحبي قبل الهجير ان ذاك النجاح في التفكير
وقول خلف الأحمر له : لو قلت يا أبا معاذ ، مكان ان ذاك النجاح
" بكرأ فالنجاح " كان أحسن ، واجابة بشار له بقوله : انما بنيتهما
أعرابية وحشية ، فقلت ان ذاك النجاح ، كما يقول الأعراب البدويون ،
ولو قلت بكرأ فالنجاح ، كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك
الكلام ، ولا يدخل في معنى القصيدة .

والأقدمون هم الذين نسمعهم يتحدثون عن التخيل ولمصه بالنفس وعن التخيل حتى ليفلط المرء حسه .

وهم الذين يذكرون الايهام والوهم ويشرحونهما مبينين أثرهما في القول . وهم الذين يذكرون الغيرة وفعلها في النفس ، وأثرها في اخفاء أشياء ، وحذف أشياء عند القول .

وهم الذين يتحدثون عن التشويق وطلب الاصفا ، ومواضع ذلك ووسائله ، والطرق القولية المثيرة له ، وعن الطمع والرغبة الملحة ، والاطماع والاشباع ، وعن السرور بخلف الظن ، وما الى ذلك .

وهو الذين شرحوا - فى اطالة - تنادى الممانى ، وأنواع الترابط
بينها ، فيما يبينونه من جامع وهمى أو خيالى أو عقلى ، وحقائق
تلك الحركات النفسية وفرق ما بينها فى تعمق ، الى غير ذلك من
مظاهر الاعتماد القوى على الخبرة بالنفس الانسانية ، اعتمادا يدل
على الملاقة الوثيقة بين البلاغة وعلم النفس ، مع ما لبلاغتهم تلك من
ناحية فنية ضيقة المدى ، وناحية علمية فلسفية شديدة التركب والتعمق .

ولكنى رغم هذا الاتصال الوطيد بين البلاغة والنفس ، لم أر من
القدماء من لمح هذا الارتباط فيما لمحوا من صلة البلاغة بمختلف
المعلوم والأبحاث ، مع أن علم النفس كان من محارفهم ، وبين أقسام
فلسفتهم (١) .

الفن والفلسفة :

وتحت هذا العنوان راج الأستاذ الخولى يشير الى بحثه السابق
عن البلاغة والفلسفة ، وأن " الفن القولى تملأه بالفلسفة وشائج قوية ،
وقرابة متينة ، ان الفن والفلسفة يخدمان معا فكرة الجمال والجميل "
وأن " الفلسفة تمد الجمال شطرا من درسيها الانسانى ، وتشعر أنها
حين تتولى العقل بالدرس ، وتنظر فى منطقه ، لا بد أن تتولى الوجدان
الانسانى بالتصرف ، وتنظر فى موازينه ومقاييسه ، ومكان الجمال من
الحياة البشرية "

" وان الفلسفة لتمد الجمال غاية من غايات الحياة الكاملة ، الخليفة
بأن تنمت بأنها حياة انسانية ، حين يخلق الفن على اختلاف
أساليبه من ناطقة وصامتة ، صور ذلك الجمال ومظاهره ومثله التى
تحقق تلك الغاية الفلسفية . "

" ويتأثير هذه الفلسفة وذاك الفن تمس النفوس الراقية تلك الحياة المادية
العاطلة من المستشرق الطامح ، وتزاولها مزاوله الانسان المترفع ،

(١) انظر منهاج تجد يد ص ١٨٢ - ١٨٥ بتصرف .

الواسع الأفق ، الذى يدرك معنى الكرامة البشرية ، فيجد فى توفيرها ويحلم بحياة راغدة راقية ، يجاهد لتحقيقها بالعلم تارة وبالمعمل طورا . وكذلك كان الفن والفلسفة عالَمين قويين فى انهماض الأُمم واثارة العناصر الحية الطامحة فيها . . . ويتلاقى الفن والفلسفة معا فى العمل لذلك ، حين تجد الفلسفة فى فهم الانسان ، وتفرد له منها قسما برأسه ، وهو ما لا يزال ينمت : بالفلسفة الانسانية وليست العبقرية الفنية فى أى صورة من صورها الا البصر بخفايا الحس البشرى ، والاقتدار على الاتصال بالوجدان ، ومداخله العاطفية ، وصايرة الأمل ، والتحليق مع الخيال ، والوقوف على مواطن الهوى ، ومكامن الرغبة ، التى احتوت النفس منها أسراراً باهرة ، وقوى رائجة .

" وعلى هذا الأساس من علاقة الفن بالنفس الانسانية تظاهر صلبة الأدب بالنفس ، وتتحلى قوة تلك الملة . وإذا ما غلبت الأدب فلا يخال ان مشتبّه أنى جاوزت حد عنوانى ، أو عدوت ما اليه قصدت ، من حديث عن البلاغة ، فان البلاغة من بين العلوم الأدبية هى روح الأدب ، والأدب مادتها ، تعلم صنعه ، وتبصر بنقده ، ولن تعدو البلاغة ذلك عند القدماء والمحدثين "

" فإذا ما تناسى الفن القولى فاتصل بالفلسفة ، وعمق فزاد بالنفس خبرته ، ودق فأفصح عن همسات الوجدان حديثه ، كان على البلاغة أن تقدر ذلك له ، وتضمد طريقه اليه ، وتعينه على الابداع فيه . ان هى كما أسلفنا تعلم صنع ذلك ، أو تنقده وتقدره " . (١)

وهكذا ربط الأستاذ الخولى بين البلاغة وكل من الفلسفة الانسانية وعلم النفس ، ورأى أن هذا الربط يجب أن يكون واضحا عند تحديد البلاغة .

(١) المرجع السابق ص ١٨٩ - ١٩١ بتصرف .

مقدمة نفسية :

يرى الاستاذ الخولى أن البلاغة - وهذا مكانها فى الدراسة الأدبية - قد انتهت إلينا فى حال باعدت بينها وبين الروح الفنية وأشاعت فى أوصالها جفافا وذهولا ، وكستها خشونة وغبرة ، نفرت من درسها ، وعوقت عن الجدوى منه . وقد تعالت دعوتنا ودعوة الأدباء إلى اصلاحها ، فإذا ما أردنا أن نخلصها من ذلك كله ، فأول العمل فى هذا السبيل أن نقيمها على ما تعتمد عليه الفنون الرفيعة كلها ، وما هو أصل أول فيها ، وما ذلك الأصل إلا الأصل النفسى " .

و " الذى نريد ، من عمل المؤدبين فى سبيل هذه الغاية ، هو أن توثق الصلة بين ذلك الفن القولى ، والخبرة بالنفس ، ويدعم الأساس النفسى للفن ، وهذا فى درس البلاغة بخاصة ، بأن تقدم بين يدي الدرس البلاغى : مقدمة نفسية : هى أمر به والزم له ما اقتبس من أبحاث أصولية أو منطقية أو فلسفية طبيعية وغيرها مما أقحم فيه ، وحفلت به كتبه ، من أمثال أبحاث المقولات المختلفة فى تعاريف الفنون البلاغية ، وأبحاث الدلالات أول درس البيان ، وأبحاث المنطق وقضاياها فى النفسى والاثبات والتوكيد من علم المعانى ، وأبحاث الفلسفة المختلفة فى الألوان والطعوم والماهيات والحقائق والنسب والصلات من درس التشبيه والفصل والوصل وغيرها مما مضى القول فيه عند الحديث عن أثر الفلسفة فى البلاغة " .

ويعرض الخولى للمقدمة النفسية التى اقترحها ورآها أصلح من الأبحاث فى المقولات والدلالات والمقدمات الأخرى ، ويصفها وصفا إجماليا ويرى : " أن تدرس فى هذه المقدمة القوى الانسانية بعامة ، وماله منها أثر فنى بخاصة ، فتعرف غير قليل عن الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور الأخرى من ناحية عمله الفنى .

ونعرف مثل ذلك عن الخيال ، والذاكرة ، والاحساس وعين الذوق
الذى طال ويطول التحدث عنه فى البلاغة ، بل فى سائر الفنون
جميعا . كما يجب أن نعرف الكثير عن أصوات الخواص الانسانية
من حب وبغض وحزن وفرح وغيرة وانتقام ، وما الى ذلك ما هو مادة
المعاني الأدبية الكبرى فى الآداب الانسانية كلها ، وعلى الخبرة
بحركات النفس فيه واتجاهاتها ، يقوم النقد الفنى ذو الأساس ، بل
ان البصر بذلك هو مادة النبوغ الفذ ، وسبيل خلود الآثار الأدبية
للمنشئين والناقدين .

ثم نريد لنذكر المعانى النفسية فى الشعور بالجمال ، والتأثير
به ، وتقديره ، ليكون قولنا فى ذلك ، حينما نصنع مثله ، أو نقد
قبولا معتمدا على غير اللحمة الخاطفة ، والملاحظة السطحية ، والهاجس
الطائر ، وبهذا لا يكون فننا لمبا بالألفاظ ، ولا خواطر متناثرة ،
ولا رعاية لمشاكلات سطحية ، أو التماسات مكلفة ، كما لا يكون نقدنا
فارغا معادا ، نضمه فى كل بيت ، ونلبسه لكل قصيدة ، بل يكون
فننا عميقا مغذيا للروح ، محدثا عما تجده النفوس القوية الشديدة
الاحساس ، فيسحرها أن تسمعه ، ويفتنها أن يترجم عنها أصدق
ما استطاعت ، كما يكون نقدنا وزنا مقاييسه حقيقية اختبارية ،
وتقديرات دقيقة ، تبتعثها خبرة لا يدعيها كل أفق ، ولا يطمئنها
كل عاطل ، ولا ينتحلها كل من قعدت به الهمة عن الجد فى الحياة
من نشهد هم يطلون أسواق الأدب ونواحيه ، ويختطسون صفة الناقد
والمنشىء .

" ولعله اذا ما استقر هذا فى نفوس من يزاولون الأدب ، ونفوس
من يستمتعون به ، نستطيع القضاء على المنحط من صنوف القول الادبى "

" وما ان أشك في أنه كلما اشتد وصلنا للأدب بالبيئة النفسية والجو الانساني الحقيقي ، خلصنا من كثير ، بل من أكثر الآفات التي نشكو اعتدائها على الأدب ، وحياتها المتطفلة عليه ، وفسادها لأثره وخطاها من قيمته . وحسبنا ذلك مغنا ، لو كان هو كل ما نخرج به " . (١)

آثار هذه الصلة في اصلاح البلاغة:

تحت هذا العنوان راج الأستاذ الخولى بتأييد من تلك المصرفة النفسية ينظر في الاعتبارات البلاغية " لنقبل منها ما نقبل على أساس واضح ونرفض منها ما نرفض عن فكرة صحيحة ، فنخلص دراسة البلاغة من تلك التطليلات الركيكة المزيفة ، التي لم تعتمد الا على نظر عقلي بعيد عن روح الفن ، أو قد اعتمدت من ذلك على باطل لا مودة له ، ولا قوة فيه ، كما نفهم بذلك ما تبقى من تلك الاعتبارات ، فهما ذاعطة على الذوق والتكوين الأدبي . . . والى القارئ من ذلك أمثلة يتبين فيها ما نقول :

نحن نقرأ - مثلاً - في بيان ميزة الأسلوب المعروف عندهم باسم " تأكيد المدح بما يشبه الذم " قولهم : ان سبب ذلك أن هذا الأسلوب كدعوى الشئ ببينة ، ويفسرون ذلك بأن القائل على نقى المدعى وهو إثبات شئ من العيب بالمحال ، فعدم العيب محقق . كما نقرأ لهم وجها آخر لميزة هذا الأسلوب هو " أن الأصل في مطلق الاستثناء الاتصال ، فذكر أداته قبل ذكر المستثنى يوهم اخراج شئ مما قبلها ، فإذا ما أوليت الأداة صفة مدح ، وتحول الاستثناء من الاتصال الى الانقطاع " التأكيد ، لما فيه من المدح على المدح ، والاشعار بأنه لم يحد صفة ذم يستثنىها " . (٢)

(١) المرجع السابق ص ١٩٢ - ١٩٥ بتصرف .

(٢) مواهب الفتح للمصري ص ٢ من شروح التلخيص ص ٣٨٩

هذا ما يقولونه ، ولورجعنا الى أنفسنا لوجدنا أن التعليل الأول بالدعوى والدليل عليها ، تعليل فيه الغموض والابهام . . وفيه فوق ذلك أن الشهور بمعنى الاستدلال ، أو وجدان أثره في الاثبات لا يلح منه شيء ، في نظم الكلام ، فلا يزال السامع يجد دعاوى مرسلة لم يتأيد منها شيء بشيء ، وما زعموه من أثر البيئة وتقوية الدعوى لا وجود له ، ولا يتبادر الى النفس من فعله أثر .

وليس التعليل النحوى الآخر بأحسن حالا من سابقه " الفقهي " فهذا الذى يذكرونه من الاتصال والانقطاع اعتباران نحويان ، لا يحسن المرء تذكرهما أو ملاحظة الفرق بينهما . ينص يسمع هذا الأسلوب ، وليس كل من يجد أثر هذا الأسلوب فى نفسه قد درس الاتصال والانقطاع فى الاستثناء ، بل لعل معرفة المرء لهذا الاتصال والانقطاع يضعف معها شعوره بميزة هذا الأسلوب . ثم هم أنفسهم قد عد بعضهم فى هذا السوجه من التعليل تمحلا (١) . كما لاحظوا أن التعليل الأول انما أفاد التأكيد بأمر تخيلى .

ولعل السر النفس لذلك فيما يظهر ، هو فى هذا الأسلوب من معنى المباغثة والمفاجأة التى تكسبه طرافة ، وتثير جوله تنبها . وسواء أكانت هذه الطرافة تقوم على اتصال الاستثناء أو يتحول معها منقطعا ، فان المباغثة هى الأصل ، لا ملاحظة الاستثناء وحالته .

وقد نجد آخر قولهم فى هذا المقام لمحة كخفق البرق نستخرج منها هذا المعنى النفسى ، لشعورنا به لا للفت عارتهم اليه ، وذلك اللمحة هى قولهم : " تأكد المدح لكونه مدحا على مدح ، وان كان فيه نوع من الخلافة " . فما أحوج هذه الخلافة الى البيان ، لأنها روح التعليل ، وسر الحياة فى الأسلوب " .

ويعرض الأستاذ الخولى مثالا آخر كشاهد على صدق قوله وصحة رأيه : " ومن ذلك مثلا أنا نسمعهم يقولون " أطبق البلاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه ، وأن التمثيل على سبيل الاستعارة أبلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر " .

يقولون هذا ثم لا يعللون شيئا منه كله الا بالفكرة السابقة في تأكيد المصحح بما يشبه الذم من قولهم : انه كند عوى الشئ ، ببينة ، ويعودون الى الاستدلال والتلازم ، والانفكاك . . . الخ .
وشهد الله وأولوا الفن ، أن ليس من ذلك الاستدلال ، ولا تلك البينة ولا هاتيك الشهادة ، قد مربط اطراف القائل ، أو السامع ، أو وحدته نفس أدبية . . . ولعل الاعتبارات النفسية في تداعى المعانى ، وتجاذب الصور ، ونحو هذا ، مما يكشف حسن هذه التعابير ، ويحسم ناحيتها القوة فيها دون برهان ولا ادعاء ، ولا مقاضاة أو احتجاج .

وكم انطوت كتب البلاغة على سخيف النكات التى لا تراحم ، والتى هى ضرب من فكاكة الفقهاء ، ودعابة النفوس الراكدة ، وليست فى أصلها الا فروضا ذهنية ، واحتمالات عقلية لا غير ، قد نبههم اليها وأغراهم بمثلها طول إلفهم لهذه الغروض ، وتلك الاحتمالات البعيدة عن واقع الحياة ، ونضرة الفن ثم راحوا بهذا الفقر النفسى ، والجدب الوجدانى ، يعللون حسن التعابير ، وقوة الأساليب ، ويبتينون خصائصها ووجه حسنيتها ، فلم يكن من وراء ذلك الا ما حفلت به الكتب من سقيم الملاحظة ، وسمح النكتة التى يلمحها ، بل يتكلفها محدود الأفق ، قد بعد ما بينه وبين الوجدان ، بقدر ما بعد بينه وبين الحياة الحافلة الشاعرة . ولا سبيل الى استئصال ذلك من الكتب فى هداية وتوفيق الا بالملاحظة النفسية الدقيقة الصادقة " .^(١)

(١) مناهج تجديد ص ١٩٦ - ١٩٩ بتصريف .

وانتقل الأستاذ الخولى بعد ذلك فى بحثه هذا الى الحديث
عن الاعجاز النفسى وهو حديث تختزنه ونحتفظ به للفصل الذى سيأتى
قريباً فى " قضية الاعجاز " .

رد الممارى :

ويبدو أن بعض العلماء غضبوا من الأستاذ الخولى لتهجمه على
القدماء واتهامهم بالقصور والتقصير والفقر النفسى ، فانهى الدكتور
الممارى يرد على الخولى هجومه وينقد بحثه ، وقد بدأ بقوله ،
" لعل علوم البلاغة أقل علوم العربية نصيباً من جهود الباحثين
المعاصرين ، ولعلها كذلك أحوط هذه العلوم الى التجديد والتحديث
ولكننا نستطيع ان نقول - فى غير غنى من عمل أحد - : ان الابحاث التى
ظالعنا بها هذا العصر فى هذه العلوم دون ما كنا نأمل من علمائه
الأعلام .

ولقد شاع فى رسائل المعاصرين النعى على علماء البلاغة ورميهم
بالجهل والتقصير أحياناً ، وهذه طريق لا تؤدى الى النهاية ، ولو أنهم
ان هدموا بنوا لكان الأمل قوياً فى أن نطفر بشئ ، ومن حق أسلافنا
عليها أن نزود عنهم ، وندفع ما يلحق بهم من ظلم وجمود " (١) .

ثم بدأ الممارى يعلق على بحث الخولى :
" قرأت رسالة للأستاذ الشيخ أمين الخولى المدرس بجامعة فؤاد الأول ،
عنوانها ، (البلاغة وعلم النفس) ، تحدث فيها عن صلة قديمة بين الابحاث
البلاغية ومظاهر النفس الانسانية ، ولكنه نعى على الأسلاف أنهم لم
يربطوا بينهما على أن علم النفس علم من العلوم (مع أنه كان من معارفهم)
ورأى أن هذا الربط ضرورى فى الدرس وفى غير الدرس "

(١) نقلنا هذا المقال عن مخطوطة لمجموعة مقالات فى البلاغة بعنوان

(قضايا بلاغية) د . الممارى ص ٦٨ .

وبعد أن يستعرض العمارى رسالة الخولى بايجاز يعود ليرد على
هذين المثالين الوحيدين اللذين اعتد عليهما الخولى فى رسالته ،
وادعى فيهما أن القدامى وقفوا عند تعليقات جافة ركيكة ، ولم ينظروا
فيهما الى الأمر النفسى قط . وسنرى أن ما وصمهم به ليس صحيحا ،
وأن ما ذكر أنه وصل اليه هو هو الذى ذكره علمائنا الأجلاء . قال :
(نحن نقرأ مثلا فى بيان ميزة الأسلوب المعروف عند هم باسم تأكيد
المدح بما يشبه الذم قولهم : ان سبب ذلك أن هذا الأسلوب كدعوى
الشيء ببينه ، ويفسرون ذلك بأن القائل علق نقير المدعى وهو اثبات
شئ من العيب بالمحال (الى أن يقول) :
ولعل السر النفسى لذلك فيما يظهر هو ما فى هذا الأسلوب
من معنى المباغطة والمفاجأة التى تكسبه طرافة وتشير حوله تنبها) .

وبعد أن عرض د . العمارى المثال الأول ، والتعقيب عليه بأن السر
النفسى فيه انما هو المباغطة والمفاجأة ، يرد على الخولى ذلك فيقول :
" والذى نلاحظه هنا :

١ - أن المفاجأة التى تمدح بأنه وصل اليها انما مأتاها انقطاع
الاستثناء ، وذلك أن النفس حين تسمع أول الكلام تنتظر أن يجرى آخره
أليفا لأوله ، ويستقر فيها اطمئنان لذلك ، فاذا انقطع الاستثناء فوجدت
بما لا تتوقعه .

٢ - أنهم ذكروا لهذا علة نفسية ، قال فى المطول بعد أن ذكر
التعليقين السابقين " مع ما فيه من الخلابة وتأخير للقلوب " وفى هذه
الكلمة الأخيرة (تأخير للقلوب) كل الرد على الباحث الفاضل المجدد .
ويلفت د . العمارى الى المثال الثانى فيقول :

أما المثال الثانى فحيث يقول : (ومن ذلك مثلا أنا نسميهم يقولون
أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الاستعارة أبلغ من
التمريح بالتشبيه . . . الخ ثم يمللون شيئا من ذلك كله الا بالفكرة السابقة
من تأكيد المدح بما يشبه الذم من قولهم : انه كدعوى الشئ ببينه) .

ولعلنا نقف طويلا متحبين من جرأة أستاذنا في الجامعة ، ورئيس
 طائفة تدعى التحديد في علوم البلاغة ، حين نعلم أن صاحب الصناعتين
 عقد فصلا للموازنة بين الحقيقة والمجاز ، ذكر فيه أكثر من أربعين مثالا ،
 وعلل لكل مثال بعلة ، وليس تأكيد المدح بما يشبه الذم واحدا من هذه
 العلل ، وأنه في أول الفصل علل تعليلا عاما بأمر نفسه فقال :
 " وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في نفس
 السامع ما لا تفعل الحقيقة " . فكيف يسوغ بعد هذا الأستاذ أمين في
 العلم أن يطرح بهذا كله ليقول ان علماءنا لم يعرفوا تعليلا نفسيا واحدا
 وهل يرى أن الباحث لا يكون بارعا معلما الا اذا ادعى أن الأوائل لم
 يتنبهوا لما وصل اليه ؟ .

ويذهب د . العماري بعد ذلك يعرض أمثلة أخرى للدلالة على أن
 أسلافنا كثيرا ما رعوا الأمور النفسية في البلاغة ولم يقتصروا على تعليقات
 ركيكة حافة . ومن ذلك : ما كتبه ناشر كتاب " أسرار البلاغة " في مقدمته
 (ينبغي لقارئ هذا الكتاب وصنوه دلائل الإعجاز أن يتأمل حق التأمل
 ما انفرد به الامام عبد القاهر من جعله علوم البلاغة - البيان والمعاني
 والبدع - من قبيل العلوم الطبيعية ، كعلم النفس ، وعلم الأخلاق ،
 وعلم الفلسفة العقلية ، لا مجرد مواصفات واصطلاحات . . .) ثم يقول :
 وهذا كلام صريح في أن علماءنا تنبهوا لهذا الذي أراد الأستاذ أن
 ينبهنا اليه ، بل جعلوه أملا تؤولف في ضوءه الكتب .

ويسوق د . العماري شاهدا آخر للامام عبد القاهر فيقول : " قال
 الشيخ عبد القاهر يطل بأمر نفسه هذا الأمر الذي ادعى الأستاذ أنهم
 لم يذكروا له تعليلا نفسيا :

" وان أردت اعتبار ذلك - يعني تأثير التمثيل في النفس - في الفن الذي
 هو أكرم وأشرف - يقصد فن الوعظ - فقارن بين أن تقول : ان الذي يخطب
 ولا يتمتع بضر نفسه من حيث ينفخ غيره . . وبين أن تذكر المثل على ما جاء
 في الخبر من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

مثل الذى يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذى يضى للناس
ويحرق نفسه . . . الخ .

فأما القول فى العلنة والسبب ، ولما كان من شيل هذا التأثير
وبيان جهته ومآتاه وما الذى أوجبه واقتضاه فغيرها . . .

وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وطلا كل منها يقتضى أن
يخدم المعنى بالتمثيل وينيل ويشرف ويكرم ، فأول ذلك وأظهره أن
أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى الى جلى ، وتأثيرها
بصريح بمد مكنى ، وأن تردها فى الشىء تعلمها اياه الى شىء
آخر هى بشأنه أعلم ، وثقتها به فى المرفة أحكم ، نحو أن
تنقلها من العقل الى الاحساس ، وعما يعلم بالفكر الى ما يعلم
بالاضطرار والطبع ، لأن المعلم المستفاد من طرُق الحواس أو المركز
فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة
النظر والفكر فى القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام كما
قالوا " ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين " فلهذا يحصل بهذا
المعلم هذا الأنس أعنى الأنس من جهة الاستحكام والقوة . . .

وفى آخر المقال يقول :

وبعد : فنحن لا يكفيننا من معاصرنا أن يثلبوا الأقدمين ، وينوهوا
بقصورهم وتقصيرهم ، ولكننا نريد أن يخرجوا لنا قواعد جديدة
على الوضع الذى يريدونه ، وهينئذ نقول : انهم استدرکوا على
سابقهم وأفادوا علوم البلاغة . أما أن نسمع ونقرأ أن البلاغة معقدة
وأن النحو قاصر وأنه كان يجب أن يدرك الأقدمون ملة البلاغة بعلم
النفس ، وملتتها بالفلسفة ، ثم لا نسمع ولا نقرأ غير هذا .

وما أحسن قول الشاعر :

تقولون أخطأنا فها توا صوابكم
وكونوا بناءة قبل أن تهدوا الصرحا

والآن يحق لنا أن نتساءل :

هل هذه النزعة النفسية فى فهم الأدب ونقده وليدة العصر الحديث؟

وهل هناك خطر من التوسع فى استخدام البلاغة لعلم النفس ؟

أجاب على هذين السؤالين الأستاذ سيد قطب فى كتابه : النقد

الأدبى - أصوله ومناهجه .

أما عن السؤال الأول فقد قال : " ربما يبدو أن النزعة النفسية فى

فهم الأدب ونقده وليدة العصر الحديث ، وأنها وافدة علينا من الغرب

حيث نمت الدراسات النفسية ، وخاصة التحليلية ، نموا عظيما فى هذا

القرن الأخير ، وأن الأدب العربى لم يعرف هذه النزعة من قبل .

وفى هذا الذى يبدو وللنظارة المحلى صواب وخطأ يحسن تمييزهما :

ان استخدام علم النفس وما وصلت اليه الدراسات فيه من نظريات مرسومة ،

وقواعد محدودة ، وطرائق خاصة لفهم الأدب ونقده ، هى أشياء مستحدثة

بلا جدال ، والذين حاولوا أن ينتقصوا بها قد استندوها من الغرب

فعلا ، ولم يكن لها على هذا الوضع أصول فى ثقافتنا الأدبية العربية .

وأما تدخل الملاحظة النفسية بصفة عامة فى فهم الأدب ونقده فهى

أقدم من ذلك كثيرا فى الأدب العربى ، لأنها عاصرت منذ صدر الاسلام

ان لم يكن قبل ذلك ، وتمشبت معه فى نموه حتى بدت فى هيئة قواعد

ونظريات على يد عبد القاهر الجرجاني فى القرن الخامس الهجرى . ثم

وقفت هناك ... وحقيقة أنها حين وجدت فى نقدنا الحديث لم يكن وجودها

استثناءا لتلك الخطوات البعيدة ، انما كان ذلك ابتداء واستعدادا من

الغرب ... ولكن قد آن الأوان أن نلتفت الى هذه الجذور الأولى ولو

من وجهة التحليل والتسلسل التاريخى " . (١)

وأما عن السؤال الثانى فقد قال : " هناك خطر نلمحه من التوسع

فى استخدام ذلك العلم - علم النفس - وهو أن يستحيل النقد الأدبى

تحليلا نفسيا ، وأن يختنق الأدب فى هذا الجوء

فمن الواضح أن العمل الفني الردى، كالعمل الجيد من ناحية الدلالة النفسية، كلاهما يملح شاهداً، فإذا استحال النقد الأدبى الى دراسات تحليلية نفسية لم نتيين قيمة الجودة الفنية الكاملة، لأن المجال لا يتسع للانتباه اليها وفرزها وتقدير قيمتها كما فى المنهج الفنى. وذلك خطأ مر غير مباشر قد لا يلتفت اليه فى أول الامر، ولكنه يؤدى الى توارى القيم الفنية، وانغمارها فى لجة التحليلات النفسية.

وشىء شبيه بهذا قد وقع فى كتب البلاغة بعد عبد القاهر، فقصد كان المتبع فى أيامه أن تختلط قواعد البلاغة بالنقد الفنى، وأن يستشهد على القاعدة البلاغية بالنصوص، ثم تنقد هذه النصوص نقداً فنياً يبين الجمال والقيح فيها. وهذا هو المنهج الصحيح. ولكن البلاغة بعد ذلك استقلت على يد السكاكى وأمثاله فصارت القاعدة هى المقصودة أولاً وأخيراً، والقاعدة تثبت بالمثال الحيد كما تثبت بالمثال الردى، وعلى هذا أصبحت كتب البلاغة عند المتأخرين معرضاً لخناج فى غاية السخف والرداءة، تذكر على أنها أمثلة لقواعد البلاغة، ففسد الذوق فساداً عظيماً^(١)

هذا هو رأى الأستاذ سيد قطب، لكن الدكتور محمد خلف الله يرى أن علم النفس والأدب متداخلان بالضرورة تداخلاً كبيراً وأن " اتصال النفس بالأدب لم يجر من علماء النفس وحدهم، بل من رجال البحث الأدبى أيضاً. فقد نازر هؤلاء فوجدوا ثروة من المعلومات، ونتائج من الدرس تحمل طابع العلم الصحيح، قد وضعت بين أيديهم، ووجدوا أنهم أنفسهم وهم رجال الأدب لا يفتنون فى تاريخهم الطويل يتكلمون عن الخيال فى تقليده واختراعه، وعن الحافظة فى مدقها وباطنها واضطرابها وهدهودها، وعن الشخصية وظهورها أو عدم ظهورها فى القصيدة أو الكتاب وعن الرجل وصورته فى الأسلوب، وعن القريحة وأثرها فى تصوير الأفكار، وعن الحس وقوته فى ضروب التشبيه والمجاز، وعن الذهن وجمروته فى النصوص على عميق المعانى، وعن الشاعر وبيئته،

وعن الكاتب وما حلل في رواياته من مختلف عقد الحياة ، وعن أسباب
أحادية هذا الشاعر في فن ما ، وذلك في فن آخر ، وعن الأحوال
والظروف التي مربها منشئ الأدب وما كان لها من أثر في نوع أسلوبه
الكتابي ، ولهجة خطابه ، ونوع أوزانه وقوافيه * .^(١)

ونحن نرى أن علم النفس على أهميته في التحليل والتعليل
لا يصح أن يطفى على مادة البلاغة ودراستها ، فما هو الا تمهيد
لدراسة البلاغة ، والتمهيد لا يجوز أن يطفى على الموضوع . ولهذا
فنحن مع ميلنا الى استخدام علم النفس في البلاغة واحلاله محل
القضايا المنطقية والمسائل الكلامية ان هو أقرب الى النفس وأبعد عن
الجدل نرى أن علم النفس بالنسبة للبلاغة خادم لا سيد وتابع لا متبوع
فهو موظف لها ومعين على فهم أسرارها . وعلى هذا فيجب أن
يكون استخدامنا له في حدود معينة فلا نتركه يطفى على مسائل
البلاغة ويتفشى في منهجها ويسيطر على مباحثها وتتحول البلاغة
الى دراسات تحليلية نفسية .

هذا خطر محتمل * وقد نبهنا اليه الاستاذ سيد قطب فيما
أوردناه له من نقد . ولا شك أن علم النفس أقرب وشيخة السي
علم البلاغة من علم الكلام وقضايا المنطق وسيكون له أثر جميل وجديد
في دراسة البلاغة ولكن على المجددين أن يكونوا حذرين فيستخدموه
بقدر ويستعملونه في حدود فالشيء ان زاد عن حده انقلب الى ضده
ولقد حدث ذلك من قبل عندما دخلت قضايا المنطق وعلم
الكلام ساحة البلاغة فلم تثبت أن طغت وسيطرت وحولت دراسة البلاغة
الى منطق وافتراضات وجدل وكلام . ونود مخلصين ألا يتكرر هذا
الخطأ وألا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

(١) من مقال : بحر التيارات الفكرية التي أثرت في دراسة الأدب - مجلة
آداب اسكندرية - المجلد الأول سنة ١٩٤٣ ص ٨٠ - ٨٨ .

نورة على علوم البلاغة

ألقى هذه المحاضرة الأستاذ عبد العزيز البشرى فى قاعة المحاضرات بالجامعة الأمريكية . وكانت هذه المحاضرة فيما يبدو صدق لما لى به البشرى من عجز البلاغة العربية بعلومها الثلاثة عن صنع القول الجيد أو خلق الأدب البليغ .

(١) وفى بداية المحاضرة ذكر البشرى أنه قضى فى الأزهر بضع سنين يدرس الفقه والنحو والبلاغة فى كتبها المعروفة يومئذ لأهل الأزهر ، ثم راوده سؤال شغل وأهمه حتى كاد فى بعض الأحيان يطأ عليه مذاهب تفكير ، وكان يخشى أن يظهره لزملائه وأساتذته حتى لا يرموه بالجهل المطابق بما يعلم الناس جميعاً بدليل أن أحداً لم يراجع فيه من بين الطلاب جميعاً . هذا السؤال هو أنه : مادامت للبلاغة علوم مقررة ومعارف واضحة وقواعد مفصلة وقضايا محدودة مرسومة ، فقد أصبح من اليسير على كل من يجيد علمها ويحذق فهمها أن يحىء بالبليغ من القول اذا نظام أو نشر ، بل لتهيأ له بأن يحىء بأبلغ الكلام ، بل بما ينتهى منه الى حدود الإعجاز . وماله لا يصنع وقواعد البلاغة تشير بأوضح الإشارة اليه ، وتدل بأفصح العبارة عليه . ماذا على المرء اذا أرسل الكلام أن يخرج مطابقا لمقتضى الحال ، ويجريه على أحكام الفصل والوصل ، ولا ينحرف به عن مقتضيات الإيجاز والاطناب والمساواة ؟ وهذه أحوال التشبيه بين يديه فما يمنع أن يصوغ الكلام على غرارها ، ويطرسم فيه أجلى آثارها ؟ ولكن الواقع يأتى مع الأسف الا أن يزعمه عن الاستراحة الى هذا الفكر القديم والمنطق السليم ، فهو لا متقدمو الطالب الذين درسوا علوم البلاغة فى أفضل كتبها وأعلامها مكانا ، لاحظ لا أكثرهم فى فصاحة لسان ولا نباعة بيان . ومن هؤلاء ، والبك كوزمران .

(١) نشرت بمجلة الهلال عدد يناير سنة ١٩٣٨ ص ٢٦٥ - ٢٧٥ .

كما نشرها فى كتابه (المخارج) .

وقبل أن تسترسل مع البشرى فى قصة طالب كوم زمان أحب أن أقف لأعجب على تساؤل البشرى الذى حمله فى نفسه حينما من الدهر وخشى أن ييوح به وأنا أعجب كيف غاب عن مال البشرى أن البلاغة قبل كل شىء انما هى : ملكة وفطارة وسليقة ، وأن دراسة علوم البلاغة بدون ذلك لا تخرج بلغيا ولا تمنع قولاً ينتهى الى حدود الاعداز . وأن كل مانطمع فيه من هذه العلوم هو أن تمكن الدارسين من التمييز بين الحمل والقبیح والجد والردىء من الكلام ، فيرتقمون بالأسلوب العربى ولا يبهتون ، ويسلمون بالأدب ولا يسفلون . أما البلاغة والبلاغ فذلك وقف على أصحاب الملكات الذين صقلوها بالدراسة والمرانة والخبرة . ومالنا نذهب بعيدا ان معاهد الفنون المختطفة وبها طالاب كثيرون ودراستهم فى هذه المعاهد تركز على الناحية العملية التطبيقية - وهو ما نادى به فى تدريس البلاغة - ومع ذلك فكم فنانا خرجت هذه المعاهد ؟ انهم لا يكادون يعدون على أصابع اليد الواحدة . ان جميع الذين تخرجوا من هذه المعاهد يعرفون الفن الذى تخصصوا فيه ويميزون بينه من رديئه ، هذا حق ، ولكن أن يبنفوا فنى تخصصهم الفنى فهذا شىء آخر . وكما خرج معاهد وكليات الموسيقى من أعداد ملأت الميدان الفنى بعشرات الفرق ؟ كلهم اشتغلوا بتدريس الموسيقى أو تفرغوا للمزف فى فرقهم وفى التلفزيون والاذاعة . لقد ملثوا فراغا وشغلوا حيزا من ميدان الفن . هذا حق . ولكن كم منهم نبغ واصبح (موسيقارا) بشار اليه بالننان ؟

ونعود الى قصة طالب كوم زمان - هكذا سماه البشرى - هذا الطالب الذى حاور البشرى فى خزانة حوائجه بالأزهر . فبعد أن فرغ هذا الطالب من درسه كتاب السعد دعا البشرى وزملاءه لسميعهم قصيدة رائعة من نظمهم يمجوبها أهل بلدة كوم زمان المحاورة لبلدته ، فاستقوا بين يديه وقصيد أرمفوا الأذان ، وحددوا الأذهان ، وطلقوا الأنفاس ، حرصا على المتاع بما لا يثغر به عامة الناس .

أما مطلع القصيدة فهو بمشيئة الله تعالى :
 دع كوم زمران كي تنجو من الملل وتستريح أخى من كثرة الزلل
 ومنها :

ان جاء ضيفهم قبل المشاء ان تراهم يا فتى فى غاية الطل
 فالبلخل مشتق منهم ما على أحد منهم ثياب سوى البالى من الحل
 ما فيهم عاقل يا ابن الكرام فقد حنوا جميعا وقال الله من خبل
 أما تمام التمام وسلك الختام فهو :

ستون بيتا قريضا لا تزيد سوى بيت به قد سألت العفو عن زلى
 ويقول البشرى : ان هذه القصيدة قد نبهته الى أن درس علوم البلاغة
 على هذه الصورة ليس من شأنه أن يعلم البلاغة أو يطبع على ناصع البيان .
 ويبرى البشرى : أن عجز البلاغة عن الاعانة على صنع القول البليغ دأ قديم
 هدى ابن خلدون الى وجه المواب فى علاجه الملقى حين قال : " ان
 اكتساب القدرة الفنية انما يكون بالممارسة الأدبية . . . " وان لم يشرح ذلك
 نظريا فيفصل بين العلم والفن .

همل البيان أول ما دون من علوم البلاغة :

مرة أخرى يتساءل البشرى - وهذه المرة - عن تدوين علوم البلاغة
 وأيها أسبق ، ويورد قول ابن خلدون : " ان السبب فى اطلاق البيان
 على الأصناف الثلاثة أنه أول ما تكلم فيه الأقدمون ، ثم تلاهقت سائل
 الفن واحدة بعد أخرى . . . الخ " وأخذ يشرح كلام ابن خلدون
 بقوله : (أما أن البيان كان أسبق الفنون الثلاثة الى التدوين فذلك أن
 الامام اللغوى الجليل القدر أبا عبيدة المتوفى سنة ٥٢٠ هـ . قد وضع رسالة
 فى البحث عن : " المجاز فى غريب القرآن " ولا شك فى أن غرضه كان دينيا
 محضا فان تبين الحقيقة من المجاز مما تتأثر به بالضرورة أحكام الشرع الكريم ،
 فاذا صح أن تقصى هذه المجازات تقصيا جزئيا دون العناية بنظمها فى قواعد
 كلية يستخرج منها الأحكام العامة ،

إذا صح أن يدعى هذا تدويناً في علم للبيان ، فلا نزاع في أن رسالة أبي عبيدة هذه هي أول ما دون لافي علم للبيان فحسب بل في علوم البلاغة على الأطلاق (١) .

وهذا لا شك قول غريب من الأستاذ البشرى ، فكيف لم يدرك أن أبا عبيدة في رسالته لم يقصد المجاز المقابل للحقيقة ، بل كان يقصد به — على مذهب القدماء — معنى التعبير وما يدل عليه أسلوب الكلام ، فالمراد بالمجاز عند أبي عبيدة تفسير المعنى وبيان لا غير .

يقول ابن تيمية : " وأول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة مقرر بن المشي في كتابه ، ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسم الحقيقة ، وإنما عني بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية " (٢) . ويظهر ذلك بوضوح في فاتحة كتابه إذ يقول أبو عبيدة : قال الله جل ثناؤه : " ان علينا حمله وقرآنه " محازه تأليف بعضه الى بعض ، ثم قال : " فاذا قرآنه فاتبع قرآنه " محازه : فاذا ألفنا منه شيئاً فضمنناه اليك فخذ به واعمل به وضمه اليك . ويقول أبو عبيدة في قوله تعالى : " وأجل مسمى عنده " مقدم ومؤخر محازه وعنده أجل مسمى أى وقت مؤقت . (٣)

وهكذا يتبين لنا خطأ البشرى في فهم نص ابن خلدون وفي فهم رسالة أبي عبيدة . وعلى كل فان معنى المجاز قد بما وأسبق علوم البلاغة التي التدوين ليس مهمتها في هذا البحث فنكتفى بما أوردنا .

ويذهب البشرى بعد ذلك يتحدث عن أثر الجاحظ وعبد القاهر والسكاكي في البلاغة المصرية ، ويقابل بين عبد القاهر وبين السكاكي وكتب المتأخرين

(١) ص ٢٦٨ من مجلة الهلال .

(٢) كتاب الايمان ص ٧٥ .

(٣) مجاز القرآن ص ١٨٥ ج ١ .

ويظهر اعجابه بمنهج عبد القاهر وكيف أنه " يعمد الى المسألة من مسائل المعلم فيضفى بين يديها المقدمات ويسمخ المقال فى التحليل لها أيما اسباغ ، ولا يزال يتيامن بالقول ويتياسر ، ويضرب فى محازات الكلام جيئة وذهوبا ، ولا يبرح يفصل المعانى تفصيلا ، ويلون الحجج تلويها ، حتى اذا ظن أنه أوفى من ذلك على الخاية ووقع بقارئه على الصميم ، راح يورد الشاهد فى اثر الشاهد ، جاهدا فى شحذ فطنتك وارهاف ذوقك ، ليتهيأ له أن يتدسس بك الى أطواء الكلام ، فتجس ما أخفت من الدقائق حسا وتستشعر ما أضمرت من المحاسن ذوقا محسا ، وكل أولئك يصنعه فى عبارة حزلة فخمة ، ويجلوه فى ديباجة مشرقة اللفظ متلاحمة النسج . . . "

ويرى البشرى أن فضل عبد القاهر على البحث البلاغى لا يظهر الا اذا وازنا بين منهجه ومنهج المتأخرين فى كتبهم البلاغية . ويروح البشرى يصف هذه الكتب أو بالأحرى يهاجمها ، وينعتها " بأن عبارتها معقدة ، وملاك البحث فيها انما هو الجدل اللفظى والاعتساف فى بحوث فلسفية لاغناء لها فى صنعة بيان . بل أن من يريد أن يتخلص من فصاحة اللسان فليس عليه أكثر من أن يدرس هذه الكتب حق درسها ، ويدبر النظر فيها ، ويقلب فى عبارتها لسانه وفكره . "

ويتساءل البشرى بعمد ذلك : أليس لهذه الكتب من فائدة ؟ ويجيب على تساؤله فيقول : نعم لها فوائد كثيرة منها : أنها تفسح فى الطلقات المصامة ، وتطبع الطالب على الصبر فى البحث والتحقيق ، وتموده الا يسيخ قضية من القضايا الا بعمد أن يحركها بألوان الاختبار والامتحان . ثم يقول : ليكن لها هذا ، وليكن لها غير هذا أيضا ، ولكنها لا يمكن أن تطقن علوم البلاغة على أى حال فضلا عن أن تذيق الطالب البلاغة نفسها ، أو تريحه ريحها ، اللهم الا أن تكون بلاغة من طراز :

دع كوم زمران/تنحوس من العلل وتستريح أخى من
كثرة الزلل وهذا - بالطبع - حكم عام من البشرى لأن هناك من الكتب
ما يمين على تذوق البلاغة مثل " المثل السائر " و " الطراز " ولكنها
للأسف لم توضع موضع الدرس فى معهد من معاهد التعليم .

البلاغة بين العلم والفن :

وتحدث البشرى عن البلاغة بين العلم والفن " فالفن ابن الطبع
والخريزة والملكة ، وإنما يدعوا الى انشاء ومعالجته الحاجة تبعثها
ضرورة أو تبعث اليها مجرد الرغبة فى الترفيه والتلذذ أما العلم
فمهمته بعد ذلك الملاحظة والتقييد والتسجيل .

فالبلاغة باعتبارها فنا هى أثر الملكة ومظاهر قدرتها من نظم
شعر رائع أو ارسال نثر بديع . أما البلاغة باعتبارها علما فهى
عصارة ما خرج بالاستقراء للاحساس والأذواق من دواعى الحسن والقبح
فى فنون الكلام . فالعالم بالفن غير الفتن ، وطالب كوم زمران لنا
أن نعتبره عالما وليس فنانيا .

ومما لا شك فيه أن أظهر ما يظهر فى التطور بالاتساع هو الفن
الجميل ، وذلك لأن مرده فى الغاية الى الأذواق ، والأذواق شديدة
التأثير بالكثير من أسباب الحياة ، ومن أهمها حظ الجماعات من
الحضارة والثقيف . وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهذه الفنون ،
فإن البلاغة العربية باعتبارها فنا أولا ، وباعتبارها فنا جميلا ثانيا
مما يجوز عليه التخيير والتلوين ، ومما يتقبل النمو بحكم أطوار
التقدم فى أسباب الحضارة واتساع الأفهام ورهافة الأذواق باتساع ،
آفاق العلوم والفنون .

أثر تقدم الحضارة فى البلاغة :

ومن رأى البشرى أنه بسبب تقدم الحضارة واتساع آفاق العلوم
قد فطن النقدة ومتذوقو الأدب الى ألوان من البلاغة فى آثار العربية

لم يحتفل لها متقدمون نقد الكلام أى احتفال . ومن أظهر ما أغفلوا الحد يث عنه بلاغة الصورة ، وبلاغة القصص وما يتضمن من بارع الجدل ورائع الحوار .

ومرة أخرى أعجب من الاستاذ البشرى كيف لم يدرك أن بلاغة الصورة قد تناولها عبد القاهر ولو فى بعض الأحيان - نظريا وتطبيقيا . أما نظريا فقد قال - مثلا - فى دلائل الاعجاز أثناء حديثه عن مزايا النظام بحسب المعانى والاعراض .

قال : " وانما سبيل هذه المعانى سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصورة والنقوش فكما أنك ترى الرجل قد تهدى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة والنقش فى ثوبه الذى نسج الى ضرب من التخير والتدبر فى أنفاس الأصباغ وفى مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبها اياها الى ما لم يتهد اليه صاحبه ، فها نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب ، كذلك حال الشاعر والشاعر ويقول بعد ذلك ، واعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية فى نظامه الحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينظم بعضها الى بعض حتى تكبر فى العين ، فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه ، ولا تقضى له بالحنق والأستاذية وسعة الذرع ، وشدة المنة ، حتى تستوفى القطعة وتأتى على عدة أبيات وذلك ما كان من الشعر فى طبقة ما أنشدت من أبيات البحتري " (١)

وأما عمليا فاننا نجد ذلك فى بعض تطبيقات عبد القاهر على نظرية النظام من ذلك - مثلا - قوله : وهل تشك اذا فكرت فى قوله تعالى : " وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسما أقلقى وغير الماء وقضى الامر واستوت على الجوى وقيل بعدا للقوم الظالمين " فتجلى لك منها الاعجاز ، وبهرك الذى ترى وتسمع ، أنك لم تجد ما وجدت من المزية

الظاهرة ، والفضيلة الباهرة ، الا لأمر يرجع الى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأنه لم يمرض لها الحسن والشرف الا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة ؟ وهكذا ، الى أن تستقرىها الى آخرها ، وأن الفضل نتائج ما بينها ، وحصل من مجموعها " (١)

وفى هذا يقول د . نايل : ان عبد القاهر قد " تناول القصيدة كوحدة وتناولها صورة وحملة فأبان عن ترابط أجزائها وترتيب عناصرها وتلاؤم معانيها كما نفعل نحن الآن تماما فى تحليل النص وبيان ترابطه فى وحدة عضوية " (٢)

وأقول : ان أستاذى الدكتور نايل قد غالى بمصر الشئ فى قوله هذا فان عبد القاهر لم يتناول القصيدة - كوحدة ، وان تناولها - أحيانا - صورة وحملة ، ولكن ليس كما نفعل نحن الآن تماما فى تحليل النص ، حيث ظهرت فى الدراسات الأدبية الحديثة (الوحدة العضوية) (٣) ومالها من خصائص ومواصفات ، وحيث أصبحت الصورة الأدبية فصلا يدرس وموضوعا له أهمية .

وأىضا فان عبد القاهر لم يشر الى الصورة الا اشارات خفيفة عابرة فى ثنايا حديثه عن تحقيق القوس فى الفصاحة والبلاغة وعن مزايا النظام بحسب المعانى والأغراض وهو ذلك ، ولم يفرد لها بابا ، ولا فصلا ، ولا حتى موضوعا خاصا يدور الحديث حوله ويرتكز عليه . ولا ننبى للامام عبد القاهر فى ذلك ، فعصره غير عصرنا ومن الظلم له أن نطلب منه فى عصره ما جدد عصرنا ويكفى أن عبد القاهر أشار فى بعض حديثه الى الصورة وتناولها فى بعض المواقف .

(١) المرجع السابق ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) نظرية العلاقات ص ٤٨ .

(٣) المقصود بالوحدة العضوية : وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسى .

انظر الأضواء فى اللغة العربية ص ٢٠٩ .

وكان يجب أن يكون هذا حافزا لمن يمدّه أن يتلقفوا تلك الاشارات
المعبرة واللمحات الخاطفة ويستفيدوا بها في تنمية الصورة ومعمتها
في أدبنا وبلاغتنا . ولكأنى بلسان حال عبد القاهر يقول لنا :
" فلا تلومونى ولوموا أنفسكم " .

أما بلاغة القصص وما يتضمن من بارع الجدل ورائع الحوار ، فان
كان القدماء قد أغفلوا الحديث عنها - كما يقول البشري - فان ذلك
لا يمنع من أن القصة كانت موجودة وأن أدبنا العربى حافل بكثير من
القصص شمرا ونشرا ، والذين يقولون بأن القصة أدب جديد وافسد
فستحدث اما جاهلون لم يطلعوا على أدبنا القديم ، واما مفرضون
والحقيقة أن الجديد فى القصة هو ما وضع لها من أصول وقواعد
مثل : المقدمة والعرض والأحداث والعقدة والحل والنهاية أو الختام .
أما القصة نفسها فهى موجودة ولها جذور فى أدبنا العربى القديم
وهى قصص فى غاية الروعة والبلاغة والابداع . ولن أقول أن
المقامات من الفن القصصى ، فهى بحسب ماورد من أصول وقواعد
جديدة للقصة ليست الا حكايات فهى خالية من الأحداث غالبا
وليس فيها عقدة ولا حل . ولكنى أذهب الى أبعد من ذلك الى
العصر الجاهلى وصدر الاسلام ،

فبالنسبة للعصر الجاهلى نجد الشعر أغلب من النثر ولذلك
أطلق عليه بعضهم (عصر الشعر) وبعض قصائد الشعر الجاهلى
والاسلامى عبارة عن قصة لها بداية ونهاية وفيها الأحداث والعرض
والحوار بل العقدة والحل أحيانا . ولكن اسم (القصة) لم يكن
وقتها مألوفا أو شائعا وان كان موجودا فى اللغة ، ولكنه لم يطلق
أو لم يؤلف إطلاقه على قصيدة مهما كانت تحمل من معالم القصة .
فمثلا نجد للحطيئة قصيدة مفسيرة لم يكن لها عنوان فى عصرها ولكن
لما أراد بعض المؤلفين حديثا أن يضعوها ضمن النصوص التى تدرس فى

المدارس وضعوا لها عنوانا هو: (قصة كرم) للحطيثة^(١) فما الذى دعاهم الى ذلك ؟ ان نظرة فاحصة لهذه القصيدة تجد فيها كل مقومات القصة الحديثة من بداية ونهاية وعرض وحدث وحوار وعقدة وحل فى أسلوب بارع بليغ ولأن القصة من الأساليب والفنون الحديثة التى ينادى كثير من المجددين بآدابها ضمن الدرس البلاغى فانى أعرض لك هذه القصيدة على سبيل المثال مطبقا عليها مقومات القصة الحديثة . يقول الحطيثة :

- ١ - وطأوى ثلاث عاصب البطين مرسل .. ببیدا لم يصرف بها ساكن رسما
- ٢ - أخى جفوة فيه من الانس وحشة .. يرى البؤس فيها من شراسته نعما
- ٣ - وأفرد فى شعب عجوزا ازاها .. ثلاثة أشباح تخالهم بهما
- ٤ - حفاة عراة ما اغتذوا خبز طمة .. ولا عرفوا للبرمد خلقوا طعما
- ٥ - رأى شبعا وسط الظلام فراعه .. فلما رأى ضيفا تشمر واهتما
- ٦ - فقال هيا رياه ضيف ولا قرى .. بحقك لا تحرمه تا الليلة للحما
- ٧ - فقال ابنه لما رآه بحيرة .. أيا أبت اذبحنى ويسر له طعما
- ٨ - ولا تعتذر بالعدم على الذى طرا .. يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
- ٩ - فروى قليلا ثم أحجم برهة .. وان هولم يذبح فتاه فقد هما

- ١٠ - وبيناهما عنت على البمد عانة .. قد انتظمت من خلف سحلمها نظما
- ١١ - عطاشا تريد الماء فانساب نحوها .. على أنه منها الى دمها أظما
- ١٢ - فأمهلهما حتى تروت عطاشها .. فأرسل فيها من كنانته سهما
- ١٣ - فخرت نحووس ذات جحر سمينة .. قد اكتنزت لحما وقد طبقت شحما
- ١٤ - فيا بشره ان جرهما نحو قومه .. ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدعى

- ١٥ - وباتوا كراما قد قضوا حق هيفهم .. وما غرموا غرما وقد غنموا غنما
- ١٦ - وبات أبوه من بشاشته أبيا .. لضيفهم والأم من بشرها أما

لن أحدثك فى هذه القصيدة عن بلاغة الأسلوب وروعة الصور الجزئية وخلابة الصورة الكلية ، ولا عن روعة البديع من جناس ومقابلة ومراعاة نظير ، ولا عن جمال الحذف وسحر الإيجاز ولا عن الموسيقى الداخلية والخارجية التى تستولى على النفوس وتأخذ بمجامع القلوب والمقول ، بل لن أحدثك عن بارع الحوار ولا عن الناحية الانسانية والمواقف النبيلة ، لن أحدثك عن شئ من كل أولئك الذى ورد فى هذه القصيدة الصغيرة . فقط سأشير فى عجلة الى مقومات القصيدة الحديثة مطبقة على هذه الأبيات : وفى الأبيات (١ - ٤) نجد بداية القصة ونجد العرض أن عرض أشخاص القصة بدءا بالبطل وتثنية بأفراد أسرته وبيان حالته وحالتهم .

وفى الأبيات ٥ - ٩ نجد الحدث والحوار والمقدمة فى سبك وصياغة تكاد تصل الى حدود الإعجاز كما قال البشرى .

وفى الأبيات ١٠ - ١٤ نجد الحل وما أعقبه من بشر وسعادة . وفى البيتين الأخيرين نجد الختام العجيب الذى يترك أثرا فى النفس لا يمحو بسهولة .

هذا من ناحية الشعر . أما من ناحية النثر فان هناك قصصا زخرت بها مجالس الخلفاء ، وسوامر الأمراء ، ومألات الكتب التى انحدرت إلينا عن المؤلفين القدماء ، وما منع الناس أن يسردوا شريعتهم ، أو يحنوا أطايبها الا ماضيت به هذه الكتب من اضطراب الترتيب ، وردى الطبع وتحريف الناسخين .^(١) أما قصص القرآن فهو أعرف من أن أعرف به وأشهر من أن أتكلم فيه .

ولئن كان لى فى ذلك حديث فهو حديث يتصل بالبلاغة والإعجاز ، ذلك هو بيان الفرق بين القصة القرآنية والقصة المؤلفة وهو فرق جوهري إذ الثانية افتعال أمور وأحداث يسكبها الخيال حتى ولو كانت من الواقع ، بينما الأولى عرض من واقع الحياة التى لا ريب فيها .

(١) قصص العرب ج ١ ص ٤ . وهو كتاب من أربعة أجزاء جمع فيه مؤلفوه كثيرا من شوارد ومتفرقات قصص العرب/ دار أحياء التراث العربى بيروت عام ١٣٨٧ هـ ط ٤

القصة المؤلفة تخضع لمعاطفة صاحبها وفهمه للأشخاص وادراكه للأشياء
وحكمه على القضايا ولذلك فهي أسلوب للتوجيه متأثر بألوان الرغبات.
فالبنون شاسع بين سطحات الخيال في القصص الحر ، وبين الحق
الثابت المستقر في قصص القرآن .^(١)

بلاغتنا قاصرة فما الوسيلة :

ونعود الى البشرى حيث نراه يجد أن هناك قصورا في علوم
البلاغة في العصر الحاضر ذلك لأن سلفنا وجهوا كل عنايتهم الى
النقد الجزئى ، أى نقد الكلمة أو نقد الجملة في العبارة ، فإذا
كان الكلام نظاما جرى النقد للبيت مستقلا وأحيانا للبيت من حيث
اتصاله بما قبله أو بما بعده ، أى النقد (بالقطاع) على حدة
تعبير التجار .

أما نقد الكلام مجتمع الشمل وتناوله من حيث استواء الصورة واتصال
المعاني واتساق الأقطار وتلاحم الأجزاء فذلك ما لم يكن من نقده
حظ جليل .

ويرى البشرى أن الوسيلة لتلافى هذا القصور هو تطبيق البلاغة
وتمرينها حتى تصبح أشبه بالأسلوب النقدي القائم على التفصيلين
والتذويق بحيث تطور مع تطور الأفهام والأذواق ، وعلى أن يوصل
تعليمها في المدارس والمعاهد بدرس الأدب نفسه
فالمواقع أنه ما نضجت موهبة شاعر ولا كاتب قط بدرس علوم البلاغة ،
ولكن بطول ترد يد النظر وتقليب الذهن في المأثور من روائع الأدب
. فإذا انفسحت مع هذا ملكة الكاتب أو الشاعر ، ورهفت فطنته
بترسم مذاهب النقد الفني فقد تمت نعمة الله عليه .

(١) اعجاز القرآن الباني . للدكتور حنفى شرف ص ٢٩٢ بتصرف .

ثم ختم البشرى محاضرتة بقوله : " وبعد فاذا أبينا الا الحرص على بقاء هذه المعلوم على تلك الصورة التي دفعها اليها السابقون فلا شك في أن لها في دار الآثار العربية المكان الفسيح " .

وهكذا نجد البشرى من الداعين الى تجديد البلاغة ، وتجديدها في رأيه هو : تبيين البلاغة وتطويعها لتشمل النص حطة وتتناوله مجتمع الشمل وأن تصبح أشبه بالأسلوب النقدي القائم على التفطين والتذويق ، وأن يوصل درسها وتعليمها في المدارس والمعاهد بدرس الأدب نفسه .

وهذه الأسس التي ذكرها البشرى لتجديد البلاغة ذكرها الخولي في بحثيه السابقين ، وأضاف زيادة عليها استخدام علم النفس الأدبي في التحليل البلاغي ، ووضع مقدمة نفسية تحل محل الدلالات والجامع وغيرها ، وأدخل دراسة الأسلوب وعناصره وأنواعه .

البلاغة العربية بين التطور والجمود

كان هذا عنوان الندوة العلمية التي عقدت فى البرنامج الثانى
بإذاعة القاهرة^(١) بين الدكاترة : محمد غنيمى هلال ، بدوى طبانة
احمد بدوى . وقد نشر هذه الندوة الدكتور احمد بدوى فى كتابه :
من النقد والأدب .^(٢) وقال انه فصل فى الكتاب ما أجمله فى الندوة.

تحدث د . بدوى أول ما تحدث عن نشأة البلاغة وكيف أن رجال

الدين أسهموا فى نشأتها خاصة المتكلمين والأصوليين ، وأن
الشعراء المحدثين الذين ظهروا فى أوائل العصر العباسى قد
خيل الى كثير منهم أن الأوائل استنفدوا الممانى وأنه لا سبيل
الى ابتكار فيها ، ورأوا أن سبيلهم الى التجديد إنما يكون فى
الصياغة ، فمضوا يفتشون فى الشعر عن مظاهر الجمال التى كانت
تأتى عند الشعراء السابقين من غير قصد ومن غير أن يعترفوا لها
اسما من استعارة أو جناس أو طباق أو رد عجز على صدر ، ثم
أخذوا يقصدون الى هذه الألوان قصدا فى أشعارهم ، واتخذوها
مذهبا جديدا فى الشعر ، وعلى رأس هؤلاء بشار ومسلم وأبو تمام .
ثم جاء ابن المعتز فصنف هذه الألوان والتصر لها أمثلة فى الشعر
القديم . وعلى رأس طوائف الأرباب - كذلك - الكتاب الذين كانوا
يتنافسون فى الأخذ بالألوان الجمال فى القول .

وانتقل د . بدوى بعد ذلك الى الحديث عن صلة البلاغة
بالنقد وأنها معيار من معايير النقد الأدبى ، وذلك لأن النقد
يتناول النص من جميع نواحيه ، من ناحية لفظه ، ومن ناحية معناه ،

(١) أذيعت فى الساعة التاسعة من مساء الاحد ٢٤ يناير سنة ١٩٦٠

(٢) ٢ ص ١١٠ - ١١٧ .

ومن ناحية تالأوم اللفظ مع المعنى ، ومن ناحية صلة النص بقائمه
وبيئته وزمنه ، ومن ناحية تكون النص وترتيب أفكاره ، ومن ناحية
ما فى النص من عاطفة وخيال ، وملاءمة النص للزمان والمكان ، وما
ينبغى أن يتبع فى كل غرض من أغراض القول .

والبلاغة تتكفل بدراسة بعض النواحي التى يريد النقد الأدبى
أن يدرسها ، لأن البلاغة تعنى بدراسة المفردات من ناحية فصاحتها ،
وبدراسة الجملة من حيث قوتها وحملها فى عصى الممانى والبيان ،
وبدراسة بعض ألوان الخيال المفسر الشارح للفكرة فى علم البيان . .
ويذهب د . بدوى يتحدث عن علم الممانى وعلم البديع وعلم
البيان بما لا حد يد فيه ثم يقول :

ولا يضير علوم البلاغة أن تقف عند هذه الحدود (يقصد
حدود الجملة والجملة) فذلك ميدانها ، وهو ميدان شاسع
الأرجاء ، لأنها تقف فى النص الأدبى عند كلماته تتبين سراختيارها
وعند جملة تبين سر تركيبها ، وليس ذلك بالعمل الهين .

اتجاهات ثلاثة فى دراسة البلاغة :

- وانتقل د . بدوى الى الحديث عن دراسة البلاغة واتجاهاتها ،
فقال : ان لها ثلاثة اتجاهات :
- ١ - الاتجاه الأدبى : وهو الذى يعنى بمرض الأمثلة وتذوقها ،
ولا يعنى كثيرا بالحدود والتعريفات .
 - ٢ - الاتجاه الفلسفى : وهو الذى يعنى بالتعريفات ، واخراج
المحترزات ويناظر التعاريف حتى تصبح منطقية خالصة .
 - ٣ - والاتجاه الثالث هو الذى يجمع بين الأمرين ، فيعنى
بالتعريفات والأمثلة معا . وربما كان ذلك هو الاتجاه المصرى .

ومن الواضح أن د . بدوى متأثر فيما كتبه عن اتجاهات
الدراسة البلاغية بما كتبه الشيخ أمين الخولى من قبل فى أبحاثه
البلاغية التى عرضناها آنفا .

هل أدت البلاغة رسالتها :

يقول د . بدوى اذا كانت رسالة البلاغة تبصير الكتاب والشعراء
وهذا يتهم الى الرفيع من التعبير ، فانى أعترف أن الاهتداء الى
فن من فنون البلاغة وهو علم البديع كان له أثر كبير جدا فى الشعر
والنثر . فان طائفة كثيرة قد استخدموا ألوان البديع فى شعرهم
بحذق ومهارة دون تكلف أو تعنت ، فجاء شعرهم غاية فى الجمال
والابداع .

أما هؤلاء الذين أكثروا من البديع فى شعرهم بدون داع فقد عاد
على شعرهم بالتكلف والارهاق واستفلق المبنى عندهم فى كثير
من الأحيان كأبى تمام ، وعلماء البديع قد يحوا أصواتهم معلنين
أن جمال البديع لا يكون طبعيا الا اذا كان قليلا ولم يكن متكلفا .

أما اذا كانت رسالة البلاغة البحث عن أسرار الجمال فى المفرد
والجملة والخطتين فيمكن القول بأنها وصلت فى ذلك الى مدى بعيد
وان كان الأمر لا يزال محتاجا الى جهود وجهود للكشف عن باقى
أسرار الجمال فى الأمور التى يحسن القارئ بجمالها ثم لا يجد
البلاغيين قد اهتموا اليها . وعلوم البلاغة ترحب بهذه المكشوفات
وتدعو للبحث وراء الأسرار المجهولة . وعلماء البلاغة أنفسهم
يشعرون بأن أسرار الجمال لم يكشف عن كلها ، ولهذا قالوا : أن
علوم البلاغة لم تنضج ولم تحترق ، وقرروا أنه فى كثير من الأحيان
يجد القارئ لذة فى النص لا يستطيع أن يذكر سببا لهذا الاحساس مما
يدل على أن علماء البلاغة يدعون الى ادامة البحث وراء أسرار الجمال
لأنهم لم يقولوا الكلمة النهائية فى كل مسائل البلاغة .

وان كان معنى رسالة البلاغة أنها كانت أداة فى أيدي النقاد
يؤمنون بها النصوص الأدبية ، فقد أدت البلاغة رسالتها فى العصر
الأولى الى مدى بعيد ، وما تركه الأقدمون من كتب شاهد على
ذلك ، فانهم قد اتخذوا ما وصلوا اليه من قواعد وسيلة لقياس
النصوص الأدبية وبيان جمالها وروايتها ، وكان للمقاييس البلاغية
شأنها فى تلك الأزمان . . أما فى عصرنا الحاضر فلا ينكر الدكتور
بدوى أن المقاييس البلاغية قليلة الاستعمال فى أيدي النقاد .
قد يكون ذلك لأن كثيرا من الأدب فى عصرنا الحاضر يتجه الى
الافهام والاعتماد على التأثير من ناحية معناه أكثر من اعتمادة على
التأثير من ناحية لفظه وأسلوبه وعبارته .

ثم تسأل : هل الفنون التى شاعت فى وقتنا الحاضر كالقصة
والرواية تتنافى مع الأسلوب البلاغى الذى يراد به التأثير فى نفس
القارئ بعبارته ومعناه معا ؟ وأجاب : بأن الفنون لا تتنافى مطلقا
مع الأسلوب البلاغى ، ولكنها السرعة التى تحول دون التريث والانتاج
الفنى ذى الأسلوب البلاغى .

ولا ننسى ونحن فى هذا المقام أن السرعة التى تحدث عنها
د . بدوى هى احدى البلايا الثلاث التى ذكرها الأستاذ الزيات
فى كتابه " دفاع عن البلاغة " بل هى أولها وهذه البلايا الثلاث
هى : السرعة - الصحافة - التطفل . وهى أسباب التكرار للبلاغة
فى العصر الحديث .

واحبنا نحو البلاغة : يرى د . بدوى أن هناك أربعة واجبات نحو البلاغة هى :

- ١ - واجبنا نحو تدريس البلاغة .
- ٢ - واجبنا نحو التأليف فى البلاغة .
- ٣ - واجبنا نحو البلاغة نفسها .
- ٤ - واجبنا نحو تطبيق مسائل البلاغة فى النقد الأدبى .

(١) أما واجبنا نحو تدريس البلاغة ؛ فهو وصل البلاغة بالحياة وذلك يكون بالتدرج فى ثلاث خطوات :

أ - أن نطمس فى لغتنا الدارجة عبارات تصلح بمد جعلها مصرية أن تكون أمثلة لمسائل البلاغة ، فإذا عرغ على الطلبة هذه الأساليب كان من السهل عليهم أن يتذوقوا جمالها .
ومثل هذا رأى قتاله الدكتور حنفى شرف فى كتابه (التصوير البياني) فهو يقول : " أن فى كلامنا المادى ألوانا بارعة بضروب التصوير البياني وبغيرها من ألوان الخيال . فمثلا نحن نكنى عن شدة الزحام - ترش الملح ما ينزلش - يمكن تحويل الفعل الأخير الى فعل صحيح وتصير الكناية غاية فى الروعة والجمال .
وكقولك لمن لم يفعل ما ترجموه منه - قصرت رقبتنا - وفى الجملة معظم أمثالنا الشعبية تتحقق فيها تلك المزية " .^(١)

ب - أن ننقل من ذلك الى أدبنا الحديث شعره ونثره لنبتين فيه أمثلة للجمال البلاغى يستطيع الطالب أن يدرك أسرارها .
ج - ننقل بمد ذلك الى رائع الأمثلة المتخيرة من الأدب القديم . ولا شك أنه بهذه الخطوات ينتقل الطالب للبلاغة انتقالا طبيعيا ويحس أن مسائل البلاغة ليست بعيدة عن حياته ، وأنها قريبة منه فى الحياة ، وبين يديه فى أدبه الحديث وموصولة بترائه القديم .

(٢) وأما واجبنا نحو التأليف فى البلاغة ؛ فهو ألا نقف فى التأليف البلاغى عند ذكر التعاريف والأمثلة بل لابد من الوقوف عند القاعدة والمثال لنبين أسرار الجمال وصله ذلك بالانسانية . كما يجب فى التأليف البلاغى للناشئين أن يتبع خطوات تدريسها ويحق أن نترك الأمثلة التقليدية التى لا تصلح للمصر الحاضر من مثل حبان

الكلب وكثير الرماد ومهزول الفصيل ، كما يجب أن نبعد عن المنهج القديم فى التأليف البلاغى كمنهج التلخيص وشروحه ، وعن الالفاز وخط مسائل البلاغة بالفلسفة .

(٣) أما واجبنا نحو البلاغة نفسها : فهو ألا نقف فى دراسة المفرد والجملة عند الحدود التى رسمها الأقدمون بل نبحث عن ألوان جديدة للجمال فى المفرد والجملة ، وقد فتح البلاغيون باب الاحتياط فى البلاغة على مصراعيه ، وأن نمود الى بعض قواعد البلاغة لمعروفة مدى صحتها ووزن هذه القواعد بالمقاييس النفسية الانسانية وفى باب التشبيه مثلا مجال واسع للتهذيب . كما أن مسائل علم البديع يجب أن تتحرر ليحذف المتكلف من بين مسائله وما لا قيمة له فى تميل النص .

(٤) أما فى تطبيق مسائل البلاغة على النصوص الأدبية كمقياس من مقاييس النقد الأدبى فيجب أن يصرف هذا التطبيق فى ثوب عبرى مستفيد من دراسة الذوق والفن والجمال ، معتمد على الدراسة النفسية ، مؤثر للشرح والتوضيح .

هذا الجزء الأخير من الندوة هو - فى رأى - أهم ماورد فيها ، فالواحيات الأربع التى ذكرها الدكتور بدوى أشبه بمنهج صغير جديد للبلاغة ، وهذا المنهج وأن كان مجملا ويحتاج الى كثير من التفصيل الا أنه جدير بالبحث والنظر . ويمكن أن يضم الى منهج الشايب ومنهج الخولى وسنتحدث عنهما فى الباب الثالث - عند النظر فى وضع منهج جديد للبلاغة .

المسوغات العقلية للبلاغة

وهذا بحث آخر نشر في مجلة المجتمع الملى العربى بدمشق
وكتبه الأستاذ أنيس المقدسى عضو الجمع . وهو بحث قيم ، فيه
محاولة محمود لضبط أنواع البديع ومباحث البيان تحت ضوابط
عامة ومن ضوابطه مثلاً : " العقل يجذب عادة الى غير المعتقد " .
فيتخذ هذه الخاصة وسيلة الى معرفة سرد الحسن فى الالتفات ،
والقصر ، والتقديم ، والاستفهام . كما بين فى هذا البحث خصائص
البلاغة فى الوضوح وحلأ المعنى ، ونسب الايقاع وحسن التناسب
أجزاء الحملة وفى الاشارة الى المقدرة على اذكاء المواطن وتحريك
القوى التخيلية والفكرية ، ثم الايمان أو الإيحاء الى معان وراء المعانى
القريبة .

وأهم ما يعنيننا فى هذا البحث هو ما اقترحه من أبواب
جديدة تسبج تحتها الفصول البلاغية . وقد بوبها تبويبا منطقيا
وهو شئ لم يفعله القدماء - كما يقول - وهذه الأبواب هى :-

- ١ - باب التماثل .
- ٢ - باب التواطؤ اللفظى .
- ٣ - باب التواطؤ المعنوى .
- ٤ - باب المضايقة .
- ٥ - باب الخروج عن المعتقد .
- ٦ - باب الايمان الى غرض .

أولا : (باب التماثل) .

ويراد به تماثل الفقرات فى الجمل وزنا وتركيبا . وقد يسمى :

الازدواج وهو نوعان : عاطل ومقفى .

ويدخل تحت العاطل :

(١) التوازن : وهو أن يكون الكلام ذا فواصل متساوية الوزن .
كالآية الكريمة : " وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط
المستقيم "

(٢) المماثلة : وهي أن تكون جميع الألفاظ في الفقرات متساوية
الوزن . نحو سهل خلاثقه ، صعب عرائكه حم غرائبه ، في الحكم
والحكم .

أما المقفى فيدخل فيه ما يلي :

(١) السجع : وهو معروف ، ويقوم على تقيية الفواصل .
(٢) التسميط : وهو أن يكون الكلام أربعة أجزاء ثلاثة منها على
سجع والرابع مختلف . كهذا البيت .

هم القوم ، ان قالوا أصابوا ، وان دعوا

أحلبوا ، وان أعطوا أطابوا ، وأجزلوا

(٣) الترميع : أي مقابلة كل لفظة في العبارة بمثلها في الثانية
وزنا ورويا . نحو ، يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقصر
الأسماع بزواجر وعظله .

(٤) التزاح : أي ازدواج الفواصل المسجمة . نحو :
فاني مؤصل غمام غير جهام ، وممحل حسام غير كهام .

ثانيا : (باب التواطؤ اللفظي)

وهو أن تكون الألفاظ على حرس واحد ، أو من أحرف متشابهة ،
سواء اختلفت في المعنى أم لم تختلف . وتقوم بلاغتها على تنبيه الذهن
الى المعنى بممارسة اللفظين المتجانسين وعلى ما فيهما من حلاوة
موسيقية ناشئة عن تجانس الحروف وتألفها . ويدخل في هذا الباب :

(١) الجنس : وهو أنواع كثيرة منها : التام والمركب والمطلق والمزيل والمصحف والمقلوب والمحرف واللاحق والمطرف والمتعم وغيرها . هذا ونرى أن المقدسى أكثر من أنواع الجنس مع أن المحدثين قصرُوا أنواع الجنس على نوعين فقط : تام وناقص واكتفوا بهما .

(٢) التورية : نحو قول الشاعر :
قالت وهبت لك السواك فقلت لا ولما كمالى حاجة بسواك

(٣) التصوير : أورد المجرى على الصدر . نحو :
فأجبتها إن المنية منهل لا بد أن أسقى بكأس المنهل

(٤) العكس : نحو :
فلولا دموعى كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لى دموع
(٥) الجمع مع التفريق : أى الجمع بين شيئين فى حكم واحد ثم التفريق بينهما فى ذلك الحكم . نحو :

تشابه دمعنا غداة فراقنا مشابهة فى قصة دون قصة
فوجنتها تكسو المدامع حمرة ودمعى يكسو حمرة اللون وجنتى

(٦) المجاورة : تردد لفظين ووقع كل منهما بجانب الآخر أو بقرينه . نحو : انما يغفر العظيم العظيم .

(٧) الطى والنشر : كقوله
.... فلذا تروى وتردى ذا صدى .. وحديثا عن فتاة الحى حى ويحوز أن يلحق بهذا الباب لزوم مالا يلزم وما الى ذلك من أنواع التحانس اللفظى . ونلاحظ أنه ذكر التورية والجمع مع التفريق والطفى والنشر فى باب التواطؤ اللفظى مع أنهم من المحسنات المعنوية ، كما أن هذا البيت الذى ذكره ليس واضحا فيه وجه الطى والنشر .

ثالثا : (باب التواطؤ الممنوى)

ويتناول ما كان فيه مشابهة بين شيئين . ومن ذلك :

(١) التشبيه والتشيل والاستمارة . وهى معروفة لا تحتاج الى شرح بل عليها يقوم علم البيان .

(٢) مراعاة النظر . كقوله تعالى : " والشمس والقمر بحسبان "

(٣) تجاهل العارف . كقول الشاعر :

سلاطينة الوادى وما الطبي مثلها وان كان مصقول الترائب أكحلا
أأنت أمرت الصبح أن يمدع الدجى وعلمت فصن البان أن يتحولا

رابعا : (باب المغايرة)

وهى عكس المشابهة ، ويراد بها الجمع بين المتضادات وأشباهها ويدخل فيه :

(١) المقابلة : بين ما يوافق وما يخالف . كقولهم :

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا . . وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

(٢) المطابقة . أى الجمع بين لفظين متضادين . كقول البحرى :

ان أيامه من البيض بيض مارأين المفارق السود سودا

(٣) الطرد والعكس : كقوله

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

(٤) التهكم . وهو ما كان ظاهره حدا وباطنه هزلا .

(٥) الاستفهام البيانى . نحو : أمصلحة الفرد أفضل من مصلحة

الجمهور ؟

(٦) التغاير : أى مدح ما هو مذموم ، وذم ما هو مدوح ، لغرض

كقول ابن الفارض :

يهوى لذكر اسمه من لى فى عدلى سمى وان كان عدلى فيه لم يلج

وهذا البيت أيضا غير واضح المراد .

(٧) السلب والایجاب : وهو أن تبني الكلام على نفی شیء وثباته من جهة أخرى . كقولهم :

لا تمحب من المخطئ كيف أخطأ . بل اعجب من المصيب كيف أصاب .

خامسا (باب الخروج عن المعتاد) وهو يشمل ما يلي :-

(١) المجاز المرسل : أي تجسيم المحردات أو تفعيل ما لا يفعل مثل :

صررت على المروءة وهي تبكي فبكاء المروءة أمر غير عادي .

ونحب أن نقول هنا : ان هذا المثال عن المروءة الذي أورده المقدس ليس من قبيل المجاز المرسل وانما هو استعارة مكنية أو مجاز عقلي .

(٢) التجريد : أن يخاطب الانسان نفسه كأنها شيء مستقل عنه

كقول المتنبي : كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا .

(٣) الالتفات : أو الانتقال المفاجئ من صورة الى صورة ، أو من

ضمير الى ضمير . نحو : قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد . وهو كثير في القرآن .

(٤) تقديم ماحقه التأخير وبالعكس . نحو : وربك فكبر ، عظيمة هي أعمالك يارب .

(٥) الفلو والمبالغة ، نحو :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

ويدخل في هذا الباب كثير من غرائب انعمة البدعية كقصيدة الحريري التي مطلعها :

يا خاطب الدنيا الدنيئة انها شرك اسردي وقرارة الأقدار

دار متى ما أضحكك في يومها أبكت عدا تبالها من دار

فهى من بحر الكامل ولكنك تستطيع أن تسقط منها الجزئين
الأخيرين من كل بيت فيصبح من مجزوء الكامل وتتحول قافيتها
الى حرف الدال . فتقول :

يا خاطب الدنيا الدنية انها شرك الردى
دار متى ما أضحككت فى يومها أبكت غدا

سادسا (باب الایاء الى غرض) وما يدخل فيه :
(١) الكناية والتعريف . وهى معروفة لا تحتاج الى تبيان .
(٢) التوجيه : وهو أن يكون للكلام معنيان مختلفان يجوز اعتبار
أحدهما . كقول المتنبي :

ومالك تمنى بالأسنة والقنا وحده طعان بغير سنان
فقد يحمل على أن حسن طالعك يفعل ما لا تفعله الأسنة وهو مدح ،
أو أنك رجل محفوظ لست من أهل السجاعة والاقدام وهو ذم .
(٣) الاكتفاء : وهو أن يكون الكلام متلقا بمحذوف مفهوم . كقول
الشاعر :

لا يعلم الشوق الا ولا الصباية الا
أى الا من يكابد ذلك .

(٤) الاتفاق : كقول ابن الساعاتى يصف اقتحام صلاح الدين -
واسمه يوسف - لبيت يعقوب - فى القدس - :
دعوا بيت يعقوب فقد جاء يوسف . وهو يعنى دعوا الحصن
فقد جاء فاتحه . وقد وافق ذلك كون الجي يوسف هو ابن يعقوب
فهو أولى ببيته من سواه .

(٥) الاشارات اللغوية والملمية . وهو باب واسع .

(٦) الادماج : وهو أن يدمج الشاعر أو الكاتب غرضاً له ضمن معنى آخر ليؤهم السامع أنه لم يقصده وإنما عرّض في كلامه تنصتة للمعنى الرئيسى . كقول الشاعر :

أبى دهرنا اسما فنا فى نفوسنا وأسمعنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له نعماك فيهم أتمها ودع أمرنا ان المهم المقدم
فهو أدمج شكواه فى تهنية المدح وتلطف فى الطلب مع صيانة
النفس والمدح هو المعنى الرئيسى والطلب هو المعنى الفرعى المدمج فيه .

(٧) التزييل : كقول النابغة :
ولست بمستبق أختا لا تلمه على شعث ، أى الرجال المهذب؟
فالمعنى مستوفى قبل العبارة الاستفهامية ولكن الشاعر ذيله بالاستفهام ليزيد المقصد إيضاحاً .

(٨) التتميم : كآية : " ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً " فقوله على حبه تتميم للمعنى يزيد قوة وتوكيداً^(١) وفى الواقع ان هذا التوبيخ المقدسى مجهود طيب يشكر عليه مخطأه . ويمكن أن يعتبر منهما جديداً للبلاغة أو يستفاد به مع المناهج الأخرى التى أوردناها فى هذا الباب من بحثنا .
على أنه مما يلفت النظر أن هذا التوبيخ أهمل بعض المسائل البلاغية الهامة فلم يوردها فى تقسيماته مثل : مبحث الفصل والوصل ومبحث القمر ومبحث الإيجاز والإطناب والمساواة . كما أهمل بحثاً هاماً من البحوث المستحدثة وهو بحث : الأسلوب .

هذا وقد على الدكتور الممارى على هذا البحث ونقده فى مجلة الأزهر تحت عنوان " وفى البلاغة أيضاً . . . " .

وفى المقدمة أثنى العمارى على البحث ومؤلفه واستعرض ماورد فيه
استعراضا سريعا مجملا . ثم قال :

" ان واجب البحث العلمى يقتضينا أن ننبه هنا الى أمور :

١ - كنت أفضل أن يكون عنوان البحث (المسوغات النفسية)
فهذه الأمور التى ذكرها ليست مما يكون حكم العقل واضحا فيها ،
وانما هى الصق بمواطف النفس وانفعالاتها .

٢ - تحدث فى فاتحة البحث عن إغراض أهل زماننا عن المحسنات
البيانية وحسبانهم اياها من الطرق الرجعية ، وذكر أن البلاغة
تحولت الى منهج الصناعة المتكلفة منذ القرن الرابع ، فأصبح
البديع غاية مشودة لذاتها ، وأن التشدد فى هذا أتى بفعل
انعكاسى هدفه هدم الزخارف البدعية ، وملاحظتنا هنا أنه
لم يفرق بين المحسنات البدعية والمباحث البيانية ، فالأولى -
حقيقية - هى التى أنقلت البيان المربى ، وهى التى برم بها
الشعراء والكتاب فى عصرنا ، بل فى عصر الدولة العباسية نفسها ،
وليس ماوجه من النقد لأبى تمام بالأمر المجهول . أما المباحث
البيانية من مجاز واستعارة وكناية ، فلا تزال تحتل من أدبنا بل
ومن كل الآداب أسمى مكان ، وانا لنرى كتاب الصحف يعتمدون كثيرا
الى استعارات ومحازات تحتاج الى تأمل طويل .

٣ - ذكر تعريفات تبعد كثيرا عما نعرفه فى اصطلاح البلاغيين ،
بل ان بعضها لاوجه له فيما أعتقد ، فهو يذكر المجاز المرسل ويمثل
له بقول الشاعر " مررت على المروءة وهى تبكى " ، وهذا مجاز عقلى
وما أظن أحدا جعله مجازا مرسلا . ولا يقال هنا انه أخطأ فى
التمثيل فقط ، فانه لم يذكر غير هذا المثال ، فكأنه يصرف بالثال .

ويمصرف التجريد بأنه (أن يخاطب الانسان نفسه كأنها شئ ، مستقل عنه) وهذا فقط نوع واحد من أنواع كثيرة للتجريد ، وقد عرفه القدماء بقولهم : " وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمرا آخر مثله فيها ، مبالغة لكمالها فيه ، وهو أقسام منها نحو قولهم : لى من فلان صديق حميم ، أى بلغ من الصداقة حدا صح معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها . . . الخ . "

وفى تعريف الالتفات رأيان : رأى للسكاكى ورأى للجمهور ، ولا ينطبق تعريفه هذا على واحد من الرأيين . والالتفات عند الأقدمين هو : " التعبير عن معنى بطريق من لطرق الثلاثة - التكلم والخطاب والفية - بمد التعبير عن طريق آخر منها ، بشرط أن يكون التعبير الثانى على خلاف مقتضى الظاهر . ولا يشترط السكاكى أن يكون قد عبر عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة ، أو يكون مقتضى الظاهر التعبير عنه بطريق منها فعدل الى الآخر ، بل يكتفى بأن يصبر عن المعنى ابتداءً بطريق وكان من حقه أن يصبر عنه بآخر . ولا ينطبق واحد من التعريفين على الآية ، ومجازها :
وقل أقيموا

٤ - ويقول الصمارى : لم يظهر لى دخول بعض الانواع فى ضوابطه ، فمثلا أدخل التورية تحت ضابط (التواطؤ اللفظى) ومثل بهذا البيت :
قالت وهبت لك السواك فقلت لا سواك ، مالى حاجة بسواك

والذى سوغ دخول هذا المثال مافيه من الحساس ، ولكن ليس بلازم فى التورية أن يكون فيها حناس . وهذه بعض أمثلتها : (الرحمن على العرش استوى)
(والسما بنيناها بأيدى وانا لموسمون) ، وقول صلاح الدين الصفدى :

ياقلب عبدا على الفراق ولو	روعت من تحب بالبين
وأنت ياد مع ان أبحت بما	تخفيه وجدا سقطت من عيني

وكثير من أمثلة التورية بل أكثرها لا جناس فيه . كما أدخل فى باب التواطؤ

اللفظي (الطي والنشر) و (الجمع والتفريق) ، ولا أراهما داخليين
في هذا الباب .

وأعود فأكرر أننا في سبيل الحاجة الى كثير من هذه
الأبحاث .^(١)

البلاغة العربية

وحاجتها الى التجديد

وهذا بحث آخر بين لنا فيه الدكتور المصاوي بعض مساوئ البلاغة في كتبها القديمة ، ودعا الى تجديدها ، وقدم بعض الاقتراحات من أجل النهوض بالبلاغة وتدريسها . يقول :

" في العالم العربي اليوم يقظة فكرية تهدف الى التجديد في شتى العلوم ، وربما صح بعض قادة النهضة العلمية فحاول أن يهدم قديما ، ويستغني بجديد الناس ، كما أن بعض العقول لا تزال تميش في ألفاف الماضي السحيق ، ولا غناء في اصلاح عالم يقيم على احترام النافع المفيد من القديم ، والأخذ بالنافع المفيد من الجديد . وهذا بحث لعله يبين على التهدي الى سواء المحجة ، حين ينظر الناظر في تجديد البلاغة العربية واصلاح مناهجها .

وان علوم البلاغة لفي شديد الحاجة الى من يجد أخلافا ، ويخلص دأها ، ولكنها لا تفر الا بالدعاوى المريضة الكاذبة . فبعض العلماء قنع بأن يجمع الأشبات ويضيف ببعض النضاج ثم يدعي أنه في البلاغة ألف ، وبعضهم يعمد الى الورق الثقيل والطبع الأنيق ليقال انه في البلاغة حدد ، ولعل شر الثلاثة هؤلاء الذين يهدمون ولا يبنون ، ولو أنهم عدوا متبصرين لكان فيهم أمل ، ولكنهم يضرسون مصاولهم وهم مغمضو الجفون فعملينا اذا أردنا توطيد أركان اصلاح العلم وارساء قواعد العلوم على أسس ترضي الذهنية الجديدة ، أن نكشف موضع الداء الحقيقي ، ثم نعمل جراحه على علاجه ، وبذلك نأخذ الطريق على من يريد الشر بهذه اللغة وعلومها .

وفى رأى أن أول مانبأ به هو اصلاح المنهج ، واختيار الكاتب
الدارس ، فليس يكفى فى التحديد أن نهدم قاعدة ونعيد بناءها
على نحو جديد ، وانما العمل أولا فى خلق جيل جديد يدرس
البلاغة على طريقة متحة صالحة ، وحينئذ يخرج العالم الذى
يستطيع التحديد على هدى وبصيرة .

ولم يمد خافيا على أحد أن الدراسة فى المعاهد المصرية
على اختلاف ألوانها - فى البلاغة - ليست بذات غناء ، فاما دراسة
قاعدة بلا تطبيق ، واما دراسة تطبيق بلا قاعدة ، ولا بد للدراسة
الصحيحة من الجمع بين القاعدة على مداها الواسع ، والتطبيق
على أفقه الفسيح . كما لم يمد من الخفى أن الدراسة تدور كلها
حول محور واحد لا تتعداه ، فمنذ لخص الخطيب القزوينى الجزء
الثالث من كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكى فى متنه (التلخيص)
والدارسون يطوفون حوله تعليما وتأليفا ، فهم يضعون له الشروح ،
ويؤلفون الحواشى على هذه الشروح ، ويكتبون التقارير على هذه
الحواشى ، وبعضهم لخص التلخيص فى متن سماه (أقصى الأمانى) ،
وقد أعقب عصر الخطيب عصور انحطاط أدبى ، وسيطرت الذهنية
العلمية ، فكانت المؤلفات أشبه بالقوانين القضائية ، والنظريات
الهندسية ، وكان الجدل اللفظى على أشده فى هذه المؤلفات ،
وهو جدل جاف أشبه بشرح القوانين .

وانا نظرنا الى منهج الدراسة فى الأزهر مثلا ، وجدنا دراسة
البلاغة تدور حول هذا المتن أيضا ، وفى المرحلة الأولى من الاقسام
الثانوية يدرس كتاب " زهر الربيع " أو " المنهاج الواضح " وهما
على طريقة التلخيص شواهد وقواعد ، وان كان المؤلف الثانى أوضح
عبارة ، وأغنى نماذج . وفى المرحلة الثانية يدرس " مختصر السعد "
وهو شرح على هذا المتن .

وفى كلية اللغة العربية يدرس " الايضاح " وهو كالشرح لهذا المتن وفى المرحلة الأخيرة يدرس جزء من " أسرار البلاغة " وفصل من " دلائل الإعجاز " ولكنها دراسة لا تتعدى الدائرة القزوينية فهم المدرس والطلاب أن يرجعوا هذه الفصول الأدبية الرائعة الى قواعد مضبوطة حتى يحوزوا بها الامتحان . . . وليس الحال فى غير الأزهر بأفضل منها فى الأزهر ، فهناك يعطى الطالب قشورا لا تربي ذوقا ، ولا تعلم علما ، وانما هو التقصير والقصور .

أما الشواهد فى كتبنا فأمرها عجب من العجب ، فهى لم تتغير منذ عهد السكاكى والخطيب ، وأكثرها من الدرجة السادسة فى الجودة ، وكثير منها ساقط ردى ، وهم العلماء منها اثبات القاعدة ، وربما وقفوا عند بيت يتيم ، وهو محتاج الى أليف . فقد استشهدوا بهذا البيت :

كما أبرقت قوما عداشا غمامة فلما رأوها أقشمت وتحملت
فها هنا المشبه به ، وإذا سألت : أين المشبه ؟ أجابك أكثر الشراح بأن بيت لاثنى له . أما شرحهم حين يشرحون ، فقد يتمدى دائرة الحس الأدبى الى تحقيقات لفظية تذهب بحال المعنى ومائه . كتب سعد الدين شرحا لهذا البيت :

حمامة حرعى حومة الجندل اسحقى فأنت بمرأى من سعاد وسمع
قال : " فأنت بمرأى من سعاد ، أى بحيث تراك سعاد وتسمع صوتك ، يقال فلان بمرأى منى وسمع ، أى بحيث أراه واسمع صوته . كذا فى الصحاح ، فظاهر فساد ما قيل ان معناه أنت بموضع ترين منه سعاد وتسمعين كلامها ، وفساد ذلك مما يشهد به العقل والنقل . "

وقال البناني تعليقا على هذا " أما النقل فما نقل عن الصحاح
 وأما العقل فلأن المناسب أن يكون داعى الأمر بالتصويت سماع غير
 الصوت له ، لاسماع الصوت لصوت الغير ، ويخالفه أنه انما يكون
 ذلك اذا كان الفرض من التصويت اسماع الصوت ، وأما اذا كان
 الفرض اظهار النشاط كالبلابل تترنم بشهادة الأنوار والأزهار فلا ،
 وربما يؤيده أنه لم يقتصر فى داعى الأمر بالتصويت على السماع بل
 ضم اليه الرؤية بل قدمها . وغاية ما يمكن أن يقال : معنى شهادة
 العقل بفساده أنه يحكم بفساد توجيه يخالف النقل وعنه ضد وحدة .
 وقوله اظهار النشاط لتلك الحماسة كما يدل عليه عبارة ابن يعقوب
 ونصها : أما اذا كان المقام مقام اظهار أن الأمور فى موضع النشاط
 والطرب برؤية المحبوب وسماع كلامه ، كان المناسبات : اسجعى أى
 اهتزى وأطربى من شهود سعاد وسماع كلامها له .

وقوله : وربما يؤيده الخ ، أى لأنه لو كان الفرض سماع صوت لم
 يكن لذكر الرؤية وجه ، قال شيخنا الطوى فى شرح ألفيته :
 قد يقال الفرض الأمر بفعل ما يرضى المحبوب أو يستعلقه ، ووقع
 ذلك الفصل مع رؤيته وسماعه أتم وأقوى من وقوعه بدونها . أهـ .
 أى فالجمع بين رؤية الحماسة وسماع صوتها أتم وأقوى فى طرب المحبوبة
 وابتنائها ورضاها . تأمل .

ووجه السيرافى الفساد عقلا بأن المحب اذا رأى المحبوب انفصل
 واندهش فيفسد عليه طريق الكلام ، والفساد نقلا بأن من لا بتداء ،
 الغاية ، فابتداء الرؤية من سعاد فهى الرائية لا المرئية . أهـ .
 وفيه أن من الابتدائية تدخل على المرئ أيضا ، نحو رأيت القوم
 من أولهم الى آخرهم . ووجه عبد الحكيم شهادة العقل بأنه
 لو كان كما زعم هذا القائل لكان المعنى اسجعى أيتها الحماسة
 فانك بمكان تسمعين فيه صوت سعاد مع أنه لا يحسن فى نظر العقل

طالب التصويت عند سماع صوت المحبوب ، بل اللائق طالب الاصفاء
عند سماع صوته ، فكان الواجب على هذا الزعم أن يقول : اسكتي
وانصتي وأصغى . أه . وما مر عن ابن يعقوب والسيرافى يفيد أن
سماع محبوبه للحمامة كما أنها محبوبة لغيرها ولا مانع منه . وكتب
أيضا قوله : والنقل مستغن عنه لأنه قد تبين فساد الخ ، فكان الأولى
النقل بكلام الصحاح والتفريع عليه يظهر فساد الخ ، فكان الأولى
أن يقول : والعقل يشهد أيضا بفساده .

ويمبر العمارى عن سخطه على هذا الكلام والشرح الذى أوردته
السعد فيقول : " أشهد لقد مللت من كتابة هذا الشرح دون أن
أعمل فكرا فى فهمه ، وهو بعد شرح لانسيم فيه ولا روح ، ومادام
الهدف من الشاهد هو تحقيق القاعدة ومادام الشرح على هذه
الطريقة المظلمة فلا يرجى من وراء ذلك خير . وليس أدل على
اخفاق دراسة البلاغة من أن المتعلمين - والمعلمين أحيانا -
لا يستطيعون فهم الأسرار البلاغية فى الكلام ، وهمهم أن يقولوا :
ان فى هذه الفقرة تشبيها ، وفى تلك استمارة ، وقد حزن السند
اليه هنا للظلم به أو للخوف منه أو عليه .

ولما كانت هذه الأمور هينة سهلة فقد انصرف هم الطالب الى فهم
عبارة الكتاب ، فيغرق فى خضم واسع من المناقشات اللفظية ، وبذلك
أصبحنا - مثلا - ندرس كتاب السعد فى البلاغة ، ولا ندرس البلاغة
فى كتاب السعد ، ومن عجب أن واضح المنهج هدف الى هذا . . .
كما أنه ليس أدل على اخفاق هذه الدراسة من أن الأزهر أنشأ شعبه
مدتها ست سنوات لدراسة البلاغة وآداب اللغة ، وكان الهدف أن
تخرج للناس جرحانيا آخر ، وسكاكيا ثانيا ، ومن نظامها ألا يخرج
الطالب حتى يقدم رسالة فى أحد هذين العلمين ، فرأينا جمهورهم
يطرقون أوسع البابين فيقدمون رسائلهم فى تراجم الشعراء وما إليها

ولم نر لواحد منهم - على كثرتهم - أى جهد فى خدمة البلاغة العربية ، وماذا إلا لأن دراسة البلاغة لم تنضج بعد .

كيف نسمو بدراسة البلاغة :

يتحدث الممارى عن ذلك فيقول : " والسبيل للسمو بهندسة الدراسة أن نترسم خطى الأسلاف ، ولا نقتصر على نهج واحد هو نهج السكاكى ومن جاءوا بعده ، ولهذا أحب أن ألمح إلى طرائق المتقدمين فى دراستها .

ويمكن أن نعتبر السكاكى فاصلاً بين عهدين ، فقد كان العلماء فى العهد الأول يتناولون البلاغة على أنها فن ، يبحثون فى الأساليب العربية ويضعونها تحت مظرة النقد ، ثم يصلون إلى الهدف من الجودة أو الرداءة ، ولم يكن هدفهم استخراج قاعدة أو استنباط ضابط ، يتضح ذلك فيما كتبه المحاظ والمسكرى والامام عبد القاهر والزمخشري ، وما كتبه النقاد القدامى كعبد العزيز الحرجاني والآمدى وغيرهما . ولا نعدم فى هذا العهد ميلا إلى التعميد والتعقيد معا ، فقد كان علماء الكلام بصفة عامة ، والمعتزلة منهم بصفة خاصة ، يتناولون المسائل البلاغية محددتين ضابطين ، ومن هنا نشأت المدرسة الكلامية بجانب المدرسة الأدبية ، وإن كان أثر الثانية فى هذا العصر أقوى وأظهر ، فلما جاء السكاكى ، وكان صاحب فلسفة ومنطق حاول إخضاع البلاغة للقواعد ، كما خضع النحو ، وكما خضع الصرف وغيرهما من العلوم المقعدة ، فأشاع فيها الأبحاث الفلسفية ، وأخرى فى أومالها الروح المنطقية ، وصيها فى قوالب

وجاء المتأخرون فتأثروا بالسكاكى أيضا تأثر ، ووجدوا عنده أرضاً لذهنياتهم فنهجوا نهجه ، ونسجوا على منواله ، وذهبوا يدافعون عن آرائه ، ويلتمسون الصواب لأخطائه .

فإذا أردنا النهوض بالبلاغة فلا مندوحة من أن نأخذ بهاتين الطريقتين على أن نهذب الطريقة الثانية ، فنحذف من كتبها الأبحاث المنطقية والأبحاث الفلسفية وما إليها ، نستغنى عن بحث الدلالات ، وعن الجامع العقلي والوهمي والخيالي ، وعن الأمثلة في بحث التعاريف ومحتزمات القيود ، ولا نعمل لمباحث الأصوليين هنا موضعاً ، ثم يجب أن نستغنى عن الخلافات اللفظية ، كالخلاف في الاستمارة هل هي محاز عقلي أو لنوى ، وكالاختلاف في المحاز العقلي بين السكاكي والجمهور ، فإنه لا معنى لأن يبذل الطالب وقتاً وجهداً في خصومة عنيفة يطالغ فيها حجج الفريقين ، ويتمسب نفسه في تفهم جدل الخصمين ، ثم يقال له أخيراً : (ان الخلاف لفظي) ، أو يجد النتيجة لا تكافئ الجهد . ثم ندرس - على هذا النوع - في المرحلة الأولى من القسم الثانوي كتاباً على طريقة التلخيص مع مراعاة اختيار شواهد جديدة جيدة ، ومع المحافظة على صورة القاعدة ومنهجها ، وفي المرحلة المتوسطة ندرس كتاباً فيه جميع القواعد مبسطة مختصرة ، ويجب أن يكون ثلثاه نماذج عربية فصيدة ويكون هم المدرس شرح هذه الشواهد شرحاً نقدياً ، وربطها بقواعدها ، وهذا الدرس يعتبر إعادة لمدرس في السنتين السابقتين ولا يعوقنا أن مثل هذا الكتاب لم يوضع بعد ، فما آهون وضعه إذا خلصت النيات .

أما في المرحلة الأخيرة من هذا القسم فيدرس " الايضاح " ولكن بعد حذف ما أوجبه حذفه سابقاً ، وبعد شرح شواهد شرحاً نقدياً أدبياً ، والى هنا ^{نقف} عند الطريقة الكلامية ، ونبتدئ الطريقة الأدبية في كلية اللغة العربية فندرس كتاب الطراز ، وكتابي عبد القاهر ، وليس هذا بالأمر الصعب بعد ما أعددنا الطالب في الثانوي لهذه الدراسة .

ويجب أن ندرس مادة النقد الأدبي بجانب هذا على أنها مادة مستقلة ، فندرس الوساطة والموازنة ونتمرف على جهود الممارسين في النقد "

" ولا يفوتني أن أنبه على ضرورة العناية بدراسة نشأة علوم البلاغة فانه من المفضل أن يكون مبلغ علم العالم في عبد القاهر أنه ألف في البلاغة وفي السكاكي أنه عالم له اسم رهيب مخيف .

ويمد فهذا رأى أطرحه أمام من تعنيهم نهضة البلاغة العربية وأدعوهم أن يتفكروا النظر فيه ، فانه سيجىء اليوم الذى يقول فيه التاريخ : لقد قال قصير " لو كان يطاع لقصير أمر " .
والله الهادى الى سواء السبيل " . (١)

ولا شك أن هذا التخطيط الدراسى الذى طرحه د . العمارى لمنهج التدريس فى المرحلة الثانوية بالأزهر وفى كلية اللغة العربية تخطيط له قيمته ، ولا شك أنه أفضل بكثير من المنهج القديم فيما لو تم وضع كتبه على الأساس الذى أشار اليه التخطيط .
ولكننا نعتقد أن هذا البحث وقد وضع فى أواخر الثلاثينات لم يمد مالحا فى الثمانينات ، كما أعتقد لو أن د . العمارى كتب هذا البحث مرة أخرى هذه الأيام لأتى بتخطيط جديد آخر أحكم وأروع .

(١) من كتاب : قضايا بلاغية - د . العمارى - ص ١٨ - ٢٣ .

مفاهيم بلاغية

وتحت هذا العنوان ألقى الدكتور عبد الرزاق محيي الدين عضو مجمع اللغة العربية هذا البحث ^(١) حول بعض المفاهيم البلاغية وعدم فهمها واستغلالها على الدارسين وعجز الأساتذة عن إيصالها إلى عقولهم واقتناعهم بها ، وكذلك الأمر بالنسبة للكتاب والشعراء والمحدثين .

وفى مقدمة هذا البحث ألقى الدكتور عبد الرزاق باللوم على المشتغلين بالدراسات الأدبية والنقدية لأنهم لم يعطوا البلاغة حقها من الدراسة والبحث بعكس المعلوم العربية الأخرى . " فقد أدت معاودة النظر في تاريخ الأدب العربي ومناهج دراسته من قبل الدارسين المحدثين إلى تطوير وتحديد جملة من علماء موسما يختلف اختلافا كبيرا عما تسلمه الجيل المظلم من الأديال التي سبقته . كذلك علم اللغة - أي علم المعجمات - تناوله المحدثون بمراجعة ومعاودة نثر أدت فيما أدت إلى تطوير بالغ في وضع المعجمات وأسلوب تأليفها ، وما ينبغي أن تتوفر عليه من شبط لمصادر الكلمة المفردة وتاريخ وضعها والتطورات التي رافقت استعمالها ونظير ذلك أيضا ما وقع لعلم النحو فقد تمت في هذا العصر مراجعات لكتب أصوله ، ومناقشة الأحكام الواردة فيها ، ومحاولات في التبسيط والتيسير والجمع والحذف ، والحق باب بيباب ، وفصل مجموعة عن مجموعة ، الأمر الذي يكشف عن عناية بالغة بقضاياها واهتمام بشأنها .

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٢ ص ١١٩ - ١٢٧ . وقد ألقى هذا البحث في الجلسة السادسة للمجمع صباح السبت ١٩٦٩/٢/١م

أما علم البلاغة فقد استثنى من ذلك وظل على حاله لم يحدث فيه تغيير أو تطوير أو مساودة نظر بحيث يصح أن يعد ذلك تافها أو اهمالا أو ظاهرة عجز في جانب المعنيين بعلوم العربية . وكان نتيجة ذلك أن انصرفت الهيئات المعنية عن اعطائه حقه من الرعاية ومن العناية حتى ضاق الطلاب بدراسه ، وعجز الأساتذة عن تدريسه ، وابتهم أمره لدى الكتاب والسمراء المحدثين .

وليس ما قاله الدكتور عبد الرازق عن البلاغة وعدم العناية بها بصحيح ، فنحن اذا وافقناه على ضعف الطلاب بها وعجز الاساتذة عن تدريسها وابتهم أمرها لدى الكتاب والسمراء المحدثين فانا لانوافقه على عدم العناية بها في السنوات الأخيرة قبل القاء هذه المحاضرة في ١٩٦٩/٢/١ م . فنزد المشرقات - وما بعدها - من هذا القرن العشرين ، ارتفعت الأصوات بوجوب تجديد البلاغة ، وتوالت البحوث والمحاضرات ، وصدرت كتب ، ووضعت مناهج ، وأبدى كثير من المختصين آراءهم مما بيناه وسنبينه في هذا البحث .

ولكن المسألة أن ذلك لم يثر الجهات المسئولة عن الأدب والثقافة ، اللهم الا لجنة المعارف المصرية التي سنورد تقريرها ومنهجها بعد قليل في هذا الباب .

وطك هي القضية : كيف نضع هذه المناهج التجديدية موضع التطبيق بعد غرلتها والتنسيق بين الأهل منها

وأرى أن هذا واجب الجامعات المصرية والمعاهد اللغوية محتمة أولا ، وواجب وزارات التعليم والثقافة في البلاد العربية محتمة أيضا ثانيا .

ونعود الى بحث الدكتور عبد الرزاق حيث أخذ يتحدث عن
الوضوح والفهم في الفصاحة والبلاغة فذكر أنهما كانتا قد يما
تستعملان بمعنى واحد . فالفصاحة كانت تستعمل بمعنى البلاغة ،
والبلاغة كانت تستعمل بمعنى الفصاحة ، والبيان يعنى أحدهما
والاثنين معا أحيانا ، وربما قام مقامها الايضاح والبراعة والبديع ،
واستمر هذا التداخل في مفهوم المصطلحين عهدا لا يقل عن
سائتي عام . منذ أن تلمست أصول هذا العلم الى أن استقرت
على يد البلاغيين في القرن الخامس الهجري فما يليه .

وأخيرا انتهى الأمر في كلمة الفصاحة فأصبحت صفة للفظ المفرد
ولالألفاظ المؤلفة وهي تعنى فيهما الوضوح والتأهور والابانة ،
ولتحقيق الوضوح اشترط خلوص المفردة من تنافر الحروف ومخالفة
القياس الصرفي ومن الغرابة ، واشترط خلوص الكلام من ذلك ومن
مخالفة القواعد النحوية المستقرة ومن التعميد اللفظي والمعنوي .
وكانت ما انتهت اليه كلمة البلاغة بلوغ القصد من التعبير والانتها
الى الغاية مع شرط التوفر على فصاحة مفرداته وتراكيبه .

واشترط الوضوح - كما يرى الدكتور عبد الرزاق - شرطا معتصلا
مفترض لا واقع له عند التطبيق على الروائع الأدبية ، وليس منزعجا
من واقع ما عليه الفن البياني .

* وذلك لأن أسمى آثارنا الأدبية من مملكات الجاهليين الى خطاب
الخلفاء الراشدين فرسانهم فخطاب الولاء وكتبهم الى شعراء
الاسلاميين جرير والحطيئة الى أعلام الشعر في العصر العباسي
كالبحتري وأبي تمام والمقتبي وأبي العلاء الى رسالة الغفران فمقائسات
أبي حيان فمقامات الحريري والبديع الى أسلوب الرافعي فالمقداد
أحيانا ، كل أولئك ما كانت آثارهم بالوضوح الذي سموه البلاغيون
للكلام الفصيح .

إن كثيرا منها لا يفهم الا بعد الشرح ويمد التنقيح اللفوى بل أن قسما منها يصعب أن تعبر صفحة أو سطرا منه دون التنقيح - وهل التنقيح الا البحث فى كتب اللغة - فهل ننفى عن هذه الكتب صفة الأرب العالي لأنها لم تتوفر على صفة الوضوح فى حين أردناها ومما لهذا الأرب المتميز .

ولا نقصد أن يكون الغموض شرطا فى البيان الذى يبلغ درجة التميز والتفوق ، ولكن البيان المتميز فى أفضل الأحوال لن يكون فهمه فى متناول الناس كافة ، بل انه لن يكون حتى للممارسين له بهذه الدرجة من المواتاة . فلا بد من اشتراط الوضوح فى حدود معاناة أدبية وليس باليسر المتناهى الذى تغنى فيه عن البحث فى معنى المفردة وعن الخامسة البيانية التى وراء " هذا التعبير " . وقد رد الدكتور عباس حسن على ذلك بما يفيد أن البلاغيين لم يحددوا الوضوح بالكلام الجاهلى أو الاسلامى فى عصوره المختلفة ، وإنما ضبطوا هذا الوضوح بمراعاة المقام ، بمعنى أن الواضح فى العصر الجاهلى قد يختلف عن الواضح فى العصر الاسلامى ، وقد يختلف عما بعده من العصور . فهذا هو ما يسمى الوضوح ، ووضعوا له فى كل باب من أبواب البلاغة ما يسمى بمراعاة المقام ، فالمقام فى عصرنا يختلف تمام الاختلاف عما سبقنا من القرون .^(١)

ونعود الى الدكتور عبد الرزاق فى بحثه حيث يرى " أن التعريف التقليدى للبلاغة - بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته - مع دقته وشموله يتمف بالغموض والابهت ، وفى مفتاح العلوم وتلخيصه وشروحه محاولات مجهدة لتوضيحه ، ومع ذلكبقى العسر والغموض يصاحبه . وليس من موائمات البلاغة أن يكون تعريفها على هذه الصورة من الغموض " .

(١) مجلة مجمع اللغة العربيه ج ٢٢ ص ١٢٩ .

وهذا الرأي سبق وذكره الشيخ أمين الخولى فى كتابه
 " فن القول " ان تعرض لتعريف البلاغة بتفصيل أكثر ورأى أن المنهج
 السفى يستطيع أن ينتهى الى شىء أبين من ذلك وهو تعريف البلاغة
 بأنها " فنية القول " ثم بين ميزة هذا التعريف الجديد للبلاغة. (١)

وانتقل الدكتور بعد ذلك الى مفهوم آخر من مفاهيم البلاغة
 فى علم المعانى فقال : " ان فى مباحث علم المعانى قصورا فى
 استيفاء مقتضيات الأحوال فان الدراسة لها اتجهت الى حال
 المخاطبين عند تلقى الخبر أو الطلب ، وهى أحوال على تنوعها
 لا تلقى بأحوال المتكلمين والمقتضيات التى تدفعهم على القول فان
 الباعث على القول ربما يكون احساسا داخليا أو نازعا ذاتيا
 لا يدخل فى تقدير قائله ما يكون عليه حال القارئ أو السامع ،
 ولا الموازنة مع تلك الحال . "

وهذا الرأي أيضا سبق وذكره الشيخ أمين الخولى فى نفس
 الكتاب بتفصيل أكثر وشرح أوفر (٢) . كما أن الدكتور رجاء عبيد يرى
 ذلك الرأي أيضا وهو أن الباعث على القول ربما يكون احساسا
 داخليا أو نازعا ذاتيا ويضرب لذلك مثلا بالمتنبى فى مطالع قصيدته
 التى يمدح بها كائنورا :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا
 " فالمتنبى لا يقصد بالطبع افادة مخاطبه بأن الموت شاف له ، أو أن
 المنايا أمانيه ، وإنما هى دفقة لاشمورية من احساسه الممزقة
 نحو صديقه وأميره " سيف الدولة " الذى هجره ، ومن أمانيه التى
 تصوحت فى ولاية طال يحلم بها ، وكان أمله أن يحققها له كافور . وهو
 يخاطب نفسه فى البيت التالى قائلا :

(١) انظر " فن القول " ص ١٩٦-١٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠١-٢٠٦ .

تمنيها لما تمنيت أن ترى مديقا فأعيا أوهدوا مداحيا

ويطال في حوار نفسي بينه وبين ذاته الى أكثر من خمسة عشر بيتا حتى يبين عن أمله الذي أشقاه بل اننا نرى الشاعر في وهرة ليس افادة المخاطب بأنه عالم بمضمون خبره أو افادة مخاطبه بهذا المضمون بقدر ما هو تنفيس تلقائي لمشاعر نفسية حبسية تحد انما الاقها في هذا العالم السحري الخامس^(١) .

وبعد أن تحدث الدكتور عبد الرزاق عن وقوف البلاغة عند حال المخاطب دون المتكلم رأى السبب في ذلك " أن الدراسات البلاغية قد اهتمت بالقرآن الكريم وهو كتاب هداية وتبشير وانذار يضع في اعتباره بالدرجة الأولى حال المخاطبين في هدايتهم وتبشيرهم وانذارهم ، وكذلك الأمر في خطاب الرسول والخلفاء والولاة وفي كثير من شعر الشعراء الأقدمين . ولذلك بحث دارسو البلاغة أكثر ما بحثوا خصائص أحوال المخاطبين . ولكنهم نسوا على أن الأحوال ومقتضياتها لا تقف عند حد ولم تستقصى بعد فرخصوا بالاستزادة منها للآتين من بعدهم . ولكننا وقفنا حيث انتهوا ولم نسترد جديدا من الأحوال ومقتضياتها " .

ومثل هذا الكلام ذكره أيضا الشيخ أمين الخولي في فن القول^(٢) ،

مما يدعونا الى الاعتقاد بأن الدكتور عبد الرزاق قد اطلع على هذا الكتاب وتأثر به .

على أننا نجد في كلام الأقدمين أنفسهم ما يشير الى اهتمامهم بحال المتكلم ومن ذلك قولهم في تقديم الشعراء : " كفاك من الشعراء أرمعة : زهير اذا رغب ، والناخعة اذا رهب ، والأعشى اذا طرب ، وجرير اذا غضب^(٣) " وهذه مماثلها ليست الا أحوال المتكلمين .

(١) في البلاغة العربية ص ٦٤ (٢) انظر ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٣) الممددة ص ٩٥ .

وفى باب القصر والاختصاص كثيرا ما يشير الامام عبد القاهر الى حال المتكلم . من ذلك قوله : " اعلم أنك اذا قلت ، ما جاءنى الا زيد ، احتمل امرين : أحدهما أن تريد اختصاص زيد بالمجى ، وأن تنفيه عن عداه والثانى أن تريد الذى ذكرناه فى انما " .^(١)

وقوله : " واعلم أن حكم غير فى جميع ما ذكرنا حكم الا ، فاذا قلت : ما جاءنى غير زيد ، احتمل أن تريد نفى أن يكون قد جاء معه انسان آخر ، وأن تريد نفى ألا يكون قد جاء وحده مكانه واحدا آخر " .^(٢) وقوله : (تريد) فى هذه العبارات وأمثالها انما هو اشارة لحال المتكلم ، والضمير فى (تريد) عائد اليه .

هذا الى أن أحوال المتكلم قد شاع الحديث عنها فى مواضع أخرى لعبد القاهر . من ذلك قوله : " والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ولكن يحى الى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود " .^(٣)

على أن غرض المخبر من خبره - كما هو معلوم - أحد أمرين : فائدة الخبر أو لازم الفائدة ، وهذا الثانى هو افادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم . وأن فلان فائدة حالة من حالات المتكلم .^(٤)

وكذلك فان الخبر قد يخرج عن هذين الغرضين الأملين الى أغراض أخرى مثل : التحسر ، اظهار الضعف ، الفخر ، التوبيخ ، الاستعطاف وهذه وما مثلها ليست الا أحوال المتكلم .^(٥)

هذا وليس التأكيد محصورا فى الطالبى والانكارى من ضرب الخبر - كما يقولون - فان التأكيد يأتى لأغراض أخرى كثيرة منها :

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٦٠ د بيروت

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٨

(٣) المرجع السابق ص ٥٢

(٤) انظر ص ٢٣ من كتاب توضيح المعانى للدكتور العمارى .

(٥) المرجع السابق .

- ١ - شعور المتكلم أن المخاطب لا يهتم إلى خبره .
 - ٢ - رغبة المتكلم فيما تضمنته الخبر .
 - ٣ - قصده المبالغة في تحقيق الخبر . (١)
- وهذه الثلاثة أيضا من أحوال المتكلم . إذن فليست أحوال المخاطب وحدها هي التي اهتم بها علماء البلاغة ، وإن كانت هي التي سلطت عليها الأضواء أكثر من أحوال المتكلم .

ونعود إلى الدكتور عبد الرزاق حيث يتحدث في بحثه بعد ذلك عما جد في العصر الحديث " من فنون تعبيرية جديدة كاللمحة والقصة والرواية ، كما انتهى إليها مدد من الدراسات النفسية والدوافع الشعرية واللاشعورية لدى المتكلمين . لهذا لا بد من استكمال الدراسات البلاغية لخصائص هذه الفنون ومعرفة مقتضيات القول فيها لتصور النقد الأدبي صياغة علمية ذات ضوابط وحدود " .

وأينما هذا الكلام ليس حديثا بل تحدث عنه الأستاذ الخولي والأستاذ الشايب والأستاذ البشري والدكتور طهانة وغيرهم . ويكاد العلماء المحدثون والنقاد يجمعون على ذلك . وهو أن البلاغة العربية يجب أن تخرج من نطاق الجملة والجملتين إلى رحاب النص الكامل من شعر وقصة ومقال . . . الخ .

ويقول الدكتور بعد ذلك : اننا أخذنا بعض القواعد البلاغية عن السابقين مأخذ التسليم دون أن نحاول مراجعتها أو عرضها على أرواقنا وذلك لثقتنا المطلقة فيهم ، مع أن في هذه القواعد كثيرا من مظاهر التناقض والأمثلة على ذلك كثيرة . وقد أتى بمثال واحد على ذلك وهو تنكير المسند إليه :

" فنسمعهم يقولون : إن لتنكير المسند إليه خطائ كثيرة فهو يفيد الأفراد في قوله تعالى " وجاء رجل من أقصى المدينة يسمى " ،

والتعظيم والتحقيق فى قول الشاعر :

ليه حاجب عن كل أمر يشين . وليس له عن طالع العرف حاجب
والنوعية فى قوله تعالى : " وعلى أبصارهم غشاوة " والتكثير فى نحو :
ان له لا بلا وان له لغضا ، والتقليل فى نحو : " ورضوان من اللام اكبر " .
والتعظيم والتكثير فى قوله تعالى : " وان يكذبوك فقد كذبت رسل " .
أى رسل ذوو عدد كبير وذو آيات عظام .

هذا ما يقولونه عن تنكير المسند اليه وماله من خصائص مختلفة قد
تبدو متناقضة كالتعظيم والتحقيق ، والتقليل والتكثير .

هذا ما قاله صاحب البحث . والواقع أنه لا تناقض هنا لأن التعظيم

والتحقير والتقليل والتكثير مستفاد من سياق الكلام وتسلسل التعبير
لأن المعنى الوضعى للكلمة ولا من مجرد تنكيرها . ويكاد الدكتور
نفسه يوافقنى فى ذلك إذ يقول بعد قولته السابقة : " ان الصورة
الواحدة لا يمكن أن تؤدى إلا غرضا واحدا أو أغراضا متقاربة غير
متناقضة على الأقل ، فان أدت خواصا متعددة ومتناقضة فلا بد أن
يمر ذلك الى شىء فى الجملة سواها والى ملابسات اتصلت بها
وليس لها وحدها . وعلى هذا تكون الخواص المختلفة من منفع
الجملة كلها أو من أثر الملابسات لها . وليس ما أورده البلاغيون
من مفادات مختلفة أت من كون المسند اليه نكرة " .

ويذهب الدكتور بعد ذلك يستدل - بنفس الأمثلة التى ذكرها
آنفا - على أن السياق والمقام هو الذى يحدد الغرض من التكثير
وليس التكثير وحده . يقول : " فالتعظيم والتحقيق اللذين تتلصبا
فى كمتى حاجب من قول الشاعر :

له حاجب عن كل أمر يشين . وليس له عن طالع العرف حاجب

منشؤه ما اسلوب التعبير وملازمة القول ، فالبيت فى مقام المدح وذلك باثبات شئ ، للممدوح ونفيه عنه ولا يتم المدح الا باختلاف بين ما يثبت وما ينفى وحين تثبت الصفة للممدوح ثم تنفى عنه لابد أن يكون المثبت منها له أفضل صورها والمنفى منها عنه أهون صورها . فإذا ما نظرنا الى ما تعددت له كلمة حاجب فى الأول وهى مثبتة وجدناه : عن كل أمر يشينه . فالمدح يقتضى أن يكون حاجبا قويا عظيما ، وإذا ما نظرنا الى ما تعددت له كلمة حاجب الثانية وهى منفية وجدناه عن طالب العرف . وحيث ان ما أثبت له كان بصورة معظمة فلا بد أن يكون مانفى عنه بصورة محقرة . فتكثير المسند اليه لم يؤد هذه الخاصية بمفرده وإنما أداها الأسلوب والمناسبة .

وكذلك التكثير فى قولنا : ان له لا بلا وان له لغضا : فالتأكيد بان والسلام وتكرار هذا التأكيد هو الذى هيا فهم التكثير وليس ورود المسند اليه نكرة .

وكذلك التعظيم والتكثير فى قوله تعالى : " وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك " أى رسل ذوو عدد كثير وذو آيات عظام .

المقام مقام تسلية للرسول عليه السلام وحمل على الرضا والتجسس ولا تتأتى التسلية والتصهير عن طريق الناس بأفراد قليلين أو جماعة لا خطر لها فلا بد أن يكون مضرب القدوة جماعة لها شأن وشأن عظيم .

وللدكتور رجا " عيد فى ذلك رأى مماثل أيضا : " فالتعظيم والتحقيق الذى أفاده تنكير المسند اليه فى قول الشاعر :

ولله منى جانب لا أضيعه وللهو منى والخلاعة جانب

لم يأت من التنكير فقط بل أتى من السيان . فد " جانب " الأولى منسوبة الى الله وفيها تأكيد بالنفى " لا أضيعه " والذى يؤكد المعنى أكثر من قوله :

ثابت أو موجود مثلاً مع مديته مقدماً الأمر الذي يوحى بأهميته ، و
 " جانب " الثانية جاءت بلا تأكيد ويتداخل الشعور الدينى والاخلاقى
 لذكر الهو والخلاعة حتى يدفع الى القول بأنه للتحقير . ولو وجد
 البلاغيون البيت مثلاً :

ولله منى الجانب المثبت ولله منى الخلاعة جانب
 لرأيهم يسرعون الى القول بأن التعريف للتعظيم . وفى رأينا أن
 الذى دفع البلاغيين الى هذه المتاهات هو الرغبة فى تقنين مسائل
 بلاغية تعلمو على التقنين " .^(١)

وأخيراً يستتم الدكتور عبد الرزاق بحشه بقوله : " أيها السادة
 الزملاء " : ان دارسى البلاغة من طلبة الثانويات والجامعات حين
 يواجهون بقائمة طويلة من الأغراض المتناقضة لشيء واحد يقعون
 موقع الحيرة ولا يملكون الاحتفاظ بها من غير وعى وتبين . لهذا أرى من
 الضرورى مراجعة ماورثناه من أحكام بلاغية بكثير من الفحص وإزالة
 اللبس وتكملة ما فات الأوائل جزأهم الله خيراً وكفى ترك الأول لآخر " .
تعقيبات مجمعية على بحث " مفاهيم بلاغية " :

عقب على بحث الدكتور عبد الرزاق محبى الدين بعفر من الاساتذة
 الذين حضروا جلسة المجمع . منهم الأساتذة عباس حسن وزكى المهندس
 وأنيس المقدسى ومحمد خلف الله ، وقد أعجبوا بهذا البحث ورأوا
 أنه فتح آفاقاً جديدة فى ميدان البحث البلاغى جديدة بالاهتمام
 والتقدير .

وقد أشرنا فى ثنايا البحث الى تعليق الدكتور عباس حسن . وهناك
 مقتطفات من تلك التعليقات الأخرى :-

(١) فى البلاغة العربية ص ٣٧ .

الأستاذ زكي المهندس : أحب أن أضيف إلى هذا أن للمرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات كتاباً ضخماً في الدفاع عن البلاغة العربية . كذلك للمرحوم الأستاذ أمين الخولي كتاب " فن القول " وهي محاضرات ثمينة في البلاغة ألقاها في كلية الآداب . (١)

الأستاذ أنيس المقدسي : أوافق الإخوان الذين رأوا في محاضرة الدكتور عبد الرزاق محيي الدين أشياء جديدة وجوانب مفيدة . وأحب أن أضيف فكرة صغيرة تتعلق بمسألة الضمور والوضوح ، وأعتقد أن المقام الكتابي نوعان : المقام العلمي والمقام الأدبي . ففي المقام العلمي تكون الكلمات الفصيحة هي التي تؤدي المعنى المحدود الواضح الذي لا تمقيد فيه . أما المقام الأدبي فالصراحة ليست في تأدية المعنى المحدود ولكن الكلمة قد تدل على معنى أو معاني المعاني . والبلاغة هي الوصول إلى معاني المعاني في الأدب فقد يكون في هذا شيء من الضمور لافي اللفظ نفسه ولكن في التوصل إلى هذه المعاني أو معاني المعاني . (٢)

الأستاذ محمد خلف الله : أعبر عن تقديري للبحث الدقيق الذي استقمنا إليه من الزميل الدكتور عبد الرزاق محيي الدين . ونحن في حاجة إلى مثل هذه البحوث الدقيقة التي تتعمق لمفاهيم تراثنا العربي بالتحليل والتحديد في التفكير . وأعتقد أن الدعوة إلى العناية بعلوم البلاغة العربية تحي ، في حينها والفنون الأدبية الحديثة وعلى الأخص القصص أصبحت تستلزم في نقدها وفي دراستها مفاهيم أخرى لم تكن لازمة ولا موجودة بهذا الشكل في كتابتنا النثرية القديمة ، وهذا يتطلب به شيء كثير من سبب الانصراف عن درس البلاغة ، أو عدم الميل عند الكثيرين في العصر الحاضر على متابعة التراث العربي الأدبي الرفيع ومفاهيمه .

وهذا ما جعل الدراسة في بعض الأقسام الجامعية التي كان
 واحدها أن تعنى بالدرس البلاغي تنصرف عنه شيئاً ما
 فهذا كله حقيقة جعلنا نلج في ألانهمل هذا التراث الذي يتصل
 الاتصال كله بالقرآن وبتراثنا العربي في عصوره الطويلة، وفي أن
 نزكي الدعوة للمتخصصين وللمهتمين بالدراسات العربية أن
 يهتموا به .

وأقول : إن هذه المحاضرة " مفاهيم بلاغية " التي أقيمت
 في مجمع اللغة العربية ليست في مستوى المجمع . وكنا نتوقع
 من أعضاء المجمع بحوثاً ومحاضرات في تجديد البلاغة على مستوى
 أعلا . فليس المهم أن ننقد بلاغتنا القديمة ونبرز بعض مساوئها
 بقدر ما يهم أن نضع لبنات جديدة في عرش تجديدها . ولا يكفي
 أن تتردد في جنبات المجمع دعوات التجديد دون تجديد .

تخطيط رسمي جديد للبلاغة

وضعت لجنة المعارف ^(١) تخطيطاً جديداً للبلاغة عند ما اجتمعت لتتظفر في تيسير العلوم العربية ومنها البلاغة . وقد جاء هذا التخطيط ضمن التقرير ^(٢) الذي كتبت اللجنة عن البلاغة وجاء في أوله " ان العرب قد استطاعوا أن يستغنوا عن البلاغة ويميشوا بدونها عصرًا طويلاً هو من أزهى عصور الحياة الأدبية وأروعها . وقد عدلت الأسم الحديثة في تعليم لغاتها وآدابها عدولا تاما فلم يصيبها من ذلك شر ما . ومع ذلك لم نعدل عنها ، ولم نطلب الفناء لها ، وانما رددناها الى أصلها ، وجعلناها فصلا من فصول الأدب ، ووسيلة من وسائله ، والغينا منها ما لاصلة بينه وبين الحياة الأدبية ، وأضفنا اليها أبوابا بحث عنها القدماء من النقاد في إجمال ، وبحث عنها المحدثون في كثير من التفصيل ، وقد أهملت في البلاغة الرسمية اهمالا تاما " .

ورأت اللجنة أن التخطيط العام لأبواب البلاغة يجب أن يكون كما يلي :-

- أ - معنى البلاغة - الفرع منها .
- ب - الأسلوب : معناه ، اختلاف الأساليب باختلاف الكتاب والشعراء ، نماذج من أساليب مختلفة كابن المقفع والحافظ وديع الزمان وابن خلدون ، وبعض المحدثين الشعراء كبشار وأبي تمام وابن الرومي والمبها زهير - الإيجاز والاطناب والمساواة - الفرق بين الأسلوب الأدبي والأسلوب العلمي .

(١) كانت اللجنة مكونة من الاساتذة : طاه حسين ، واحمد أمين ، وعلى الحارم ، ابراهيم مطاقي ، عبد المجيد الشافعي ، محمد أبو بكر ابراهيم .

(٢) انظر التقرير في صحيفة دار العلوم ، عدد اكتوبر ١٩٣٨ ص ٦٥ وما بعدها .

ج - أهم الموضوعات الأدبية :

(١) الوصف : شروط جودته ، استعراض لوصف جيد ووصف

غير جيد .

(٢) المقالة : معناها ، شروط جودتها ، نماذج منها .

(٣) القصص : معناه ، أنواعه ، شروط جودته ، نماذج منه .

(٤) الخطابة : معناها ، شروط جودتها ، نماذج منها .

(٥) تراجم الأشخاص : شروط جودتها ، نماذج منها .

د - الشعر والنثر والفرق بينهما :

الشعر : شرح لمعنى البيت والقصيدة والقافية ، المامة بمعنى

الوزن فى الشعر ، لغة الشعر ، خياله ، موضوعاته ، أوصاف

الشعر الجيد .

النثر : لغته ، موضوعاته ، أوصاف النثر الجيد .

هـ - الكلمة :

بم تفضل كلمة كلمة فى الموضوع الواحد ، دقة استعمال الكلمة ،

حملها ، ملائمتها لموضوعها ، دلالتها بالوضع وبالالتزام .

(ويراد بالدلالة بالوضع معنى الكلمة كما تدل عليه المعاجم ،

والالتزام تأثر الكلمة بما حولها من معان وجو ونحو ذلك) .

و - الحملة :

تقسيمها الى خير وانشاء ، وأغراضها البلاغية - التهديم

والتأخير - الفصول " الفقر " معناها ، علاقة الفقر بالموضوع ،

علاقة الفقر بعضها ببعض - وحدة الموضوع : فى الشعر ، فى

المقالة ، فى الرواية - التشبيه والاستعارة : معناها ، الفرق

بينهما ، متى يحسنان - الكناية - نماذج كثيرة من التشبيه

والاستعارة والكناية ونقدها - المحسنات البدئية : نماذج منها

متى تحسن ، ومتى لا تحسن من ناحية الكم ومن ناحية الكيف .

ونلاحظ في اللوحة الأولى أن هذا التخطيط ينطبق كثيرا على منهج الأستاذ الشايب في كتابته "الأسلوب" . كما سنرى في الباب الثالث غير أن هذا التخطيط ورد في التقرير محملا بينما ورد في كتاب الأسلوب مفصلا . وإذا كان هذا التخطيط قد صدر من اللجنة في أول عام ١٩٣٨ م . وصدر كتاب الأسلوب عام ١٩٣٩ م ، فمن الواضح أن الأستاذ الشايب قد استفاد كثيرا من هذا التخطيط بالإضافة إلى أبحاث الأستاذ الخولي في البلاغة . وليس هذا بعيب نعميه على الأستاذ الشايب وإنما هي مجرد ملاحظة .

كما نلاحظ في هذا التخطيط الفاء* التقسيم القديم لمعلوم البلاغة الثلاثة - المصاني والبيان والبديع - وشها في ثنايا أبواب وفصول التخطيط الجديد .

وإذا نظرنا إلى هذا المنهج - أو التخطيط - الذي اقترحه اللجنة في البلاغة نجد أنه يتضمن أنواعا ثلاثة :

- (١) موضوعات هي مما دون في مناهج البلاغة قد يسمها وحد شها وهي : معنى البلاغة - الإيجاز والالفاظ والمساواة - الحطة وتقسيمها إلى خبر وانشاء - التقديم والتأخير - التشبيه والاستعارة والكناية - المحسنات البديعية .
- (٢) مباحث من مناهج الأدب وهي : الخطابة - الشعر - النثر - تراجم الأشخاص .
- (٣) أبواب قالت اللجنة إنها قد " بحث عنها القداما " من النقاد في أعمال وبحث عنها المحدثون في كثير من التفصيل وهي : الأسلوب - الوصف - القصص - المقالة - الفصول - الفقر - وحدة الموضوع .^(١)

(١) انظر نقد تقرير المعارف في صحيفة دار المعلوم عدد أكتوبر ١٩٣٨ م ص ٥٨ . وما بعدها .

ونلاحظ في النوعين الثاني والثالث أن التخطيط أدنى
البلاغة في مسائل الأدب وقد أشادت اللحنة الى ذلك في المقدمة
حيث قالت : " وقد ردوناها الى أصلها ، وجعلناها فصلا من
فصول الأدب ، ووسيلة من وسائله " ، ولا أدري ان كان هذا الإجراء
تعظيما للبلاغة أو استهانة بشأنها ، ولكن هذا الإجراء - على
أى حال - ليس غريبا على البلاغة فأقوى أيامها وأفضل عهودها
أيام كانت هي والأدب توأمين لا يفصلان .

كانت تلك - فيما وحدنا - هي أهم البحوث والمباحثات
والتقارير التي عرضت للبلاغة وتحدثت عن تحديد يد لها واشتطت
على بعض مقترحات وخطط لتحديد يد البلاغة هي وان كانت صغيرة
محلطة ، الا أن لها أهميتها التي لا تنكر عندما نحاول أن نقسم
على تحديد البلاغة .

وتتبعها للفائدة رأينا أن نشع هذا الفصل بفصل آخر نبين
فيه آراء مجموعة من الأساتذة الذين مارسوا تدريس البلاغة في
الجامعات . ولا شك أن لهذه الآراء - مهما قل حجمها - ونقدتها
كما أن لها أثرها في دفع عملية التحديد البلاغي الى الأمام .

الفصل الثاني

آراء في تجديد البلاغة

دعوات التجديد البلاغية في العصر الحديث كانت ومازالت ترتفع بها الأصوات من جانب المهتمين بالبلاغة وباللغة العربية وتراثها . ونحن هنا - بعد أن استعرضنا البحوث التي كتبت والمحاضرات التي أقيمت في البلاغة وتجديدها - نعرض لآراء بعض أساتذة الجامعات الذين لهم دور ملموس في تدريس البلاغة ، لأنهم الأقدر من سواهم على معرفة حاجتها وتفهم مشكلاتها . وإذا كان الطبيب يستطيع بالكشف على مريضه أن يحدد الداء ويعرف الدواء ، فإنهم - ولا شك - يعرفون داءها ويستطيعون أن يصفوا دواءها . ولذلك رأينا ألا نهمل آراءهم حتى ولو كانت إشارات عابرة .

وانتنا في هذا الفصل - علاوة على ما أوردنا من بعض الآراء في ثنايا البحوث السابقة - سنعرض لآراء الأساتذة :

- ١ - د . أحمد مطلوب
- ٢ - د . علي عبد الرازق
- ٣ - د . بدوي طهانة
- ٤ - د . حفي شرف
- ٥ - د . علي العمارة
- ٦ - د . محمد نايل
- ٧ - د . كامل الخولي

(١) الدكتور أحمد مطلوب :

يرى الدكتور مطلوب أن البلاغة العربية كانت في القرن الماضي فنونا تحفظ وشروحا تدرس ، وحيثما أطل فجر النهضة الحديثة واتصل المغرب بالغرب ورأوا ما عندهم من مناهج أدبية التفتوا الى تراثهم يديون ما فيه النفع ويأخذون عن الغرب ما فيه اشارة السبيل ، ولم تضر سنوات حتى بدأ الأزهر الشريف يعيد النظر في مناهجه ، وأخذت المعاهد والجامعات تقيم دراساتها على أسس علمية قوية ، وكان للبلاغة نصيب بما حدث للحياة الفكرية من تآور وتقدم فظهرت دراسات جديدة وضعت المعالم في الطريق .

وقد تحدثت هذه الدراسات عن نشأة البلاغة وتطورها ، ورسمت صورة واضحة لها ولكنها تكاد تتفق في أمرين :

الأول : اتخاذها المصحح التاريخي سبيلا لتصوير حياة البلاغة .
والآخر : إهمالها بعض البلاغيين الذين كانوا يصلون بين حيل وحيل أو مذاهب ومذاهب وعدم التفصيل في البلاغة الحديثة التي يسمى اليها المجددون .^(١)

ويرى د . مطلوب أن الأزهر الشريف هو أول من حمل لواء التجديد في البلاغة وذلك بأن قيض الله له الأستاذ الامام محمد عبده - رحمه الله الذي أخذ يحيى كتب السلف النافعة وطوهم ويقوم ما اعجز من مناهج التأليف وطرائق التدريس فقد انصرف الشيخ محمد عبده الى تدريس كتابي دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر ، وبذلك فتح أذهان الطلبة وقسوى مداركهم ومواهبهم ، لأنهم وجدوا في تدريس الامام غير ما ألفوه . وبذلك كان الجامع الأزهر أول معهد من معاهد التعليم الاسلامي والعربي قرئ فيه دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة - بعد الصفوة الطويلة - درسا لطالاب البلاغة ولأجله طبع الكتابان وانتشرا . . ويرى أنه بسبب ذلك قد تخرج في الأزهر الشريف في مطلع العصر الحديث حيل فيه عزم على البحث في روحه اندفاع الى التجديد .^(٢)

(١) مناهج بلاغية - د . مطلوب - ص ٧
(٢) اتجاهات البلاغة العربية / د . مطلوب / ص ١٨ .

وفي كتاب اتجاهات البلاغة العربية أحمل الدكتور مطلوب رأيي في التخطيط العام للبلاغة العربية الحديثة . وهو يمثل في الغاء التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة ، واعتبار البلاغة فنا واحدا . وأن تتجاوز البلاغة مجال البحث في الحملة والخطتين إلى البحث في الفقرة والقطعة الأدبية والأساليب المختلفة وتستعين بما ذكره القدماء كمبد القاهر وابن الأثير في ذلك . أما مصطلحات البلاغة فينبغي تقليصها والاكتفاء بأهمها . فالمجاز مثلا لا حاجة إلى تقسيمه إلى أنواع كثيرة ، وإنما نكتفي بتقسيمه إلى لغوي وعقلي كما فعل الحراني ، أو نعتبره لغويا كله كما فعل السكاكي ونكتفي في الاستعارة بمصطلحات قليلة ولتكن الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية ورد جميع الأنواع الأخرى إلى هذين النوعين .

كما يجب أن نهتم في بحث البلاغة بالناحية الأدبية وتخفيف الأمثلة والقطع الرائعة من القرآن الكريم وكلام العرب ، كما نهتم بتحليل الأمثلة تحليلًا أدبيا يعتمد على الإدراك والاحساس الفني . ويجب أن نعيد ما أدخله القدماء في البلاغة من الفلسفة والأصول والمنطق وعلم الكلام مستعنيين ببعض الدراسات النفسية وما لها من أثر في الفن الأدبي ، ولكن لا إلى الحد الذي تتجاوز فيه البحث البلاغي فتطغى عليه كما طغى المنطق وعلم الكلام فأخرجها عن غايتها التي من أجلها بحثت . وبذلك نهتم في البلاغة العربية الروح من جديد لتكون صالحة لنقد الأدب ، وإنشائه ، وتكون ملائمة للفن الأدبي المعاصر .^(١)

هذا رأى الدكتور مطلوب في تجديد البلاغة . وهو يصلح منهاجا صغيرا للتجديد له اعتباره وقدره بجانب المصاحح الكبيرة التي سنوردها في الباب الثالث من هذا البحث . وقد أعجبني في هذا المنهج دعوة وتحذير . أما الدعوة فهي إلى نبذ ما أدخله القدماء في البلاغة من الفلسفة والمنطق والأصول

(١) اتجاهات البلاغة العربية ص ٢٥ بتصرف.

وعلم الكلام ، وإدخال - بدلا منها - بعض الدراسات النفسية لما لها من أثر
فى الفن الأدبى .

وأما التحذير : فهو من أن تتجاوز تلك الدراسات النفسية مداها فى البحث
البلاغى فتطغى عليه كما طغى المنطق والأصول وعلم الكلام من قبل .

وهذا التحذير - فى رأى - مهم جدا . لأن الكثير من دعوات التجديد
كما رأينا وكما سنرى - قد اقترحت إدخال الدراسات النفسية بدل المنطق
والفلسفة وغير ذلك مما أغرق البلاغة وغطى عليها حتى عادت كتب البلاغة كتباً فى
المنطق والفلسفة أكثر منها كتباً فى البلاغة . فنحن والأمركذلك نخشى أن
تتحول كتب البلاغة فى مرحلة التجديد الى كتب فى الدراسات النفسية .

كما أعجبنى فى هذا المنهج أيضا دعوة د . مطلوب الى تقليل المصطلحات
البلاغية والاكتفاء بأهمها . وهذه النقطة بالذات تشكل جانبا هاما من شكوى
الطلاب وانصرافهم عن الدرس البلاغى وضيقتهم به . وما أورده من أمثلة جدير
بالنقد والاهتمام . فلماذا لانقصر المجاز على قسميه اللغوى والعقلى أو نعتبره
لغويا كله كما فعل السكاكى ونقطع أذنان الفروع والتقسيمات الأخرى والمهم أن
يستقر فى ذهن الطلاب المراد بلاغيا بالحقيقة والمجاز وأمثلة واضحة لكل منهما
فيها ذوق وجمال . وكذلك الاستعارة : لا داعى للاستطراد فى فروعها وأقسامها
بل نكتفى بالاستعارتين التصريحية والمكنية ونرد الأنواع الأخرى اليها بل ونعمل
على تبسيطهما قدر الامكان بحيث يفهم الطلاب الاستعارة ويقتنعون بها ويستطيعون
تطبيقها فى أحاديثهم وكتابتهم الأدبية . أما بالنسبة للمتخصصين فى الكليات
والدراسات العليا فلا مانع من الزيادة والتفصيل .

(٢) الدكتور على عبد الرازق :

ان التقسيمات الكثيرة التي تناولت أبواب البلاغة وطغت على أبحاثها ورأى الدكتور مطلوب أنه لا داعي لها ، واقترح اختصارها قد نبه الدكتور على عبد الرازق أيضا اليها والى قسوتها وسخفها وعدم جدواها ، قال : * وقد كان بودنا لو تيسر لنا البحث فى سر هذه التقسيمات التي حياءوا بها فى باب التشبيه ، وجاءوا بمثلها فى باب الاستعارة ، فان استخراج أقسام شتى لشيء واحد وتنويعه الى أنواع وأجناس وتحزيرة الى أجزاء أمر ميسور لكل ناظر ، سهل على كل من شاء ، ولو أننا ذهبنا نستخرج للتشبيه أقساما كالتي استخرجوها لكان فى مقدورنا وفى مقدور كل أحد أن نبلغ بالأقسام مئات وألوف . فلنا أن نقسمه باعتبار وجهه مثلا الى ما يكون وجه الشبه فيه ذاتيا من ذاتيات المشبه أو المشبه به أوهما ، أو يكون عرضيا كذلك ، والعرض اما أن يكون لازما أو متخلفا ، والمتخلف اما سريع الزوال أو بطيء ، فبنتج من ذلك خمسة عشر قسما فان شئت ضعفتها الى هعفين وأضعاف وان شئت اختصرتها .

وعلى هذا الأسلوب يمكن أن يقسم التشبيه باعتبار كل ركن من أركانه ، وكذلك يمكن القول فيه باعتبار أدواته ، يمكن أن يعتبر فى التشبيه شيئا آخر غير أركانه الأربعة يلحق بها أقسامات وتنوعات

وكذلك القول فى الاستعارة وتقسيماتها . . . وما دامت مبانى التقسيم عند هم أمورا انتزاعية وشئونا اعتبارية فان لكل قادر شاء أن يعتبر وينتزع . اللهم الا أن يجعل الحكم فى ذلك للفائدة فلا يقبل من التقسيم الا ما كان اذا حظ من الفائدة والنفع وما كان داخلا تحت حدودها

وفى الواقع ان هذا الضيق من تلك التقسيمات الكثيرة والفروع المتداخلة ليس قاصرا على المحدثين ، ولا ضاق به الجيل الجديد من الدارسين للبلاغة فقط ، فهذا هو سعد الدين التفتازانى - وهو أحد أقطاب المدرسة الكلامية - يعيب على السكاكى كثرة التقسيمات التى أوردها فى التشبيه ويفضل عليه منهج عبد القاهر فىقول : " واعلم أن أمثال هذه التقسيمات التى لا تنفرع على أقسامها أحكام متفاوتة قليلية الحدوى ، وكأن هذا ابتهاج من السكاكى باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين ، فلهذا در الامام عبد القاهر وإحاطته بأسرار كلام العرب وخواص تراكيب البلغاء ، فأنه لم يزد فى هذا المقام على التكرار من أمثلة أنواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها .^(١)

أجل ان هذه التقسيمات والتفريعات التى تناشرت هنا وهناك بكثرة هى من أهم الأسباب التى شوهت وجه البلاغة ، وحالت بين الدارسين والأدباء وبين هضمها وتفهمها واستعمالها فى النقد والأدب . فضايق بذلك مجال البلاغة وأصبحت على مر الأيام معزولة عن الحياة ، غريبة حتى بين أهلها .

(٣) الدكتور بدوى طبانة :

يرى د . طبانة : أن البلاغة تشريع للأدب يضع قواعده ويحدد أصوله ويرسم طريقه ومنهجه ، وإذا كان الأدب تعبيرا متناذا فإن البلاغة هي التي توضح معالم هذا التعبير الممتاز وتبرز عناصره لينتفع بها الأدباء حتى يستطيعوا أن يحققوا هدفهم الذي يرمون إليه من اقناع العقول أو التأثير في المواطف والقلوب

وإذا كانت تلك هي حقيقة البلاغة فإنها تتسع لدراسة فنون الأدب ورسم خطوطها ولا تقتصر على بعض الأجزاء القليلة من الفن الأدبي ، وإنما ينبغي أن تحدد كل فن من فنون الأدب وتشرح مظاهر الاجادة وأسباب التوفيق فيه كما رسمت الطريق للكلمة المفردة وللجملة المركبة .

ثم ان علم البلاغة هو " علم الأسلوب " ولا شك أن الأساليب تختلف من موضوع الى موضوع كما تختلف من فن أدبي الى فن أدبي آخر . وهذا الاختلاف يوجب علينا أن ندرس خصائص كل فن ونوضحه ونحدد جوهره وغايته وموضوعه وشكله ونشرح ما ينبغي أن يتوافر في كل منها . فللشعر أقسامه وفنونه وله معانيه وأخيلته وله صوره وأشكاله . وللنثر أبوابه التدبيرة من الخطاب والأمثال والوصايا والرسائل والمقامات والجدل والمناظرات ، وأبوابه الجديدة من المقالة التي تختلف في الموضوع والغاية ، والقصة التي ولدت في هذا العصر ونفق سوقها واتسعت دائرتها وتعددت أنواعها كما تعددت مناهجها ، والمسرحية التي عظم شأنها في الأدب العربي في هذا الزمان وكل فن من هذه الفنون حديث يرآن تحدد معالمه وأن تعرف مواضع الاصابة فيه .

والموضع الطبيعي لهذه الدراسة هو البلاغة التي تستقى قواعدها من أعمال الأدباء، ومن أعمال النقاد ثم تصفيها وتجعل منها دستوراً قابلاً للتجديد بتجديد المصور وتطور الأذواق، فلا يكون لهذا الدستور صفة الخلود إلا إذا خلدت المقاييس التي أثبتتها ووقف الأدباء في دائرتها لا يتجاوزونها وهيئات... فدخل مثل هذه الدراسات في البلاغة يتفق تماماً مع طبيعتها التي تضع أصول الفن الأدبي، وتلك الأصول هي الخلاصة العلمية المنظمة التي اهتمت اليها الأجيال بعد درس لجميع الظواهر الفنية في الأدب.

بهذا تستطيع البلاغة أن تتفاعل مع الأدب وتتفاعل مع النقد الأدبي كما تتفاعل مع اللغة والبيئة وألوان الثقافة وفنون المعرفة التي تتصل بالأدب وتؤثر في الأدب. وهذا التفاعل هو الذي سيهيئ للبلاغة سبيل التجديد وسبيل الحياة. (١)

هذا ومن قرأ كتاب الأسلوب للشايب يرى بوضوح اتفاق وجهات النظر بينهما في تجديد علم البلاغة. إلا أن الأستاذ الشايب قد فصل منهجه في كتابه الأسلوب، بينما د. طابسة قد أجمل هذا المنهج في آخر كتابه: البيان العربي.

(١) البيان العربي ص ٣٢٥ - ٣٢٧ ط. بيروت.

(٤) الدكتور حنفى شرف :

يرى د . حنفى شرف أنه يجب علينا أن نعيد النظر فى قواعد البلاغة القديمة لتهذيبها مما أصابها من الخلافات والاعتراضات وتقديم المقدمات واستنتاج النتائج ، ونقلها من القواعد وتكرار من الشواهد ونكشف عن الجمال الذى اكتسب رفعة مكاناً ، كما لا نفرض القاعدة على التحليل نتحسس سبب الحسن والجمال فيه ، ولا بأس بأن ندمج بعض الألوان التى تتشابه حتى لا نكثر التعريفات التى شوهت جمال البلاغة كما يجب ألا نقف فى التأليف البلاغى عند ذكر التعاريف والأمثلة بل نبين أسرار الجمال وحلة ذلك بالنفس الانسانية ، كما يجب فى التأليف البلاغى للناسئين أن نترك الأمثلة التقليدية التى لا تصلح للحاضر ولا تستعملها إلا بالقدر الذى يؤدى الى فهم القديم ، لأنه لا جديد لمن لا قدم له ، كما ندع طريقة التلخيص وشروحه وخلق مسائل البلاغة بالفلسفة ، ويجب علينا ألا نقف فى دراسة المفرد والجملة عند الحدود التى رسمها الأقدمون ، بل نبحث عن ألوان جديدة للجمال فى المفرد والجملة .

أما فى تطبيق مسائل البلاغة على النصوص الأدبية كمقياس من مفايس النقد الأدبى فيجب أن يعرض هذا التطبيق فى ثوب عصرى مستفيد من دراسة الذوق والفن والجمال معتمد على الدراسة النفسية مؤثر للشرح والتوضيح .

ويرى د . حنفى أن الوقت قد حان لتجديد البلاغة العربية والنظر فى قواعدها وتطبيقها من جديد ، ذلك لأن سنة التطور التى تشمل الحياة تدعونا حتماً الى التفكير الناقد فيما بين أيدينا من قواعد بلاغية قد تحجرت وأصيبت بالجمود فلم تعد مألوفة للنظر والقياس .
وهناك دوافع كثيرة متضاربة تلح على تجديد البلاغة أهمها :

أولا : طبيعة الأدب العربي أن يتجدد وأن تسرى فيه دماء الحياة ، وقد واكبت قواعد البلاغة أدبنا العربي منذ زمن طويل . فقبل العصر العباسي كانت هناك نظرات في النقد وتحليلات على إنتاج الأدباء ، ومنذ أغل العصر العباسي حركات الترجمة التي نقلت إلى العربية بلاغة أرسطو ، والعلماء مشغولون بتأصيل قواعد البلاغة ، وقد سارت البلاغة والنقد منذ العصر العباسي في تيارين مختلفين : أحدهما : متأثر باليونانية وبلاغة أرسطو إلى حد واضح . والآخر : من وحى الذوق العربي الخالص .

ويرى د . حنفي أن البلاغة واكبت الأدب العربي ، ولكنها لم تؤثر التأثير الكافي في تمحيص الأدب كفن ، وشغلت بمسائل جزئية استهلك طاقتها ، وبددت سلطانها وحسن قيامها على الأدب ، وأحسنا نحن في العصر الحديث بعد الثقة بين الأدب والبلاغة لما سرى في حياة الأدب الجديد من تطور . الأثر الذي يحفز الهمة ويدعو إلى إعادة النظر في البلاغة .

ثانيا : ينبغي أن يكون في الحساب أن البلاغة سناد الأدب قوامه عليه ، وإذا كانت نظرتنا اليوم إلى الأدب تقدمية ، إذ أن أدبنا ضرورة لحياتنا الجديدة ، فنحن ننتظر من الأدب اليوم أن يدفعنا إلى التطور ويزيد إحساسنا بالحياة التقدمية التي نعيشها ، فكيف يلتفت الأدب الحديث إلى البلاغة الجامدة يستوحدها ويمدحها ؟ ...

وقد جدت في فنون الأدب اليوم أشياء لم يرها أدبنا من قبل ولم يخلف غمارها . فبأي مقياس نقوم ما جدد على أدبنا من فنون ؟

ثالثا : أصبحت حياتنا خمية ، والاتجاه الذي يسود الناس هو الاتجاه السلبي المتعمق ، وكان لزاما علينا أن نغير مقياس البلاغة بروح من أبحاث الخصب المتعمق .

هذا مع ملاحظة أننا حين تكسب بلاغتاً روحاً من الخصب والتعمق
 لا نقصد أن نتحرف بهما عن ميداننا الأصيل ، وهو الهيمنة على
 الأدب كفن أدبي يقصد منه الاستمتاع الفني والدفع القوي إلى النمو
 النفسي والوجداني . ونحن نرى مقدار ما خاضت فيه الأبحاث النفسية
 وما جدد على حياتنا من علم نافع ، فعلم الجمال ، وأبحاث الذوق الفني ،
 وعلم النفس الأدبي ، وبحث الصلات الواسعة بين الفنون - الموسيقى والتصوير
 والشعر والنحت وكل الفنون المعبرة - هذا كله يدفعنا إلى إعادة النظر
 في قواعد البلاغة والنقد على أساس متعمق خصب يستلهم هذه
 المنافع الفنية التي برزت في هذا العصر .

رابعاً : ينبغي أن تحدد مهمة البلاغة الحديثة في ظل الأدب
 وقد يكون واضحاً أن مهمة الأدب امتاع الذوق ، وإعلاء الفكر ، بما يحور
 لنا من خوالج النفس السوية ، ووضعات الفكر الباهر ، ولكن البلاغة
 قواماً أميناً يرسم الطريق للذوق الأصيل ، ويشرح المنهج للفكر المستبصر^(١)
 وبالنأمل فيما قاله د . حنفي شرف نجده يتفق مع كبير من
 الآراء والخطط التي أوردناها ، والتي تدور حول تخلية كتب البلاغة
 القديمة مما شابها من مسائل علم الكلام والمنطق والفلسفة ،
 وتقليل التقسيمات والفروع ، وتنقية الأمثلة والشواهد ، ثم الخروج
 بالبلاغة من نطاق الجملة والجملتين إلى مجال النص الكامل .
 وبذلك تكون البلاغة كما يقول الدكتور : " قواماً أميناً يرسم
 الطريق للذوق الأصيل ، ويشرح المنهج للفكر المستبصر " .

(١) التصوير البياني من ٥٣٠ - ٥٣٤ بتصرف .

(٥) الدكتور على العماري :

يرى د . العماري : أن علم البلاغة أشد حاجة للبحث والدرس والتجديد من علمي اللغة والنحو . ذلك أن المتقدمين عنوا بالنحو واللغة أكثر مما عنوا بعلم البيان ، ووجد المتأخرون مجال البحث فيهما مهيأ فأكثروا من التأليف في هذين العلمين ، وبخاصة علم النحو ، أما علم البلاغة فسبيل البحث فيها وعمر شائك ، وليس في استطاعة كل من تحدثه نفسه أن يقول في البيان قولا ، لأن هذه الناحية من الدرس لا تحتاج إلى التحصيل وحده ، وإنما تعتمد إلى حد كبير على ذوق سليم وطبع مسعف .

الشكوى من الإهمال البلاغة :

ولقد ظهرت الشكوى من الإهمال في علم البيان في وقت مبكر ، فوجدنا عبد القاهر الجرجاني يتحدث في أكثر من موضع عن التقصير في تحصيل هذه العلم حتى ليقول : " لا ترى في الدنيا علما قد جرى الأمر فيه بدبشا وأخيرا على ما جرى عليه في علم الفصاحة والبيان . . فانك اذا قرأت مقاله العلماء فيه وجدت جملة أو كاة رمزا ووحيا . . . وأما الأخير فهو أنا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلم أن يحفظوا كلاما للأولين ويتدارسوه من غير أن يعرفوا له معنى العلم الفصاحة " . (١)

ولم تكن الحال بعد عبد القاهر بأحسن منها قبله ، فهذا الامام أبو يعقوب السكاكي يشكو من الشكوى من أن علم البيان مع ماله " من الشرف الظاهر والفضل الباهر ، لا ترى علما لقي من الضيم ما لقي ، ولا مني من سم الخسف بما مني " . (٢) وان كانت شكوى السكاكي تختلف عن شكوى الشيخ عبد القاهر ، فالامام الجرجاني يشكو من غموض مسائل البيان عند المتقدمين ،

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٥٠ بتصرف

(٢) مفتاح العلم ص ١٧٨

ومن التقليد والجمود ، وعدم الغوص على معانى الأوائل عند المتأخرين ، ويتألم لما يظهر فى بحوث البيان من فحش الخطأ ، والذهاب مع الظنون الفاسدة .
وأما السكاكى فشكواه من تفرق مسائل البيان ، وأن أحدا لم يمهّد لها قواعد ، ولم يرتب لها شواهد ، وكل مسألة من هذه المسائل ذاهبة فى مجاهل علم من العلم "علم تراه أيا دى سببا ، فجزء حوته الدبور وجزء حوته الصبا" .^(١)

وشمر السكاكى لضبط متفرقاته ذيله ، واستنهض فى استخلاصها من الأيدى رجاله وخيله ، ومن قبله جدد عبد القاهر فى تخليص العلم من الظنون الفاسدة ، وبالحق فى الابانة والتوضيح ، ولكن الشكوى ما برحت تظهر كلما تقدمنا مع العصور ، فقد عكف العلماء والمتعلمون على ما كتبه السكاكى ، يستظهرونه ويجادلون حول الفاظه ، دون أن يفيدوا العلم بجديد . مما دعا سعد الدين التفتازانى أن يقول فى مقدمة شرحه "المختصر" عن علم البيان ، "وان هذا الفن قد نصب اليه مأوه فصار جدا لا بلا أثر ، وذهب رواؤه فعاد خلافا بلائمر ."

بلاغتنا اليوم :

ولسنا اليوم فى حال أحسن من عهد من هذه الجهود الثلاثة فيما يتعلق بهذه العلم ، فقد تغيرت الدنيا ، وتقدمت الدراسات وثبت بما لا يدع مجالا للشك ، أن دراسة البلاغة على الطريقة المدرسية وتحصيلها على أنها قوانين جافة وقواعد مضبوطة لا يفيد هذه العلم ولا يفيد طلابها ، ولا يمكن بحال أن يساعد على تنمية الملكة وتربية حاسة الإدراك . بل ربما كان له أثر عكسى ، كما هو الحال فيما نشاهده من أذواق المتعمقين فى دراسة كتب البلاغة السكاكية . ومع كل هذا لانزال مصرين على أن يقضى الطلاب أعمارهم فى استظهار طائفة كبيرة من التعريفات ، وهذا لاحصر له من التقسيمات التى لا طائل وراءها .

كيف نحدد بلاغتنا :

وإذا كان لابد من دراسة البلاغة في دائرة علمية ، فنحن في حاجة الى من ينظر ويحيط النظر في هذه الكتب القديمة ، ويمرضها لنا بأسلوب جديد ، وبطريقة جديدة أقرب الى روح الفن ، وأعود بالفائدة على الراغبين . (١) ويقول في موضع آخر :

وعندنا أمران لاثالث لهما : أما أن نضع ضوابط جديدة لهذه المعلوم (علوم البلاغة) . . . وهذه الضوابط الجديدة - على الرغم من الصيحات المتتابعة - لم نضعها . . . وأما أن نصوغ هذه القواعد التي بين أيدينا صياغة جديدة ، ونلتصق لها من كتب النقد والأدب شواهد جديدة . . . وحينئذ نكون قد قاربنا حقاً بين قواعد البلاغة وبين النقد الأدبي وصناعة الأدب . (٢)

وفي موضع ثالث يقول أيضاً ، بعد أن عرض عرضاً موجزاً للمذهبيين الأدبي والكلامي : نريد أن نحدد مواضع أقدامنا من دراسة البلاغة . . وقبل أن نحدد الوضع الذي نريده نلمح بشيء عن الأسبق التي تسير عليها دراسة البلاغة عندنا . فالأزهر والمعاهد التي تحدو حذوه لاتزال كلها تدور في فلك السكاكي ، تدرس التلخيص والايضاح مشروحين على الطريقة القديمة ، أو على الطريقة الحديثة ، وإذا كان قد جد شيء في السنوات الأخيرة فأنما هو لفظة ضعيفة الى كتب عبد القاهر

ورجال وزارة التربية والتعليم نظروا في البلاغة الضربية فنقلوها اليها حطة ، فالطريقة من هناك والامثلة من هنا ، ولقد نقرأ الكتاب المرسوم بالبلاغة والنقد المقرر على الفرقة الأخيرة من المرحلة الثانوية فلا نجد فيه أثراً لقاعدة من القواعد ، ولقد جاء في كثير من التلاميذ وهم أشبه بالضالين في بيداء لا يعرفون منها مخرجاً .

(١) قضايا بلاغية : ص ٧٥-٧٦ (٢) المرجع السابق ص ١٢٢ .

نعم تعلم اللغة يكون أجدى لو كان بالممارسة ، فيخلى التلميذ ونفسه ليقرأ ويتحدث ويحد ويلحظ فيتذوق ويكتسب . ولكن كم من الوقت والجهد يحتاجه التلميذ ليصل بهذه الوسيلة الى غايته . لو أن فى الوقت متسما ، ولو أن التلميذ لا يدرس الا هذه المادة لقنا : ان هذه أجدى طريقة ، ولكن اذا كانت المعلوم الأخرى تملأ كل وقته ، واذا كانت المدة التى يقضيها فى دراسة البلاغة مدة وجيزة ، فكيف نتوهم أنه يتمكن من اكتساب الذوق وتكوين الطقة . اننى لا أدعو الى حشون ذهن الطالب بالقواعد والضوابط ، ولكن مع ذلك لا أرى أن يخرج من المرحلة الثانوية وهو يجهل قواعد البلاغة وضوابطها . وأبعد من ذلك فى الخيال ، وفى توهم أن نثمر دراسة البلاغة ، أن نترك الأمر للمدرس . نعم ، يرى بعض الذين قضا أعمارهم فى دراسة البلاغة أن نترك الأمر للمدرس ، وفى ذلك يقول أحدهم : " ولمضى فى هذا المقام أجهر ببقية رأيي ، وهو ألا توضع كتب مقررة ، بل يترك كل مدرس ، وبخاصة فى هذه الدراسة الفنية الأدبية التى تتأثر باقليمها تأثيرا شديدا ، يترك كل مدرس ليضع بين يدي تلاميذه مراجع المذاكرة وتحصيل ما عرضه عليهم فى صورتها التى عرضه بها ، وما أهون أن يهين لهم ذلك اذا ما يسرت له الجهات الادارية سبله ، وببذل قليل مما تنفقه ثمن هذه الكتب " . (١)

وما أشك أن هذا كلام يقوله رجل لم يختلط بأوساط المدرسين ، وقد يظن أن كثيرين منهم نوابغ يستطيعون أن يجمعوا المنهج ويؤلفوا عليه المذكرات ويلقنوه بعد ذلك لتلاميذهم . والخلاصة : أن على الذين يتمسكون بمنهج المتكلمين أن يتخلوا قليلا عن تعصبهم لهذا المنهج ،

وأن يلتفتوا الى الكتب الاخرى التى ألفت على منهج آخر ، فيأخذوا منها ما يلفت هذا الجوالذى لا أجده له وصفا الا ما وصف به شعر أبى تمام ، فقد قالوا : ان أبا تمام " استكره الألفاظ والمعاني ففسد شعره ، وذهبت طلالوته ، ونشف ماؤه " .

وعلى الذين يعيشون فى أجواء باريس أو لندن أن يدركوا أن لنا بلاغة عربية مهما قيل فيها فانه لاغنى لعربى عنها ، وأن الضوابط ليست عديدة الجدوى ، بل ربما كانت ضرورية فى بعض الأحيان . ويا حبذا لو تقاربت البلاغتان ، فكان منهما مزج طيب يبقى على تراثنا القديم ، ويسير بنا فى الطريق السوى ، ويعطى الدارس ذوقا وعلمًا .^(١)

وهكذا نجد الدكتور العمارى قد رفع صوته أكثر من مرة موضحا حاجة البلاغة الى التجديد وشارحا ظروفها وما صارت اليه فى العصر الحديث . كما نجده فى دعوته الى التجديد من أنصار تجديد القديم وتأميمه بالمناسب والصالح من الجديد . فالجديد عنده يجب أن يقوم على أساس من القديم ، فمن لا قديم له لا حديد له والقديم عنده لا يصلح أساسا للجديد الا بعد تنقيته من طائفة كبيرة من التعريفات وعدد لا يحصى من التقسيمات واستبعاد مسائل الخلاف والجدل المقيم وغيره من آثار المدرسة الكلامية ، فهذا القديم - كما يقول - يجب أن " يعمر بأسلوب جديد ، وبأريقة جديدة أقرب الى روح الفن ، وأعود بالفائدة على الراغبين " . وبعد ذلك نضيف اليه مانشا " وما نراه صالحا من الجديد . " فيا حبذا لو تقاربت البلاغتان ، فكان منهما مزج طيب ، يبقى على تراثنا ، ويسير بنا فى الطريق السوى ، ويعطى الدارس ذوقا وعلمًا .

(١) قضايا بلاغية د . العمارى - ص ٥١ - ٥٣ .

(٦) الدكتور محمد نايل :

يرى د . نايل أن احياء البلاغة العربية وتجديدها يتطلب
انقلابين عظيمين : أحدهما فى البلاغة نفسها ، والثانى فى الأدب
ودراسته . أما الأول فيكون بثلاثة أمور :

أولا : إزالة الأبحاث الدخيلة التى لاصت لها بالبلاغة من منطق
وفلسفة وغيرهما ، وإبطال الآثار التى بنيت على هذا الدخيل من
الامعان فى الحصر والتحديد والتقسيم ، وإعادة تنظيم البلاغة على
أسس تتصل بالذوق والجمال والتأثير .

ثانيا : تجنب العمق الفلسفى فى طرائق كشف الأسرار والنكات
البلاغية وتتبعها بكل سبيل ، لأن البلاغة فن جميل ، وطبيعة
الفنون الجميلة لا تقبل كثرة العمق والتدقيق ، لأن ذلك يذهب
بجمالها وروائها ، ثم الاستعاضة عن هذا العمق بالمرز الواسع
لأساليب البيان الساحرة ، وأناشيد الخالدة ، فان البلاغة لا تحيا
ولا تفلح فى طبع الأذواق وتنمية المواهب الا اذا رجعت الى حظيرة
الأدب القوى الحى ، تستمد منه غذاءها ، وتستوعب من غيره ما
يتسع لها جهدها .

ثالثا : احياء الكتب التى خلفها لنا العصر الأول ، فانها لا تزال
الرائد المصدق والمرشد الموفق . تهدى الى السبيل القيم فى
درس البلاغة وفهم أسرار العربية ولطائفها ، وانما المواهب ومقلها
فهى لا تزال شاهدا على صفاء تلك القرائح ، وسلامة هاتيك الأذواق
وهى لا تزال الى اليوم تورى رونقا وحدة ، وتفيض حياة وقوة ، ولن
تزال كذلك حتى يافى الزمن طفرة جديدة ، فيأتى بشىء يزاومها
فى هذا الميدان .^(١)

ومن هذا العرض ندرك مدى التوافق بين آراء الدكتور نايل وبين آراء الدكتور المصطفى السابقة . غير أننا لا نرى أن أحياً كتب التراث من التجديد . فاحياء الكتب التي خلفها لنا العصر الأول - وهو لا شك يقصد كتب عبد القاهر وأمثالها - شئ لا نضعه ولا نعارضه ، بل نشجع عليه ونستحسنه ، ولكن أن تكون هذه الكتب هي مادة الدراسة في الوقت الحاضر فهو ما نعتري عليه ونعارضه ، لأن ذلك عود بنا الى ما قبل عهد السكاكي ، وفرق بين عصرنا وذلك العصر البعيد ، وحتى عندما قام الامام الشيخ محمد عبده في أوائل هذا القرن بتدريس كتابي الشيخ عبد القاهر في الأزهر لم يكن ذلك تجديدا وإنما كان احياء للتراث ، وربما كان عصر الشيخ محمد عبده على قربه مناسبا لتدريس هذه الكتب . أما اليوم وفي أواخر القرن العشرين ، وقد ارتفعت الأصوات هنا وهناك بتجديد البلاغة والاستفادة من المعلوم الحديثة وطبع الدراسة والكتب بطابع حديث ، فلا أظن أن وضع تلك الكتب القديمة موضع التدريس لائق أو مجد .

كان هذا هو حديث د . نايل عن البلاغة وتعميقنا عليه . أما حديثه عن الانقلاب الثاني ، وهو الانقلاب الأدبي ، فانا نورد باختصارا تاما للفائدة ، ولأن الأدب والبلاغة صنوان وتوأمين : فأما الانقلاب الأدبي فمتعم لهذا الانقلاب ، ومعين له على أحداث الثمرة المرجوة ، والغاية المقصودة ، وأعني به هنا أن يتجه الدرس الأدبي الى النقد الواسع والموازنة الخصبة بين الآثار الأدبية ،

فإننا نحسن أن تاريخ الأدب طغى فى الدراسة على الأدب نفسه
 طغيانا شديدا حتى أوشك أن يحوذاته وشخصيته ، وعاد
 الأدب متخيا نظرياته وتراجمه التاريخية ، يتسع فيها ويسرف ،
 فإذا جاء الى النصوص الأدبية مربها سراعا كأنه لم تكن هى
 الغاية ، حتى خلا من اللذة والمتعة التى كان يجب ألا تفارقه
 أبدا ، فحياة الأدب المصحح فى أن يكون حظ التراث الأدبى
 فيه هو الغالب فى الدرس ، وأن يقف الدارس عند حسناته
 وسيئاته واحدة فواحدة مع النقد الحر والموازنة الواسعة ،
 فإنه بذلك يصبح أدبا حقيقيا ممتعا خصبا ، يخزن الأديب
 والناقد ، ويمين البلاغة على مهمتها أبلغ عون وعلى أكمل
 وجه .^(١)

(١) البلاغة بين عهدين - ص ١٠ .

(٧) الدكتور كامل الخولى :

يرى د . كامل أنه لكي تتيح البلاغة فنا جميلا يجب مراعاة خمسة أمور :-

١- يجب أن تتصل البلاغة العربية اتصالا وثيقا بالنبع القرآنى الفياض الزاخر بشتى الصور البلاغية ، ففى ذلك الاتصال اصداد البلاغة بالماء الذى أبقى لها الرى والنماء وحفظ لها روح الفن وسحر الأدب ، ويوم أن حال المتأخرون بينها وبين هذا النبع وقصروهما على مثلهم المرددة الموروثة جمدت وجف ماؤها وذهب رونقها وفقدت جمال الفن وروعة الأدب .

٢- اذا أردنا أن ندرس الصورة البيانية فيجب أن ندرسها لادراك أثرها الفنى الأدبى ، وذلك مثلما فعل عبد القاهر فى التمثيل والرمانى فى الاستعارة ، وبهذا النهج تتضح الصلة أمام الدارس بين دراسة البلاغة والأداء الميل .

٣- يجب أن نكثر من الموازنات الأدبية فى البلاغة بين الصور المختلطة فى الأداء والخواص مع بيان الأثر النفسى للتعبير الأدبى ، وألا يكون همنا الى الضوابط الجافة ، والاسراف فى تمييز الحدود والرسوم ، والرد على الشبهات وتفصيل الاعتراضات حتى نستطيع أن نخلق جوا من الجمال يهيمن على فن البلاغة ويوحى الى من يدرسها بأنه يمارس فنا يعينه على ادراك الجمال فى الكلام الأدبى ويأخذ بيده الى التعبير الرائع الجميل .

٤- يجب أن نحى منهج المدرسة الأدبية القديمة التى تتمثل فى نهج الخطابى وعبد القاهر فى دراسة النظم ، ودراسة عبد القاهر وأبى هلال للصورة البيانية ، فى ظل البيان المعجز والفيض الزاخر من شتى الصور بالحياة والجمال البيانى ،

عسى أن يكون ذلك لافتا لنهج قوييم فى دراسة البيان تمت معه
البلاغة واكتملت أصولها .

٥ - يجب أن نجرد المباحث البلاغية من النحو الخالص الذى
وضع بذوره عبد القاهر ، ومباحث الضيق كالدلالات والجامع
وغيرهما ، وجميع المباحث الفلسفية التى وشحت بها الشروح ،
وإذا التمسنا أصول البحث البلاغى فى منابمه الأولى وعرضنا
جوهره بالصورة التى يتقبلها العصر الذى نعيش فيه بلسان الأدب
ونذوق الناقد على نحو يقربه من الأدب والنقد ويدنيه من الفن
والجمال نكون قد أسهمنا بحظ محدود فى بعث البلاغة وأحيائها^(١).

وإذا أمعنا النظر فى رأى الدكتور كامل الخولى رأينا أنه أيضا
من أنصار أحياء التراث وبعث القديم ومن المعجبين بالمدرسة
الأدبية القديمة ونهجها .

وهو أيضا يرى تخليص القديم من الضوابط الجافة والاسراف فى
تمييز الحدود والرسوم والرد على الشبهات وتفصيل الاعتراضات
وغير ذلك مما جعل كتب المدرسة الكلامية الموروثة (ضررها أكثر
من نفعها) .

ولذلك فهو يرى أنه " إذا التمسنا أصول البحث البلاغى فى منابمه
الأولى ، وعرضنا جوهره بالصورة التى يتقبلها العصر الذى نعيش
فيه نكون قد أسهمنا بحظ محدود فى بعث البلاغة
وأحيائها " .

وأقول : انه لا يكفى بعث البلاغة وأحيائها ، فان هذا - كما
قال - حظ محدود نعطيه لبلاغتنا ، ولكن لابد بعد أحيائها
من إضافة الجديد المناسب اليها ،

(١) أثر القرآن فى تاور البلاغة العربية ص ٢٣٨ - ٢٤٤ بتصرف .

حتى تستطيع أن تواكب الزمن وتأخذ مكانها اللائق بها بين
علوم الأدب واللغة .

والجديد في رأى الدكتور كامل أنه نبه الى نقطة أغفلتها
الآراء السابقة ، ولا أظنها أغفلتها الا لبدايتها وأنهما بالضرورة
من أسس البلاغة وأسباب وجودها ، ذلك هو اتصال البلاغة
اتصالا وثيقا بالنبع القرآنى ، فذلك أمر لا ريب فيه ولا جدال .

وأعود فأقول : ان هذه الآراء ، وما سبقها من بحوث
ومحاضرات ، انما كانت بدايات طيبة وبنوادر موفقة ودعوات صادقة
لتجديد البلاغة ، وكان لها ولا شك أثرها فى انعاش قضية
البلاغة العربية ، وإشارة انتباه المهتمين بشأنها الى وجوب
تجديدها .

ومن أهم البدايات التى كان لها الأثر البالغ فى انعاش
قضية البلاغة " حركة الرسالة " تلك المعركة البلاغية التى دارت
على صفحات مجلة الرسالة ، وكان لها فى ذلك الوقت طينتها
ومداها . وهى ما سنعرض له ان شاء الله فى الفصل القادم .

الباب الثاني

الفصل الثالث

حركة الرسالة

تحدثنا فيما مضى عن أهم البحوث والمحاضرات فى البلاغة وتجديدها وعرضنا آراء بعض الأساتذة الذين يشتغلون بتدريس البلاغة فى الجامعات وما سبق ذلك من مبادرات ومحاولات . وقلنا ان ذلك كله انما كانت بوادر وبدايات ومحاولات لنها قيمتها فى تجديد البلاغة والنهوض بها .

ومن أهم تلك البدايات : حركة الرسالة " تلك المعركة البلاغية التى قامت على صفحات مجلة الرسالة عام ١٩٤٦ (وما بعده بين الدكتور على الممارى والاستاذ الخولى وغيرهما ، فآثرت ثمارها ، وحركت قضية البلاغة من سباتها ، وكان آثارها أن عكف الاستاذ أمين الخولى على كتابه (فن القول) الذى وضع فيه تخطيطا ومنهاجا جديدا للبلاغة العربية . وهذا بالإضافة الى كتاب دافع عن البلاغة للاستاذ احمد حسن الزيات الذى كتبته فى مواجهة تلك الموجة التى تهاجم بلاغتنا ولغتنا ، وكان على رأس من ركبوا هذه الموجة سلامة موسى فى كتابه " البلاغة المصرية " .

وقبل أن نخوض فى غمار كل ذلك وغيره نعود الى حركة الرسالة التى حركت قضية البلاغة من سباتها ، وجعلتها حديث الرأى العام فى ذلك الحين - وسأعرض هنا هذه المعركة كما وردت فى أعداد مجلة الرسالة دون تدخل منى الا بقدر ما يقتضيه البحث وما يعين لنا من تعليق .

والذى حرك هذه المعركة البلاغية واشعل فتيلها هو الدكتور على الممارى وذلك أن الاستاذ أمين الخولى حينما بدأ القاء دروسه البلاغية فى كلية الآداب كان متشعبا بفكرة التجديد فى علوم اللغة العربية وخاصة البلاغة ،

فكانت محاضراته تتسم بحرية التفكير والخروج عن الطابع المتعارف عليه ،
وقتئذ في الدراسات البلاغية . . لكنه - وقد كان في مبدأ حياته التجديدية -
ارتكب بعض الأخطاء وأملأها لطلابيه ، فها ^{ذلك} بعض العلماء ، وتصدى له
العماري ، والطنطاوي ، ودافع عن الشيخ أمين الخولي ، الأستاذ المرحوم
كامل شاهين ، ودارت بين الطرفين معركة بلاغية حامية الوطيس .
وقد بدأ الدكتور العماري هجومه بمقالات عدة عنوانها :
علوم البلاغة في الجامعة .
واليك المقال الأول :

علوم البلاغة فى الجامعة

يحلوا لبعض المعاصرين أن يسموا أنفسهم مجددين ، كل فيما يزاول من علم أو فن ، ولعل هذا الادعاء عارض نفسى يعرض لكثيرين فى كل عصر ولا سيما من يفرغون بالمهرة ، ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا .

وتجدد هؤلاء عجب من العجب ، فما هو الا أن تعن فكرة فى رأس احد هم حتى يطير ، ويكاد يجن فرحا وغرورا ، ولو عرف قدر نفسه وتأنى قليلا لا درك أنما خيل له ، وليس هو التجديد ، ولكنه قصور الفهم ، وضلال العقل ، وعمل الغرور . وربما اكتفى أحد هم بدرس كتاب أو كتابين فى المادة التى يريد أن يجد فيها ، ثم بعد ذلك يشهد العالم على أن العلماء قصروا ، وانهم لم يفهموا ، ولولم عن الفهم ، ولموسع دائرة اطلاعه لقد كان وجد فى كتب القوم ما يرد نزعتهم ، ويطفئ شهوتهم .

وقد منيت علوم البلاغة فى هذا العصر بدعاة التجديد ، وهى فى شديد الحاجة الى من يجدد أخلافتها ، ولكنها لا تنظر الا بالدعاوى المعريضة الكاذبة وتستطيع أن تقول : ان التجديد فيها وقف بعد الامام الجليل الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، وان ما بذل بعد ذلك ليس الا محاولات بسيطة ان لست بعض النواحي فى هذا الفن فانها لم تخلص الى اللباب . وان فى (دفاع عن البلاغة) للاستاذ الزيات ، وفى مذكرات فى علوم البلاغة (لفضيلة الشيخ سليمان نوار ، وفى (التصوير الفنى للقرآن) للاستاذ سيد قطب ، أقول ان فى هذه الكتب لوثبات تبشر بخير ، وهى بعد جديرة بالتقدير .

ويمكن أن ننظر فى محصول هذا العصر البلاغى فنجد بعض العلماء قنع بأن يجمع الاشتات ، ويؤلف المتفرقات ، ثم يدعى أنه فى البلاغة ألف ، وبعضهم يعمد الى الورق الثقيل ، والطبع الانيق ، ليقول انه فى البلاغة جدد .

ولعل شر الثلاثة هؤلاء الذين يفترون على العلم ، ويكذبون على القدامى ، ويكثرون من ثلبهم وتنقصهم ، ليقال انهم وحدهم الذين عرفوا وقد جهل الناس ، ووصلوا وقد تخاذل العلماء .

بين يدي الآن مذكرات في علم المعانى أسلاها الأستاذ الشيخ امين الخولى على طلبته في الجامعة المصرية ، وفيها كثير مما يستحق أن يناقش ، ولكنى رأيت أن يشركنى القارئ في هذا الأسلوب الذى يدرس به هؤلاء الأعلام . وانما يعنينى هذا الأمر لأن البلاغة فن من الفنون قبل أن تكون علما من العلوم ، ومادامت فنا فهى تتطلب ما تتطلبه الفنون من حسن العرض وجمال التنسيق وخلق الذوق الأدبى فى المتعلمين ، ولهذا كانت حاجتها الى الاكثار من النماذج العربية الصحيحة الفصيحة ، ومن العرض المتأنق الجميل الحاجة القصوى . ولكن ماذا نقول حين نرى أستاذ البلاغة فى الجامعة المصرية يعرض هذا الفن ، كما يعرض واعظ العامة موعظته فى أسلوب عامى ركيك .

ولنقتصر الآن على عرض لثلاث آيات من كتاب الله الكريم :

١ - " وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم "

يشرحها الأستاذ هكذا . . . (وبعبارة أخرى يريد الله أن يقول : هو محمد ده يطالع ايه ؟ محمد هذا والرسل من قبله مجرد سماعة بوسته . . . هو مرسال زى المراسيل الللى قبله . . . يجي ويروح ويموت وينقتل . . . الخ . . . فاذا حصل شئ من هذا يبقى خلاص انقطع ما بينكم وبين الله . . . هو يمنفهم لا على نكوصهم عن محمد ، بل لنكوصهم من أجل موت محمد " ولذا يقول : أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . . . الخ انتهى بنهيه وفوضه !! . صدقنى - أيها القارئ - أن هذه عبارته ، فهل هذا هو التجديد ؟ ! هذا كلام يمكن أن نتصور صدوره من واعظ يلقي عظه على جماعة من البرابرة

فيضطر الى أن ينحدر هذا الانحدار ، على أنى واثق من أن مثل هذا الواعظ يعف لسانه وذوقه عن هذا الهديان .
ولكن ما الحيلة والرجل من كبار المجددين فى علوم البلاغة ، أليس التجديد هو مخالفة الأقدمين ؟ أليس التجديد هو البساطة والحذلفة ؟ وما المانع من أن يلقي على طلبة الجامعة أن محمدا وعيسى وموسى وابراهيم وجميع الرسل ليسوا الا " سعاة بوسه " ؟ وهل فى السنسنة البلاغيين أصدق وأبسط وأحسن من هذا التعبير الجميل الظريف الخفيف ؟

٢ - قال الله تعالى : " وما أنت بمسمع من فى القبور ان أنت الا نذير " وقال الشيخ نفعا الله به ويعلمه آمين : (انت مش حاتسمع اللى فى القبور والحقيقة انه هوه مش قدام أموات ، وانما ناس ألواح وسهايم ، والقرآن بيقوله له : انك حريص قوى على هدايتهم ، والاحسن انك ماتحرصش ككبر على هذه الهداية . قال له ذلك لأنه شاف انه كاد لفرط عنايته بلسان يهتدى هؤلاء " أن يخرج عن حده فينس أن مهمته هى مجرد التبليغ هوه عمال يحرق فى دمه مع الناس دول ، ووفاءه لمهمته هو الذى يحمله على الاسراف فى الالحاح ويهز فى هذه الألواح ، ويحاول أن يبعث فيهم نفحة من الهداية بأى ثمن . فقال له الله : يا أخى انت حارق نفسك ليه . . . انت مانتش حاجة أبدا الانذير تنذر من ينذر ، وتخوف من يخاف ، وتعلم من يتعلم ، وتنبه من يتنبه ، ودول أموات . . فالأحسن أنك تريح نفسك) .

والله ما أدري ماذا أقول ؟ وانى لخائف أن أقابل هذا الكلام بما هو جدير فيستثقل القراء ويستوردون كلماتي ، ولو أن فى الجامعة قوما يحاسبون المدرس لا تهموا هذا الشئان بتهم أقلها افساد أذواق التلاميذ .
على أن شرحه بعد ركائته وتهافته ليس موافقا كل الموافقة لما تنطق به الآية ، وادراك ذلك سهل ميسور .

٣ - وقال عز وجل : " وإن قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله " .

ويقول الشيخ : (الحوار في هذه الآيات بين عيسى وبين الله حوار خيالي محض صور وقوعه بعد أن انتقل عيسى من هذا العالم الذي نحن فيه بدليل " فلما توفيتني " وكأن الله يقول لهم : انتم بتقولوا عيسى ده اله ، وأنه هو الذي أمركم انكم تعبدوه . . . نجيبه ؟ نسحبه ونسأله ؟ ثم صور بعد ذلك أنه لو قام وبعث إلى الحياة لدار بينه وبين الله هذا الحوار : الناس الباردين دول . . . هل انت قلت لهم يا عيسى انك اله ؟ قوللهم ؟ قوللهم يا أخى) !!

بمثل هذه الأساليب البارة الغاتنة يلقي مدرس البلاغة في جامعة فؤاد الأول وسيد المجددين كما يدعى . . . يلقي دروسه ومن الانصاف أن نذكر أن الاستاذ الفاضل أدرك أخيراً ما في هذه الأساليب من ضعف وسخافة ، فأشار على تلاميذه أن يمروا بالقلم على بعضها ، ولكنه بعد قلم خفيف ، ان مر على دقاتهم فلن يمر على أفكارهم وأن هانهم .

الشيخ على الطنطاوى يتهم الشيخ أمين الخولى
بالكفر والاحاد

ماكاد ت المقالة الأولى للدكتور العمارى تنشر حتى طلقها الشيخ على
الطنطاوى واتهم الشيخ أمين بالكفر والاحاد . وفى ذلك يقول موجهها
حديثه الى الدكتور العمارى : . . .

قرأت ما كتبت ياسيدى فى العدد ٦٨٧ ، فقل لى سألتك بالله : أنت
تجد أم تهزل ؟ وهل تنقل هذا الهذيان عن أستاذ فى الجامعة أم عن
حشاش فى القهوة ؟ وهل هذه هى دروس الجامعة التى نرسل اليها أبناءنا
ليفتروا من علوم أساتذتها ما يعودون به معلمين فى مدارسنا ؟ وهل هذا
هو دين التجديد الذى بعث به نبي البلاغة فى آخر الزمان ؟

وإذا نحن احتملنا الركافة والمجزأفاحتل الكفر من هذا الشيخ الذى
يقرر أن الله قال لمحمد : ياأخى انت حارق نفسك ليه ؟ لقد عرفنا من
جعل لله صاحبة وولدا ، ولكننا لم نعرف قبل اليوم من جعل لله أخا ، أفلا
يرضى الشيخ الآن يكون مجددا فى الشرك بالله ؟ تعالى الله عما يقول
المشركون علوا كبيرا ؟ ولا يعجبه الا أن يفتح له الى جهنم باب خاص .

وماذا يقول صدقنا العميد الدكتور عزام وهو العالم البليغ المؤمن فى هذا
الجهل والعمى والكفر ؟

أما أنا فأقول : أعيدوا أولادنا الى باريز ليعلموا فيها العربية كما كانوا
فان الجهل الذى يعودون به من باريز أهون من الكفر الذى يرجعون به
من الشيخ أمين الخولى .

الاستاذ كامل السيد شاهين يرد على

الاستاذ بين العمارى والطنطاوى

كان هذا المقال بعنوان : علوم البلاغة بين القدماء والمحدثين " وقد استهل المقال بقوله : مدرسة الرسالة لها طابعها الخاص فى المساحة والنقاش على هذا أسست ، وامتحنتها الأيام بضروب من المحن ، فثبتت على الزعازع ، وانتصرت على الأغراض والأهواء ، يعلم ذلك من تابع الرسالة منذ مولدها الميمون الى حاضرها الزاهر ، فالرسال للجميع بلا تفضيل ولا اىثار ، لأن البحث والدرس يلدان الحقيقة التى كانت نشدة أصحاب العقول . . . ثم يرد على العالمين الحليين فيقول : فليسمح لى الزميلان الطنطاوى والعمارى أن ألقت نظرهما فى رفق الى مزالق ماكنت أحب لهما أن يتورطا فيها أو ينحدرا اليها .

فقد راع الأول أن يقول أستاذ البلاغة فى الجامعة : الله يقول لنبيه : يا أخى انت حارق نفسك ليه ؟ وراح يزعم أن هذا اشراك وكفر ، ويستمدى على الجامعة والجامعيين ، ويشير الناس ليتداركوا أبناءهم أن يجرفهم تيسار الشرك والالحاد . بالله هون عليك يا على فليس ثمة شرك ولا كفر وانت اخبر الناس بذلك وأدراهم ، ان هذه الكلمة قد فقدت حقيقتها فى أفواه الناس . ألم تسمع الفلاح يهز حمارة ويقول : يا أخى سر ، أفتراه قصد أخوة النسب أو الرضاع أو الآدمية . أو الحنارية . . لا . . انما هى كلمة تحنن وتعطف . وشبه بهذا قول السائق لخصاله : يا شيخ . والنظائر فى هذا أكثر من أن تحصى ، فلا ترع ولا تستغفر ، وابق على الجامعة والجامعيين ، ودع حديث الكفر والالحاد ، فقد جنت منه مصر ثمرا مرا فى دهر طويل كانت حرية أن تصرفه فيما يفيد ويفنى . ثم اللغة العربية ليست لغة الايمان والاسلام ، فقد سبقت الايمان والتوحيد بقرون طويلة . فأن أبيت الا أن تخرج لغة مؤمنة سلمة موحدة فدونسك فامنع

دراستها في كلية اللغة ودار العلوم بمصر ودار العلوم ببغداد ، ثم ادعنا
وانا ان شاء الله لمستجيبون .

وأما أنت يا عمري فكنت بمنجاة من اللوم إذ عرضت للأسلوب الذي تدرس
به البلاغة في الجامعة ، فلكل امرئ فيما يحاول مذهب .

وراح الأستاذ شاهين يبرر ما حدث بأنها محاضرات ألقيت على طلبة
صغار لم يتعدوا مرحلة التعليم الثانوي الا منذ قليل ، وأنه لا بأس أن يكون
هذا الأسلوب أداة التعليم في الجامعة ، وأن الأسلوب العامي مادام لم
يكتب في كتاب وانما يلقي في درس في حجرة فلا غبار عليه

وهذه كلها مبررات واهية ، وأعدار أقبح من الذنب .

هذا وقد شعر الأستاذ الخولي بخطئه ، وأحس ركافة هذه الأساليب
وضعفها ، فأشار على تلاميذه بشطبها . " ومن الانصاف أن نذكر أن الأستاذ
الفاضل أدرك أخيرا ما في هذه الأساليب من ضعف وسخافة فأشار على تلاميذه
أن يملأوا بالقلم على بعضها " (١) .

أما الشيخ علي الطنطاوي فقد رجع عن اتهامه بالكفر والالحاد للشيخ الخولي
وأصدر بذلك بيانا على صفحات الرسالة جاء فيه : " وأنا ما كتبت الذي كتبت لأنال
من الشيخ أمين الخولي الأستاذ في كلية الآداب ، وما بيني وبينه صلة ولا معرفة
ولم أروجه الامرة واحدة منذ أسبوع ، فلا يعقل أن يكون قصد ، تحقيره هو
بالذات ، أو ذمه والقدح به . فاذا فهم أحد من الذي كتبت أنه أرمى السب
هذا فأرجوا أن يصحح فهمه ، وأن يعلم أنني لا أبخس عالما قدره ، ولا أجد
فاضلا فضله " .

وهكذا نجد الطنطاوي انسحب من المعركة بعد مقاله الأول . أما العمري
فقد استمر في المعركة .

العماري يتصدى لآراء الخولسى

فى علمى البيان والمعانى

فى المقال الأول نقد العمارى أسلوب الخولسى فى تدريسه البلاغة فى الجامعة ولكنه هذه المرة ينقد آراء الشيخ أمين الخولسى فى مذكراته فى علمى البيان والمعانى والتي كان يلقيها على طلاب كلية الآداب حينئذ .
وقد بدأ العمارى نقده للخولسى فى علم البيان ، ورأى أن " الفكرة المتسلطة عليه فى هذا الفن أن يجعل لكل عبارة من عباراته منبعاً لمعان نفسية يجب أن تثيرها فى نفس المتكلم أولاً ، وفى نفس السامع ثانياً ، وهو لذلك يتكلف العنت ، ويركب الشطط فى تخريج النصوص الأدبية ، وهو لا يؤمن بالماديات الصرفة فى هذا الفن ، ويكاد ينكر المحسوسات التى لا تثير لمعان نفسية . . . " فمثلاً :

أ - فى قول ابن المعتز :

ولا زور دية تزهو بزرقتهسا بين الرياض على حمر البواقيت
كانها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت

يقول الشيخ الخولسى :

١ - المشبه : زهرة البنفسج قائمة على ساقها .

والمشبه به : أوائل النار فى أطراف كبريت .

وإذا أردنا أن نحلل عطية التشبيه لقلنا إن شعر للبنفسج بجمال فترجم عنه ، ونحن نفهم أن الجميل قادر أن يلفت الى معنى وراء وجوده المادى ، لكن الشاعر لم يتخطى الوجود المادى ، ونار اليها على أنها زهرة لها حجمها الخاص ، ولونها الخاص ، وقال كلاماً شرح به هذا الوضع المادى " كأوائل النار فى أطراف كبريت " . . .

وراح الأستاذ الخولسى يبدى رأيه وملاحظاتة على هذا التشبيه :

اولاً : ما هو الشئ المعنوى الذى لفت اليه الزهرة الجميلة ؟

لا شئ . زهرة البنفسج هذه يمكن أن نحسن أمانها بنوع من الانصراف

عن التنبيه واليقظة ، فإذا شبهتها بانسان حالم تكون قد تدوقت
للون طعما خاصا من طعموم الحياة ، وبذلك تكون المادة قد
أفلحت فى ايجاد المعنى . . أما وصف اللون بلون آخر فلاشئ .
ثانيا - نلاحظ أن الشاعر نقلنا من جو فسيح الى جو خائق . فليست
هنا قوة فى الاحضار ، وانما هى غفلة وسوء تصرف .

علق أستاذنا العمارى على هذا الشرح والتفسير قائلا :
قد يبدو هذا الكلام مقنعا ورائعا لأول وهلة ، ولكن يجب أن نتذكر حقيقتين
الأولى : أنه يدرس التشبيه . ومعنى ذلك أن يقف عند تشبيه الشاعر هل أطيب أم
أو أخطأ فى الحاق هذا اللون بذاك . أما أن الشاعر لم يلتفت الى ما يبهجة
البنفسج من المعانى فى النفس ، والتفت الى شئ مادي بحث فهذا مالا دخل
له فى صحة التشبيه أو فسادة .
الثانية : أن البيان يبحث عن الأساليب الفنية التى تؤدى بها المعانى ، وما دام
يبحث عن الفن فهو يجده فى المعانى البحتة ، ويجده كذلك فى الماديات
البحتة ، وليس أحدهما أولى من الآخر فى ابراز الفن البيانى فيه . وعلى ذلك
فهم علماء البلاغة ماورد من هذه الأمثلة .

ويستشهد الدكتور العمارى بكلام لعبد القاهر فى هذا الموضوع :
" ولعلنا نأتى بالقول الفصل حين نسوق مقاله امام البلاغيين الشيخ عبد القاهر
الجرجاني فى هذا الموضوع بعينه . . . " وهكذا اذا استقرت التشبيهات وجدت
التباعد بين الشيئين كلما كانت الى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب
، وكان مكانها الى أن تحدث الأريحية أقرب . وذلك أن موضع الاستحسان ومكان
الاستطراف ، والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ، والمؤلف
لأطراف البهجة ، أنك ترى بها الشيئين مثلين ، ومؤلفين مختلفين ، وترى
الصورة الواحدة فى السماء والأرض وفى خلقه الانسان وخلال الروض وهكذا اطراف
تنثال عليك اذا فصلت هذه الجملة ، وتتبع هذه اللوحة ، ولذلك تجد تشبيه
البنفسج فى قوله :

ولا زوردي تزهو بزرقتها — بين الرياض على حمر اليواقيت
 كأنها فوق قامات ضعفتها — أوائل النار في أطراف كبريت
 أغضبوا عجب ، وأحق بالولوع وأجود من تشبيه النرجس بمداهن در هشوهن
 عقيق . لأنه اذ ذاك مشبه لنبات غض يرف ، وأوراق رطبة ترى الماء منها
 يشف ، بلهب نار مستول عليه اليبس ، وبك غيه الكلف ، ومبنى الطباع
 وموضوع الجيلة على أن الشيء اذا ظهر من مكان لم يعتد ظهوره منه وخرج
 من موضع ليس بمعدن له ، كانت صباية النفوس به أكثر ، وكان الشغف منها
 أجدر (١) .

وبعد كلام عبد القاهر يعوده العماري الى توضيح رأيه وبيان وجهة نظره .
 ان الشاعر أراد أن يبين زرق البنفسجة التي نفخر بها على اليواقيت الحمر
 ففكر في شبيه لهذه الزرقة . وهنا يتفاضل الشعراء . . فمنهم من يكون قوى
 اللفظ ، فسرعان ما يقع على شبيه ولو كان نادر الحضور في الذهن ، ومن
 هنا تجيء طرافقه وجدته . . ومنهم البليد الذي لا يصل الى الشبيه الا بعد
 حين ، وربما لا يصل .

ويضرب العماري مثلا لذلك بقصيدة جرير مع عدى بين الرقاع . . . وأنه
 اذا كان من الميسور لأستاذ البلاغة في الجامعة أن يتهم الشيخ عبد القاهر
 في ذوقه فأظن أنه ليس من الميسور أن يتهم جريرا الشاعر فاليه نسوق
 القصة التالية :

يحكى أن جريرا قال : أنشدني عدى : عرف الديار توها فاعتادها ،
 فلما بلغ الى قوله : تزجى أغن كأن ابرة روقه . . رحمته وقلت : قد وقع ،
 ما عساه يقول وهو أعرابي جلف جاف ؟ فلما قال : قلم أصاب من الدواة مدادها .
 استعالت الرحمة حسدا . قال صاحب الايضاح : فهل كانت الرحمة في الأولى
 والحسد في الثانية الا أنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر مالا يحضر له
 في أول الفكر شبهه وحين أتمه صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف .
 وأحب هنا أن أقرر ما قرره أستاذنا العماري من أن طرفي التشبيه قد

يكونان حسيين أو معنويين أو مختلفين ، وأن تشبيه المحسوس بالمحسوس قد يأتي أحيانا فى غاية الروعة والجمال . وأوائل النار فى أطراف كبريت منظر له روعته وجماله ، غير أننا ألفناه ، لكن الأطفال لم يألفوه بعد ، فهو بالنسبة اليهم وفى حقيقته ، منظر جميل جذاب خلاب ، وخاصة اذا كان فى المساء ، لذلك تراهم يتحينون الفرص لاختلاس طبة الكبريت ، والانزواء فى مكان ما ليلعبوا به ويشعلوا أعواد الواحد بعد الآخر . . . واذنا نظرت فى عيونهم عندئذ لوجدت السعادة والبهجة تشعان منها ، وهذه السعادة بمنظر الكبريت ليس وراءها ادراك معنى جميل رائع ، وانما هى سعادة ناتجة من هذا المشهد المحسوس الذى يراه الطفل أمامه . لذلك فان هذا التشبيه جميل ورائع على الرغم من أن المشبه به حسى لا معنوى .

ونعود الى الدكتور العمارى حيث يقول :

وماذا يقول الأستاذ فى قوله الله تعالى : (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) ؟ لقد ذكر أن تشبيه زرقة البنفسج بأوائل النار فى أطراف الكبريت ليس شيئا ، لأنه ينقلنا من جو الزهر والجمال الى جو اللهب والاختناق ، ولم ينظر الى فنية التشبيه ، ولا الى ندرته . فهل يقول فسى هذا التشبيه فى الآية الكريمة انه ليس شيئا - ايضا - لأن القمر مسكنه فى السماء ، والعرجون فى الأرض ، والقمر من فصيلة الكواكب التى زين الله بها السماء ، والعرجون نوع من الحطب اليابس ، والقمر مثال الهداية والعلو ، والعرجون شئ تافه حقير لا تكاد تظهر له فائدة . . . ؟

وهل تخسر البلاغة القرآنية شيئا اذا وقف الأمر عند حد تشبيه القمر يحتضر فى آخر الشهر ، وحين يضعفه المسير ، وينال منه السرى فندق وينحنى ويصفر . . . بهذا العرجون الذى دق وانحنى واصفر ، ولا يلاحظ شئ وراء ذلك مما

توحىه صورة العرجون ؟

ومن الممكن أن نتكلف جوا ملائما لكل من المشبه والمشبه به ، ولكن هل جو العرجون وبينسة المدق واضمحلاله ، يشبه جو القمر حين يبلغ آخر الشهر ؟

لا بد - اذن - أن نكون مع علماء البلاغة حين يرون أن ليس القصد الأول من التشبيه إثارة جو عام بين المشبه والمشبه به ، وأن التشبيه منبع لتداعى معان يجب أن نلتصق آثارها فى النفس ، بل يكفى أن نقول - معهم - أن : التشبيه بالمحس المشاهد يحدث نوعا مطمئنان فى النفس ، وأن السامع قبل أن تذكر له التشبيه قد يكون المعنى عنده غامضا مضطربا ، أو موضعا للشك ، حتى اذا شبه له استقر المعنى فى نفسه ، وكان أكثر اطمئنانا ، وأثبت يقينا .

فانك - كما يقول البلغاء - قد تبالغ فى المعنى ، ولا تدع مزيدا فى الاسراف ، فتدعى أنه بلغ نهايته ، فلا تبلغ من اقناع السامع ما تبلغ حين تشبه بشئ محس ، ثقفت عنده النفس ، ويطمئن اليه الخاطر . فأنت تقول مثلا : ان فلانا أخفق فى عمله ، ولم يحظ منه بفائدة ، ولا عاد منه يعائدة . ولكن هذا كله يتضائل أمام أن نقول : فلان كمن يخط على الماء .

ب - حين تسمع قول ابن الرومى :

كل امرئ مدح أمراً لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه
تأخذك موجة من الشك فى صحة هذا المعنى ، وتظهر عليك - بسادئ ندى بدء - أمارات الاستغراب . ولكنك حين تسمع بعد ذلك :
لولم يقدر فيه بعد المستقى عند الورود لما أطال رشاه
وترى أنه شبه الممدوح بالبئر فيها الماء ، وكما كان الماء أبعد احتياج المستقى الى أن يطيل الحبل الذى يرفع بواسطته الماء . . حينئذ تتبدد الشكوك من نفسك .

وانما سقت هذه الجفلة من القول لأعجب من الأستاذان كيف ينكر على البلاغيين أن يجعلوا من أغراض التشبيه (بيان امكان المشبه) . . أى بيان أن المشبه أمر ممكن الوجود ، وذلك اذا كان أمرا غريبا يمكن أن ينافر فيه ويدعى امتناعه ، فيعلق على قول أبى الطيب المتنبى الذى استشهد به البلاغيون لهذا الغرض :

فان تغق الأقسام وأنت منهم فان المسك بعض دم الخزال
بقوله : كلامهم فى أن الغرض من هذا التشبيه بيان أن وجود المشبه ممكن ،
مرفوض . . لأن الأديب لا يضع نفسه موضع المناقش ، ولكنه يفرض نفسه على الناس ،
وكل ما هنالك أن الناس من طبيعتهم انكار هذا الامتياز . . .
والمعنى فيه شئ من الغرابة فى أنه واحد منهم ، وفاق عليهم ، ففسال
هذا لا غرابة فيه لأن له نظائر وشواهد ، . . . و .

رد العمارى بأن هذا كلام غريب ، ووجه غرابته :
أنه ينفى الشئ ثم يشبهه فى وقت واحد ، وسطر واحد ، فهو يرفض كلام
البيانين فى الغرض من هذا التشبيه بدعوى أن الشعراء قوم متخطفسون ،
ويفرضون أنفسهم على الناس ، وعلى الأذواق ، ولكنه يحس فى الوقت نفسه
أن من طبائع الناس انكار مثل هذا الامتياز الذى ذكره المتنبي ، فالشاعر
يقول لا غرابة .

وعلماء البيان لا يقصدون من بيان امكان المشبه أكثر من أن المتكلم يأتسى
بقضية تقرب الى الأذهان أن هذا جائز وممكن ، مادام شبيهه ممكنا وواقعا . .
عرض لى كل ذلك حين ابتدأت أقراء (مذكرات الشيخ) فى علم البيان
فما كدت أنتهى من السطور الأولى حتى وجدت فى فقرة واحدة أغلاطا أربعة
ولمست أغلاطا لغوية ، ولا أغلاطا نحوية حتى يمكن التسامح فيها خاصة أن
الشيخ كثيرا ما يلجأ الى العامية ، والى العامية الساذجة ، ولكنها أغلاط
علمية ذات ضرر كبير على عقول الطلاب الذين يعدون أنفسهم ليدرسوا هذه
البلاغة لأبنائنا .

قال الشيخ : (هم يقولون ان بعض التعابير أوضح من بعض ، فعلم البيان
هو الذى يبين درجات هذا الوضوح ، فالجملة تتكون من أجزاء سليمة ، وهذا
ما يكفه علم النحو ، صالحة للسكنى ، وهذا ما يكفه علم المعانى . هذه الجملة
ذاتها يمكن أن تعرض عرضا متنوع الانماط ، وهذا ما يكفه علم البيان) .

فأولا = ليست وظيفة علم البيان البحث في درجات وضوح التعبيرات ، وأنه لا ينقص هذا العلم أن نقول : ان مباحثه تقتصر على معرفة أن كثير الرماد أوضح أو أقل وضوحا من مهزول الفصيل في الدلالة على الكرم ، أو أن التشبيبه والاستعارة مختلفان في وضوح الدلالة . ولكن لهذا العلم أبحاثا كثيرة قد يكون البحث في وضوح العبارات أيسرها .

ثانيا = قوله (الجملة تتكون من أجزاء سليمة ، وهذا ما يكفه علم النحو) كلام فاسد ، ذلك أن النحو - وقد حددت وظائف المعلوم تحديدا دقيقا - لا يبحث في سلامة المفردات ، وإنما يبحث في ذلك علم الصرف ، أما وظيفة النحو فالبحث عن سلامة التركيب . هذا شيء يعرفه من له أدنى المام بموضوعات هذين العلمين .

ثالثا = كون الجملة (صالحة للسكنى) ليست وظيفة علم المعاني ، ذلك أن صاحب المعاني يعنيه - اذا اردنا أن نلجأ الى الاستعانة بالتشبيه - ان يعرف هل هذا البناء مطابق للمواصفات التي وضعها المهندسون أو غير مطابق ، كما يعنيه أن يعرف هل هو ملائم للمكان والبيئة اللذين وجد فيهما أو غير ملائم ؟

رابعا = قوله ان الجملة يمكن أن تعرض عرضا مختلفا ، كلام طليل ، وذلك أن الجملة نفسها لا تعرض ، وإنما يعرض المعنى .

فاذا عبر شاعر عن طول الليل بقوله :

أضل النهار المستنير طريقه أم الدهر ليل كسه ليس يسبح
وعبر آخر بقوله :

حدثوني عن النهار حديثا أصفوه فقد نسيت النهارا
وعبر آخر القيس عنه بقوله :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل منار الفتل شدت بيزبل

فهذه التعبيرات ليست عرضا لجملة واحدة ، وإنما هي عرض لمعنى واحد .
ج - ينكر الأستاذ على علماء البيان جعلهم أداة التشبيه (ركنا) من

أركانه ، ويرى أن ذلك اغراق منهم فى الماديات ، ومتابعة سرفة للتصوير
العقلى أدى الى نسيان الناحية الأدبية فى التشبيه ، وهى أن أفضل التشبيه
ما يقوم على إيهام أن المشبه هو المشبه به ، وهذا لا يكون إلا بحذف الأداة .
وهذا كلام عجيب حقا ، فهل جنى علماء البلاغة جناية كبيرة حين أرادوا
أن يحددوا البلاغة ، فوضعوا لها قواعد وضوابط ؟
التشبيه الحاق أمر بأمر ، وهو كذلك فى طبيعة اللغة ، واللغة قد وضعت
أداة لهذا الإلحاق ، فلا يمكن أبدا - مادام هناك تشبيه - أن يتخلل هذا
الإلحاق عن أدواته ، والافتقد حقيقته ، والحمل لا يمكن إلا أن يكون كذلك ،
إذا أريد التشبيه .

يقول : محمد كريم فتحمل الكرم على محمد لأنه صفة له ، وتقول : محمد
حاتم تريد تشبيهه به فى الكرم ، فلا يمكن - حينئذ - إلا أن نلاحظ أن هنا
أداة صححت حمل حاتم على محمد ، والاكنت حملت ذاتا على ذات أخرى ،
وهذا ما لا يصح بحال ، إذ هما ذاتان مختلفتان ، فليست أحدهما هى الأخرى
والأداة لا بد منها فى التشبيه ، وقد تكون ظاهرة - وعطية أكثر تشبيها -
القرآن الكريم - وقد تحذف ، ولكن لا بد من ملاحظتها حتى يصح الحمل - كما
ذكرنا - ومادامت بهذه المثابة فهى جزء لازم للتشبيه ، فلا غرو كانت ركنًا من
أركانه .

د - ولا أحب أن أختم قولى فيما كتبه الشيخ تعليقا على بعض مباحث البيان
حتى أورد هذه الكلمة .

قلت : إن الفكرة التى سيطرت عليه حملته على أن يتكلف شططا فسى
تخريج الشواهد . وهذا مثال :

يعلق الشيخ على بيت بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا - وأسيفنا ليل تهاوى كواكبها

فيقول : (التركيب يفهم على أنه صورة ملونة . . الغبار تكاثف حتى أظلم ،
ووصل الى السواد القاتم ، وليس تشبيه مثار النقع بالليل لمحض القاتم وانما

ملحوظ فيه أيضا الحيرة والظلام والخطورة والاضطراب ، فهو انما اختار
 ظلام الليل للحيرة والضلال ، وهذا هو ما يطلب في القتال بالسيوف فاذا
 أضفنا الى هذه الحالة النفسية لم يقاتل بالسلاح الأبيض ، نجد أنه يعتقد
 أنه معرض للموت بشبهات ممزق ، ولذا قال في السيوف ليل تهاوى كواكبه) .
 فهذا كلام يقوله من لا يحسب للعقول حسابا . فمن أين له أن يشارا لاحظ
 في تشبيه الغبار بالليل الحيرة والضلال ، بل ماجدوى ارادتهما هنا ؟ ان
 بشارا لو اراد أن رجال جيشه حائرون ضالون لكان ذمهم أشنع الذم ، ولكن
 قد وصفهم بالجبن والعماية في قتالهم ، ان الفارس الحق هو الذى يكون ثابت
 الجنان ، مهما اشتدت المعركة ، وحمى وطيس الحرب .
 ومن أين للشيوخ أن الشاعر اراد أن المقاطعة يتوهمون أنهم معرضون لشهاب
 ممزق ولذلك جاء ب (تهاوى كواكبه) ؟

أعتقد أنه لا ينبغي للناقد ، وللاستاذان في الجامعة - خاصة - أن يقتصر
 لخياله العنان ، يقول ما يصح وما لا يصح ، ويعمل النص فوق ما يحتمل .
 نعم ان في النصوص معاني ، وان لها ظلالا غير ماتفيدة الألفاظ بحسب
 وضعها ، ولكن لا ينبغي أن تجمع الأعلام في خلق معان وظلال لا صلة للنهي
 بها ، أولا يتخيل أن صاحب النص قصد اليها .
 وقصة بيت بشار بسيطة . يريد الشاعر أن يسل جماعة يقاتلون - تصويبرا
 حسيا - وقد عقد الغبار فوق رؤوسهم ظلاما ، ثم تصور الشاعر سيوفا تعلو وترسب
 ، وتجهى وتذهب ، وهى بيض لوامع مستطيلة تتلاقى وتتداخل ، ويقع بعضها
 في بعض ، فالتمس لهذه السورة شيئا فوجده في ليل مظلم تتساقط كواكبه .
 وما أظنه خطر على باله شيء مما قال الأستاذ .

رد شاهين على العمّارى :

يرى الأستاذ شاهين أن الأستاذ الخولى على صواب فى أن يجعل لكل عبارة من عبارات هذا الفن - علم البيان - منبعاً لمعان نفسية . . ويقول :
 " أى نعم يا على . . أنت قرأت تعريف البلاغة ؟ وان الذى لا يختلف فيه اثنان هو أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال . ولا أزيد بياناً ولا بسطاً ، ولكن هذه المطابقة لا تكون الا باذراك المتكلم لنفسه السامع وما تحوى من ملاسات فهذا هو فحوى كلام الأستاذ الخولى . أفتمارى فى هذا ؟ اذن فهات تعريفك أنت لعلم البلاغة فانا لمنتظرون " . (١) .

ويرى الأستاذ شاهين أن الأستاذ الخولى على صواب أيضاً فى نقده لبيت ابن المعتز : ولا زوردية . . الخ ، وأنه لا وجه لاعتراض العمّارى هذا السراى بأن الفن يوجد فى المعانى كما يوجد فى الماديات .
 وذلك أن " الماديات البهتة لا تأثير لها ، وانما التأثير لما يتعلق بها من المعانى . أفان قلت : ان تمثال الزهرة كالهرة كنت مشبها تشبيها مصيها مؤثراً ؟ لا . انه لا اعتبار الا لما يوجبه ويستلزمه هذا التشبيه من دقة الصناعة والمهارة فى المشابهة بين زهرة الورق أو الصالح وأختها الطبيعية الحية .
 ياسيدى : ان مثل هذا التشبيه فى البيت فى خلوه من روح ، كمثل من يرى بقما من دم قتيل أو طائر منثور على الرمال ، ثم يسير فيجد خرزات حمير مستديرة فيفجأ السامع : أتدرى ؟ ان يقع الدم الذى رأينا كهذه الخرزات ، احمرارها احمرارها ، واستدارتها استدارتها ، وحجمها حجمها ، وانتثارها على غير نظام انتثارها . أفيعجبك هذا ويكون تشبيها غريباً عجيباً مصيها مستحقاً للاطراء والثناء ؟ أحسب أن لا . ذلك أن السامع حين يذكر الدم تعتريه الرهبة والاشفاق والرتاء لصاحب الدم المطلول ، وحب التشفى ممن سفكه ، ولا يخطر بباله أنه مستدير أحمر منثور على غير نظام .

فمثل هذا التشبيه عبث ولفو وشعبذة وسقوط بالقيم الفنية للشعر الى حد سخيف .

كذلك يرى الأستاذ شاهين : أن الثقة بأذواق النقاد يجب أن لا تطرد ، وأن استشهادهم يجب أن يكون موضع نظر جديد ، وأن الاستشهاد بأرائهم يجب أن يعرض على محك التمحيص . ذلك " بأنهم - على جلالتهم - قد شملهم ذوق العصر ، ولم تستقم في أذواقهم اللغة غضة طرية عطلا من زينة وحليقة ، وأثر البيئة أثر جليل في الأذواق والعقول ، ومن ثم كانت تفاهة الاستشهادات والتخرجات ، وكان لجوءهم الى الفلسفة والناحية العقلية هربا من الناحية الذوقية ، فقاموا بالشعر والقيراط ، واتخذوا المبالغة أساسا للتفضييل ، ولم تظهر لهم الزينة في القوة والعذوبة والسلاسة والنغم ، فطلبوها بالصبغ والألوان والشعبذة اللفظية .

إذا ثبت هذا فاعفنى عافاك الله من استحسان البلاغيين وعدم استحسانهم ، فنحن نسأل الذواقين من أمراء البيان فطسه حسين والزيات والعقاد . . . أولئك المحكمون نرضى حكومتهم . . . فأما السعد والخطيب فلا نصيبهما . ولكن نقول غلبت عليهما شقوة العصر وفساد الذوق وقوة الفلسفة . . . فكلام عبد القاهر في أن التباعد كلما زاد كان موجبا لارتياح النفس ليس مطردا . وليس أمرا على ذلك مما سقته لك من تشبيه الدم بالخرز الأحمر .

وإذا ما كان لنا من تعليق على قول الأستاذ شاهين بأن نهميه من استحسان البلاغيين أو عدم استحسانهم ، وأنه يسأل الذواقين من أمراء البيان أمثال طه حسين والزيات والعقاد ، " أولئك المحكمون نرضى حكومتهم " .

فانا نسوق له على سبيل المثال رأى العقاد في المجددين الذين يرون الغاء علوم المعاني والبيان والبديع والانتقاص من علم الذوق القدماء ان يقول :

" أن علوم البديع والمعاني والبيان خلاصة الملاحظات التي أدركها النقاد

بالذوق والفهم ، واهتدوا بها الى مواضع البلاغة فيما وعوه من كلام الشعراء

والكتاب ، وان الحذلقه كانت أكثر من الوعي الصادق والفهم الحسن عند

من حاولوا في العصر الحديث أن يبطلوا علوم البديع " . . .

فلا بد أن نفهم أن علوم البديع والمعاني والبيان لم توضع لتلغى ، أو لينصرف

عنها النظر في الدراسة أو المطالعة . . ولقد وضعها الأقدمون وأدركوا
من شأنها كل ما يدركه المحدثون الآن من فوائدها وماخذها ، بل أدركوا
منها ، على التحقيق - فوق ما يدركه المتحدثون الذين يجهلون البلاغة قواعد
ومصطلحات ، كما يجهلون معاني ومفاهيم . . فالعلوم التي عرفت باسم علوم
البدع والبيان صحيحة لا عيب فيها ، وكل ما يؤخذ عليها فانما يؤخذ على
إساءة استعمالها كما ينبغي لها ، وكما أرادها واصمعوها " (١) .

ونعود الى الأستاذ شاهين حيث أخذ يناقش الأستاذ العماري في قصة
جرير فيقول :

وأما حسد جرير لعدى بن الرقاع عند ما أنشد :

تزجي أغن كأنه ابسرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

فناحيته أنه أعرابي لا يعرف التعبير ولم يخبر من المدنية ما يطوع له أن يعرف
قراطيسها ومجايرها وأقلامها ، فظان جرير أنه لن يهتدى الى شيء يشبه به
روق الأغن ، فلما أصاب حسده جرير ، ألترأ ، يقول : " قلت قد وقع ، ما عساه
يقول وهو أعرابي جلف جاف " . فأثبت قد وقعت يا على في سر حسد جرير
ولم تدره ، فظننت أنه انما حسده لأنه كان تنبيهها بارعا مصيبا له تأثيره وجماله .
وما هو بذاك .

رد العمارى على شاهين : (١)

اعترض العمارى على تعريف شاهين للبلاغة بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال . وقال : ان أحدا من العلماء لم يعرف البلاغة هذا التعريف . . . ويبدو أن الأستاذ شاهين يريد أن يحدد كما يحدد الشيخ أمين الخولى ، والتجديد سهل ميسور مادام قصارى المجدد أن يسوق قضايا مخطئة ، واليك ما أعرفه أنا وما يقوله العلماء فى تعريف البلاغة .

ذكر يحيى بن حمزة صاحب الطراز : " أن البلاغة فى وضع اللغة هى الوصول الى الشئ والانتهاى اليه . فيقال بلغت البلد أبلغه بلوغا . والاسم منه : البلاغة ، وسمى الكلام بليفا لأنه قد بلغ به جميع المحاسن كلها فى ألفاظه ومعانيه .

وهو فى مصطلح النظار من علماء البيان : عبارة عن الوصول الى المعانى البديعة بالألفاظ الحسنة ، وان شئت قلت هى عبارة عن حسن السبك مع جودة المعانى .

وصاحب الصنائع : عرفها بقوله : كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه من نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن .

وللعلماء والأدباء تعاريف كثيرة للبلاغة ليس منها مطابقة الكلام لمقتضى الحال . . . ونحن اذا سألنا طالبا صغيرا عن تعريف علم المعانى يقول : انه علم بقواعد وأصول يعرف بها مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فاذا قلنا له : هل مطابقة الكلام لمقتضى الحال هى البلاغة ؟ يقول : لا . بل لابد من زيادة واضافة اليها فنقول كما قال بعض العلماء : مع فصاحته . وهذه عبارة مهمة جدا ومكملة للتعريف .

والطلاب الصغار يعرفون أن علوم البلاغة ثلاثة . . . وأن لكل علم تعريفا خاصا ، ولا يصلح تعريف علم منها لأن يكون تعريفا للبلاغة . فهل يصير الأستاذ شاهين على أن هذا التعريف للبلاغة لا يختلف فيه اثنان ، أو يسلم معنا

أنه كباحث أراد النهوض فكبا .

على أنى كنت أنقد الأستاذ فى علم البيان وقلت فى - هذا الفن - أقصده فهل يحتج بتعريف علم المعانى على كلام فى علم البيان ؟
وينتقل الأستاذ العمارى بعد ذلك الى نقطة أخرى وهى قضية المادىية فى التشبيه فهو يرى أن اللغة العربية ملوثة بالتشبيهات المحسنة التى لا ترمى الى معان وراءها ، وقد عاب على الشيخ الخولى أن يعتبر جعل العلماء بيان حال المشبه من أغراض التشبيه (كلاما فارغا) ، وأن الأستاذ شاهين لما جاء يرد علينا هذا لم ينصف الشيخ أمين الخولى ولم ينصفنا فالعرب يقولون : أسود كحملك الغراب ، ويقولون : أحمر كالدّم القانى ، ويقول امرؤ القيس :

ترى بعرا لأرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفنيل

ويقول الله سبحانه وتعالى : " وجفان كالجواب وقد ور راسيات " أفلا

تكون هذه التشبيهات مقبولة حتى نلتمس لها معانى وراءها .

ثم يعود الأستاذ العمارى فيقرر أن التشبيه فن وهو يكون فى الماديات البحتة كما يكون فى المعنويات ، وتلمس المعانى وراء كل تشبيه تعنت وحذلقة . . . وهو لا يأخذ كلام المتقدمين قضايا مسلمة دائما ، كما لا يمتهم أن واقهم ، بل يقبل منها المقبول ويرفض منها ما يتبين له أنه ضعيف واه ، وليس كلامهم الذى ساقه بالكلام الضعيف الواهى ، ولكنه حسن جميل ، يعتمد على الذوق قبل كل شئ ، فأنت حين تسمع ذكر المشبه تستشرف لما يجئ بعد وتخطر فى ذهنك أكثر التشبيهات الغريبة ، فإذا أتى الشاعر أو الناشر بتشبيه بعيد نادر وقع فى نفسك موقعا ممتعا ، وعرفت مقبلا ، فاعلمنى الشاعر فى استخراج هذا التشبيه .

ثم ينتقل العمارى الى قصة جرير ويقرر أن الاعجاب والحسد من جرير ليس لمجرد أن الشاعر عدى بدوى والمشبه به حضرى ، ولكن سر الاعجاب أن الشاعر استطاع أن يأتي بمشبه به موافق كل الموافقة للمشبه ثم كونه جارا

من مكان بعيد لا ينتظر أن يهتدى اليه .
ويشرح الأستاذ العمارى ذلك فيقول : غزال صغير له قرن صغير
فى طرفه سواد أراد الشاعر أن يلتمس له شبهاً ، وجسر حاصر ، فوق
فى نفسه أنه لا يمكن الاتيان بشبيه له لدقته وبعدة عن الأفهام . فلما
تهدى اليه الشاعر ووجد فى قلم لم يصب من المداد الا قليلا ، ووجد
جسراً أن الشبه تام بين المشبه والمشب ، به حسد عدا على هذه القوة البيانية .
أما أنه حسده على أنه أتى بشبيه حضرى فمعنى ذلك أن جريراً كان يتوقع
من الشاعر أن يهتدى لهذا التثبيته نفسه أو مثله من التشبيهات الحضرية ،
وما أظن جريراً خطر على باله شئ من ذلك ، وهب أن شاعراً شبه شيئاً
بدويًا بشئ حضرى وكان التشبيه ضعيفاً ، وهنا أكان يعجب ذلك جريراً ؟ لا .
وانما اعجابه لما ذكرنا .

وسواء كان رأى الدكتور العمارى أصح أم رأى الأستاذ شاهين ، فإن
النقد الحديث بعد ذلك بسنوات طويلة قال رأيه فى ذلك الموضوع ، وقرر
أن التشبيه الحسى يجب أن يدل على ناحية معنوية تتصل بماطة الأديب
وأحاساسه .

فالأستاذ سيد قطب يرى أن ابن المعتز فى معظم تشبيهاته كان يفقد
صلة الاتصال بالكون والحياة وهذا الاتصال هو أخص القيم الشعورية فى
العمل الأدبى . فمثلاً : قول ابن المعتز فى وصف الهلال :

انظر اليه كزورق من فضة قد أثقلت حمله من عنبر (١)

نراه قد فقد " صلة الاتصال بالكون لأنه لا يتجاوز رؤية البصر ، ولا يلمح
وراءها أية رؤية شعورية من منظر الهلال والسماء والطبيعة ، إنما هو
جامد لا إبداع له ولا ظل فى الحس ولا فى الشعور . . والخصوصية فى الشعور
ومدى العمق والشمول فى الاتصال بالكون والحياة ، وصحة الشعور ، وصدق
الاتصال هى أخص القيم الشعورية فى العمل الأدبى " (٢) .

١ - هذا البيت نسبته الأستاذ عبد الكريم الخطيب الى ابن الرومى . انظر أعجاز

القرآن ج ١ ص ١٩٦ .

٢ - النقد الأدبى أصوله ومناهجه - سيد قطب - ص ٣٢ ط ٣ .

والدكتور غنيمي هلال يقول وهو يتحدث عن مقاصد الصورة الأدبية
 فى العصر الحديث : " وعلى الرغم من أن صور الشعر وظيفتها التمثيل
 الحسى للتجربة الشعرية الكلية ، ولما تشتمل عليه من مختلف الاحساسات
 والعواطف والأفكار الجزئية ، فانه لا يصح بحال الوقوف عند التشابه الحسى
 بين الاشياء من مرئيات أو مسموعات أو غيرها دون ربط التشابه بالشعور المسيطر
 على الشاعر فى نقل تجربته ، وكلما كانت الصورة أكثر ارتباطا بذلك الشعور
 كانت أقوى صدقا ، وأعلى فنا . ولهذا كان مما يضعف الأصلة اقتصار الشاعر
 فى تصوير شعوره على حدود الصور المبتدلة التى تقف عليها الحواس
 جميعا ، والتى هى صور تقليدية . . . ولكن أشد ما يضعف الصورة فنا هو
 أن يقف بها الشاعر عند حدود الحس مما تسميه البلاغة العربية القديمة
 " الجامع فى كل " دون نظر الى ربط هذا التشابه الحسى بجوهر الشعور
 والفكرة فى الموقف " (١) .

ومثل ذلك قال الأستاذ العقاد فى الديوان : " وإذا كان كدك فى
 التشبيه أن تذكر شيئا أحمر ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار
 فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شئ واحد ،
 ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع
 فى ذات نفسك ، وما ابتداع التشبيه لرسم الأشكال والألوان محسوسة بذاتها
 كما تراها ، وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس السى
 نفس . وبقوة الشعور وثيقته وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الأشياء
 يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطربا مؤثرا ، وكانت النفوس
 توافقه الى سماعه واستيعابه ، لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرأة النور
 نورا . وصفوة القول أن المحك الذى لا يخطئ فى نقد الشعر هو ارجاعه
 الى مصدره ، فان كان لا يرجع الى مصدر أعق من الحواس فذلك شعر القشور
 والطلاء ، وان كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود اليه المحسات
 فذلك شعر الطبع والحقيقة الجوهرية " (٢) .

١ - النقد الأدبى الحديث - د . غنيمي هلال ص ٤٥١ .

٢ - المرجع السابق ص ٤٥٣ .

ونعود فنقول : ان عصر ابن المعتز - غير عصرنا - له طابعه وتصوراته ،
 والتشبيه الحسى المجرد فى عصره كان مستساغا مقبولا ، بل ربما جاء جميلا
 أخاذا اذا كانت صورة المشبه به كذلك .

واذا كنا فى العصر الحديث نطمح الى تجديد البلاغة فليس معنى
 ذلك أننا ننكر علم القدماء وآراءهم ، ونجحد فضلهم ، ونؤاخذهم بما فعلوا ،
 فهم بذلوا جهودا كبيرة مشكورة لم نبذل بعضها بعد . ولكن لنا أن نسرى
 ما يناسب عصرنا من نتائجهم ونأخذ به ، فنشكرهم على ما أخذنا ، ولا نلومهم
 على ما تركنا . فمن يدري . . لو كانوا فى عصرنا لكان لهم رأى آخر .

معركة أخرى حول " القصر " :

عاد الأستاذ العمارى الى مناقشة الأستاذ الخولى فى علم المعانى والمناقشة هذه المرة حول " القصر " . يقول :

" انتهينا فى المقال السابق من مناقشة آراء الأستاذ الخولى فيما يتعلق بعلم البيان ، وقد أغفينا عن أشياء استكثرتنا على علم الأستاذ وفضله أن تكون من آرائه وتوجيهاته ، فنحن هنا لاننقد الا ما يتأكد عندنا أنه من رأيه بمراجعة النسخ المختلفة لمذكرات الطلاب ، أو بأن يشيع الرأى فى فصل من الفصول فيتكرر فيه مرات . ولقد عملنا بالحكمة المأثورة " ما استقصى كريم قط " فأنكرنا بعضا وأعرضنا عن بعض .

وحدثنا اليوم عن آرائه فى باب القصر ، وهو باب تعرض منه لثورة عنيفة ، فقد مزقه الأستاذ اربا اربا ، ورمى بكل شلو منه فى ناحية ، فذهب بقطعة الى علم النحو ، ومضى بثانية الى علم البيان ، أيضا سائره فأبقاه فى علم المعانى ولكن بعد أن هاض جناحه ، وتحيف أطرافه .

ورأيه أن القصر الجديد بأن يبحث عند البلاغى هو القصر الادعائى أما القصر الذى يعبر عن الواقع فيجب أن يبقى فى علم النحو ، لأنه يؤدى به أصل المعنى المراد فقط ، والبلاغى انما تعنيه المعانى الثانية ، وهى المعانى التى يوسئ اليها الكلام وراء المعنى الأصلى : (القصر صيغة من صيغ التعبير العربية التى تحتاج اليها فى أداء المعانى الأصلية ، وتأتى المرحلة الثانية وهى أن القصر الحقيقى مادام حقيقيا بمعنى أنه مطابق للواقع فهو مرحلة لا تتجاوز أصل المعنى وصحته ، أى أن معناه النحوى هو دائما معناه الوحيد ، ولا يخرج عنه الى أغراض أخرى . أما القصر الادعائى فبخلاف ذلك له وراء المعنى الأول لصيغة القصر معان أخرى يرمى اليها المتكلم ، ومن أجلها لجأ الى هذا الادعاء فأسقط من حسابه كل شئ غير المتكلم فيه وأثبت المعنى الذى عنده له) . ثم يقول : (القصر الادعائى اذا توسعنا قليلا فى فهمه وتطبيقه فاننا نستطيع

نقله من باب المعانى الى اسلوب من أساليب التعبير الأدبى ، فلانقصر
المسألة على البحث اللفظى والدلالة على جزء المعنى الذى هو مطابقة
الكلام لمقتضى الحال . اذن نخرج من باب القصر بأسلوب يدخل فى البيان
لا فى المعانى .

ويذهب الأستاذان العمارى فى جولة حول الفرق بين النحو والبلاغة والحد
الفصل بينهما ، وعند ذكر المسند اليه وحذفه ، وعن حالات القصر المختلفة
وأنها كلها تفيد التوكيد والتقوية وأن التوكيد من أوليات الأغراض البلاغية ،
ثم بسط القول فى أدوات القصر ليقطع " كل حجة على من يتهم العلماء بأنهم
ضيقوا دائرته ، وأنهم غفلوا عن مزاياه ، وأنهم وضعوا فى علوم البلاغة ما كان
يجب أن يوضع فى علم النحو " . وبعد كل ذلك يرد على الأستاذ الجولى
فى رأيه عن القصر الادعائى :

" أما الذهاب بالقصر الادعائى الى علم البيان فأمره اشد غرابة . ذلك
أن علم البيان وضع ليحترز به عن التعقيد المعنوى ، فهو يبحث فى الجملة
من حيث أداؤها للمعنى ، فينظر فى ألفاظها ومدلولاتها وتركيبها ، فمراجع
مباحته الى اللفظ التركيبى ومدى تأديته للمعنى ، فالتشبيه والمجاز والاستعارة
والكناية كلها طرق يمكن البحث فى صورها من حيث دلالتها على ما سبقت له ،
وليس كذلك القصر الادعائى ، فان المزية التى فيه ليس لها مظهر فى صورة الكلام
وانما مظهرها فى اعتبار المتكلم ، فتناسى المتكلم لكل حالة غير الحالة المتكلم
فيها أمر فى نفسه هو ، ولا مظهر له فى أجزاء تركيب الجملة ، وانما الجملة
مشيرة له ، ففرق بين أن نقول : ماشوقى الشاعر ، وبين أن نقول : شوقى
بلبل غرد ثم سكنت ، فأنت تبحث فى الثانية عن الكلمات وأدائها للمعنى ، وأما
فى الأولى فأول مرجعك قصد المتكلم وغرضه ، والحال التى أوجأتها الى هذا
التعبير ، وهذا هو مبحث علم المعانى .

على أن العلماء قالوا : ان الجملة يمكن النظر اليها من جهات مختلفة
فهى من حيث مطابقتها لمقتضى الحال تكون من مباحث المعانى ، ومن حيث

أدائها للمعنى تدخل فى مباحث البيان . ولا شك أن القصر بجملته يلاحظ
قبحه الأحوال الداعية .

وقد يمكننا على هذا أن ننقل كثيرا من الأساليب الى علم البيان ، فالالتفات
بأقسامه الكثيرة ، والتعبير بالخبر عن الانشاء ، والأسلوب الحكيم ، والتعبير
عن الأمر بطريق الاستفهام وما يتصل به من المباحث الطويلة العريضة كـ
أولئك ما يمكن التمسك بها فتدخل فى مباحث البيان ، ولكن أهى غريبة
عن علم المعانى ؟ أهناك داع الى هذا التمزيق ؟ لا .

للحديث بقية : —————

عاد الاستاذ العمارى يواصل حديثه عن القصر وينقد آراء الخولى فيه
نقدا موضوعيا ، وقد صرف النظر عن الرد على الأستاذ شاهين وترك ذلك
لقراء الرسالة .

يقول : يعيب علينا بعض الكاتبين أننا نستأنس بما كتبه المتقدمون فى
مقالاتنا التى ننقد بها بعض آراء الجامعة فى البلاغة ، ويزعمون أن المتقدمين
كانوا أصحاب أنواق مريضة ، ومن العجب أن حجة الكاتب على ما يكتب هو
ما ينقله عن بعض كتابنا المحدثين ، أفيحرم علينا أن نستضيء بامام البلاغة
الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، ويحل له أن يتكئ على ما يقوله المحدثون ؟ ..
ثم انى كنت اعترمت أن أرد على هذا الذى يجادلنى على صفحات " الرسالة " .
ولم أجد سبيلا أهدى الى الحق من أن أحتكم الى عقول قراء الرسالة ، وكثيرون
منهم يفهمون هذه المسائل على وجوهها الصحيحة ، وهى بين أيديهم .

وهجيب أن نعيب على المتقدمين جهودهم فى خدمة علوم البلاغة ونحسب
لم نفعل شيئا . لقد ظل علماء البلاغة منذ القرن الثانى للهجرة الى أوائل
القرن السابع وهم ينشئون هذه العلوم وينمونها ، حتى اكتظمت على بسند
أبى يعقوب يوسف السكاكى ، فلما جاء من بعدهم من العلماء وقف بهم

الاجتهاد ، ولكنهم جاهدوا وجهدوا ، وخدموا هذه العلوم بما لا نرى موضعاً لتفصيله الآن ، فماذا صنعنا نحن ؟ ملأنا أنفوسنا التلاميذ ، وغرف الدراسة بالعيب على المتقدمين والنيل منهم ، والطعن في كفايتهم ، ولكن من غير أن نبني قاعدة ، أو نهدم على بصيرة ، واني لأرى ما يمثل به في هذا الموضوع المثل العربي : " أسمع جعجعة ولا أرى طحنا " .

وقد سمعت أن الشيخ أمين الخولي يريد أن يرد على مقالتنا هذه التي يسميها " حركة الرسالة " بكتاب في البلاغة يخرجها للناس ، وانا منتظرون بفارغ الصبر هذا الكتاب انتظار المتعطش الى التجديد في هذه العلوم . وقد نكون أول من يرفع الصوت في امتداحه اذا وجدنا فيه ما يعدون به ، ولعله لا يكون صورة لهذه الرسائل الصغيرة التي أخرجها الشيخ ونقدنا بعضها . ثم نعود الى مناقشته في بعض مسائل القصر ، اتما لما كنا بدأنا به :

النفسيون والقصر الاضافي :

لا يرتضى - الأستاذ الخولي - تعريف العلماء للقصر الاضافي ، فيطالعنا بتعريف آخر دعاه اليه - فيما نظن - رغبته في أن يربط علوم البلاغة بعلم النفس وهو نوع من التجديد ، ووجد أنسب ما يلصقه بالقصر الاضافي هذا الذي يسميه علماء النفس " تداعي المعاني " فما يمنع أن يكون القصر الاضافي نظريته

إلى هذه الفكرة النفسية ؟

والذي حفظناه عن مشايخنا ، وقرأناه في كتب العلماء ، أن القصر الاضافي يكون حين تتمثل صفتان في ذهن ، فقد يعتقد اجتماعهما في موصوف وأنت تريد أن تبين له خطأ هذا الاعتقاد فيكون قصر الافراد ، وقد يعتقد ثبوت احدهما دون الأخرى وأنت تريد أن تعكس عليه اعتقاده فيكون قصر القلب ، وقد يحار في أمر الصفتين : فاذا أثبت له احدهما ونفيت الأخرى كان قصر التعيين . فمدار القصر الاضافي ان كان على صفتين أو أكثر في ذهن المخاطب وأمام بصيرته ، وله فيهما اعتقاد . لكن الشيخ يقول :

" وأساس القصر الإضافي ما يقرره النفسيون ، ويسمونه تداعي المعاني ، أى أن المعاني يرتبط بعضها ببعض بطريقة الضدية أو المناقضة أو المناقاة أو التلازم أو التكامل . والقصر الإضافي قائم على أفراد معنى من المعاني لا على أنه لا يوجد سواء في الموصوف ، ولكن على أساس أن تتحدد سواء هذا عن تفكير المخاطب . أى أن هذا النوع حاجز بين الصفة التي تريد اثباتها للمتحدث عنه ، وبين ما يمكن أن يقفز إلى ذهنه من الصفات عند ذكر هذه الصفة . فمثلا نقول : ما نريد الرياضيا ، فعند ذكر كلمة رياضى يحدث تداع في المعاني فتحول في الذهن صفات أخرى نحو : مهندس ، فلكى ، موسيقى ، مخترع ، أديب . ولكن اذا قصرت وأتيت بالأسلوب على هذا النحو فقد أبعدت كل هذه الوجوه . "

وهذا كلام واضح وصريح في أن المقصود من القصر هو إبعاد ما عسى أن يحول بذهن المخاطب من الصفات التي تتصل بهذه الصفة المثبتة ، وكأن ليس عند المخاطب صفة ينكرها وأخرى يثبتها ، ويتبنى على هذا - ولا شك - فساد هذا التقسيم الذي ذكره العلماء للقصر الإضافي .

وقبل أن نرد على الشيخ نحب أن نذكر له ولمن يعيب علينا استدلالنا بكلام المتقدمين ، أن الشيخ عبد القاهر رحمه الله ، تنبه لهذه الفكرة ، ولكنه لم يكن يعرف تداعي المعاني أو تناديهما ، فلم يملأ الجوصاها وشحيجا ، بل مر بذكر المسألة في بساطة وسهولة فقال في كتابه دلائل الإعجاز :
 " واعلم أن قولنا في الخبر اذا أخر نحو ما زيد الا قائم ، أنك اختصصت القيام من بين الأوصاف التي يتوهم كون زيد عليها ونفيت ما عدا القيام عنه ، فانما نعني أنك نفيت عنه الأوصاف التي تتنافى القيام نحو أن يكون جالسا أو مضطجعا أو متكئا أو ماشاكل ذلك ، ولم نرد أنك نفيت ما ليس من القيام بسبيل ان لسنا ننفي عنه بقولنا : ما هو الا قائم ، أن يكون أسود أو أبيض أو طويلا أو قصيرا أو عالما أو جاهلا ، كما أننا اذا قلنا : ما قائم الا زيد ، لم نرد أنه ليس في الدنيا قائم سواء ، وإنما نعني ما قائم حيث نحن وبحضرتنا

وما أشبه ذلك .

ونلاحظ أن الشيخ عبد القاهر كان دقيقا كل الدقة فلم يقل ان هذا في القصر
الاضافي ، وانما ساقه على أنه فكرة عامة في القصر ، وأمثله صالحة لأن تكون
قصرا حقيقيا (تحقيقيا أو ادعائيا) وأن تكون للقصر الاضافي ، ولكن بشرط
أن يعين المخاطب في ذهنه المثبت والمنفى .

ثم نرد على الأستاذ فنقول له : ارجع الى شواهد القصر الاضافي ،
فسترشدك الى أن النزاع يكون في شيئين ماثلين في ذهن المخاطب ، ولنسق
نحن جملة من الشواهد الفصيحة :

يقول الله تعالى : " انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر " . وما أنت بسميع
من في القبور ان أنت الا نذير " . ما هذا بشرا ان هذا الملك كريم " . ويقول
صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة انما الشديد من يملك نفسه عند
الغضب " . انما أنا قاسم والله يعطى " وهكذا اذا تتبعنا الأمثلة التي مسدح
فيها بال مثبت والمنفى وجدنا أن كليهما معلوم للمخاطب ، وله فيه نظرة . فاذا
كان المنفى عاما لم يكن من القصر الاضافي ، ولذلك يقول بعض العلماء ان قول
الخطيب الضبي : الى الله أشكوا الى الناس اني أرى الأرض تبقى والأخلاء
تذهب من القصر الحقيقي .

قسم رابع القصر :

انتهى العلماء منذ زمن بعيد من تفسير القصر الاضافي ووقفوا عند
قصر الافراد والقلب والتعيين ، باعتبار حال المخاطب في اعتقاد الشركية
أو العكس أو التردد ، ولكن الأستاذ يتنبه الى أن القسمة الفعلية كانت تقتضى
قسما رابعا ، وذلك في حال ما اذا كان المخاطب خالي الذهن ، وينعنى
على العلماء اهمالهم هذا القسم الرابع . يقول : " وعلى ذلك يتضح لنا أن
اغفال الحالة الرابعة ، وهى حالة خلو الذهن ، في باب القصر غير مبني
على نظر صحيح . . . فمثلا يجوز لك أن تقول لخالي الذهن تماما : لا اله
الا الله ، اعتمادا على ما يقدرونه في علم النفس من أن الخطأ الأول يصعب اصلاحه

والصورة الأولى يعسر محوها . . . أما نحن فنقول لهم : ان أسلوبكم يقتضى
أن تردوا مواقف المخاطب بين هذه الأحوال الأربعة ، فلم أغلظ الحالة
الرابعة ؟

ويرد الأستاذ العمارى على السؤال قائلا : والذي نؤكد أنه تقسيم
العلماء مبنى على نظر صحيح وأنه لا حالة رابعة هناك حتى نتهمهم بأنهم
أغفلوها ، وأدنى نظرفى طبيعة القصر الاضافى يرشدنا الى ذلك ، فلا يدفعه
أن يكون المخاطب عارفا بالمشيت والمنفى ، فأنت تقول له : شوقى شاعر لا كاتب
اذا كان يعرف هاتين الصفتين فى شوقى فيثبتهما معا أو ينفى أحدهما
أو يتردد فيهما ، أما اذا قلت له هذا القول وهو يجهل كل الجهل شاعرية
شوقى وكتابته كان كلامك خلفا من القول ، وبعبدا عن اعتبار البلغاء ، فاذا اردت
أن تلاحظ هذه العلة النفسية ، وأن تؤكد من بادئ الأمر ، رجعنا الى جهة
أخرى ، وهى اخراج الكلام على مقتضى الظاهر ، ويقال حينئذ : ان المتكلم
نزل المخاطب الخالى الذهن منزلة المنكر أو المتردد أو العكس ، ويرجع الأمر
الى قسم من هذه الأقسام الثلاثة . والعلماء انما يذكرون المقاسم الأصلية ،
أما الأمور المنزلة فيرجعونها الى مشابهاتها ، ومعروف ذلك عند من درس ، فهم
يجعلون أضرب الخبر ثلاثة ، ثم ينزلون المنكر منزلة غير المنكر ، والعكس ،
وهكذا . ولا يحق لنا أن نقول ان هذه أضرب آخر للخبر .

على أن المثال الذى ذكره الأستاذ (لاله الاالله) لخالى الذهن
لا يصح مطلقا أن نجعله من القصر الاضافى ، وانما القصر فيه حقيقى ، وهذه
الأقسام الثلاثة كما هو معروف لا تتأتى فى القصر الحقيقى .

سرامى أخرى للقصر أهملها البلاغيون :

العلماء قصروا فى أغراض القصر ، وحصروها فى النفى والاثبات وهو أمر
يجب أن نؤاخذهم به . . . والذي نأخذه على صاحب الايضاح ومن لف لفهم
من البلاغيين أن شعورهم كان يجب أن يتسع حتى يشمل ما نراه القصر بانواع
القصر ، فكان يجب أن يوسعوا حسهم أكثر من ذلك ، فليس القصر للاثبات والنفى ،
بل هو للتضييق والتحديد . . . ولعله ثبت ما قلناه أن للقصر

مramى أخرى وراء المعنى النحوى أهمليها البلاغيون .

وهذه الأغراض التى ذكرها ومثل لها هى غرضان :

التوهين : ومثل له بقوله تعالى " وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل "

والتأنيب : ومثل له بقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام :

" ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم " .

عرض الخولى هذين المثالين وقال : اذا نظرنا الى المثال الأول وجدنا أن التعبير بكلمة رسول عنصر أساسى فى المعنى قصد به (التوهين) من شأن الرسول فى هذا المقام . " محمد ده يطلع آيه ؟ مرسل زى بقية المراسيل ييجى ويروح ، القصر هنا واضح فى أن المقصود به التوهين من أثر الرسول فى الدين ، ولذلك جاءت تسميته هنا برسول ، ولو قال ، نذير ، هاد ، سراج ، لقطع الطريق على هذا الغرض " .

واذا نظرنا الى المثال الثانى نجد " هذا التأنيب المؤلم مستفادا من وراء الألفاظ ، وهو هنا المرمى للبلاغى للقصر ويدل عليه " .

وقال الأستاذ العمادى :

قبل أن نرد على هذا الكلام المتداعى نذكر ما قاله العلماء فى أغراض القصر حتى ننفى عنهم تهمة أنهم ضيقوا حسهم أو قصروا :

قالوا من دواعى القصر :

- ١ - داعى القصر الحقيقى التحقيقى : بيان الواقع .
- ٢ - داعى القصر الادعائى : المبالغة وعدم الاكتراث بماعدا المقصور عليه .

٣ - الرد على المخاطب فى قصر القلب وقصر الافراد .

٤ - تعيين المبهم عند المخاطب فى قصر التعيين .

٥ - قد يقصد من القصر مجازاة الخصم .

٦ - التنبيه على أمر هو مقتضى الكلام والفرض منه ، وجعل القصر وسيلة

اليه ، وذلك كبير فى انما .

٧ - تنزيل غير المنكر منزلة المفكر لا اعتبار مناسب فيخاطب بأسلوب القصر (١)

أما ردنا على ما ذكره الشيخ من أغراض فواضح أنه ليس القصد في الآيات الأولى الحط من مقام الرسالة في الدين ، وهل يريد الله سبحانه وتعالى أن يقول : ان محمدا ليس شيئا ؟ لا . يا شيخ المسألة أن الله يقول لهم : لا معنى لتعلق الدين بمحمد - أى بحياته - فان الرسل قبله ماتوا وسيموت هو مثلهم ، ولا ينتهى الدين الذى يدعون اليه بانتهائهم ، لأن مهمتهم الرسالة والتبليغ ، والرسالة ولو أنها أمر له قيمته وخطره لكن لا يجب أن يتعلق ايمان الناس بمدة حياة صاحبها ، فهو انما يدعو الى الله .

ولعل ما يدل على ذلك أن العرب لم يفهموا أن القصد التوهين من شأن الرسالة ، وهذا أبوبكر يستشهد بها يوم وفاة الرسول ، فهل كان يريد أن يقول لهم : ان محمدا ليس شيئا في الدين ؟ ما نظن ذلك ولا نرضى لسلم أن يظننه .

وأما التأنيب في الآية الثانية فليس استفادا من القصر ، وانما هو استفاد من السياق ، استفهام تعجبي ، واتخاذ آلهة من دون الله ، وهو صادر عن النبی ، وهو المدعى عليه ، أنه دعاهم الى عبادته وأمه : "أأنت قلت للناس اتخذوني وأعى الهين من دون الله ؟" هذا كثير ومدعاة الى تأنيبهم ، أما القصر فلا يفيد التأنيب ، وهب عيسى عليه السلام لم يقل الا جملة القصص أكان استفاد منها التأنيب ؟ وبذلك تسقط دعواه أن التوهين والتأنيب من أغراض القصر . ووقفنا عند الأغراض التي ذكرها المتقدمون ، ولا نزال في انتظار الجديد .

هذا ولنا تعليق على ذلك ، فان كلا من التوهين والتأنيب يصلح غرضاً من أغراض القصر ، ولكن في غير ماورد من أمثلة . مثال ذلك : ما أثبت الاطالع : تقال للطالب المهنل ، والمراد منها التأنيب أو الحث على المذاكرة .

ما أثبت الإلهي : تقال لمن يتعظم ، والمراد منها التوهين .

قد يمننا . . . و . . . جديداً للناس

وهذا بحث آخر للدكتور العمارى مكملاً لبحوثه عن (علوم البلاغة فى الجامعة) تحدث فيه عن التجديد فى الفصل والوصل (١) . يقول :
 " وانما أفردته بعنوان خاص لأن أستاذ البلاغة فى الجامعة قد أسرف فى التجنى على القديم حين عرض للباب الذى سنتناوله فى هذا الحديث .
 وذلك هو باب (الفصل والوصل) . وهو باب لا يزال مفلقا على كثرة من طرقه من الباحثين ، قدامى ومحدثين . .

فقد أجهد الأقدمون فيه أنفسهم ، فجعلوا يؤسسون قواعده ، ويخرجون شواهد ، وجاء المحدثون المجددون فلم يعجبهم هذا الاتجاه من الأقدمين فسلك بعضهم مسالك أخرى ، منها مابنى على نظر سليم ، ومنها ماجاد عن جادة البحث العلمى الاصيل .

وقد كانت الفكرة عند القدامى فى هذا الفصل أنه صعب المدخل وعسر المسلك ، فأنه لا يكاد يخلو كتاب من الكتب من الإشارة الى ما فى هذا البحث من صعوبة .

قال الشيخ عبدالقاهر الجرجانى : (اعلم أن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض ، أو ترك العطف فيها ، والمعنى بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى ، من أسرار البلاغة ، وما لا يأتى لتام الصواب فيه الا الأعراب الخالص ، والأقوام طبعوا على البلاغة ، وأوتوا فنا من المعرفة فى ذوق الكلام هم بها أفراد ، وقد بلغ من قوة الأمر فى ذلك أن جعلوه حداً للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها ، فقال : معرفة الفصل من الوصل . وذلك لغموضه ودقة مسلكه وأنه لا يكمل الاحراز الفضيلة فيه أحد الاكمل لسائر معانى البلاغة) (٢) . وقال فى موضع آخر :
 (واعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول أنه خفى غامض ودقيق صعب والا وعلم هذا الباب أغص وأخفى وأدق وأصعب) (٣) .

١ - راجع : قضايا بلاغية للدكتور العمارى . ص ١٠٤ .

٢ - دلائل الاعجاز ص ١٧٠ .

٣ - المصدر السابق ص ١٧٨ .

فلما جاء أبو يعقوب السكاكي في القرن السابع الهجري كان سبيله السوي فهم هذا البحث مما يزيد دقه وصعوبة ، فلم يلبث أن قال : (وانها جهات ارتباط الجمل - لمحك البلاغة ، ومنتقد البصيرة ، ومضمار النظار ، ومتفاضل الأنظار ، ومعيار قدر الفهم ، ومسبار غور الخاطر ، ومنجم صوابه وخطائمه ، ومعجم جلاله وصدائه ، وهي التي اذا طبقت فيها المفصل شهدوا لك ممن البلاغة بالقدح المعلى ، وأن لك في ايداع وشيها السيد الطولي) (١) .
واذا قال عبد القاهر والسكاكي ما قالوا فعلى من جاء بعدهما أن ينهجا نهجها ويسلك خطتهما . وقد كان . فما من عالم الاله الى ذلك اشارة حتى وصلنا في كتب المتأخرين الى أنه بحث : (تسكب فيه العبرات) .
هكذا صوره الأقدمون بصورة رهيبة مخيفة .

أما المحدثون فيطالعك حين تقرأهم أماران :
الأول : أن أساتذتنا يعتمدون على المتقدمين ، وينهلون من معارفهم ويردون ، ثم تراهم ينسبون كثيرا من آراء القدامى الى أنفسهم
وقد كنت أحسب أن هذه الخلقة اختص بها الناشئون من أصحاب الرسائل الدراسية التي يقدّمونها لينالوا بها درجة علمية ، فاذا الأساتذة والطلاب في هذا المعنى سواء .

الثاني : لو قرأت ما كتبه المعاصرون - أو على وجه الدقة بعضهم - وفي هذا الفصل الذي تسكب فيه العبرات لخلصت من ذلك الى أنه فصل غير جديد بالنظر ، وماتحتاج في فهمه الا الى دقائق معدودة . فقد أخذوا يحذفون منه ، ويضيّقون من دائرته ، ويرمون أكثر مباحثه الى علم النحو .
وأريد في هذه الكلمات أن أناقش جماعة منهم . ولأبدأ بأستاذ البلاغة في الجامعة المصرية الشيخ أمين الخولي :

ابتدأ فتابع القدامى في رأيهم من أن هذا المبحث من المباحث الستة يحتاج السالك فيها الى قوى غير عادية حتى يسلكها . وعبارته :
(فالفصل والوصل من الصعوبات لأنهما ترجمة عن أشياء ليست مكتوبة بـ

ملحوظة ، فهما ظاهرة من ظواهر الدقة في العربية ، كما أنهما مظهر من مظاهر ميلها الى الاكتفاء والايجاز ، لأنه يستعمل أيضا في بيان دلالات أخرى بين الأسطر ، وفي تضاعيف الكلام وراء الدلالة اللفظية الساذجة ، فكما اعتمدنا في القراءة على الأعراب ، وكذلك اعتمدنا في الكتابة على الترسيم ، وفي الكلام على الفصل والوصل . (١) .

ونحن لا نناقش هذه المتابعة ، فهي عدوى سرت في المؤلفين من قديم . ثم ثنى الشيخ . . فرأى أن محاولة القدماء غير مجدية ، وأنه لذلك يجب أن يحاول محاولة جديدة تكون أجدى على العلم ، وأنفع للدارس . قال : (وعلى ذلك فإن المصلحة تقتضى بأن نشطب هذه المحاولة القديمة ، ونحاول فهم الأمر على ضوء طبعى هو السياق والمعنى دون اللفظ) .

وإذا سألت عن عيب (المحاولة القديمة) أجابك في اجمال :
(ومع الأسف لم ينظر المقدم الى الفصل والوصل الا في حيز الجملة ^{والجملية})
هذا الحيز الضيق ، ولم يتجاوزها الى الجمل . ولكننا سننظر الى الفقرة كلها ،
والقصيدة مجتمعة ، والمقالة كاملة . كما أن القدماء - كما قال فضيلته -
(ركبهم غفريت فقالوا : ان الباب ده باب الواو ويس ، فما السبب ؟) .
وان فسيحدثنا الأستاذ عن هذا الفصل والوصل في الفقرة الكاملة ، وسيشمل كلامه غير الواو من أحرف المعطف ، وهذا حسن . فلننظر الى أى مدى تتحقق الأحلام ؟ . ان القدامى قعدوا هذا الباب على هذا النحو ، قالوا : ان الجملتين يفصلان في مواضع ، ويوصلان في مواضع ، وجعلوا مواضع الفصل هي :
١ - اذا كان للجملة محل اعرابى ، أو حكم لم يقصد ادخال الثانية في واحد منهما .

٢ - اذا كانت الثانية من الأولى بمنزلة التوكيد أو البدل أو عطف البيان . وسموا ذلك (كمال الاتصال)

٣ - اذا اختلقت الجملتان في الخبرية والانشائية ، أو لم يكن بينهما جامع . وسموا ذلك (كمال الانقطاع)

١ - نقلا عن كراسة من كراسات طلابه بكلية الآداب .

٤ - اذا كانت الثانية منزلة منزلة جواب لسؤال اقتضته الأولى . وسموا ذلك (شبه كمال الاتصال) .

٥ - اذا أوهم العطف على جملة العطف على أخرى عطفا يفسد المعنى وسموا ذلك (شبه كمال الانقطاع) .

أما مواضع الوصل فهي :

١ - اذا قصد مشاركة الجملة الأولى في المحل أو في الحكم الاعرابى .

٢ - اذا اتفقت الجملتان في الخبرية أو الانشائية وكان بينهما جامع وسموا ذلك (التوسط بين الكمالين) .

٣ - اذا أدى الفضل الى ايهام غير المقصود . وسموا ذلك (كمال الانقطاع مع الايهام) .

هذا مجمل ما رتاه القدامى . فجاء الأستاذ الخولى ، فرأى أن يحذف من هذه القواعد كل ماله صلة بالنحو ، لأن البلاغة إنما تبحث في الجائز ، فإذا كان الفصل واحدا ، أو اذا كان الوصل واجبا ، فهذا بحث نحوى لا بلاغى وعبارته : (وحيث يوجد الجواز يكون عمل البلاغة لأن البلاغة ترجيح أحد الجائزين عن طريق الاحساس والتذوق ، وإذا كان لابد من الواو فان البلاغة تنسحب) . وهذا نظر حسن ، واتجاه حميد ، ولكننا اذا جئنا عند التطبيق رأينا المسألة قد التوت ، والطريق قد اعوجت . قال (شبه كمال الانقطاع هذا بحث لا دخل للبلاغة فيه ، لأن مبناه على الايهام ، ومادامت المسألة دخل فيها الايهام فهي من صميم النحو ، لأن الايهام هو افهام غير المراد ، أى هو فساد المعنى ، والبلاغى إنما يفرض أن اللفظ قد أفاد المعنى ، ثم يبدأ عمله بالمفاضلة بين اعتبارين) .

ثم يتكلم الأستاذ بافصاح أكثر حين يعرض للمثال الذى مثل به القدامى للعطف الموهم ، أو لشبه كمال الانقطاع ، وهو :

وتظان سلمى أننى أبغى بها بدلا أراها فى الضلال تهيم

ويقول : (وأداروا الكلام فى المسألة على العطف الموهم ، فقالوا : ان

الجملة الثانية بمنزلة المنقطعة عن الأولى لكون عطفها عليها موهما لعطفها
على غيرها . أى أنه لم يعطف (أراها) على البيت على (تظن) لثلاثتهم السامع
أنه معطوف على (أبغى) لقربه منه ، مع أنه ليس بمراد . ولا تدخل مسألة
الفصل هنا فى البلاغة ، لأنه أمر ليس فيه احتمالات ، وليس له وجه آخر ،
ولا حيلة فيه ، أى انه أمر نحوى .

وبهذا البيان استطاع أستاذ البلاغة فى الجامعة أن يريحنا من مسألة
ذات خطر من مسائل الفصل والوصل ، ويلقى بها بعيدا عن حظيرة علم
المعاني ، لتدخل فى حظيرة علم النحو .

غير أننا ما نلبث أن نرى هذا البريق ليس الاسرابا خادعا ، وأن هذه
المسألة لو جعل الشيخ أمين وألف مثله يدفعونها بأيد يهم وأرجلهم لتخرج
عن بابها الذى ألفت ، وموضعها الذى نشأت فيه ما استطاعوا .

فنحن نقول : ان اللغة العربية فيها من الابهام ، ما لا يكاد يحصى ، وللقرينة
- بعد - وسيلة من وسائل رفع الابهام ، ولسنا نمثل الابهام البيت نفسه
على الوضع الذى جاء عليه ، والذى ظن الأستاذ أن البيت فيه سليم معافى .
فنظرة عابرة ترى أن البيت - مع الفصل - فيه ابهامان لا ابهام واحد ،
فجملة (أراها) تصلح أن تكون حالا من فاعل (أبغى) ، وتصلح أن تكون
خبرا ثانيا لـ (أن) ، وكلاهما ما يفسد به المعنى ، ولكن البيت صحيح .
وقد قالوا فى قوله تعالى : " وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا
إلى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم -
وهم فى طغيانهم يعمهون " ان جملة (الله يستهزئ بهم) يصح عطفها
على الجملة المصدرية بالشرط ، لكنها لم تعطف عليها لثلاثتهم السامع
(قالوا) هذا العطف الذى يفسد المعنى . فالحول لا يمنع العطف مع الابهام
بل يجوز ، وهو لا يعنيه الاصححة التركيب ، وصحة المعنى ، ولو على ضعف .
أما البلاغة فوظيفتها تجميل المعنى وتحسينه ، ورفع معناه يشوك طريقك
اليه .

ومن عجب أن الأستاذ الخولى قال كلاماً شبيهاً بهذا حين تحدث عن
اختصاص الواو بهذا الباب . قال : (ان الواو قصدت ، وكانت اصل هذا
الباب ، لأن هناك اعتبارات يصح الاتيان فيها بالواو أو عدمها مع بقاء أصل
المعنى ، ولو على نوع من الضعف ، أو عدم التأثير ، فهذا بلاغى . وأما
لورفعت الواو ففسد المعنى أو تغير ، فهذا لا يدخل فى البحث البلاغى) .
ويدهى أن الابهام لا يفسد المعنى ، لأن السامع يستطيع أن يفهم المراد ،
ولو بعد التوهم . وتعبيرهم بكلمة (ايهام) - وهى الدلالة الضعيفة - دليل
واضح على أن هذا أمر عارض لا يفسد المعنى ، ولا يغيره ، ولكن يجعل
عليه سحابة رقيقة بيضاء ، تخفيه بعض الخفاء ، ثم لا تلبث أن تزول عنه .
وكل من يستطيع أن يفهم معانى الكلام لا يفهم عليه أن جملة (أراها) اذا
عطفت لا يمكن عطفها على جملة : (أبغى بها) .
وكذلك لا يمكن أن يقر فى ذهن فاهم أن جملة (الله مستهزئ بهم) معطوفة
على جملة (انا معكم) والا كانت من قول الكافرين ، وهذا محال . ولذلك صح
العطف فى قوله تعالى : (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)
فقوله (ولا يستقدمون) معطوف على مجموع الشرط والجزاء ، لا على الجواب ،
اذ لا معنى لقولنا : اذا جاء أجلهم لا يستقدمون . ومع ذلك ربما توهم السامع
فى بدء الأمر أنه معطوف على جملة الجزاء .
ولا أظننا نحتاج بعد ذلك أن نقيم دليلاً على أن (الابهام) لا يمنع
العطف .

مرة أخرى مع الفصل والوصل

مرة أخرى يعود الدكتور العمارى الى دخول المعركة البلاغية دفاعاً

عن الفصل والوصل ، وذكروا عن علمائنا القدامى وتراثهم . يقول :

لم ينصفنا من يظن أننا ندافع عن القديم لأنه قديم ، ونناجح عن السابقين من علمائنا تعصبا لهم ، وتأخذ الطريق على المحدثين استهانة بهم وآرائهم ، فما الى ذلك قصدنا ، وكيف ؟ وقد جاء فى بعض ماكتبناه أن كشفنا عن بعض عيوب كتبنا القديمة ، ودعونا الى التخلّى عن هذه العيوب ، وراحة الدارسين من همومها وأثقالها . (١) .

وأحيانا نتمسك بالقديم مرغمين ، لأننا نتلفت حولنا فلا نجد فى جديده الناس مايفنى غناه ويسد مسده ، فلا نستطيع أن نوافق على هدم القديم ، وليس بين أيدينا صالح ترتكز عليه بلاغتنا العربية .

والفكرة عندنا لا تزال كما كانت عند أسلافنا : يقول أبو العباس محمد بن يزيد النبروت : (وليس لقدّم العهد بفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق) . (٢)

ويقول أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى : (ولا نظرت الى المتقدم فيهم بعين الحيلة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل الى الفريقين ، وأعطيت كل حقّه ، ووفرت عليه حظّه ، فأنى رأيت من علمائنا من يستعيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه . ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره . . . فكل من أتى بحسين من فعل أو قول ذكرناه له ، وأثنينا عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الردئ اذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفضه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه) . (٣)

١ - انظر رأى د . العمارى فى الفصل السابق (آراء فى تجديد البلاغة) الجزء

الاخير من المقال .

٢ - الكامل ج ١ ص ١٨ ط التجارية .

٣ - الشعر والشعراء ج ١ ص ٧ .

ثم نمضي الى القصر:

قد انتهى الحديث في المقال السابق الى هدم نظرية (الابهام)
والأتكاف عليه لجعله وسيلة الى اخراج بحث (شبه كمال الانقطاع) من
البحث البلاغي ، وبينما أن الابهام لا يمنع العطف نحويا ، وانما يمنعه بلاغيا .
ونحب أن نضيف في هذا الحديث أن علمائنا كانوا متنبهين الى هذه الفكرة
فقد ذكروا أن الابهام يوجد في كل من كمال الاتصال وشبهه ، وأن صاحب
التلخيص انما اقتصر على ذكره مع كمال الانقطاع لكثرة فيه ، بل قالوا انه
يكون في الأقسام كلها . قال ابن السبكي في عروس الأفراح : " ولك أن تقول :
الابهام كما يدفع الفصل بين الجملتين اللتين بينهما كمال الانقطاع ، يدفعه
بين اللتين بينهما كمال الاتصال ، وكذا غيره من الأقسام السابقة واللاحقة ،
فليعتبره الناظر ، والابهام مشروط بالأيماضه ايها آخر " .

ثم نراهم يحاولون أن يخرجوا من دائرة البلاغة - أيضا - بحث (كمال الانقطاع)
وبحث كمال الاتصال ، ويعتمدون على أن المعطف أساسه المغايرة والمناسبة . .
فنحن لا نعطف الشيئين متغايرين متناسبين ، والمغايرة الا يكون المعطوف
نفس المعطوف عليه ، ولا جزأه . وتقول جاء زيد نفسه ، أو جاء زيد زيد ، فلا
تحتاج للمعطف ان لا مغايرة فيها ، بخلاف ما إذا قلت : جاء زيد وابنه ، فالمعطف
لازم هنا لوجود المغايرة . وكذلك تباين الشيئين يمنع من أن نضع بينهما علاقة
وصل لأنهما غير صالحين للاتصال . ومن المتفق عليه أن كمال الانقطاع اختلافا
السياق ، فهما كلامان ليست بينهما وحدة ، فليس معقولا أن يتصلا . وعلى
ذلك فليس هذا الموضع محل بحث بلاغي لأنه وجه واحد لا يمكن العدول عنه .
وأما كمال الاتصال وهو توكيد ومؤكد ، أو بديل ومبدل منه ، أو بيان ومبين ،
فهو باب وحده . ذلك أن الاتحاد فيه في السياق تام ، فطبيعي أنه سياق واحد
فلاداعي للوصل فيه ، ان أغنى عن ذلك شدة الاتصال .

هذا موجز مقالة أستاذنا في الجامعة . وخلصته أن الباحث في الفصل

والوصل يجب عليه أن يطرح عنه بعيدا هذين الموضعين ، لأن الفصل
فيهما واجب ، والبلاغة انما تبحث في الجائز .

ولست واجدا شيئا من العناء في الرد على هذا ، فان العطف جائز بين
الخبر والانشاء ، وقد نقل عن سيوييه جواز : جاء زيد ومن عمرو ، ولا خلاف
عندهم في جواز هذا العطف في نحو قوله تعالى : " وقالوا حسبنا الله ونعم
الوكيل " .

وأما كمال الاتصال فبحسبنا أن نقول لهذا الشيخ : ان هذه التوابيع
ليست توابيع اصطلاحية ، ولذلك نرى علماءنا في غاية الدقة حين قالوا في كل
واحد منها (فوزانه وزان كذا) من تأكيد أو بدل أو بيان . على أننا نرى
النص الأدبي الواحد يكون بيانا فيعطف مرة ولا يعطف أخرى :

قال تعالى في سورة البقرة : " وان نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء
العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم . . . " .

وقال عز وجل في سورة ابراهيم : " وان قال موسى لقومه انكروا نعمة الله
عليكم ان نجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون
نساءكم . . . " .

ولعل من العجيب أن يقول هذا الباحث في قوله تعالى : (أمدكم بما تعلمون
أمدكم بأنعام وينين) : (كان يمكن أن يعطف فيقول : وأمدكم) .
يا لله . . . تحلوناه عاما وتحرموناه عاما .

بقي عند الشيخ شبه كمال الاتصال وهو أولى الأقسام عنده بأن يخرج عن
البحث البلاغي . . (المسألة - ان - ليست سهالة سؤال وجواب واستئناف
ويتاع ، ومن المؤسف أن يقع فيه عبد القاهر نفسه) وانما المسألة - عنده - أن هناك
كلامين لمتكلمين مختلفين حقيقة أو حكما ، وما دام الأمر كذلك فالفصل واجب ،
لأنه لا يعطف كلام شخص على كلام شخص آخر .

وانا أرا أن أي دارس أن يفهم هذا الباب كله من أوله الى آخره ، فما عليه
- بحسب زعم أستاذ البلاغة - الا أن يفهم هاتين الكلمتين : (اذا كان الخطاب

بين متعدد ين حقيقة فهذا أول مواضع الفصل ، وهو أسلوب الحوار - ولم يعطنا الشيخ فكرة عن أسلوب الحوار هذا - والأصل في الحوار أن يكون بين شخصين ، وقد يقع لي مثل حالتين مختلفتين لشخص واحد ، فالحوار الذي نقصده هنا هو الذي يقع بين متعدد ين حقيقة أو حكما . حقيقة هذا أول مواضع الفصل حكما : هذا أول الكلام في الفصل والوصل . والأصل فيه أنه عيشما وجد التقابل بين كلامين فهو أول مواضع الفصل ، وعيشما وجد تكامل بينهما كان ذلك أول مواضع الوصل ، وإذا حدث اللبس أو التردد بين هذين الطرفين دخل عمل علم البلاغة ، وتعدد السياق اعتبار يدخل فيه شبه كمال الانقطاع . وأما في كمال الانقطاع فاما أن يتعدد السياق ، واما أن يتحد ، فإذا تعدد السياق فهما كلامان ، وإذا وجدت بينهما مناسبة فالفصل . وإذا اتحد فاما أن يتعدد المتكلمان حقيقة أو اعتبارا ، وحينئذ نستغنى عن الوصل ونفصل ، واما أن يتحد المتكلم بالجملة ، وحينئذ يجب الوصل .

وبهذا البيان اللطيف وبهذا التعميد الرائع نخلص من هذا الباب الذي كانت (تسكب فيه العبرات) .

والحق أنى - الى هنا - وقفت ، ولست بمستطيع أن أزيد بيانا أو إيضاحا ولعل في العلماء المتعمقين في دراسة البلاغة من يستطيع أن يفهمنا هذه القاعدة الجديدة لهذا الباب السكين ١١

اقترح فسى باب الفصل والوصل

الحوار الساخن الذى أداره الدكتور العمارى بينه وبين الأستاذ الخولى
فى باب الفصل والوصل - على ما فيه من فائدة عظيمة ومتعة نفسية - لم يصل
بنا الى وضع نستريح اليه فى دراسة هذا الباب المهم .

ونحن فى العصر الحديث لا يعنينا كثيرا أن ينتقل باب الفصل والوصل كله
أو بعضه الى علم النحو أو يبقى فى عرينه البلاغة ، بقدر ما يعنينا أن نهىء هذا
الباب العلمى الهام بحيث يصبح فى متناول الدارسين ، قريبا الى أفهامهم
خفيفا على عقولهم وأن هانهم ، وبحيث يمكن أن يطبق ويستعمل فى الكتابة
الأدبية والعلمية .

أما أن يكون كل تجديدنا أن ننقل منه جزءا أو أجزاء الى علم النحو فهذا
ليس - أبدا - حلا للمشكلة ، إنما نقل لها من مكان لآخر فقط لا غير .
وإذا كان باب (الفصل والوصل) يدور ويرتكز على " الواو " ذكرنا وخلفنا
فلماذا لا نستغنى عن هذا الباب ونستبدله ببحث صغير يتلخص فى :
مقدمة : تشتمل على جزأين :

أ - حديث موجز عن الواو بين المفردات ، وما يفيد استعمالها حينذاك
مع التمثيل .

ب - حديث موجز عن الواو بين الجمل ، وما يدخل فى هذا من اعتبارات
وحالات بايجاز .

الفصل الاول : حالات يجب فيها استعمال الواو - مع التمثيل .

الفصل الثانى : حالات يمتنع فيها استعمال الواو - مع التمثيل .

خاتمة : يذكر فيها بعض حالات جواز استعمال الواو ، وتفضيل ذلك
ان كان هناك أفضلية .

ويجب ملاحظة ما يأتى :

١ - الأمثلة لكل حالة تكون كافية للافهام والقياس عليها .

٢ - الشرح يكون في الهامش وهو لمن يطلب المزيد من الفهم والتعمق .

٣ - الهامش يجب أن يخلو من الخلافات والتعقيدات ، وأن يكون بأسلوب العصر .

٤ - تتراوح الأمثلة بين الحديث والقديم ، وتكون جميلة واضحة ، تضيف إلى الدارس ثروة لغوية ، وتؤثر في ذوقه وإحساسه بالجمال .

هذا ونرجو أن يتوفر لنا من الوقت والجهد والتوفيق ما يمكننا أن نضع هذا البحث قريبا ان شاء الله .

تجديد البلاغة في الجامعة :

وهذا مقال آخر يتحدث فيه العماری عن تجديد البلاغة في الجامعة
كما يتحدث عن كتابي الأسلوب وفن القول (١) :
" قلت فيما سبق ان رجال الجامعة لم يصنعوا شيئا في تجديد البلاغة
العربية ، غير أن ملؤوا غرف الدراسة ، وأن هان الطلاب بالطعن على المتقدمين
والتنويه بقصورهم وتقصيرهم ، فلننظر فيما بين أيدينا من كتب لمؤرخي مصداق ذلك .
في سنة ١٩٣١ ألقى فضيلة الأستاذ الشيخ أمين الخولي محاضرة في
الجمعية الجغرافية الملكية ، وسماها " بحثا تاريخيا تجديديا " تحدث فيها
عن صلة الفلسفة بالبلاغة ، وتكلم طويلا عن نشأة البلاغة وتطورها والمبادئ
التي احتضنتها ، ثم تحدث عن الدراسة في كلية الآداب ودعا الى تجديد
البلاغة تجديدا شاملا . وكان ما قاله :

(وهي - يعني الكلية - في اخلاص المجدد المستنير بالتاريخ تستطيع أن
تختط طريق الدرس الفنى ، وتجعله واضح المعالم ، مغاير للطريق البلاغة
التي سمينها البلاغة العلمية ، كما عزمت على أن تتلافى ما كان من أثر
الفلسفة في تجديد البلاغة وقصور بحثها ، لأن الزامها حدود دراسة الجملة
قد حرمها من أبحاث ضرورية للفن الأدبي ، أبحاث نراها في بلاغات اللغات
الحية ، ويجب أن نتناولها بالدرس ، ومن تلك الأبحاث : الأسلوب ، واختلافه ،
وأوجه تفاوته ، ومزايا أنواعه المختلفة ، ومن ذلك البحث فيما وراء المعنى
الجزئى : تشبيه - استعارة - كتابة - من معنى كلى وغرض يقصد اليه الأديب . الخ) .
أبحاث كثيرة يدعو الأستاذ الى تناولها بالدرس وبذلك يجدد البلاغة العربية .

ظفر في فم الأمانى حلو ليتمنه لنا قلامة ظفر

وتعنى خمسة عشر عاما كان يمكن أن ترى فيها أثرا لهذه الدعوة ، ولكننا نفاجأ
في سنة ١٩٤٦ بكتاب للشيخ أمين يسميه " فن القول " .

ويقول في الصفحة الرابعة منه " انى أحس احساسا قويا عنيفا بحاجة

حياتنا الأدبية واللغوية الى دراسات كثيرة واسعة لم نقم بها ، ولا هيأنا السبيل لا تمامها ، ولو استطعنا أن نعرف بها ونقنع بضرورتها وندفع اليها ونقوم بمحاولات أولية فيها ، لنخلق الجيل الذى يقوم بها ويتمها ، فذلك خير مانسدى لعصرنا ، وجل مانؤدى به واجبنا .

ولن أظن لحظة أننا قد أوفينا فى ذلك على الأمل المرجو ، والمثل المنشود أبداً ، لأن الميدان خال بل مقفر . وسنرى فى البلاغة التى نزاول درسها هنا مثلاً لذلك بينا " .

وان فـالشيخ أمين لم يصنع شيئاً فى هذه المدة الطويلة ، ولم يصنع غيره كذلك ، لأن الميدان " خال مقفر " فهل يكون هذا الكتاب الذى يخرجـه هو العمل المرجو فى تجديد البلاغة ؟ هذه محاضرات القاها فى معهد الدراسات العليا ، وقد وصلنى منها ١٢٠ صفحة ، وباقيها فى المطبعة كما أظن ، وكان من حق الشيخ علينا أن ننتظر حتى يتم طبع المحاضرات ، ولكننا نقول هنا كلمة ولا يزال الباب مفتوحاً : مائة وعشرون صفحة هى مقدمة لعمل تجديدى فى البلاغة ، فماذا تناول فيها ، تحدث فى أربع عشرة صفحة عن التفسير الحيوى والاجتماعى لفكرة انشاء المعهد ، ثم التفت الى ما كان نشره من محاضرات ومقالات فأعاد نشرها بشئ من البسط والاسهاب فتكلم عن نشأة البلاغة وعن منهج دراستها عندنا وعند غيرنا ، وتحدث عن اللغة العامية واللغة الفصحى ومشكلات اللغة الفصحى . كل ذلك فى هذا العدد الضخم من الصفحات اعتبره مقدمة لكتابه ، أليس ذلك حسناً ؟ لقد ذكرنا أن أحمد الرجاز أتى نصر بن سيار والى خراسان ، ومدحه بأرجوزة تشبيها مائة بيت ومدحها عشرة أبيات ، فقال نصر : والله ما تركت كلمة عذبة ولا معنى لطيفاً الا وقد شغلته عن مدحى بتشبيبك . وانا أرجو ألا يكون كتاب " فن القول " كهذه الأرجوزة .

لكن جزءاً من دعوة الشيخ أمين قد تحقق ، فقد أخرج الأستاذ أحمد الشايب كتاب " الأسلوب " وتكلم فيه عن كل المباحث التى دعا الشيخ الى

تناولها ، فهل هذا الكتاب عمل تجديدي ؟ لننظر (١)
ومهما يكن من شيء فلازلنا عند رأينا من أن الجامعيين تركوا البلاغة
العربية كما كانت على عهد السكاكسي ، وإذا كانوا صنعوا فانهم لم
يزيدوا على أن رجعوا الى كتب البلاغة قبل السكاكسي ، وكتب النقد الأدبي
فاغترفوا منها ، وهذا عمل يشاركهم فيه كثير من أبناء دار العلوم ومن أبناء
كلية اللغة العربية بالأزهر . فأين هو التجديد يارئيس الامناء ؟ .

والآن وبعد أن استعرضنا هذه المعركة البلاغية وهي في الحقيقة
كانت دافعا قويا لاثارة قضية تجديد البلاغة العربية . . أقول نستطيع الآن
أن نتساءل : لماذا لم يتصد الأستاذ أمين الخولي ويرد بنفسه على تلك
المقالات التي كتبها الدكتور العماري ونقد فيها أسلوب الخولي وآراءه في بعض
مسائل البيان والمعاني ؟ ولماذا ترك هذه المهمة للأستاذ كامل شاهين الذي
تطوع لنزول المعركة والدفاع عنه ؟

وفيما يبدو أن الأستاذ الخولي كان مشغولا في ذلك الوقت بتأليف كتابه
في القول - الذي أراد به الرد على " حركة الرسالة " كما سماها .
وقد أشار الى ذلك الدكتور العماري حينما قال : " وقد سمعت أن فضيلة
الأستاذ الشيخ أمين الخولي يريد أن يرد على مقالاتنا هذه التي يسميها
" حركة الرسالة " بكتاب في البلاغة يخرجها للناس وأنا منتظرون بفارغ الصبر
هذا الكتاب انتظار المتعطش الى التجديد في هذه العلوم " (٢) .

ولكن الأستاذ الخولي تأخر كثيرا في اصدار هذا الكتاب وحدثنا الدكتور
العماري عن ذلك في احدى مقالاته فقال :
أبحاث كثيرة يدعو الأستاذ الخولي الى تناولها بالدرس ، وبذلك يجدد
البلاغة العربية .

ظفر في فم الأمانى حلو ليت منه لنا قلامة ظفر

١ - انظر : كتاب الأسلوب في الميزان . من هذا البحث .

٢ - الرسالة - العدد ٧٠١ ص ١٣٥٩ .

وتمضى خمسة عشر عاما كان يمكن أن ترى فيها أثرا لهذه الدعوة ، ولكننا
 نفاجا في عام ١٩٤٦ بكتاب للشيخ أمين يسميه " فن القول " .
 وإذا كان الشيخ أمين الخولى قد تأخر كل هذا الوقت ، فإن أحد أمثاله
 قد بادر وأصدر كتاب " الأسلوب " قبل ذلك بهوالى ثمانية أعوام . . متضمنا
 كثيرا من آرائه وأفكاره فى تجديد البلاغة .

ولذلك فنحن مراعاة للترتيب الزمنى نتناول بالحد يث والبحث أولا كتاب
 " الأسلوب " لمؤلفه الأستاذ احمد الشايب الأستاذ بكلية الآداب فى ذلك الحين .
 وهذا الكتاب - فيما وجدنا - هو أول محاولة لوضع منهج جديد متكامل
 للبلاغة العربية . فهل وفق الأستاذ الشايب فى هذه المهمة الجديدة الشاقة .
 هذا ما سنحاول أن نعرفه فى الصفحات القادمة .

الباب الثالث

مناهج جديدة للبلاغة

- الفصل الأول : منهج الشايب .
 - الفصل الثاني : منهج الخولى .
 - الفصل الثالث : المنهج المدرسي الحديث .
 - الفصل الرابع : رأى الباحث فى تدريس البلاغة .
-

الفصل الأول

منهج الأستاذ الشايب وكتابه " الأسلوب "

أعجب بكتاب " البلاغة الواضحة " كثيرون من عشاق البلاغة والأدب لطرافته وجدته . . ويبدو أن الأستاذ أمين الخولى كان ضمن المعجبين به وخاصة بالبحث الجديد الموجز عن " الأسلوب " الذى أضافه الكتاب الى الفصاحة والبلاغة . . بالاضافة الى ماقرأه الأستاذ الخولى واطلع عليه من الأدب الغربى الحديث وفيه يأخذ " الأسلوب " حظاً وافراً من العناية والدرس . وفى سنة ١٩٣١ أصدر الخولى بحثاً عن : (البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها) . وكان من رأيه فى هذا البحث أن الفلسفة أساءت الى البلاغة اساءة بالغة فقد كانت سبباً فى تضيق دائرة بحثها . . وحرمتها من أبحاث ضرورية . . كما جعلت الغاية منها كلامية (١) . . ثم قال : اننا نحتاج الى أبحاث جديدة يجب ادخالها فى بلاغتنا وذلك مثل البحث فى " الأسلوب " واختلافه وأوجه تفاوته وأنواعه المختلفة والبحث فى فنون القول الأدبى نثره وشعره . . . وماطراً من فنون جديدة خلقتها الحياة بعد الرسائل والمقامات كالبحث فى المقالة التى هى أروع فنون القول النثرى والفن القصصى الذى طغى على الفنون الأدبية الأخرى . (٢) ودعا الى تجديد البحث فى البلاغة على أساس جديد .

(١) أنظر منهاج تجديد ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٥ - ١٧٦ .

ويبدو أنه كان لهذه الدعوة من الأستاذ الخولى أثر ما . . فقد طلع علينا الأستاذ الشايب بكتابه (الأسلوب) داعيا فيه الى نهج جديد فى البلاغة . . يقول فى مقدمة كتابه - الطبعة الأولى - : (أما بعد فهذه فصول فى الأسلوب مهدت لها ببيان ما ينبغى أن نسلكه فى درس البلاغة العربية حتى تسائر الدراسات الأدبية الأخرى فى عصرنا الحديث . وقد رأيت نشرها لتكون فاتحة لتناول ما تضمنت من مسائل ، ومقدمة لدراسات أوفى وأكمل ينهض بها الباحثون .) (١)

ويقول فى مقدمة الطبعة الرابعة (٢) : (أريد بهذه المقدمة أن أبين فى اجمال هذا المنهج الجديد لعلم البلاغة العربية ، وهو منهج أجملته فى كتاب (الأسلوب) منذ ظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٣٩م ، ودرسته فى كليتي الآداب ودار العلوم بجامعة القاهرة .

ويقوم هذا المنهج على ملاحظة أن الدراسة النظرية للبلاغة العربية انتهت عند المتقدمين الى علوم المعانى والبيان والبديع ، ويدرسون فى الأول الجملة منفصلة أو متصلة ، ويدرسون فى الأخيرين الصورة بسيطة أو مركبة من تشبيه ومجاز وكناية وحسن تعليل ، مع توابع أخرى فى علم البديع ، وهذه الدراسات على خطرها لا تستوعب أصول البلاغة كما يجب أن تكون ، لتسائر الأدب الانشائى فى أساليبه وفنونه .

لذلك أشرنا فى هذا الكتاب الى أن علم البلاغة العربية يجب أن يوضع وضعاً جديداً يلائم ما انتهت اليه الحركة الأدبية فى ناحيتيها :

(١) ص ٤ الأسلوب ط ٤ .

(٢) ط ٤ سنة ١٩٥٦ مكتبة النهضة المصرية .

العلمية والانشائية . ورأينا أن يدخل علم البلاغة فى بابين أو كتابين :
الأول : باب الأسلوب أو كتابه - ويتناول دراسة : الحروف ، والكلمات ،
والجمل ، والصور ، والفقرات ، والعبارات ، على أن تدرس درسا مفصلا
دقيقا يعتمد على علوم الصوت ، والنفس ، والموسيقا وما إليها مما يقوم
الأسلوب على أنه صورة فنية أدبية . وفى هذا الباب أو الكتاب تدخل
موضوعات المعانى والبيان والبديع - لا على أنها علوم مستقلة - بل على
أنها فصول فى باب الأسلوب يتناول بحوثها كما يتناول غيرها .

أما الباب أو الكتاب الثانى : فيدرس الفنون الأدبية وقوانينها
شعرا ونثرا ، يدرس أصول المقالة ، والخطابة ، والرسالة ، والجندل ،
والوصف ، والثناء ، والقصة ، والملحمة ، والتمثيلية ، والتأريخ ، والتأليف
الى غيرها من هذه الفنون الأدبية التى زخرت بها الآداب العالمية ،
وشرعت قواعدها ، ولم تحظ فى بلاغتنا النظرية الا بإشارات خاطفة
لا تغنى شيئا ، ولعل ذلك هو مادعا قدما لنا الى القول بأن البلاغة علم
لم ينضج ولم يحترق كغيره .

هذا المنهج يرد عليك مجملا فى هذا الكتاب حين أعجلنى الزمن
عن تفصيله وعسى أن يهب لى الله من الوقت والجهد ما يسر على وضع
(أصول البلاغة) فان أمكن ذلك . والا فقد رسمت الخطة وأجملتها
ودعوت إليها من عهد بعيد .

منى ان تكن حقا تكن أحسن المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغدا
والله الهادى لأقوم سبيل . (١)

وأمام هذه المقدمة أجدنى أقف متأملا مشدودا تراودنى خواطر وأفكار عدة . . فالأستاذ الشايب يقول انه وضع منهاجا جديدا لعلم البلاغة العربية وأنه أجمله فى هذا الكتاب . . وأنظر فى صفحات الكتاب فأجدها قد تجاوزت مائتي صفحة . . ترى كم مائة أخرى من الصفحات يحتاجها ليفصل لنا هذا المنهج تفصيلا !!

ويقول الأستاذ الشايب : (ورأينا أن يدخل علم البلاغة فى باهين أو كتابين : الأول : باب الأسلوب أو كتابه : ويتناول دراسة : الحروف والكلمات والجمل والصور والفقرات والعبارات على أن تدرس درسا مفصلا دقيقا يعتمد على علوم : الصوت والنفس والموسيقا وما إليها . . .) ، ونسى المؤلف أن يذكر أيضا علوم القرآن واللغة والأدب والنقد فهى أسس بالبلاغة وأكثر تداخلا معها . . وندمج كل ذلك فى مزيج نسميه بعد الخلط والمزج " الأسلوب " .

ومن البديهي أن من العلوم ما يحتاج بعضها الى بعض . . فعلم الجبر والحساب والهندسة علوم مستقلة ولكنها متعاونة يساند بعضها بعضا . وكذلك الشأن فى علوم الطبيعة والكيمياء والفيزياء . . وفى علمي التاريخ والجغرافيا . . وليس من شك فى أن البلاغة - كذلك - تحتاج الى بعض العلوم التى تعاون فى تدوقها وتفهمها . . كما أن بعض العلوم - أيضا - فى حاجة اليها . وقد سبق وأشرنا - فى التمهيد لهذا البحث - الى أن البلاغة درجت ونمت فى أحضان علوم القرآن واللغة والنقد والأدب وأنها حين استقلت بشخصيتها لم تقطع مابينها وبين هذه العلوم من رحم . . بل ظل بين هذه العلوم وبين البلاغة ما يمكن أن نسميه بالتبادل الثقافى . . وهو أمر لاغنى عنه لكل علم من هذه العلوم وليس للبلاغة وحدها . وانا كان

المؤلف يريد أن يضم علوم الصوت والنفس والموسيقا وما إليها الى تلك الباقية من علوم العربية وأن تصبح عضواً في جماعتها فذلك أمر مفهوم وميسور .. بل انه ليسرنا أن تكون تلك العلوم مجتمعة واجهة جميلة فعالة تساعد في ابراز البلاغة في اطار أكثر اشراقاً وأروع حسناً .. أما أن تدمج هذه العلوم في البلاغة وتصبح من أقسامها وفي صلب منهجها فهذا أمر يحتاج الى نظرية .

ويقول المؤلف : (أما الباب أو الكتاب الثانى : فيدرس الفنون الأدبية وقوانينها شعراً ونثراً يدرس أصول المقالة والخطابة والرسالة والجدل (أى الحوار) والوصف والثناء والقصة والملحمة والتشبيـه والتأريخ والتأليف الى غيرها من هذه الفنون الأدبية ..)

وأجدنى أتساءل : أليست هذه الفنون " الأدبية " تابعة لعلم الأدب وقد شغلها فى العصر الحديث وأصبحت ضمن دروسه وفنونـه ؟ واذن فليست شيئاً جديداً .. وهل من التجديد أن ننقلها من علم الأدب ونجعلها فى علم البلاغة ؟ ومعنى ذلك فى رأى أننا نعود بالبلاغة الى عهد نشأتها حيث كانت مختلطة بمسائل النقد والأدب . فهل بعد أن استقلت بشخصيتها وبلغت أشدها يجوز لنا أن نردها الى عهد الطفولة أو ما يشبهه ؟ وهل يعتبر ذلك تجديداً ؟ !

كانت هذه بعض خواطرى وأفكارى بعد أن قرأت المقدمة .. ولكن لماذا التسرع .. لعلى على خطأ .. ولعل المؤلف أورد فى منهجه المجلد ما هو جدير بالنظر والتقدير . لذا فلنستمر ولنتوغل بتأمل فى كتابـه " الأسلوب " ، أول كتاب تضمن أول منهج جديد لعلم البلاغة فى العصر الحديث .

مقدمات :

قسم الأستاذ الشايب كتابه الى خمسة أبواب ، وعلى الرغم
من أن للكتاب مقدمة عرضناها وعلقنا عليها في الصفحات السابقة
فان المؤلف جعل الباب الأول من كتابه بعنوان (مقدمات) ،
واشتمل هذا الباب على خمسة فصول ، هي :

أ- البلاغة بين العلوم الأدبية .

ب- التعريف بالبلاغة .

ج- علوم البلاغة .

د - البلاغة بين العلم والفن .

هـ - موضوع علم البلاغة .

أ - البلاغة بين العلوم الأدبية :

في الفصل الأول يتحدث المؤلف عن العامية والفصحى ويقول

ان (اللغة العامية هي لغة الحياة العامة ، والتعاون الاجتماعي
اللازم لسير الحياة السريعة ونظامها المطرد الشامل ، وذلك لسهولة
وشيوعها)

وأن (هذه اللغة العامية العربية تختلف باختلاف الأقطار والأقاليم ..)
و (معنى هذا أن العامية توشك أن تكون هي اللغة القومية لكل قطر
من أقطار الشرق العربي ...) و (لذلك نشأت هذه الدراسات
الحدیثة التي تعنى بالعامية ..) و (مع ذلك لاتعد العامية
لغة رسمية ولا يعد أدبها أدبا رسميا يدرس على أنه مقرر يحتسب
المتعلمون ..) .

ويسوق لذلك الأسباب .. ثم يقول: (وليس معنى هذا خلو العامية
من الألفاظ الصحيحة أو المعاني القيمة ، كلا ، فاللغة العامية هي
الفصحى طرأت عليها أخطاء ، ودخلت عليها تراكمات ، لم تستطع
أن تحو صوابها كله ، كذلك نجد فيها فنونا أدبية من النثر والنظم -
كالجدل والحكم والأمثال والأغاني والمواويل والأزجال - تجعلها معرضا
لكثير من المعاني والموضوعات الأدبية القيمة ، ولكنها من الأدب
الشعبي على أية حال) . (١)

وكان بؤدی أن أناقش هذا الكلام لولا أنه بعيد عن موضوع بحثی

فلنكتف بعرضه الموجز ولنتطرق الى ما بعده .

يتحدث المؤلف بعد ذلك عن اللغة الفصحى .. وأنها لغة

الأدب الرسمي .. ويضرب مثالا للأدب بقول المتنبى :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذي شطره دم فتسقى إذا لم يسق من لم يزاحم
ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم
فلا هو مرهوم إذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليه بآثم

ويستخلص من هذه الأبيات عناصر الأدب وهى : العاطفة - الفكرة - الخيال -
الأسلوب . ويقول : (الأدب ينحل الى هذه العناصر الرئيسية الأربعة ،
وهذا التحليل نفسه يتوافر فى النثر كما توافر فى النظم على اختلاف فى
الدرجة تبعاً لاختلاف طبيعة الفنون فيهما ، ومن هنا نستطيع أن نعرف
الأدب بأنه الكلام الذى يعبر عن العقل والعاطفة) .

هذا وموضوع عناصر الأدب الأربعة وتعريف المؤلف للأدب سبق
وتحدث عنه فى كتابه " أصول النقد الأدبى " .

ويدخل المؤلف بعد ذلك فى حديث طويل يتناول فيه اختلاف الأمزجة
بين الشعراء والكتاب وبين المنشئ والقارىء ويمهد للكلام على نشأة
النقد الأدبى ثم يعرفه بأنه (بيان قيمة النص الأدبى ودرجته الفنية)
وهو كلام سبق وذكره أيضاً فى كتابه " أصول النقد الأدبى " . ثم يضع
قول المتنبى السالف الذكر موضع النقد .. ثم يستطرد فى الحديث عن
النقد وأن الأدب سابق والنقد لاحق ويتطرق الى الفرق بين النقد
والأدب ثم كيف كان النقد الأدبى من أهم العوامل فى إيجاد البلاغة ..
وكيف أنهما عاشا مختلطين لم ينفصلا الا بعد جهد عنيف .. ثم يتطرق
الى الفرق بين النقد والبلاغة .. ثم يتحدث عن تاريخ الأدب وأهميته

وأن له وجهين : علم وأدب . ثم يستخلص النتائج الآتية :

(١) الأدب فن خالص ، وهو من الفنون الجميلة وتاريخ

الأدب يجمع بين الناحية الفنية والناحية العلمية .

(٢) النقد الأدبي جزء من تاريخ الأدب أو هو أدوات الأساسية .

(٣) علم البلاغة نافع للأديب والناقد والمؤرخ ولكل كاتب أو متكلم أو

خطيب أو مدرس . فانه ينير السبيل أمام هؤلاء جميعا .

وبعد أن ينتهى المؤلف من استخلاص هذه النتائج يذهب يتحدث عن حاجة البلاغة الى علوم أخرى فيقول : (هناك علوم أدبية أخرى لا بد للأديب من الالمام بها المما كافيا ليقى نفسه شر الأخطاء فى التعبير : اللغة ، والصرف والنحو ، والعروض) ، ويتحدث عن كل علم من هذه العلوم مبينا أهميتها وأثرها ومبينا مكانة البلاغة بينها وأن الأديب فى حاجة الى الثقافة العامة والأخذ من كل فن بطرف وهذه الثقافة تتناول الفلسفة والتاريخ والدين والقانون والفنون الجميلة وغيرها وذكر أن ابن الأثير عقد فى صدر كتابه المثل السائر فصلا فى آلات علم البيان وأدواته يحسن الرجوع اليه . (١)

ونقول : ان هذه المقدمة فى (البلاغة بين العلوم الأدبية)

مقدمة طيبة ، توضح مكانة البلاغة بين هذه العلوم التى يجب أن يلم بها دارس البلاغة ، حتى يسلم له أسلوبه ، وتصح عبارته وتراكيبه ، وعلى البلاغة بعد ذلك أن تجعل هذا الأسلوب جميلا أخانا .

بـ التعريف بالبلاغة :

اعتمد المؤلف تعريف البلاغة المشهور في كتب البلاغة وهو :
مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . . وقال : ان هذا التعريف
لا اعتراض لنا عليه في جملته . وقابل بين هذا التعريف وتعريف
الأستاذ جينونج Genung " البلاغة فن تطبيق الكلام المناسب
للموضوع وللحالة على حاجة القارئ أو السامع " . . وقال : ان
الحدود واحدة في جوهرها وان لوحظ في الأخير هذه الناحية
العلمية في صراحة واضحة (١) . ولم يوضح المؤلف هذه الملاحظة
العلمية الصريحة الواضحة وكأنه يلجأ الى أن تعريف جينونج أفضل . .
بينما بقليل من التأمل نجد أن تعريفه خال من اشتراط الفصاحة في
الكلام . . ولعل هذا راجع الى أن لغته غير لغتنا التي تمتاز
بأنها الفصحى .

ويتساءل المؤلف بعد ذلك : كيف فهم علماء البلاغة
عندنا معنى المطابقة أولا ؟ وما الوسائل التي اعتمدوا عليها في
دروس البلاغة لتحقيق هذه المطابقة ثانيا ؟ وما هذه العلوم
البلاغية ثالثا ؟

ويستطرد بعد ذلك كأنه يجيب على ما سبق فيقول : (اذا
وقفنا عند هذه المسائل التي انتهت اليها أبحاثهم رأيناهم
يذكرون أن خطاب الذكي يخالف خطاب الغبي ، وخطاب
الموقن غير خطاب المتردد ، وعلى هذا الأساس غالبا تقوم

المطابقة ، لتغذية " قوة الادراك " ، ووسيلة ذلك التصرف في الجملة وعناصرها ، خبرا وانشا ، فضلا ووصلا ، تعريفا وتثكيـرا ، ذكرنا وحذنا ، ثم الاختلاف بين التشبيه والمجاز والكنائية ، ما لا يتجاوز كله دراسة الجملة والصورة دراسة قاصرة . ومعنى ذلك أمور ثلاثة :

- (١) غاية البلاغة فيما يند ومن هذه الدراسة العلمية يغلب عليها الاتجاه الى القوة الفكرية واقناع العقل اقناعا جزئيا قائما على ذكائه أو بلاذته وعلى شكه أو انكاره .
- (٢) ووسيلة ذلك الصورة ، التي تختصر علم البيان وقسما من البديع ، والجملة الخبرية والانشائية ، وقد درستنا من بعض النواحي لا غير .
- (٣) وعلم المعانى هو الكفيل بدراسة الجملة عندهم ، كما أن البيان يدرس الصورة تشبيها ومجازا وكناية . وأما البديع فقد عدوه شيئا ثانويا لا دخل له في صميم البلاغة لأنه قائم على دراسة طرق التحسين الذي يلحق بالكلام كالسجع والجناس والمقابلة وما الى ذلك) . (١)

ولانجد في هذا الكلام جديدا سوى استعمال المؤلف تعبيرا " قوة الادراك " بدل كلمة " العقل " ، ويقول ان المطابقة تقسم لتغذيتها ووسيلة ذلك التصرف في الجملة وعناصرها . . وهو كلام غامض الى حد ما .

والمؤلف يرى أن دراسة الجملة والصورة دراسة قاصرة . .
ونحن نرى أن علم البيان لم يقصر في دراسة الجملة أو الصورة . .
ولعله أراد أن دراسة الجملة والصورة وحدهما لا يكفي بل لابد
من تجاوزهما الى الفقرة والعبارة والنص بكامله .

ويقول : ان غاية البلاغة يغلب عليها الاتجاه الى القوة
الفكرية واقتناع العقل اقناعا جزئيا . . ووسيلة ذلك الصـورة .
بينما الحقيقة أن الصورة خيالية فهي لا تقنع العقل بل تقنـع
المحاطفة والوجدان .

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن غاية البلاغة ووسيلتها
فيقول : (أما عن غاية البلاغة ، فليس المراد من الكلام وقفا على
تغذية الفكر وحده ، فهناك قوى نفسية أخرى تعنى البلاغة بها
لتغذيتها وتهذيبها ، من ذلك " قوة الانفعال " و " قوة الارادة " ...
وأما عن الوسيلة فلم تكن اللغة العربية محصورة في الصورة والجملة
وحدهما ، فهناك الحرف والكلمة والعبارة والأسلوب عامـة ،
وهناك الفنون الأدبية المختلفة شعرا ونثرا كالخطابة والرسالة
والوصف والجدل وغيرها مما أهملته هذه الدراسة أو العـلوم
البلاغية) .

ونفهم من هذا القول أن البلاغة عند المؤلف تمتد غايتها
وتتسع حتى تشمل قوة الادراك والانفعال والارادة في الانسان .
وأن وسيلة البلاغة قاصرة لأنها تعتمد على الجملة والصورة فقط .
وأورد هنا رأى الدكتور شوقي ضيف عندما تكلم عن أسباب
وقوف أسلافنا عند الكلمة والجملة والصورة . . فقد أرجع ذلك الى
أسباب منها :

١- أنهم قصدوا بقواعدهم البلاغية تحليل بلاغة العبارة القرآنية وما تحمل من خصائص تعبيرية وصور بيانية واستوفوا تصوير ذلك تصويرا دقيقا رائعا .

٢- طبيعة شعرنا القديم فقد كان في جملة وجدانيا غنائيا يجرى في أسلوب عام واحد سواء في معانيه أو في صوره وأخيلته أو في صيغه وتعبيره . . . وتعارف الشعراء على أن كل بيت في القصيدة وحدة مستقلة ، وهذه الوحدة هي أساس البلاغة والجمال الفني .

لذلك لم توجد في محيط الشعراء ولا في محيط البلاغيين نظرة شاملة عامة للقصيدة ، بل ظلت نظرتهم تنصب على الجزئيات وأفراد الأبيات والعبارات . . . ولذلك رسخ في نفوس البلاغيين والنقاد أن محور البلاغة والبراعة البيت المفرد المسور بالقافية وكادوا لا يتجاوزونه في قواعدهم النقدية والبلاغية إلا بعض نظرات طائفة أو عبارة عابرة .

ويستطرد الدكتور ضيف مبيّنا ما طرأ على الشعر والنثر في العصر الحديث فيقول : (أما نحن فنختلف عنهم من هذه الوجهة اختلافا واضحا إذ استحدثنا في مجال الشعر أساليب وفنون جديدة من الشعر القصصي والمسرحي ، ومن الشعر الغنائي الوجداني بما صنعناه فيه من شعر رومانسي ذاتي ومن شعر واقعي اجتماعي ، ومن شعر رمزي ، وما ابتكرنا فيه من أنماط تتصل بالشكل على نحو ما هو معروف في الشعر المرسّل والشعر الحر .

أما في مجال النثر فإن تجديدنا كان أبعد عمقا إذ استحدثنا المقالة بجميع صورها السياسية والأدبية والاجتماعية ، واستحدثنا القصة والأقصوصة والمسرحية وحتى الخطابة نفذنا فيها إلى نمط جديد من الخطابة

القضائية . وهذا التطور الواسع لأدبنا فى شكله ومضمونه وأساليبه وفنونه
حرى أن يقابله تطور فى بلاغتنا بحيث تصور فنوننا الشعرية والنثرية وأساليبها
المتنوعة وبحيث تكون صورة صادقة لحياتنا الأدبية الحديثة) . (١)

وقد أوردت هذا الكلام لأفسر به ذاك وأوضح به ما يقصده
الأستاذ الشايب من وسيلة البلاغة .

ويبدو أن المؤلف متأثر الى حد كبير بأراء الأستاذ جينونج فى
المطابقة وربط البلاغة بعلم النفس لذلك نجده يقول : (لفهم
المطابقة لمقتضى الحال فهما عميقا شاملا يجب أن نقيمه - من حيث الغاية
والوسيلة - على طبيعة النفس الانسانية ومواهبها من ناحية ، وعلى الأدب ؛
أسلوبه وفنونه المختلفة من ناحية أخرى) . ثم يثلو ذلك بقوله :
(علم النفس ينفعنا هنا ، ويتعاون مع النقد الأدبى والبلاغة فى
تفسير مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وفى بيان موضوع الدراسة البلاغية
بيانا مفصلا منظما ، فكيف نوضح ذلك ؟) (٢)

ويستخدم الكاتب من علم النفس القوى المعنوية الثلاثة ويحدد ثلثا
عنها على أنها مجال المطابقة الفسيح وهى : قوة الإدراك - قوة
الانفعال - قوة الإرادة .

قوة الإدراك = هى قوة الفهم والفكر والعقل فى الانسان - ويناسبها
الأسلوب العلمى .

قوة الانفعال = هى قوة العاطفة والتخيل فى الانسان -
ويناسبها الأسلوب الأدبى .

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٧٦-٣٧٨ ط ٢ .

(٢) الأسلوب ص ٢١ .

قوة الإرادة = وهى نتاج مجموع الأمرين السابقين - وهى تناسب
الخطابة التى تعتمد على الإقناع والتأثير معاً فى
أسلوبها . (١)

وأنا أرى أن هذه الأمور تدرس فى علم الأدب والنقد . . بل أن
الأدب فى العصر الحديث تناولها وضمها الى أهوايه . . وليس فى
ضمها الى البلاغة من فائدة الا زيادة فى التقسيمات والتفريعات .
والمؤلف بعد أن تحدث بأسهاب عن قوة الإدراك والانفعال
والإرادة قال فى النهاية : (وقد رأيت أنها جميعاً تندرج تحت
هذا المعنى العام لكلمة الأدب) . (٢)

وانى لأتساءل : ما جدوى كل ذلك لعلم البلاغة ؟ وما الجديد
الذى أضافه فأفاد ؟ .. ان من واجب الأديب والبليغ أن يطلع
على كثير من العلوم الأخرى ومنها علم النفس .. لأن ذلك يفيد
على وجه الإجمال .. ولكن أن يصبح علم النفس قسماً من أقسام
البلاغة .. أو عاملاً من عوامل تربية الذوق البلاغى .. فهذا
يعد بنا عن دائرة تجديد البلاغة الذى نرجو أن يكون فى
صميم موضوعها وموجزها ومختصرها وواضحها .. ليساعد الدارسين
وفيدهم .

ثم ما قيمة هذه التعبيرات التى نقلناها عن علم النفس أو
اقتبسناها منه .. وهو بالتالى - علم النفس - مقتبس عن الغرب ..

(١) الأسلوب ص ٢٢ و ٢٣ .

(٢) ص ٢٤ .

أليست :

قوة الإدراك هي " التفكير " أى الفهم والعقل .

وقوة الانفعال هي " التصوير " وهو أثر العاطفة والخيال .

وقوة الإرادة هي أثر الإدراك والانفعال وتتمثل فى

" التعبير " أى الأسلوب والصياغة .

فما الزيادة التى أفدناها واقتبسناها من علم النفس الحديث ..

إن هي الا أسماء استعمرناها .. وعندنا ما يعوضنا عنها ويفضلها ..

أم أن التجديد إحلال أسماء مكان أخرى .. بينما الموضوع

والجوهر هو هو لم يتغير !! أم أننا إذا لم نقتبس من الغرب

لا نكون مجردين ؟!

جـ - فى علوم البلاغة :

يتحدث المؤلف فى هذا الفصل (١) عن البلاغة من
الوجهة الفنية وأنها فى حاجة الى علوم مساعدة أهمها : النحو
والمنطق .

فالنحو : مهمته فى استقامة تركيب الجملة بصرف النظر
عن مقتضى الحال . ومهمة البلاغة بمعد ذلك مراعاة هذا المقتضى
وكسوة العبارة بالجمال .

وبعد شئ من الشرح لما سبق يقول المؤلف : (وهذا
الذى ذكرناه هنا هو ما ألم به الأستاذ عبد القاهر الجرجاني فى

معرض القول فى نظم الكلام وتأليفه) . ويقول فى الهامش :
(ويلاحظ أن نظم الكلام يقابل الأسلوب ولكننا آثرنا الثانية
لخفتها وشيوعها) . (١) والسؤال : ما الجديد فى ذلك
اذن ؟ !

ويتحدث المؤلف بمد ذلك عن المنطق - وهو العلم
الذى اشتكت منه البلاغة من الشكوى - فيقول : (وأما المنطق
فانه يعلمنا طرق التفكير الصحيح ، ويشرح لنا خواص الفكرة
الصحيحة فى ذاتها ، لا يعنيه بمد ذلك أكانت مفهومة للناس
أم لا ، فعلى البلاغة بمد تسلم هذه الأفكار الصحيحة أن تقوم
بجهد فى خطير فتبسط الأفكار وتحسن ترتيبها وعرضها وأدائها
بعبارة واضحة جميلة) .

اذن فالبلاغة هى التى تفيد المنطق وليس العكس .
وإذا أقررنا بأن علم النحو مهم ومهم جدا لعلم البلاغة فما أهمية
المنطق ؟ .

ويذهب المؤلف يستشهد بكلام بشر بن المعتز " ومن
أراد معنى كريما فليلتص له لفظا كريما . . . الخ) . وقد تساءلت
ما مناسبة هذا الاستشهاد ؟ وقلت لعله أراد أن مهمة البلاغة
أن تلتص بالمنطق ألفاظا كريمة . . ويقول بمد ذلك : (وخلاصة
هذا الفصل أن هنا مسألتين يجب أن تتوافرا فى الكلام البليغ
هما : الصحة والمناسبة . فالأولى من وهى المنطق والنحو ،

والثانية هي الميزة التي يختص بها الفن البلاغي الجميل .

وفي النهاية يقول : (.. ان كلا من النحو والمنطق علم

مستقل لا يدخل في صميم البلاغة ولكنه يمهدها ...)

وأستطيع أن أخص هذا الفصل كله في ثلاثة أسطر أو

ثلاث عبارات هي :

النحو : يصح العبارة

المنطق : يصح الفكرة

البلاغة : تعطى الجمال والوضوح والقوة .

ولا اعتراض لنا على ذلك .. ولكن أين الجديد فيه ؟ !

د - البلاغة بين العلم والفن :

استغرق الحديث في هذا الفصل ست صفحات . (١)

ويتلخص في أن :

أصول البلاغة وقواعدها هي : علم البلاغة ، تطبيقها عمليا

بانشاء الكلام البليغ هو فن البلاغة . وبمده شرح لهذا الكلام

يقول : (وانما نذكر في هذا الفصل صلة البلاغة بكل من العلم

والفن مع الاشارة الى فوائدها في كل ناحية من هذه النواحي

متوخين الايجاز مادام كافيا) . ويذهب بمده قليل فيتساءل : ألا

يستطيع الانسان أن يكون بليفا دون أن يدرس قواعد البلاغة ؟ .
ويستطرد مجيبا بتفصيل عن هذا السؤال مبينا فائدة قواعد البلاغة
للموهبين وغير الموهوبين . . . وأن مسائل البلاغة شديدة الصلة
بأصول النقد الأدبي من حيث الارشاد والافادة حتى تسمى أحيانا
البلاغة النقدية .

ثم يعقد صلة بين الفن العملى النافع وبين البلاغة —
ناحيتين : من حيث طبيعتهما ومن حيث غايتهما ، ثم يخلص الى أن
البلاغة أشد ما تكون صلة بالفن الجميل لأنها فى الحقيقة أحد هذه
الفنون كالرسم والتصوير الخ .

ثم يتحدث عن : القدرة على التعبير وكيف أنها هبة طبيعية
ولكنها متفاوتة الدرجات بين الناس وفى الأحوال المختلفة . ويرى
أن طالب البلاغة كغيره من طلاب الفنون الأخرى لا يكتفى بالموهبة
بل يحاول دائما صقلها ليصل الى مستوى النبوغ والابتكار .

ويرى المؤلف أن الأسلوب البلاغى معرض لأخطاء يقع فيها
الطالب منها : التهاون - الثقة العمياء - الشف بالمحسنات -
تكلف الاغراب والمبالغة . ثم يتحدث عن فكرة شائعة بين الفنانين
كثيرا ما يتشبث بها طلاب البلاغة وهى أن قواعد الفن وقوانينه تطفى
على حرية الطالب وتحد من كفايته . . ويملّق الكاتب على ذلك مدافعا
هذا الوهم الذى شاع بين الطلاب . وأخيرا يقول : ان البلاغة
تسيطر على ميزات الفنون الجميلة الأخرى وتمتاز بهذا الافصاح
الواضح .

ويختم الفصل بقوله : هذا وقد درسنا هذا الموضوع دراسة مفصلة في كتابنا (أصول النقد الأدبي) فيحسن الرجوع اليه .

هـ - موضوع علم البلاغة :

يقدم الكاتب لهذا الفصل (١) بقوله : (رأينا أن البلاغة العربية انتهت في أبحاثها الى علمين أساسيين ، المعانى والبيان ، وجعلت البديع ملحقا بهما ، كما لاحظنا أن مباحث هذه العلوم لا تخرج في جملتها عن دراسة الجملة والصورة لتغذية قوة الادراك النفسية . وسنرى هنا كما بينا من قبل ، أن موضوع البلاغة أعم من ذلك وأشمل ، وأنه لا حاجة بنا مطلقا الى هذه الأسماء العلمية - كالمعاني والبيان والبديع - التي تطلق على نقط جزئية لا تستوجب هذه العناوانات .)

ومن هذه المقدمة ندرك أن هذا الفصل من الأهمية بمكان . فسنرى فيه أن موضوع البلاغة أعم وأشمل من تلك الجزئيات : المعاني والبيان والبديع .. وان كنا لا نقره ولا نتفق معه على أنها جزئيات أو عناوين .

ويتناول الكاتب بعد ذلك موضوع البلاغة فيقول : (يصرف موضوع البلاغة بالرجوع الى أهم خواصها وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال) ويشير في الهامش الى أن هذا الكلام من كتاب الاستاذ

جينوتج .

ويستطرد قائلا ان أبحاث علم البلاغة تدور حول هذه المسألة
وبيان ما يناسب وما لا يناسب ، لأن ما يحسن في خطاب جماعة أو
في حال ما ، قد لا يحسن مع جماعة أو في حال أخرى .. فالمسألة
هى بيان الأنسب (لذلك يمترضا دائما هذان السؤالان :
ماذا نقول ؟ وكيف نقول ؟

والاجابة عن السؤال الاول تتناول القواعد الخاصة بمادة
الكلام البليغ من حيث موضوعاته ، وأفكاره ، وعواطفه ، وأخيلته .
كما أن الاجابة عن السؤال الثانى تقوم على طريقة التعبير عن هذه
المادة وأدائها

ثم بعد حديث قصير عن التعبير واختلاف الأسلوب وارتباط ذلك
بالفكرة والموضوع .. يحصر موضوع البلاغة فى بابين أو كتابين -
كما سبق وذكر فى المقدمة : الأسلوب ، والفنون الأدبية .
(١) الأسلوب : وفى هذا القسم من علم البلاغة ندرس القول بعد
التي اذا اتهمت كان التعبير بليفا أى واضحا مؤثرا ، فندرس :
الكلمة والصورة والجملة والفقرة والمعبارة ، والأسلوب من حيث أنواعه
وعناصره وصفاته ومقوماته وموسيقاه ، وقد يجد الطالب فى هذا
الدرس شيئا من التفاصيل المحتاجة الى أناة وصبر لكنها خطيرة
النتائج فى فن البيان .

وفى هذا القسم نضع البلاغة العربية ، فعلم المعانى يدخل
كله فى بحث الجملة ، وعلم البيان وأغلب البديع يدخل فى باب
الصورة ، ويبقى المباحث الأخرى مهمة . . . نعم انك واجد

بلاشك في كتب الأقدمين كالصناعتين ودلائل الاعجاز وأسرار
البلاغة والمثل السائر مباحث قيّمة تتصل بالمعبرة من الناحية الفنية
العامة ولكنها غير مستوفاة .

(٢) الفنون الأدبية : وقد تسمى قسم الابتكار . وهنا ندرس
مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها وما يلائم كل فن
من الفنون الأدبية ، وقواعد هذه الفنون ، كالقصة والمقالة والوصف
والرسالة والمناظرة والتاريخ . وليلاحظ أن الدراسة هنا شكلية
كذلك ، فهي لا تخلق المادة للطالب ولا تعدله الأفكار والآراء ،
فذلك من عمل الطالب وقراءته الخاصة وتجاربه الحيوية ، وعلى
البلاغة أن تشير فقط الى ما يتبع في تأليف المعاني وتنظيم الفنون .
وهنا أشير الى مسألة هي نتيجة لما أسلفنا ، تلك أن علم
البلاغة يميل في جملة الى الناحية الشكلية أو الأسلوبية ، فهو
لن يعرض لقيمة الفكرة بل لملائمتها ، ولا يخلقها لكن ينسقها ..
ويقول الكاتب : كما لاحظنا قصور علوم البلاغة عندنا في قسم
الأساليب ، كذلك نجد لها قاصرة في قسم الفنون الأدبية .

وبالموازنة بين أبحاث البلاغة كما دونتها الكتب العربية
الأخيرة ، وبين موضوعها كما يجب أن يكون نستطيع أن نقرر
النتائج الآتية :

(١) ان نصف البلاغة النظرية مفقودة في اللغة العربية ، أكثره في
قسم الفنون الأدبية ، وبقية في باب الأسلوب . على أن ما ترجم
من خطابة أرسطو وشعره انما نقل على أنه فلسفة لا أدب ، وكانت
الترجمة قاصرة فلم تفد كثيرا .

(٢) ان شطرا من الاسلوب قد درس تحت عنوان المعانى والبيان والبديع ، وهو شطر على خطوره يعوزه التسيق ، ولا حاجة بنا الآن الى هذه الأسماء التى تسمى علوما خاصا لأنها فصول بلاغية يسيرة .

(٣) ان البلاغة العربية فى حاجة الى وضع على جديد يشمل هذه الأبواب والفنون التى أشرنا اليها ، ويصل بينها وبين الطبيعة الانسانية وملابساتها الزمانية والمكانية ، حتى يخدم الأدب ، وذلك كله غير البحث التاريخى الذى يفرد له درس خاص .

(٤) ان الأدباء هم أولى الناس بدرس البلاغة حتى يخلصوها من أساليب الفلاسفة ومذاهبهم وألغازهم فذلك هو الذى أفسد بلاغتنا وحولها أبحاثا لفظية عقيمة أشبه بالرياضة والكيمياء .

وأخيرا يختم هذا الفصل بقوله :

ولست أدري أنى أفعل شيئا من ذلك فى هذه الفصول وحسبى
أمران :

الأول : هذه الإشارة الى ما يجب أن ننهض به .

الثانى : أنى تناولت الأسلوب من بعض نواحيه العامة ، فاتخذت هذا الدرس فاتحة لمواصلة البحث علنا ننتهى الى وضع علم البلاغة العربية .

وبعد الانتهاء من عرض هذا الفصل عرضا موجزا نستطيع القول بأن هذا الفصل الخاص من أهم الفصول فى الباب الأول حيث يحدد فيه المؤلف خلاصة منهجه الجديد للبلاغة ان يحصر موضوع البلاغة فى قسمين ، رئيسيين هما :

(١) الأسلوب .

(٢) الفنون الأدبية .

وفى القسم الاول = الأسلوب : يرى المؤلف ان ندرس :

أ - الكلمة والصورة والجملة والفقرة والعبارة .

ب - الاسلوب : أنواعه - عناصره - صفاته - مقوماته - موسيقاه .

ج - المعانى والبيان والبديع .. على ان يدخل علم المعانى كله

فى بحث الجملة ، وعلم البيان واغلب البديع فى باب الصورة .

أما القسم الثانى = الفنون الادبية : ويمكن ان نسميه قسم الابتكار ،

فندرس فيه :

أ - مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها وتنسيقها .

ب - قواعد الفنون الادبية كالقصة والمقالة والوصف والرسالة

والمناظرة والتاريخ .

وبنظرة متأملة الى هذا المنهج نجد رأيا حديدا فى تكوين علم

البلاغة من جديد يستحق النظر والتقدير ، كما نجد هناك أيضا

ما يستحق التعليق .

فالقسم الثانى - فنون أدبية .. وهى تسمية المؤلف نفسه ..

بينما المنهج من أجل البلاغة - فهل يريد أن يدمج فنون

الادب بفنون البلاغة ؟ وهل يعتبر هذا تجديدا ؟ وقد ذكرنا

من قبل أن البلاغة كانت فى أول أمرها مختلطة بالنقد الأدبى

ثم استقلت عنه بعد أن استقلت أبحاثها وتكونت شخصيتها

ومع ذلك ظلت على صلة به وتلتقى معه فى كثير من المسائل

والتطبيقات .. فما حاجتنا الى ادماجهما مرة أخرى ؟ .
وهناك أيضا شىء يستحق السؤال .. ففى (أ) من القسم الثانى
وضع المنهج لدراسة : مادة الكلام من حيث اختيارها وتقسيمها
..... الخ . بينما (أ) أيضا من القسم الأول نجد فيه : الكلمة
والجملة والفقرة والمعبارة والسؤال الآن : ما الفرق بين أ
فى القسم الأول .. وأ فى القسم الثانى ؟ وهل مادة الكلام
شىء آخر غير الحرف والكلمة والجملة والمعبارة ؟ هذه أمور كان
جديرا بالمؤلف أن يوضحها .. ولكن يبدو أنه كان متأثرا
بأسلوب وأفكار جينونج فلم يلتفت الى هذه النقاط ولم يوضحها .
وأيضا لم يوضح قوله : (وليلاحظ أن الدراسة هنا شكلية
كذلك ، فهى لا تخلق المادة للطالب ولا تعدله الآراء والأفكار ،
وعلى البلاغة أن تشير فقط الى ما يتبع فى تأليف المعانى) .
فهل يريد بقوله .. شكلية .. الدراسة النظرية دون التطبيق ؟
وأن التطبيق يوكل الى الطالب ؟ هذا منهج جديد كان جديرا
بالمؤلف أن يكتبه بأسلوب علمى محدد الألفاظ دقيق المعنى .
ويقول المؤلف فى رقم (١) من استنتاجاته : (ان نصف
البلاغة النظرية مفقود فى اللغة العربية ، أكثره فى قسم الفنون
الادبية وباقيه فى الاسلوب) ويبدو أنه يقصد بكلمة مفقود
متفرقا حتى يستقيم المعنى .

ويقول : (على أن ما ترجم من خطابة أرسطو وشعره
انما نقل على أنه فلسفة لا أدب) . وأنا أقف أمام هذا الكلام
متعجبا .. فأى مطلع على ما ترجم من خطابة أرسطو سيجد فيه

أبحاثا بلاغية كثيرة وخاصة في الكتاب الثالث .. فمثلا اذا
نظرنا لما يعد من مقدمة البلاغة عندنا نجده تكلم عن الفصاحة
وعن الغرابة والغريب في الفصل الثالث وعن العبارات الفخمة
في الفصل العاشر. ومن أبحاث المعاني : نجده تكلم عن
استعمال المشترك والمترادف والجمع والافراد ف ه (١) ،
واستعمال الجمع في مكان المفرد ف ٦ ، وتكلم عن الاجاز
والاطناب وفي الاسلوب ف ٩ و ١٢ . ومن أبحاث البيان :
نجده تكلم عن استعمال الاستعارة وشروط الاستعارة الجيدة
والاستعارات غير المطابقة ف ٢ ، وفائدة الاستعارة في الكلام
ف ١٠ ، وبين التشبيه وكيف ينضبط وذكر علاقاته بالاستعارة
كما ذكر الفروق بينهما ف ٤ ، وساق شواهد على التشبيه الحسن
من أقوال أدباء وخطباء اغريقين كهوميروس وأفلاطون وبيريكلين
وديموستين ف ٣ ، وأشار كذلك الى الكناية ف ٣ . ومن أبحاث
الهديع : نجده ذكر التقسيم والجمع في المعاني ف ٦ ، والمبالغة
والاغراق ف ١٠ ، كما ذكر الاتزان في الشعر وفي النثر والفرق
بينهما ف ٨ ، كما أشار الى السجع والجناس اشارات متفرقة .
وله الى جانب ذلك أبحاث متفرقة في الاسلوب - ولعل هذه
الأبحاث هي التي تأثر بها المؤلف في كتابه " الأسلوب " -
فقد تحدث أرسطو عن الأسلوب وقيمه ووضوحه وصفاته الخاصة
ف ١٠ ، والشروط العامة للأسلوب وفتور الأسلوب وسلامته وشروط

(١) ف ٥ ، أي الفصل الخامس ، وهكذا كل ف تأتي بعد ذلك .

ذلك ف ٣ و ١٢ ، وشرح شرا^{١٠} الأسلوب وبسطه ووسائط ذلك ف ٦ ،
كما بين الأسلوب الكتابي والأسلوب الخطابي والأسلوب الشعري
والأسلوب النثري ف ١٢ ، وتحدث عن اختلاف الأسلوب باختلاف
الموضوعات وغير ذلك . (١)

هذه الأبحاث البلاغية الكثيرة التي اشتمل عليها كتاب الخطابة
تدل على أنه كتاب أدبي في المقام الأول وبلاغى في المقام الثانى ..
ويبدو أن العناية الفائقة بفلسفة أرسطو وقت ترجمة هذا الكتاب
جعلت بعضهم يحسبونه كتابا في الفلسفة .

ونعمود فنقول : ان ماورد في هذا الفصل من رأى جديد فى
وضع علم البلاغة وتكوينه على أساس خطة جديدة رأى يستحق النظر
والبحث . وهو وان كان ورد هنا مجملا فاننا نتطلع الى تفصيله فيماأتى
من فصول الكتاب .

(١) مناهج تجديد ص ١٥٢ و ١٥٤ أمين الخولى / . والخطابة (الترجمة
المصرية القديمة لأرسطو) د . عبدالرحمن بدوى سنة ١٩٥٩ م .

التعريف بالأسلوب

يرى الاستاذ الشايب أن البلاغة هي الأسلوب .. وهو هنا في
الباب الثاني من كتابه يعرفنا بالأسلوب كما يراه ويقصده .
وقد قسم الحديث عن الأسلوب الى ثلاثة فصول ، هي :

- أ - حد الأسلوب .
- ب - تكوين الأسلوب .
- ج - عناصر الأسلوب .

أ - حد الأسلوب :

يرى الاستاذ الشايب ان لكلمة " الأسلوب " وجهين :
الاول : ان الناس ربما قصروا كلمة الاسلوب على الابد وحده
دون سواه وانه يدل على المنصر اللفظي الذي يتألف من الكلمات
فالجمل فالمبارات .. والواقع ان هذه الكلمة يرجع الفضل في
نظامها اللغوي الظاهر الى نظام آخر معنوي انتظم وتألف في
نفس الكاتب أو المتكلم فكان بذلك أسلوبا معنويا .. ومعنى
هذا : أن الاسلوب في حقيقته معان مرتبة قبل ان يكون ألفاظا
منسقة ، وهو يتكون في العقل قبل أن ينطق به اللسان أو
يجرى به القلم . فهذا وجه .

وليس هذا الوجه بجديد فقد عرفنا حكما قديمة تتحدث عن
هذا المعنى اذكر منها : (العقل بتفكيره يدبر ، واللسان
بحسن منطقه يعبر) ، (لولا العقل لما أمكن الكلام ..
ولولا اللسان ما عرف ما في الجنان) ، ومن هذا القبيل
قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : " المرء مخبوء تحت
لسانه ، حتى اذا نطق أفصح عن عظمته أو نقصانه " ولعل
هذه الاقوال وأمثالها هي ما دعت بعض العلماء الى القول
بأن شخصية الانسان يدل عليها أسلوبه وكلامه .

ومن هذا القبيل قول الامام عبد القاهر : " لا يكون الكلام
يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه
ولا يكون لفظه أسبق الى سمعك من معناه الى قلبك .

وقولهم : يدخل فى الأذن بلا اذن ، فهذا مما لا يشك العاقل فى أنه يرجع الى دلالة المعنى". (١)

والوجه الثانى : أن كلمة أسلوب صارت هذه الايام حقا مشتركا بين مختلف العلوم والفنون .. لذلك يستعملها الادباء والموسيقون والرسامون وغيرهم .. (لهذا كان اطلاقها على هذا المنصر اللفظى ضرورة اقتضاها التعليم أولا ، ولانه هو مظهر العناصر الاخرى ومعرضها ثانيا) .

ونستخلص من ذلك أن الاسلوب نوعان : خاص وعام . الاول خاص بالادب دون سواه ، والثانى عام يطلق على طريقة كل علم وفن فى المنهج والأداء . وليس فى هذا جديد .

ويتساءل المؤلف بعد ذلك .. (فما الأسلوب ؟) :
ويجيب : (فى لسان العرب يقال للسطر من النخيل أسلوب ، وكل طريق ممتد فهو أسلوب ، والاسلوب الطريق ، والوجه ، والمذهب . يقال أنتم فى أسلوب سوء ، ويجمع على أساليب ، والاسلوب الطريق . تأخذ فيه ، والاسلوب الفن يقال أخذ فلان فى أساليب من القول أى أفانين منه .)

ويخلص من ذلك فيقول : هذه المعانى التى نقلناها عن ابن منظور قسمان : قسم حسى ، وقسم معنوى .. ويذهب يعرف كل قسم بما لا يخرج عن الكلام السابق . ثم يقول : (على أن هذه المعانى كلها تنتهى بنا

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٠٦ ط دار المعارف ببيروت . وانظر كذلك ص ٣٠.

عند فكرة اذا أردنا استعمالها في باب الادب كانت ملائمة ، فالاسلوب :
هو فن من الكلام يكون قصصا أو حوارا ، تشبيها أو مجازا أو كناية ،
تقريرا أو حكما وأمثالا ...)

وانى لأتساءل : أهذا تعريف للاسلوب أم ماذا ؟ وقوله :
(هذه المعانى كلها تنتهى بنا عند فكرة اذا أردنا استعمالها فى
باب الادب كانت ملائمة) فماذا يكون اذا أردنا استعمالها فى
باب البلاغة وهو المهم ؟ ولكن المؤلف لا يجيب عن هذا السؤال
ويستمر فى كتابه يتحدث عن الاسلوب الادبى .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى تعريف الاسلوب عند ابن خلدون
فيقول : (واذا تركنا لسان العرب الى مقدمة ابن خلدون رأينا
يتناول الاسلوب فى فصل صناعة الشعر ووجه تعلمه حيث يقول :
" ولنذكر هنا سلوك الاسلوب عند أهل هذه الصناعة - صناعة الشعر -
وما يريدون بها فى اطلاقهم ، فاعلم أنها عبارة عن المنوال
الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه ، ولا يرجع الى
الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الاعراب ،
ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التركيب الذى هو وظيفة
البلاغة والبيان ، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذى هو
وظيفة العروض ، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية ،
وانما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على
تركيب خاص وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ،
ويصيرها فى الخيال كالقالب أو المنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة

عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعله البناء في
القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب
الوافية بمقصود الكلام ، ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان
العربي فيه ، فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به ، وتوجد فيه
على أنحاء مختلفة ، فسؤال الطلول في الشعر يكون بخطاب الطلول
كقوله : (يا دارمية بالعليا فالسند) ويكون باستدعاء الصحب للوقوف
والسؤال كقوله : (قفا نسأل الدار التي خف أهلها) أو باستبكاء
الصحب على الطلول كقوله : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) وأمثال
ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه ، وتتنظم التراكيب فيه بالجمل
وغير الجمل انشائية وخبرية ، اسمية وفعلية ، متفقة وغير متفقة ، مفصلة
وموصولة على ما هو شأن التراكيب في الكلام العربي ، في مكان كل كلمة
من الأخرى يعرفك فيه (كذا) ما تستفيدة بالارتياض في أشعار العرب
من القالب الكلي المجرد في الذهن من التراكيب المعينة التي ينطبق
ذلك القالب على جميعها . وهذه القوالب كما تكون في المنظوم تكون في
المنثور فان العرب استعملوا كلامهم في كلا الفنين وجاءوا به مفصلاً
في النوعين ففي الشعر بالقطع الموزونة والقوافي المقيدة واستقلال
الكلام في كل قطعة وفي المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع
وقد يقيدونه بالأسجاع وقد يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة في
لسان العرب .

ومع احترامي لابن خلدون ومقدمته فان تعريفه هذا للأسلوب قد
استفد غرضه في عصره ، ولم يعد صالحا للعرض في العصر الحديث .

ويذكرني هذا بتعريف الأسلوب عند "بوفون" حيث عرضه في
يسر ووضوح . . ففي عام ١٧٥٣م دعا المجمع اللغوي الفرنسي بوفون
حيث ألقى محاضرة قيمة في المجمع عرض فيها بعض خواطره وأفكاره
عن الأسلوب فعرّفه بأنه : عبارة عن النظام والحركة التي يضمها المرء في
أفكاره ، فإذا ربطت هذه الأفكار بدقة وضمت صار الأسلوب شيئا قويا
موجزا ، أما إذا تركت تتتابع في بطل ولا تأتلف إلا بفضل رباط الكلمات
مهما كانت أنيقة فإن الأسلوب يكون مسهبا رخوا مملا . (١)

وهذا التعريف للأسلوب عند بوفون يذكرني بتعريف الأسلوب
في صدر هذا الفصل حيث عرّفه المؤلف بأنه : معان مرتبة قبل أن يكون
الفاظا منسقة وهو يتكون في العقل قبل أن ينطق به اللسان .
ولو أنه عاد بعد ذلك فاعتبر الناحية الشكلية في الأسلوب فقال بعد أن
علق على تعريف الأسلوب عند ابن خلدون وبعد أن استخلص منه نتائج
قيّمة : (والذي يعنينا هنا أن الأسلوب منذ القدم كان يلحظ في
معناه ناحية شكلية خاصة هي طريقة الأداء أو طريقة التعبير التي
يسلكها الأديب لتصوير ما في نفسه أو لنقله الى سواء بهذه العبارات
اللفوية ، ولا يزال هذا هو تعريف الأسلوب الى اليوم ، فهو طريقة
الكتابة أو طريقة الانشاء ، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير
بها عن المعاني قصد الايضاح والتأثير ، أو " الضرب من النظم والطريقة
فيه " . هذا تعريف الأسلوب الأدبي بمعناه العام .)

(١) راجع رأي بوفون في مجلة الرسالة عدد ٦١٧ ص ٤٤٦ وما بعدها .

ويشير المؤلف في الهامش الى أن هذا التعريف هو ماورد فنى
دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٣٦١ وكتاب جينونج ص ١٦٠
ويذهب المؤلف بعد ذلك يتحدث مرة أخرى حديثا مسهبا عن
الأسلوب وكيف يختلف فى صوغ العبارات كما يختلف فى اختيار الافكار
ويضرب لذلك أمثلة ثم يخرج من ذلك بقوله : (ان الأسلوب هو
طريقة التفكير والتصوير والتعبير) ثم يقول : (والحق أن هذا التعريف
الآخر يتناول عناصر الأسلوب كلها ، ويقوم على أساس الصلة بينها وان
كان العنصر اللفظي مظهر الفكرة والصورة لأنه الجانب الحسى لهما
زيادة عما يتوافر له من جمال خاص) .

ثم يقول : (وأعود مرة ثانية الى تعريف الأسلوب فقد غمّ الأمر
على بعض الدارسين بصدور ذلك ..)

وأنا أقول : لا عجب أن يغمّ أمر الأسلوب على الدارسين اذا كان
مجرد تعريفه بهذا الكم وهذه الكيفية .

ولنتابع مقاله بعد ذلك : (أعود لأقول : ان تعريف الأسلوب
ينصب بداهة على هذا العنصر اللفظي فهو الصورة اللفظية التى يعبر
بها عن المعانى أو نظم الكلام وتأليفه لأدباء الأفكار وعرض الخيال ،
أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأدباء المعانى . الا أننا - حين نريد
الايضاح والتقسيم - مضطرون الى ملاحظة أمرين :

أولهما : وحدة النص الادبى الذى لا يمكن الفصل بين عناصره
فاللفظ لا يتصور أبدا بدون سائر العناصر الادبية كما أنها لا تهدو بغير
اللفظ .

ثانيهما : أن الفرق بين الاسلوب العلمى والادبى مثلا لا يمكن

الا بملاحظة ما وراء* اللفظ من فكرة أو عاطفة أو خيال ، لذلك كان هناك فرق بين تعريف الأسلوب وتحليله وتقسيمه ، . . هو فرق أساسه وجهة النظر فقط ، وان كان النص الادبي وحدة لا تتجزأ .

وبهذا ينتهى الفصل الأول من الباب الثانى وهو فى حد الأسلوب أى تعريفه . . فأى هذه التعريفات نعتد ؟ وأى تلك الحدود نختار ؟

ونستطيع أن نقول تلخيصا لما قرأناه وعرضناه أن الأسلوب هو : المعانى المرتبة فى الذهن قبل أن تكون ألفاظا منسقة ، أو هو الألفاظ المنسقة وطريقة ترتيبها للمعانى وتعبيرها عنها ، أو هما معا . وهذا الاخير هو ما نختاره ونميل اليه .

ب - تكوين الأسلوب :

يرى الأستاذ الشايب أن تكوين الأسلوب يختلف بين الطالب المبتدى* والأديب . . فالطالب يبدأ بتعلم الحروف وتأليف الكلمات ثم الجمل مفصلة وموصولة حسب مقتضيات المعانى ثم طرائق المجاز ثم أنواع الأساليب منثورة ومنظومة ومعنى هذا أنه يبدأ بالألفاظ وينتهى الى الفنون الأدبية .

أما الكاتب المنتهى فانه يسير فى طرائق عكسية فيبدأ باختيار الفن وينتهى بالألفاظ عكس التلميذ الناشئ* .

(وسواء* عنيينا بحال الطالب أم الكاتب ، فان تكوين الأسلوب أهم المظاهر لبراعة الكاتب ، وأوضح معرض لقوة الادراك ويقظة

الشعور وجمال الذوق ، لذلك كان الكاتب الأمين ذو الطبع الأدبى
الصادق ، منصرفا الى تخير الكلمات الفصيحة الدقيقة المعنى ،
المتلائمة مع أخواتها ، حتى تطمئن عناصر العبارة فى موضعها دون
إكراه ، وحتى يجمع الأسلوب بين وضوح التفكير وجمال التصوير .
ويذكرنى قول المؤلف هذا بتعريف بوفون السابق للأسلوب بأنه :
(عبارة عن النظام والحركة التى يضعها المرء فى أفكاره ، فإذا ربطت هذه
الأفكار بدقة وضمت صار الأسلوب شيئا قويا موجزا ، أما اذا تركت تتتابع
فى بسط ولا تأتلف الا بفضل رباط الكلمات مهما كانت أنيقة فان الأسلوب
يكون مسهبا رخوا مملا) .

ويرى المؤلف أنه : (يمكن للكاتب أن يلزم نفسه بأمرين اثنين
ليوفر لنفسه الفوز بحسن التعبير ..
الأول : الحرص الشديد على الدقة سواء فى أداء الفكرة أو صوغ الخيال...
الثاني : التصرف السديد فى بناء الجمل والعبارات حتى تكون
العبارة صورة صادقة لما فى نفسه من المعانى وما فى وجدانه من
تصور وموسيقا .)

وأجدنى أتساءل .. ما مكونات الأسلوب التى تضمنها هذا الفصل
والذى عنوانه : تكوين الأسلوب ؟ أهى الحروف والكلمات والجمل
والفقرات .. أم طرائق المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والمطابقة
وحسن التحليل .. أم أنواع الأساليب القصصية أو الجدلية أو التقريرية
أو الوصفية منثورة ومنظومة .. أم كل ذلك مماورد ذكره فى هذا الفصل ؟!!
كان من الممكن بل من المهم أن يوضح لنا المؤلف بالتحديد :
مم يتكون الأسلوب . وهو الذى يدعو الى الوضوح والقوة فى الأسلوب .

وان كان من الممكن أن نلمح من خلال كلامه أن الاسلوب يتكون من
(تخير الكلمات الفصيحة الدقيقة المعنى ، المتلائمة مع أخواتها ،
حتى تطمئن عناصر العبارة في موضعها دون اكراه ..) .
وحتى لو كان الامر كذلك .. فما الجديد في تكوين الأسلوب ؟
ثم لو كان الامر كذلك - أى أن الاسلوب يتكون من اختيار الكلمات
الفصيحة الملائمة - فهل هو بالنسبة للطالب المبتدى أو للكاتب
المنتهى ؟ انه يقول : لذلك كان الكاتب الامين ذو الطبع الصادق
منصرفا الى تخير الكلمات ... الخ ، فهو ان يقصد الكاتب ..
مع أنه ذكر منذ قليل أن الكاتب يسير - في تكوين أسلوبه - في طريق
عكسية فهو يبدأ باختيار الفن وينتهى بالالفاظ عكس الطالب الناشئ !!

جـ - عناصر الأسلوب :

كان الفصل السابق في تكوين الاسلوب ، وهذا الفصل في
عناصر الاسلوب (١) . ومن المعلوم أن الاسلوب يتكون من عناصر
الاسلوب .. أما كان الاجدر أن يكون هذان الفصلان فصلا واحدا
لارتباطهما الشديد ان ما جدوى الاطالة والتفريع .

يتحدث المؤلف في هذا الفصل عن الاسلوب العلمى
والاسلوب الادبى .. وأن الاسلوب العلمى يتكون من عنصرين
أساسيين هما : الافكار والعبارات . وساق لذلك جزءا من مقال

علمى فى كتاب نزهة القارىء لأحمد السكندرى عن " الشمس " حيث يقول : (الشمس كوكب مهيىء بذاته ، وهى أعظم الكواكب المرئية لنا منظرا ، وأسطعها ضوءا ، وأغزرها حرارة ، وأجزلها نفعا للأرض التى نسكنها ، والشمس كرة متأججة نارا ، حرارتها أشد من حرارة أى ساعور أرضى ، ويبلغ ثقلها ثلثائة وزن من ثقل الأرض ، وهى أكبر منها جرما بثلثائة ألف وألف ألف مرة ...) .

ثم قال : ان الكاتب كان حريصا على ايثار الحقائق القيمة الدقيقة بعبارة واضحة . ثم أتبع ذلك بقطعة أخرى عن " الشمس " أيضا من أسواق الذهب لأحمد شوقى ، وبين كيف أن الكاتب لجأ الى الخيال يصور به عاطفته وانفعاله فى أسلوب يمتاز بالقوة والجمال : (سل الشمس من رفعها نارا ، ونصبها منارا ، وضربها دينارا ؟ ومن علقها فى الجو ساعة ، يدب عقرباها الى يوم الساعة) .

وقال ان هذا النص يختلف عن سابقه مع اتحاد موضوعهما ، فالاول وقف عند الحقائق التفصيلية الدقيقة كالأعداد والمقاييس ، والثانى تصورها أشياء جميلة لأعجابه بها . وبذلك ينحل الأسلوب الأدبى الى عناصر ثلاث : الأفكار والصور والعبارات . . . وعنصر العاطفة هام فى الأسلوب الأدبى يحس دون أن يشرح أو يعرض عرضا مباشرا . وأعود فأقول : ما الجديد فى كل ذلك ؟ ثم اننا مازلنا نتحدث فى مجال الأدب وأساليبه المختلفة بعيدا عن صلب البلاغة . ثم - وهو الأهم - نحن لانوافق المؤلف على أن الأسلوبين العلمى والأدبى هما عناصر الأسلوب .. بل هما " أنواع الأسلوب " وذلك أمر معروف فى كتب النقد والأدب .

ولعل هذا هو ما حدا بالمؤلف أن يقول بعد ذلك :
(وأما اذا وقفنا عند الجانب اللفظى فقط فيمكن أن نعتبر العناصر هى :
الكلمة والجملة والصورة والفقرة والعبارة ...) . أى أننا نرجع الى الفصل
السابق .. ألم أكن على حق حين قلت : ان هذا الفصل والذى قبله
كان يجب أن يكونا فصلا واحدا .. ؟

الأسلوب والموضوع

يذكر المؤلف فى هذا الباب (١) وما يليه أسباب اختلاف الاساليب،
ومظاهر هذا الاختلاف ، ويقول : (ونعنى بالاساليب هنا هذه
العبارات اللفظية التى هى المظهر لطريقتى التفكير والتصوير كما سبق ،
وانما يرجع اختلاف الاساليب الى سببين رئيسيين :-
الاول : الموضوع ، والثانى : الاديب) ...
ثم يقول : (فالموضوع هو السبب الاول الذى يقوم عليه اختلاف
الاساليب ، ويراد بالموضوع الفن الذى يختاره الكاتب ليعبر به عما فى
نفسه ، علما أو أدبا ، نظما أو نثرا ، مقالة أو قصة أو رسالة أو
خطابة .. فلكل فن منها أسلوبه الخاص الذى يلائم طبيعته .) ...
ثم يقول : (ونفرد هذا الباب للكلام فى السبب الاول وهو

الموضوع ؛ فنلاحظ أن ؛ الأسلوب من حيث الموضوع : علمي و أدبي ،
والادبي ؛ شعر ونثر ، والشعر ؛ حماسة ونسيب ومدح ورثاء الخ
والنثر : مقالة ، قصة ، خطابة ، رسالة الخ .

ونذكر في الفصول التالية خواص كل أسلوب ، وما يميزه من سواه ،
بناءً على اختلاف هذه الفنون) .

ويذهب الكاتب بعد ذلك فيتناول في خمس وستين صفحة من ص ٦٥
الى ص ١٢١ الحديث عن الأسلوب وموضوعاته . وجعل ذلك في أربعة
فصول .

في الفصل الاول : تحدث عن الأسلوب العلمي والأسلوب الادبي
والفرق بينهما مع شواهد وأمثلة لكل منهما . وهذا الحديث عمن
الاسلوبين العلمي والادبي حديث معاد مكرر .. غير أنه هنا وفي هذا
الفصل جنح الى الاطناب والاستطراد .. وعلى الرغم من ذلك لم يأت
يجديد فيهما .

الفصل الثاني : تحدث فيه عن أسلوب الشعر . ففرق بين الشعر
والنثر ، وتناول خصائص الشعر فتحدث عن : الوزن ، القافية ،
الكلمات ، الصور ، التراكيب والعبارات .

الفصل الثالث : في اختلاف أساليب الشعر . وذكر أن أساس
الاختلاف هو اختلاف الانفعالات وطبيعتها ، وأورد كلاماً لعلماء
النفس في تفسير الانفعالات وصلتها بالفرائز ... وأن درجة
الانفعال تختلف قوة وضعفاً .. وأن الأسلوب نفسه يختلف
 باختلاف معناه الوجداني فالعبرة التي تصور الغضب أو السخط

أقوى من تلك التي تعبر عن الحزن أو الخوف أو الوله أو الخذلان .
ومعنى هذا أن أسلوب الحماسة أو الوعيد أقوى من أسلوب النسيب
أو الاعتذار أو الرثاء . ويستمر المؤلف فى حديثه على هذا المنوال ..
ثم يتحدث عن بعض أغراض الشعر مبينا فوارق الاسلوب بينها . . فيتكلم
عن الحماسة ، والنسيب ، والرثاء ، والمدح ، والهجاء ، والوصف .
الفصل الرابع : فى اختلاف أساليب النثر . وقد تحدث فى هذا
الفصل عن : النثر العلمى ومقوماته ، ثم عن أساليب : المقالة ، والتاريخ ،
والسيرة ، والمناظرة والجدل ، والتأليف . ثم يتحدث عن النثر الادبى
وأساليبه فى : الوصف ، والرواية ، والمقامة ، والرسالة ، والخطابة .
وقد أجمالنا الحديث عن هذا الباب - مع طوله - لأن الحديث
فيه جرى فى أمور معروفة مشهورة فى كتب الادب . فالشعر وأنواعه ،
والنثر وأنواعه ، وأسلوب كل نوع وما يلائمه ، أمور قتلها القدماء بحثا
وتفصيلا ، وان كنا لاننكر أن المؤلف جدد فى العرض والسررد
واعتمد أحيانا على التحليل النفسى والتدليل المنطقى (١) .
ومما يلاحظ أنه جعل المقالة فى جانب النثر العلمى وقصرها عليه
مع أن المقالة فى اللغة العربية نشأت أصلا فى أحضان النثر الادبى
ثم تطاولت الى النثر العلمى .
ونعود فنقول : هل كل هذا الحشد لفنون الادب وأساليبه هو
المنهاج الجديد للبلاغة ؟!

(١) أنظر على سبيل المثال (المقالة) ص ٩٤ الأسلوب .

الأسلوب والأدب

يرى الاستاذ الشايب أن الأسلوب كما يختلف باختلاف الموضوع ، يختلف أيضا باختلاف الاديب . وقد أدار حديثه فى هذا الباب الرابع (١) من كتابه على أربعة فصول ، هى :

(أ) تمهيد .

(ب) الأسلوب والشخصية .

(ج) دلالة الأسلوب على الشخصية .

(د) أثر الشخصية فى اختلاف الأساليب .

١ - تمهيد :

فى هذا التمهيد يؤكد الاستاذ الشايب مقررہ سابقا من أن الاسلوب يختلف باختلاف الموضوع ، ثم يبين كيف تختلف الاساليب أيضا تبعا لاختلاف المنشئين .. فالموضوع يكون واحدا ولكن تختلف الاشخاص فيختلف الاسلوب تبعا لذلك .. ان نرى لكل منهم طابعا خاصا فى تفكيره وتعبيره وتصويره .. وقد يصح لنا بعد ذلك أن نقول مع القائلين : " الاسلوب هو الاديب " .

ثم يذهب المؤلف يشرح ويفصل هذا الكلام ويبين كيف أن الانسان يعرض له من الحالات والدواعى ما يجعله ينشئ * مقالة أو قصيدة أو بحثا علميا أو خطبة .. (وهكذا تتشكل النفس أشكالا شتى ، فتصدر عنها فنون متباينة ، لكل أسلوبه الخاص وغايته الممتازة ، فالشخص واحد والفن مختلف . (١)

هذا بالنسبة للموضوع .. (فاذا أردنا بيان ذلك بالنسبة للاديب عكسنا الوضع فالفن واحد ، ولكن الاشخاص يتعددون . وبذلك نجد لهؤلاء الادباء آثارهم المتباينة فى تكييف الاسلوب تبعا لما يمتاز به كل اديب (١) . . .)

ويأخذ المؤلف فى توضيح وشرح هذا الكلام وكيف أن الاديب فى حدود هذا الفن ، ومع التزام خواصه الادبية العامة .. يطبع الاسلوب

طابعا آخر ممتازا ، وخاصة به هو ، بحيث لا يتوافر لصاحبه في نفس الفن أو الموضوع ، (وبذلك يتحقق للأسلوب ميزتان ، ميزة عامة من من حيث هو خطابة أو شعر أو كتابة ، وميزة خاصة من حيث هو أشر لأديب ممتاز (١) ...

(على أن هذه الميزات - أو الشخصية الأدبية - لا تكون فردية فقط ، بل تكون كذلك اجتماعية .. فنجد العصر الواحد من العصور الأدبية له طابع عامة شائعة بين أديبائه ، منها تتكون ميزاته الأدبية ، أو شخصيته السلوكية التي يخالف بها سائر العصور . ونجد الشعب الواحد له خواصه الأدبية التي تفرقه من آخر يوافقه في لفته ، وجنس أدبه . (١) .

ويذهب المؤلف يدل على صحة هذه النظرية فيقارن بين أدب العصر الجاهلي وأدب العصر العباسي وأدب العصر الحديث .
ثم يقول في النهاية : (نعم ، نجدنا الآن أمام دعوة لتحقيق الوحدة العربية الثقافية أو الأدبية ، وعندى أن هذه الوحدة ستتم بسرعة بتأثير المطبعة والاذاعة ، وتقارب مناهج التعليم ، وكثرة البحوث العلمية ، ولكن ذلك لن يمحو أبدا مظاهر الأدب الإقليمية الا اذا اتحدت مواهب هذه الشعوب العربية وبيئاتهم (٢) .

(١) ص ١٢٣ .

(٢) ص ١٢٥ .

ب - الاسلوب والشخصية :

الأسلوب هو الشخصية ، والشخصية هي الاسلوب . ذلك رأى الاستاذ الشايب ، ورأى كثيرين غيره من القدماء والمحدثين . ويدخل المؤلف الى هذا الموضوع بسؤال يطرحه ويجيب عنه ، فيقول : (كيف يختلف الاسلوب في الموضوع الادبي الواحد ؟ ذلك راجع الى اختلاف الاشخاص الذين يتناولون الموضوع ، أو اختلاف الشخصيات . ما الشخصية ؟ وما عناصرها ؟ وكيف تختلف باختلاف الافراد ؟ وما مظاهر هذا الاختلاف في الارب ؟ ذلك ما نحاول بيانه في هذا الفصل وما يليه .)

ونلاحظ أن هذه الاسئلة قد أجاب عنها تقريبا فيما مضى اذا استثنينا تعريف الشخصية التي يقول عنها : (الشخصية (١) ما يميز الفرد من سواه ، أو هي مجموع الصفات الجسمية والعقلية والخلقية التي يتصف بها الانسان ، أو هي الميزات التي تفرق الشخص من الآخر خيرة كانت أو شريرة (٢))

(والناس يختلفون في الشخصية بين قوى وضعيف ، نابه وخامل ، ثابت ومنقلب (٣) . . .) ، (والادب معرض لظهور الشخصية واضحة (٣)) ويشرح ذلك ثم يقول : (ونتيجة ذلك أن

(١) في علم النفس : ج٣ ص ٣٢٠ .

(٢) ص ١٢٦ الاسلوب .

(٣) ص ١٢٢ و ١٢٨ .

الاديب حين يعبر عن شخصيته تعبيراً صادقاً يصف تجاربها ونزعاتها ،
ومزاجها ، وطريقة اتصالها بالحياة - ينتهى به الامر الى أسلوب أدبى
ممتاز فى طريقة التفكير والتصوير والتعبير ، هو أسلوبه المشتق من نفسه
هو : من عقله ، وعواطفه ، وخياله ، ولغته ، تلك العناصر التى لا تتوافر
لغيره من الادباء . ومن ذلك تكثر الاساليب بعدد الكتاب والمنشئ (١) .
وبالنظر فى هذا الكلام الذى اقتبسه من علم النفس لانجد جديداً وانتسأل
ماصلة هذا بالبلاغة .. أيريد المؤلف أن يقول : ان ذلك داخل فى
مراعاة مقتضى الحال .. وأن الأسلوب يختلف باختلاف الموضوع وباختلاف
الاديب والمنشئ ؟! ان كان ذلك .. فانا نزيد على هذا أن الأسلوب
يختلف أيضاً باختلاف المخاطبين ومراعاة أحوالهم وطبقاتهم .. وليس
فى كل ذلك جديد . وان كان يريد أن الأسلوب هو الشخصية بمعنى
أنه يدل عليها ويرسم ملامحها فقد تحدثنا عن ذلك آنفاً حينما كنا
نتحدث فى حد الأسلوب .. فقد أوردنا هناك حكماً وعبارات للقدماء
تدل على ذلك أنكر منها .. قول على بن أبى طالب كرم الله وجهه :
" المرء مخبوء تحت لسانه ، حتى اذا نطق أفصح عن عظمته أو نقصانه "
والمراد بالنطق هنا أسلوبه فى الكلام وطريقته فيه . ويروى عن عمر بن
الخطاب رضى الله عنه أن رجلاً أعرابياً دخل عليه فى حلة جديدة
قشبية فأعجب به عمر واستقبله وكرمه ثم سأله عن حاجته فإذا بالاعرابى
يكلمه بكلام السوق فأخذ عمر ودهش وقال : لقد أعجبتنى حين رأيته
ثم زهدتك حين كلمتنى .. وهذه الحادثة هى الأخرى - على اختلاف

رواياتها - تدل على أن أسلوب الرجل أهم من مظهره .. وأن أسلوب
الانسان هو مخبره وحقيقة شخصيته .. وأن الانسان اذا تكلم رسم
شخصيته الحقيقية في كلامه وأسلوبه دون أن يقصد أو يتكلف . ولهذا
كان للسان - وهو أداة الاسلوب - عند القدماء شأن وخطر .. ولهذا
ورد عنهم مثل قول زهير بن أبي سلمى :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقولهم : وقع اللسان أشد من وقع السنان . وما ورد في تاريخ الادب
من أن جماعة من العرب دخلوا على عمر بن عبد العزيز فتقدمهم غلام
حديث السن .. فقال له عمر : تأخر يا غلام فان فيهم من هو أولى
منك . فقال الغلام : لو كان بالسّن لكان فينا من هو أولى منك
بجلستك هذا يا أمير المؤمنين .. " المرء بأصغريه قلبه ولسانه " .
الى غير ذلك مما ورد عن القدماء .. وينبىء بأن اللسان والبيان
معرض لأراء صاحبه وأفكاره وصورة لعقله وخلقه .. فاذا أردت أن
تعرف شخصية انسان فاستمع جيدا الى حديثه وأسلوبه .

والآن .. اذا كان كل ذلك ورد عن أجدادنا القدماء ..
وكان معروفا لديهم منذ العصر الجاهلي .. فما الجديد الذى أتى به
علم النفس عن .. الأسلوب والشخصية .. ولماذا لجأ المؤلف الى
علم النفس الحديث ليستمد منه هذه الافكار بينما تراث آباءه
وأجداده يتضمن مثل ذلك ويزيد !!

ثم بعد كل ذلك نتساءل : كيف يمكن أن نكون - -
الأسلوب والموضوع ، الأسلوب والاديب ، الأسلوب والشخصية -

منهجاً جديداً للبلاغة ؟ أنا أُلح صلة بعيدة هناك بين هذه الأمور وبين البلاغة ولكن المؤلف لم يشر إليها من قريب أو بعيد . ونستطيع القول بأن هذه الأمور داخلة في نطاق : مراعاة مقتضى الحال .

وبعد أن أطنب المؤلف في الحديث عن " الأسلوب والشخصية " .. وكيف أن لكل شخصية أدبية أسلوبها الخاص .. يذهب فيضرب الأمثال ببعض الأدباء واختلاف شخصياتهم وبالتالي أساليبهم .. فيذكر : الجاحظ ، وابن خلدون ، وطه حسين ، وأحمد أمين ، ويقارن بين المعري والشريف الرضي .

ثم يقول : (ومهما يكن من تأثير الوراثة أو التربية في تكوين الشخصية ، فانا نستطيع هنا أن نذكر بعض عناصر الشخصية وما قد يكون لها من أثر في الأسلوب ..) ويشير في الهامش إلى أن هذا الكلام هو أيضاً من علم النفس .

أما هذه العناصر التي ذكرها للشخصية فهي :

(١) الطبع : فالرقيق الطبع ترق ألفاظه ، وتسهل فقره ، وتلين عباراته . والخشن الجافى تجزل ألفاظه ، وتوجز جملة ، وتقوى تعابيره . إذ كانت الطبائع تجذب إليها من التراكيب والألفاظ ما يلائمها رقة وجفافاً ، كما تجده عند المقتبى والبحترى ، وعند جرير والفرزدق ، والمقاد والمازنى . قال القاضى الجرجانى فى ذلك : " وقد كان القوم يختلفون فى ذلك ، وتتباين فيه أحوالهم ، فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره ، وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق ،

فان سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ومائة الكلام بقدر مائة الخلق ،
وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك ، وترى الجافى
الجلف منهم كثر الالفاظ ، معقد الكلام ، وهو الخطاب ، حتى أنك
ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته . " (١)

وانى لأتساءل .. اذا كان القاضى الجرجاني قد تحدث عن
الطبع وأثره في الشخصية ، فما فضل علم النفس الحديث ؟ ولماذا لا
نقولها صراحة : أن علم النفس الحديث استمد أكثر بنوده من الادب
العربى القديم ؟ !!

(٢) أثر البيئة : فابن البادية المقيم في الغلاة حيث يرى الجذب
الغالب ، والطبيعة القاحلة الجرداء ، والجبال الشامخة ، والصخور
الجامدة ، والوعول الممتعة ، لن يكون كابن الحاضرة المترفة الخصبة ،
يلقى العيش رقيقا ، والملبس ناعما ، والمزارع ناضرة ، والاخوان ظرفاء ،
اذ أن ذلك يطبع الذوق والشعور بطابعه ، فلا يقع اللسان الا على
كفائه من العبارات . فما كان عدى بن زيد والمنخل يشكرى كطرفه بن
العبد والحارث يشكرى . ويقول الجرجاني في أعقاب كلامه السابق :
" من شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبى
صلى الله عليه وسلم : من بدا جفا . ولذلك تجد شعر عدى وهو
جاهلى ، أسلس من شعر الفرزدق ورجز ربيعة ، وهما آهلان ، لملازمة
عدى الحاضرة ، واطنانه الريف ، وبعده عن جلالة البدو وجفاء الأعراب .

فلما ضرب الاسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر،
ونزعت البوادي الى القرى ، ونشأ التأديب والتظرف ، اختار الناس من
الكلام ألينه ، وأسهله ، وتجاوزوا الحد في طلب التسهيل حتى تسمحوا
ببعض اللحن ، وحتى خالطتهم الركافة والعجمة ، وأعانهم على ذلك
لين الحضارة وسهولة طباع الاخلاق ، فانتقلت العادة ، وتغير
الرسم ، وانتسخت هذه السنة ، واحتدوا بشعرهم هذا المشال ،
وترققوا ما أمكن ، وكسوا معانيهم ألطف ماسنح من الالفاظ ، فصارت
ان اقيست بذلك الكلام الأولتين فيها اللين ، فيظن ضعفا ، فاذا
أفرد عاد ذلك اللين صفاً ورونقا ، وصار ما تخيلته ضعفا ، رشاقة
ولطفا . . .

وهكذا نجد أن القاضى الجرجاني كما تحدث في الوساطة عن
الطبع وأثره في الاسلوب - تحدث كذلك عن : أثر البيئة .
ويستشهد المؤلف على أثر البيئة في الافراد واستحالتهم
بما روى من أن شاعرا بدويا قدم حاضرة عامرة فأكرمه صاحبها فمدحه
بهذين البيتين :

أنت كالذئب لا عدمنك دلو من كثير العطا ، قليل الذنوب
أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخطوب
فهم بعض أعوان الأمير بقتله ، فقال الأمير : خل عنه ، فذلك ما وصل
اليه علمه ومشهوده ، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمنا ، وقد لانعدم
منه شاعرا مجيدا . فما أقام بضع سنين في سعة عيش وبسطة حال حتى قال
الشعر الرقيق ونسبت اليه الأبيات :

يامن حوى ورد الرياض بخده وحكى قضيب الخيزران بقده
دع عنك ذا السيف الذى جردته عيناك أمضى من مضارب حده
كل السيوف قواطع ان جردت وحسام لحظك قاطع فى غمده
ان رمت تقتلنى فأنت مخير من ذا يعارض سيدا فى عبده

وقد ورد أن هذه القصة للشاعر على بن الجهم فى مدح المتوكل ..
وأن المتوكل بعد سماعه البيتين غضب على الشاعر وكاد يأمر بقتله لولا أن
اقترح وزيره أن يحبسها عامين فى الرصافة ليتغير ذوقه البدوى الى حضرى
ففعل .. وبعد سنتين جىء به ليمدح المتوكل فألقى بين يديه قصيدة
رائعة قال فى أولها :

عيون المها بين الرصافة والجسر جليهن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
سلمن وأسلمن القلوب كأنما نشك بأطراف المثقفة السمر
أعدن لى الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمرا على جمر
خليلى ما أحلى الهوى وأمره لو أن الهوى مما ينهنه بالزجر
الى أن قال فى آخر القصيدة :

ومن قال ان البحر والقطر أشبها نداه فقد أثنى على القطر البحر (١)

ومهما يشك فى صحة هذه القصة التى تعددت رواياتها ، فليس من
شك أن هناك جماعة من الأدباء والشعراء تغيرت آثارهم لما تغيرت عليهم
آثار البيئة.

(٣) الثقافة والتربية : فالمهذب المثقف يكون أعمق تفكيراً ، وأحسن ترتيباً للمعاني ، وأحرص على جمال التصوير ، وصفاء التعبير ، وبذلك تغزر معانيه ، وتهذب عباراته ، ويتوافر له الملاءمة بين اللفاظ والمعاني . والجاهل الذي لم تصقله التربية ، أو لم يزود بثقافة كافية ، يقف عند حدود الطبع ، ويتوجه في الغالب الى جمال اللفظ واشراق الديباجة ، لعلها تعوض عليه ما فاته من ابتكار المعاني والغوص وراء الافكار . ولذلك وجد في الادب العربي طبقات من كتاب العصر العباسي بلغوا بالترسل مكانة مهذبة ، وتأثر شعرهم بذلك التهذيب والصقل ، كما يقول ابن رشيق : " والكتاب أرق الناس في الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيعاً ، وأحلامهم ألفاظاً ، وألطفهم معاني ، وأقدرهم على تصرف ، وأبعدهم من تكلف (١) " .

والعجيب أن المؤلف يستشهد بكلام ابن رشيق في العمدة على أثر الثقافة والتربية ، كما استشهد من قبل بكلام القاضي الجرجاني في الوساطة على أثر كل من الطبع والبيئة .. اذن فالمؤلف يعلم جيداً أن القدماء سبقوا الى هذه الأمور وعرفوها جيداً .. ومع ذلك لم يفكروا أو يقترحوا جعلها من علوم البلاغة .

(٤) الابتكار : فمن الادباء من يلتفت الى نفسه ، ويثق ، ويحاول أن يفتح بها أو فيها آفاقاً من التفكير أو الشعور ، أو التخيل ، ليمرضها كما هي في أقوى أحوالها أو أوضح خواصها دون تحرج أو تكلف ، ثم

يطوع أساليب اللغة لطريقة تفكيره وتصويره ، فإذا به شىء جديد وشخصية ممتازة وقد يلقي انكارا وعنتا ، ولكن مادام مذهبه قويا خليقا بالبقا فان الثورة عليه لا تكون الا فترة تجتازها النفوس لقبول الجديد واقاراره ، ثم يصبح سبيلا معبدة مسلوكة ، وقانونا متبعا محبوبا . وقد لقي أسلوب الجاحظ انكارا ولكنه عاد مدرسة المتأدبين . . .

والآن أحب أن أقف وقفة وأجمع شتات ما تقدم من عناصر الشخصية كما ذكرها علم النفس الحديث متغاضيا عن ورود ذكرها في كتب علمائنا الاقدمين . هذه العناصر هي باختصار :

١- الطبع ٢- أثر البيئة ٣- الثقافة والتربية ٤- الابتكار .

وبعد استعراض المؤلف لهذه العناصر والافاضة فيها يقول :

ومما سبق يمكن ذكر الملاحظات الآتية :

أولا : أن أسلوب الكاتب أو الشاعر أو الخطيب نتيجة طبيعية لمواهبه ، وصورة لشخصيته هو ، واذن ، لا يمكن أن يكون صادقا ، قويا ، ممتازا ، الا اذا استمد من نفسه وصاغه بلغته وعباراته ، دون تقليد سواء من الأدباء فالذاتية هي أساس تكوين الاسلوب ، والمقلد يفنى في غيره ويصبح شخصية منكرة

ثانيا : قد يبدو لبعض الناس التردد في أن الاسلوب صورة صادقة لصاحبه حين يرون حسان بن ثابت شجاعا في شعره جبانا في عمله ، والبحترى جميل الذوق في أسلوبه قذرا رث الثياب ، والمتنبى كريما في قوله مخيلا في حياته . وهذا من غير شك تناقض واضح يعرض ما قبل هنا للرد والتجريح . ولكن الشىء الجدير بالنظر أن هذه النصوص الأدبية

التي تعد مظهرًا قويًا لميزات الأدب وسماته قد صدرت عنه في حالة نفسية خاصة هي حال الانفعال والتنبه العاطفي وسلطان الوجدان على العقل ، فيقول ما يشاء بوحى الساعة ، حتى إذا ثاب إلى عقله عاش بطبيعته العاقلة الأصلية دون الشاعرة الطارئة ، وربما أنكرت حياته الثانية حياته الأولى مما يعد شبيهاً بانقسام الشخصية (١)

ونحن إذا عولنا على كلام المؤلف هذا وما ورد في علم النفس فسنجد أن الأدب أو الأسلوب ليس دائماً هو الشخصية ، ما يتناقض فعلاً مع كلامه السابق بأن : " الأسلوب هو الأدب " وأن " الأسلوب هو الشخصية " .

ولعل المؤلف يريد أن يقول : أن الذين يقولون إن الأسلوب هو الشخصية لا يريدون أن أخلاق الشاعر تظهر في شعره .. وإنما يريدون أن مزاج الشاعر يعبر عنه أسلوبه .. فنعرف أنه رقيق العاطفة أو عنيف الانفعال .. وهكذا ..

لكن هذا لا يحل الإشكال إذ أن مزاج الشاعر وانفعالاته ما هي إلا جزء من شخصيته .. وهنا أجدني أتمثل قول الله تعالى عن الشعراء : " ألم ترأنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون " .

ثالثاً : أن بيان هذه الصلة بين الأدب وأسلوبه وتوضيح جوانبها يقتضينا أن نتناولها من وجهين :

الأول : أن نعرض النصوص الأدبية لجماعة من الكتاب أو الخطباء أو الشعراء أو المؤلفين ، ونحاول تعرف شخصياتهم المتباينة استنباطاً من هذه النصوص .

(١) في علم النفس ج ٣ ص ١٦٤ .

والثانى : أن نفرض أننا نعرف هذه الشخصيات ثم نتبين مظاهرها المختلفة فى الاسلوب : ألفاظه وتراكيبه وصورها البيانية . وهذا ما نحاوله فى الفصلين التاليين .

أى أن المؤلف يريد أن يبحث فى : دلالة الاسلوب على الشخصية ، وأثر الشخصية فى الاسلوب . وعلى الرغم من أن المؤلف تحدث عن ذلك سابقا وأفاض فيه .. فإنه يصير على تناوله ثانية بافاضة أكثر فى الفصلين القادمين .

جـ - دلالة الاسلوب على الشخصية :

لا يسمنا هنا أن نستعرض هذا الفصل بحذافيره .. فهو من باب تحصيل الحاصل .. ولكننا نجمله ونعرف به ونبدى رأينا فيه . ويبدو أن المؤلف فى هذا الفصل أراد أن يضع (دلالة الاسلوب على الشخصية) موضع التطبيق بعد أن سبق ووضعه موضع الدراسة النظرية . لذلك ذهب يوازن بين بعض الأدباء وبعض ملتصا الفروق الفردية لكل أديب .

ففى الشعر : ساق ثلاثة قصائد لأبى تمام والبحتري والمتنبي وكلها فى غرض واحد هو المتاب . فأبو تمام يعاتب محمد بن عبد الملك الزيات ، والبحتري يعاتب الفتح بن خاقان ، والمتنبي يعاتب سيف الدولة الحمدانى . وموازنة المؤلف بين هؤلاء الثلاثة موازنة أدبية محضة لا تكاد تلمح فيها شيئا من البلاغة .. وكان جديرا بها أن تكون فى كتاب نقد أو أدب . ودليلا على صدق قولنا - نجس عرض لبعض

هذه الموازنة . يقول المؤلف :

(موضوع القصائد واحد ، هو المتاب ، والاصل فيه تصوير الوفاة
والبقيا على ماضى الصداقة ، ثم الاسف والاستنكار لما حدث . لهذا
كان موقفا دقيقا يحتاج الى براعة ومع هذا فقد وقف كل من
هو لاء الثلاثة موقفا أدبيا يدل على شخصية واضحة ممتازة .

(١) فأبوتام : كان واقفا فى منتصف الطريق لم يقرب من صاحبه جدا
ولم يبعد عنه كذلك وأخذ يمرض عليه الامر مستأذنا ، راضيا بما يقع ،
مشيرا الى ايثاره على سواه وهم كثير ، معنيا بنفسه وبفنه يصنعه بدقة
واتقان ، يوسط عقله بينه وبين صديقه . واذا كان لابد من ذكر ميزاته
الشخصية كما تشير هذه الابيات ، فأبوتام انسان ذكى حذر ، يعتمد
بقلبه فيخل به ، ويؤمن بعقله فيعتمد عليه ، مخلص لنفسه وفنه أكثر من
عنايته بالناس ، يرضى بما يكون ، ويقتصد فى اتصاله بالحياة ،
قوى الطبع مؤمن بالقضاء . (١)

وأجدنى أتساءل أين الميزات الشخصية التى أشار اليها المؤلف ؟
ان معظمها صفات عامة تنطبق على كثيرين .. وعلى سبيل المثال :
قوله : مخلص لنفسه وفنه . هل نفهم من ذلك أن الشاعرين الآخرين ..
البحترى والمتنبى .. ليسا كذلك ؟! وكذلك قوله : قوى الطبع
مؤمن بالقضاء .. فمن المسلم به أن كلا من البحترى والمتنبى قوى الطبع
ومؤمن بالقضاء كذلك .

(٢) وأما أبوعبادة البحرى (فقد تقدم الى صاحبه يكاد يحتضنه ، ويلقى بنفسه بين يديه ، لولا براءته من الذنوب ، واعتزازه بأن الحق فى جانبه ، قد ملك عليه الاسف والطمع نفسه ، فعجب أن يرنق ورده ، وصمم على البقاء حيث كان ، واثقا من ظهور الحق ومعاودة الصفاء .
البحرى اذن رقيق الطبع ، جميل الذوق ، لين الجانب وفى حسن الظن بالايام ، بارع ، شديد الاتصال بالحياة ، قريب المشـال ، طبعى الفن ، متفائل ، ليس فى حذر أبى تمام ، ولا سخط المتنبى .
(٣) وأبو الطيب شىء آخر فقد نغم من صاحبه ساخطا ، متوعدا ، متعاليا ، يرميه بالغفلة والتحيز ، معتزا بنفسه فخورا بخلقه وفنـه ، مزدريا الرؤساء والشعراء ، ولآهم ظهره غير مبالهم ان لم يحسنوا تقديره ولم يدركوا مكانته ، واذن فهو يودعهم نادمين . وسبب ذلك دالة له على سيف الدولة ، وعرفانه مكانة نفسه ، وهذه السعاية التى خضع لها أمير بنى حمدان . فالمتنبى جافى الطبع ، طموح ، مغرور ، بعيد الأمل ، قليل الوسائل ، ساخط على الحياة والأحياء ، يؤمن بالقوة ، ويمتز بها ، يثق بشعره الى أبعد حد ، ولا يرى نفسه دون الملوك ، ولا من طراز الناس .

ولعل البحرى أرق الثلاثة وأرضاهم ، والمتنبى أجفاهم وأسخطهم ، وأبوتام أوسطهم وأشد هم حذرا واحتياطا . وقد سئل الشريف الرضى عنهم فقال : " أما أبوتام فخطيب منبر ، وأما البحرى فواصف جؤذر ، وأما المتنبى فقائد عسكر (١) " . (٢)

(١) المثل السائر ص ٣١٥ .

(٢) الاسلوب ص ١٤٠ و ١٤١ .

وهكذا نجد أن هذه الموازنة بين الشعراء الثلاثة موازنة أدبية نقدية وهى قليل من كثير ماورد فى كتب السابقين مثل : الموازنة بين شعر أبى تمام والبحتري للامدى ، والوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى ، والعمدة لابن رشيق .

وكما فعل المؤلف فى أسلوب الشعر ووازن بين ثلاثة شعراء مستشفا شخصية كل شاعر من أسلوبه .. فعل ذلك فى الخطابة : فأورد ثلاث خطب لعلى بن أبى طالب ، ومعاوية ، وزيد . وهذه الخطب الثلاثة تدور حول الحكومة الاسلامية وقرارها بعد الثورة التى انتهت بمقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والنزاع بين على ومعاوية ، ونشأة الاحزاب السياسية وعناية معاوية وأعوانه باقرار الحكم فوالهيبست الأموى .

فأما على : فقد كان شجاعا قوى البأس ، ذكى الفؤاد ، واسع العلم ، شديد الايمان ، متحرجا فى الدين ، حادبا على المسلمين ، حزينا على حقه المسلوب ، صريحا فى القول ، غلبت نزعة الدينية على كياسته السياسية حتى غلب على أمره بعكس معاوية .

وأما معاوية : فهو شخصية سياسية حليلة ، عملية مرنة ، تصطنع الأناة ، وتبرر الوسائل فى سبيل الغايات ، لم يتشبث بتخرج على وسرعة غضبه ، اعتمد على قوة عقله أكثر من قلبه ، تلمسه هريرا ولكنك تلبسه شوكا وقتادا .

أما زيد : فهو - كهتلر وموسولينى ومصطفى كمال - هازم الرأى ، صارم العزيمة ، ذكى على ، اذا اقتنع بالرأى فرضه ، حاد الذكاء واللسان ، منظم التفكير حسن التدبير .

ويمكن تلخيص ذلك فى أن عليا شجاع ساخط ، ومعاوية سياسى
بارع ، وزبادا حاكم حازم . (١)

وكما فعل المؤلف فى الشعر ، وفى الخطابة ، فعل فى : - الكتابة ،
والتأليف .

ونعمود فنقول : ان هذه الموازنات مكانها ومجالها النقـــــــد
والادب فهل يريد المؤلف أن يعيد البلاغة اليهما ويمزجها فيهما ،
كما كان الحال منذ قرون ؟ !!

د - أثر الشخصية فى اختلاف الأساليب :

هذا الموضوع مكمل للموضوع السابق ومرتبط به أشد الارتباط ،
فهو نظيره ومقابله . وفى الفصل السابق جرى الحديث على (دلالة
الاسلوب على الشخصية) وفى هذا الفصل يجرى الحديث على (أثر
الشخصية فى الاسلوب) . أى أن الاسلوب يتأثر بشخصية صاحبه ..
وبالتالى يدل عليها .. وهذه مسألة معروفة فى الدراسات الادبية
قد يما وحديثا . وكان الأولى أن يتقدم هذا الفصل على سابقه .. لأن
أثر الشخصية فى الأسلوب يأتى أولا .. ثم يستدل بالأسلوب على
الشخصية بعد ذلك .

يقول المؤلف : (وأما فى هذا الفصل فالمراد بيان آثار هذه
الشخصية فى الأسلوب . ومعنى ذلك أننا نفترض معرفتنا شخصيات

(١) الأسلوب ص ١٤٥ و ١٤٦ يتصرف .

جماعة من الأدباء كتابا ، وشعرا ، وخطبا ، ثم نلتبس مظاهر هذه الميزات الفردية فيما ينشئون من نصوص أدبية ، ونقصر الكلام في هذا على نواح ثلاثة : -

الأولى : من حيث الألفاظ - حين يختلف الأدباء في الألفاظ والجمل ، والفقر والمبارات .

الثانية : من حيث المعاني - كالمطابقة بين اللفظ والمعنى ، أو ترجيح جانب اللفظ على جانب المعنى - وعكسه .

الثالثة : من حيث الصنعة - حيث يعتمد الأدباء إلى الأسلوب الطبقي أو المصنوع صنعة بدعية . قوامها السجع والجناس والمطابقة ونحو ذلك . (١)

ومعنى هذا - كما يقول المؤلف - أن الأسلوب يتأثر بشخصية صاحبه في هذه الأمور الثلاثة : اللفظ - المعنى - الصنعة .

ويذهب المؤلف يتحدث عن هذه الأمور الثلاثة .. أو النواحي الثلاثة كما يسميها المؤلف .. فيبدأ بالحديث عن .. الناحية الأولى .. وهي : (تتناول الاختلاف في الألفاظ ، والجمل ، والفقر ، والمبارات ، والمراد بالألفاظ ، الكلمات المفردة التي تتألف منها الجمل ، وهي : أسماء ، وأفعال ، وحروف ، ولكنها مع ذلك ذات خواص متباينة ، كأن تكون دقيقة محدودة أو مبهمة مشتركة ، اصطلاحية علمية أو فنية

عامه ، رقيقة أو خشنة ، عامية أو فصحي ، موسيقية رشيقة ، أو عادية جافة ، لونية أو صوتية الى نحو ذلك . (١)
ولاشك أن حشد هذه الالوان للكلمات المفردة جهد طيب ، ولعله عرض جديد لها ، ولكن كنت أود أن يشرح المؤلف غرضه من قوله : لونية أو صوتية ، فمعناها مبهم ، ويحتاج الى توضيح . على أن هذه الالوان المختلفة للكلمات المفردة قد يفيدنا في درس البلاغة عند الحديث عن الاسلوب وعناصره .

وأما عن الجملة فيقول المؤلف : (وتتألف الجملة من الألفاظ لتؤدي فكرة واحدة تامة ، وتكون الجملة اسمية أو فعلية ، خبرية أو انشائية ، طويلة أو قصيرة ، جزلة أو رقيقة ، تامة العناصر أو مختصرة ، مثبتة أو منفية ، أصلية أو فرعية وغير ذلك (٢) .

وهذا العرض للجملة ليس في قوة عرض الكلمات المفردة ، وليس فيه من جديد ، ولعله أراد به أن يعبر الى الفقرة فهي الجديد الذي لم تتناوله البلاغة بالبحث المستفيض كما فعلت مع الكلمة والجملة .

وعن الفقرة يقول المؤلف : (والفقرة عدة جمل متصلة تكون فصلا من المقالة ، وهي تقوم على الصلات بين الجمل ، وتنوعها ، وربطها معا ، ففيها الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة ، وفيها الرابطة اللفظية والمعنوية التي تصلها بما قبلها وما بعدها . وتكون بسيطة سهلة أو معقدة مضطربة ، وهي تختلف بحسب موقعها

(١) الأسلوب ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(٢) الاسلوب ص ١٥٨ .

من الموضوع مقدمة أو نتيجة أو غرضاً (١).

هذا فقط ما ورد عن "الفقرة" .. وكنت أتوقع أن يعنى بها المؤلف أشد العناية لأنها الجديد الذى نتحمس لادخالها ضمن الدراسة البلاغية فكان عليه أن يبين صلتها بالبلاغة أو وجوه البلاغة فيها أو حتى يشير الى ذلك . ولا أعتبر قوله : ففيها الفصل والوصل والايجاز والاطناب والمساواة من هذه الاشارة لان القدماء قتلوا هذه المسائل بحثاً .. فالفصل والوصل يكون بين جملتين فأكثر .. أى ما يمكن أن يسمى بالفقرة .. وكذلك الايجاز والاطناب والمساواة .. بل ان الايجاز والمساواة قد يتحقق كل منهما فى جملة واحدة.

وأما العبارة فيقول المؤلف : (هى العنصر اللفظى من الأسلوب، أو هى هذا الأسلوب اللفظى الذى يقابل الأسلوب العقلى والصورى، والمعارات تقوم على هذه العناصر المذكورة قبلاً ثم تتأثر بمنهج البحث وبالموضوع وبمزاج الكاتب وذهنه وطبيعته كلها . والأدباء يختلفون فى ذلك كله تبعاً لأذواقهم وطبائعهم وثقافتهم وبيئاتهم فترى الموضوع الواحد من الفن الادبى يتوارد عليه أصحابه فاذا كل طراز بعينه فى اختيار الكلمات وصوغ التراكيب والمعارات التى تمثل نفسه وخلقه ودرجة انفعاله) . (٢)

وهذا الكلام مكرر أكثر من مرة فى مواضع مختلفة من هذا الكتاب..

(١) الأسلوب ص ١٥٨ .

(٢) المرجع السابق .

بالإضافة إلى **الجديد** فيه فهو قديم ورد في كتب السابقين ..
وها هو ذا المؤلف نفسه يستشهد على قوله بكلام لابن الأثير حيث
يقول : " اعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من
البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ،
والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين أخلاق ، ولطافة
مزاج . ولذلك نرى الألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم
واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد ، وترى الألفاظ البحتى كأنها نساء
حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى " . (١)

وإذا كان الأمر كذلك فما الجديد في " العبارة " الذي نضيفه
إلى البلاغة ونحن نخلع عنها القديم ونلبسها ثوبا عصريا جديدا ؟!

ويذهب المؤلف بعد ذلك يستعرض الفروق - مرة أخرى -
بين الشعراء الثلاثة : أبي تمام والبحتى والمتنبى . ثم يسوق
أبياتا لكل منهم - مفايرة للآبيات التي ذكرها آنفا - ويعلق على كل
منها بما يوضح شخصية الشاعر من أبياته .. أو .. أثر الشاعر في
الآبيات .

وبعد الشعراء .. انتقل إلى الكتاب .. وقال : انهم
يفترقون في التعبير كذلك .. وتحدث عن الجاحظ ، والبديع ،
وابن خلدون .. الذين تحدث عنهم وعن صفاتهم الشخصية في
الفصل السابق .

(فالجاحظ يتحرى دقة الالفاظ ليحسن الوصف ، ويورد
الجمل ليستكمل معانيه ويؤكد ها ، ويلجأ الى الازدواج والتقسيم
الموسيقى دون التزام السجع ، ويستخدم الاعتراض داعياً أو محترساً ،
ويطن وراء الافكار والصور ، ويكثر من المقابلة والتقسيم .

ولكن البديع يتخير جزل الالفاظ والتراكيب ، ويكثر من الصور
البيانبة التى هى تكرار صوري للفكرة الواحدة ، يكثر من البديع طباقاً
وجناساً ، يقتبس لغة الشعر ليوشى بها نثره ، سجعاً قصيماً ،
وعبارته جزلة ايجازية اذا قيست بعبارة الجاحظ السمحة المبسوطة .
فالرجلان يمثلان مدرستين مختلفتين فى التفكير والتصوير والتعبير .

وابن خلدون دقيق الكلمات بسيط العبارات تشيع فيها
المصطلحات العلمية والفنية ، رتيب الاسلوب لا ينوعه ، لا يسلم من
الركاكة والجفاء ، لا يترأى فيه الجمال والبراعة ، معنى بالمعنى
أكثر من اللفظ ، نزعتة تقريرية ، فهو من طراز آخر .

واذا كان لابد من اختصار ذلك كله فالجاحظ فى أسلوبه
جميل ، والبديع قوى ، وابن خلدون واضح (١) .

ولسنا فى حاجة الى القول بأنه لا جديد فى هذا الكلام ..
اللهم الا جمال العرض والموازنة . كما نعود ونقول : هذا الكلام
مجاله فى الدراسات النقدية والموازنات الادبية . ولنتساءل على سبيل
المثال : هل كتاب الموازنة للامدى أو الوساطة للقاضى الجرجانى

من كتب البلاغة أم من كتب النقد ؟! مع ملاحظة أن البلاغة أيام هذين الكتابين كانت ما تزال مدمجة - ولو الى حد ما - في النقد والادب وصع ذلك فلم يقل أحد بأنهما من كتب البلاغة.

وبعد الشعراء .. والكتاب .. راح المؤلف يتحدث عن الخطباء .. فذكر منهم زيادا والحجاج ووازن بينهما مبينا أشركل منهما في أسلوبه .. ثم وازن باقتضاب بين : سعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، ومكرم عبيد . وبذلك ينتهى حديث المؤلف عن : الناحية الاولى .. وهى من حيث الالفاظ حين يختلف الادباء في الالفاظ والجمل والفقر والمعارات .

وقد عرضنا لما يهمننا فى بحثنا ، وأوجزنا للمباقى أو أشرنا اليه مما لا ضرورة الى ذكره وتفصيله .

أما الناحية الثانية فهى من حيث المعانى : وهنا يتحدث المؤلف عن هذه القضية الكبيرة ، أو المعركة العنيفة ، بين أنصار اللفظ ، وأنصار المعنى . ثم يذكر بعضا من أنصار كل منهما فيقول : (وكان أبو تمام من أسبق الشعراء وأظهرهم فى ذلك - أى الاهتمام بالمعنى - ثم ابن الرومى ، والمتنبى ، وأبو العلاء فى ذخيرته - الفلسفية - اللزوميات - وكان من ذلك ، ولا سيما عند شعراء الصنعة ، أن ضعفت روعة اللفظ وسلاسته ، وبدأت عليه الجفوة العلمية أو الكلفة البديعية . وبجانب هؤلاء بقى آخرون محتفظين بالطبع السمج والديباجة السهلة الجميلة كالبحترى ، وأبى العتاهية ،

والعباس بن الأحنف ، وظهرت لهم مقطوعات بالفت في السهولة حتى عادت باردة سخيفة (١) .

وأنا أتساءل : أليست - اللزوميات - من قبيل الصنعة اللفظية ؟
وكان من أثر هذه المعركة بين اللفظ والمعنى (أن نشطت حركة النقد ، وانتصر جماعة لكل فريق ، واختلف الباحثون حول هذه المسألة : أين تقع البلاغة ، أفي اللفظ أم في المعنى أم فيهما معا ؟ وأي هذين الفريقين من الشعراء أظفر بعمود الشعر ، وأجدر بالاحترام ؟ وخلاصة ما يحتاج به أنصار اللفظ (٢) أن المعاني معروفة للناس سهلة الإدراك ، يكفي أن تكون صحيحة ، ولكن البراعة البيانية إنما هي في الألفاظ وصوغ العبارات . و أما أنصار المعاني (٣) فيقولون : إن المعنى هو المقصود بالأداء ، وهو مجال الابتكار ، وحسن التصور ، واللفظ تابعه في ذلك فجماله من جماله .

ويدور جهد عبد القاهر الجرجاني على أن البلاغة في الأسلوب تنتهي إلى نظم الكلام وفق حاجة المعنى ، وبذلك تتحقق المطابقة بينهما ، ويكتسب اللفظ حسنه بصدق أدائه .

(١) الأسلوب ص ١٧٢ .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٨٥٦ ، والصناعتين ص ٥٥ .

(٣) راجع دلائل الإعجاز ص ٤٠ ، ٧٠ ، ٣٠٧ ، ٣٢٠ طبعة المنار .

ولكنك عرفت أن هذه المسألة قد فصل فيها الآن ، وأن البلاغة تقوم على حسن التعبير ، كما تركز على قيمة التفكير (١) (٢) .

وعلى الرغم من ذلك فقد وجد من الأدباء* : من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايته ومتجه عنايته ، ومن يؤثر المعنى على اللفظ فيعنى بعمقه وتركزه وجدته . وذهب المؤلف يضرب أمثلة لذلك وهو كلام مكرر معاد . والمؤلف نفسه يقول : (وكتب النقد والبلاغة ملأى بهذه النماذج) (٣) .

وقضية اللفظ والمعنى قضية كثر تناولها في الكتب القديمة . من ذلك على سبيل المثال زيادة على ماورد في الهامش : المعمدة ج ١ ص ٢٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٧٢ - المثل السائر ص ١٣٧ - الصناعتين ص ١٣٣ ، ١٤١ - نقد الشعر لقدامة ص ٥٥ . هذا عدا كثير من الكتب الحديثة تناولت هذا الموضوع كذلك . وكنا نود أن يدلى المؤلف - وهو بصدد تجديد البلاغة - برأى جديد في قضية اللفظ والمعنى . . ولكنه لم يقدم لنا الا رأيه الذى نشره فى مجلة دار العلوم حيث يقول : (ولكنك عرفت أن هذه المسألة قد فصل فيها الآن ، وأن البلاغة تقوم على حسن التعبير ، كما تركز على قيمة التفكير) أى المطابقة بين اللفظ والمعنى والاهتمام

(١) صحيفة دار العلوم - العدد ٢ من السنة الثانية ص ٣٠ للمؤلف ، وفيض الخاطر لأحمد أمين ص ٣١ .

(٢) الاسلوب ص ١٧٣ .

(٣) الاسلوب ص ١٧٦ .

بكليهما معا .. فهل هذا رأى جديد لم يسبق اليه !!
لقد أشار كثير من علمائنا القدامى الى هذا المعنى ورأوا أن
اللفظ والمعنى صنوان وتوأمين . يقول ابن رشيق : " اللفظ جسم
وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ،
ويقوى بقوته " (١) . ويقول ابن الأثير : " اعلم أن العرب
كما كانت تعتنى بالالفاظ فتصلحها وتهذبها فان المعانى أقوى عندها
وأكرم عليها وأشرف قدرا فى نفوسها . فأول ذلك عنايتها بالالفاظ
لانها لما كانت ~~هنا~~ معانيها وطريقا الى اظهار أغراضها أصلحوها
وزينوها وبالغوا فى تحسينها ليكون ذلك أوقع لها فى النفس وأذهب
بها فى الدلالة على القصد ... فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم
وحسنوها ورققوا حواشيها وصقلوا أطرافها فلا تظن أن العناية
از ذاك انما هى بالالفاظ فقط، بل هى خدمة منهم للمعانى ... " (٢).
وقد أورد المؤلف بعض هذه الشواهد فى كتابه .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى قضية أخرى أو مسألة تمس اللفظ
والمعنى ألا وهى : الإيجاز والاطناب والمساواة . ويقول : (وقد
وردت هذه الالفاظ فى كتب البلاغة أوصافا للعبارة وعناصرها من حيث
ما تؤدى من معان ، فاذا قصر اللفظ عن المعنى كان إجـازا ،

(١) المدة ج ٢ ص ٨٢ .

(٢) المثل السائر ص ١٣٧ .

وان طال لفائدة كان اطنابا ، وان تساويا كان مساواة أو تقديرا .
ولرجال البلاغة كلام كثير فى هذه الاقسام ، وفيما يدخل تحتها من
فروع لا حاجة بنا الى تكرارها هنا . ويمكن الرجوع اليها فى المشـ
السائر (١) وسواه . وقد تناولتها كتب البلاغة - غالبا - فى سياق
الجمال والفقر . (٢)

وبعد ايراد أمثلة وشواهد مختصرة لكل من الایجاز والاطناب
والمساواة يقول عطفـا على كلامه السابق : (ولكننا نشير هنا الى هذه
الاصاف من ناحيتها العامة التى تبدو فى العبارة اللفظية لمقال أو
خطبة أو رسالة أو وصف أو قصيدة ، وفى مقدار ما يصل بينها وبين
الأغراض والمعانى كلها مجتمعة ، فمن الكتاب من يؤثر الایجاز حتى
يصل الى التوقيعات والاشارات ، ومنهم من يسهب ويطيل كما فى
الخطب والمقالات الصحفية غالبا ، ومنهم من يساوى ، ويغلب ذلك
فى الرسائل والمقالات العلمية . (٣)

ويمكن أن نفهم من هذا الكلام أن المؤلف يشير الى تطبيق
أوصاف الایجاز والاطناب والمساواة فى النص الادبى كله ، كما طبق من
قبل فى الجمال والفقر . وهو أمر نرحب به وندعو مع المؤلف اليه .

(١) ص ٩١ وما بعدها .

(٢) الأسلوب ص ١٧٦ .

(٣) الأسلوب ص ١٧٧ .

أما ان كان يريد القول بان الایجاز والاطناب والمساواة أثر من آثار الشخصية فى اختلاف الاساليب فانا مع موافقتنا اياه فى ذلك لانرى فيه أى جديد .

وأما .. الناحية الثالثة .. من أثر الشخصية فى اختلاف الاساليب فهى : (ناحية الصنعة البديعية ، والتكلف المقصود ، طمعا فى زخرفة الاساليب ، وتوشيتها بالسجع والجناس والمطابقة والاستعارة ونحوها من عناصر التحسين اللفظى والمعنوى . وقد كانت هذه المحسنات ترد فى الشعر القديم قليلة وعفوا دون تكلف ، استجابة لقوة المعنى وصدق تصويره . كقول أبى ذؤيب الهذلى مستعيرا :
واذا المنية أنشبت أظفارها ألغيت كل تيممة لا تنفع

وقول حيان بن ربيعة الطائى فى التجنيس :

لقد علم القبائل أن قومى لهم حد اذا لبس الحديد

وقول زهير فى المطابقة :

ليث بعثر يسطاد الرجال اذا ما الليث كذب عن أفرانه صدقا
" فلما أفضى الشعر الى المحدثين ، رأوا مواقع تلك الابيات من الغرابة فى البديع ، فمن محسن ومسى ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط (١) . وقد قيل ان : " أول من فتن البديع من المحدثين بشار بن برد وابن هرمة وهو ساقاة العرب ، وآخر من يستشهد بشعره ، ثم أتبعهما مقتديا بهما كلثوم بن عمر العتاهى ، ومنصور النمرى ،

ومسلم بن الوليد ، وأبونواس ، واتبع هؤلاء حبيب الطائي ، والوليد
البحترى ، وعبد الله بن المعتز فانتهى علم البديع والصنعة اليه ،
وختم به " (١) .

والذى يعنينا هنا - فى الشعر - أن هؤلاء الشعراء اختلفوا
فى مقدار عنايتهم بالصنعة البديعية فاختلفت أساليبهم فى النظم تبعاً
لذلك . . . (٢)

وكلام المؤلف عن الصنعة البديعية ليس فيه جديد كذلك
فقد تحدث عنه أمثال الآمى وابن رشيق اللذين استشهد بهما المؤلف .
ويبدو أن كل ما يريده هو اثبات أن الصنعة البديعية أثر من آثار
الشخصية فى اختلاف الأساليب ولكن طول الحديث وكثرة الاستطراد
يبعد بالقارىء عن ادراك ذلك إلا إذا عاد وقلب الصفحات الكثيرة
السابقة ليصل ما انقطع من تسلسل الحديث .

ويذهب المؤلف بعد ذلك فيضرب أمثلة مرة أخرى فى الصنعة
البديعية لكل من أبى تمام والبحتري وابن المعتز وابن الوليد محلاً
أثر الصنعة كل فى شعره . فأبو تمام أشد الشعراء تعلقاً بالبديع
وأكثرهم تكلفاً له وأما البحتري وابن المعتز فقد غلب عليهما
الطبع السمج وسهولة الأسلوب وعدم الكد وراء المعانى العميقة
والالفاظ الغريبة وبين هذين الطرفين تضع مسلم بن الوليد
فقد جمع بين الصنعة المعتدلة وتجويد الشعر والبطء فى صنعته حتى

(١) العمدة ج١ ص ٨٥ .

(٢) الأسلوب ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

سموه زهير المولدين (١)

وكما تحدث المؤلف عن الصنعة في الشعر - تحدث عنها في
النثر . . فـ (هذه الصنعة البديعية قد انتهت الى غايتها المقبولة
على يد كتاب القرن الرابع الهجري ، أمثال بديع الزمان والخورزمسى
والصاحب بن عباد وابن العميد ، هؤلاء الذين عرفوا بالسجع والجناس
والطباق واقتباس لغة الشعر أو تضمين معانيه ، وقد استطاعوا لا حاطتهم
اللغوية وقدرتهم الادبية أن يجعلوا أساليبهم مقبولة ويخففوا آثار
هذه الصناعة ، الا أن كثيرا ممن خلفهم على هذا الفن - وبخاصة بعد
سقوط بغداد وفي عصر المماليك - لم يظفروا بمكانة السابقين في اللغة
والادب ، ثم غلوا في البديع فأضافوا الى ماسبق التورية والاستخدام
والتلميح للحوادث الشهيرة ، ثم التصحيف الذي كان مجال البراعة
عند المتكلمين . وقد نشأ عن ذلك فساد الاساليب وركتها والتضحية
بالمعاني في سبيل الالفاظ .) (٢)

ونحن مع تقديرنا للمؤلف - اذ استطاع أن يختصر في أقل من
صفحة تاريخ الصنعة البديعية في النثر - نتساءل مرة أخرى ما الجديد
في ذلك الذي يمكن اعتباره اضافة جديدة الى البلاغة في كتاب يدعو
الى منهج جديد لها .

ولعل الجديد هو قول المؤلف في آخر هذا الفصل الرابع من
الباب الرابع : (ومثل هذه الصنعة بقيت الى أول العصر الحديث

(١) العمدة ج ١ ص ٨٥ .

(٢) الاسلوب ص ١٨٢ .

حين تشبث بها قوم من الكتاب ظانين أنها مظهر البراعة . فلما
هبت هذه النهضة ، وحملت الثقافة والسرعة الناس على العناية
بالمعاني والموضوعات ، انهزمت هذه الصنعة ولم تستطع مجاراة هذا
التيار المعنوي الدافع ، فتحررت الاساليب بالتدريج وألقت عن
كواهلها هذه السخافات اللفظية ، وأخذت ترقى مستجيبة للرقى
العقلي والذوق حتى بلغت الآن منزلة رفيعة لعلها لم تظفر بها قبيل
الآن . (١)

ولكنى أعود فأسأل : أين المنهج الجديد للبلاغة . . فقيده
قرأنا حتى الآن واستعرضنا أربعة أبواب من الكتاب . . ولم يبق إلا
الباب الخامس وهو في صفات الأسلوب . . ولعل هذا الباب
الخامس أولى الأبواب بأن يقتصر عليه الكتاب . والله أعلم .

صفات الأسلوب

هذا الموضوع هو الأخير في هذا الكتاب .. وهو أهم ما تضمنه الكتاب - في رأيي - ويتكون من أربعة فصول تتناول صفات الأسلوب التي يرى المؤلف أن تضاف الى منهج البلاغة - ومع أن هذه الصفات مقتبسة من علم النفس .. وتحدث عنها (جينونج) .. فانها صالحة للاندماج وتفيد دارس البلاغة في انشاءه للأساليب .

(ويمكن ارجاع هذه الصفات الى ثلاثة قياسا على الغايات التي يقصد اليها المنشئون :

- | | | |
|---------|--------|------------------------------|
| أولا : | الوضوح | لقصد الافهام |
| ثانيا : | القوة | لقصد التأثير |
| ثالثا : | الجمال | لقصد الامتاع (أو السرور) . |

ويذهب المؤلف بعد ذلك يتناول كل صفة بشئ من التفصيل .

أولا : وضوح الأسلوب :

والمصدر الاول للوضوح هو عقل الاديب . . . (لذلك كان الوضوح صفة عقلية قبل كل شىء . وبعد ذلك يأتى التعبير اللغوى الذى يتطلب من المنشئ ثروة لغوية وقدرة على التصرف فى التراكيب والعبارات لتلائم أفكاره وطريقة تفكيره ، فلا يرضى عن كلمة أو جملة تبعث الابهام أو الاشتراك ، ولا يشعر الناس بأن عبارته فى حاجة الى أن تفهم . ولن يجوز فى فن البلاغة هذا القانون الذى ارتجله أبوتام حين قال : ولم لا تفهم مايقال ؟ جوابا لمن قال له : لم لا تقول مايفهم ؟ لان البلاغة قائمة على العناية بالقراء والسامعين ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ، فاذا بدا الأسلوب بعد ذلك غامضا توجه الطعن الى منشئه ، ورمى اما بعدم فهمه مايقول ، واما بعجزه عن التعبير عما يفهم) (١) .

وتحقيق الوضوح فى الأسلوب يستلزم أمرين :
أحدهما متصل بالافكار نفسها وهو (الدقة) ، والثانى متصل بالقارىء وهو (الجلاء) ، وهأنذا أخصهما فيما يأتى :

١ - الدقة أو وضوح الفكرة :

يقوم وضوح الفكرة ودقتها على لغة الكاتب ، وكلماته المفردة التى يؤثرها ، لانها أدل من سواها على مايريد . ويذكر المؤلف

بعض القوانين التي تساعد في تحقيق الدقة وتحديد الأفكار، وهي :

(١) اختيار الكلمات المعينة غير المشتركة بين معان ، والتي تدل على الفكرة الكاملة وقد وقع جرير فيما يسمى الاشتراك حتى ذهب الناس كل مذهب فيما يعنى ، وذلك قوله :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل
فماذا كان يفعل ؟ أيبكى أم يهيم على وجهه ، أم يمنعه المسير ،
أم يدفع اليهم شيئاً يذكرونه به أم ماذا ؟ (١) . ويدلى المؤلف
هنا برأى طيب حيث يقول : ومن يدري فلعل في هذا الابهام
بلاغة أرادها جرير ولم يظن اليها النقاد . . . وعندى أن المراد
بهذا التركيب هو مجرد التهويل دون ارادة شئ * بعينه ،
فهو يريد بذل آخر جهده في التحق بأحبته ، وليس باللازم أن
يفهم التعبير فهما حرفيا .

(٢) يحسن بالاديب الاستعانة بالعناصر الشارحة ، أو المقيدة ،
أو المخيلة ، كالنعت ، والمضاف اليه ، والحال ، والتمييز ،
والاستثناء . . . فذلك من عوامل ايضاح المعانى وتحديد هـا .
كقوله : شوقى شاعرا أحسن منه ناثرا ، وليلة نابغية ، نهر النيل
من أطول أنهار الدنيا .

(٣) وما يساعد في وضوح الفكرة استعمال الكلمات المتقابلة المتضادة
المعانى ، ان كانت مقابلة الاضداد مما يزيد في كل منهما وبيان

(١) راجع الصناعتين ص ٣٢ .

خواصه ، وشرط ذلك عدم الغلو فيه ، والا عاد صنعة بديعية
تفسد الاسلوب . كقولك : طول النهار من قصر الليل ، لانقض
ولا ابرام ، وكقول الشاعر :

متى أردت الدنيا نهاية خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه

(٤) البعد عن الغريب الوحشى ، والعمد الى لغة الناس وما يستطيعون
ادراكه ، وذلك يختلف باختلاف العصور وطبقات الناس
واذا أردت أمثلة للاغراب فارجع الى الصناعتين (١) .

(٥) ثم المصطلحات العلمية والفنية والاجتماعية والتاريخية التى وضعت
لمعان خاصة محددة ، لتكون بين الكتاب والقراء علامات واضحة
وروابط عقلية مشتركة .

والذى يخشى من هذه القوانين التى ذكرها المؤلف لوضح الفكرة
هو أن ينهمك البليغ فى تحرى الدقة فيعود الاسلوب بذلك جافا
أشبه بالصكوك التجارية أو القانونية ، خاليا من الروح الفنية ، تقرؤه
محكما دقيقا ولكنك تشعر بعقم وملالة .

وهذا ما لحظه ابن قتيبة (٢) على قول لبيد بن ربيعة :

ما عاتب الحرّ الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

فقال : " هو جيد المعنى والسبك وان كان قليل الماء والرونق " ، وعقب
المؤلف على ذلك فقال : ان ذلك راجع الى أن البيت قد استأثر به العقل

(١) راجع الصناعتين ص ٢٦ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٤ طبعة الخانجي .

دون العاطفة ، فذهبت روعته ، وضاع جماله الأسلوبى .

ب- الجلالة أو وضوح التراكيب :

بعد أن يتوافر للكاتب دقة الفكرة ووضوحها ، تكون خطوته الثانية مطابقة الأسلوب لادراك القارىء ، وهى تبدو فى صور شتى من الرقة والجزالة أو السهولة والصعوبة حسب المعانى التى تؤدى بها العبارات

والقانون الاساسى لتحقيق هذا الجلاء هو تحرى البساطة فى صوغ العبارات ومجانبة التعقيد ، مع الاحتفاظ بسموها وقوتها . وهذا القانون نفسه متصل بالتكوين المنطقى والنحوى للأسلوب ، هذا التكوين الذى يسلك الكلمات والجمل والعبارات فى نظام لفظى هو صورة لنظام عقلى وتفكير منطقى مطرد .

ويسوق المؤلف بعد ذلك بعض القواعد التى تفيد فى تكوين التراكيب الواضحة ، وتتلخص فى :

(١) لا بد للبليغ من ذوق نحوى شديد ، يحسن التأليف بين الكلمات لتدل على معنى دقيق معين ، وتسلم من هذين العدوين اللذين يفسدان الكلام ، وهما : اللبس ثم الغموض كما فى بيت جرير السابق ، وكقول المتنبي :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا لمن بات فى نعمائه يتقلب
فعود الضمير فى نعمائه على من الاولى يختلف فى المعنى اذا
عاد على من الثانية . وهذا هو (الاشتراك) الذى سبق

وذكره المؤلف في رقم (١) عند حديثه آنفا عن وضوح الفكرة .

(٢) الوثوق من أن العناصر التركيبية التي يرتبط بعضها ببعض في المعنى - كأصل وتابع أو معنى وضده - قد ركبت بنظام دقيق وتأليف منسق بحيث لا يتعب القارئ في تبين هذه الصلات بين الأجزاء فينصرف عن المعنى ويجهد عقله في غير نفع .

(٣) بعد ذلك تأتي مراعاة الجمل معا وما يكون بينها من فصل أو وصل ، وما يربطها من حروف العلة أو الحال أو الاستثناء .

(٤) وما يتصل بذلك الاطناب والمساواة والايجاز . ولسنا نريد هنا فرض أحد هذه الاوصاف على العبارة ، لأن كل صفة منها تكون أوفى بالغرض في مقام دون سواها . فالشعر تكفي فيه الكلمة الموجزة واللمحة الخاطفة أحيانا لان طبيعته الايجاز والرمز ، والاسلوب العلمي ثلاثه المساواة ، ويكون الاطناب أحيانا في الخطب والمقالات السياسية والاجتماعية ، ولعل أسلوب الصحافة الآن أميل الى ذلك .

وانى لأتساءل : هل طبيعة الشعر الايجاز والرمز ؟!

أليست القصيدة مجالا واسعا للاطناب والاستطراد والتصوير والتذييل انه لمن النادر أن يكون لفظ البيت مساويا للمعنى بله الايجاز !! أما الرمز فهو ليس من الكثرة في الشعر بحيث يكون وصفا عاما له . وعلى العموم فان هذا الفصل الاول من صفات الاسلوب تناول بشكل واضح ودقيق الوصف الاول للاسلوب وهو (الوضوح) وبين أن

هذا الوصف يجب أن يكون متوفرا في الفكرة أولا ثم في الأسلوب
ثانيا وهو أمر - لا شك - يجب أن يتصف به البليغ .

ثانيا : قوة الأسلوب :

نلاحظ أن القوة صفة نفسية ، تتبع أول أمرها من نفس
الاديب الذى يجب أن يكون نفسه متأثرا منفعلا اذا شاء من قرائه
حماسة وانفعالا ، وهى لذلك صفة العاطفة والارادة والاخلاق قبل أن
تكون صفة الأسلوب

وانذا كان الغرض من الوضوح هو الاقتصاد المباشر فى اجتهاد
مواهب القارىء ، فان الغرض من القوة الاقتصاد غير المباشر بايقاظ
عقله وعواطفه وأخيلته لتدرك المعانى بقوة وتحظى بمتعة جديدة . . .
وهناك قاعدتان لتحقيق القوة السلوبية هما :

قوة الصورة ، قوة التركيب

* أما قوة الصورة . . فيراد بها أن تتجاوز الصورة بالمقل معناها
الحرفى الى معنى أو معان أخرى مجازية أو غيرها ، وذلك يكون بالتمثيل
والكناية والاستعارة من كل ما يفتح أمام القارىء آفاقا من التفكير أو
التخيل . من ذلك قول بشار :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت رأى الناس تصفو مشاريه

فيمكن أن نفهم من هذا البيت معانى ثلاثا بهذا الترتيب : أولها هذا
المعنى الحرفى الساذج وهو أن يحتمل الانسان شرب الماء على قذاه

أحيانا لانه لا يضمن صفاء دائما . ثانيها : احتمال الصديق على ما به من عيب فلم يسلم انسان من العيوب وهذا المعنى هو المناسب لأن بشارا كان يعاتب . وثالثها وهو الأخير : احتمال السقوط في الحياة وتجمل عنت الدهر بالفوز المطلق غير المحتوم .

على أن مثل هذه الصور الخيالية ، والعبارات البيانية ، تبين لنا كيف يتصور الاديب الاشياء ويتناولها بعقله وخياله ، وتجعلنا نشعر بشعوره ونتحد معه ولو لحظات (١) .

وهنا يتبادر الى ذهني سؤال أو خاطر كنت أود أن يوضحه المؤلف . . وهو : هل الصورة الخيالية جزء من العبارات البيانية .. ويتعبير آخر : هل الصورة جزء من الاسلوب . . المفهوم من كلام المؤلف أن قوة الأسلوب تتحقق أولا بقوة الصورة فهل معنى ذلك أن الصورة جزء من الاسلوب ؟ وأن الاسلوب أعم والصورة أخص ؟

وقد دفعني ذلك أن أرجع البصر كرتين لأرى ماذا قال القدماء والمحدثون في ذلك . . أي في الاسلوب والصورة ومدى الارتباط بينهما :

يرى المحدثون وعلى رأسهم الزيات أن الاسلوب يشتمل على عناصر منها الصورة . . أي أن الاسلوب شامل لها وهي جزء منه . . فـ (الاسلوب ليس هو المعنى وحده ولا اللفظ وحده وإنما هو مركب فني من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه ،

تلك العناصر هي الافكار والصور والعواطف ثم الالفاظ المركبة والمحسنات المختلفة . والمراد بالصور ابراز المعنى العقلى أو الحسى فى صورة محسنة (١) .

أما الاستاذ الشايب فنجدہ يعتد بالشكل اعتدادا كلياً وأن العنصر اللفظى هو مظهر الفكرة والصورة والجانب الحسى لهما . . فـ (الذى يعيننا أن الاسلوب منذ القدم كان يلحظ فى معناه ناحية شكلية خاصة هى طريقة الاداء ، أو طريقة التعبير التى يسلكها الاديب لتصوير ما فى نفسه أو لنقله الى سواه بهذه العبارات اللغوية . . فهو طريقة الكتابة ، أو طريقة الانشاء ، أو طريقة اختيار الالفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصد الايضاح والتأثير . . ان الاسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير . . وهذا التعريف الاخير يتناول عناصر الاسلوب كلها ويقوم على أساس الصلة بينها وان كان العنصر اللفظى مظهر الفكرة والصورة لانه الجانب الحسى لهما) (٢)

وعلى الرغم من أن الاستاذ الشايب يعتد بالشكل ويعتبر العنصر اللفظى هو مظهر - مجرد مظهر - للفكرة والصورة نجده يعود فيعتبر الصورة جزءاً من الاسلوب . . ليس هذا فحسب بل العاطفة كذلك جزء من الاسلوب وعنصر من عناصره . . فـ (العاطفة فى الادب عنصر أسلوبى يحس دون أن يشرح أو يعرض عرضاً مباشراً صريحاً) (٣) .

(١) دفاع عن البلاغة ص ٧٦ و ٧٧ .

(٢) الاسلوب ص ٤٤ و ٤٦ .

(٣) الاسلوب ص ٥٣ .

أما الأسلوب عند القدماء فنجد الامام عبد القاهر عرفه بأنه :
الضرب من النظم والطريقة فيه (١) . و (أهم العناصر عنده
التي تجعل الصورة الادبية هو النظم . . هو التصرف في التراكيب
تصرفا حاذقا ماهر يجعلها تستحق اسم الصورة ، فالنظم الاصيل
عنده هو الذي يشرح الكلام لاستحقاق اسم الصورة . . هو ذلك الذي
تضع فيه اليد على وجوه التصرف والصنعة فتري الناظم قد عرف ونكر
وقدم وأخر وفصل ووصل وأظهر وأضر ، وتراك تسائله لم قدم ما قدم ،
ولم أنكر ولم يعرف ، ولم وصل بالفاء دون ثم مثلا ؟

فمثلا قول ابراهيم بن العباس :

فلو اذنبا دهر وأنكر صاحب وسلط أعداء وغاب نصير

فان الشاعر أراد بتكثير الدهر والصاحب أن يحقرهما ويرميها بالفدر
والخيانة . وان قد دل التكثير على هذا الغرض الذي أراد الشاعر
فقد أصبح **التكثير** عنصرا في الصورة لأنه أدى غرضا أراد الشاعر ابرازه
في هذه الصورة (٢) .

والفرق الاساسي بين الصورة عند المحدثين وعند عبد القاهر هو
أن الخيال يعتبر الركن الأصيل عند المحدثين في الأسلوب الادبي
بينما هو ليس كذلك عند عبد القاهر ، فاللمسات الدقيقة في صناعة
النظم لها من الروعة والسحر ما يفوق الخيال أحيانا . ان جمال النظم
قد يبلغ بالحقيقة مرتبة لا يصل اليها الخيال (٣) .

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٦١ .

(٢) نظرية العلاقات - د . نايل ص ٥١ .

(٣) نظرية العلاقات - د . نايل ص ٥٢ .

ونفهم من ذلك أن عبد القاهر لا يعتبر الصورة عنصرا من عناصر
الاسلوب وان كان الاسلوب صانعها ومكونها .

ونعود الى المؤلف فنراه يقدم لنا بعض الوسائل التي تحقق للبليغ
قوة التعبير . . وكان الاولى أن يذكر هذه الوسائل عند حديثه عن قوة
التركيب التي ستأتى عقب حديثه عن قوة الصورة : علما بأن هذه الوسائل
سبق وذكرها فى أكثر من موضع من هذا الكتاب .

وهذه الوسائل هى : (١)

أولا : استعمال الكلمات المألوفة المحددة المعنى ، العربية ، فذلك
يفيد فى وضوح الافكار والصور كما يفيد فى قوتها واستقرارها
فى العقول .

ثانيا : استخدام الكلمات الوصفية التى تفيد فى جمال الاسلوب وفى قوته
معا ، ويراد بالكلمات الوصفية تلك التى تصور مشاهد أو حوادث
تلفت النظر وتروع الفؤاد وتشير الاعجاب ، كقول بديع الزمان
فى المقامة الأسدية :

" فاذا السبع فى فروة الموت ، قد طلع من غابه ، منتفخا نسي
اهابه ، كاشرا عن أنياه ، بطرف قد ملئ صلفا ، وأنف قد
حشى أنفا ، وصدر لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب " .

ثالثا : الاستعمال المجازى للكلمات ، أو وصفها بنعوت غريبة تؤدى
معنى المبالغة المقبولة والايجاز الطريف ، وتفتح للقارى مجال

التفكير والتخييل ، ومن هذا الاخير قولهم : ليلة نابغيسة ،
ورأس كليب ، وثالثة الأثافي .

رابعا : التحاشى عن الكلمات الضعيفة ، والحشو الفارغ ، والعناصر
الثانوية فى العبارات ، ثم الاكتفاء بأركان الكلام حتى يتسرك
لها المجال لتبعث آثارها دون عائق . وأكثر ما يبدو ذلك
فى الخطابة والجدل والمناظرة وفى الشعر والنثر الادبى .

* أما قوة التركيب فتتم بالوسائل الآتية :

(١) تقديم الكلمة أو تأخيرها بالنسبة الى موضعها الطبيعى دلالة على
القصر أو التفخيم ، أو حسن الذوق واللياقة ، أو الاهمية مطلقا ،
مثل : اياك نستعين ، على الأخلاق خطوا الملك وأبنو ، لا اله
الا الله .

(٢) من أسباب القوة الطباق البديعى الذى مر ذكره فى الوضوح لأن
المقابلة نوع من التحدى بين المعانى والمنافسة فى الظهور وهذه
قوة للمعانى . مثل : فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا .

(٣) لما كانت القوة تستلزم السرعة فى أكثر الأحيان ، كان الايجاز
لازما فى العبارة عامة وفى التراكيب خاصة ، لذلك نجد تراكيب
الخطابة مقتضبة سريعة كأنها أوامر ونذر صارمة ، كذلك الحوار
التمثيلى ، والجدل الادبى ، لما تتطلب من سرعة الأداء .

وأجدنى أتساءل مرة أخرى : هل الخطابة حقاً مقتضبة سريعة حتى لو كانت أوامروندرا ؟! ان المعروف عن الخطابة وهى التى تتطلب قوة الاسلوب أنها مجال واسع للاطناب والتأكيد والاستطراد وضرب الأمثلة . . وفى خطب على بن أبى طالب قديما ومصطفى كامل حديثا وغيرهما خير دليل على ذلك .

ولماذا أذهب بعيدا . . ان المؤلف نفسه يقول فى نفس الكتاب عند حديثه عن الخطابة (١) :

(وعلى هذا الأساس من طبيعة الفن الخطابى نستطيع تمييز أسلوبه بما يلى :

١- الصفة العامة للاسلوب الخطابى هى القوة ، ومصدرها الاول انفعال الخطيب ، وقوة عقيدته وبقينه بمايقول ، ثم تظهر فى عباراته المسجوعة أو المزدوجة وكلماته المؤثرة الجزلة لتكون موسيقا قوية على تفاوت فى ذلك ، يقول زياد فى مطلع خطبته : " أما بعد فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء "

٢- التكرار المعنوى جائز فى الخطابة لتشبيت الافكار فى الأذهان ولكن لابد من تغيير العبارات كما رأيت فى المثال السابق اذ الفكرة الواحدة وردت فى عدة جمل ، كما رأيت عندعلى ، وكقول زياد : " أكونون كمن طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ؟ " .

ثالثا : جمال الأسلوب :

الجمال صفة لازمة للأساليب الأدبية مادام الأدب معنيا
بإمتاع القراء واحترام أذواقهم . . وليس من جمال الأسلوب في شيء هذه
المحسنات البديعية والصور الخيالية التي يصطنعها الكتاب عمدا
ويأتون بها تكلفا دون أن تستدعيها طبيعة المعاني أو يحتاج إليها
الخيال ليصور بها عاطفة صادقة وانفعالا قويا .

والجمال صفة نفسية تصدر عن خيال الأدب وذوقه ، فالخيال
المصور يدرك ما في المعاني من عمق وما يتصل بها من أسرار جميلة إدراكا
حادا رائعا ، والذوق يختار أصفى العبارات وأليقها بهذا الخيال
الجميل .

والجمال صفة سلبية و إيجابية ، تكون بخلو الأسلوب من التافه
والخشونة التي توغذى الحس والذوق ، ثم يجعله - أي الأسلوب -
صاحبا بجمال الذوق والخيال .

الناحية السلبية : ويراد بها أن تكون العبارة خالية من أسباب
الاضطراب الصوتي والخشونة القاسية التي لا تتم عن عاطفة أو خيال ،
وبذلك نجد الكلمات والجمل مطردة متساقطة الحروف والكلمات .

الناحية الإيجابية : ما سبق كان عملا سلبيا يراد به إبعاد الأسلوب
لقبول العنصر الإيجابي للجمال . وهو ما يمكن تسميته بالتناسب أو
مطابقة اللفظ للمعنى (١) .

تداخل صفات الأسلوب وتعادلها :

مما سبق اتضح أن صفات الأسلوب هي : الوضوح - القوة - الجمال .
وهذه الصفات لا يستغنى بعضها عن بعض في الأسلوب ، فهي أشبه
بنغمات الموسيقى وأدواتها التي لا بد من تعاونها وتآلفها لتكوين نغمة
عامة تلائم الدور الملحن موضوعا وغاية ، كذلك لا بد من تآزر هذه
الصفات وتناسقها حتى يكون الأسلوب متزنا كاملا يغذى العقل والشعور
ويرضى نواحي النفس الانسانية معبرا عنها أو مؤثرا فيها .

وأساس النجاح ألا يسمح الأدب لصفة بالحياة على فناء الأخرى ،
بل لا بد من توفيرها جميعا ، وحفظ التوازن بينها بدرجسة تجعل
الأسلوب قائما بواجبه خير قيام . وذلك لا يكلف الأدب أكثر من
يقظة نفسية ، وبراعة أسلوبية ، وصدق في الأداء (١) .

هذا وقد ورد مثل هذا الكلام في ص ٢٥ من الكتاب نفسه
فليراجع . ويعد : فان هذا الفصل الأخير هو أليق ماورد بالكتاب
لضمه الى منهج البلاغة حيث ان دراسة صفات الأسلوب (الوضوح -
القوة - الجمال) تفيد دارس البلاغة ، وتوقظ احساسه ، وتلفت
انتباهه وهو ينشئ الأسلوب الى ما يجب أن يراعيه من وضوح التفكير
وقوة التصوير وجمال التعبير ، وما بين هذه الصفات الثلاثة من
اشترك ضرورى وتعاون لازم مع ظهور أحدهما على أخويه حسب مقتضى
الحال .

(١) راجع الأسلوب ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

عودة الى "بوفون" :

سبق وتحدثنا عن "بوفون" حينما تناولنا تعريف الأسلوب
فى هذا الكتاب وقلنا ان بوفون عرف الاسلوب بأنه عبارة : عن النظام
والحركة التى يضمها المرء فى أفكاره ، فاذا ربطت هذه الافكار بدقة
وضمت صار الاسلوب شيئا قويا موجزا .

ومن يقرأ حديث بوفون عن الاسلوب ، والذي ترجمه
د . أحمد بدوى (١) ، يدرك تماما أن بوفون قد بين الاسلوب من جميع
نواحيه وألفاظه ومعانيه وعواطفه وأخيلته ، ورسم الطريقة المثلى للكتابة
الجيدة والاسلوب الممتاز ، وبين أن حفظ القواعد واستيعابها لا يمكن أن
يحل محل الموهبة لانه لا بد منها حتى يصبح العمل الفنى قريبا من
الكمال . وبين كذلك أنه لا بد لكل عمل أدبى من خطة يتبعها الكاتب
قبل الكتابة والا أصبح العمل الادبى فوضى لا حدود لها .

ولقد حدد بوفون - فى خطبته أمام المجمع الفرنسى - الملامح
الاساسية والخطوات التى يجب على الاديب اتباعها حتى ينال أسلوبه
رصانة وجلالا ونبلا . هذه الخطوات هى :

* امتلاك ناصية الموضوع امتلاكا تاما ، والتفكير فيه تفكيرا كافيا ،

بحيث يرى الكاتب بوضوح نظام عناصره وتتابعها ، ويجعل منها

سلسلة متصلة كل نقطة فيها تمثل فكرة .

* على الاديب أن يوجه قلمه ليعالج الموضوع بالتوالى ، وأن يعنى

(١) راجع بوفون وحديثه عن الاسلوب فى مجلة الرسالة / العدد ٦١٨

العام الثالث عشر ص ٤٧٤ و ٤٧٥ .

بالعناصر عناية متساوية ، وألا يضع عنصرا في مكان غير مكانه المحدد له والذي يجب أن يشغله .

* اذا ضم الى ذلك ، الموهبة والركة والذوق في اختيار التعبيرات حاز الاسلوب نبلا .

* واذا ضم الى ذلك أيضا : الاحتراس من أول انفعال ، والاحتقار لكسل ما ليس فيه سوى البريق ، والنفور الدائم من الابهام والسخرية نال الاسلوب رصانة وجلالا .

* وأخيرا اذا كتب الانسان كما يفكر ، واذا كان مقتنعا بما يريد أن يقنع به سواء ، أنتج ذلك صدق الاسلوب وبالتالي اقناع الغير .

وفي هذا البحث أيضا ميز بوفون بين نوعين من الجماهير :
الأول : وهو القسم الاعظم من الناس . . وهو " لا تجب لاثارتهم واقناعهم نفمة حادة مؤثرة واشارات معبرة وكلمات سريعة رنانة .
الثاني : وهو العدد القليل ومن هم على شاكلة أعضاء المجمع الفرنسي . . هو " لا تقدم اليهم الافكار والحجج والبراهين ، وينبغي لمن يقدمها أن يعرف كيف يبرزها وكيف يلونها وينسجها . . ولا يكفيه أبدا أن يقرع الاذن أو يشغل العين ، بل يجب أن يحرك الروح ويلمس القلب والعقل .

وهذا الذي قاله بوفون في القرن الثامن عشر قريب جدا مما سطره بشر بن المعتز في صحيفته المشهورة حين قال :

(وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها

وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حال من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات . (١)

وأخيرا فكتاب الأسلوب كتاب يستحق النظر والدراسة فهو مفيد -
لا شك في ذلك - للطلاب والدارسين . . ولكن هل ندرسه على أنه
بلاغة . . أم أدب .

أعتقد أن الجواب على ذلك بات مفهوما بعد كل الآراء
والتعليقات التي ذكرناها على أبواب الكتاب وفصوله . والتي سنجملها
ضمن حديثنا القادم عن :

كتاب " الأسلوب " في الميزان .

كتاب الأسلوب في الميزان

(١) هذا الكتاب أجمل فيه الاستاذ الشايب المنهج الجديد لعلم البلاغة العربية - كما يقول في المقدمة ص ٣ - ويرى أن هذا المنهج يتطلب دخول علم البلاغة في بابين أو كتابين :

الأول : باب الأسلوب أو كتابه . . ويتناول دراسة الحروف والكلمات والجمل والصور والفقرات والعبارات . على أن تدرس درسا مفصلا دقيقا يعتمد على علوم : الصوت والنفس والموسيقا وما " اليها " مما يقوم الأسلوب على أنه صورة أدبية فنية . وهذا الكلام معناه أن ندخل في علم البلاغة جزءا . أو أجزاء من كل علم من هذه العلوم نستعين بها على دراسة الحروف والكلمات والجمل . . . الخ ، وهذه العلوم ليست فقط هي : الصوت والنفس والموسيقا . . بل هناك أيضا وما " اليها " أي علوم أخرى لم يحددها المؤلف وقد تكون كثيرة . . هذا بخلاف علوم : النحو والفقه واللغة والأدب والنقد . . ولا مانع أيضا من : المنطق . . وغيره وغيره . وهذا الحشد من العلوم - إن تحقق أو أمكن مزجه بعلم البلاغة - يصيب البلاغة بالتخمة . . ويصيب الدارسين بالدوار . فهل هذا هو المنهج الجديد المجمع الذي بشرنا به المؤلف في مقدمة كتابه ؟! نعم لا يكون البليغ بليغا حتى يلم بهذه العلوم ويطوف بها قبل أو مع دراسته للبلاغة . . ولكن أن تكون البلاغة - ذاتها - خليطا من

هذه العلوم فهو أمر غير مستساغ ويحتاج الى نظر .

أما الباب أو الكتاب الثانى : فيدرس الفنون الادبية وقوانينها شعرا ونشرا ، يدرس أصول المقالة والخطابة والرسالة والجدل والوصف والربثاء والقصة والملحمة والتعشيلية والتأريخ والتأليف الى غيرها من هذه الفنون الادبية التى رخصت بها الآداب العالمية وشرعت قواعدها ، ولم تحظ فى بلاغتنا النظرية الا بإشارات خاطفة لا تغنى شيئا .

وهذا الباب الثانى : قلنا - وقال المؤلف نفسه كذلك - أنها فنون أدبية ، فهى تدخل - بل قد دخلت بالفعل - فى دراسة الأدب . وليس من التجديد أن نعود بالبلاغة الى أحضان الأدب والنقد فننثرها فيهما ونمزجها بهما كما كانت منذ قرون . ان هذه الفنون الادبية موجودة فعلا . . ووضعت موضع الدراسة والتدريس . . فهى ليست جديدة علينا . . فهل المطلوب أن نزع عنها عنوانها القديم " دراسات أدبية " ونضع بدلا عنه العنوان الجديد " دراسات بلاغية " . وما جدوى ذلك ؟! ولأن هذه الفنون الادبية فى غنى عن التعريف . . نجد المؤلف اقتصر فى كتابه على الباب الأول : " الأسلوب " .

(٢) الباب الأول من الكتاب كله مقدمات سطحية وتمهيدية لم تدخل فى صلب الموضوع اللهم الا حديثه عن تعريف البلاغة فقد اعتمد التعريف القائم وهو : مطابقة الكلام لمقتضى الحال . . ودار حول هذا

التعريف مقارنا بينه وبين تعريف جينونج - كما تحدث عن المطابقة في ضوء علم النفس وتطرق الى القوى المعنوية الثلاثة: قوة الادراك وقوة الانفعال وقوة الارادة .

وقد علق على ذلك في مكانه . . وبينت أن هذه القوى المعنوية الثلاثة تندرج تحت المعنى العام لكلمة أدب - وهذا تعبير المؤلف نفسه - وتساأت : ما قيمة هذه العناوين التي نقلناها عن علم النفس أو اقتبسناها منه . . أليست قوة الادراك هي "التفكير" ، وقوة الانفعال هي "التصوير" ، وقوة الارادة - كما يقولون - تتمثل في "التعبير" . والتفكير والتصوير والتعبير.. عناصر الاسلوب الادبي في دراستنا الادبية .

فما الزيادة التي أفدناها واقتبسناها من علم النفس الحديث ؟! ان هي الا أسماء استعرتها ، وعندنا ما يعوضها ويفضلها . . أم أن التجديد احلال أسماء مكان أخرى . . بينما الموضوع والجوهر هو هو لم يتغير !!

وكذلك حديثه عن موضوع علم البلاغة في الفصل الخامس من الباب الاول ، فقد ذكر فيه خلاصة منهجه الجديد للبلاغة حيث حصر موضوع البلاغة في قسمين رئيسيين هما : (١) الاسلوب ، (٢) الفنون الادبية . وينظرة متأملة الى هذا المنهج نجد رأيا جديدا في تكوين علم البلاغة من جديد وهو رأى جديد بالنظر والتقدير .

(٣) الباب الثاني من الكتاب في التعريف بالأسلوب . وأهم ما فيه

الفصل الاول حيث تحدث في حد الاسلوب وبين معناه المقام
والخاص - فكلمة " أسلوب " كما تصدق على التركيب الكلامي أو على
طريقة التعبير . . تصدق كذلك على طريقة ووسائل كل فن من الفنون ..
فلنرسم أسلوبه وللموسيقا أسلوبها وللتمثيل أسلوبه وهكذا .
وإذا كان الامر كذلك فكيف يقترح المؤلف الفاء اسم " البلاغة "
واحلال كلمة " الاسلوب " مكانها حتى ولو كانت عنده أخف نطقا
وأجمل رنينا وأكثر شيوعا !! ان الوضع الذي نفهمه ونستسيغه أن
يندرج " الأسلوب " بمعناه الخاص تحت علم البلاغة ويصبح فرعاً
من فروعها مثل : المعاني والبيان والبديع .. ان كلمة " الأسلوب " ،
وباعتراف المؤلف " صارت هذه الأيام حقاً مشتركاً بين مختلف
العلوم والفنون " .. فكيف - والحال هذه - نجعلها عنواناً
جديداً لعلم البلاغة .. بينما كلمة " البلاغة " لا تصدق من بين كل
الفنون الا على هذا العلم الخاص بها . ثم هل التجديد تجديد
الفاظ أم تجديد مضمون !!

(٤) الباب الثالث والباب الرابع يتحدثان عن الأسلوب والموضوع ،
والأسلوب والأديب . وهو حديث أدبي وأولى به كتب الأدب
كما بينا .

(٥) أما الباب الخامس والأخير فيتناول " صفات الأسلوب " وهذا
الباب - كما ذكرنا - أهم ما تضمنه الكتاب - في رأينا - ان يصلح
للاندماج في دروس البلاغة ويفيد الدارسين في انشاء الأساليب .
ومن رأينا أن صفات الأسلوب - الوضوح والقوة والجمال - تعرض

للدروس عند الكلام في البلاغة عن مقتضى الحال .
فالأسلوب الأدبي : يجب أن تلازمه صفة الجمال بكل خصائصه
ومقوماته ولا يستغنى في الوقت ذاته عن القوة والوضوح .
والأسلوب العلمي : تلازمه صفة الوضوح بكل خصائصه ومقوماته
ولا يستغنى في الوقت ذاته عن القوة والجمال .
وأسلوب الخطابة : تلازمه صفة القوة بكل خصائصها ومقوماتها
ولا يستغنى في الوقت ذاته عن الوضوح والجمال .
ان دراسة هذه الصفات الأسلوبية وتتبع خواص كل منها توسع
مدارك الأديب وتلفت انتباهه البليغ الى أمور في الأسلوب يجدر
مراعاتها ، وحسن تطبيقها ينتج .. أو على الأقل يساهم في تربية
الذوق وانتاج أو تكوين الأسلوب البليغ .
ولا أقول ان صفات الاسلوب هذه جديدة .. استحدثها المؤلف ..
أو اخترعها علم النفس الحديث .. فهي صفات أشار اليها
القدماء كما ورد في ثنايا هذا الكتاب .. وتحدث عنها كتاب
" البلاغة الواضحة " الذي أشرت اليه من قبل .. ولكن فضّل
المؤلف هنا .. أنه عرضها في إيضاح وتفصيل ودقة وعناية وألقى
عليها من الأضواء ما جعلها مشرقة جذابة .
واقفاً كان من طبيعة كل رأى جديد أو فكر حديث ينشر في كتاب
أو مقال أن يتعرض للمعارضة والهجوم أو الموافقة والتأييد فان هذا
أمر هو ما حدث لكتاب " الأسلوب "

فبينما يرى د . طبانة أن كتاب الاسلوب يعد مدرسة جديدة
في تناول البلاغة العربية بعائنه اليه من مجالات الدراسة البلاغية . .
يرى أستاذى الدكتور على العمارى أنه كتاب وصفى لا يفنى ولا يفيد
وليس فيه جديد .

رأى د . العمارى :

يرى الدكتور العمارى أن دعوة الشيخ أمين الخولى قد تحققت،
فلقد أخرج الاستاذ أحمد الشايب كتابه " الاسلوب " وتكلم فيه عن كل
المباحث التى دعا الشيخ أمين الى تناولها .

ويتساءل الدكتور العمارى فى بداية مقاله : (هل هذا الكتاب
عمل تجديدى ؟) ثم يوضح أنه لا جديد فيه وأن الاستاذ الشايب
قد عمد الى جهات ثلاث اختطف منها كتابه :

فهو أولا : ترسم خطى أرسطو فى خطابه ، فقد تحدث هذا
عن الاسلوب ، وقيمه ووضوحه ، وصفاته الخاصة ، والشروط العامة
للالسلوب ، سوفتور الأسلوب ، وسلامته ، وشروط ذلك ، وشرح ثراء
الأسلوب وبساطته ووسائل ذلك ، كما بين الاسلوب الكتابى ،
والأسلوب الخطابى ، والاسلوب الشعرى والنثرى ، وتحدث عن
اختلاف الاسلوب باختلاف الموضوعات وغير ذلك .

وثانيا : سطا على أبحاث المتقدمين من أمثال عبد القاهر ،
والجاحظ ، وقدامة ، وابن رشيق ، والآمدى ، وصاحب المثل السائر ،
والقلقشندي ، فاختطفها اختطافا . وحسبك أن ترجع الى ماكتبه

صاحب العمدة عن فنون الشعر، وما كتبه قدامة في نعت الوصف ونعت
الهجاء ونعت الرثاء ونعت المديح ونعت التشبيه، ثم تقرأ كلام الاستاذ
الشايب فسوف تعتقد أن المسألة كما يقولون "حذو القذة بالقذة".

وأما عبد القاهر فقد كتب كتابا خاصا في "النظم" الذي يسميه
الاستاذ الشايب "الأسلوب" قال: للخفة والشيوع. والجاحظ كتب
عن صحة المعاني وفسادها ومناسبتها للالفاظ.

وثالثا: أن الغربيين - كما يقول الشيخ أمين - يعنون في البلاغة
بدراسة الأسلوب... ويقول غير مرة ان هذه الابحاث التي يدعو اليها
- وهي قوام كتاب الاستاذ الشايب - معاني به الغربيون عناية تامة
ويخص بالذكر كتاب الأسلوب الايطالى للباريني.

ولانستبعد بل اننا لنوقن أن الاستاذ الشايب نظر طويلا في
البلاغة الغربية وأخذ عنها. واذن فهل لنا أن نقول كما قال بعض
النقاد الظرفاء "لوقيل لكل معنى في شعر حميد بن ثور ارجع الى صاحبك
لما بقى في يده شئ". وأعتقد أننا لو حذفنا منه هذه الابحاث لبقى
الكتاب أبيض مفسولا على أنه فوق ذلك كتاب وصفى وعمل البلاغة انها هو
وضع القوانين التي اذا ترسمها الاديب استطاع أن ينشئ.
وهذا الكتاب في أكثر مباحثه أشد صلة بأدب اللغة منه بالبلاغة
وان ذكر مؤلفه أنه وضعه في البلاغة وقدم له بأبحاث فيها (١).

(١) راجع رأى الدكتور العمارى في الرسالة/ العدد ٧٠٣ المقال
السادس - علوم البلاغة في الجامعة.

وليسمح لى الدكتور العمارى أن أعلق على نقده هذا لكتاب
الأسلوب . فأنا معه فى أن هذا الكتاب خلاصة آراء عربية قديمة وغربية
حديثه . . وأن مؤلفه جمع مواد الكتاب من هنا وهناك . ولكن أيقـدح
ذلك فى عمل المؤلف اذا كان غرضه من ذلك الوصول الى وضع منهج
جديد لعلم البلاغة ؟

ان الكاتب كما يقول د . طه حسين (مهما يسرف فى حب الجديد
والتهالك عليه فهو لن ينشئ من لاشئ ، وهو لن يستطيع أن يقطع
الصلة بينه وبين القديم الذى غذاه وأنشأه . ، فهو بطبيعة الحال يمثل
الجديد الذى يصبو اليه ، ويمثل القديم الذى نشأ منه) (١)

(والعمل الفنى بحق كما يقول " اليوت " ما هو الا ذلك الذى
ينتمى الى تراث الأمة الأدبى من ناحية ، ولا ينتمى اليه من حيث هو
عمل " جديد " يضيف على هذا التراث ويمدله ويعدله فيه ويجدد ~~سـطـور~~ ~~تـنـظـير~~
اليه) (٢) .

وكنـت أفضل لو أن فضيلة الدكتور العمارى ناقش المؤلف فى موضوع
الكتاب وفى جدوى الخطة أو المنهج الجديد الذى وضعه للبلاغة .
على أن الدكتور العمارى قد أشار الى ذلك فعلا فى آخر مقاله -
وان كانت اشارة مقتضبة - حيث قال : (على أنه فوق ذلك كتاب وصفى ،
وعمل البلاغة انما هو وضع القوانين التى اذا ترسمها الاديب استطاع أن

(١) حديث الأربعاء ج ٢ ص ١١٩ ط ١ .

(٢) النقد الموضوعى : سمير سرحان ص ٤ .

ينشىء . وهذا الكتاب فى أكثر مباحثه أشد صلة بأدب اللغة منه بالبلاغة ،
وان ذكر مؤلفه أنه وضعه فى البلاغة وقدّم له بأبحاث فيها .

وهذا النقد هو ما أتفق فيه تماما مع الدكتور العمارى ، فبعد
دراستى لكتاب (الاسلوب) خرجت منه بهذه النتيجة ، وقد ذكرتها
بالتفصيل أثناء عرضى للكتاب وفى تعليقى عليه .

والحقيقة أن الاستاذ الشايب لم يأت من عنده بجديد ، كما لم
يتحدث فى صلب البلاغة ، ولكن الفصل الاخير من الكتاب فى " صفات
الاسلوب " يستحق النظر والبحث فى وضعه موضع الدراسة البلاغية .
وعلى العموم فان كتاب (الأسلوب) كان محاولة طيبة من الاستاذ
الشايب - رحمه الله - لتطوير البلاغة ، وهو وان لم يفد افادة جازمة فى
الناحية البلاغية فانه قد أضاف - ولا شك - رصيدا طيبا الى الدراسات
الادبية فى العصر الحديث . وكما يقولون : من أخطأ فله أجر ومن أصاب
فله أجران .

رأى د . طبانة :

يرى الدكتور طبانة " أن كتاب الاسلوب يحتاج الى كتاب آخر يحقق
مانشده من التوضيح والسعة والشمول ، حتى يكون أصلا يعتمد فى
الدراسات البلاغية الحديثة ويفتح مجالاتها على مصراعيها ، فان مظهر
السعة فى كتاب " الاسلوب " الذى بين أيدينا هو ما حشد فيه من
العنوانات الكبيرة ، وتلك الابواب المتعددة ، والفصول الكثيرة التى
تنظمها تلك الابواب . أما الدراسة فلم تف بما يحقق هذه الغاية ،

بل جاءت مقتضبة لم تتسع لها صفحات الكتاب القليلة نسبيا ، في حين أن ما أثاره المؤلف من موضوعات يقتضى أن يكون كل فصل من الفصول بابا ، وأن يكون كل باب من أبوابه كتابا ، وحينئذ يكون هذا البحث الجديد فى البلاغة العربية الثمرة المشتبهة لتلك الجهود الكثيرة التى بذلها المؤلف ، والعقلية الكبيرة التى يتمتع بها .

على أن هذه الملاحظة لا تنفى أن كتاب " الأسلوب " يعد مدرسة جديدة فى تناول البلاغة العربية ، بمانبه اليه من مجالات الدراسة البلاغية وآفاقها الواسعة التى تسمح بالتجديد ، ولا تقف عند غاية معروفة لا تتعداها .

ويمكن أن ننظر الى هذا الكتاب على أنه منهج يرسم أصول البحث البلاغى ومبادئه " (١) .

وأجدنى أقف متعجبا أمام رأى د . طبانة وأتساءل : أهو مدح أم ذم ؟! لقد كان الدكتور العمارى واضح الخطأ فى رأيه ، وكان هجومه على الكتاب وتجريده من الأصالة والابتكار ، هجوما واضحا ، لا مواربة فيه ولا غسوس ولا خفاء . أما د . طبانة فقد خلط المدح بالهجاء فهو يرى (أن كتاب الأسلوب يحتاج الى كتاب آخر يحقق ما ننشده من التوضيح والسعة والشمول ، حتى يكون أصلا يعتمد فى الدراسات البلاغية الحديثة ، ويفتح مجالاتها على مصراعيها ، فان مظهر السعة فى كتاب الأسلوب هو ما حشد فيه من العنوانات الكبيرة وتلك الأبواب

(١) البيان العربى - ص ٣٠٨ طه دار العودة ببيروت .

المتعددة والفصول الكثيرة التي تشتملها تلك الابواب . أما الدراسة فلم تف بما يحقق الغاية ، بل جاءت مقتضبة لم تتسع لها صفحات الكتاب القليلة . . .)

فقله : ان كتاب الاسلوب يحتاج الى كتاب آخر . . . الخ معناه بصراحة أن هذا الكتاب لم يقدولم يحقق الغاية منه . وهو بذلك يتفق مع قول الدكتور العماري : انه كتاب وصفي ، وعمل البلاغة انما هو وضع القوانين .

ويرى د . طبانة : أن صفحات الكتاب قليلة نسبيا ، ومع ذلك حشدت فيه العنوانات الكبيرة والابواب المتعددة والفصول الكثيرة . ومعنى ذلك - بصراحة أيضا - أن تخطيط الكتاب فاشل ، وخطته قاصرة لم تؤت ثمارها ، ولذلك يقول د . طبانة عقب ذلك : (أما الدراسة فلم تف بما يحقق الغاية ، بل جاءت مقتضبة لم تتسع لها صفحات الكتاب القليلة . . .)

وكنا نقبل من د . طبانة هذا الكلام لو أن صفحات الكتاب عدد ها عشرون أو ثلاثون أو خمسون أو تسعون ، ولكن عدد صفحات الكتاب يربو على المائتين .

ويرى د . طبانة أن (ما أثاره المؤلف من موضوعات يقتضى أن يكون كل فصل من الفصول بابا ، وكل باب من الأبواب كتابا ، وحيث أن يكون هذا البحث الجديد في البلاغة العربية الثمرة المشتهاة لتلك الجهود الكثيرة التي بذلها المؤلف والعقلية الكبيرة التي يتمتع بها) .

ولا ندري ان كان د. طبانة بكلامه هذا يمدح أم يسخره فان مؤلف كتاب الأسلوب " يتمتع بعقلية كبيرة " - هذا عظيم - ، " وسذل جهودا كثيرة " - وهذا أعظم - ومع ذلك لم يكن بحثه الجدي في البلاغة هو الثمرة المشتهاة !! والعجيب أنه لن يكون كذلك ، الا اذا صار كل فصل من فصول كتابه بابا ، وكل باب كتابا !! واذا عرفنا أن الكتاب يشتمل على خمسة أبواب فمعنى ذلك أن ما فيه من معلومات وصفية يجب أن تتمطى بصلبها وتردف أعجازا وتتوهم بكلكل لتصبح في خمسة كتب ضخمة ، فان كتاب الأسلوب وهو مائتا صفحة يعتبر عند د. طبانة قليلا وضئيلا . فاذن يجب أن يكون كل كتاب من الكتب الخمسة ألف صفحة على الأقل كلها كتب وصفية على غرار " الأسلوب " . وحينئذ ، حينئذ فقط ، يؤتى البحث ثماره !!!

واذا كان هذا البحث - كما يرى د. طبانة - لم يؤت ثماره لأن تخطيط الكتاب فاشل وخطته قاصرة ، فكيف اذن يقول بعد ذلك : (ان كتاب " الأسلوب " يعد مدرسة جديدة في تناول البلاغة العربية ...) ، ان كيف يكون الكتاب قاصرا لم يؤت ثماره ثم يعد مدرسة جديدة ؟!

وأخيرا نقول : ان كتاب " الأسلوب " كتاب قيم - رغم ما تعرض له من نقد - وهو جهد مشكور من الاستاذ الشايب - رحمه الله - ويكفى أنه أول كتاب حاول وضع منهج جديد متكامل للبلاغة العربية يجمع بين خلاصة القديم والجديد . وان كان لم يحقق كل ما نصبوا اليه . لكنه فتح الباب الى بلاغة عربية جديدة .

الفصل الثانى

~~~~~

(( منهج الخولى ))

فى تجديد البلاغة

~~~~~


الشيخ أمين الخولى . . . والتجديد

تتبع حياة الشيخ أمين الخولى ونتاجه الفكرى . . . وتعمقت فيما قـال
وكتب . . . فوجدتني أمام شخصية عملاقة لا يطـك من يعرفها الا أن يعجب بها وبما
صدر عنها من آراء وأفكار . . . خصوصا وأن آراءه وأفكاره كانت متجهة كلها إلى
التجديد . . . بل انى على كثرة ما قرأت عن المنادين بالتجديد فى علوم العربية عامة
والبلاغة خاصة . . . لم أجـد فيهم من اهرز قصب السبق غيره . . . فعلى حين نـادى
الجميع بالتجديد ودعوا اليه . . . اقتصروا على تلك الدعوة . . . ولم يتجاوزوها إلى
وضع منهج أو تقرير خطة لتحقيق ما يدعون اليه من تجديد . . . اللهم الا قليلا مما
سنبينه فى مكانه من هذا البحث .

أما الشيخ أمين فقد أمسك بالمقص وتجراً - عن خبرة ودراية - فقص من القديم
ما لا يصلح واستبعد . . . وقص من الجديد ما يصلح وضمه إلى ما يصلح من القديم
فى تفصيل دقيق جميل . . . وهو لا يفعل ذلك اعتباطاً . . . وانما يقتنعك فى كل خطوة
يخطوها بأن هذه جراحة مطلوبة واجراء ضرورى تقتضيه الحياة ويفرضه التطور . . .
ويبين لك وجهة نظره ومزايا كل خطوة يضعها فى المنهج الجديد . . . فاذا بك
تسير معه خطوة خطوة وتسلم فى النهاية بأن هذا أفضل تجديد ممكن فى الوقت
الحاضر على الأقل . . . ولذلك لا أعتقد أننا نبالغ او نتسرع فى الحكم اذا قلنا : ان
الشيخ أمين الخولى هو رائد التجديد البلاغى فى العصر الحديث .

لقد " كان - الخولى - صاحب رسالة . . . وكانت رسالته دعوة حارة وصادقة
إلى التجديد والاصلاح . . . كان ينشد تجديدا شاملا فى المظهر والمخبر . . . كان
يؤمن بالاصلاح ايمانا جازما . . . ويريد به ان يستوعب مظاهر حياتنا على اختلافها ،
فينصب على العادات والتقاليد ويشمل الانظمة والقوانين والفكر واللغة . نادى

باصلاح الاسرة ، وكتب فى اصلاح الازهر ، ورسم سبلا فى اصلاح النحو وتطوير
اللغة ، وكان يهتكم الجمود الزائف والتقليد الاعى ، ويرى أن الدين متين ، وأن
الشريعة سمحة ، وقد قبلنا ويقبلان كل تجديد واصلاح لا يتعارض مع الاصول الكبرى
والجنادى المقررة . أما مجرد محاكاة الغرب ، والافتتان بهدعه ومستحدثاته فلم
يكن أقل تحاملاً على ذلك من خطته على السلبية الجامدة التى تؤدى الى الفناء .
كان يهدف الى اصلاح من صميمنا ، ويربط حاضرننا بماضيئنا ، ويبقى على معالم
الحضارة الاسلامية التى تعتمد على أصول تختلف كل الاختلاف عن الحضارة
الغربية* . (١)

و " كان لأمين الخولى مدرسة رغم أنه لا يكتب الا قليلاً . . كل من جلس بين
يديه يلقى العلم عليه ارتباط به ارتباط المسحور بالساحر مهما باعدت بينهما
الأيام ، أو باعدت بينهما مناهج العلم وغايات الحياة . من عرفه لا يمكن أن ينساه
. . وأنا عرفته وأجلسته من أعقق الاعماق لا لعلمه وقوة عقله فحسب ولكن لأن شهاب
فكره أثبت لجيلئنا أن القديم يمكن أن يتجدد بماء الحياة فيطاول أحداث الحديث (٢)

و يقول الدكتور شكرى عياد : " كنا نخرج من دروس أستاذنا أمين الخولى
ونحن نشعر أن عقولنا قد مخضت مخضاً . . لقد تبخرت كثير من المسلمات الباهتة
من أن هاننا كما يتبخر الضباب تحت شمس قوية وتبيننا فجأة أن المنظر الذى كان يبدو
لنا أنه الحقيقة ليس فى الواقع الا غلالة من نسيج واه ، وأن تحته حيوات كثيرة
لم نكن نشعر بوجودها ولكنها تتنفس وتنمو وتضرب بجذورها فى الارض . كانت تثار

(١) مع أمين الخولى : د . ابراهيم مذكور - مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٢

ص : ٢٣٩ - ٢٤١ .

(٢) طحق الاهرام - الجمعة ١١ / ٣ / ١٩٦٦ م . د . لويس عوض .

أسئلة فتوضع مشكلات فتقترح حلول ، والمقل الذي ألهب عقولنا بشوق المعرفة يسير معنا أو يسير خلفنا ، كالقائد في ساقة الجيش ، لأن الاستاذ لم يكن يؤمن بأن المعرفة تلقين ، بل كان يؤمن بأنها اكتساب . بل قل انه كان يؤمن بأن المعرفة حرية ، عمل انساني مجيد لا تكتمل الكرامة الانسانية ولا يصح المجتمع الانساني بدون السعي اليه . ولهذا كان درسه أكثر من ساعة علم ، كان تجربة عقلية . وربما تحصن في المناقشة حتى ليوشك أن يحتد . فقد كان مع أناة رأيه وصرامة منطقته يفعل بالفكرة انفعال المؤمن برسالته . وكان منا - أول الأمر - من تنفرهم هذه الحدة ، ولكننا لا نلبث أن نتبين أن استاذنا يتقبل مناقشاتنا بل يدعونا اليها ، ولا يطالبنا الا بوضوح التفكير واستقامة المنطق . ونتخرج ونعد رسائلنا الجامعية فيكون من تلاميذه من يخالفونه أشد المخالفة في رأي من الآراء ، وقد يتحمسون مثل تحمسه ويظل ما بين الاستاذ وتلاميذه - مع ذلك - وداك له ، واحتراما كله" (١) .

والواقع أن الشيخ أمين الخولي كان من فئة العلماء المجتهدين المصلحين الذين يتفحصون العلوم بدقة ويسعون في اصلاحها - اذا كانت تحتاج الى اصلاح - وقد رأى أن علوم العربية وخاصة البلاغة في حاجة ماسة الى التجديد والتطوير فلم يأل جهدا في ذلك ووضع منهاج متطورة للنحو والبلاغة والتفسير والادب في كتابه " منهاج تجديد " ثم أخذ منهاج البلاغة خاصة وركز عليه وزاد فيه وعمل منه وضمن ذلك المنهج البلاغي الجديد كتابه " فن القول " .

وقد لقي الخولي من مجابهة المحافظين هجوما واستنكارا شديدا ولكنهم لم يتوقف وظل ينادى بآرائه وأفكاره التجديدية .

يقول الاستاذ زكى المهندس نائب رئيس المجمع اللغوى بالقاهرة :

" من قديم قسم العلماء الى طائفتين اثنتين . طائفة تأخذ العلم وتعطييه كما أخذته لا تستطيع أن تخبر فيه أو تبدل منه . مثل هؤلاء العلماء يتناولون العلم ولا سيما العلم القديم الموروث فى شىء كثير من القداسة ويقبلون كل ما فيه فى اذعان تام وتسليم مطلق . مثل هؤلاء العلماء هم الذين نصفهم أحيانا بأنهم نسخ أخرى من الكتب التى بين أيدينا ، ونشبههم أحيانا أخرى بموسوعات حية متحركة ، أو بآلات تسجيل تسجل كل ما يلقى اليها لا تزيد فيه حرفا ولا تنقص منه حرفا . لو اقتصر العلم على مثل هؤلاء العلماء لنضبت الحياة الفكرية ، وتصلبت شرايين العلم ، ووقف دولا الحضارة ، ورجع العالم القهقرى آلافا من السنين .

غير أنه من حسن حظ العلم والفكر والحضارة أن هناك طائفة أخرى من العلماء أشبه ما تكون بالنحل يقع على مختلف الزهور يمتص رحيقها ثم يخرجها للناس عسلا شهيا . مثل هؤلاء العلماء يتناولون العلم قد يمه وحدىته بالبحث والنقد والتحليل فيأخذون منه الصحيح ويردون الفاسد ويصححون الخطأ . ثم يخرجونه للناس علما جديدا يرضى العقول والقلوب .

ولقد كان فقيدها طيب الله ثراه من بين هؤلاء العلماء . . بل كان منهم فى الصدارة . ان مؤلفاته الكثيرة المبسوطة بين أيدينا ، وان محاضراته فى كلية الآداب ، وان بحوثه فى مجلة الأدب ، وان مذكراته فى لجنة الاصول فى المجمع . . كل أولئك يشهد بأن أمين الخولى كان عالما مجددا مهدعا خلاقا . . كان يرى أن باب الاجتهاد فى اللغة والأدب والدين مفتوح على مصراعيه على شرط أن يكون المجتهد مؤهلا لذلك . . كان يعنى بالقديم عناية فائقة ولكنه لم يقف به عند الاطلاع الهائلة والرسوم الدارسة بل استطاع أن ينتزع منها مادة بنى بها

قصورا بل وناطحات سحاب" (١) .

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ج ٢٢ ص ٣٣٠ .

الأستاذ الخولى يتحدث عن نفسه :

صور الأستاذ الخولى الفترة الهامة من حياته والتي بدأ فيها صراعه مع التجديد فقال : " دخلت كلية الآداب أواخر عام ١٩٢٨ م ، والجو كله مفتوح ومنعم ، يهفو الى الجديد ، ويشعر بثقل الوقوف الجامد لدراسة العربية وعلومها منذ مئات من السنين ، وقد قامت المعركة الكبرى بين المتشبهين بهذه الحياة ، يحاولون بثها فى تلك الدراسات وكتبها ورجالها ، وبين المثوقين فى ذلك كله ، المناهضين لـون أسره . .

بدأت المعركة فى الجامعة ، بل فى كلية الآداب لـون غيرها ، وتطايير شررها ، وانتشرت شظاياها على المعاهد التى تدرس اللغة ، كدار العلوم ، والقضاء الشرعى .

كنت اشرع لعودتى من أوروبا قد عدت الى مكانى فى مدرسة القضاء ، أدرس فى تخصصها وقسمها الجديد - الذى أرادوا به اعادة تهاجم القضاء - صوان من الثقافة الاسلامية ، فانا هذا الشرر وتلك الشظايا ، تفزع القائمين بتدريس العربية وآدابها ، وتفزعهم عن مكانهم ، وتلزمنى أن أنقل الى تلاميذ مدرسة القضاء الجديدة ، أنباء هذا التجديد الادبى ، الذى دوت معركته فى الآفاق واشتركت فيها ور القضاء .

وكنت - كما تقضى الحياة - متصلا بأنباء هذه المعركة وأنا فى أوروبا ، حيث تفيض الدنيا جدة وتوثبا ، لكنى كنت أقف منها موقف غير المحارب ، الذى لا يكره انتصار المهاجمين فيها ، ولا يبتئس بهزيمة المعاندين المدافعين ، لـون أن تذرو ربح الهزيمة المثل القديمة ، ولا تنسف هياكل آثارها ، لأن فى هذا القديم أصلا من حياة ، لقي بها الدنيا يوم جاءها ، وقبل أن تشله عوايد الزمن ، فهو صالح

للمتابعة النماء ، من حيث عوقته عوامل الجمود . .

ونذهب بهذا الشعور ، أحدث تلاميذى فى مدرسة القضاء عن التجديد
الأدبى حديث الموء من به ، الذى يراه ناموس الوجود ، كما يرى أن فى القديسم
ما لا يزال صالحا للتقوى به ، والبناء عليه .

ثم شاءت الأقدار أن أضع مدرسة القضاء الى كلية الآداب بجامعة فؤاد ،
لأتمنى فى هذا الدرس الأدبى ، قد خلعت ميدان التجديد الاول ، على خبرة به ،
ورأى ثابت عنه ، وخطة بينة فيه ، أدت عليها على فى درس البلاغة وسواها .

وكان طلبة الحقوق - ان ذاك - يتلقون دراسة فى كلية الآداب ، يراضون
فيها على القدرة الكلامية فى عطهم بالقضاء والمحاماة ، ويمرنون على الخطابة ،
وجوه هذه الدراسة وهدفها ، يقضيان باتخاذ طريقة عطية ، ذات أثر ايجابى
قريب ، بعيدة كل البعد عن المحاولات النظرية ، فكان هذا أول ما ألقى الخروج
عن المؤلف فى درس البلاغة ، ومنعنى الاعتماد على كتبها .

ثم كانت الدراسة لطلبة قسم اللغة العربية ، فى هذا الجوال المتجدد ، الذى
أشرت اليه ، وبعد معاناة لهذا الاتجاه العطى ، فكانت ثانية ما ألقى الخروج
عن المؤلف فى درس البلاغة ، ومنعنى الاعتماد على كتبها ، وكان الخروج على هدى
من تلك الخطة التى وصفت آنفا . (١)

الشيخ امين بين القديم والجديد :

كان التجديد والتفكير في التجديد هو الشغل الشاغل للشيخ امين الخولى وكان عطه بالجامعة فى كلية الآداب قسم اللغة العربية مجالا فسيحا للدراسة والبحث والتجديد . . وكان حماسه للقديم وللتراث لا يقل عن حماسه للتجديد والتطوير مما كان يسبب الحيرة والتعجب أحيانا لمن لا يعرفه .

يقول د . شكرى عياد : " وكان أشد ما يحيرنا أول ما يد أننا نختلف السى د روس الاستاذ هو ذلك السؤال الذى كنا نرده بيننا وبين أنفسنا : من أى الفريقين هو محافظ أم مجدد ؟ ذلك أنه كان يبدو لنا أحيانا محافظا صلبا ، فى محافظته ، وأحيانا أخرى مجددا متطرفا فى تجديده . كان يحملنا " أن أول التجديد قتل القديم فهما " ، فنفهم من ذلك أنه يحتز بالتراث القديم ويتهم المجددين بالمسارعة الى نبذه على غير بصيرة .

ثم كنا نسمعه يتحدث عن مطالب الحياة المتجددة وارتباط اللغة بالحياة ، ومكان الفن القولى من الحياة ومن اللغة ، ويرتب النتائج على المقدمات حتى يصل الى آراء تحسبه لأجلها من غلاة المجددين ، بل من الثائرين ، ثم لم نزل حتى فهمنا أن التجديد والمحافظة يلتقيان فى مزاج الاستاذ وتفكيره ويتلازمان (١) .

والواقع أن محاولة التوفيق بين تراث الماضى وثقافة الحاضر من أهم القضايا التى تواجهنا فى حياتنا الفكرية والثقافية " فمن الماضى تتكون الشخصية الفريدة التى تتميز بها أمة من أمة ، ومن الحاضر تستمد عناصر البقاء والدوام فى معترك الحياة ، فالأمة العربية بما قد ورثته عن الاسلاف من عوامل ، أهمها اللغة والعقيدة

ومواضع المعرفة ، استطاعت الصمود في دوامات هذا العصر الجارفة العنيفة بمقدار ما استطاعت أن تساير حضارة العصر في وسائله وتصوراتهِ ، وانها لتقع بين ماضيها وحاضرها في مأزق حرج ، فانها هي اقتصرت من جهة على فكر الماضي وطرائق عيشه ووجهة نظره جرفها الحاضر في تياره لأن له من الوسائل المادية ما لا قبل لها بدفعه وانما هي اقتصرت من جهة أخرى على الحاضر وعظمه وفنه وسائر معالمه ضاعت ملامح شخصيتها وانطمست فرديتها ولم يعد لها وجود الا كما يكون لقطرة الماء في البحر المتجانس وجود متميز خاص . فهل من سبيل السبيل التقاء الطرفين في ركب واحد يزيل ما بينهما من تباين وتضاد ، ويوئف بينهما في نسج ثقافي متسق منسجم يكون هو ما نطلق عليه اسم : الثقافة العربية المعاصرة؟^(١)

هذا هو ما حاول الشيخ امين الخولي أن يفعله فقد نظر في كل من القديم والجديد نظرات متألمة متأنية يختار من كل منهما أفضله وأصلحه وينسق بينهما بخبرة وذكاء . . . وقد واثته الظروف المناسبة حين اشتغل بتدريس البلاغة ففى كلية الآداب فأعمل " ذهنه الاصولى وذوقه الادبى فى نصوص الادب . وذهنه الاصولى مجتهد يأنف من التقليد ، وذوقه الادبى حريستند الى ممارسة فنيصة جريئة بالنسبة لعصره ، ومن هنا ينكر الاستاذ خضوع البلاغة العربية القديمة لمناهج التحليل المنطقية والكلامية ويحمل على أن يوصل لها اصولا جديدة تجعلها فن القول الذى يقوم الى جانب الفنون الأخرى من سمعية وبصرية . وتدعوه " واقعيتها المثالية " و " تجديده المحافظ " الى نقض التراث البلاغى القديم ليميز ما يصلح منه لهذا العصر ومطالبه من الفن القولى ، فيتبين آثار " مدرسة أدبية " تقرب مسن مفهومنا لوظيفة البلاغة ، فيوجه العناية الى آثار هذه المدرسة للانتفاع بصالح ما تركت فى بناء صرح البلاغة الجديدة " . (٢)

(١) من مقدمة وجهة نظر / د . زكى نجيب محمود .

(٢) مناهج تجديد ص ٩ .

أجل لقد استطاع الخولى أن يهضم القديم ويقدمه فى صورة جديدة تتفق ومتطلبات العصر وتواكب ركب التقدم العلمى . ولا بأس أنه استعان فسى ذلك بدراسة الجديد واختيار ما يصلح منه لتجديد القديم . وفى ذلك يقول الخولى : " طفت أتعرف معالم الدراسة الفنية الحديثة بعامة ، والادبى منها بخاصة ، وأرجع الى كل ما يجدى فى ذلك من عمل الفريين وكتبهم ، وأوازن بينه وبين صنيع اسلافنا وأبناء عصرنا فى هذا كله . وكانت نظرتى الى القديم - تلك النظرة غير اليائسة - دافعة الى التأمل الناقد فيه ، والى العناية بتاريخ هذه البلاغة ، أسأله عن خطوات سيرها ، ومنعرجات طريقها ، أستعين بذلك على تبين عقد ها ، وتفهم مشكلاتها ، ومعرفة أوجه الحاجة الى الاصلاح فيها . . . وبذلك كانت الطريقة التاريخية ، مع الاستفادة بالحديث ، منهج درس للبلاغة فى الجامعة وجملت أقف الوقفة المتأنية عند الجانب من جوانب حياتها ، أتولا به بحث مفرد ينشر ، أو بدرس طويل ، وان لم يخرج عنه شىء مكتوب . فأخرجت رسائل مفردة : عن " البلاغة والفلسفة " سنة ١٩٣١ ، وعن " مصر فى تاريخ البلاغة " سنة ١٩٣٤ ، وعن " البلاغة وعلم النفس " سنة ١٩٣٩ . كما كتبت مادة (بلاغة) كتابة مستقلة فى الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية سنة ١٩٣٨ فوضعت المعالم الكبرى لما انتهيت اليه من الرأى فى التفسير .

مضيت فى هذا الدرس المتأنى أس مسائل البلاغة مساً رفيقا جريئاً مما ، أقابل فيه القديم بالجديد ، فأنقد القديم وأنفى غثه ، و أضم سعيه الى صالح الجديد وطك خطة لا تدوم فى دراسة جامعية أساسها التجدد ، وحياتها فى نماء متصل ولذا قاربت أن أفرغ من النظر فى القديم ، بعد ما ضمت خياره الى الجديد ، فألفت منهما نسقا كاملا ، يرجى أن يكون دستور البلاغة فى درسها " . (١)

اذن فان التجديد عند الخولى ينطلق من القديم ويرتكز عليه . وهذه
هى الأصالة فى التجديد . فالقديم تراث عزيز لا يجوز أبدا أن نهمله أو نستهمين
به مهما تقدمت الأيام وتغيرت الحياة . . . ولذلك دعا الخولى الى حماية التراث
ورأى أن على الدولة واجبا مقدسا وهو اصدار تشريعات لحماية هذا التراث ،
والانتفاع به ، واقترح أن تصدر الدولة هذه التشريعات .:

أولا : تشريع يوجب التبليغ عما فى حوزة الافراد والهيئات غير الحكومية من تلك
المخطوطات فى دقة تضمن عدم بقاء شىء من ذلك مجهولا للدوائر العلمية .
ثانيا : تشريع يعطى الدولة حق تصهير النادر من هذا التراث ليتمكن الدارسون
الاستفادة به وليصان من الفقدان والضياع .

ثالثا : تشريع يمكن الدولة من الاستيلاء على النادر النفيس من المخطوطات مع
تعويض أصحابها لتكون مادة للتاريخ والاستفادة العلمية معا .

رابعا : تشريع يمنع خروج هذه المخطوطات من مصر ويمنع اخراجها تهريبا ويدير
لمقاومته . (١)

ومن هذا نجد الشيخ الخولى أصيلا فى تجديده خبيرا فى ميدانه ، غير دخيل
ولا متطفل ، فهو دارس لعلوم العربية والدين متعمق فى درسيها . . . وهو أيضا
مطلع على جديد البلاغة والأدب فى الغرب . . . فكأنما توفرت له بذلك شروط الاجتهاد
فى مجال التجديد .

" وليس يستبين المجدد طريقه ، ولا يدري من أين يبدأ جهاده الا اذا
استجلى تاريخ ما يعانى تنميته ، وعرف كيف ومن أين بدأت حياته ؟ ولم وقف به
الجمود ؟ فاذا ما تبين المجدد طريق غده بتجارب أمسه ، عرف ما يدع وما يأخذ ،

(١) تشريعات ينبغى أن تصدر / مجلة الأدب عدد مارس سنة ١٩٥٦ .

وان ذاك ينفي وثبت عن بصيرة ، ويتر مظاهر الجمود في هدى وثقة ، كالطبيب
كشفت له الأشعة عن دبيب العلة" (١) .

والأستاذ الخولى بوصفه باحثا في الأدب العربى عامة والبلاغة خاصة
كتب محاضرات قيمة في تاريخ البلاغة بدأ القاءها في كلية الآداب جامعة
القاهرة سنة ١٩٣٠ ولم ينشر منها شيء حتى صدرت الطبعة الاولى من كتاب
(مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب) في سبتمبر سنة ١٩٦١
حيث جمع الدكتور شكرى محمد عياد هذه المحاضرات وأصدرها في هذا الكتاب .
وقد استغرقت محاضرات الخولى عن البلاغة في هذا الكتاب من صفحة ٨٧ الى
صفحة ٢٦٨ واشتملت على البحوث الآتية :

- ١ - من تاريخ البلاغة بين يدي تجديد ها .
 - ٢ - البلاغة وأثر الفلسفة فيها .
 - ٣ - البلاغة وهلم النفس .
 - ٤ - مصر في تاريخ البلاغة .
 - ٥ - البلاغة بصورة عامة .
- وهى بحوث قيمة ومفيدة لدارسى البلاغة عامة ، ولمن يطمحون الى تجديد ها
خاصة .

ولكن الاستاذ الخولى أصدر بنفسه سنة ١٩٤٧-١٣٦٦ هـ كتابه " فن
القول " . وهو خاص بالبلاغة وتجديد ها .

الفرض من تجديد البلاغة :

فى كتاب " مناهج تجديد " يتحدث الخولى عن التجديد فى مجال الادب
وقرر أن التجديد الأدبى يرمى الى غرضين : قريب وبعيد .

فالفرض القريب : هو تسهيل دراسة المواد الأدبية ، وتقليل ما يبذل فيها من
جهد ووقت ، مع تحقيق المطلوب من دراستها تحقيقا عمليا . بحيث يمكن
كل دارس لها أن يظفر فى وقت مناسب ، وبجهد محتمل ، بما يستطيع معه استعمال
اللغة فى حياته ، ذلك الاستعمال الذى تطلب من أجله اللغات .

وهذا الفرض يحققه : المنهج الصالح ، والكتاب المنظم ، والمعلم الكفء .

وأما الفرض البعيد : من التجديد فى علوم الأدب : فهو أن تكون هذه
الدراسات الأدبية مادة من مواد النهوض الاجتماعى ، تتصل بمشاعر
الأمة ، وتروض كرامتها الشخصية ، وتسائر حاجتها الفنية المتجددة
ولا يتحقق هذا الفرض الا بتغيير قد يمس - أو لا بد أن يمس - الأصول أو الأسس
البعيدة ، ويدخله العزم والجهد ، حتى تصير اللغة ناحية من كيان الأمة وجانبها
من وجودها المصلى .

وهذا المطلب شاق غير يسير فى جوانب مختلفة من العلوم العربية ، الا
انه أقل مشقة فى البلاغة ودرسها ، لمرونة فى فطرتها ، وقابلية فى منهجها ،
الذى يعتمد على الذوق والوجدان ، ويصل أبحاثها بالفن والجمال ، مهما تخف
ذلك اتجاهات ضالة ، وأعمال خاطئة ، ثم الى هذا كله أمر آخر يضيق الخلف ،
ويقلل المشادة بين الواقفين والسائرين ، هو أن الاقدمين أنفسهم قد صرحوا :
أن البلاغة من العلوم التى لم تنضج دراستها .

وإذا كان الأمر كذلك ، فاني أرى أن نعمل رأسا الى تحقيق الغرض
البعيد في تجديد البلاغة العربية ، تجديد ايمس الأصول والأسس فيغيرها ،
وينشئ فيها مثبت ، ومخالف مقررات كبرى - وخاصة في البلاغة المتفلسفة - وخفيف
اضافات جديدة حتى نصل البلاغة بالحياة ، ونمكنها من التأثير الصالح فيها ،
وإذا تم ذلك كان تسهيل الدرس أمرا هينا يسير التحقيق ، فلناذاك أن نؤلف
من الكتب ما نشاء ، ونعرض الموضوعات ، ونتناول المسائل كما نشاء ، بعدد ما
استطعنا التحكم في الأصول الكبرى . . .

على أنى حينما أحاول ذلك أنتفع أولا بكل ما يستطيع الانتفاع به من
(١)
القديم ، وأتجنب الاندفاع المضيق للجهد والوقت ، والمفرق للقوى في غير ضرورة .
مايستجيب له التراث القديم من التفسير والتجديد :

وبناء على الفرضين السابقين - القريب والبعيد - يرى الخولى أن التراث
القديم يمكن أن يستجيب للتفسير والتجديد في نطاق ما يأتي :

(١) من حيث وصل البلاغة بالحياة الأدبية ، وجعلها دراسة ذات جدوى
عملية ، يكفي أن نأخذ برأى القدماء حينما كان أبو هلال العسكري يقول :
ان صاحب العربية يستطيع بعلم البلاغة أن يفرق بين كلام جيد وآخر
ردى ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، كما يستطيع أن يصنع قصيدة وينشئ رسالة
وهذا تحكم حاجة الحياة الأدبية ، وينتفع بكل ما يجد في تلك الحياة
من نافع ، ونخدم الفنون القولية السرائجة .

(٢) من حيث اخضاع البلاغة للمنهج الأدبي الفني في الدراسة ، يكفي أن نحسب

(١) مناهج تجديد ص ٢٦٤ و ٢٦٥ . وانظر ايضا فن القول ص ١٨ - ٢٠ .

منهج بحث رسم المدرسة الأدبية الأولى ، وآثارها وكتبها ، وهذا
نحتكم الى كل ما فى دراسة الفنون من أساليب مجربة ومناهج مستحدثة
ونهمل بتاتا تلك الدراسة الفلسفية المستعجمة . وفيما ينهض من تغيير
وراء ذلك ننتفع بما قرروا من عدم نضج البلاغة لنقرر ما يلى :

(٣) قد وضع العلماء هذه البلاغة فى قسم المركبات من العلوم الادبية
وقصروها على دراسة الجملة وأجزائها فحسب ، لا نرى من أبحاثها شيئا
يزيد على ذلك . وقد موا مقدمة عامة للفصاحة والبلاغة ذكرنا فيها شيئا
عن فصاحة الكلمة المفردة ، والعمل الادبى فى الجملة وجزئها لا غير ،
فتلك لا تعطى الا معنى أدبيا جزئيا ، ووراء ذلك الفقرة المنشورة ، والقطعة
المنظومة ، تأتلف من جمل عدة ومعان جزئية مختلفة ، ثم وراء ذلك كله
العمل الأدبى الكامل ، قصيدة أو مقالة أو رسالة أو خطبة ، يحتاج ذلك
كله الى النظر البلاغى .

وعلى هذا نبدأ البحث البلاغى المستوفى من اللفظة المفردة ، ولا
نحده بالجملة ، بل نمده الى الفقرة والعمل الفنى الكامل ، فنبحث
فيها الأسلوب واختلافه ، وأوجه تفاوته ، ومزايا أنواعه المختلفة ، وننظر
النظرة الشاملة الجامعة فى الأثر الادبى كله .

(٤) قصر القدامى البحث البلاغى على الألفاظ من حيث أداؤها للمعانى
الجزئية بالجملة الواحدة أو الجمل المتصلة فى معنى واحد ، ولم يجاوزوا
ذلك .

فعلم المعانى : تعرف به أحوال اللفظ العربى من حيث مطابقته
لمقتضى الحال .

وعلم البيان : يعرف به ايراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة . والمعنى

هو تشبيه أو مجاز أو استعارة أو كناية لا غير . . أما المعانى الأدبية
والاغراض الفنية التى هى روح الفن القولى ومظهر عظمة الأديب وأثر
ثقافته وشخصيته فلم ينظروا فيها . ولا بد أن نفرّد المعانى بالبحث
المستقل بحدّ بحث الألفاظ مفردة وجملًا وفقرًا . .

(٥) وإذا اتسع البحث البلاغى فشمّل مع الألفاظ المعانى جزئية وكلية ، وشمّل
مع الجملة اللفظة المفردة ، ثم جاوزهما الى الفقر والقطع الأدبية والاساليب
فقد صار التقسيم القديم للبلاغة الى المعانى والبيان والبديع لا أساس
له ولا غناء فيه ، ولزم أن يوضع التقسيم على أساس غير الاول ؛ كأن تقتصر
على كلمة " البلاغة " وصفا لجمال الكلمة والكلام ، ونوفر كلمة الفصاحة ،
ونقسم الدرس الى بلاغة الألفاظ ، وبلاغة المعانى .

وفى بلاغة الالفاظ نبحث عنها من حيث ان تلك الالفاظ أصوات
ذات جرس ، ثم من حيث هى دوال على المعانى مفهومة لها ، ونبحث
ذلك فى المفرد ، والجملة ، والفقرة ، والقطعة . ونقسم المعانى بما يناسبها
حتى ننتهى الى دراسة فنون القول الأدبى المنظم والمنثور فنا ،
وما به قوام كل فن وحسنه ، متخطين الفنون القديمة من المقامة والرسالة
والخطبة الى الفنون الحديثة من المقالة والقصة على اختلاف أنواعها .

وحين نستبعد ما حشدته طريقة العجم وأهل الفلسفة فى البلاغة
من مقدمات منطقية واستطرادات فلسفية مختلفة ، نضم الى البلاغة مقدمات
جديدة لا بد منها لدراسة فنية تقوم على الاحساس بالجمال والتعبير عنه ،
دراسة تتصل بالحياة ، وتحدث عن خلجات النفوس ، وأسرار القلوب ، وتسعد
آمال الجماعة وأمانيتها ، كذا هو شأن الفن الصحيح فى الحياة الجادة .
وهذا لك :

(٦) نضم الى البلاغة مقدمة فنية ، نعرف الدارس فيها بمعنى " الفن " وطبيعته ونشأته ، وذايته ، وأقسامه ، متحررين في ذلك بيان الفن القولى بخاصة . ثم :

(٧) نضم الى تلك البلاغة مقدمة نفسية لا بد منها مادام شأن الفن الأدبى ما أسلفنا ، وما دنا نريد وصل الفن بالحياة ، فنعرف الدارس بالقوى الانسانية ذات الأثر في حياته الأدبية ، والوجدان ، والدوق ، والخيال ، ونزيد فهمه للاعتبارات التى أجملها القدماء تحت كلمة " مقتضى الحال " وذكرنا منها فى أسباب الحذف والذكر والتقديم والتأخير اعتبارات نفسية محضة . كما تلم المقدمة النفسية بدراسة أمهات العواطف الانسانية التى هى مادة المعانى الأدبية ، ومشار الفنون القولية نثرا وشعرا ، وهى نفس الجملة دنيا الأدب والفنون جميعا .

وأخيرا يقرر الخولى أن تلك هى معالم التجديد البلاغى فى اجمال ، وأنه اذا أفسح الله له فى الأجل سيكمل كتاب " فن القول " مثلاً مبتدأ للدراسة البلاغية على تلك الاصول . (١) .

الشيخ امين الخولى و . . فن القول :

فى كتاب " فن القول " وضع الشيخ امين الخولى عصارة خبرته وتجاربـه
فى مجال البلاغة ، وأوضح معالم التجديد التى توصل اليها ، واقتـرح المنهج
والخطة التى يجب أن تتبع لنصل الى بلاغة جديدة تواكب العصر وتساير النهضة .

ونحن ان نركز على هذا الكتاب ونضعه على بساط البحث فانما يرجع
ذلك لجمال مسانه من أهمية هذا الكتاب وجدية ما ورد فيه . . فهو " توجيهـه
منهجي شامل يستطيع أن يخلق فى البيئة الأدبية - لو أن فيها خصوبة - مدرسة
بلاغية ، ويستطيع أن يمنحها المعرفة ، بعد أن يمنحها عافية الفكر والضمير ،
ويجعلها قادرة على فهم الدور الخطير الذى تلعبه اللغة ، ولعبه الفن على
مسح الحركات التقدمية والنهضات الجماعية " (١) .

لقد توصل أمين الخولى الى أن " البلاغة ليست كما قال القدماء ، وليست
احترازاً عن الخطأ ، ولا تجنباً للتعقيد المعنوى ، ولا ادراكاً لوجوه التحسين ،
وانما هى : مادة من مواد النهوض الاجتماعى ، تتصل بمشاعر الأمة ، وترضى
كرامتها الشخصية ، وتساير حاجتها الفنية المتجددة " (٢) . و " ان البلاغة
أداة فعالة فى نهضة الخلق والسياسة ، وفى خلق الاحساس بالكرامة والقومية ،
وفى رفع المدارك الى مستويات الحق والخير والجمال " (٣) .

هذا بعض ما ورد فى " فن القول " عن البلاغة وهو كلام جديد جدير

(١) فن القول ص ٢٥ .

(٢) فن القول ص ٢٧ .

(٣) فن القول ص ٢٨ .

بالنظر والتأمل ، وأول مايلفت نظرنا في كتاب " فن القول " أن النصف الأول من الكتاب بل أكثر من النصف عبارة عن تمهيد للدخول الى المنهج البلاغى المقترح . وقد يتبادر الى الذهن أن تمهيدا يستغرق أكثر من نصف الكتاب ، وأكثر من مائة صفحة هو ضرب من الإطالة والتفريط . وأنا أقول : هو كذلك فى الأحوال المادية ، ولكنه فى هذا الكتاب كان ضرورة ملحة ، لأن هذا التمهيد هو مقدمات أساسية لدراسة المناهج القديمة والحديثة وعوامل التأثير فيها ، بحيث يصبح القارئ على دراية تامة بظروف تكوين كل منهج ، وكيف أن منهج أى علم إنما يأتى صدى لظروف الحياة الاجتماعية ، فهو يفرض نفسه فرضا ، وتقتضيه الحياة الاجتماعية والبيئة العلمية اقتضا . وكأن الشيخ امين يفترض فينا - نحن المتلقين عنه - أننا نحن الذين سنضع هذا المنهج الجديد للبلاغة أوعلى الأقل نشاركه فى وضعه . خاصة وأنه كان يلقي هذه المحاضرات على طلاب معهد الدراسات العليا الذين هم فى الأصل نخبة من مدرسى اللغة العربية بالمدارس الثانوية .

الخطـة اجمالـا وتفصـيلا

أما الخطـة اجمالـا فقد رأى أنها تتلخص فيما يأتي :

- أ - المادة : منهجها ، ومباحثها .
- ب - المعلم : تفقـهه فيها ، وزيادـة علمه بها .
- ج - العرض : عرضها للناشئين عرضا يكسبهم المقدرة الكاملة فيها .
- د - الكتاب : الذي يتحقق به هذا العرض المكسب لهذه المقدرة .

تلك هي الخطـة اجمالـا . . . وذلك الاجمال يحتاج الى التفصيل الآتي :

أولا : في المادة ومباحثها :

نصف تصور القدما لها ، وتنظيمهم لمسائلها ، و منهج د راستهم لها ،
وأسلوب بحثهم لقضاياها ، وغايتهم المرجوة من درسها في رأيهم .
ستمعين في ذلك بنظرة تاريخية تمكنا من القول الدقيق في هذه
النواحي الأربع :

(١) صورة المادة .

(٢) مدى أبحاثهم فيها .

(٣) منهجهم في بحثها .

(٤) غايتهم من درسها .

وبعد بيان هذه النواحي ، نعرضها للنقد واحدة واحدة ، مستضيئين
في ذلك بما عرفت الدنيا بعد عهدهم ، وما تطلبتـه حاجة الحياة
ومرافق النهوض ، لنرى هل تحقق المادة بصورتها المعروفة لهم ، وفي
دائرة بحثها التي حددوها بها ، وعلى المنهج الذي التزموه في درسها
والغاية التي رجووها منها . . . هل يتحقق بذلك كله ما يرجى اليوم
من هذه الدراسة ، وفيه بطلبة الأمة ؟ .

وعلى هدى من هذه الدراسة نستطيع أن ننتهي الى رأى في تقدير
قيمتها ، وفيما نزيد أو ننقص منها ، والصورة الأخيرة التي نرى أن تكون
عليها . (١)

والواقع أن دراسة المادة - مادة البلاغة - ومباحثها أهم المسائل الأربعة التي وردت في اجمل الخطبة ، ولعله لهذا السبب سيمود بعد الحديث عن المسائل الثلاثة الباقية الى تناولها بشرح أكبر وتفصيل أدق حيث يتحدث عن : صورة مادة البلاغة عند القدماء والمحدثين ، ثم أبحاثهم فيها ، ثم منهجهم في بحثها ، ثم غايتهم منها .

ثانيا : المعلم : تفقه في المادة ، وزيادة علمه بها :

يرى الأستاذ الخولى أن المعلم يجب أن يتمكن من مادته ، ويطلع على كل جديد فيها ، كما يجب أن يراض على العمل التطبيقي في مسائل يدرسها في وضعها الاول ويمرن على تصويرها الجديد مع ارشاده الى المصادر المضعفة . ولا يبقى في سبيل تفقه المعلم في المادة الا رغبته الصادقة في الاستزادة ، وحببه النفسى لهذا التفقه ، وقد هيئت له سبله ، وبسرت وسائله ، وجرب كسبه الشخصى فيها . وكل ما بعد ذلك فهو عطف المستقل ، وجهده الشخصى ان شاء أن يستزيد فان لم يشأ هو ذلك ، فلن تفلح قوة في حمله عليها ، ولو ألفت له كتب الدنيا ، وقد مت اليه خلاصات درس العالم كله . (١)

والواقع أن المعلم العربى مهضوم بصورة عامة من الناحيتين الأدبية والمادية مما لا يحمله على ترقية المادة والاستزادة منها ، وتنويع الدرس ، وتشويق العرض . . . وذلك أمر جوهري في تأخر التعليم وعدم تحقيق الفرض المطلوب منه . . . كما أنه سبب في انصراف المثقفين عن مجال التدريس والتعليم وهو أمر خطير يجب المبادرة لعلاجيه .

ثالثا : العرض الصالح على التلاميذ ، والاخراج المحقق للفائدة :

يرى الأستاذ الخولى أن المادة اذا ما صورت صورة صحيحة ، وامتسدت حدودها الى مدى يكمل نقصها ، ويعددها للوفاء بحاجة الحياة ، ويصحح منهج درسيها تصحيحا يلائم طبيعتها الفنية أو العقلية ، ويوجهها الى الغاية

الجديرة اليوم بأن تطلب . ثم رضى المدرس بعد ذلك على العمل الشخصى
والشراء الفنى فى المادة ، فأصبح قادرا على كسب الحقائق فيها ، مستطيعا
الزيادة على المعروف قبل الآن منها ، مضطلعا بالجرأة الواثقة على حذف
ما لا خير من بقاءه بين أبحاثها ، وهو مطمئن الى صحة ما يفعل ، اطمئنان
الطبيب المجرب حين ييضع أو يبتتر .

إذا ما كانت تلك حال المادة فى ذاتها ، ومقدار تمكن المدرس من
التصرف فيها ، فقد هان عليه وهو المجرب المختبر ، أن يأخذ من طبيعته
المادة ومنهجها الذى ارتضى لها ، الصورة الجميلة التى يعرضها على تلاميذه ،
فتكشف عن مفاات هذه المادة المدروسة ومحاسنها ، وتضرى النشىء بالعناية
الواجبة بها ، والاقبال المحب عليها . (١)

وإذا ما تم هذا الذى رجونا من حال المادة ، وحال المعلم ، وصورة
العرض ، فقد هان أمر ما بعده ما عدناه فى عناصر الخطه ، وهو :

رابعا : الكتاب الذى يتحقق به هذا العرض المفيد :

الكتب القديمة لها قيمتها من حيث هى مصادر ومراجع فى دراستها ،
ويجب أن نكون على بصيرة بمواضع الفائدة منها فىما نحاوله من زيادة أو نقص .

وأما ما ألف من الكتب المتأخرة على غرار هذه الكتب ، وكان اختصارا لها
وعرضا نظيف الطبع والورق لمافىها ، فله ما لها من قيمة ، ولنا عليه ما لنا طيها
من قوة متصرفه ، ومقدرة ناقدة .

وأما ما ألف بعد ذلك من كتب حاولت أن تستحدث وتتصرف ، وتزيد
وتتنقص ، فلنا منها موقف أخص من الموقف السابق ، نستعين فيه بالذى اطمأننا
اليه وارتضيناه من منهج بحث وخطه عرض ، فإن كان فيها من ذلك شىء أبقيناه
وانتقمنا به ، وإن كان فيه من غير ذلك شىء اسغنيانا عنه ، وألقيناه القاءنا

لما قبله مما فى الكتب السابقة ، ومثال ذلك - كما يرى الاستاذ الخولى - ما فى
أيدى تلاميذ الثانوى اليوم من كتب فى البيان ، فان فيها محاولات متجددة
كما أن فيها الى جانب ذلك آثارا من الوهن ، لحقتها بحكم ظروف الانتقال التى
ظهرت فيها .

ومن رأى الاستاذ الخولى فى الكتب المدرسية أن المدرسين الممارسين
هم وحدهم أصحاب الحق كله فى وضعها ، ومن غير المصلحة أن يضع غيرهم
شيئا من هذه الكتب ، لأن لهم بتجارهم الطويلة ، وخبرتهم المزاولة لأحوال
التلاميذ ، ما يعينهم أفضل الاعانة على التأليف لهم ، وتجنب السقطات التى
يقع فيها من يؤلف لهم من غير مدرسيهم .

بل من رأى الاستاذ الخولى - أيضا - ألا توضع كتب مقررة ، بل يترك كل
مدرس - وبخاصة فى هذه الدراسة الفنية الأدبية ، التى تتأثر باقليمها ، ويقترب
تأثرا شديدا - يترك كل مدرس ليضع بين يدى تلامذته مراجع لمذاكرة وتحصيل
ما عرضه عليهم فى صورته التى عرضه بها ، وما أهون ذلك اذا مايسرت له الجهات
الادارية سبله ، وسيكون لهذا أثر فى تحقيق ما أرادته المدرس من نتيجة فسي
تلامذته ، تسقط به معذرتة حين يقيد بالكتاب ، ويظهر ابداعه حين يعفى من
هذا التقيد .

ويبدى الاستاذ الخولى اقتناعه بما يقوله أنصار التقنين غير المنصوص ، بل
أصحاب التقنين المنصوص كذلك ، حينما يقدرون أن الاهمية كلها أو جلها للقاضى
المطبق ، لا للقانون مدونا أو غير مدون ، فيقولون : (أعطنى قاضيا ولا تعطنى
قانونا) ، وكذلك أقول : (أعطنى مدرسا ولا تعطنى بعد ذلك شيئا) ، حتى
المنهج التفصيلي لا أريده . (١)

وهذا رأى الأخير - الذى ذكره الخولى - رأى خطير ، فان الاعتماد
على المدرس فقط دون المنهج والكتاب قد يؤدى الى الاختلاط والاضطراب
فى تدريس البلاغة وما عجمها حيث لن يكون هناك ضابط ولا رابط .

ثم من أين لنا المحدد الكافي من أساتذة البلاغة المتمكنين القادرين المباشرة الذين يمكن الاعتماد عليهم اعتمادا مطلقا ويفوض اليهم الأمر في درس البلاغة ؟ علما بأن معظم أساتذة البلاغة في المدارس ليس لديهم المقدرة الكافية لتدريسها برغم وجود المنهج والكتاب .

وفي ذلك يقول الدكتور العماري : " . . . وأبعد من ذلك في الخيال وفي توهم أن تتعد دراسة البلاغة ، أن نترك الأمر للمدرس . نعم ، يرى بعض الذين قضوا أعمارهم في دراسة البلاغة أن نترك الأمر للمدرس ، ويقول : (ولعل في هذا المقام أجهر ببقية رأيي ، وهو ألا توضع كتب مقررة ، بل يترك كل مدرس ، وخاصة في هذه الدراسة الفنية الأدبية التي تتأثر باقليمها أهيئتها تأثرا شديدا ، يترك كل مدرس ليضع بين يدي تلاميذه مراجع المذاكرة وتحصيل ما عرضه عليهم في صورته التي عرضه بها ، وما أهون أن يهين لهم ذلك إذا مايسرت له الجهات الادارية سبله ، ويبذل قليل مما تنفقه ثمن هذه الكتب) . (١)

وما أشك أن هذا كلام يقوله رجل لم يختلط بأوساط المدرسين ، وقد يظن أن كثيرين منهم نوابغ يستطيعون أن يضعوا المنهج ويؤلفوا عليه المذكرات ويلقنوه بعد ذلك لتلاميذهم " (٢)

ونعود الى خطة الشيخ امين الخولي في تجديد البلاغة فنجد به بعد أن عرض خطته اجمالا وتفصيلا - كما أوضحنا في الصفحات الماضية - يعود الى القسم الاول منها . وهو المادة ، فيخصه بالنظر والبحث . ويبدو أنه عندما تحدث

(١) فن القول : ص ٢٣ .

(٢) قضايا بلاغية ص ٥٣ .

عن المادة أولا . . . انما تحدث عنها على وجه العموم . . . أما الآن فانه يتناول
مادة البلاغة بالذات ، ويبحثها بحثا دقيقا ناقدا يحيط بنواحيها الأربعة
التي نص عليها من قبل . وهى :

١ - صورة مادة البلاغة عند القدماء والمحدثين .

٢ - دائرة أبحاثهم فيها .

٣ - منهجهم فى بحثها .

٤ - غايتهم منها .

وقد قصد من ذلك أن يرسم الصورة كاملة وواضحة لمنهج فن القول ، أو منهج
البلاغة الجديد ، حتى يكون تجديده مبنيا على أسس متينة ، ومرتكزا على
دعائم ثابتة ، فهى مقدمات تؤدى بالضرورة الى النتائج المطلوبة فى تجديده
البلاغة .

أولا : (صورة البلاغة)

=====

تناول الأستاذ الخولى صورة البلاغة العربية عند القدماء ، ثم وازن بينها
وبين صورة البلاغة عند المحدثين ، ليوضح لنا الفروق بينهما ، ويعرفنا
مواطن الصواب والخطأ فى كل منهما ، كي نصل بذلك الى صورة جديدة للبلاغة
تجمع بين فضائل الماضى ومحاسن الحاضر .

١ - صورة البلاغة عند القدماء :

=====

عندما نلتصق هذه الصورة القديمة للبلاغة نعرف أنه قد تناول عليها
العمر ، وتعادى الزمن ، ولكننا سنقصد من ذلك الى آخرها استقرارها

الأمر وثبت ، وهو : متن التلخيص ، الذى هو خلاصة القسم الثالث من كتاب مفتاح العلوم للسكاكى ، ثم ما كتب على هذا المتن من شروح وحواش ، كشرحى التفتازانى المطول والمختصر ، وغير ذلك من شروح تجمعها النسخة المطبوعة المتداولة باسم " شروح التلخيص " ، ومنها كتاب الايضاح الذى كتبه الخطيب القزوينى ايضاحا وتيسيرا لمتنه التلخيص . ومن هذه الاصول نحدث عن الصورة القديمة للبلاغة عند اسلافنا . وهى صورة تتنوع الى نوعين : صورة افرادية ، وصورة تركيبية .

(١)

الصورة الافرادية

=====

لهذه الصورة خطوط عديدة ، أضحها : تعريف البلاغة . فهم يقولون : ان البلاغة تكون فى المتكلم والكلام فقط ، دون المفرد ، فاذا ما عرضوا لتعريف البلاغة فى الكلام ، لاحظوا أن للمتقدمين رسوما واهية (٢) ، وكان الرسم القوى عندهم ، هو البلاغة فى الكلام مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحتهم . وقد موا بين يدى ذلك قولهم فى الفصاحة التى تكون فى المفرد والكلام والمتكلم جميعا دون البلاغة .

ومن خطوط هذه الصورة — أيضا — حد يشهم عن الحال ، ومقتضى الحال ، وقولهم فى حصر هذه المقتضيات ، فاذا ما ضمت الى ذلك

١ — راجع الصورة الافرادية للبلاغة عند القدماء ص ٣٢ — ٣٧ فن القول .

٢ — عروس الأفراح — شروح التلخيص ١ : ١٢٣ الطبعة الثانية سنة

١٣٤٢ هـ مطبعة السعادة بالقاهرة .

قولهم في الاعتبار التي تحصر أبحاث هذه البلاغة ، ووجه هذا الانحصار
بدت لك صورتها في ذهنهم جليلة الملامح .

فالحال : هو الأمر الداعي للمتكلم الى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي
به أصل المراد خصوصية ما . . . والحال : هو المقام أيضا ، لا يتغايران
الا بالاعتبار . أي أنهما متحدان بالذات ، وكل منهما هو الأمر الداعي
الى إيراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة ، ولا يتغايران الا بحسب اعتبار الاعتبار
وتوهمه " وهذا الاعتبار الذي يتوهمه المتوهم ، هو أن يتخيل أن ذلك الأمر
الداعي الى ملاحظة الخصوصية زمان أو مكان ، أي لا بد له من زمان ومكان
يقع فيهما ، وهو مطابق للزمان الذي يقع فيه ، وللمكان الذي يقع فيه —
أي أنه بقدرهما ، لا يزيد عليهما ولا ينقص عنهما ، فباعتبار مطابقته
هذا الأمر الداعي للزمان ، يتوهم أنه زمان ، وهو ليس في الحقيقة زمانا ،
فيسمى لهذا التوهم حالا ، لأن الحال من أسماء الزمن المستقبل والماضي
وباعتبار مطابقة هذا الأمر الداعي الى اعتبار الخصوصية مطابقا للمكان الذي
يقع فيه ، أي بقدره لا يزيد عنه ولا ينقص ، يتوهم أنه مكان ، فيسمى
بهذا التوهم مقاما ، والمقام من أسماء الأمكنة كالمجلس والمضجع ،
وانما اختاروا من أسماء الزمان لفظ الحال ، لأن المتكلم بالكلام البليغ ممن
شعر وخطابة ، كان يتكلم بهذا الكلام في حال وجود الاعتبار الذي لاحظته ،
لا بعده ولا قبله ، كما كان البليغ يسوق شعره أو خطابه وهو قائم
فيمن يتحدث اليهم ، فأطلق القامات على الاعتبار التي يلاحظها .

وقد يفسرون وجه اختيار " الحال " و " المقام " بغير هذا التفسير ،
فيجعلون الحال : ما عليه الانسان من الصفات ، لا أحد الأزمنة الثلاثة ،

ويسمى الأمر الداعي الى اعتبار خصوصيته في الكلام بالحال ، لأنه مما
يتغير ويتبدل ، كالحال الذي عليه الانسان من غضب أو رضاء ، أو سمي
ذلك الأمر الداعي بالحال ، لأنه صفة ، وحال من أحوال الانسان .

وأما المقام على هذا التفسير الثاني غير الناظر الى أنه اسم مكان — كما
سبق — فهو الرتبة ، وإنما سمي الأمر الداعي الى اعتبار خصوصية فـ
الكلام مقام ، لأن مراتب الكلام تتفاوت بالأحوال ، كما أن مراتب الرجال
ودرجاتهم تتفاوت بالمقامات (١) ، والحال أو المقام كإنكار المتكلم أو ترديده ،
وله مقتضى ، هو ما يسمونه مقتضى الحال أو مقتضى المقام ، هو التأكيد
للمنكر مثلاً .

وإنما وقفنا هذه الوقفة عند كلامهم في الحال أو المقام ، ومقتضى الحال
أو المقام ، لأنه لباب نظرهم للبلاغة ، والخط الأصلي في صورتها عندهم ،
ومنه تنضح نظرهم الى هذا الفن ودرسه .

وهم يشيرون الى ضبط مقتضيات الأحوال وحصرها ، فتفهم من هذا الضبط
والحصر صورة البحث البلاغي عندهم ، ومن هنا نقرأ مثل قول القزويني فـ
تلخيصه : " فقام كل من التنكير والاطلاق والتقديم والذكر ، يبين مقام
خلافه ، ومقام الفصل يبين مقام الوصل ، ومقام الإيجاز يبين مقام خلافه ،
وكذا خطاب الذكي مع خطاب النبي ، ولكل كلمة مع صاحبها مقام " (٢) .

١ — حاشية الدسوقي — شروح ١ : ١٢٥ و ١٢٦ .

٢ — المصدر السابق ١ : ١٢٦ .

فوجد أنهم قد استخلصوا منه ضبط مقتضيات الأحوال وحصرها ، وأنهما
أقسام ثلاثة :

- ١ — ما يتعلق بأجزاء الجملة ، واليه يشير قوله : " فقام كل من التنكير
والإطلاق والتقديم والذكر يبين مقام خلافه " .
- ٢ — ما يتعلق بالجمعتين فصاعدا ، واليه يشير قوله : " ومقام الفصل يبين
مقام الوصل " .
- ٣ — ما لا يختص بشيء من ذلك بل يتعلق بهما معا ، واليه يشير قوله :
" ومقام الإيجاز يبين مقام خلافه ... الى قوله ... ولكل كلمة
مع صاحبها مقام " .

وهذا تدرك الاعتبارات التي رأوها محققة للبلاغة ، أو تدرك ما نظروا
فى بلاغته من الجملة والجمعتين ، كما سمعت من صريح قولهم فى الضبط والحصر ،
وكان هذا هو الذى جرى عليه عملهم فعلا فى الدرس والتأليف ، لا يعدونه
ولا يخالفونه ، فأيد فعلهم قولهم ، وحال ذلك كله دون الفهم الطليق
من نص القزوينى السابق .

على أنه وإن يكن فى هذه الصورة شيء من التظليل المبهم ، فاسمع
من قولهم ما يزيد ها جلاء حين يقولون : (١)

ان البلاغة فى الكلام مرجعها الى :

- ١ — الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد .
 - ٢ — تمييز الكلام الفصيح عن غيره .
- وليبيّنوا ويحققوا هذين الأمرين ، يرون أن الأمر الثانى منهما قد أعانست

عليه ومكنت منه دراسات لغوية أدبية سابقة ، أو هو ما يستعان فيه بالحس
فحسب .

ثم يبقى بعد ذلك شيء من الغرض الثاني يحتاج في تحقيقه وتحقيق الغرض
الأول الى دراسة خاصة ، وذلك قولهم :

ان الثانى ، وهو تمييز الفصح من غيره ، بعضه يبين فى علم متنب
اللغة ، أو علم التصريف أو علم النحو ، أو يدرك بالحس ، وهذا الجانب
من تمييز الفصح هو ما عدا التعقيد المعنوى ، الذى اعتبروه فى الفصاحة
حين عرفوها فى الكلام بأنها : خلوصه من ضعف التأليف وتناثر الكلمات
والتعقيد مع فصاحة الكلمات .

فيأخذون من الثانى — أى تمييز الفصح — هذا التعقيد المعنوى ،
ويضمونه الى الأول ، وهو الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ،
ويقولون : انهما هما المحتاجان الى دراسة خاصة ، لأن مرجع البلاغة
فيما عدا هذين ، بعضه مبين فى علوم معروفة ، وبعضه يدرك بالحس ،
فلم يبق الا هذان الأمران .

واذا كان الأمر كذلك . . فقد وضحت الصورة العامة للبلاغة عندهم بأنها
البحث عما يعرف به التعقيد المعنوى ، والخطأ فى تأدية المعنى المراد ،
وقد أدركت قبل الآن أنهم يعملون لتلافي هذا فى الجملة أو الجملتين فقط .

فالبحث الذى يحتز به عن التعقيد المعنوى — الذى بقى من شئون
الفصاحة — هو علم البيان .

والبحث الذى يحتز به عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، هو علم
المعانى .

وما يعرف به وجوه التحسين التابعة لهذين ، والثانية بعدهما ،
هو علم البديع .

ويسمى الجميع " علم البلاغة " . (١)

وكثير من الناس يسمى الجميع " علم البيان " .

وبعضهم يسمى الجميع " البديع " ، وبعضهم يسمى الأول علم

المعاني والثاني والثالث — أى البيان والبديع — " علم البيان " . (٢)

ومن كل هذا ترى أن الصورة الانفرادية للبلاغة عند القدماء ، يخطئها قولهم :

إنها البحث عما يحتز به عن التعقيد المعنوى ، وعن الخطأ فى تأدية

المعنى المراد ، وذلك فى الجملة والجملة . ولنزدها أبانة بعرض الصورة

الثانية ، وهى :

الصورة التركيبية (٣)

=====

ونقصد بها الصورة التى نرى بها البلاغة مصنفة مع غيرها من علوم العربية

لنستبين بذلك ارتباطها بما يسبقها من دراسات عربية لغوية ، وما يتلوها

من تلك الدراسات .

وحصر علوم العربية أو علوم الأدب وتصنيفها مما اختلف كذلك مع الزمن ،

١ — مختصر السعد — شروح ١ : ٤٩ .

٢ — مختصر السعد — شروح ١ : ١٥١ .

٣ — انظر ص ٣٧ وما بعدها — فن القول .

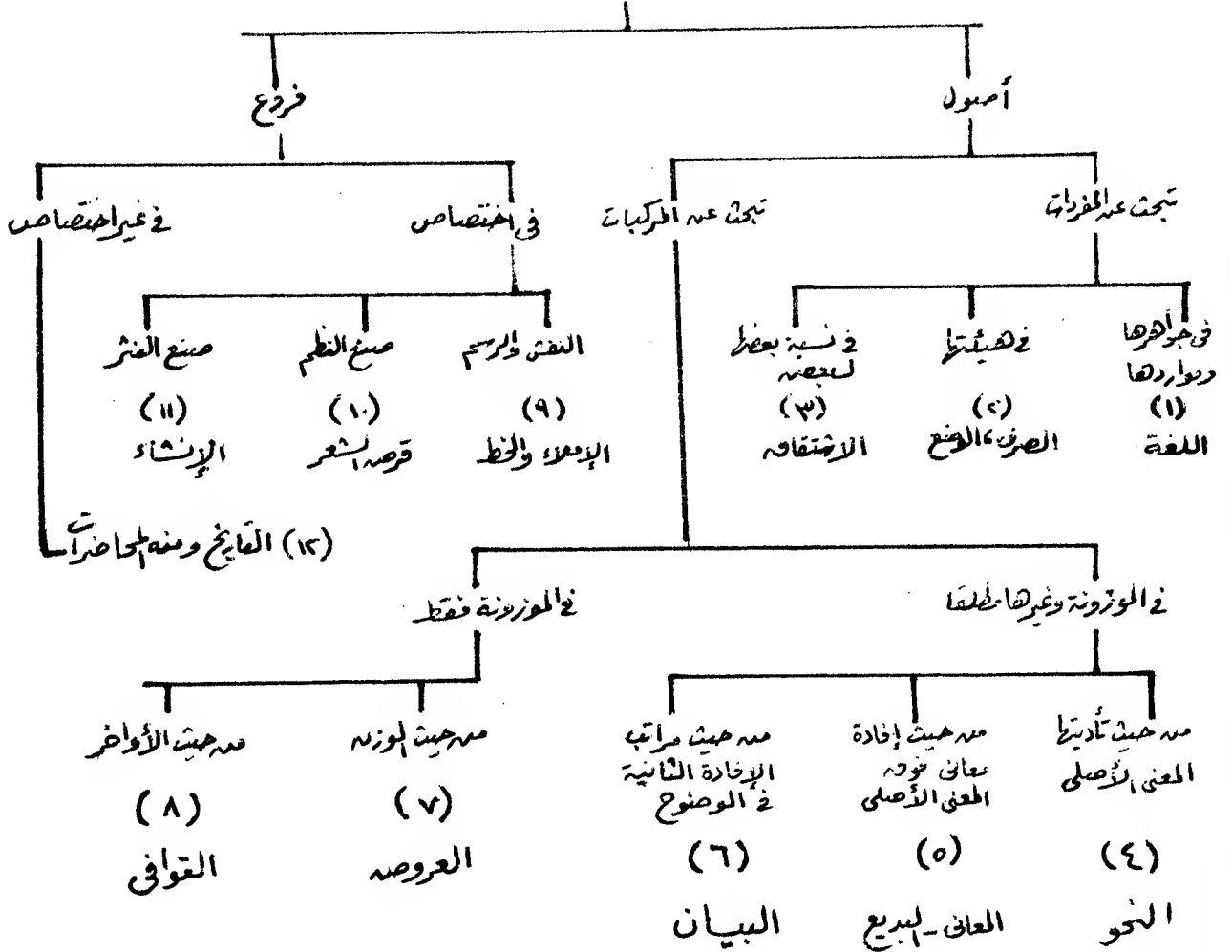
وتغير بتوالي القرون ، فنرى مثلاً : أن أبا البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري — ت ٥٧٧ هـ ، يعدها ثمانية علوم ، ويزيد عليها هوائيتين يقول انه وضعهما ، فتكون هذه العلوم عشرة • (١)

ثم اذا بالسبكي ينقل عن الزمخشري المتوفى قريباً من عصر ابن الأنباري أن هذه العلوم اثنا عشر علماً (٢) ، وهو أكثر ما اشتهر عن هذا التقسيم • ونرى من عد هذه العلوم وتقسيمها صورة في كتاب : الدر المنضيد ، من مجموعة الحفيد ، للحفيد الهروي : احمد بن يحيى بن محمد المتوفى سنة ٩٠٦ هـ (٣) • كما نجد من ذلك صورة في كتاب : كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي الهندي من أهل القرن الثاني عشر الهجري (٤) • كما نجد اجمالاً من ذلك في حاشية الخضري على ابن عقيل في النحو (٥) •

في هذه المصادر ونحوها نجد فكراً عن احصاء علوم العربية ، أو علوم الأدب وتنسيقها ، فتلحج تدرجها مع الزمن ، ونستطيع أن نصور الصورة الأخيرة التي استقر عليها رأى القدماء في جدول على النحو الآتي :

-
- ١ — نزهة الألبا في طبقات الأدبا — ص ١١٧ ط ١٢٩٤ هـ •
 - ٢ — عروس الأفراح ١ : ٥١ شروح التلخيص •
 - ٣ — الدر المنضيد : ص ٤ وما بعدها ط الخانجي ١٣٢٢ هـ •
 - ٤ — كشاف اصطلاحات الفنون / ج ١ ص ١٧ ط الآم — تانية ١٣١٧ هـ •
 - ٥ — حاشية الخضري / ج ١ ص ١٠ ط الشرقية ١٣٢٠ هـ •

علوم الأدب أو علوم العربية



والنظر في هذا الجدول نكتبين موقع البلاغة ومنزلتها بين علوم العربية ،
 وأنها من أبحاث الأصول فيها ، تتلو النحو ، وتبحث في المركبات موزونة
 وغير موزونة من حيث افادتها معانى فوق المعنى الأصلي ، ومن حيث مراتب
 هذه الافادة الثانية ، وأنها تتألف من علمين أصليين هما : الممانس
 والبيان والبديع تابع لهما .

ونستطيع اذا ما تأملنا في هذه الصورة البلاغية عند القدماء ، بمعد
 تصورها في وضعها الافرادى والتركيبى ، أن نشعر بأنها صورة وجه معروق
 بآدى العظام ، شاحب ، يسير الحظ من الحيوية والنضرة ، ويـزداد
 شعورنا بقلّة حيوية هذه الصورة وعدم جمالها ، اذا ما سمعنا حديث
 غيرهم عن هذه البلاغة ودرسها وصورة ذلك عندهم . فكيف صور الغربيون
 البلاغة ؟ ..

ب - صورة البلاغة عند المحدثين (١)

=====

الصورة الافرادية : (٢)

=====

١ - يسوق المؤلف قطعتين ادبيتين ، هما وصف لشئ واحد ، وقـد
 صيغت من كلمات واحدة ، ثم يقول . ان التفريق بين هاتين القطعتين

-
- ١ - راجع صورة البلاغة عند المحدثين ص ٤٠ وما بعدها - فن القول .
 - ٢ - هذه الفقرات وما بعدها عن الصورة الافراية مترجمة من الفاتحة
 والفصل الأول من كتاب (الأسلوب الايطالى) للبارينى .

ليس بشئ ، ولكنه كل شئ ، وليس يجب أن تكون نقادا أو أدبيا لتدرك
أن واحدة منهما أفضل من الأخرى وقد أشار الكاتب الى رجحان الثانية ،
وهزال الأولى وضعفها .

بـ - ثم عرض معنى للكتابة فيه ، هو : وصف البهجة التي تغلب على
طبيعة المصافير . وذكر لأداء هذا المعنى صورا مختلفة ، من بينها صورة
لكاتب كبير . ثم قال : " وكل أحد يرى أن خير هذه الأوضاع ، هو
الذى صاغه فلان ، على حين أن سائر الأوضاع الأخرى قد استعملت فيها
قواعد النحو وتركيب الكلام ذاتها التي استعملها فلان هذا " .
ثم خلاص من هذه الأمثلة التي أوردها ، والتي اقترحها ، الى أن معرفة
اختيار أحسن وضع للتعبير ، وأفضل الصور لايضاح غرض ، وأداء معنى ،
انما تعتمد على حسن وجمال الوضع الأجمل ، والصورة الأفضل .
والعلم الذى يعلم الكلام الأفضل ، والكتابة الأحسن ، هو : " علم
البلاغة " .

هذه صورة فردية من الصور التي تعرض بها أبحاث البلاغة دون تعريف
بالرسم أو الحد ، ويمكن عرض هذه الصورة مع ملاحظة أخص ما سبق
فى معنى حسن التعبير ، وفضل الصورة عند هؤلاء المحدثين كما يأتى :

- ١ - يعرفون اجمالا بالفنون الجميلة ، ويوردون أمثلة لأقسامها المختلفة ،
ويعدون هذا الأدب ، نشره وشعره ، من الفنون الجميلة .
- ٢ - ثم يقولون : انه ليس كل قول يعد عملا فنيا خاصا ، بل القول
الفنى انما هو قول ممتاز . وهكذا تجد الكثيرين جدا يعرفون قواعد

النحو أعجب المعرفة ، ويكتبون كتابة صحيحة ، لكنها غير فنية ،
كما نجد مثل ذلك في أي فن آخر .

ففي التصوير مثلا ، نجد أن درس التخطيط والتلوين ، يسمى
غير تصوير لوحة جميلة ، كما نجد في لوحتين مصورتين تملآن شيئا
واحدا ، أن إحدى هاتين اللوحتين إنما هي لطخة جبر على
ورق لا غير ، على حين أن الثانية عمل متفوق جميل .

٣ — ومن هنا يحتاج فن القول إلى ما يمكننا من الوصول إلى قوة الأسلوب
وإدراك جمال القول .

والدرس المختص يبحث الأسلوب ، وتعليم الكتابة الفنية ، يسمى
" البلاغة " كما يسمى كذلك " فن القول " .

وهكذا تعرض الصورة الفردية للبلاغة ، دون تورط في تحديد ولا تقسيم
ولا تسمية أجزاء علوم الخ .

الصورة التركيبية :

=====

نقل الأستاذ أمين الخولي صورتين تركيبيتين للبلاغة عند المحدثين :

الصورة التركيبية الأولى : البلاغة بين سائر المعارف اللغوية .

وفي هذه الصورة :

١ — يبينون أننا نعرف القواعد التي بها تترايط الحروف فتكون المقاطع ،

ومن المقاطع تتكون الكلمات ، وهي صناعة النطق والرسم ..

ثم نعرف القواعد التي بها تقويم الكلمات ، من حيث سهولتها وعذوبتها فـ

قوالبها الصحيحة ، وهو درس الصرف .. ثم نعرف قواعد تنظيم الكلام وكيف نركب الجمل والفقر دون غلط وهو درس النحو .. وبما درسناه من كل أولئك القواعد نعرف كيف نؤلف الكلام صحيحا .

٢ — لكن الكتابة بغير خطأ ليست الكتابة الجيدة .. ولو كانت الكتابة الجيدة تكفى فيها قواعد علوم اللغة لا استطاع كل منا كتابة الروائع الأدبية التى نقرأها لعظماء الكتاب . ولكن الأمر ليس كذلك .. فلا تكفى القواعد النحوية واللغوية لإخراج الكتابة الجيدة .. نعم ان القواعد لازمة ، لكنها ليست كافية ، اذ تستطيع أن تقول عن الكثير من أوضاع التعبير انه صحيح ، لكن واحدا من هذه الأوضاع هو الذى تقرر أنه الأفضل والأبلغ .

وهذا الصنيع ترون تدرج الدرس اللغوى فى خطوات أبحاثه المختلفة حتى ينتهى الى الصحة ، ثم يجرى البحث عن الأفضل والأحسن أو الأبلغ ، وهو درس البلاغة أو فن القول .

ونحن نرى أن هذا الكلام الذى أوردناه الأستاذ الخولى عن الصورة التركيبية الأولى عند المحدثين ، لا يفترق كثيرا عن الصورة التركيبية عند القدماء ، من حيث ان مراعاة قواعد النحو والصرف وغيرها من علوم العربية أمر لازم ، لكنه ليس كافيا للوصول الى الأبلغ من القول .

الصورة التركيبية الثانية : فن القول بين الفنون الجميلة :

=====

وهذه الصورة تتضح من خلال أقوال المحدثين عن الفن ، فهم يقولون :

- ١ — تفضل أصول الفن في ظلمات الزمن . . حينما بدأ الانسان يستخدم حاجات مادية وعند ما استطاع في بعض الأحيان أن يستعمل ذكاءه ومواهبه استعمالا ظليقا حول التفاته الى بعض المطالب السامية ، فبدأ الفن يتحول ، حتى صار شيئا نبيلًا جميلًا ضروريًا للحياة الانسانية ، وكان هدفه الخاص : اظهار الجميل .
- ٢ — والفنون الجميلة خمسة : التصوير ، والنحت ، والعمارة ، والموسيقى والأدب . وتدعى الفنون الثلاثة الأولى الفنون التجسيمية أو التشكيلية كما تدعى الفنون البصرية ، ويدعى الفنان الأخير ان الفنون المعنوية أو السمعية .
- ٣ — وتستعين الفنون جميعا في اظهار الجميل بوسائط مادية : اللون ، والرخام ، والحجر ، كما تستخدم الموسيقى الصوت ، ويستخدم الأدب الكلمة ، فاذا ما دعيت الموسيقى فن الصوت ، دعى الأدب فن الكلمة .
- ٤ — والأنواع الخمسة تولى مجتمعة ما يسمى " الفن " دون غير ذلك من الأسماء ، قطعة أدبية ، وقصر مشيد ، ولوحة فذة ، ولحن رائع ، لأشخاص مشهورين في كل نوع من هذه الأنواع ، هي الأعمال الفنية التي تعد أسمى وأنبل وأتقى مقدرة للروح الانسانية ، الشاعر والمصور والمثال عظماء حقا ، يبدعون الشعر والصورة والتمثال لرغبتهم في ابداع الجميل والمفيد ، ولأن في قرارة أرواحهم من العظمة والسمو ما لا يمكن الدلالة عليه بخير من هذا الصنيع . قال ليوناردو دافينشي : " كم من مصور خلد مثال الجمال الالهى ،

حين فنيت سريعا وتبددت الأمثلة الطبيعية لذلك الجمال ، فقلل عمل
المصور أقوم من طبيعته الموحية المعلمة .

هذا شيء من قول المحدثين عن الفن والفنون المختلفة ، وأهمية فن
الكلمة بينها ، وأما عن علاقة ما بين أقسام هذه الفنون المختلفة ، فمن
قولهم في ذلك :

١ — ان ثلاثة الفنون التجسيمية بينها قرابة قوية ، وهى تتعاون وتشترك
فى الحياة ، فالتصوير والنحت يزيان ويجمالان المماثر التى يخرجها
فن العمارة .

٢ — وكذلك الموسيقى والأدب فنان شقيقان ، ولدا فى وقت واحد ،
وكانا قديما متحدين . . . ويندكرون هنا مظاهر هذا الاتحاد فى حياة
القدماء من اليونانيين والرومان ، وحياة مختلف الأمم الغربية فى
المصور الوسطى ، وهو من وادى ما يقوله ابن خلدون : من أن
الفناء فى الصدر الأول كان من أجزاء الأدب ، وكان الكتاب والفضلاء
يأخذون أنفسهم به ، حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه .
وهكذا يدو فن القول ، أو فن الكلمة ، بين مجموعة الفنون
الجميلة صنوا للموسيقى ، وشقيقا لفن الصوت .

ويعلق الأستاذ الخولى على كل ما تقدم مهديا وجهة نظره فيقول :
" أفلا ترون هذه الصورة للبلاغة ، أنضر وجها ، وأبهى قسما ، من
تلك الصورة التى عرضها حديث الأقدمين عنها فى رسوم وتقسيمات رفضوا
بها الرسوم الأدبية وعدوها واهية ، ليقبوا مكانها قولهم فى المطابقة
والمقتضى ، وليحدثوا عن التعميد المعنوى ، والخطأ فى تأديسة

(١)

المعنى المراد ، دون طموح الى شيء وراء ذلك ؟ أحسب أن نعم .

نظرة أخرى :-

=====

نفهم من كلام الأستاذ الخولى السابق أن المحدثين من الفريسيين كانوا أقرب الى السهولة والتيسير ، وأبعد عن التعقيد والجدل ، فى تصويرهم للبلاغة وأنهم اعتبروا البلاغة من الفنون الجميلة التى تقوم على الذوق والحس والجمال .

كما نفهم أن هذا الحكم انما اعتبره الأستاذ بناء على الموازنة التى قام بها بين ما قاله المحدثون ، وبين آخر ما استقر عليه المروثيت ، وهو متن التلخيص وما تبعه من شروح كبيرة ومختصرة وهوامش .

ولو أن الأستاذ الخولى - مع احترامى لعقله وعلمه - رجع الى وراء قليلا ، الى ما قبل السكاكى ومتن التلخيص ، لوجد صورة البلاغة عند القدماء - فردية وتركيبية - لا تختلف كثيرا عنها عند المحدثين .

فأبو هلال العسكرى - مثلا - لم يقسم البلاغة الى علومها الثلاثة ، ولم يتعرض للحال ومقتضاه كما تعرض له شراح التلخيص ، ولم يقتصر فى بحثه البلاغى على الجملة والجملتين فقط ، وانما كان - كالمحدثين - أقرب الى السهولة وأبعد عن التعقيد ، وقد قال كلاما يشبه قول المحدثين الى حد كبير ، من ذلك قوله : ان صاحب العربية " اذا لم يفرق بين كلام جيد

وآخر ردي ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر وآخر بارد ، بان جهله
 وظهر نقصه " .. وأنه " .. اذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشئ رسالة
 قد فاته هذا العلم — أى البلاغة — مزج الصفو بالكدر ، واستعمل الوحش
 العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للمعاقل ... لما فاته هذا
 العلم ، وتخلف عن هذا الفن " (١)

وهذه الكلمة الأخيرة (تخلف عن هذا الفن) الا عوحى بان العسكرى
 كان يعتبر البلاغة (فنا) ؟ ويؤكد ذلك قوله عن البلاغة أنها : " كل
 ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتتمكن فى نفسه كتمكنه فى نفسك ، مع صورة
 مقبولة ومعرض حسن " (٢)

" وكان عبد القاهر الجرجاني يرى البلاغة والأدب فنا كالتصوير والنقش
 فيقول : " وانما سبيل هذه المعانى سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصور
 والنقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تهدى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة
 والنقش فى ثوبه الذى نسج الى ضرب من التخيير والتدبير فى أنفس الأصباغ
 وفى مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبها اياها الى ما لم يتهد اليه
 صاحبه ، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب ، كذلك حال
 الشعر والشاعر " (٣)

-
- ١ — الصناعتين — ص ٨ و ٩ .
 - ٢ — الصناعتين — ص ١٦ .
 - ٣ — دلائل الإعجاز ص ٢٠ .

ومن قبل المسكرى وعبد القاهر •• كان الجاحظ يقول عن الشعراء :

” صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير ” • (١)

بل ان السكاكي نفسه — الذى أقام الأستاذ الخولى الموازنة بين
القديم والحديث على أساس كتابه الذى استقر عليه الأمر وثبت — كانت
له لمحات فنية من حين لآخر ، مثل قوله عن التشبيه : ” وان الانسان
اذا مهر فيه ملك زمام التدريب فى فنون السحر البيانى ” • (٢) • فاعتبر
البيان فنا له جماله وسحره •

بل ان الأستاذ الخولى نفسه ذكر أثناء حديثه عن الموسيقى والأدب
وأنها شقيقان •• ذكر أن هذا ” من وادى ما يقوله ابن خلدون من أن الغناء
فى الصدر الأول كان من أجزاء الأدب ، وكان الكتاب والفضاء يأخذون
أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ” • (٣)

وعلى هذا فان لى نظرة أخرى فى صورة البلاغة عند القدماء ، نظرة
تخالف نظرة الأستاذ الخولى التى اعتمد فى استخراجها على المدرسة
الكلامية فى البلاغة التى شاعت واستقرت بعد القرن السادس الهجرى فجاءت
صورة البلاغة معروقة الوجه شاحبة بادية العظام يسيرة الحظ من
الحيوية والنضرة •

١ — الحيوان ج ٣ ص ٤١ •

٢ — المفتاح ص ١٥٧ •

٣ — فن القول ص ٤٥ •

أما نظرتى الى صورة البلاغة عند القدماء فانى أعتد فى استخراجها وتكوينها على المدرسة الأدبية التى عاشت وانتعشت فى عهد الازدهار وكان من أعلامها :
العسكرى وعبد القاهر وابن المعتز وكذلك الجاحظ — رغم أنه — من
أعلام المتكلمين — هؤلاء الأعلام الذين أعطوا البلاغة العذوبة والحسن
والجمال . ولذلك فان صورة البلاغة التى أراها عند هؤلاء صورة وجه يشع
بالبهاء والحسن وقوام مياس يمزج بالحيوية والنضرة . ولا أذهب بعيدا
إذا ما قلت : ان المحدثين من الغربيين اطلعوا على صورة البلاغة العربية
فى عهد المدرسة الأدبية فتأثروا بها وكتبوا على ضوءها .

ولكن .. احقاقا للحق .. أعود فأقول : لابد من التسليم بأن الأستاذ
الخولى صحيح النظرة صائب الحكم .. فان الصورة الحالية للبلاغة العربية
هى الصورة التى أنتجتها المدرسة الكلامية والتى ما زالت منذ القرن السادس
الهجرى شائعة ومستقرة فى مدارسنا ومعاهدنا وكلياتنا حتى اليوم .. وهذه
الصورة الباقية لدينا والمستعملة فى دراستنا للبلاغة هى التى يجب أن تقوم
الموازنة بينها وبين صورة البلاغة عند المحدثين كما فعل الأستاذ الخولى ..

فقط أردت أن أقول : ان المحدثين ليسوا أفضل منا وأننا لو عدنا

الى تراثنا لوجدنا صورة البلاغة المشرقة التى يعرضها المحدثون .

بل ليس من المستبعد أن يكونوا أخذوا الخطوط الأصلية لصورة بلاغتهم

من تراثنا .. بينما وقفنا نحن ازاء هذا التراث جامدين لا نعرف كيف

نستفيد منه ..

ثانياً : دائرة بحث البلاغة

=====

يرى الأستاذ الخولى أن أول التجديد قتل القديم بحثاً ، ولا شك
أن المقارنة بين القديم والجديد يزيدنا قدرة على القبول والرفض ، وعند
أن عرفنا صورة البلاغة عند كل من القدماء والمحدثين ، فانه من المفيد
أن نعرف كذلك أفق البحث البلاغى ودائرته عند كل منهما .

ولذلك فان هذا الفصل يدور حول :

- ١ - دائرة البحث البلاغى عند القدماء .
- ٢ - دائرة البحث البلاغى عند المحدثين .

دائرة البحث البلاغى عند القدماء :

=====

المصادر التى اعتمد عليها الأستاذ الخولى فى هذا البحث هى أيضاً
شروح التلخيص التى اعتمد عليها فى البحث السابق ، لأنها التى استقر
عليها الأمر وثبت - كما أوضحنا من قبل - ومن هذه المصادر نجد أن
القدماء قد ضبطوا أبحاث البلاغة بأنها : مقدمة وثلاثة فنون .

وقد عللوا هذا الانحصار بأن المذكور اما من قبيل المقاصد فى هذا الفن
أو لا ، الثانى : أى ما ليس من المقاصد فى البلاغة هو المقدمة ،
والأول : أى ما هو من المقاصد فى البلاغة ، أن كان الفرض منه الاحتراز
عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد فهو الأول - أى المعانى

وان لم يكن الغرض منه الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ، فان —
كان الغرض منه الاحتراز عن التعميد المعنوي فهو اذن الفن الثاني —
— أى البيان — والا فهو الثالث — أى الهدى — وهو عندهم —
توابع البلاغة ، وهه تعرف وجوه تحسين الكلام . (١)

ثم ما لبثوا أن سلكوا مثل هذا السبيل في ضبط مباحث كل فرع من هذه
الفروع الثلاثة ، بل في ضبط المقدمة نفسها ، فقالوا : ان هذه المقدمة
مقدمة علم ، تشمل ما يتوقف عليه الشروع فيه ، وهو هنا معنى الفصاحة
والبلاغة ، وانحصار علم البلاغة في علم البيان والمعاني ، وما يلائم ذلك ،
ولا يخفى وجه ارتباط المقاصد بذلك . (٢)

وقد عرفوا علم المعاني بأنه : علم يعرف به أحوال اللفظ العربي الستى
بها يطابق مقتضى الحال . ثم حصروا بنظرتهم العقلية المقصود من هذا
العلم في ثمانية أبواب :

١ — أحوال الاسناد الخبرى

٢ — أحوال المسند اليه

٣ — أحوال المسند

٤ — أحوال متعلقات الفعل

٥ — القصص

٦ — الانشاء

١ — شروح التلخيص ١ : ٦٦ ، ١٠٥

٢ — الشروح ١ : ٦٩ ، ٧٠

٧ - الفصل والوصل

٨ - الایجاز والاطناب والمساواة •

وسينوا وجه انضباطه عقلا بهذه الأبواب دون غيرها ، بأن الكلام اما خبر
أو انشاء لا محالة •• والخبر لا بد له من مسند اليه ومسند واسناد ،
والمسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا أو فى معناه ، وكل
من الاسناد والتعلق اما بقصر أو بغير قصر ، وكل جملة قرنت بأخرى اما
معطوفة عليها أو غير معطوفة •• والكلام البليغ اما زائد على أصل المراد
لفائدة أو غير زائد •

هذا هو الوجه العقلى لانحصار علم المعانى فى هذه الأبواب الثمانية
وان كانوا يوهنون قوة هذا الوجه ، اذ يلحظون : أن ما ذكر من القصر ،
والفصل والوصل ، والایجاز ومقابليه ، انما هو من أحوال الجملة ، مثل
التأكيد والتقديم والتأخير وغير ذلك ، ولا يردون على هذا التوهين بأكثر
من أن هذه الأبواب من القصر والفصل والایجاز •• الخ ، انما أفردت
بأبواب خاصة لكثرة تشعبها وصعوبة أمرها بكثرة مباحثها • (١) •

وفى كل فقد انحصر العلم أخيرا فى هذه الأبواب الثمانية ، سواء أكان
الملحظ فى هذا الحصر قويا ملزما ، أم كان ضعيفا اعتباريا •

وعرفوا علم البيان بأنه : علم يعرف به إيراد المعنى الواحد — المدلول عليه بكلام مطابق ل مقتضى الحال — بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه . ثم حصروا أبحاث هذا العلم في أبواب ثلاثة معينة كذلك ، هي التشبيه والمجاز والكتابة — ووصلوا إلى هذا الحصر من ملحظ عقلي ، أخذوه — من مسألة قدموها بين يدي البحث في علم البيان ، وهي مسألة الدلالات ، التي تطرقوا إليها من ورود الدلالة في تعريف العلم ، عند قولهم : " طرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه " . فوصلوا إلى هذا الحصر بقولهم : ان إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة — كما في تعريف البيان — انما يتأتى بدلالاتي التضمن والالتزام ، لا بدلالة المطابقة ، ولفظ كل — من دلالاتي التضمن والالتزام ، ان قامت القرينة على عدم ارادة ما وضع له منه ، فالمجاز ، وان لم تقم القرينة على ارادة ما وضع له منه ، فالكتابة . . . إلى هنا خرجوا ببحثي المجاز والكتابة . . . ثم لا حظوا أن من المجاز ما ينشأ على التشبيه وهو الاستعارة ، ثم لما كان في التشبيه مباحث كثيرة وفوائد جمة ، لم يجعل مقدمة لبحث الاستعارة ، بل جعل مقصدا برأسه . (١)

وبهذا كملت البلاغة ، وبقي البديع تابعا لها ، يعني بوجوه أخرى ، تورث الكلام حسنا وقبولا ، بعد رعاية مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة عليه .

وقد حصروا — كما دلتهم — باعتبار ما ، أبحاث البديع ، فجعلوا وجوه تحسين الكلام ضربين : معنوي راجع إلى تحسين المعنى أولا وبالذات ،

وان كان قد يفيد بعضها تحسين اللفظ أيضا ، كما في المشاكلة التي هي :
 ذكر شيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبتة ، فان الغرض فيها معنوى وان صحبته
 حسن اللفظ لما فيه من ايهام المجانسة • والضرب الثاني : لفظى
 راجع الى تحسين اللفظ أولا وبالذات ، وان كان قد يفيد تحسين المعنى
 أيضا ، لأنه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن استحسنت معناه تبعاً ، وان شئت
 قلت كذلك فى التحسين المعنوى أيضا : انه يتبعه تحسين اللفظ دائماً ،
 لأنه كلما أفيد باللفظ معنى حسن ، تبعه حسن اللفظ الدال عليه • (١)

هذه هي دائرة البحث عند القدماء • ولو نظرنا نظرة شاملة الى هذه
 الدائرة وتحديد ها لوجدنا ما يأتى :

١ — أن دائرة بحث هذه البلاغة مقصورة على الجملة : كما رأينا
 هذا فيما مضى من صورتها ، ومن قولهم فى ضبط موضوعات البحث وتحديد يد ،
 سواء فى ذلك علم المعانى أو البيان ، فالأول يبحث فى أجزاء الجملة ،
 أو فى جملة ترتبط بأخرى ، وأبواب البيان الثلاثة — التشبيه والمجاز والكتابة
 لا تتجاوز ذلك فى حقيقة الأمر ، وان جاوزته فالى مكملات الجملة ، أو الى
 جمل تعدى معنى واحداً وتجتمع فى جملة ، كالذى ترى فى آية تمثيل الحياة
 الدنيا — يونس ٢٣ — (٢) فانها تشبيه تمثيل شمل عشر جمل ، ولكنهما
 جميعاً تكمل معنى يجتمع فى جملة واحدة •

١ — شروح التلخيص ٤ : ٢٨٥ •

٢ — قوله تعالى : " انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط
 به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا =

بـ — أن دائرة بحث هذه البلاغة محدودة بالألفاظ : فملم
المعاني : يعرف به أحوال اللفظ العربي ٠٠٠٠٠ ، والبيان : علم
يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق تعبير مختلفة ٠٠ الخ ، والبديع :
تحسين تابع لهما ٠ وأما العنصر الثاني من عناصر الأدب وفن الكلمة ، وهو
المعاني ، — مهم ما يكن الرأى فى أمر الألفاظ والمعاني — فان البلاغيين
لا يعرضون له بالبحث الخاص ولا تسمع لهم قولا مفردا فى شأن من شئونه ٠

تلك ملاحظة عامة على تحديد هم للبحث البلاغى ، وسنرى أولئك
الباحثين الآخرين فى البلاغة لا يتكفون فى تنظيمها الضابط النظرى الذى
يرد الأبحاث الى كيت وكيت ، وإنما يردون ذلك الى حاجة العمل الأدبى
وطبيعة الفن القولى ٠ (١)

دائرة البحث البلاغى عند المحدثين —

=====

وهى دائرة تحددها عندهم طبيعة العمل الأدبى ، والأدوار التى
يمر بها ذلك العمل ، والمراحل التى يشعر قارئ القول الفنى أن مبدعه قد
قطعها ، حتى انتهى الى اخراج ذلك الأثر وتقديمه لقارئه ٠

= أخذت الأرض زخرفها وأزمنت وطن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها
أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تكن بالأمس كذلك
نفصل الآيات لقوم يتفكرون ٠

١ — انظر دائرة بحث البلاغة عند القدماء ص ٤٧ — ٥٣ فن القول ٠

الأيجاد ، والترتيب ، والتعبير تلك هي المراحل الثلاثة التي يدور الدرس المحدث في فن القول عليها ، وتتحدد بها دائرة بحثه ، وهي ما يدرك كل قارئ متأمل أن كل متفنن قد مر بها لا محالة حتى أنجز عمله الأدبي .

أجل . . كل متفنن يمر بتلك الأدوار ، سواء في ذلك المروى صاحب الحوليات ، يعطى كل جانب من هاتيك الجوانب حظه من العناية ، فيترسث حتى يوجد من الأفكار والاحساسات والأخيلة كل ما يتصل بموضوعه ويلائمه ، ثم يتأنى في ترتيب ذلك وتأليف صورته ، واضعا كل خط وإشارة منها في مكانه ، فإذا ما عبر عن ذلك كله ، محا وأثبت ، وتخير وتنوق ، فمر بتلك الأدوار متميز الخطا متمهلا . وقد يمر بها آخر على غير هذه الصفات كلها ، فهو عجل متسرع ، يكتب أول ما يتبادر له من الخواطر والمعاني ، ويخرج ما يلوح له من الصور ، في غير دقة ولا تمييز ، ويعبر بما يسبق إلى قلمه أو لسانه في غير تدقيق ولا تخير ، فيمر بتلك الأدوار معجلا مرتبكا ، متداخلا الخطا ، قاصرا النظرة ، سطحى الفن .

اذن . . تلك الأدوار الثلاثة هي خطوات العمل الفني ، سواء أتمر بها المتفنن معجلا مقصرا ، أم متأنيا متربثا ، ملهما مستوحيا ، أو متدبرا متفكرا .

ثم هم ينظرون في تفاصيل هذه الخطوات وما تقوم به ، فيدركون في ذلك جوانب دقيقة ، بعضها ما لم تعرض له ذلك العرض الفاحص للعمل الفني وهي حركات نفسية وعقلية وعملية .

فهم يرون أن " الأيجاد " وهو ظفريا أفكارا واحساسات وأخيلة ،

يقوم على أشياء ، منها : الارادة ، والملاحظة ، والقراءة ، والتأمل ،
والاخلاص .. الخ .

ولنقف عند كل واحد من تلك الأشياء وقفة قصيرة .

الارادة : —

=====

فى العمل الأدبى ، لابد قبل كل شىء من الارادة ، لأنها شرط
أول لكل عمل ، والعمل الفنى فى حقيقته نفسى داخلى ، يقوم على الوجدان
المواتى ، ويتولى الترجمة عما تجده النفس ، ومثل هذا لا يتحقق منـه
شىء اذا لم يقم على ارادة صادقة دافعة قوية .

والعمل الفنى انما ينجح ويتم بقدر ما يتم له من الارادة الدافعة ، فان
لم تكن تلك الارادة موفورة ، فليس الا الاضطراب والتخاذل والجهد الذى لا
يجدى ولا يفيد .

ومهما يكن رأى الفلسفى فى حرية الارادة وجبريتها ، فان الفن لا يكون
فنا جديرا بهذا الاسم الا اذا انبعثت عن ارادة طليقة ، تعبر عما تجده النفس
من وقع الأشياء حسنا وقبحا ، وقد رما تفقد الارادة من تلك الطلاقة يفقد الفن
من قيمته .

الملاحظة : —

=====

اذا وجدت الارادة ، وصح العزم على أن تكون متفنا ، فقد حق عليك
أن تكون يقطا كل اليقظة لوقع الأشياء على وجدانك ، لتكسب بذلك مادة الفن ،
فتكون ملاحظتك لما حولك من أشخاص وأشياء وأحداث وو . . . هى الطريق الواضحة ،

والسبيل الميسرة لاكتساب المعاني الأدبية . . وما أصدق الذين يقولون :
اننا نقوم كل حين بما هو طريق لكسب المعرفة بالأشياء ، ولا ينقصنا الا الاستفادة
المنتبهة لذلك .

نعم . . فان حواسنا لا تستريح أبدا ، بل تلقاها دائما أضواء واللوان
وروائح وطعوم وأصوات وحركات ، تملأ يقظتنا ، وتتراءى فى نومنا ، لكننا
لا ندرك فى وضوح الا قليلا منها ، ولا نذكر الا أقواها وألذها ، وأقل
من القليل منها ما يبدو واضحا فى أذهاننا ، وما نتذكره عند الحاجة اليه ،
حينما يصبح موضوع عملنا الأدبى ومادته .

وهكذا تكون الملاحظة والنظرة الدقيقة أقرب سهل اليجاد الأدبى
المستقل غير المقلد ، بل المبتكر الخلاق ، اذا أحسن الانتفاع بما نلاحظه .

القراءة :-

=====

اذا كانت الملاحظة تعرفنا ما حولنا من الكون الذى تناله حواسنا ،
فان وراء ذلك من أنحاء الدنيا ما لا تناله تلك الحواس ، واذا كنا بالملاحظة
نتعرف عصرنا فى الحياة ، فقبل ذلك عصور وعصور حوت من الحقائق ما نحتاج
الى معرفته ، وانما كانت الملاحظة تقتضيها مقدرة خاصة على التفهم والتمعن
فان لنا قبل احراز هذه المقدرة أن نستعين بما عرف الآخرون قبلنا وحولنا
وكذلك نموض علينا القراءة كل ما لا تنيله ايانا الملاحظة .

وتعد القراءة بحق من أهم طرق اليجاد الأدبى ، ومقومة فعاليتها
للطرائق الأخرى من طرق اليجاد ، تسدها وتزيدها عقا .

وجلى أن القراءة التى تحقق هذه الغاية ، إنما هى القراءة العميقة ،
المسايرة للكاتب مسايرة تستشف خواطره وحركات نفسه ، لا تلكم القراءة التى
تعبر جملة وأسطره •

التأمل :-

=====

إذا كانت الإرادة هى التهيؤ النفسى لكسب المعانى الأدبية ، ومنها
تبعث الملاحظة مظاهر الوجود حولنا ، ثم تمدنا القراءة بما عدا ذلك
زمانا ومكانا ، فذلك كله ليس إلا أيسر الإيجاد وأقربه • ووراء ذلك ما هو
أعمق وأقوم من كل أولئك ، إذ به يكتسب العمل الفنى قوته وقدرته على
الحياة ، بل صلاحيته للخطود • • ذلكم هو التأمل والتمعن ، الذى يضى
الى ما وراء الظواهر المدركة بالملاحظة ، ويذهب الى اللباب ، وينال
الصميم ، ويفسر مظاهر الوجود ، وظواهر الحوادث ، وسمات الأشخاص • •
وهكذا تكون الملاحظة ادراكا خارجيا ، والتأمل استبطانا داخليا واستشفافا
روحيا • • وما أكثر الذين يقصّون أو يصفون أو يشبهون أو يتخيلون ، فلا
يعدون المظاهر المادية ، والأشكال الخارجية ، والحجوم والألوان والقادير ،
ويعطون فى ذلك ما يحكى الحديث التمليقى عن الأشياء ، ولا يمسون شيئا
من تلك الأحياء المعنوية ، ولا يفهمون شيئا من دلالة الماديات على المعانى ،
ولا يمسون شيئا من واقع الألوان والأوضاع والأقدار ، إلا ما يعيه من يكسب
ويزن ، ويبح ويبتاع ، لا من يستوحى ويستشف ، ويجد ويشعر ، ويتذوق
ويتلقى ، ويسمى ويفهم ، ويترجم ويعبر ويفسر ، ويلقى النفوس الانسانية
الشفافة بما تحب وتريد التعبير عنه •

ويذكر المحدثون سوى ذلك أمورا أخرى معينة على الإيجاد ، ومهيئة لـه ،
حسبنا منها ما وصفناه في شيء من الأجمال يدل على روح بحثهم في هذه
الخطا .

ويذكر المحدثون في دائرة بحثهم البلاغى الخطوة الثانية بعد الإيجاد وهى :
" الترتيب " ويذكرون لها مثل تلك الأعمال ، وهاتيك الخطوات التى
ذكرنا فى الإيجاد ، فيتحدثون عن : الاختيار والنظام والوضع . . وما السى
ذلك ، وهى خطوات نتولاها بالشرح حين يستقر رأينا على خطتنا فى الدرس
البلاغى ، والمنهج الذى نختاره له ، والموضوعات التى نتصدى لها .

فإذا كانت الخطوة الثالثة — وهى : التعبير — عرضا للبحث فى :
الفصاحة أو الابانة ، ثم الصور البيانية ، ثم صنف الأساليب ، وتحت كل
واحدة من هذه النواحي الكبرى أبحاث جزئية نسوق شيئا منها .

ففى الفصاحة والابانة — : —

=====

يتحدثون عن : الوضع ، والمطابقة ، والتناسق ، والطلاوة ، ويذكرون
الآراء والمذاهب الأدبية فى ذلك . . كما يتحدثون عن أحوال الكلمة من حيث
أثرها فى الفن القولى ، وما ينبغى أن يلاحظه الأديب فى تلك الأحوال ،
فيبحثون فى العامى والدخيل والمهملى والملحون والمستحدث وما الى ذلك من
أعراض حياة الكلمات ، الى جانب حديثهم عن اللغة واللهجات .

وفى الصورة البيانية — : —

===== يلومون بكثير من المصطلحات التى

عرفها بياننا ، فى اتجاه فنى أدبى ، يلائم ما عرفنا من ميلهم فى هذا البحث ،

فيذكرون مثلاً : المجاز المرسل اللغوي ، والمجاز العقلي الاسنادي ، —
والاستعارة ، والكناية . . الخ ، ويذكرون من ذلك تفاصيل قد تلتقى مع
ما نعرفه منها في أصله ، وان اختلف التناول ولون البحث .

وفي أوضاع القول وصنوف الأساليب :

=====

يعرضون للبحث في النثر والشعر وخصائصهما ، والفنون المختلفة لكل من
النثر والشعر ، كالنثر القصصي ، والخطابي ، والايضاحي ، والشعر
الحماسي ، والفنائي ، والتعليقي ، والدرامي . . الخ .
ومن هذا وما مثله نجد تخطيطهم للعام للبلاغة في اجمال هو :
١ — مقدمة عن فن القول بين الفنون ، وتقسيم درس البلاغة على حسب
طبيعة العمل الأدبي .

٢ — بحث خطوات العمل الأدبي من ايجاد وترتيب وتعبير ، حتى تكون
الخطوة الأخيرة وهي التعبير ، فيزيدونها اهتماماً .
٣ — بحث الكلمة ، وصور البيان ، وفنون القول ، ثم الأساليب . . . فاذا
البلاغة عندهم بخاصة وعامة هي :
درس الأساليب ، أو هي : علم الأسلوب .

تلك دائرة البحث البلاغي عندهم ، نستطيع بالموازنة بينهم —
ويعين ما عند قومنا أن نتبين نواحي الفرق . . ولعل أول ما نلاحظه في هذا
البحث ودائرته . . أنه : —

* لا يقف عند الجملة ، بل يتصل بالعمل الفني الأدبي كله ، وينظر
في فنون القول وأوضاعه نثراً وشعراً ، وفي الأساليب المختلفة ، بل

يعد البلاغة علم أسلوب .

* لا يقف عند بحث الألفاظ ، بل يبحثون عن الإيجاد وطرائقه ، والترتيب
وخطواته ، كما ينظرون في الفنون الأدبية نظرة تعنى بالمعاني حيـ
تنظر إلى الألفاظ .

وهذا ندرك اختلاف حدود البحث البلاغي عند الأقدمين والمحدثين
اختلافا جوهريا ، ننظر بعده في أمونا ، وما يمكن أن نفعله على هدى
هذا البيان ، ثم على هدى ملاحظة أننا انما نعلم البلاغة لنصل إلى
غاية أدبية ... هذا ولا شك أن هذه المقارنات تزيدنا بصرا بما تحتاج
إليه بلافتنا من زيادة عليها ، أو استغناء عن شيء منها . (١)

ومعد هذه الجولة في الموازنة بيـ

- ١ - صورة البلاغة عندنا وعند المحدثين .
ب - دائرة البحث البلاغي " " "

نأتي إلى القسم الثالث من هذه الدراسة المقارنة وهـ :-

١ - فن القول : ص ٥٣ - ٦٣ بتصرف . دائرة البحث المحدث
وقد اعتمد الأستاذ الخولي في دائرة البحث المحدث على كتاب الأسلوب
الإيطالي للباريني

ثالثاً : منهج درس البلاغة

عند القدماء والمحدثين

=====

١ - منهج القدماء : (١)

=====

الواقع ان الأستاذ الخولى فى هذا القسم من البحث أفاض وأفاض فى الحديث عن البيئات البلاغية وأثرها فى المناهج التى اتبعت فى دراسة البلاغة العربية ، وقد ضال وجال وتفرع واستطرد .. وتحدث عن الدراسات الاصطلاحية ومتى بدأت ، والشعرية وأثرها ، والحالة الاجتماعية وأثرها فى اللغة والأسباب والمسببات لكل ذلك .. حتى لتكاد تضل وأنت تلاحقه .. ولكننا هنا سنحاول بعد القراءة الشاملة والفحص الدقيق أن نقدم الخلاصة الشافية اللازمة لنا فى بحثنا وندع ما عدا ذلك .

ومنهج القدماء فى البلاغة يستبين ويتضح اذا استحضرنما ذكرناه سابقاً من أن البلاغة العربية نمت فى أحضان مدرستين كان لكل منهما طابعه الخاص فى البحث والدراسة :-

الأولى : المدرسة الكلامية .

والثانية : المدرسة الأدبية .

وهاتان المدرستان أشار إليهما صاحب الصناعتين فى قوله : " وليس الغرض فى هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وإنما قصدت فيه مقصد صنّاع

الكلام من الشعراء والكتاب " (١)

وجاء السيوطى بعد ذلك فسمى الأولى بلاغة المعجم ، وسمى الثانية بلاغة العرب والبلغاء ، وذلك حين ترجم لنفسه قائلا : " ورزقت التبهرق سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة المعجم وأهل الفلسفة " (٢)

والواقع أن وجود هاتين المدرستين فى حياة البلاغة العربية كان نتيجة وجود بيئات وعناصر مختلفة دخلت ميدان البحث البلاغى — من ذلك :

١ — المتكلمون :-

===== أصحاب الصناعة اللاهوتية ، فى بحثهم للقرآن من حيث اعجازه وإيحاؤه وفهم العقائد منه وما إلى ذلك من مباحثهم .. والمتكلمون — كما نعرف — مهمتهم جدلية برهانية ، تقوم على الاستدلال ، وتبتغى الإثبات ، وتناظر مخالفين وخصوما ، وقد استعانوا عليها بالأبحاث الفلسفية ، وتسليحوا لها بالمنطق وصاغوا عليه مباحثهم .. مثل هؤلاء ان عرضوا لشيء من القول فى الفن الأدبى ، كان تعرضهم له على أساس درسه ، ومنهج تناولهم المنطقى الاستدلالى ، النظرى الجدلى ، العقلى التحديدى .

وهكذا ندرك أن هذه البيئة الكلامية ترجح جانب المنهج النظرى

العقلى الفلسفى بعيدا عن روح العمل الفنى .

١ — الصناعيتين ص ٨ ط الاستانة .

٢ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ١ ص ١٥٥ .

٢ - الأصوليون :

===== أصحاب الصناعة القانونية فى فهمهم للشرع الاسلامى من القرآن ، واستخراج أصول التشريع من عباراته . وهم يقدمون بين يدى عملهم فى أصول الفقه مقدمة واسعة الرحاب يسمونها المبادئ اللغوية ، يلمون فيها بأبحاث لغوية ، صرفية ، اشتقاقية ، نحوية ، بيانية . . ومن حيث الناحية البلاغية بخاصة ، فان هؤلاء الأصوليين قد عرضوا فى مبادئهم اللغوية ، للبحث فى الحقيقة والمجاز والتشبيه والكناية وما الى ذلك من أبحاث علمى البيان . . كما تحدثوا عن أشياء مما يتصل ببحث أجزاء الجملة فى علم المعانى ، وفى حديثهم عن المصنوع والخصوص ، عرضوا للتفكير والتعريف ، واستفراق المفرد ، واستفراق الجمع ، والحصص ، ونحوه . . كما تحدثوا عما يمت الى هذه المباحث اللفظية بصلة قوية من القول فى الترادف ، والاشتراك ، والتواطؤ . . وليس هذا فحسب بل ان تعرضهم للمسائل البلاغية .. من المعانى والبيان ، قد انتهى بهم الى تناول نواح لم يستوفها أصحاب البلاغة أنفسهم ، من نحو كلامهم فى الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وعموم المجاز ، وأن المجاز أولى من الاشتراك ، وأن للمجاز أمارات يستدل بها عليه ، الى جانب قولهم فى علاقات المجاز . . . الخ .

وتلك الأبحاث البلاغية فى المدرسة الأصولية ، هى التى جعلت السكاكى يشير الى استئثار علم أصول الفقه ، بأبحاث علمى المعانى والبيان ، ويقول : بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه ، لترى من أى علم هى ؟ وممن يتولاها ؟ . (١)

وهؤلاء الأصوليون انما غايتهم من هذا الدرس كله أن يخدموا الجانب
العملي من الاجتهاد في استخراج الأحكام ، واستعمال القياس في ذلك ،
على أساس من التنظيم المنطقي في هذا الاستنباط ، وذلك القياس ، فهم
أدنى الى الأسلوب العقلي المنطقي ، يلونون به مباحثهم ، ويستمدون
منه نظراتهم ، ويتضح ذلك جليا فيما توسعوا فيه من أبحاث العلة في
باب القياس •

كما أنهم الى جانب هذا تأثروا بالفلسفة في نواح كثيرة ، اضطربهم
البحث الى تناولها والتعرض لها ، حين تحدثوا عن الحاكم ومن هو ؟
ونظروا الى القبح والحسن للأشياء والأفعال ، فكان هذا الاتصال بالمعاني
والأغراض الفلسفية عاملا قويا في سيطرة المنهج العقلي النظري ، وتحكم
الأسلوب المنطقي في تفكيرهم ودراساتهم ، وهذا كله تأثر تناولهم للبلاغة
وأبحاثها ومسائلها ، وكانت بيئتهم بطبيعة عملها ، وما ثار في جوهها ،
عاملا مرجحا للمنهج الاستدلالي العقلي في درس البلاغة •

على أن هناك بيئة أخرى كان لها أثرها البالغ في حياة البلاغة
العربية وهي البيئة الأدبية التي حاولت أن تتخلص من تلك الناحية النظرية
في دراسة البلاغة وقد تميزت هذه البيئة بمجافاتها للأحكام النظرية
وللعقلية المنطقية الاستدلالية التي جارت على العمل الفني للبلاغة •
وأكثر هؤلاء من الكتاب الذين قيل عنهم منذ القدم : ان الكتاب دهاقين
الكلام ، وعرف عندهم من علم الأدب ما ليس عند غيرهم ، حتى قال الجاحظ :
” طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن غريبه ، فرجعت
الى الأخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فمطفت على أبي عبيدة فوجدته
لا يتقن الا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر

بما أرادت الا عند أدباء الكتاب ، كالحسن بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك
الزيات * . (١)

والذى يعنى هنا — والحديث عن منهج الدرس — أن عمل الكتاب
فى بحث البلاغة كان أبعد فى جملته عن المنزع النظرى والخطة التعليمية ،
كما أن ثقافة هؤلاء الكتاب كانت فى جملتها أيضا ثقافة أدبية المـادة ،
فنية الاتجاه ، عملية الهدف . وذلك أنهم كانوا أقل اتصالا من غيرهم ،
ان لم يكونوا أبعد تماما ، عن البيئة الحكيمية النظرية ، والوجهة المنطقية
الفلسفية ، وكان عملهم دائما : اما مشجعا على منهج مخالف للمنهج
الفلسفى المنطقى الكلامى تماما ، أو مهددا عنه بعدا مختلف النسبة ،
باختلاف الظروف والعوامل . فكانوا يعيدون المنهج الأدبى ، ويشجعونه
فى صراعه مع المنهج العلمى النظرى .

ونتيجة لوجود هاتين البيئتين انقسم البحث البلاغى فى منهجه العلمى
مذهبين أو على حد قول المحدثين الى مدرستين :

الأولى : المدرسة الكلامية : ومنهجها نظرى عقلى منطقى فلسفى .
والثانية : المدرسة الأدبية : ومنهجها علمى فنى يعتمد على
الممارسة وكثرة الاتصال بالآثار
الأدبية .

ب- منهج المحدثين: (١)

=====

حين نتحدث عن منهج درس البلاغة عند غيرنا ، فبحسبنا أن نـصـف أسلوب الدرس البلاغي الذي يؤثره الغربيون جملة ، والطريقة التي بها يتناولون هذه الأبحاث ، ويعلمون هذه المادة الأدبية . ومن المعلوم أن اللغات الغربية تتصل بحياة أهلها اتصالاً وثيقاً ، وأن لفظة الحديث العادي هي لغة الأدب المتألق المتفنن ، هي هي في أصولها وجوهرها ، لا تفتقر إلا بما يفرق بين الأساليب المختلفة من خصائص ومميزات ولا تتفاوت إلا بما تتفاوت به شخصية المتكلم وثقافته وأناقته ، والشخص هو الأسلوب ، أو الأسلوب هو الشخص .

وإذا ما كانت تلك منزلة لفتهم في الحياة ، وصلة حياتهم باللغة ، فان من الطبيعي أن تعتد طريقة تعليمهم على استعمال اللغة ومزاومتها ، وممارسة التحدث بها مباشرة ، وتناول فنونها فعلاً ، ويقصد المعلم والمعلم إلى غرض علمي مباشر ، غير نظري ولا علمي ، فلا اعتماد على الكتب والشرح ، ولا حاجة إلى القواعد والضوابط ، ولا عناية بالشرح والتقسيم والتفريع ، بل هي المعاطاة تكسب الملكة ، وتروض القوى ، وتلك كلها مقومات ما سميناه : المنهج الأدبي أو العملي في دراسة البلاغة .

فإذا ما وضعنا في الاعتبار — بالإضافة إلى ما سبق — أن لديهم حركة ناهضة متجددة في شؤون التربية وطرائقها ، والنفس الانسانية ورياضتها ،

فقد آذن ذلك كله بأن نجد المنهج الأدبي في درس بلاغتهم واضح المعالم ،
 متميز القسمات ، سليم الأساس . وكذلك نلمح من ترتيب دراستهم لهذه
 الأساليب ، أو لعناصر الأدب ، مظاهر جليلة ، منها ما يأتي :

١ - الصلة الوثقى بين البلاغة والفنون :

格 局 正 常 發 展 的 兒 童 在 3 歲 時 已 經 能 夠 認 出 自 己 的 身 體 部 分 並 能 指 出 其 他 人 的 身 體 部 分 了 。 但 是 在 3 歲 之 前 的 兒 童 對 於 身 體 部 分 的 認 知 是 有 限 的 ， 他 們 只 能 認 出 頭 部 和 手 腳 等 部 分 。 這 是 因 為 在 3 歲 之 前 的 兒 童 的 認 知 能 力 是 有 限 的 ， 他 們 只 能 認 出 最 基 本 的 身 體 部 分 。 隨 着 年 齡 的 增 長 ， 兒 童 的 認 知 能 力 會 不 斷 提 高 ， 他 們 會 逐 步 認 出 更 多 的 身 體 部 分 。

فهم يضعون فن الكلمة الى جانب غيره من فنون النعمة واللون وسواهما ،
ويقدرون القرابة النسبية في تلك الاخوة المفقودة بين الأدب والموسيقى ،
الذين ينظرون اليهما على أنهم شقيقان .

ويحتاج الحديث في هذا الى الالمام بنواح للدرس : من علم الجمال
وأصوله ، وحقيقة الفن وشعونه ، بعضها تسعف عليه ثقافتهم الأدبية ،
ومعها يعرضون له في الدرس البلاغي ، فتجد لتلك الصلة بين البلاغة
والفنون آثارا واضحة في تنسيق أبحاثها ، وفي تناول مسائلها ، وتقدير
الآراء والأحكام فيها .

هذا وقد ذكر الباعث من قبل في مثل هذه المناسبة ، ملاحظه محمد
القاھر الجرجانی من تلامذہ الشرحۃ الفنیۃ بین فن الکلمۃ وفن اللون " (١) وما ذکره
ابن خلدون من أن الفناء فی الصدر الأول کان من أجزاء الأدب ، وكان
الكتاب والفضلاء يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه (٢) .

۱۔ دلائل الاعجاز ص ۷۰ •

٢ - فن القبول ص ٤٥ .

وعلى هذا فالصلة الوثقى — التى تحدث عنها الأستاذ الخولسمى —
بين البلاغة والفنون ، وكون البلاغة شقيقة الموسيقى ، ليست من بدع المحدثين
فقد سبقهم الى ذلك قدماءنا من أهل البلاغة والأدب ، أصحاب المدرسة
الأدبية قبل أن تطفئ عليها المدرسة الكلامية على نحو ما أشرنا من قبل .

٢ — تنسيق العناصر الأدبية : —

=====

فهم ينزلون البلاغة منزلها المشيد بين جوانب تلك الدراسة ، بحيث
يؤلف منها مجموعة متحدة الأسس ، متسقة الطابع ، لا نبوة فيها ولا جفوة ،
فلا تلج فيها شيئا من التكلف أو التعمل ، يشعر في قوة أو ضعف ، أن
هذا الدرس البلاغى شيء يختلف فى كثير أو قليل عن غيره من مناحى الدراسة
الأدبية الناقدة المتدوقة المتفنتة .

فمن ذلك فى توزيعهم الدرس ، وتناول مسائله ، أنهم — مثلا —
يصدرون القول بالبحث فى طبيعة الأدب وحدوده الى جانب الحديث عن
الفن والفنون ، ويبحثون عن الناية من الأدب ، فيصلونها بالعمل البلاغى
وصلا وثيقا ، فاذا ما تناولوا الأبحاث البلاغية فانما يفعلون ذلك كله فى سبيل
تحقيق الناية الأدبية . فالوضوح والتأثير هدف الدارس الذى يسعى اليه ،
فيحدث عن طرائق الايضاح ، ونقاء التعبير ، ويلم من أجل ذلك بالسوان
من النظر اللغوى والفنى ، تنتظم صنوفا من الحديث عن صور التمييز —
التجزئية ، من حيث هى وسيلة لذلك ، لا من حيث هى قواعد ومباحث
تختبر فيها القوة المتعلمة ، وترتبط بمختلف المعارف الحكيمية . . وفى هذا
البحث يلمون بأشياء مما هو عندنا من علم البيان ، وأشياء مما هو من البديع ،
فهو جلوة تلك الأضواء الأدبية الفنية الباهرة ، يتكلمون عن البليغ الفاخر

البارع ، ومظاهر تلك البراعة ، وهذا التفوق فى الشكل والصورة ، أو فى
المعنى والتمريض ، فيصفون براعة الفكر وبراعة الإخراج فى مختلف الفنون
الأدبية .

ومن ذلك يكون البحث فى الأسلوب واللوان التأليف الأدبى المختلفة
وخصائصها ، وموازن تقديرها فنا فنا ، ولونا لونا . . . وذلك يبدأ البحث
البلاغى عن الكلمة المفردة ، وينتهى الى الأثر الأدبى كله ، فى ظلال
أدبية ، وتناول شمر ، وروح ذوق قوية ، لا يعوق شيئا من ذلك
قمام من صعوبة تحقيق لفظ ، أو تحديد اصطلاح ، أو ضبط منطقى
فلسفى لمعنى فى قوالب نظرية جدلية . (١)

وأقول : ان هذه الدراسة المقارنة — التى قدمها الأستاذ
الخولى عن منهج البلاغة عندنا وعندهم — دراسة جيدة ، وهى لاشك
مجدية حين نعانى تطوير بلاغتنا وننظر فى تجديدها .

ولكن . . . لفت نظرى بشدة وأنا أعانى هذه القراءة وأدرس هذا
القول . . . أن ليه وأساسه موجود عندنا ومشهور فى تراثنا . . . ف (تنسيق
العناصر الأدبية تنسيقاً ينزل البلاغة منزلها المشيد بين جوانب تلك الدراسة ،
ويؤلف منها مجموعة متحدة الأسس ، متسقة الطابع ، لا نبوة فيها ولا جفوة)
أمرورد فى المدرسة الأدبية ، حيث كانت البلاغة مختلطة بالنقد والأدب .

١ — فن القول ص ١٠٦ و ١٠٧ .

٢ — فن القول ص ١٠٦ .

وكانت البلاغة والنقد والأدب مجموعة متحدة الأسس ، متسقة الطابع —
لا نبوة فيها ولا جفوة •

وأما إنهم يلحون في هذا البحث (بأشياء مما هو عندنا من علم البيان ،
وأشياء مما هو من البديع — ويتكلمون عن البليغ الفاخر البارع ، ومظاهر تلك
البراعة ٠٠) (١)

فانه من الواضح أنهم يستعمرون منا بعض بحوث بلاغتنا ويأخذون بعضا
من البيان والبديع كما يقتبسون بعضا من كلام قدمائنا عن براعة
البلغاء وقد رتبهم ومظاهر تلك البراعة في تخير اللفظ المناسب للمعنى الحسن
أو (براعة الفكر وبراعة الاخراج) بتعبيرهم الحديث • ونظرة في تراثنا
نجد ذلك منشور هنا وهناك •• ففي صحيفة بشر بن المعتز تقرأ — على
سبيل المثال — " فكل عين وغرة من الكلام لفظ شريف ومعنى بديع —
والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين أفاظك ، ومن أراغ معني
كريما فليلتص له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف "
ويقول أيضا : " وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها
ومين أقدار المستحسين ، ومين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك
كلاما ، ولكل حال منه مقاما " (٢) ونقرأ للجاحظ أيضا :
" وكلام الناس في طبقات ، كما أن الناس أنفسهم في طبقات ، فمن الكلام
الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والخفيف والثقيل ، وكله عري •• " (٣)

١ — فن القول ص ١٠٧ •

٢ — راجع نثر صحيفة بشر في البيان والتبيين ح ١ ص ١٠٤ — ١٠٧ • أو

العمدة لابن رشيق ح ١ ص ٢١٢ — ٢١٤ •

٣ — البيان والتبيين ح ١ ص ١٤٤ •

ومن الملاحظ أن الجاحظ لم يختر في كتابته أسلوب التعريف والتحديد رغم أنه كان من أئمة المتكلمين ، وإنما اختار أسلوب الأديب البليغ الذي ينطلق مع عقله وذوقه وفطرته ، فكان يستعرض النصوص الأدبية ويشرحها مستهدفا الوصول إلى مواطن الجمال فيها .

وفي ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف : (ان الجاحظ قد ألم في كتابته بالصورة البليغة المختلفة وكثير من فنون البديع ، غير أنه لم يسق ذلك فسى تعريفات وتحديدات ، فقد كان مشغولا بإيراد النماذج البلاغية ، وقلما عني بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التي يقررها) (١) . وغير ذلك كثير في تراثنا لو ذهبنا نستقصيه .

أليس ذلك هو فوق ما بيننا وبينهم ؟ هم اعتمدوا الطريقة الأدبية أو المدرسة الأدبية وزادوا عليها ونقوا فيها ، ونحن تركناها إلى الطريقة الكلامية التي أدت بنا إلى طريق مسدود . فإذا جئنا اليوم واقتبسنا منهم بعض طرائقهم في بحث البلاغة ودرسها قلنا أن نقول : " هذه بضاعتنا ردت إلينا " .

ونعود إلى المظهر الثالث من منهج المحدثين :

٣ - ربط هذا الدرس بالثروة الأدبية للغة المدروسة :

=====

وهذا الربط لا ينتهى عند التزامهم ايراد الشاهد الفنى الأدبى ،
دون صنع المثل الذى يساير القاعدة ، ويجارى الضابط . . ولا ينتهى عند
اكتارهم من هذه الشواهد بل يعنى الى الوقفة الطويلة عند قطعة أدبية
تورد بجملتها ، لينظر فيها نظرة متدوقة ، يشارعنها الى مالصاحب هذه
القطعة من روائع أدبية أخرى فى مثل هذا الصنيع ، من تشبيه خاص ، أو صورة
تعبيرية موفقة . . وكذلك يمتد القول الى اشارات تاريخية تربط هذا الفن
الأدبى فى اللغة المدروسة بأصوله فى الأدب أو الآداب التى كان لها تأثير
واتصال بأدب تلك اللغة فأنت تجد مع الشاهد الأوربى الحديث أو المتوسط
نظيره أو أصله اليونانى ، أو تقليد هذا اليونانى فى اللاتينية ، وما الى
ذلك من بيان يجلو الفكرة الأدبية واضحة بتماسكها ، قوية بتكاملها ، قد
بدت الفروق الزمنية فى حياتها ، وتمثلت مسايرتها للوجود ، وارتباطها
بالحياة ، بعد ما لقت الى ذلك الفكرة العامة عن طبيعة الأدب وغاياته ،
وأعان عليه واقع اللغة فى الحياة وتحكمها فيها . (١)

ونفهم من هذا أن المحدثين يزدون عن مدرستنا الأدبية فى أنهم
يوردون الأثر الأدبى بجملته ، ويضيفون اليه مالصاحب الأثر الأدبى من
روائع أدبية أخرى ، وينظرون فى كل ذلك نظرة متدوقة . . ولا يكتفون بذلك
بل تمتد نظرهم الى اشارات تاريخية تربط هذا الفن الأدبى بنظيره أو بأصوله

ان وجدت في الآداب الأخرى التي كان لها صلة بتلك اللغة .. أي أنها دراسة مقارنة للقطعة الأدبية التي يوردونها في دراستهم البلاغية . وهي في الحق طريقة مشبعة في الدراسة الأدبية تملأ الدارس بالفهم العميق والنظرة الشاملة حبذا لو اتجهنا إليها وأدخلناها على دراستنا البلاغية ونحن بصدد تطويرها وتجديدها .

٤ - إقامة الدرس على أساس وجداني ذوقي :-

=====

فليس يبدأ القول في العمل الفني بتعريفه وتحديد ه ، ولا بوصفه وعرضه ، ولا بسوق الأمثلة له ، وحمل السامع على استخراج عناصر القاعدة أو أجزاء الفكرة - وهذا هو ما يحدث في خطة الدرس ومنهج عندنا حالياً - بل يعتمد الدرس على أصل عام في التدريب على الفنون ، وذلك الأصل هو : ايقاظ قوة الملاحظة الفنية والتنبيه الوجداني في الدارس ، تنبيهه يجعله يشهد المثل الفنية ، والصور الباهرة ، التي جادت بها فطر موهوبة ، وخلقتها نفوس حساسة صافية ، يشهدا المتكلم ، ويلتفت منها الى ما تسعفه عليه فطرته ، ويتنبه له وجدانه ، وتستشفه موهبته .. فيبدأ بالتمييز والحكم لا بالتلقين والالزام .

وقد رأيتم مثلاً لذلك فيما سبق من وصف صورة البلاغة عند الفريسيين ، وكيف يدعون الدارس يدرك وحده طبيعة الدرس البلاغي ، بأن يعرضوا عليه قطعتين أدبيتين هما وصف لشيء واحد مثلاً ، وقد صيغت من كلمات واحدة ، ليقدر ما به الفرق بينهما .. إلخ .

كما رأيتم يطلبون اليه التعبير عن معنى واحد بصور مختلفة ، منها

صورة تكون آتق عنده وأحسن في تقديره .
وهكذا يتأيد المنهج الفني في طريقة الدراسة نفسها ، بعد الذي تهيأ به
ذلك من صلة بالفنون الأخرى ، وتنسيق للأبحاث بين الدراسات الأدبية ،
وربط لها بالثروة الأدبية للغة المدروسة ، على نحو ما أشرنا إليه آنفاً ، فيألف
من ذلك منهج أدبي سليم غير مشوب .

رابعاً : غاية البلاغة .. أمس واليوم

=====

١ - غاية البلاغة عند القدماء :

=====

يرى الأستاذ الخولى أن هناك قاعدة عامة تشمل غاية البلاغة في كل أمة .
وهي أن : " غاية البلاغة في أمة ، تتصل بخاتمة تلك الأمة في حياتها ،
وتتجه نحو هدف تلك الجماعة في وجودها .. " وعلى هذا الأساس بحث
في غاية البلاغة أمس واليوم ..

ففي العصر الجاهلي كانت الحياة صراخاً مادياً عريانياً ، حماته مناويز بهم ،
أو مقاويل لسن ، تعتدهم القبيلة بعضاً تناضل به ، فتفرح بنهوض الشاعر
فيها ، وتحفل لذلك .. في هذه الحياة الجاهلية كانت الاجادة القولية
والشوق الفني ، يستغنى التماساً للفلج والغلب ، وكسباً للقوة التي هي
غاية الحياة حينئذ ، والباعث الأعظم على أعمال هذه الجماعة وأفرادها
وهذا كانت تلك القوة غاية البلاغة .

أما في العصر الاسلامي فقد كانت الدعوة الاسلامية تدور على تلمسك
المعجزة القولية ، وهي القرآن الكريم . . . كما يعتمد الكفاح بين المعسكر
الاسلامي الجديد ، وما حوله من معسكرات قديمة على ما كان يعتمد عليه
قبل ذلك من أسلحة وخطط : فللرسول شعراؤه ، ولخصومه شعراؤهم
والمدح والهجاء بين الجانبين متصل ، فكان الفن القولي قوة في الدعوة
الدينية ، كما هو قوة في النضال الدنيوي .

ومع انتصار الاسلام وانتشاره وتقدم الزمن ، صارت الغاية من البلاغة
هي معرفة اعجاز القرآن الكريم . . . وان كان هناك غرض آخر ذكره أبو هلال
المسكري (١) ، وهو معرفة الجيد من الرديء في الكلام ، والقدرة على
صنع قصيدة أو إنشاء رسالة . . . وهكذا نجد الغاية من البلاغة أمس غنسيا
قد ما كنا تراوحت بين : القوة ، ومعرفة الاعجاز ، وتمييز الجيد من الرديء من
الكلام وبالتالي القدرة على صنع كلام جيد شعرا أو نثرا . (٢)

ويهمني هنا أن أذكر غرضا آخر ، كنت أحب ألا يفعله الأستاذ الخولي
لأهميته ، فهو يتعلق بالناحية النفسية الوجدانية ، وهي ناحية أكثر حدسية
المحدثين حولها ، واهتمامهم بها ، هذا الغرض أو تلك الغاية هي :
الامتاع ، وإثارة الطرب والاحساس بالجمال في نفوس السامعين أو القارئین . .
وليس ينبغي عنا ما كان يدور في أسواق الجاهلية ، كسوق عكاظ ، ومجنة ،

١ - انظر الصناعتين ص ٢ و ٣ .

٢ - فن القول ص ١٤٦ - ١٥٠ بتصرف .

وذى المجاز ، من تنافس بين الشعراء فى اثاره الاعجاب والطرب بط قولهم
وما كان يصدره المحكمون من أحكام بالحسن والأفضلية لهذا أو ذاك .. وعلى
مر الأيام تطور هذا الامتاع ، وزادوا من وسائله ، فكانوا يختارون القطع
الشعرية الجميلة يلحنونها ويغنونها .. وما زال هذا الامتاع للقول الفنى
غرضا مصاحبا حتى عصرنا الحاضر ، مقام له المؤتمرات الشعرية والحفلات والندوات
الأدبية فى مختلف البلاد العربية ، وقد وصل بهم الأمر الى أن اختاروا أميرا
للشعراء كان شعره غاية فى الامتاع واثارة الاحساس بالجمال .

والأستاذ الخولى يرى أن غاية البلاغة اليوم تقلصت وهانت فقد أصبحت
مجرد مادة من مواد درس العربية ، التى يطالب باجتياز الامتحان فيها مسرعا
يتمنى حمل هذه الاجازة الممكنة من العمل .

ب- غاية البلاغة عند المحدثين :- (١)

=====

وبلاغة عند المحدثين لها غايتان : ١ - عطية حيوية

٢ - فنية تدقيقية .

فأما الأولى :

=====
فهى ما يحققه فن القول من مصالح فى حياتنا ، ان هو
ألزم تلك الفنون وأجداها ، وليس فينا من لا يستعمله فى صورة ما ، ليحقق
به غرضا حيويا ، يكون القول الحسن وصلته ووسيلته ، فليس فى الناس من
يستغنى عن بيان يقره من نفس من يحامله ، أو طلب يرفعه الى ذى شأن

حاكم ، ليرفع عنه ظلمه ، أو يحقق له أملا ، أو يقضى له عملا .. وتلك
وما اليها مواطن تحوج فيها الحياة الى القول المتفنن ، يقال أو يكتب ،
ويدونه تتعطل تلك المصالح أو تتعقد ، ومن هنا كانت دراسة البلاغة
جد لازمة وضرورية للناس جميعا ، سواء الموهوبون منهم ذوو الحس
الفنى والقدرة البليغة ، وغير الموهوبين ، فهم كذلك لابد لهم من هذا
الدرس ، ليصقلوا فطرتهم ، ويروضوا طبائعهم ، كي يعطوا ما يستطيعون
اعطاءه ، من كتابة مقبولة نوطا ، أو قول أنيق الى حد ما ، يستعينون
به على ما لابد منه فى حياتهم .

تلك هى الغاية العملية للبلاغة ، يتحقق بها لكل دارس نصيب
من الاجادة القولية ، ليرفعوا مستوى حياتهم ، ويحققوا من منافعهم
ما يتوقف على الابانة والأداء الحسن .. ذلك هو الجانب العملى من
غاية البلاغة فى حياة الانسان الفرد .

وان لهذه الغاية العملية فى حياة الجماعة لمجالا أفسح ، وفائدة
أبعد ، يجمها لك أن تقدر أن الجماعة ليست الا كثرة يربطها شـمـور
نفسى مشترك ، وهذا الشعور النفسى المشترك : من أمل ورجاء وثقة بالخذ ،
أو ألم وضيق وشكوى من عجز ، أو بهجة وسرور بعزة أو نصر ، وما الى ذلك
ما يهز مشاعر الجماعة ، ويمسك عليها كيانها ، ويدفعها لغدها .
وجلاء هذا الشعور المشترك ، وحسن تبادله بين نفوس أهلها ، لا سبيل اليه
أقرب ولا أوضح من قول مبین ، وبيان متفنن .. وتلك حاجة حيوية اسبق
من المتعة بالخير والجمال والحق ، وأصل من هذا التدقيق الكمالى على ما لهذه
المتعة وذاك التدقيق من اثر بعيد فى الحياة العاطمة والقوى الجادة .

ولا ننسى أن حياة الأمة في تدبير سياستها ، وفي شورى نيابتها ،
وفي تطبيق قانونها ، وتسيير قضائها ، تحتاج الى هذه الابانة القولية ،
حاجة عملية ماسة ، ومادية قريبة ، هي أيضا من الغاية العملية الأولى
لتلك البلاغة .

والظاهر أن الأستاذ الخولى خلط هنا بين البلاغة والأدب واللغة ،
فاختبر الحديث العادى اليومى بين الأشخاص وبعضهم ، وأن كتابة الطلبات
والرسائل والشكاوى ، كل هذا يدخل تحت باب البلاغة ، وغاية ———
غاياتها .

ولئن سلمنا بأن كلا من المحامى ، وممثل الشعب فى البرلمان ، وخطيب
الحزب السياسى كل واحد من هؤلاء ، فى حاجة الى البلاغة ، وهى غايية
عملية حيوية بالنسبة له . . . فاننا لا نسلم بأن حديث التخاطب العادى بين
الأفراد يستلزم البلاغة ، ويتطلب أن يكون بليفا ، بل تكفى فيه اللغة
المعبرة الصحيحة . . . وكذلك كاتب الطلبات والرسائل والشكاوى وما شاكلها ،
وان كان هؤلاء بالذات يحسن أن يلموا بشئ من الأدب ومعرفة جيد الكلام
من رديئه ، ولكن أن تكون البلاغة غاية عملية لهم فهذا كثير ومستبعد
الا ان كان هؤلاء الكتاب موظفين فى ديوان ملكى أو جهة حكومية هامة
أو فى مجال الاعلام .

وأما الثانية : —

===== وهى الغاية الفنية المعنوية ، فقد عرفت مدى
ما فى الأدب من امتاع روحى ، ورضا نفسى ، يجده الشاعر بالجمال ،

فيحس الرغبة المطلقة في التعبير عنه وإشراك الآخرين فيه ، كما يجسده أولئك الآخرون حين يأتيهم صوت المتفكر بياناً ناطقاً عما وجدوه وعيوا به ، وأحسوه فأرادوا العبارة عنه ، لكنها امتنعت عليهم ، ولم تستطعهم طبيعتهم ذات الحظ المحدود من الهبة الفنية . وهذه المتعة الروحية ذات جانبين :

أحدهما = التعبير عن الاحساس بالجمال ، حين تسعف الفطرة المواتية الشخص الموهوب شاعراً أو ناثراً .

ثانيهما = التدقيق الناقد لفن هذا المعبر ، والشعور الصحيح الدقيق بقيمته الفنية ، تدقيقاً وشعوراً يعين على كشف كنوز متجددة من الجمال ، في تلك الآثار الناثرة أو الشاعرة ، فيكون درس البلاغة وصلة للتمتع العالي بلذة معنوية روحية .

فغاية البلاغة عند غيرنا : إما عملية حيوية ، وإما فنية متممة بالتعبير عن الجميل أو بالنقد المتدقيق لروائع الأداء الفني للشعور بالحسن . وهي في جملتها ترجع إلى ما كان يقول القدماء : " صناعة الجيد " أو ادراك الجيد " . إلا أن هذا الادراك للجيد ليس هو النقد صناعة واحترافاً ، أو رياضة وتعليل ، بل هو استمتاع روحى ، وتلذذ وجدانى يسعد النفس ، ويرفع مستوى الحياة .

بلاغة اليوم ..

أو .. فن القول .

=====

من أجل تقييم الرأي في البلاغة واصلاحها ، على أساس من الواقع
المجرب ، المنتفع بخبرة من حولنا من الأمم ، المستفيد من التقدم الانسانى ،
والرقى الاجتماعى .. من أجل ذلك قدمنا ما سلف من مقارنات لصورة
البلاغة ، ودائرة بحثها ، ومنهج درسها ، وغاية هذا الدرس ،
عند الأقدمين — على ما اشتهر عندهم وغلب فى تناولهم من صنيع مدرسىة
المتكلمين فيهم — ، وعند المحدثين من أم الغرب فى جملة أمرهم ولبسباب
رأيهم .

وهذه المقارنات رجوت أن تكشف المقابلة عن أوجه من الفروق الجليلة ،
تفتح الناظر بالحاجة الحققة الى التغيير والتعديل .. ولعل ما يزيد الاقدام فى
هذا الميدان ما أشرنا اليه — غير مرة — من اقرار القدماء أنفسهم ، أن —
البيان من علومهم التى لم تنضج ولم تحترق (١) ، فهو بشهادتهم محتاج
الى الانضاج ، حاجة قد قرروها وان لم يحاولوا تحقيقها ، وسلموا بها وان
لم يلتمسوا اتمامها . وتلك منهم — فيما أرى — وصاة للخالفين ، يوضى
أولئك السلف أن تتحقق .

وإذا ما كانت مقارناتنا السابقة ، قد كشفت عن نواحي هذا التغيير ،
وقد مت عناصر ذلك التجديد ، فانا نعرض هنا لنتائج المقارنات فى نواحيها

المختلفة ، فنقتاولها واحدة واحدة ، نعرض مجمل ما انتهت اليه في مكانها ،
لننظر فيما يحقق الوجه الأفضل ، والمثل الأكمل في تلك الناحية ، بتنحية
المعوق ، وتكملة الناقص ، وتنمية المتوقف ، وزيادة المستحدث ، فاذا
ما أتممنا ذلك في تلك النواحي الأربع ، التي أدركنا عليها المقارنة ، كملت
لنا الفكرة عن " بلاغة اليوم " .

ونهدأ بعرض نواحي المقارنة واحدة واحدة ، لنرى نتائج

تلك المقارنة :

- ا - في الصورة وجمالها .
- ب - في الدائرة وسعتها .
- ج - في المنهج وتصحيحه .
- د - في الغاية وحيويتها .

=====

أولا : فى صورة البلاغة ..

=====

==

لنتهت بنا المقارنة بين صورة البلاغة عند القدماء ، وصورتها عند
المحدثين ، الى النتائج الآتية : (١)

فى الحديث

=====

بدت صورتها على أنها : الدرس الذى
يعلم الأحسن والأجمل من الكلام .

هى فى ترتيب المعاني والثقافات :
فن من الفنون الجميلة ، أساسه القول
المتنازع ، وأداته الكلمة .. وفى
تدرج الدرس اللغوى تكون مرحلة من
الحسن تجىء بعد الصحة .

درس فنى ، شقيق الموسيقى ،
وصنو سائر أفراد الأسرة الفنية ،
من سمعية ومصرية ، فبدت صورتها

فى القديم

=====

بدت صورتها على أنها : بحث
يحتز به عن التعميد المعنوى ،
وعن الخطأ فى تأدية المعنى المراد
تقع فى تهسيق العلوم الأدبية
بعد النجوم ، وتعنى بالمعانى
الثانية بعد المعنى الأول الأصلى ،
ومراتب الافادة لتلك المعانى
الثانية ..

ضيقة الحدود ، قائمة على
المعقول من منطق وفلسفة .. فكانت
صورة ذلك كله معروقة الوجه ،

بإدوية العظام شاحبة يسيرة الخط
من الحيوية والنضرة •

لذلك كله أنضرونها ، وأبهى
قسمات ، إذ هي تعبير عن الاحساس
بالجمال ، تتصل من ذلك بأرقى
وأنبى وأصفى ما تستطيعه الروح
الإنسانية •

يرى الأستاذ الخولى أنه بالنظر فى المقارنة السابقة ، يبدو تقابلاً
الصورتين وتواءمان لنا واضحتى التخالف والتضاد ، يزيد ما بينهما من
فرق بذهاب الثانية صعوداً فى مدارج الفن والجمال ، ومضى الأولى نزولاً
فى جفاف النظريات ، وجفوة الفلسفيات ، ونسيان الفنيات • فـمـاذا
ينبغي أن نعمل لا كساب بلا غتنا تلك الصورة المحجبة •

أول العمل فى هذا السبيل — كما يقول القدماء — : تخلية ، وثانيه
تحلية •

فالتخلية : تخليص هذه البلاغة من مظاهر الجود ، وظواهر الجفاف ،
أسباب الذبول •• فإذا ما تم لنا ذلك ، صلت بعده للتخلية ،
بأسباب الحسن ، ووسائل التأثير •

وعلى هذين النوعين نقسم عملنا فى تجميل صورة البلاغة ، بادئين بـ :

التخلية :-

=====

يرى الأستاذ الخولى أنه يجب أن تقرب بين الفن والبلاغة • ومن أجل

ذلك لا بد أن نكشف ما يسود جو شعورنا ، ويكون حياتنا ، من جفوة ونفور
من الفن والفنون ، إذ اقتضت هذه الجفوة أسباب متعددة ، منهم —
ما هو سياسى ، وما هو اقتصادى ، وما هو دينى عام ، كظرة التدين
الى منزلة الحياة الدنيا من الحياة الآخرة ، وما هو دينى خاص ، كظرة
التصوف الزاهدة الى مباح الكون ومحاسن العالم ، وأضفى ذلك كله على
الحياة الاسلامية ظلالا من السامة والملل ، وألوانا داكنة ، فانصرف
قومنا فى العصور الوسطى من تاريخهم ، حتى قريب من عصرنا هذا ، عن
الدنيا ، وحرموا زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق .

وبحسبنا فيما نبتغى من تنقية الجو ، وتصفية الشعور ، أن نقرر أن المتعة
الفنية ، التى أشرنا اليها فى غاية البلاغة ، مما لا بأس به ، ولا شرف فيه ،
بل هى مما تستقيم به الحياة وتقوى ، وترتقى وتكرم ، وان كان لا بد لنا
من أن نحتج لشيء من هذا أو نؤيده ، فلقد يكفى فى ذلك ، أن هذا
الفن القولى هو جمال اللسان ، الذى يقال عنه : ان الرسول عليه
السلام سئل : فيم الجمال ؟ فقال : فى اللسان (١) . وما بنا أن نخرج
هذا أو نتعقبه ، فان الاسلام هو صاحب المعجزة القولية ، التى نشرت
دعوته ، وأيدت دولته ، وفى سبيل اعجازها التمسوا ذلك الدرس البلاغى .

ومن التخليّة أيضا : أن نزيل من الأذهان ما فى استعصامهم
للعلم والفن من تداخل وعدم تميز ، لنقرب ذلك معنى الفن وحقيقته فى مكانه
الصحيح من صنوف المعارف الانسانية ، ونشعر بالجانب الوجدانى والمعنى

الجميل فيه ، فنشعر من اطلاقه على ذلك الدرس البلاغى بروح واسترواح ،
 ينقلنا الى عالمه ، ويحيينا فى دنياه ، ويحول بينه وبين أعاصير النظم
 العقلى ، فلا تخفق زهراته ، ولا تصوح ورقاته ، ويفخرنا بالتذوق الأدبى
 الذى يرفع ويضع ، ويأخذ ويدع ، من صور التعبير ، وأساليب القول .

والذى نشير اليه من عدم التمييز فى استعمال العلم والفن ، هو ما نجسد
 فى صنيع الأقدمين ، ان يسوون — أو يكادون — فى اطلاق الفن والعلم
 فيتحدثون عن مبادئ العلم أو مبادئ الفن ، ويسوون عددا من دراستهم
 علما ، كما يسوونها حينئذ فنا ، ما يجدون فى ذلك كبير فرق .

أما فى العصر الحديث فلقد وضع الفرق بين العلم والفن ، ونسبت
 الممارف تنسيقا يفرق بين ذلك . فيخص " الفن " بما هو تطبيق لحقائق
 نظرية ، وقضايا علمية ، مما يمكن من عمل يدوى . فإذا ما وصف الفنون
 بالجميل فقد أريد به ذلك النشاط الوجدانى الذى يختص بالتعبير عن
 الشعور بالحسن ، سواء كان من الفنون السمعية كالموسيقا والأدب ، أو
 البصرية كالعمارة والنحت . .

وأحسب أنه بإزالة هذا التداخل فى الاستعمال ، نهى الأرواح لتتشغل
 تلك البلاغة ، وجدانية الوجود ، حسناء الممارف ، وضاعة القسرات .

التحلية :-

===== فى هذه التحلية يجب أولا أن نظل مخلصين
 لقد يمنا ما استطعنا ، حسنى الظن به ، ما وجدنا الى ذلك سبيلا ، فنلتمس

خير ، ونجلو ما فيه من محاسن ، قبل أن نلتصق لهذه البلاغة زيا غريبا ،
أو سمنا دخيلا ، أو زينة من تطرية الآخرين . . . ولقد كنا حدثنا في المنهج
عن مدرسة أدبية للبلاغة ، ان غلبت على أمرها في الحياة التعليمية ، فانها
لم تحرم مكانها في عالم التصنيف ، وقد قام بها نفر من الكتاب وغيرهم ،
وخلفوا فيها آثارا ، نحسن الى أنفسنا والى ماضيها ، حين نطلب ما فيها
من تفنن أو تذوق وتنبيه وتطلع ، فنبتغي ذلك لنحييه في درسنا اليوم .

وإذا ما ظفرنا من هذا القديم بكل ما فيه من حلية ورواء ، تقدمنا السبيل
اتمام ذلك بما يكمله من : التحلية بالجديد . . . تحلية ترسي أصول
هذا التفنن ، وتزيد صورة البلاغة وضاعة وسنا .

وأول التحلية بالجديد ما يتعلق بتعريف البلاغة ان يرى الأستاذ الخولسي
أن التعريف القديم يجب أن يحل محله تعريف جديد يكون تعبيراً عن
الاحساس بالجمال . . . وذلك التعريف في رأيه أن : البلاغة هي " فن
القول " فيكون هذا التعريف ، وهاتيك التسمية ، لفتا متصلا الى الصورة
المحيية ، والمنهج المرجو ، وصرفا مستمرا عما نحصر على ابعاد ، من الصور
القديمة للبلاغة ، والطريقة غير الصالحة في تناولها . . . ثم هي مع ذلك
تحملي دلالة لغوية قريبة على المعنى الحسن المراد من البلاغة قديما وحديثا ،
لما في مادة الفن من المعاني ، فمنها التزيين ، يقال : فن الشيء
فنا زينه ، ومنها التنويع مع اشعار بمعنى الحسن ، يقال : افتن فنى
الحديث : أخذ في فنون وأساليب حسنة من الكلام ، وهي ما نحسن
فيه من حسن القول وجمال الكلام ، بل دلالتها عليه أقرب من دلالة
البلوغ والانتهاء الذي أخذوا منه اسم البلاغة . . . ثم في هذه التسمية

بفن القول ، تأثير نفسى فى اعداد الطالب وتوجيه قواه ، ومثل هذا لا يستهان به فى ميدان التعليم والتلقين ، اذ يصل الطالب بجو الجمال والفن الذى تمنحه الحياة من نشاطها الكثير ، ويفرى هذا الوصل بأساليب الفن وطرائقه ، ويمرئ من الخط فى المنهج والتناول ، فتستقر بمعرفة ذلك أصول التفنيين الذى يراود تحقيقه فى هذه البلاغة .

ثم ان هذه التسمية مما ارتقاء المحدثون علما على هذه الدراسة ، فهى ليست بدع من رأى ، ولا غريبا من التسمية .

هذا قولنا هنا فى التعريف ، من حيث أثره فى تجميل الصورة ، وتأبيد أهداف التجديد فى البلاغة . وأما الموازنة بين هذا التعريف وتعريفات الأقدمين على اختلاف العصور ، فموضع التعرض له سنلم به قريبا عند الحديث عن : المبادئ من فن القول .

أما ثانى ما تحطى به صورة البلاغة من الجديد فهو :
" مقدمة فنية " تصل طالب هذه المادة بأطراف من " علم الجمال " وأصول التفنن ، فتنتظم خلاصة القول فى الفن ، وأصوله ، ومكانه فى المعرفة الإنسانية ، وصلته بما سواه من ألوان المعرفة ، كالفلسفة والعلم ، واجمالاات عن الجمال ما هو ؟ وماى شئ يكون ؟ وفى أى شئ ؟ وهل يستطيع قياسه ؟ ومم ؟ وكيف ؟ مع التعرض الخاص للجمال اللسانى فى هذا كله ، واعتبار ما عداه من فنون الجمال الأخرى وسيلة لفهمه هو ، واللفت اليه لفتا يقوم على أساس ، ويعتمد على درس وخبرة ومعرفة ، مما يزود أصحاب الدراسة الأدبية بما يقدرهم على القول الناقد ، والحكم الصادق ،

فى تناول دقيق ، وادراك عميق ، وحكم سليم .
ومثل هذه المقدمة لا يكون النقد الأدبى ، والتذوق الفنى ، محاولات
مبهمة ، ولا أحكاما مطلقة ، بعبارات غامضة ، كالتى ألفناها فى قول الأقدمين
والمحدثين ، وصفا لرجال الفن القولى وأثارهم فيه ، مثل قولهم —
الرجال : انهم سحرة مفلقون ، أو مهرة بارعون . . . وقولهم عن الذوق :
انه سرورحانى ، وسحر وفتنة و . . . وقولهم فى وصف الآثار :
انها رائعة ومعجزة ، وباهرة وواهرة ، أو متينة ورصينة ، دون أن يستطيعوا
لذلك بيانا ، أو يجدوا شيئا من الايضاح . . . أما حين يلم الدارسون
بمثل أبحاث تلك المقدمة الفنية ، فانهم يوفون من ذلك على ما يوجهون به
وجدان المتذوق ، ويقولون فى ذلك ما يكشف الستر عن هذا الحسن ،
ويذيع السر عن هذا الاعجاز .

والخلاصة أنه لكى نكسب بلاغتنا الصورة الجميلة فعلىنا أن نزيل
الجفوة التى بيننا وبين الفن ، ونحدد المفاهيم التى تفرق بين العلم
والفن ، ونعرف البلاغة بأنها فن القول ، ونضع تلك المقدمة الفنية للبحث
البلاغى — بتلك الأمور كلها تصبح صورة بلاغتنا أنفروجها ، وأبهى
قسمات ، من تلك الصورة القديمة .

ويرى الأستاذ الخولى أن هذا وحده ليس يكفى ، بل ان حسن
الصورة يتم حين يتحقق الاصلاح المنشود فى سائر النواحي البلاغية ، من
دائرة بحث ، ومنهج ، ورعاية غاية . وان نظرنا فى بقية مناحى المقارنة
يعتبر عملا فى تحسين الصورة العامة .

فلنض الى تحقيق نتائج المقارنة فى :

ثانيا : دائرة البحث وسميتها

=====

انتهت المقارنة بين دائرة البحث البلاغى عند القدماء ، ودائرته عند المحدثين الى ما يأتى (١) :

فى القديم	فى الحديث
=====	=====
جملوا من البحث مقدمة " ليست من المقاصد فى هذا الفن " ثم من المقاصد ما يعرف به وجه الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وهو علم المعانى . وما يحتـرز به عن التعقيد المعنوى ، وهو البيان . ومنها تابع تعرف به وجوه التحسين الثانوية وهو البديع .	تتسع دائرة البحث لكل ما تشمله طبيعة الفن القولى وعمل الأديب فيه . وتقسم خطوات عمل الأديب الى : ايجاد ، وترتيب ، وتعبير . وتبحث كل خطوة من هذه الخطوات ، كما يجب أن يكون البحث الذى تتطلبه المعرفة الفنية ، فيشمل هذا البحث العلم بمعارف انسانية تتصل بالحياة الوجدانية ، ويشمل الفن القولى فى بسائطه ومركباته ، فتبحث المعانى ، وتبحث الألفاظ . مفردات وجمل وأساليب ، وتبحث صور التعبير التى يصورها أصحاب الفن القولى ، وتبحث
وحرصوا أبحاث علم المعانى فى أحوال طرفى الجملة ، والجملة . وحرصوا أبحاث البيان فى المجاز والكناية ، والتشبيه مقدمة لفهم الاستعارة ، لكن كثرة مباحثه	

فنون الأدب نظما ونثرا ، فنا فنا •	وقوائده جملمته كالمقصد ، وان
وهكذا لا يحد هذه الدائرة الا طبيعة	كان مقدمة فى المعنى •
العمل الأدبى • وتدخلى فيها	والبديع تابع يعنى بوجوه حسن
دراسات مظاهر النشاط الفنى •	اما لفظى واما معنوى • فكانت
وأسباب وضوح القول وتأثيره •	محسناته قسمن •

=====

وبالنظر والموازنة بين هاتين الدائرتين نجد أن بلاغتنا وقفت عند
 بحث الجملة ، وأهملت بحث المعانى ، ولم تنظر الى العمل الأدبى
 بجملمته ، ولم تمن بالنظر فى الفنون القولية ... الخ ، فهى فى حاجة
 الى سعة شاملة ، ومسطرة وافرة ، لتستطيع الوفاء بمثل تلك الأبحاث ،
 وما يتصل بها ، مما هو ضرورى لدقة الدرس ، ومسايرته درجة التقدم
 الانسانى •

والأمر فى ذلك يحتاج الى تخليلية وتحليلية أيضا •
 فأما التخليلية :

===== فمفها : ابعاد الملاحظ والاعتبارات التى حددوا

على أساسها بحثهم ، وابطال غير الصحيح منها ••

ففى المقدمة — مثلا — نرى أنهم وضعوها خارجا ، وبحثوا فيها
 فى فصاحة الكلمة والكلام والمتكلم ، وبلاغة الكلام والمتكلم ، ودرجات
 البلاغة ... الخ •

لأن مثل هذه الأبحاث فى قولهم ، ليست من المقاصد فى هذا الفن ،

وهو قول نخالفهم فيه مخالفة تامة ، اذ أن الكلمة المفردة هي العنصر
الأساسى فى عمل فنى أداته الكلمة ، فالبحث فيها وفيط يتألف منها من
صميم المقاصد فى هذا الفن .

ثم ملحظهم فى حصر أبحاث علم المعانى ، فى الخبرة والانشائية ،
ليس ملحظ ذى قيمة ولا جدوى ، فهم أنفسهم قد شعروا بوهيه ، حى
خصوصا به الشطر الكبير من مباحث علم المعانى ، ثم عادوا يقولون : " ولا وجه
لتخصيص هذا الكلام بالخبر ، لأن الانشاء لا بد له أيضا مما ذكر " . (١)

على أن هذا التقسيم الثنائى للكلام الى خبر وانشاء مما لا يتفقون عليه ،
ومنهم من يجعل القسمة غير هذه ، على ما يبين فى موضعه . (٢)

ثم ملحظهم فى ضبط أبحاث البيان : فى الحقيقة والمجاز ، ملحظ
لا قيمة ولا أصل له ، وإنما الاعتبار القيم فى مثل هذا الأثر لتلك الصور
البيانىة فى المعانى هو ادراك مالها من قوة الايضاح والتأثير ، وهو ما لا يتم
الا بمعرفة المنطق اللغوى والأدبى ، والبصر بالموثرات فى النفس الانسانية .

ثم نلاحظ أن تقديرهم للبديع تقدير جائز ، فقد سمعنا فيما سلف
من قول الأقدمين أنفسهم : " ان الحق الذى لا ينزع فيه منصف ، أن البديع
لا يشترط فيه التطبيق ، ولا وضوح الدلالة ، وأن كل واحد من تطبيق الكلام
على مقتضى الحال ، ومن الايراد بطرق مختلفة ، ومن وجوه التحسين ،

١ — شرح السعد وحاشية الدسوقي من شرح التلخيص ١ : ١٧٠ .

٢ — السبكى فى شرحه للتلخيص من الشرح ١ : ١٧٢ .

(١) قد يوجد دون الآخرين " . . . فنستطيع أن نقول والحال على ما وصفنا : ان المحسنات البديعية ليست أمورا تابعة للمعاني والبيان ، ولا ثانوية يسيرة الأهمية ، بل هي وجوه توجد وحدها ، وعلى هذا الاعتبار نستطيع النظر في هذه المحسنات نظرا متفنا منعا ، لنذكر أثرها في العبارة ، وننزلها في درسنا المنزلة المناسبة لهذا الأثر . فما كان منها قويا عدناه من صور التعبير ، وضممناه الى أشباهه بما عد في البيان ، وما كان دون ذلك أهمية جعلناه في المكان الممثل لهذه الأهمية .

كما أن ما يكون من المحسنات تكلفا وتصنعا سيى الأثر أهملناه وأبعدناه .

وسيرد تفصيل لذلك في تنسيق الأبحاث بـــــــــــــــــ

ومن التخليصة أيضا :

===== الفاء تقسيمهم الثلاثى لفروع البلاغة

جملة ، وهى المعانى والبيان والبديع ، وهذا التقسيم فى الحقيقة ثنائى ، فالبديع ليس الا تابعا ، وانما نلقى هذا التقسيم الثنائى لأسباب فى نقدهم هم لهذا القديم ، ثم لأسباب فى النظرة الجديدة .

فأما ما فى القديم من ذلك ، فهى أنهم يدبرون هذا التقسيم على اعتبارات ضعيفة ، قد وهنوا من أمرها فى قديمهم ، فملحظهم فى هذا التقسيم أن علم المعانى يبحث فى المركبات الموزونة وغيرها عن افادتها لمعان فوق المعنى الأصلى ، وعلم البيان يبحث فى مراتب هذه الافادة الثانية فى الموضوع ، فثنائى الباحثين يترتب على الأول ، وهم يقدمون المعانى على

البيان ، لأنه بمنزلة المفرد من المركب ، إذ أن رعاية المطابقة لمقتضى الحال ،
وهى مرجع علم المعانى ، معتبرة فى علم البيان مع زيادة شئ آخر ، وهو
إيراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة (١) . وهذا الاعتبار هو الذى رأيت
نقضه آنفا فيما أوردنا من عبارة السبكي ، وما دام الأمر كذلك ، فالدائـرة
المرسومة للبحث على هذا الأساس ، لا قوة لها ولا أصل ، فلا وجه اليوم
لالتزام حدودها ، والتقيـد بها .

هذا الى أننا نلاحظ اليوم من الاعتبارات ما يحوجنا الى رفع قيود هذا
التحديد . . من ذلك ما عرفت من أن أبحاث المقدمة — فيما نقرر — انما
هى من المقاصد والعناصر الجوهرية ، فى فن أداته الكلمة ، فنحن نريد
ادخالها فى الأبحاث الأصلية ، وذلك تغيير للتحديد .

وإذا ما ألغينا هذا التقسيم الثلاثى ، وذكرت أننا منذ قريب
فى تحلية صورة البلاغة ، قد حرصنا على الدقة فى التفريق بين استعمال —
كلمتى : " الفن " و " العلم " ، وحرصنا على استعمال كلمة " الفن "
فى هذه الدراسة وفروعها ، واستبعاد كلمة " العلم " فى تسميتها وتسمية
فروعها ، فقد بطل أن لدرس البلاغة أقساما ، وأن تلك الأقسام تسمى
علومًا .

والمرحوم احمد مصطفى المراغى يوافق الأستاذ الخولى على عدم صحة
هذا التقسيم ويقول : " لا نعلم أحدا سبق السكاكى الى قسمة علوم الفصاحة

١ — السعد الغفازانى : الشرح المختصر للتلخيص ص ١٥ ح ١ ط
الآستانة .

الأقسام الثلاثة المعروفة ، ولا نرى لهذا التقسيم وجهاً صحيحاً ، ولا مستنداً
من رواية ولا دراية ، فليس هناك جهة للتمايز تفصل كل علم عن قسيميه — ،
ولا فى أغراض كل علم ، ولا فى موضوعه ، ما يجعله وحدة مستقلة عن العلمين
الآخرين فى بحوثه ومسائله ، حتى يمكن الناظر أن يقتنع بوجهة هـذا
التقسيم ، ويرهن على صحته . * (١)

لكن الأستاذ العقاد رحمه الله كان له رأى آخر ، فهو يرى :
" أن علوم البديع والمعانى والبيان خلاصة الملاحظات التى أدركها العقاد
بالذوق والفهم ، واهتدوا بها الى مواضع البلاغة فيما وعوه من كلام
الشعراء والكتاب ، وإن الحذقة كانت أكثر من الوعى الصادق ، والفهم
الحسن ، عند من حاولوا فى العصر الحديث أن يطلوا علوم البديع — مع —
فلا بد أن نفهم أن علوم البديع والمعانى والبيان لم توضع لتلقى ، أولينصرف
عنها النظر فى الدراسة أو المطالعة ولقد وضعها الأقدمون وأدركوا
من شأنها كل ما يدركه المحدثون الآن من فوائدها ومآخذها ، — بل —
أدركوا منها — على التحقيق — فوق ما يدركه المتحذلقون الذين يجهلون
البلاغة قواعد ومصطلحات ، كما يجهلون معانى ومفهومات . . . فالعلوم
التي عرفت باسم علوم البديع والمعانى والبيان صحيحة لا عيب فيها ، وكل ما يؤخذ
عليها فإنما يؤخذ على إساءة استعمالها كما ينبغى لها ، وكما أرادها —
واضعوها — . * (٢)

١ — تاريخ علوم البلاغة ص ١١٢ .

٢ — نشر هذا الرأى فى عدد جريدة الأخبار الصادر فى ١٤ رضان ١٣٨٣ هـ .

ونعود الى الأستاذ الخولى الذى يرى أن علوم البلاغة الثلاثة باطلة ويجب أن تُلغى ، وأن من يقول الآن " علوم البلاغة " أو " العلوم البلاغية " أو نحو ذلك ، يخطئ فى طبيعة هذا الدرس ، وفى تحديده ، خطأ يشوه صورة الفن ، ويضيق دائرة بحثه ، وهو ما لا يرضاه صاحب ذوق أدبى ، يجد وقع ما يقول ، ويهجر برودة الفن الأدبى الجميل . . . تلك هى التخلية فى دائرة البحث البلاغى .

وأما التخلية : فبأشياء ، منها :

=====

توسعة دائرة البحث وسط أقطبه ، فلا يقصر على الجملة ، بل نعد البحث بعد الجملة الى الفقرة الأدبية ، ثم الى القطعة الكاملة من الشعر أو النثر ، ننظر اليها نظرتنا الى كل مقامك ، وهيكلا متواصل الأجزاء ، نقدر تناسقه ، وجمل أجزائه ، وحسن اتئلافه ، وننتحدث فيما لا يبد منه فى هذه النظرات من شئون فنية .

وإذا ما مددنا البحث فى أوله فدخل بحث اللفظة المفردة فى القاصد ، كما قدمنا ، وسطناه فى نهايته فشملم بعد الجملة من العمل الأدبى كله ، فقد بدا لك أننا مضطرون الى الغاء التقسيم الثلاثى أو الثنائى ، والنظر فى نظام آخر لهذه الأبحاث ، نعرضه فيما يلى عند تنسيق مباحث فن القول .

ومن التخلية أيضا : افراد مكان من هذه الدائرة الفسيحة

===== لبحث المعانى الأدبية . . . فى

حقيقتها ، وميزتها ، وفى ايجادها وترتيبها ، على نحو ما وصفنا بعضها فى صنيع المحدثين ، وهو ما لم تكن المدرسة الكلامية بشئ منه . . . والمدرسة الأدبية فى البلاغة لم تصب من ذلك الكافى الموضى ، فهذا ابن الاثير فى مثله السائر يقسم الصناعة قسمين : الصناعة اللفظية ، والصناعة المعنوية ، ولكنه يعنى بالصناعة اللفظية السجع ، والتجنيس ، والترصيع ، ولـزوم

ما لا يلزم ، وما الى ذلك من أمور لفظية صوتية . . . ويعنى بالصناعة المعنوية ،
التشبيه ، والاستعارة ، والتجريد ، والالتفات ، وما يتصل بذلك
من صور فى التعبير تؤدى بها المعانى .

أما البحث فى المعانى بما هو روح العمل الأدبى ولبابه ، بحثا خاصا بها ،
من حيث هى مدلولات ومفاهيم وأغراض ، فلا نجد فيه الا شذرات متفرقة عند
الأولين من أهل الدراسة الأدبية فى البلاغة ، كعشر بن المعتمر ، والجاحظ ،
وأضرابهم ، من الذين نظروا فى هذا البحث قبل أن يستكمل ويتسع السعة
الثامة التى وصل اليها فى ظل المدرسة الكلامية العلمية .

وفى كل حال سنحى فى بحثنا للمعنى وغيرها مما تريد ، رسوم
المدرسة الأدبية ، وننتفع بكل ما استطاع الانتفاع به فى ذلك التخيير ،
من تراثنا القديم .

ومن التحلية أيضا : تخصيص مكان من هذه الدائرة الواسعة
لبحث الفنون الأدبية . . . فندرس فى فن القول تقسيم الناس قدما وحديثا
لهذه الفنون نشرا ونظما ، والفكرة فى هذا التقسيم ، ونبين خصائص هذه
الفنون واحدا واحدا ، ومقوماتها التى يكمل بها جمالها الفنى فى الفاظها
وصياغتها ومعانيها وأغراضها ، مستعينين فى ذلك بيسير ما خلفت المدرسة
الأدبية العربية فى هذا الميدان من نظرات وإشارات ، ثم نضم الى ذلك
كل ما دلت الثقافة العلمية والفنية الحديثة ، على صلته بهذه الفنون وميزاتها ،
ونفى بحق الأدب فى فنون لم تزدهر فى البيئة العربية ، ولم تعرف معرفتها
اليوم ، كفن القصة والمقالة ، وما الى ذلك من فنون مستحدثة .

ثم من التحلية كذلك : تمييز مكان فى هذه الدائرة لدرس
الأساليب :

لا نقف فى ذلك عند قليل ما ألم به القدماء فى هذا ، ولا نكتفى
بتكلمته المحدث ، بل نجعل هذا الدرس وسيلة للإشراف على آفاق أدبية

ونقدية ومذاهب في ذلك ، ومدارس في الفن القولي نعترف بها ، ونبين أهدافها
وخصائصها . . . ففي الأساليب نتحدث بعد المعروف الشائع عن الفلكهسية
والتهمك وما اليهما ، من حيث هي عوالم فنية ، ونزعات أدبية ، كما نستدرس
الرمز الفنى ، والرمزية الأدبية ، لا في حدودها الساذجة التي أشير
الى إشارة منها في الكتابة ، بل من حيث هي ضروب من الفن ، تتصل بموجهات
نفسية ونحوها ، وترى الى أهداف أدبية اجتماعية وما اليها من كبريات
الغايات ، التي تضطلع الفنون اليوم بالوفاء بها ، في حياة الناس أنفسهم
وأعمالهم .

تلك هي أمهات التحلية التي نعمل لتدعيم الدرس البلاغي بها ، تحقيقها
لنتائج المقارنة ، التي ظهرت في مقابلة دائرتي البحث قدما وحديثا .

والآن نتحدث عن نتائج المقارنة فليس :

ثالثا : فى المنهج وتصحيحه (١)

=====

فى القديم

مستوى الحياة العقلية لم يحسن
التفريق التام بين الحكم الفنى الوجدانى
بالحسن أو القبح ، والحكم العقلى
بالصواب أو الخطأ .

الوضع الاجتماعى للغة يغير منهج
التفكير فى أبحاثها وأسلوب د راستها ،
فإذا ما اتصلت بالحياة اتصالا تاما ،
كان التفكير فى أبحاثها علميا وجدانيا
وعلمت بطريق الممارسة ، وإذا ما
انفصلت عن الحياة كان التفكير فيها
نظريا عقليا ، وعلمت بطريق الممارسة .
وقد مرت بلا غتنا بهذه الأدوار
المختلفة فعلمت حينئذ عن طريق
الممارسة والتلقى ومخالطة أهل اللغة
واحتكم فيها إلى الذوق والوجدان .
ثم علمت بطريق المدارس ، واستحال
الاحتكام فيها إلى النظر إلى تنقلى
والضبط المنطقى .

المدرسة الكلامية هى التى سيطرت
أخيرا فى حياة البلاغة ، وهى
المدرسة التى تتبع الطريقة الثانية —

فى الحديث

المستوى العقلى الحديث
تنبه إلى الفرق الواضح بين صنوف
الحكم ، من عقلى ، وفنى ، وخلقى ،
لدقة بحثه فى مسألة المعرفة ، وعنايته
بمنطق المادة .

الوضع الاجتماعى للغات الحية ،
واتصالها بحياة أهلها اتصالا قويا ،
جعلها تعلم بطريق الممارسة
قبل كل شئ ، وجعل التفكير فيها
علميا اجتماعيا صحيح المنهج ، وجعل
الدرس الأدبى فيها فنيا وجدانيا
حقا .

منهج د راس فى القول عندهم فنى
محض ، يبدو فيه ظواهر واضحة من :
الوصل الوثيق بين الأدب وسائر
الفنون ، وتنسيق الدراسات للغوية
والأدبية تنسيقا سليم الأساس ، يكون
لفن القول فيه مكانه المتميز ، وربط
هذا الدرس بالتراث الأدبى للغات
المدرسة قديما وحديثا ، وإقامة
الدرس كله على أسس فنية صحيحة

مستفيدة من التقدم العقلي والاجتماعي
العام في ألوان الحياة كلها •

طريقة المدرسة العقلية — فخلف
ذلك في مباحث بلاغتنا آثارا ، لا
تزال هي الواضحة ، لاقتباس الظواهر
الفلسفية المنطقية في تعاريفها ،
وتقاسيمها ، وضوابط بحثها ،
مما أخل بالظواهر الفنية الأدبية •

وبالنظر إلى هذه المقارنة في المنهج عندنا وعندهم ، تتضح لنا
حاجة البحث البلاغي عندنا إلى عمل غير يسير ، لاضطراب أساسه باضطراب
أساليب البحث القديم ، وعدم التفريق بين صنوف الأحكام التي تختلف بها
صنوف المعارف والحقائق • • ولهذا اتخذ البحث البلاغي خطة غير سديدة ،
ولا سليمة في التناول والحكم والبحث والتصنيف ، فبعد ما تبين لنا ذلك
كله ، نستطيع في اطمئنان أن نتقدم إلى تخطيطه من تلك الآثار ، ثم
إمداده بما يحسن حيويته ، ويؤهله لمسيرة الحياة اليوم ، والاستجابة
لحاجة الشعوب الناهضة المتجددة في الشرق • • وذلك يحوجنا — كما سبق —
إلى تخطيط ، ثم تخطيط •

فمن التخطيط : إزالة التداخل المضطرب في دراسة مواد ثقافتنا
على اختلافها ، لنزيل مثل ذلك التداخل بين دراسة مواد العربية ، فلا
نخطط البلاغة بغيرها من تلك المواد : • • ونحن نشعر بهذا التداخل
في الثقافة الإسلامية تفكيراً وتأليفاً ، فنجد التعرض المستفيض للمسائل
علم في دراسة غيره ، فالمسائل النحوية والحكمية مثلاً يتعرض لها في الفقه ،
مع اختلاف المناهج في النحو عنها في الحكمية ، وفيهما علم في الفقه ، لكن
توسعهم في الشروح والحواشي والتقارير ، بعد تركيزهم المثون واجمالها ،
فسح المجال لهذا التداخل • • ولا نتوسع في شرح هذه الظاهرة وتعليلها ،

فانما مهدنا بها للقول فيما يعنيننا من هذا التداخل في درس البلاغة ، اذ
اختلفت فيها الدراسات المختلفة ، فمن مقدمات حكمية ، وأبحاث منطقية ،
الى دراسات خلقية ، وأخرى طبيعية أو الهية ، على ما أشرنا اليه ففى
المنهج الكلامى لدراساتها • (١) ونلفت هنا الى تخلية التفكير البلاغى ،
والتأليف البلاغى من هذا التداخل ، ازالة للاضطراب الناجم عنه • كما
نشير الى ما فى البلاغة من تداخل آخر بينها وبين مواد العروبة الأخرى ،
كالنحو مثلا ، فان هذا التداخل أيضا قد ترك أثره فيها ، واختلط
البحثان فى غير موضع ، وكان من ذلك أن ضم البحث البلاغى وعجف أحيانا ،
فقصر عن المعنى الأدبى الخاص به ، وأن تضخم وتزيد أحيانا ، فجار على
المعنى الأدبى •

وأنت واجد المثل للضمور فى مثل قول البلاغيين فى أحوال المسند اليه :
ان تعريفه بالاضمار : لأن القام للتكلم أو الخطاب أو النية ، والعلمية :
لاحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم مختصره ، وباللام لكذا ،
وبالاضافة لكذا ، مما لا تجد فيه شيئا جديدا الا شرح المعنى النحوى
الأول ، دون عناية بما وراء ذلك من معنى بلاغى خاص •

ثم أنت واجد المثل للتضخم والتزيد ، فى صنيعهم بباب الفصل والوصل
مثلا ، اذ أوردوا فيه أحوالا وتقسيمات ، كان المرجو أن تكون أدبية الملحظ ،
كعدمهم من أحوال الفصل " شبه كمال الانقطاع " الذى يمثلون له بقول
الشاعر :

وتظن سلمى أننى أبغى بهما بدلا ، أراها فى الضلال تهيم
فان المصطف فى " أراها " كما يبدو جليا ، يودى الى فساد المعنى الأول ،
ونقص ما أراداه القائل ، فليس المانع منه بلاغيا ، بل هو نحوى صرف ،
يدور الأمر فيه على الصحة واستقامة المعنى ، لا على اعتبار تال لما به
أداء المعنى الأول ، كما هو الشأن فى البلاغة • ولعلنا نعود الى
هذا قريبا حين نتخذ باب الفصل والوصل مثلا لتطور درسنا من البلاغة
الى فن القول •

والى هنا بدا أن التداخل المضطرب بين الدراسات المختلفة فى البلاغة قد أفسد منهجها ، كما أن التداخل بينها وبين مواد العربية نفسها قد أضربها ، فحق علينا تصحيح المنهج ، وإصلاح للبحث ، أن نخلصى الدرس من التداخل بين المواد .

ومن التخلية أيضا : إزالة الاضطراب الناجم عن عدم تمثل الأقدمين — ولا سيما المتكلمين — للمنهج البلاغى الملائم : فقد تداخلت المناهج العقلية والنقلية والفلسفية والشرعية فى تناولهم للبلاغة ، وترك هـذا الاضطراب أثره فى درس البلاغيين للشئون الفنية ، وبيانهم لها ، ولقتهم الى قيمها ومزاياها ، فكان لفتنا غير كاشف ، وبياننا غير مبين ، ولا جدوى منه على موهبة دارسى ، ان لم يكن فيه افساد لها وإخاطة ، وهاك مـن ذلك ما يتجلى به اضطراب المناهج وتداخلها المفسد فى تناولهم :

ختم القوم علم البيان بفصل وازنوا فيه بين صور التعبير التى تولوها — بالشرح فى هذا العلم وأدأوه عليها ، فقالوا : "أطبق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح ، لأن الانتقال فيهما من الملزوم الى اللازم ، فهو كدعوى الشئ ببيئته " ، فكان وجه فضل تعبير على تعبير ، أنه انتقال من الملزوم الى اللازم ، وكان وجه بيانهم لهذا الحسن أنه كدعوى الشئ ببيئته ، وأنت واجد فى هاتين الخطوتين منهجين مختلفين ، لقضية لها منهج ثالث غيرهما . . فالمنهجان المختلفان هما : المنهج العقلى المنطقى ، فى الملزوم واللازم ، وأن وجود أحدهما يقتضى وجود الثانى ، لا متناع انفكك الملزوم عن اللازم . . . ثم المنهج الشرعى أو النقلى ، فى البيئته على الدعوى ، والشهادة والرواية — كما تعرف — حجج تقليدية ، على حين أن المسألة المتناولة — وهى حسن التعبير ومقايضه — مسألة أدبية ، فمنهجها وجدانى فنى ، لا يفنى فيه واحد من المنهجين — السابقين . قضية هذا اللزوم العقلى الذى لا انفكك فيه بين الملزوم واللازم ، هى قضية اللزوم الأدبى — ان كان هناك ما يسمى لزوماً — لأن ما فى المعانى الأدبية إنما هو اتصال على ، وارتباط واقعى ، وملحظ نفسى عام .

وأما حكاية الدعوى والبيئة وما إليها ، فحسبى وحسبك أن نقدر أن ما يجده
القاضى من شهادة الشاهد ، وما يجده السامع من رواية الراوى ، وأثرهما
فى نفسه ، هو فى الحق والحسبى ليس أبدا من صنف ما يجده المتأثر
بالفن القولى من أثر نفسه ، وأين هذا الحق أو الباطل من ذلك الحسن
أو القبح ؟ شتان بين مشرق ومغرب .

وان يكن فينا من لا يزال يختلط عليه مثل هذا ، فلعله يهديه من
قول القدماء أنفسهم ، ما شعر به المتكلمون فى عصور مختلفة ، وشعر به المؤمنون
أنفسهم ، من أن البراهين العقلية على العقائد لا تفيد يقينا ، ولا تكسب
اعتقادا ، فصرحوا بأن استدلال القرآن ، خير وأجدى من استدلال اليونان .
ففى هذا معقد ما نشير إليه من فرق بين أثر النظر العقلى ، ووقع اللحظ
الفنى ، وهو أصل لبيان أن الحقائق المختلفة إنما تتناول بأساليب مختلفة ،
ومناهج مناسبة . ومن أجل هذا دعونا الى تخلية الميدان البلاغى من آثار
الاضطراب الذى بثه فيه اضطراب المناهج ، وتناول الفنيات بما لا ينالها .

ثم من التخلية أيضا : ابعاد الأبحاث التى أقحمها فى البلاغة
اضطراب المنهج ، واختلاط المناهج :

وما نحاول هنا أن نحصى هذه الأبحاث ، ولكننا نشير إليها على سبيل
التمثيل :

١ — فمن تلك الأبحاث المشحمة : البحث " فى الصدق والكذب " الذى
يشبه إليه فى فصل خاص بين يدى علم المعانى ، وهو بحث
لم يعد له اليوم مكان بين فصول دراسة فنية أدبية .

ب — ومنها : بحث واو الحال ، والرباط فى جملة الحال ، الذى يفرد
له تذييل بعد الفصل والوصل ، فانه نحوى فى جوهره ولبابه ،
ولا مكان له فى الدرس الفنى .

ج — ومنها : مقدّمهم فى الدلالات ، التى يقحمونها بين يدى علم البيان ،

وهي مقدمة منطقية ، لا ينفع علمها في ادراك صور البيان التعبيرية ،

ولا يضر جهلها ، بل تضر معرفتها حين تصرف عن تحرير المنهج .

د — ومنها : وقفتم عند أنواع الجامع في باب الفصل والوصل ، وبيانهم
للعقلي والوهي والخيالي ، وشرحهم القوى الانسانية ، وتعرضهم لغير
ذلك من معارف ليست في شيء من هذه البلاغة .

تلك هي كبريات خطوات التخلية في تحرير المنهج ، نفس المجال
لما يتلوها من :

التحليلية

=====

واجل هذه التحلية وأحسنها أثرا : تمثل المنهج الفني تمثيلا
واضحا ، والتزامه في هذا الدرس التزاما صادقا ، يعتمد على الذوق
المسعف ، والروح الحرة ، والرغبة الصادقة في تجديد هذه الدراسة .
وأسوق اليكم مثالا مما يوجه اليه المنهج الفني ، ويبدو بها فرق ما بين
النظرتين ، وأثر المنهجيين :

١ — تعريف البلاغة :

=====

ولنعتمد التعريف الذي استقر عليه الدرس المنظم أخيرا ، وهو : مطابقة
الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . وهو ما يعوزه البيان للحال والمقتضى والمطابقة
فاننا هم يكدون في بيان هذا كله ، وشرح ان هناك دواعي تدعوا المتكلم
الى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصية ما ، وهو
الخصوصيات هي الاعتبارات المناسبة ، التي يرتفع شأن الكلام في الحسن
الذاتي والقبول بمطابقتها ، وينحط بعدم مطابقتها ، ثم هذه الاعتبارات المناسبة
انما هي أمور اعتبرها المتكلم مناسبة بحسب السليقة ، او بحسب تتبع التراكيب .
وهكذا لم يعط التعريف شيئا الا بشرح كاد مكثود .

وإذا كان هذا هو التعريف الذى استقر عليه الدرس البلاغى أخيراً ،
 فهل يستطيع المنهج الفنى أن ينتهى الى شئ أبين من ذلك ؟ انه يعرف
 البلاغة بأنها " فنية القول " ، والقول الفنى : هو الكلام المعبر
 عن احساس الانسان بالحسن ، فكأنه بتلك القولة القصيرة يذكر جنس
 الحسن فى الكلام ، وهو كمال تعبيره ، ثم يبين مجال هذا التعبير
 فيخبره بأنه التعبير عن الاحساس بالحسن ، فيعين موضوعات هذا القول ،
 ويشير بذلك الى ما به كمال التعبير ، فانما التعبير الكامل أو الفنى
 عن الحسن ، هو الذى ينقل اليك احساس بهذا الحسن ، فتشعر به
 قائله بما وجد من حسن موفور أو مفقود ، ولا ينقل التعبير هذا الاحساس
 الا اذا كان فى أصله عند القائل احساساً ، وكان فى وقعه عند السامع
 مشاركة واضحة فى هذا الاحساس ، وتلك معان جهدوا فى النص عليها ،
 ولكن لم تحملها تعريفاتهم .

٢ — المتكلم والمتفنون :

=====

قرر القداماء من علماء المدرسة الكلامية أن قصد المخبر بخبره هو :
 افادة المخاطب الحكم ، أو افادته كون المخبر عالماً بالحكم ، ويسمى الأول :
 فائدة الخبر ، والثانى : لازمها .

تسمع هذا وقد سمعت قبله قولهم : ان البلاغة وارتفاع شأن الكلام
 فى الحسن ، انما هى فى الاعتبارات التى تعتبر مع الكلام ، الذى يؤدي به
 أصل المعنى المراد ، فتسألهم : اذا كان هناك معنى مراد ، ثم
 اعتبارات زائدة عليه ، فأين هذا كله فيما ذكرتم أنه كل قصد المتكلم
 من خبره ؟ وهل الكلام غير البليغ ولا الحسن لا يحقق هذا المقصد ،
 وهو افادة الحكم . الخ ؟ واذا كانت افادة الحكم أو افادة العلم به ،
 هى كل قصد المخبر بخبره ، فأين عمل البليغ وأثره ؟ وكيف تهتيم تقيسون
 كلام البليغ بتحقيق هذا المقصد ؟

تلك وما إليها وقفات يقتضيها مشجع القوم فى تناول الموضوع ، وردهم

الأمر كله الى اعتبارات عقلية ، وضوابط ذهنية ، لا تقدر شيئاً من عمل المثقفين . .
ولو جنببت المسألة كل بحث ودرس ، ورددتها الى قريب الملاحة ، لوجدت
أن الناس حين يتحدثون كل يوم ، وفي كل شأن ، يخبرون ليفيدوا ، وأما
حين يتحدثون في أحيان خلصة حديثاً مروباً متأنقاً ، فانما يتحدثون ليؤثروا
في النفوس ويحركوها ، وذلك القصد الأخير هو ولا شك ما ينبغي أن يتحدث
عنه أصحاب البلاغة ، وأن يقيسوا به مقادير الكلام وأقذارها ، ولكن
كتب البلاغة الكلامية لا تعنى به فيما سمعت من قول أصحابها .

أما في المنهج الأدبي فالأمر منته الى مثل هذا الذي يجد الناس ،
عن طريق الوجدان الدقيق ، والنظر الفنى ، إذ أن هذا الفن ليس الا تعبيراً
عن الاحساس بالحسن ، والمقصد فيه شئ غير افادة الحكم ، أو افادة معرفته
وهو ما ينبغي قولنا فيه من عمل ومثمة (١) . وهذا وحده قول المثقفين
وصوغ المتأدب ، وتعرف الاعتبار المناسبة ، والخصوصيات الزائدة على
أصل المعنى المراد .

ومن هنا تدرك عدوان المنهج غير الصحيح ، على أصول قويمة ،
وأسس أصلية للعمل الأدبي ، حين يسوى بين المتكلم والمثقفين .

٣ — المتكلم والمخاطب —

=====

عنى البلغاء القدامى بالمخاطب عناية فائقة دون المتكلم ، فجعلوا
قصد المخبر بخبره هو افادة المخاطب . . الخ ، ثم رأوا أنه مادام القصد
هو افادة المخاطب ، فينبغى أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة ، ثم يلى
ذلك بيانهم لحال المخاطب ، فراحوا يقولون : ان كان المخاطب خالى الذهن
من الحكم فكذا ، وان كان متردداً فيه طالباً له فكذا . . . الخ .

هذا كلامهم في اعتبار حال المخاطب ، ولكن العلامة السعد يقول :
(فالجملة الخبرية كثيرا ما تورط لأغراض أخرى غير إفادة الحكم أو لازمه ،
مثل : التحسر والتحزن في قوله تعالى حكاية عن امرأة عمران " رب انسى
وضعتها أنسى " وما أشبه ذلك) • (١)
فهذا اشعار منهم بأن الجملة الخبرية تكون مقصودة لغرض خاص بالمتكلم
لا بالمخاطب ، كالتحسر والتحزن ، ولوضمنا الى ذلك ما لهم من ومضات
لا محة لحال المتكلم لشعرنا بما في هذا الاقتصار على أحوال المخاطب
من قصور •

ذلك أنك مثلا تراهم يقولون في تعريف المسند اليه بالعلمية : انه
يكون للاستلذان ، والتبرك ، والتفاؤل ، والتطير ، وهي وما اليها
أحوال للمتكلم لا للمخاطب ، ولها أثرها في صوغ التعبير وصنعه ، لكنهم
حين تحدثوا عن الأحوال وتقدرونها ، لم يشيروا الا الى حال المخاطب • وهذا
أثر فن آثار المنهج غير المستقيم ، حين يأخذ بظواهر النظر ، ولا يتتبع
الاعتبارات الأدبية •

٤ - الأحوال والأضرب :

=====

وفي ضبط هذه الأحوال نقرأ قولهم : ان كان المخاطب خالي الذهن
من الحكم والتردد فيه ، استغنى المتكلم عن مؤكداة الحكم ، وان كان
مترددا فيه طالبا له ، حسن تقويته بمؤكد ، وان كان منكرا وجب توكيده
بحسب الانكار : وهذه هي الأضرب الثلاثة التي سموها أضرب الخبر •
ووصفوها بالابتدائية ، والطلبية ، والانكارية •• تراهم يضبطونها ضبطا
عقليا حكما اثباتيا انكاريا ، وذلك اذا نظروا الى ظواهر الحال •• أما
حين ينظرون الى خوافيه ، أو خلاف مقتضى الظاهر ، كما يقولون ، فانهم

يظلون أيضا يحكمون في هذه البواطن بتلك الضوابط العقلية المنطقية : من انكار ، وتسليم ، وتردد ذهني ، وقبول عقلي ، فيجملون غير السائل كالسائل ، وغير المنكر كالمنكر ، ويجملون المنكر كغير المنكر ، ويجرون النفس على مثل ما أجروا عليه الاثبات ، من أحوال ذهنية عقلية ، واعتبارات ومعان منطقية ، لحال المخاطب وحده ، وكل هذه ليست الا آثار المنهج الفلسفي الكلامي في تناول الأمور البلاغية .

ويعلق الأستاذ الخولي على ذلك قائلا : فلنقل معهم مؤقتا ان المسألة ذهنية وعقلية ، فهل انتهت الاعتبارات العقلية عند الانكار ، والتردد ، وخلو الذهن ؟ .

ألم يذكروا هم أنفسهم قبل ذلك الموضع بقليل ، اعتبارات عقلية أخرى ، حين يقولون مثلا : ومقام خطاب الذكي يباين مقام خطاب الغبي ، فان الذكي يناسبه من الاعتبارات اللطيفة ، والمعاني الدقيقة ، ما لا يناسب الغبي . فما لهم لم يستوفوا الاعتبارات العقلية ، ويبينوا ما يناسبها ؟ .

ولكن هل الفن القولي في حياة الناس هو خطاب عقولهم ورياضة أذهانهم ، وآفاقهم هي هذه الآفاق العقلية التي وقف الأقدمون عندها ؟ لعلك توقن أنه بغير هذا كله يلتمس القول الفني فهو استهواء واسترضاء وتأثير واجتذاب واستنفار واهاجة و... مما هو من الحالات النفسية غير العقلية ، بل من الحالات التي ينوم فيها العقل ليوقظ غيره ، ولا يعنى فيه بتحويل الناس من الانكار الى التسليم ومن الجهل الى اكتساب المعارف واستفادة الأحكام . فبما وقف القوم عنده من العقليات — ولم يستوفوه — ليس من صميم العمل الأدبي في شيء ، ولا هو الذي تضبط به أحوال المخاطب ، ويقاس الكلام على قدرها ، ويحدد بحاجتها .

ومعد أن طال الكلام في هذه التحلية .. وهي : تمثل المنهج الفني تمثلا واضحا ، والتزامه في هذا الدرس التزاما صادقا .. نأتى الى تحليلية أخرى هامة للمنهج البلاغي وهي :

أن يقدم بين يدي هذا الدرس " مقدمة نفسية " : فقد بان لك أن الأمر في هذا الفن القولى ، ليس أمر المنطق العقلى الاستنباطى الفلسفى ، بل هو ألوان أخرى من المنطق العاطفى النفسى ، المتصل بحياة الانسان الوجدانية ، ونشاطه الذوقى ، وإدراكه للحسن ، وانفعاله به ، وترجمته عنه . وإذا كان الأمر كذلك . . فقد حق على الأديب والناقد أن يعرف من أمر النفس الانسانية ما يبصره بأسرارها ، ويكشف له عن خفاياها ، ما دام الفن ليس إلا تعبيراً عن خلجاتها .

ولذلك يجب أن نقبض لدراسته فن القول مقدمة نفسية ، تبصر فى جملتها بالحياة الوجدانية ، والمواطف الانسانية التى تسيطر على الحياة البشرية وتوجهها ، وليست المعانى الأدبية ، والمحاولات الفنية فى صورها المختلفة ، إلا ثغرات منها ، ووضعات لها ، فهذه المعارف النفسية تعمق معانى الأديب وتسمو ، وتدق أحكام الناقد وتصدق ، بل تصان الحياة الأدبية من تطاول المتطاولين ، وعبث الجاهلين ، فلا يكون فننا القولى لعباً بالألفاظ ، ولا تعلقاً بمشاكلات سطحية ، ولا يكون قد بنا كلاماً معاداً ، وعبارات مرددة جوفاء خاوية ، ويكون الأدب كما ينبغي أن يكون فى حياة الفرد والجمع نشاطاً وجدانياً ، مسعداً على الحياة الكريمة .

ونقدم بعد ذلك لتحقيق نتائج المقارنة فى :

رابعاً : الغاية وحيويتهم ————— (١)

=====

في القديم	في الحديث
كانت الغاية من درس البلاغة العربية حيوية في العصر الجاهلي وصدر الاسلام ، فكانت القوة والخلبة والتفوق غاية الاجادة القولية .	لفن القول غايتان : عملية ، وفنية ، فالغاية العملية هي : تحقيق مصالح حيوية للأفراد والجماعات . والغاية الفنية : هي الاتماع بالتعبير عن الاحساس بالجمال ، أو بالتذوق الناقد لروائع الأداء الفني المترجم عن الشعور بالحسن . (٣)
ثم لما زجها الغرض الديني ، فكانت معرفة اعجاز القرآن من غاياتها	
ثم خلصت الدارسة للمعنى الديني ، وان خالطها غرض آخر وهو معرفة الجيد من الردي في الكلام (٢) .	

ويبدو من هذه المقابلة أن أفق الدرس القديم في أرحب عهوده كان أضيق من الأفق الحديث ، لاختلاف النظرتين الى الحياة . . . ونحسب

- ١ - انظر فن القول ص ٢٠٩ - ٢١٣ .
- ٢ - انظر فن القول ص ١٤٦ - ١٤٩ .
- ٣ - انظر فن القول ص ١٥٤ - ١٥٦ .

أننا اليوم فى حاجة شديدة لبسط هذا الأفق الى المدى الذى يلفه المحدثون فى نظرتهم للحياة وخبرتهم بها وسط هذا الأفق يحتاج الى مثل ما مضى من تخلية ، وتخلية ، ثم لعلنا نجد كل واحدة منهما : معنوية نفسية تارة ، ومادية عملية طوراً .

فأما التخلية المعنوية : فبأن نحرر أنفسنا من الرجعية الفنية ، التى تدىن بأن كل خير فى الدنيا قد تقضى ، وأن العصور الذهبية قد فاتت ، فالمعاني الأدبية القيمة قد ذهب بها فحول القدماء ، والأساليب القويمية قد انقرضت بها أقلامهم وألسنتهم ، والصور البيانية المشرقة قد استنفدها الذاهبون الأولون ، فما بقى لمن بعد هم شيء ، ولم يدعوا مجالاً لقائل ولا ناقد وما ترك الأول للآخر شيئاً ، حتى لنسمع اليوم من يحرمنا الحق فى الحكم الأدبى والبيان لشيء من ذلك بعد عبد القاهر ، فيقول فى جمود : " وليس بعد كلام الشيخ كلام " . لكن الحياة تقول فى اصرار : انها قد تحركت وتطورت وتغيرت قرابة ألف عام ، منذ جاءها هذا الشيخ . .

وليس يجب حين نحطم هذه الرجعة الفنية أن ننكر ما للقدماء من علم وفضل ، ولكن نقول : ان الانسان قد ارتقى وجدانه وعقله ، وان لسمعة عقله وعمق معارفه أثراً بل آثاراً فى وجدانه وحسه ، وذوقه وفنه .

فلنحرر أنفسنا من هذه الأمية الأدبية ، ولنخلصها من هاتيك الرجعة الفنية ، لتتجدد وتتذوق ، وتحكم وتتبين ، غير مقلدة ولا جامدة .

هذا رأى الأستاذ الخولى . . . ولكن أحب أن أقول : ان هذه الرجعة الفنية التى تحدث عنها الأستاذ ربما وجدت فى فترة من فترات حياتنا ولكنها لم تلبث طويلاً ، بل حل محلها رغبة جارفة فى التقدم والتطور شملت جميع مرافق حياتنا ، ومن بينها الفنون والآداب ، وجميع العلوم نالها القليل أو الكثير من هذا التطور ، الا البلاغة — موضوع بحثنا — والتى أرجو أن تنال نصيبها من هذا التقدم والرقى .

تلك كانت التخلية المعنوية ..

وأما التخلية العملية — : فبأن نحرر دراستنا من آثار الدراسة القديمة الضيقة الأفق .. فلا نلتزم المقررات الأدبية ، والأحكام النقدية ، فنستحسن ما استحسنا ، ونستهجن ما استهجنوا ، لفضل السبى والتقدم ، وهكذا سنرفض أحكاما شائعة ، وأمثلة دائرة ، ونستبعد صورا رائجمة ، فليس أعذب الشعر أكذب ، وليس خير المدح ما كان بالفضائل الأربع ، وليس هير المعاني ما وصل اليه الدهن بالكد ، وليس التصنع الزخرفى عملا فنيا ، ولما نقبل تشبيه البحر بالفل ، ولا البنفسج بالنار فى الكبريت ، ولا المرأة بالدعص والقضيب ، مهما يرد هذا فيما عدوه ممن عيون الشعر ، ومعلق القصائد . ولا سبيل هنا الى سرد كل ما نريد رفضه ، بل نقول فى اجمال جامع : ان لحياتهم بوضعها الاجتماعى ، واضطرابها السياسى ، ومستواها العلمى ، وحالها الخلقى ، ما تخالفه حياتنا اليوم فى الاستقرار الاجتماعى ، والنظام السياسى ، والتقدم العلمى ، والوضع الخلقى ، ولكل أولئك فعله بالذوق ، وأثره فى الفن .

ومن التخلية العملية أيضا : ألا نلتزم دراستنا الطابع الدينى ، الذى لزمها يوم كانت غايتها معرفة اعجاز القرآن .

ويقول الأستاذ الخولى فى ذلك . نحن لا نلتزم رأيا بعينه فى الاعجاز ، ونرى الحياة الدينية نفسها قد اكتفت من ذلك بما قيل ، فلا حاجة بها الى جديد فيه ، وان جدت بها تلك الحاجة ، التمتها بنفسها على المنهج الذى تختاره ، وأغتننا من هذا التناول ، وبذلك لا نقف أمام الاعترافات الاعتقادية التى تحد الدرس ، وتكف من نشاطه .

ولا تحسبن عدم اتخاذ هذا الطابع الدينى فى الدرس ، وعدم الوقوف عند الغاية الدينية فيه ، يتضمن شيئا من عدم تقدير الفن القرآنى ، كلا بل نحن حين نرفض التزام الرجوع فى مثلنا وأمثلتنا الى الأدب القديم ، نحصر حرصا عظيما على الرجوع فى مثل هذا الى القرآن وفنه العالى . وكل ما هنالك

أننا في سبيل تحرير النفس والذوق ، ورد الحرية الى الوجدان ، نؤثر
أن نصل الى مثل هذا التقدير للقرآن ، عن طريق درس خالص من التقليد ،
متحرر من التحديد والتقييد .

هذا رأى الأستاذ الخولى . . . وكنت أحب أن يوضح رأيه أكثر ،
وبين كيف يمكن أن نصل الى مثل هذا التقدير للقرآن عن طريق درس خالص
من التقليد ثم كيف يغيب عن بال الأستاذ . أن اتصال البلاغة بالنهج
القرآنى حفظ لها حياتها وأمدّها بأسباب الروعة والخصب والنماء . . . " ويوم أن
حال المتأخرون بينها وبين هذا النهج ، وقصروها على مثلهم المرددة الموروثة
جمدت وجف ماؤها ، وذهب رونقها ، وفقدت جمال الفن ، وروعة الأدب " (١)

وعلى كل لنا عودة الى هذا الموضوع حينما نتحدث عن :

قضية الاعجاز .

تلك كانت التخلية : المعنوية النفسية ، والعملية المادية .

وأما التخلية المعنوية :

=====

فإن نشمر بعظمة الغاية التى نلتص من أجلها الدرس الأدبى
وحيويتها . . . وأنها تحقيق لضرب من نشاط الفرد والجمع يحقق نتائج عملية ونفسية ،
تسعد بها الحياة سعادتها بغيرها من ألوان النشاط العلمى والعلمى ، لأن
لكل جانب من جوانب حياة الواحد والأمة قوى ، تعمل لتحقيق حاجتها ،
وتوفير كماله الحيوى ، والجانب الوجدانى من جوانب الحياة التى يحقق

التفنن حاجتها ، ويدنيها من كمالها ، والقول الفنى أكثر صنوف الفنــــــــــــــــون
شيوعا فى الناس ، ولزوما لهم ، واسعادا لجمهورتهم ، وهم أكثر حاجة
اليه ، وأنسابه ، كما يكشف ذلك الواقع ، وتوحيده نواميس التجمع .

ومن التحلية المعنوية أيضا : أن نثق بأن فى الثقافة العلمية والفنية
لهذا العصر ، ما ينبغى أن يلتصق : تسديدا للنظر الفنى ، وارهافا
للذوق الأدبى ، وأن درس هؤلاء المحدثين للحياة الانسانية من نواحيها
المختلفة ، أو درسم لجوانب الكون ، ومحاولتهم فى تفسير ذلك وتفهمــــــــــــــــه ،
قد أوفت على أشياء ، أمست من ثقافة الأديب ، التى لا مفرد له اليوم
من اللطم بها . ومعد ذلك تأتى :

التحلية العملية : بأن نزود ثقافتنا الأدبية بما يجدى
عليها من دراسات فنية لها اليوم تقدمها :
كمعرفة قدر من أصول الموسيقى وفلسفتها ، والاتصال بالمذاهب الفنية
المحدثة فى سائر الفنون ، ومعرفة وجهات أصحابها ، وفعل الحياة بهــــــــــــــــا . .
هذا وما اليه ، مما يكمل الشخصية الأدبية المصرية ، ويجعلها جديرة
بأن ترضى ذوق المصر فى أدبها ، وتترجم عنه فى نقد هــــــــــــــــا .

ولئن كنت فى هذه التحلية المعنوية والعملية قد شارفت آفاقا ليست
من مألوف الدرس الأدبى عندنا حتى اليوم ، فلا بدع أن يكون ذلك استشرافا
لغاية سامية ، كالأغاية البطيلة التى نريد لفن القول أن يحققها .

وفى التحلية العملية الأخيرة التى يراها الأستاذ الخولى ضرورة وهامة
وهى أن نزود ثقافتنا الأدبية بما يجدى عليها من دراسات فنية لها اليوم
تقدم هــــــــــــــــا .

كنت أحب — لأهمية هذا الزاد الجديد — أن يوضح الأستاذ
رأيه بتطبيق بعض الأمثلة على الأقل ، ولا يكتفى بقوله مــــــــــــــــلا :

" كمعرفة قدر من أصول الموسيقى وفلسفتها ... " فط هو هذا القسدر
المقترح ؟ وهل للموسيقى فلسفة ؟ ... ان الذى نعرفه أن أصول الموسيقى
تتلخص عندنا فى النغمات الشرقية مثل : الرست ، والنهاوند ، والبياتى ،
والسيكة ، والدوكة ، والصبا ، الى غير ذلك من النغمات الكثيرة التى
تصل الى أكثر من ستين نغمة . فهل يريد الأستاذ أن ندرس هذه النغمات
ونحللها الى درجاتها الصوتية ومساحة كل صوت حسب النوتة الموسيقية ؟
ان ذلك يفيد الموسيقيين والمطربين لا شك ، ولكن بماذا يفيد الأدباء ؟
ولعله يقول : أنا أقصد أصول الموسيقى — عندهم — هذه المحدثين
من الغربيين . وأقول : ان أصول الموسيقى هناك تتلخص فى : السلم
الكبير (الميجير) ، والسلم الصغير (المينور) بالإضافة الى النوتة
الموسيقية التى استحدثوها وأصبحت لغة الكتابة الموسيقية فى العالم ،
وقد وضعوا لهذه النوتة خطوطا ومسافات ترمز الى درجات الصوت ، كما
وضعوا رموزا أخرى للوحدات الزمنية للصوت ، مثل : الوند ، والبلانش ،
والنوار ، وغير ذلك مما يتضح فى دراسة النوتة الموسيقية . فهل يقصد
الأستاذ الخولى شيئا من ذلك ؟ وما جدواه غير اضاءة الوقت فى تخصص
آخر غير الأدب فى الوسيلة والأداة ، وان كان يلتقى معه فى الغاية .

ولو أن الأستاذ الخولى قال : " كممارسة قدر من التدقيق الموسيقى "
لهان الأمر ووضح ، فالتدقيق للموسيقى ولأى لون من ألوان الفن لا شك
ما يساعد الأديب ويسمو بحافته وأحاسيسه .

ولكن القدماء من أعلام المدرسة الأدبية حينما قالوا : ان الأدب والموسيقى
شقيقان ، انما كانوا يقصدون ذلك والاستاذ الخولى ما زال يشير فى غير
موضع الى أهمية الذوق والتدقيق فى الفنون بعامة وفى البلاغة والأدب بخاصة .
وها هوذا يعود الى الذوق بعد هذه الجولة فى المقارنة بين القديم والحديث ،
فيحدث عنه تحت عنوان :

... وشئ ليس فى الكتاب

يقول : الآن فرغنا من عرض نتائج المقارنات ، وبيان كيفية تحقيقها ، فالمعنا

بأصول التفسير العام والخاص لبحث البلاغة ، تغييرا صير البلاغة " فن القول " لكتنا ان نمسك القلم عند هذه المرحلة نشعربأن فوق ذلك الذى قلناه كله شيئا ، هو الأساس الأول ، والعامل الأقوى ، واليه المنتهى ، وغنى المصدر ، فى ذلك التعبير كله ، وهو شئ لا سبيل الى تلقينه وتعليمه ، والتبصير بمصادره ومراجعته ، لأنه شئ ليس فى الكتب ، كما قال القدماء ، ولا هو مما يكسبه من حرم أصله ، ذلكم هو " الذوق " (١) . .

والآن وقد بسطنا فى التخليلات ما سندع ، وسينا فى التحليلات ما ستأخذ ، وأدركنا ما عليه المعتمد فى ذلك كله ، نتقدم فـسـى اطمئنان للحديث عـن :

مباحث فن القول

=====

أخيرا وبعد هذه التمهيدات الطويلة التى كان لابد منها لنعمسرف ونقدر وجهة نظر الأستاذ الخولى فى التجديد ، وكيف استنتجها وتوصل اليها . . . فدرسنا معه كلا من : صورة البلاغة ، ودائرة بحثها ، ومناهجها ، وغاياتها ، وأثر الحياة الاجتماعية والبيئات الثقافية فى كل ذلك قديما وحديثا . . . ثم قارنا بين كل ذلك قديما وحديثا ، وخرجنا من هذه المقارنات بما رآه الأستاذ الخولى من تخلية وتحلية ، وعرفنا المراد بكل منهما ، وضرب لنا الأستاذ بعض الأمثلة ، وان لم يعن بتطبيقها . .

بعد كل ذلك أصبحنا مهئين لتلقى وتفهم الخطة الجديدة التى وضعها الأستاذ الخولى لنصل الى بلاغة جديدة . . . وهذه الخطة تتلخص فى المباحث الآتية : —

- ١ — المبادئ : وهي في اصطلاح القدماء اسم لما يقدمونه بيمين يدي العلم من تعريف له ، وبيان لموضوعه ، وغايته ، ومكانه في دائرة المعارف الانسانية ، وما هو من ذلك بسبب .
- ٢ — المقدمة : وهي مقتبسات من دراسات أخرى ، تحريدها هذا الدرس ، وتنير سبيله ، ومنها : المقدمة الفنية ، والمقدمة النفسية .
- ٣ — الأبحاث : وهي لب الدرس وصميمه ، وسند يرها على اعتبارات فنية من طبيعة العمل الأدبي ، غير متقيدين بالتقسيم القديم المعروف ، ولا متدئين من بدئه ، ولا منتهين عنده ، نهايته ، على ما ستري بعد ، فنبحث الألفاظ والمعاني ، لأنها عنصر العمل الأدبي ، وسنبحث عن الكلمة ، فالجمل ، فالفقرة ، فالصور البيانية ، فالقطعة الأدبية ، فالأساليب ، وفنون النشر والشعر . . . الخ .
واليك تفصيل ذلك كله :

خطة فن القول (١)

=====

أولا : المبادئ :

=====

التعريف بقول — غايته — صلته بخيره من الدراسات — صلته

بالدراسة الأدبية : بالأدب — بالنقد الأدبي — بتاريخ الأدب •

ثانيا : المقدمات :

=====

ا — المقدمة الفنية :

=====

الفن — حقيقته — الفن بين المعارف الانسانية :

الفن والفلسفة ، الفن والعلم ، الفن والجمال ... قبسات —
علم الجمال عن بيان ، وفيم يكون ، وهم يقدر ، والآراء في ذلك
قديم وحديثا •

وفي هذه المقدمة مجال فسيح لاقتراح دراسات أخرى من مختلف
الفنون تمد الثقافة الأدبية بما يجعلها ملائمة للعصر ... وتلك خطوط
كبرى تدع تفصيلها الدقيق للتطبيق ، ثم لتفكير من يفكر •

ب — المقدمة النفسية :

=====

القوى الانسانية المختلفة : وصلة بعضها ببعض ، والآراء فيها قديما
وحديثا ، ونواحي اتصال هذه القوى المختلفة بالعمل الفني ، وتأثيرها
فيه •

وكذلك الحياة الوجدانية : مقوماتها — أغراضها — رياضتها —
صلتها بجوانب الحياة الأخرى — المواقف والمشاعر الانسانية ، وما تمد
به العمل الفني ولا سيما الأدبي ... الخ وما يتصل بذلك ، مما
أفضل ألا أتولاه أنا بالتفصيل ، وأوثر أن أتركه لمنفرغ لدرس النفس
يكتب هذه المقدمة النفسية •

ثالثا : الأبحاث :

=====

أولا = في الكلمة :

=====

ا — من حيث هي عنصر لغوي : حسن اللفظة من حيث جرسها

الصوتى — حسن الكلمة من حيث أداؤها لمعناها — أمثلة للنوعين ومبيان
الفرق بينهما — الضابط لحسن الجرس الصوتى هو حسي الأذن للأصوات —
لكل لغة ذوق صوتي خاص تنتظم أصوله قواعد الصرف — ائتلاف الكلمة
في الجملة كائتلاف الحروف في الكلمة •

الصوت والمعنى : تناسبهما — الجزالة والرقعة ، ومواضع كـل ،
وأنهما أثر ل تناسب المعنى مع الصوت — ضبط ذلك بالحس الفنى •
زيادة حسن أداء الكلام لمعناه بالرنين الصوتى وتأثيره : الجناس ،
والسجع ، التصریح ، والتصریح ، ورد المعجز على الصدر ، ولزوم — لا
يلزم ... الخ • درجة الحسن فى هذه المحسنات ومنشؤه ، واتصاله
بالمعنى دائما ، فإذا فقد ذلك الاتصال فسد •

ب — من حيث هى جزء الجملة : حسن دلالة الكلمة على معناها —
في الجملة • • وتتأثر هذه الدلالة بثلاثة أشياء :

الوضع : كما يسميه القدماء — ثم الاستعمال : وما يتركه
من أثر فى مفهومها — ثم نظم الجملة : وأثره فى هذه الدلالة •

واليك توضيح كل منها — :

- ١ — الوضع اللغوى : اعطاؤه الكلمة مادتها وصيغتها — تعيينه
معناها ، وما تصلح له من موضع فى الجملة — ليست كل كلمة ، تصلح لكل
موضع فى الجملة — نظم الجملة فى العربية وأمهاات النظرات الأدبية فيه •
- الوضع يهين للكلمة — فوق ما سبق — خصائص أدبية تؤثر فى دلالتها :
- بيان ذلك فى استعمال النكرة واستعمال المعرفة — خصائص التنكير فى
جزء الجملة — ركنها كان الجزء أو مكملها — خصائص التعريف فى جزء الجملة •
- تفاوت أنواع التعريف المختلفة فى التعيين والدلالة — الاعتبارات الأدبية
التي يؤثر بها الأديب معرفا على معرف • الضمير : أصل وضعه اللغوى
وأثره البلاغى — وضع الضمير موضع المظهر وبالعكس ، وأثر ذلك فى

الكلام — تطويع الخطاب بالمخالفة بين أنواع الضمائر :

الالتفات وأثره في الكلام .

العلم — اسم الإشارة — الاسم الموصول — المعرّف بآل — المعرّف
بالإضافة — الأصل الوضعي لكل واحد منها ، وبيان الأثر الأدبي الخاص
به في الاستعمال ، والمواطن التي يحسن فيها .

تعريف طرفي الجملة وأثره في المعنى : " القصير بالتعريف " .

الفعل والاسم ومعناها في الوضع اللغوي — الأثر الأدبي
لهذا في معنى الجملة الاسمية والجملة الفعلية — وضع احدهما
صيغ الفعل مكان الأخرى ، كالنفي مكان المضارعة ، وأثر ذلك في المعنى .
أضرب من مخالفة الوضع اللغوي : كالتوسع ، والتقليب ، والتعبيير
عن المثنى بالواحد . وما إلى هذا ، وأثره في المعنى .

٢ — الاستعمال : الظواهر الاجتماعية المفسرة لأحواله ، نصيب الكلمات

منه .

تغيير الاستعمال قلة وكثرة ، وتأثير ذلك في دلالة الكلمة ووضعها .
قلّة حظ الكلمة من الاستعمال تضعف دلالتها على معناها
فتصير غريبة ، أمثلة لذلك ، اختلاف القرابة باختلاف العصر وأمثلة
لذلك ، ضبط معنى القرابة باعتبار أدبي ، مراعاة حاجات الحياة
الأدبية وظروفها عند الحكم بالقرابة .

كثرة الاستعمال الأدبي لبعض أوضاع الكلمة تجعلها أفضل من أوضاعها
الأخرى : أمثلة لحسن استعمال الصيغ الفعلية من مادة ، دون الصيغ الاسمية
والعكس — فضل بعض صيغ الأفعال على بعض — حسن استعمال المفرد دون
الجمع والعكس ، أمثلة لذلك ، وبيان سببه .

الاستعمال : يوسع بمعونة القرائن دلالة بعض الكلمات ، أمثلة لذلك

فيما يلي :

أدوات الاستفهام : وما قد تؤديه من المعاني وراء طلب الفهم ، تذوق الأمثلة

- المؤيدة لذلك ، وتقدير أثرها فى المعنى .
- أدوات النداء : وما قد تجديه من المعانى وراء طلب الاقبال ، تذوق
 الأمثلة المؤيدة لذلك ، وتقدير أثره فى المعنى .
- أدوات النهى : وما قد تجديه من المعانى وراء طلب الترك ، تذوق
 الأمثلة المؤيدة لذلك ، وتقدير أثره فى المعنى .
- الاستعمال : يوسع بمعونة القرائن دلالة الصيغ ، أمثلة ذلك فى
 صيغة الأمر ، وما قد تحتله من المعانى وراء طلب الفعل . . . صيغ
 الاخبار ، وصيغ الانشاء ، ودلالة احداهما على الأخرى ، وأثر تبادلهما
 فى الاستعمال ، وأمثلة ذلك .
- اختصاص : بيئة من البيئات باستعمال كلمة ، يعطيها عند هذه
 البيئة دلالة غير دلالتها اللغوية الأولى ، أثر العرف والاصطلاح فى ذلك ،
 وأمثلة لما يزدانه فى دلالة الكلمة ، الاستعانة بذلك على توسيع اللغات
 للوفاء بحاجة العلوم والفنون والأعمال ، وحاجات الحياة المختلفة للجماعة .
- الاكثار من استعمال الكلمة : يمكنها من أداء معنى أوسع ، هو من
 معناها الأول بسبب ، وهذا هو التجوز اللغوى — النظر فى سعة اللقبة
 بالمجاز ، والفرق بين المجاز اللغوى والمجاز الأدبى — الصلات بين
 المعانى هى التى تساعد على هذا الأثر للاستعمال (وهى " العلاقة "
 فى قولهم) — أثر الاستعمال المجازى فى الدلالة ، وقيمه الأدبية .
- أثر المركز الاجتماعى للبيئة المستعملة للكلمة عليها : رفعة وضمة ،
 وكرامة وابتدالا — أمثلة لذلك — اختلافه باختلاف العصر فى الكلمة
 الواحدة الانتفاع بهذا فى الفن القولى — اللغة اليومية ولغة الأدب : الفرق
 بينهما — أثر الاستعمال فى قوة الكلمة وفطورها ، وعمقها وسطحياتها — الحال
 النفسية للفرد والجماعة ، متكلمين ومخاطبين — وأثرها فى مدلول الكلمات
 حسن الانتفاع بذلك فى الفنون الأدبية .

٣ — النظم أو تأليف الجممل :

بعض مواضع الكلمة فى الجملة واجب نحويا ، وبعضها جائز يمكن تغييره •
أمثلة ذلك — الأحوال الواجبة لا بحث للفن فيها الا من حيث تكشف
خصائص اللغة العامة — أحوال الكلمة الجائزة فى الجملة هى موضع البحث
البلاغى يفاضل بينها — ليس كل ما جاز نحويا كان بليفا ، أمثلة ذلك —
يفسر ايثار الأديب حالا من أحوال الكلمة فى الجملة على حال أخرى فيما يلى :

التقديم والتأخير : الجائزان ، وما تتأثر به دلالة الكلمة اذا
قدمت فى الجملة ، وما تتأثر به دلالتها حين تؤخر — التخصيص بالتقديم •
والقصر بالتقديم ، والفرق بينهما •

الحذف والذكر : الجائزان ، وما تتأثر به دلالة الكلمة حين
تذكر وقد أمكن حذفها أو العكس — رجوع الحذف والذكر حينما الى نفسية
المتكلم ، وحينما الى نفسية السامع ، وأنا للموضوع الفنى المتناول ، أمثلة
لذلك •

يكون جزء الجملة جملة ، ولذلك أثره فى المعنى — تتقابل معانى
أجزاء الجملة أو الجمل ، فيكون لذلك أثر فى حسن الكلام (وهو الطباق) •

ثانيا — فى الجملة :

=====

ربط جزأى الجملة بالاسناد — استناد الشئ لغير من صهر منه (المجاز
العقلى) — ما يراعى فى ذلك من الاعتبارات الأدبية ، وأثره فى المعنى —
بعد هذا الاسناد عن الجوالدينى الذى أحيط به عند القدماء •

يدخل المؤكد على الجملة كلها ، ولهذا أثر يفتقر عند ادخاله
على جزء منها — الاعتبارات الحقيقية لتوكيد الجملة •

يكون توكيد المعنى بغير المؤكد الحرفى : كالاقتسام فى الكلام ، والقول
بالموجب ، والتعليق ... الخ

القصر بالأدوات : (انما ، ما و الا) وأثره فى توكيد الجملة
الاعتبارات الأدبية التى تلاحظ عند استعمال كل أداة وشاهد ذلك •

ادخال أدوات الشرط : على الجملة وأثره — ما يلاحظ —
الاعتبارات الأدبية فى استعمال كل أداة من أدوات الشرط •
إيجاز الجملة وإطنابها : وما يضبط ذلك أدبيا — أسباب ذلك —
أنواع الإيجاز فى الجملة ، وأنواع الإطناب فيها •

ثالثا = فى الفقرة :

=====

الترقيم اللفظى لجمال الفقرة (الفصل والوصل) ، الضوابط الفنية
لذلك •

إيجاز الفقرة وإطنابها : مقتضياته — وضابطه •
الفترة فى العمل الأدبى جزء من صورة متناسقة فنية الخلق •

رابعا = فى صور التعبير :

=====

(أ) اختلاف صور التعبير يحدث تأثيرا وقوة ، بيان ذلك والدلالة على
التأثير والقوة فى الأمثلة المسوقة — قوة الإبانة تكون بالإيضاح المعلن ،
أو بالتظليل المؤثر — إيضاح ذلك بالأمثلة ، وبيان ناحية القوة فى
أمثلة الصنفين — اختيار كل صنف لمقامه المناسب يختلف باختلاف
الموضوع ، وحال المتكلم ، وحال السامع ، من حيث الاعتبارات الفنية —
تكون صورة التعبير من جملة واحدة ، وقد تكون بفقرة من عدة جمل •
أمثلة ذلك •

(ب) صور الإيضاح المعلن :

التشبيه : العمل الفنى فيه — الأثر الأدبى له — أغراضه •
أنواعه ، وما يتحقق من الأثر فى كل نوع — الشواهد الأدبية الكافية
لذلك كله •

خامسا — فى القطعة الأدبية :

=====

- (ا) — عناصر العمل الأدبى : الآراء فى ذلك — ايثار القول الفنى منها •
علاقة ما بين اللفظ والمعنى فى العمل الأدبى • مع الاشارة الى
ما تقدم كالتناسب • وما وراء ذلك مما يلحظ من هذه العلاقة •

ب) — الصناعة المعنوية (مباحث المعانى الأدبية) :

- خصائص المعانى الأدبية المميزة لها عن غيرها من المعانى — مصادر
ايجاد المعانى الأدبية • وطرائق هذا اليجاد تفصيلا — الأدب
والثقافة العامة والخاصة — الرياضة الأدبية وطرقها قديما وحديثا فى
تفصيل — ترتيب المعانى الأدبية — العوامل الأدبية والنفسيية
فى ذلك واختلافها فى المتفنيين • وأثرها فى فهمهم — عرض
المعانى الأدبية واخراجها • واختلاف الأدباء فى ذلك وأثره •

ج) — الفنون الأدبية المختلفة :

- أقسام العمل الأدبى قديما وحديثا • واختيار الفنى من التقسيمات
خصائص الشعر : فى عباراته • ومعانيه • وموضوعاته •
وخصائص كل فن من فنونه •
خصائص النثر : فى عباراته • ومعانيه • وموضوعاته • وخصائص
كل فن من فنونه •

سادسا : فى الأساليب :

=====

- الأساليب الفنية فى الأدب وما سواه من الفنون • دلالتها على شخصية
المتفنن — الاعتبارات النفسية والأدبية التى يقوم بها تميز الأسلوب •

الأساليب الأدبية : من حيث هي طراز في الإخراج والعرض تميز عمل الأديب ،
مثل الأسلوب الرمزي ، والفكاهي ، والتهكمي ، في عمل أدبي كالمسرح -
مقومات مثل هذا الصنيع ، ومميزاته ، مع الإشارة إلى الروائع الفنية من كسـل
طراز .

=====

وأخيرا .. ومع هذا العرض المستفيض يقول الأستاذ الخولي :
تلك هي خطة فن القول ، وتنسيق بحوثه ، لا نقول انه ~~سـبـا~~
في صورتها الأخيرة ، بل نقول انها تخطيط لمحاولة ، نأمل أن تظل
أبد الدهر - لو أمكن ذلك - رهن التخيير والتعديل ، وهدف التجديد
والتحسين . يضيف اليها ، ويحذف منها ، وينسقها ، من تهـمـمـات
له القدرة الصادقة على ذلك ، وكانت له فيه بصيرة خبيرة ، ليظل هـمـذا
الدروس من الفن القولي صدى لحياة أهله ، وسبيلا لتحقيق غاياتهم في الحياة
الوجدانية الراقية .

فن القول في المـهـزـان

=====

حينما نريد أن نتكلم عن " فن القول " للأستاذ الخولي .. فلا بد
أن نرجع البصر سريعا إلى كتاب " الأسلوب " للأستاذ الشايب .. فهـمـا
الكتابان اللذان تجرأ كل منهما ووضع منهما جديدا متكاملا للبلاغة .
ومنظرة فاحصة نجد أن العلاقة بين الكتابين شديدة ، والأفكار متشابهة ،
فالأستاذ الشايب متأثر بدعوة الأستاذ الخولي ومحاضراته في تجديد البلاغة -
وقد سبق وقلنا رأينا في كتاب الأسلوب ، وأن الفصل الأخير منه عن الأسـلـوب
هو الذي يمكن الاستفادة به في تجديد البلاغة .

أما كتاب " فن القول " فإنه مليء بالارشادات والتوجيهات والتحليلات والمقارنات التي يحتاج إليها من يتصدى لتجديد البلاغة . . وقد سـرد الأستاذ الخولي في آخر كتابه خطة مجملّة وفصّلة لتصوره الذي استقر عليه في تجديد البلاغة . . وهذه الصورة التي استقر عليها ليست هي الصورة الأخيرة للبلاغة أو فن القول — كما يقول — وإنما هي تخطيط لمحاولـة يود أن تظل أبد الدهر — لو أمكن — رهن التغيير والتبديل والاضافة والتحسين من تهيأت لهم القدرة الصادقة على ذلك .

والواقع أن هذه الخطة تحتاج الى لجنة كبيرة من كبار المتخصصين لتطبيقها والافادة منها وتعديل ما يستحق التعديل فيها . فقد تتصل الأستاذ الخولي من مهمة التطبيق ، وتركها لمن يأتي بعده من المهتمين بشئون البلاغة . فالمقدمة الفنية — مثلاً — وضع خطوطها ، وترك تطبيقها لتفكير من يفكر (١) ، والمقدمة النفسية — كذلك — أشرأن يتركها لمفكر لدرس النفس يدرس علم النفس ، وقال : ولي من الثقة بمعونة أصحاب الدراسة النفسية ما يطمئنتني على تحقيق هذا الرجاء (٢) .

ويقول في آخر الكتاب : (وكنت همت بأن أفرد كتاباً مستقلاً من كتب هذا المؤلف ، بباب من الأبواب الكبار في هذا الدرس ، كباب الفصل والوصل ، وقد أشار القدماء بأهميته ، ودعاه التجديد باب ترقيم الجمل في الفقرة ، والفقرة في القطعة ، فأتولاه ببيان مفصل ، عن التخلية فيه ، والاستغناء عما لا يجدى ، ثم التحلية له والاكمال بما يحقق الغاية . . لكن ربي أخيراً الاكتفاء بما سبق من بيان وتمثيل وهدى ، يصح أن يترك الدارسون بعده ليجربوا قواهم في ذلك التفسير . . الخ (٣))

١ — انظر ص ٢١٦ فن القول .

٢ — انظر المرجح السابق .

٣ — انظر ص ٢٢٤ فن القول .

ونحن — بفضل الله وقوته — سنحاول في المستقبل القريب —
ان شاء الله — أن نساهم في تطبيق هذا المنهج . . . أو جزء منه .
حسب ما يتاح لنا . فان هذا المنهج على جدته وطرافته منهج نظري
قاصر ، وحتاج كثير من مباحثه الى الايضاح والتطبيق ، حتى لكأن الخطة
فهرس لعناوين كلية وجزئية . . . ان هذا المنهج على قصوره واقتصاره على
الناحية النظرية جدير بالعناية والتطبيق ، وهو على أي حال خير من بقاء
البلاغة على وضعها الحالي ، ولن نخسر علوم البلاغة الثلاثة كثيرا بالغاء
اسمها وتقسيمها مادامت داخلية بطريقة أو بأخرى في مباحث المنهج الجديد .

وانذا ما كان لنا من رأى فهو أن هذه المباحث تحتاج الى اختصار وتركيز
فهى عند التطبيق — فيما يبدو — طويلة وكثيرة على دارس البلاغة .

كما أن الاحتفاظ باسم (البلاغة) كعلم على هذا العلم الجليل
وفنه أمر هام . . . ولا يمكن أن يقوم عنوان " فن القول " مقامها . . . وان صلح
تعريفها . خاصة وأن هذا العنوان يصلح عنوانا لدراسة الأدب كذلك .

هذا والأستاذ الشايب هو أيضا — كما أوضحنا من قبل — كان قد
اقترح أن يبدل اسم البلاغة بالأسلوب ، وقلنا هناك ان كلمة الأسلوب تصلح
كذلك لأكثر من موضوع ، فلكل علم أسلوبه ، ولكل فن أسلوبه .

أما كلمة البلاغة فما زال لها رونقها وبريقها واختصاصها بهذا الفن
وحده دون سواه .

وأخيرا أقول : ان كتاب " فن القول " له وزنه وقيمته فى مجال تجديد
البلاغة ، وما ورد فيه من خطة ومنهج يجب أن يوضع موضع الاعتبار لصالح
بلاغتنا الحبيبة ، حيث لم نجد حتى الآن من تقدم ووضع خطة أفضل . . . وقد
يظهر فى المستقبل القريب أو البعيد من يستطيع تعديل هذه الخطة أو يأتي
بأفضل منها . . . ولكن حتى ذلك الحين يجب أن نهتم بخطة " فن القول "
ونسـتفيد منها .

الفصل الثالث

=====

المنهج المدرسى الحديث

فى البلاغفة

=====

البلاغة فى مدارسنا

=====

جرت محاولات عديدة لاهياء دراسة البلاغة فى المدارس الثانوية ، والنهوض
بهذه المادة الهامة من مواد اللغة العربية . فوضعت مناهج جديدة •
وألفت كتب جديدة لهذا الغرض •

ولا شك أن المناهج والكتب الجديدة فى مادة البلاغة أفضل من القديم
الذى لم تعد تستضيفه عقول الجيل الجديد وأدواقهم ، فهى خطوة أو خطوات
على طريق تجديد البلاغة والنهوض بها ، بعد الخطوة الأولى التى بدأ بها
كتاب البلاغة الواضحة كما أوضحنا ذلك من قبل •

ولكن الى أى مدى من التجديد وصلت هذه المناهج المدرسية
للبلغة وكتبها ؟ وهل استطاعت أن تصل الى عقول الدارسين وتؤثر فى
أدواقهم ؟ هذا ما نحاول الاجابة عنه فى هذا الفصل من البحث •

ومن أجل ذلك فاننا نستعرض هنا أحدث منهج للبلاغة وضع سنة
١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ضمن مناهج التعليم للمرحلة الثانوية (١) بالملكة
العربية السعودية ، وقام بوضعه ادارة المناهج والبحوث بوزارة المعارف والرئاسة
العامة لتعليم البنات •

وغايتنا من ذلك تقييم عملية تطوير البلاغة فى موقعها العملى حيث تدرس
للجيل الجديد نظريا وتطبيقيا وأثر ذلك فى أجيالنا وحياتنا الثقافية •

ونحب أن نقول في بادئ الأمر أن هذه الجهود في ترقية
درس البلاغة وتطويره جهود مشكورة • أصابها التوفيق أو جانبها •
وصادفها الصواب أو أخطأها • فما زالت البلاغة في حاجة إلى مثل
هذه الجهود المشكورة من اللجان التعليمية والعلماء المتخصصين •

=====

منهج النقد والبلاغة للمرحلة الثانوية

=====

وفي مقدمة هذا المنهج نجد أهدافا وتوجيهات نعرض صورة منها :
أ- الغاية من تدريس البلاغة والنقد :-

=====

- ١ - إعداد الطالب على وجه يمكنه من الوقوف على أسرار الإعجاز في القرآن الكريم وإدراك جماله .
- ٢ - إقداره على تذوق جمال الحديث النبوي والجيد من كلام العرب شعرا ونثرا .
- ٣ - تعريف الطالب بصفات الأسلوب العربي الجميل وتدريبهم على الاستفادة منها في تكوين تعبيرهم .
- ٤ - تنمية الذوق الفني لدى الطلاب وتمكينهم من الاستمتاع بما يقرءون من الآثار الأدبية الجميلة .
- ٥ - إدراك الخصائص الفنية للنص الأدبي ومعرفة ما يدل عليه من نفسه الأديب ، وما يتركه من أثر نفسي نفس السامع أو القارئ ، وتكوين النص تقويما فنيا .
- ٦ - تكوين طلبة النقد بالتمعرف على مواطن القوة أو الضعف في النصوص الأدبية .

ب- ولتحقيق هذه الأهداف تعتمد الوسائل والتوجيهات الآتية :-

=====

- ١ - الاعتماد في تدريس هذه المادة على الاكثار من ايراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية واختيار النصوص الأدبية البليغة الجميلة .
- ٢ - يتوخى في النصوص والشواهد الأدبية أن تكون هادفة نافعة متفقة مع أهداف التربية التي ترعى الدين والخلق .

٣ — تجلية الصورة البليانية بذكر نواحي الجمال فيها وتأثيرها في النفس
وعدم الاقتصار على ذكر التسميات الاصطلاحية كاجراء الاستعارة بالطريقة
المعهودة .

٤ — استنباط القواعد البلاغية والتعريفات بالاعتماد على مناقشة النصوص وتذوقها
وعدم الاقتصار على سردها وتقريرها .

٥ — يراعى في تقويم النص والحكم عليه الوضوح والدقة ، وتتجنب المبهارات
العامة التقليدية التي تصلح لكل نص .

٦ — الاكثار من التطبيقات على نصوص جميلة ، ووجوب اشراك الطلبة في
الكشف عن أسرار الجمال وتذوق النص . ويجب أن تصدر أحكامهم
النقدية معتمدة على دواستهم للنص الأدبي نفسه للتأكد من نمو
قدرة نقدية وتمكنهم من مادة البلاغة .

٧ — الحرص على تدريب الطالب دوما على صياغة الكلام الجيد تطبيقا
ليما يدرسه من فنون البلاغة وأساليبها .

٨ — يستعان على ايضاح موضوعات هذه المادة بالكتابات المشرقة المناسبة
والأمثلة التحليلية الجميلة التي يوردها أئمة هذا العلم من أمثال
عبد القاهر الجرجاني والآمدي .

وبالتأمل والنظر نجد أنها توجيهات قيمة سديدة ولكن هل يوجد المدرس
الكافي من المدرسين الأكفاء الذين يستطيعون أن ينفذوا هذه التوجيهات
كما يجب وكما ينبغي .

المنهج

=====

١ — نماذج من الكلام البليغ يعرف الطالب من خلالها تعريفا اجماليا
بالبلاغة وعلومها وأهميتها ووظيفتها في ايضاح الفكرة وبرزها
في ثوب جميل .

٢ — كلمة موجزة عن الفصاحة والبلاغة .

٣ — علم البيان : ويدرس منه في الصف الأول :

أ — التشبيه :

تعريفه — أركانه (استيفاءها أو نقص بعضها) .

أنواعه — التشبيه البليغ — التشبيه التمثيلي — التشبيه

الضمني — التشبيه القلوب .

أغراضه — كلمة عن جمال التشبيه وقيمه البيانية — عرض نماذج

من التشبيهات الجيدة والمعيبة والموازنة بينهما .

ب — كلمة موجزة عن الحقيقة والمجاز .

ج — الاستعارة :

تعريفها — الاستعارة التصريحية — الاستعارة المكنية — كلمة

عن جمال الاستعارة وقيمتها الفنية — عرض نماذج عن الاستعارات

الجميلة والردئة والموازنة بينها .

ويدرس من علم البيان للصف الثاني :

الاستعارة التمثيلية — المجاز المرسل ، ويقتصر على أشهر علاقاته .

د — الكناية :

تعريفها — أنواعها — الكناية عن الصفة — الكناية عن الموصوف

الكناية عن النسبة — عرض نماذج من الكنايات المأثورة والمستعملة

غير المأثورة .

ج - الموازنة بين نماذج جيدة منها وأخرى رديئة .

ويدرس من البديع للصف الثاني :
حسن التعليل - أسلوب الحكيم - الاقتباس - تأكيد المدح بما
يشبه الذم .

٦ - النقد : ويدرس منه للصف الثاني :

١ - عرض موجز لتاريخ النقد والبلاغة يشتمل على ما يأتي :
معنى النقد ووظيفة كل من النقد والبلاغة والترابط بينهما
وتداخل مباحثه مع مباحث البلاغة - بذور النقد والملاحظات
البلاغية في الجاهلية وصدور الاسلام - أثر القرآن الكريم في
تغيير مفاهيم العرب الفنية واحداث طريقة جديدة في التمييز
متأثرة بالبيان القرآني - بيان أن علوم البلاغة نشأت للكشف
عن اعجاز القرآن الكريم - نمو البلاغة والنقد وازدهارهما -
تأثير النقد العربي بمباحث النقد الغربي في العصر الحديث .
ب - نماذج من أمهات كتب البلاغة والنقد العربية تتماشى مع العرض
التاريخي السابق تتخذ أساساً لدراسة تدقيقية توضح منهج العرب
قديمًا وحديثًا في النقد الأدبي .

ويدرس منه في الصف الثالث :

تعريف النقد - وظيفته وغايته .

فنون الأدب :

١ - الشعر : طبيعته - أنواعه - عناصره - بنيته

القصيدة العربية .

٢ - النثر : الفرق بينه وبين الشعر - أنواعه :

المقال - الخطابة - المحاضرة والحديث الاذاعي -

القصة - المسرحية .

تذوق النص الأدبي .

=====

المنهج المدرسى فى الميــــزان :-

=====

وبالتأمل والنظر نجد أنه لا جديد فى هذا المنهج الا دراسة النقد وما يتبعه من فنون الأدب الحديثة من مقال وقصة .. الخ . أما باقى المنهج الخاص بالبلاغة فهو يسير على الطريقة القديمة من تقسيم البلاغة الى علومها الثلاثة ، غير أنه درس هذه العلوم فى ايجاز ، وغنى بوضع أمثلة جديدة فى الكتاب ، واستعمل الطريقة الاستنباطية فى تحصيل القواعد .

أما الأسلوب — مع أهميته — فقد أشارت اليه التوجيهات ، ولكن المنهج أغفله . وقد رأيت فى كتاب " الأساس فى النقد والبلاغة " للصف الثانى الثانوى (١) فصلا عن الأسلوب وعناصره ، وقد اختفى هذا الفصل من الكتب التى استحدثت بعد ذلك .

أما كتاب النقد والبلاغة لمعاهد اعداد المعلمين فهو قريب من هذا المنهج الا أنه اختصر اختصارا مخرلا بحيث لا يفيد طلاب المعلمين مع أنهم أولى بالتمق فى دراسة البلاغة وأحرى باجادتها وإتقانها .

وغاية القول إن منهج البلاغة فى المدارس الثانوية ودور المعلمين منهج قديم وان وضع حديثا وتناولته يد التنسيق والتشذيب وهو لا ولم يحقق الغرض الذى نصبوا اليه من تخريج جيل يتذوق البلاغة ويحبها . ولعل من أسباب فشله أن الشرح والتحليل فى كل درس لم يستطع أن يبين وجه الجمال البيانى وأن يوصله الى القلوب قبل العقول . كما أن الوقت المخصص لمادة البلاغة لا يكفى مطلقا ولا يعطى فرصة لبسط موضوعات المنهج واعطائها حقها من الشرح والتطبيق فالوقت المخصص للبلاغة فى الصف الأول الثانوى

١ — طبعت وزارة المعارف السعودية هذا الكتاب سنة ١٣٨٦ هـ ط ٣

وقررت تدريسه فى المدارس الثانوية .

حصة واحدة فقط في الأسبوع وحصة لكل من الصف الثاني أدبي والثالث أدبي . ولا نصيب للقسم العلمي في الصفين الأخيرين مع أنه الأكثر عددا . .

هذا إلى أن كثيرا من أساتذة اللغة العربية في وزارة المعارف — وخاصة حديثي التخرج — لا يجيدون تدريس البلاغة ولا يتدققونها وبالتالى لا يستطيعون اقناع الطلاب بها .

ولكل هذه الأسباب فإن المطية التعليمية للبلاغة العربية في مدارسنا قد فشلت . وعلى المتخصصين والمهتمين بشئون البلاغة ألا يغفلوا هذه الأسباب وهم بصدد تجديد البلاغة والنهوض بها . والله الموفق .

=====

الفصل الرابع

=====

رأى جديد في تدرييس البلاغة

=====

لاح لى بعد كثرة ما قرأت واطلعت على بحوث ومناهج وآراء فى تجديد تدريس
البلاغة أن هناك رأيا لم يطرح بعد ، وأن درس البلاغة اليوم فى حاجة
الى علاج سريع يخرج به من نطاق السكاكى والقزوينى ، ويساعد الدارسين
على استيعاب البلاغة فنا وعلم ، ويقنعهم بها ، ويشعرهم بجمالها .

فالدارسون اليوم لا يستفيدون من درس البلاغة ، ولا يستقر فى أذهانهم
منها الا أخلاط من التعريفات والتخرجات والمحتجزات وردى الأمثلة
ثم كثير من التقسيمات والتفريعات والتفانى والجدل . وهكذا يتخرجون
وفى ذاكرتهم صورة مشوهة عن البلاغة .

ومادة هذا شأنها ، وتلك حالها ، أنى لها أن تروق وتزدهر ؟
وكيف لها أن تمتد ظلالها عبر العصور وهى من الأهمية بمكان عظيم ؟ وأين
الخلف الذى يحمل عن السلف رسالة البلاغة الى الأجيال القادمة ؟

وانا كان هذا الخلف لا يستسيغ دروس البلاغة ولا مناهجها ، أفنتركهم
فى ضلالهم يعمهون ؟ أم أقدم لهم علاجا سريعا مؤقتا حتى يستقروا ولو
الامر على منهج جديد وخطة سديدة للبلاغة العربية ؟

ولقد أمنت النظر فيما يفعلون بدرس البلاغة . فوجدتهم يعلمون الطالب
أول ما يعلمونه — الفصاحة بأنها خلو اللفظ من تناقض الحروف والغرابية
ومخالفة القياس ويضربون لكل منها أمثلة ركيكة تصيب النفس بالضيق والكدر .

وقلت لنفسي : أهذا هو أول ما ينطبع فى ذهن الطالب عن الفصاحة
وبلاغة ؟ وتساءلت : لماذا يعرف القدماء الفصاحة تعريفا سلبيا فيقولون
هى خلو اللفظ من ... ويتركون التعريف الايجابى فلا يذكر عن شئ . أما
كان التعريف الايجابى للفصاحة أولى وأجمل وأوقع فى النفس من التعريف السلبى ؟

ان التعريف السلبى للفصاحة قد أدى بالقدماء الى استعمال أمثلة فى
غاية السوء والرداءة يفاجأ بها الطالب فى أول درس البلاغة فتترك فى ذهنه

انطباط سيئا ما كان أغنانا عنه لو أنهم لجأوا الى التعريف الايجابى .
فهذا هو الخطيب القزوينى فى كتابه الايضاح — وهو الذى تدور حوله دراسة
البلاغة حتى اليوم — يبدأ بمقدمة فى الكشف عن معنى فصاحة والبلاغة
ثم يقول : (أما فصاحة المفرد فهى خلوصه من تنافر الحروف والخرابة ومخالفة
القياس اللغوى . فالمتنافر : منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية فى الثقل
على اللسان وعسر النطق بها كما روى أن أعرابيا سئل عن ناقته فقال : تركتها
ترعى الهمخ ، ومنه ما هو دون ذلك كلفظ مستشزرات فى قول امرئ القيس :
غدائره مستشزرات الى المـ — (١)

ويذهب القزوينى بعد ذلك يتحدث عن الخرابية فيقول : (والخرابية
أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج فى معرفتها الى من ينقر عنها
فى كتب اللغة البسطة كما روى عيسى بن عمر النحوى أنه سقط عن حمـ
فاجتمع عليه الناس فقال : ما لكم تكأتم على تكأكم على ذى جنة افرقعوا
عنى أى اجتمعتم تنحوا ، أو يخرج لها وجه بعيد كما فى قول المعجـ :
وفاحما ومرسنا مسرجا

(٢) فانه لم يعرف ما أراد بقوله مسرجا حتى اختلف فى تخريجـ (٣)

ثم يعرف القزوينى فصاحة الكلام تعريفا سلبيا أيضا فيقول :
(وأما فصاحة الكلام فهى خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد
مع فصاحتها . فالضعف كما فى قولنا : ضرب غلامه زيدا فان رجـ
الضمير الى المفعول المتأخر لفظا ممتنع عند الجمهور لثلاث يلزم رجوعه الى ما هو
متأخر لفظا ورتبة وقيل يجوز لقول الشاعر :
جزى ربه عنى عدى بن حاتم جزاء الكلاب الماويات وقد فعل

١ — الايضاح ص ٤ .

٢ — المرجع السابق .

وأجيب عنه بأن الضمير لمصدر جزى أى رب الجزاء كما فى قوله تعالى :
 " اعدلوا هو أقرب للتقوى " أى العدل .

والتنافر : منه ما تكون الكلمات بسببه متناهية فى الثقل على اللسان
 وعسر النطق بها كما فى البيت الذى أنشده الجاحظ :

وقبر حرب بمكان قفر — وليس قرب قبر حرب قبر

ومنه ما دون ذلك كما فى قول أبى تمام :
 كريم متى ما أمده أمده والورى — معى وإذا ألمته لمته وحدى

فان فى قوله أمده نقلا ما لم بين الحاء والهاء من تنافر .

والتعقيد : أن لا يكون الكلام ظاهرا للدلالة على المراد به . ولـ
 سببان :

أحدهما ما يرجع الى التعقيد اللفظى كقول الفرزدق :

وما مثله فى الناس الا ملكا — أبوامه حى أبوه يقاربه
 كان حقه أن يقول : وما مثله فى الناس حى يقاربه الا ملك أبوامه أبوه (١)
 وهكذا نجد القزوينى يعد بنا عن الفصاحة الى ضدها ، ويدل أن يحدثنا
 فى البداية عن جمال الفصاحة وأثرها فى النفس ويضرب لذلك أمثلة
 مضيئة مشرقة يحدثنا عن أضداد الفصاحة من التنافر والغرابة والتعقيد
 ويضرب لها — بالطبع — أمثلة معتمدة موحشة .

هذا ولم أجد من مؤلفى كتب البلاغة من لجأ الى التعريف الايجابى
 الا اثنين ، أولهما : الأستاذان على الجارم ومصطفى أمين فى كتابهما
 (البلاغة الواضحة) فقد عفا الكلام الفصيح بأنه : ما كان واضح المعنى ،

سهل اللفظ • جيد السبك • ولهذا وجب أن تكون كل كلمة فيه جارية
على القياس الصرفي • بيّنة في معناها • مفهومة عذبة سليمة •

ولكنهم لم يأتوا بأمثلة وشواهد على ذلك التعريف الايجابى بل عادا بعد
ذلك الى التعريف السلبى وأمثله • (١)

وثانيهم : الدكتور العطارى فى كتابه (البيان) فقد رأى أن الفصاحة
تتحقق بثلاثة أمور : الوضوح والصواب والخفة •

أما الوضوح : فهو الصفة الأولى التى يتحقق بها البيان •
فاللفظ الغريب الحوشى • والمعبارة المعقدة الكثرة • بعيدان كل البعد
عن البلاغة • ولذلك اشترط علماء البلاغة فى فصاحة الكلمة أن تكون مألوفة
كثيرة الدوران على الألسنة • وقوله : أن تكون الكلمة مألوفة كثيرة
الدوران على الألسنة تعريف ايجابى يقابل خلو الكلمة من الغرابة • وفسى
فصاحة الكلام تحدث عن التعقيد اللفظى والمعنوى ولكنه أتى بأمثلة للكلام
الجيد الخالص من التعقيد مثل :

قول شوقي : المحسنون هم اللبالب وسائر الناس النفايسة
وقول المتنبي : من يهن يسهل الهوان عليه • ما جرح بميت ايلام
ومن النثر قول الحجاج بن يوسف : (اللهم أرنى الهدى هدى فأتبعمه •
وأرنى الفى غيا فأجتنبه • ولا تكلنى الى نفسى فأضل ضالا بعيدا ••)

ومن الاستعارات الجميلة قول الحجاج أيضا : (انى لأرى رؤوسا
قد أينعت وحان قطافها • وانى لصاحبها •) وقول الشاعر :
نرقع دنيانا بتمزيق ديننا • فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

أما الصواب : فبأن تكون الكلمة جارية على نظام تأليف الكلمات العربية ، ويعبر عنها علماء البلاغة بالألا تكون مخالفة للقياس .
فالصواب عنده تعريف ايجابى مقابل للتعريف السلبي وهو عدم مخالفة القياس .

وكما يشترط الوضوح والصواب فى الكلمة كذلك يشترط كل منهما فى التراكيب .
وليس الصواب وحده كافيا فى تحقيق البيان الجيد ، بل لابد من أمور
تضاف الى الصواب والى الوضوح . من تلك الأمور :
أولا : خفة الكلمة فى النطق ، وخفة التركيب .
ثانيا : تناسب الألفاظ مع المعانى .
ثالثا : جمال المعانى (١) .

هذا ما وجدته من التعريف الايجابى للفصاحة والكلام الجيد . والأمر
بعد ذلك يحتاج الى نظر جديد ورأى سديد .
وقد عرضت - فيما عرضت - فى هذا البحث لعناصر الأسلوب الثلاثة :
الوضوح - القوة - الجمال - ذكرها كتاب البلاغة الواضحة فى ايجاز واقتضاب
وذكرها كتاب الأسلوب فى اسهاب واطناب ، وهذه العناصر الثلاثة
(الوضوح - القوة - الجمال) أرى أن تكون الأساس الجديد فى درس
البلاغة بوجه عام ، على أن نسلک لبها الطريقة الكلية ، فنبدأ من الكل
وننتهى بالجزء . أى نبدأ من النص كله ، ثم نترج الى فقراته ، ثم
الى عباراته وجملته ، ثم الى الكلمة . وكل خطوة من هذه الخطوات تطبق
فيها العناصر الثلاثة (الوضوح - القوة - الجمال) .

وسواء كان النص شعرا أو نثرا فاننا يجب أن ننظر اليه فى أول الأمر
على أنه جسم واحد وكيان متحد .

ثم نطبق عليه العناصر الثلاثة :

الوضوح : والمراد به هنا أن تكون الكلمات والمعارات جارية في سهولة
وجلاء ، حتى تكون ثوبا شفافا للمعنى المقصود ، دون أن تكون
مثارا للظنون ، ومجالا للتوجيه والتأويل . ويستثنى من هذا بالطبع
الأدب الرمزي حيث يجنح الى الغموض والاختفاء . (١)
والوضوح وحده هو صفة الكلام العادي ، فاذا ما انضمت اليه
القوة صار فصيحاً .

القوة : والمراد بها هنا رصانة الحجّة ، وقوة الرأي ، والسيطرة ، والاقناع
وجذب انتباه القارئ أو السامع ، واستقطاب تفكيره بحيث يهتم
بالنص ويدع ما عداه مدة قراءته أو سماعه على الأقل .
فاذا لم يستطع النص أن يؤثر هذا التأثير فقد انتفت عنه صفة
القوة وان توفرت له صفة الوضوح .
والصواب شرط أساسي في قوة الكلام ومظهر من مظاهرها وهو أن يكون أسلوب
النص موافقا لقواعد النحو والصرف غير مخالف للسمع والقياس .

الجمال : والمراد به هنا سطوع البيان ، وإشراق الديباجة ، وسلامة
الذوق في الصياغة والتركيب ، وروعة التأثير في التصوير والتعبير ،
وحسن تقرير المعنى في الأفهام من أقرب وجوه الكلام .

فاذا توفرت في النص هذه العناصر الثلاثة حكمنا له بالبلاغة والجمودة
وينتاقص هذا الحكم بقدر ما ينتفى من العناصر .

وما صنعناه في النص نصنعه في الفقرات والمعارات غير أننا هنا نتحدث
أيضا عن الصورة والخيال والعاطفة والبديح ، وحتى الصورة البيانية يمكن
أن نطبق عليها الوضوح والقوة والجمال ، وعلى قدر ما تحرز الصورة من

١ - انظر : الصورة الأدبية - د . مصطفى ناصف - ص ١٦٦ .

هذه العناصر الثلاثة يعلو شأنها ويسمو قدرها .
ونتدرج من ذلك الى الجملة والكلمة فننظر اليهما مجتمعتين لأن الكلمة
وحدها لا قيمة لها ، ولا شك أن للكلمة قيمتها واعتبارها في الوضوح والقوة
والجمال ولكن ذلك لا يظهر الا في نطاق الجملة ، غير أن هذه العناصر
الثلاثة يتغير — الى حد ما — معناها ومفهومها عند استعمالها في هذا
الجزء الأخير .

فالوضوح هنا : هو كون الكلمة مألوفة مشهورة في معناها بحيث لا تسبب
غموضا أو ابهاما للمعنى الجملة .
والقوة هنا : أن تكون الكلمة في جملة ما في مكانها الصحيح ، متمكنة بين
أقرانها ، متضامنة معهم في إبراز المعنى المراد . فإذا ما تسببت الكلمة
بوضعها داخل الجملة في خلل أو لبس انتفت عنها صفة القوة وان توفرت
لها صفة الوضوح .
والصواب شرط أساسي أيضا في قوة الكلمة وهو هنا : أن تكون الكلمة
صحيحة لغة وأسلوبا .
والجمال : وهو في الكلمة أن يكون لها إحياء نفس . ووقع موسمي في
يبدو ذلك منها أولا ، ثم بتناسقها مع زميلاتها في الجملة ثانيا .

هذا ويمكن أن نعم هذه العناصر الثلاثة في دروس البلاغة بوجه —
عام — كما قلت سابقا — وأن نجعل كل الباحث البلاغية تدرس في ضوءها .
فمقتضى الحال مثلا يمكن أن يدرس في ضوء : الوضوح والقوة والجمال . وكذلك
الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية . وأيضا في الحذف والتقديم والقصر ،
وفي الإيجاز والاطناب والمساواة ، الى غير ذلك من مباحث البلاغة .

وفي الأسلوب : نجد العناصر الثلاثة متميزة مميزة ، فالأسلوب
العلمي يتوفر فيه الوضوح والقوة فقط فإذا توفر عنصر الجمال أيضا فهو
الأسلوب الأدبي .

والخلاصة : أن البلاغة هي الكلام الجيد الذي توفرت فيه عناصر الوضوح والقوة والجمال . وأن الفصاحة هي الكلام الجيد الذي توفرت فيه عناصر الوضوح والقوة فقط . أما الوضوح وحده فيمكن أن يتوفر في الكلام العادي الذي لا يعتبر فصيحاً ولا بليغاً .

هذه فكرة مبدئية يمكن أن تتطور بالمداولة والممارسة ، وهي تتلخص فيها يأتي :

١ — هجر الأساليب المنطقية الفلسفية وترك التعريفات السلبية وأمثلتها ومحتجزاتها والاكتفاء بوضع الضمير منها في الهامش ، ووضع تعريفات إيجابية بدلا عنها وتكون أمثلتها نصوصاً أدبية رائعة يتوفر فيها الوضوح والقوة والجمال حتى يتطبع الطالب بهذه النصوص وتترك في نفسه أثراً حسناً ويرى البلاغة على حقيقتها .

” فالبلاغة فن قبل أن تكون علماً ، ومرجعها إلى الذوق قبل أن يكون إلى العقل والمنطق ، ومجالها الأدب لا الفلسفة ، وثمرتها تكوين الملكات لا حفظ القواعد ، وغايتها تمييز جيد الكلام من رديئه ، وليست تحقيق أساليب العلماء وتخريجها ” . (١)

٢ — جعل العناصر الثلاثة (الوضوح — القوة — الجمال) أساساً لدرس البلاغة بوجه عام .

٣ — استعمال الطريقة الكلية في تطبيق هذه العناصر ، فبدأ بالنص وننتهي بالجملة والكلمة .

٤ — مزج القواعد البلاغية البسيطة بالتطبيق الشفوي والتحرير ، ويكون التقدير ووضع الدرجات على أساس الأداء الفني لا التحصيل القاعدي . ولا أستطيع القول بأنني وضعت للبلاغة خطة حديثة أو منهاجاً جديداً ، إن هي إلا — كما قلت — فكرة مبدئية يمكن أن تنمو وتتطور إذا لاقى القبول والاستحسان .

وهي في رأيي علاج سريع مؤقت لدرس البلاغة اليوم . والله الموفق .

١ — من مقدمة كتاب (توضيح المعاني في البلاغة) للدكتور العماري .

الباب الرابع

((البلاغة بين الدفاع والمهجوم))

الفصل الاول : دفاع عن البلاغة .

الفصل الثاني : هجوم على البلاغة .

الباب الرابع الفصل الأول

دفاع عن البلاغة

لم يكن ما عانتة البلاغة العربية من أسباب الجمود والتأخر ينحصر في طغيان المدرسة الكلامية بمنطقها وجدلها ، ولا في تحديد المنهج البلاغي ويطه بالكلمة والجملة . وإنما هناك أسباب أخرى جدت في العصر الحديث ، وكان لها كبير الأثر في تعطيل البلاغة والتكرلها . وهذه الأسباب قد كشف عنها ونبه اليها الأستاذ أحمد حسن الزيات في كتابه " دفاع عن البلاغة " . وتتلخص في :-

السرعة - الصحافة - التطفل .

ووجدت البلاغة نفسها في موقف لا تحسد عليه : فالأسباب والمعوقات تعددت وتشابكت وضربت بينها وبين الناس والحياة حجابا مستورا .

وفوق كل ذلك منيت البلاغة بأعداء ألداء ، أجادوا الهجوم عليها ، والانتقاص منها بدعوى الاصلاح والتجديد . وفي الوقت الذي كان يجب فيه أن تلقى البلاغة من يؤازرها ، ويقف الى جانبها ، ويأخذ بيدها ، اذا بها تجد هجوما خبيثا ومجابهة شديدة من بعض الأدباء والمثقفين أجانبا ووطنيين .

وقد تصدى بعض الفضلاء من العلماء والأدباء للدفاع عن البلاغة وبيان قيمتها وأهميتها ..

يقول د . احمد بدوى ردا على من عاب على البلاغة وقوفها عند حدود الجملة والجملتين : (ولا يضير علوم البلاغة أن تتقف عند هذه الحدود - أى حدود الجملة والجملتين - فذلك ميدانها ، وهو ميدان شاسع الأرجاء لانها تتقف في النص الأدبي عند كلماته تتبين سر اختيارها ، وعند جملة تبين سر تركيبها ، وليس ذلك بالعمل الهين) (١) .

والدكتور احمد بدوى يرى أن البلاغة قد أدت رسالتها خصوصا فيما مضى ، فـإذا كانت رساله البلاغة تبصير الكتاب الشعراء وهدايتهم الى الرفيع من التعبير ، فانى أعترف - أى د . بدوى أن الاهتداء الى فن من فنون البلاغة وهو علم البديع كان له أثر كبير جدا في الشعر والنثر .

فان طائفة كبيرة قد استخدموا ألوان البديع في شعرهم بحذق ومهارة دون تكلف أو تعنت فجاء شعرهم غاية في الجمال والابداع . أما هؤلاء الذين أكثروا من البديع في شعرهم بالتكلف والارهاق ، واستغلق المعنى عندهم في كثير من الأحيان كأبي تمام ، وعلماء البديع قد بحوا أصواتهم معلنين أن جمال البديع لا يكسبون طبعيا الا اذا كان قليلا ولم يكن متكلفا .

أما اذا كانت رسالة البلاغة البحث عن أسرار الجمال في المفرد والجملة والجملتين فيمكن القول بأنها وصلت في ذلك الى مدى بعيد . وأن كان الأمر لا يزال محتاجا الى جهود وجهود للكشف عن باقى أسرار الجمال في الأمور السنية يحسن القارىء بجمالها ثم لا يجد البلاغيين قد اهتموا اليها . وعلوم البلاغة ترحب بهذه المكشوفات وتدعو الى البحث وراء الأسرار المجهولة .

وان كان معنى رسالة البلاغة أنها كانت أداة في أيدي النقاد يزنون بها النصوص الأدبية ، فقد أدت البلاغة رسالتها في العصر الأتولى الى مدى بعيد ، وما تركه الأقدمون من كتب شاهد على ذلك ، فانهم قد اتخذوا ما وصلوا اليه من قواعد وسيلة لقياس النصوص الأدبية وبيان جمالها وردائها ، وكان للمقاييس البلاغية شأنها في تلك الأزمان .

أما في عصرنا الحاضر فلا ينكر الدكتور بدوى أن المقاييس البلاغية قليلة الاستعمال في أيدي النقاد . وقد يكون ذلك لأن كثيرا من الأدباء في عصرنا الحاضر يتجه الى الافهام والاعتماد على التأثير من ناحية معناه أكثر من اعتماده على التأثير من ناحية لفظه وأسلوبه وعبارته .

ويرى الدكتور بدوى أن الفنون التي شاعت في وقتنا الحاضر كالقصة والرواية لا تتنافى مطلقا مع الأسلوب البلاغى ، ولكنها السرعة التي تحول دون التريث والانتاج الفني ذى الأسلوب البليغ .^(١)

ولا ننسى أن السرعة التي تحدث عنها د . بدوى هي احدى البليات الثلاث التي ذكرها الاستاذ الزيات في كتابه " دفاع عن البلاغة " . بل أولها وهي أسباب التنكر للبلاغة في العصر الحديث .

ومن الذين نافعوا عن البلاغة وبتحسب الأستاذ العقاد ، فقد رد على من عابوا التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة ورأوا أنه وقف بها عن التطور والتوسع فقال : ان علوم البديع والمعاني والبيان خلاصة الملاحظات التي أدركها النقاد بالذوق والفهم ، واعتدوا بها الى مواضع البلاغة فيما وعوه من كلام الشعراء والكتاب . وان الحذقة كانت أكثر من الوعي الصادق والفهم الحسن عند من حاولوا في العصر الحديث أن يطلوا علوم البديع .

ويرى العقاد أن تدرس نصوص الأدب في مدارسنا على قواعد البلاغة العربية ، ولكن باعتبار البلاغة ذوقا ومفهوما ، وليست قواعد مقررة ، وقوالب محفوظة ، كتلك التي حفظت بمصطلحاتها ، وجمعت في علوم عرفت بأسمائها ، وهي البديع والمعاني والبيان . . . ثم يقول :

لابد أن نفهم أن علوم البديع والمعاني والبيان لم توضع لتلغى ، أولينصرف عنها النظر في الدراسة أو المطالعة ، لأنها خلاصة الملاحظات التي أدركها النقاد بالذوق والفهم واهتدوا بها الى مواضع البلاغة فيما وعوه من كلام الشعراء والكتاب ، ولقد وضعها الأقدمون وأدركوا من شأنها كل ما يدركه المحدثون الآن من فوائد لها وماخذها بل أدركوا منها - على التحقيق - فوق ما يدركه المتحذلقون الذين يجهلون البلاغة قواعد ومصطلحات ، كما يجهلون معاني ومفاهيم . . . فالعلوم التي عرفت باسم علوم البديع والمعاني والبيان صحيحه لا عيب فيها ، وكل ما يؤخذ عليها فانما يؤخذ على اساءة استعمالها كما ينبغى لها ، وكما أرادها واضعوها .^(١)

ونحن مع اعترازا برأى العقاد ودفاعه المجيد ، نرى أن علوم البلاغة الثلاثة يجب أن تتطور وتتوسع بحيث تشمل الأسلوب بجميع أنواعه وألوانه ، كما يجب أن تصاغ بطريقة أدبية بعيدة عن أسلوب المتكلمين وطريقتهم وهذا هو التجديد الذي نطمح اليه لبلاغتنا العزيزة .

(١) من مقال العقاد في جريدة الأخبار بتاريخ ١٤ رمضان ١٣٨٣ هـ .

وإذا كان هناك شبه اجماع من المحدثين بأن السكاكى هو السبب فى تعميد
البلاغة وتعميدها فان هناك بعض الأصوات تخالف ذلك ، وتدافع عن السكاكى
وبلاغته .

من ذلك ما يراه الدكتور عباس حسن من أن السكاكى خدم البلاغة خدمة جلييلة
بما وضع لها من قواعد وأصول جمعت شتاتها ولمت نملها وجعلتها علما قائما
بذاته ومستقلا بنفسه ، وأخذ يشيد بفضل السكاكى ومن لف لفه برغم الناقمين عليه ،
المتسرعين فى حكمهم على آثاره . وذهب يثبت ذلك بأراء وهجج عديدة (١) .

والدفاع عن السكاكى - فى رأينا - دفاع عن البلاغة وعلومها الثلاثة لما بينهما
من الارتباط الشديد . ولذلك فقد لفت نظرنا كذلك رأى الأستاذ أحمد موسى
فى كتابه " الصبغ البديعى " ، فهو على الرغم من حملته على السكاكى واتهامه بأنه
(أول جان على هذه العلوم بسلاح المنطق والفلسفة على هذا الوجه السرف الذى
رأينا بذوره الأولى عند قدامة بن جعفر فى نقد الشعر ، فأمعن فيه السكاكى ،
واستحلى مذاقه ، حتى ودعت البلاغة عصرها الذهبى الحافل بالذوق الأدبى
بانطواء صفحة أستاذها الأول والأخير عبد القاهر الجرجانى) (٢) . أقول :
على الرغم من هذه الحملة وهذا الاتهام نرى الأستاذ أحمد موسى يعود وينصف
السكاكى ويقول : (. . . وذلك لا ينسبنا ما أفادته البلاغة على يد السكاكى من
حسن التنسيق والتبويب ، ودقة التقسيم والتفصيل ، واحكام التمييز بين مباحث علم
المعانى وعلم البيان . فان هذا مما يحمده التاريخ للسكاكى . ولو سلم هذا القسم
الثالث من المفتاح - من مزجه بالعلوم العقلية لكان من خير المؤلفات التى ألفت
فى البلاغة فى جميع عصورها) (٣) .

(١) انظر كتاب (المتنبى وشوقى) د . عباس حسن ص ٦٤ - ٦٩ .

(٢) الصبغ البديعى ص ٢٤٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٨ و ٢٤٩ .

أما الدكتور سهير القلماوى فانها تعفى السكاكى من مسئولية جمود البحث البلاغى وتعقيده وترى : (أن كتاب المفتاح كتاب جاف فى ترتيبه ومعالجته للموضوعات ، وأن السكاكى ليس هو المسئول عن جفاف هذه الدراسة التى نتجت عن جفاف الكتاب نفسه ، ولكن الواقع أن البلاغة والنقد الأدبى لابد أن يمرا فسى هذه الأطوار دائما ببداية فطرية مبعثرة ، ثم دراسة حية قوية مثمرة مؤثرة ، وأخيرا خلاصة وتقنين وتعقيد جاف يودى بحياة النظرية أو الفكرة أو الناحية المدروسة ، ان هذه سنة الحياة فى الأبحاث الأدبية والفنية) (١) .

وواضح من هذه الآراء السابقة أنها دفاع عن بلاغة السكاكى وعلومها الثلاثة ، واقتصارها على الكلمة والجملة والجملتين .

لكن الأستاذ الزيات حينما أصدر كتابه " دفاع عن البلاغة " لم يكن يقصد ذلك ، وانما كان يعنى بلاغة أخرى هى التى يدافع عنها . فما هى ؟ ثم ماذا فى كتابه من دفاع وتجديد ؟

الواقع أن حديث الأستاذ الزيات عن البلاغة لم يكن مجرد دفاع ، وانما كان ارشادا وتوجيها الى اجادة التعبير ، وترقية الأساليب ، وبيان آله ذلك ووسيلته . وقضية (ترقية الأساليب) شديدة الارتباط بعلوم البلاغة ، ان هى أثر من آثار دراستها ، وغاية من غاياتها ، ولذلك لا يستغنى الباحث فى (تجديد البلاغة) عن الامام بما دار حول هذه القضية .

ولعل هذا هو السبب فيما أوليته من عنايه أكبر بدفاع الزيات عن البلاغة .

(١) انظر تقديم د . سهير القلماوى لرسالة الماجستير (البلاغة عند السكاكى)

للدكتور احمد مطلوب .

الزيات وكتابه :

" دفاع عن البلاغة "

لعل أنسب الأوقات لصدر كتاب (دفاع عن البلاغة) هو وقتنا الحاضر الذى تتأمر فيه على البلاغة ظاهرات ثلاث : السرعة والصحافة والتطفل ، فاختلت المقاييس ، وتضاربت القيم ، وتسابق الكم وغمط الكيف . وهذه الآفات علتها القراءة الخفيفة ، والحاجة الملحة ، ونقص القدرة ، وعجز الوسيلة ، فلم يعد للكثرة طاقة أو صبر على التعمق أو التجويد أو التنوُّق المميز أو التقييم الصحيح .

بهذه الكلمات بدأت الدكتورة نعمات احمد فؤاد تقديمها لكتاب دفاع عن البلاغة للأستاذ احمد حسن الزيات . وهى ترى أن الأدب أصبح يكابد من الدعسلاوى والأدعياء ، وأن الأدب دون سائر الفنون يستطيع أن يدعيه من يشاء فى أى وقت يشاء ، فى حين لم يجد غير متخصص من الاقتراب من هرم الطب أو الهندسة أو حتى الفنون الأخرى كالرسم والموسيقى .

وقد فصل كتاب (دفاع عن البلاغة) القول عن الفروق الدقيقة والواضحة بين الموهبة والاكتمال والأصالة والهواية وبين القريحة والفن ، وأخيرا بين علم البيان والبلاغة ، فهو يقدم القواعد وهى تخدمها ، وهو (يعين الوسائل وهى تملكها ، وهو يرشد الى ينبوع وهى تغترف منه) .

وليست البلاغة التى قام الكتاب بالدفاع عنها ، وتصدى صاحبها لحد يشها بلاغة شكل أو مظهر أسلوب ، ولكنها بلاغة شخصية أو بلاغة فن ، فهى (لاتفصل بين العقل والذوق ولا بين الفكرة والكلمة ولا بين الموضوع والشكل) .

وقد ناقش الكتاب رسالة البلاغة ووسائلها : ناقش الاسماع والاقناع وتحدث عن آلة البلاغة وهى : (الذهن الثاقب ، والخيال الخصب ، والعاطفة القوية ، والأذن الموسيقية) وعلى ضوءها أجرى استفتاء لراغبي البلاغة .

ثم تحدث عن ثلاث :

- اللغة : ومهمة طالب البلاغة درسها لتقويم السليقة واكتساب الذوق .
- والطبيعة : لاستمداد الموضوع واستقاء المادة واثراء الخيال وتنويع الصور .
- والنفس : ليشكل شخصيات القصة ويرسم شخصيات المسرحية ويحلل أخلاق المجتمع ونزعات الناس وخلجات الشعور .

كما يحدث عن الذوق الذي يصدر في حكمه عن العقل والعاطفة معا . وبعد ما الحديث العام عن البلاغة خُص الأستان الزيات الى الحديث عن الأسلوب (والأسلوب من حيث هو فكرة وصورة أجل بكثير من الجمل البهانية أو المحسنات البديعية) . وأطال الزيات الوقوف عند الأسلوب من حيث اللفظ والمعنى ووجهات النظر المختلفة في هذا الشأن في شرق وغرب . ووقفه هنا مادة للتأمل والدراسة والمقارنة والتفكير ، ومجال في الوقت نفسه للدفاع عن البلاغة دفاعا علميا أولا ثم عاطفيا بما في طبعه من أناقة وفي ذوقه من ترف وفي حسه من موسيقية . . وهذا الدفاع بالطبع ضد أولئك الذين يحاصرون (معبد الذوق) .

وقد خُص من بحثه ودفاعه معا الى صفات ثلاث جامعة لا يبد من توافرها لتحقيق البلاغة وهي : الأصالة ، والوجازة ، والتلاؤم . وشرح كلامها بتفصيل .

وفي القسم الأخير من الكتاب وقف الكاتب بالتحليل عند مذاهب الكتابة فـ في تاريخ العربية حتى العصر الحديث ، كما تحدث عن نشأة المذاهب الأدبية فـ في أوروبا من اتباعية وابتداعية وواقعية وما نبع منها . ثم انتقل الى المذاهب الأدبية العربية ويميز منها دعوتين : الدعوة الى العامية ، والدعوة الى الرمزية . وبعد : فهذه ليست مقدمة بالمعنى التقليدي للمقدمات ، ان هي الا مفتاح يفضي الى كتاب (دفاع عن البلاغة) (١) .

ويبدو أن الدكتور نعمات أرادت بهذه المقدمة أن تعوض نقصا في طبع الكتاب فقد صدر بلا فهرس يعرف بموضوعاته وتسلسلها ، فكانت هذه المقدمة ضرورية لتعريف القارئ بمضمون الكتاب وموضوعاته وتبهيئته لقراءة (دفاع عن البلاغة) .

(١) من مقدمة : دفاع عن البلاغة للدكتور نعمات فوزان الطبعه الثانية بتصرف

وقد نال الزيات جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٥٣ عن كتاب "وحي الرسالة" وتقديرا لعلمه وأدبه . وقد جاء في تقدير اللجنة للكتاب ما يلي :

(أنه مقالات متفرقة في مختلف شئون الثقافة والآداب يجمعها أنها تحمل طابع مذهب فني واحد مثله المؤلف عملا في ضروب انتاجه المختلفة ، ودافع عنه نظرا في بعض كتاباته وعلى الأخص كتابه (دافع عن البلاغة) . ويقوم هذا المذهب على ركنين هما :

أولا : العودة بالبلاغة العربية الى طابعها العربي الأول الذي يشمل فنى نهج البلاغة وكتابات ابن المقفع والجاحظ وأضرابهم الذي يتجلى في الإيجاز ، ورسالة الفواصل ، وقصرها ، وتصفية اللفظ .

ثانيا : تطعيم الفكر العربي الحديث بآثار الفكر الأوربي وروائع الآداب الغربية عن طريق الترجمة . وبذلك يساير الآداب العربي ركب الحضارة المعاصرة ، وقد أسهم المؤلف في هذا بترجمته لبعض الآثار الغربية مثل ترجمته آلام فرتر ، فإذنا ضمنا الى هذا جهد المؤلف في الدراسة الأدبية وفي تاريخ الآداب العربي تجمع لنا من كل أولئك انتاج جدير بالتقدير والاعادة .

ومن جهود الزيات التي لا تنكر ، وفضله الذي لا يجحد ، والذي لا يجوز لباحث أن يفيض الطرف عنه وهو يكتب عن الزيات ، وعن رأيه في البلاغة ودفاعه عنها ، انشاء " مجلة الرسالة " التي ما لبث أن اشتهرت وراجت وأصبحت منبرا حرا يعبر عن روح النهضة العصرية ، ويسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية ويحيي أساليب البلاغة العربية التي قرعت الاسماع وشغفت العقول والقلوب .

وقد صادفت (الرسالة) خلافا فشغلته ، وخلا فسدته ، وعبثا فحاولت أن تصد عنه بايقاط النخوة في الرؤوس ، والكرامة في النفوس ، والرجولة في النشء ثم سمرت بين الأدباء في كل قطر من أقطار العروبة ، ثم قادت كتائب الفكر والبيان في ميادين الإصلاح الأدبي والاجتماعي والسياسي على نهج من الدين والخلق^(٢)

(١) من محضر الجلسة السادسة للجنة جوائز الدولة للآداب بتاريخ ١٨/٦/١٩٥٣م

(٢) وحي الرسالة ج ٤ ص ٧٢ .

وعلى صفحات الرسالة الغراء قامت معركة التجديد فى البلاغة التى عرضنا لها منذ قريب فى الباب الثانى من هذا البحث ، كما قامت على صفحاتها ايضا أهم الممارك الأدبية التى تمثل حيوية الأدب والفكر ويقظة الأدباء والمفكرين وتدفع الى التجديد والابتكار (١) .

ولقد تركت " الرسالة " أثر بارزا على قرائها وعلى الأدب بصفة عامة . أما أثرها على قرائها فيبدو جليا فى أمور أهمها :

١ - أشبعت رغبات القراء ، وجذبتهم اليها ، وجعلتهم يتعلقون بها ، ويتربصون ظهورها ؛ ولقد أعجبهم فيها وجهة الرأى وثبات المبدأ فمالوا اليها عن حب ورضى .

٢ - جعلت من قرائها تلاميذ شكلتهم نفسيا وموضوعيا وأعدتهم لخوض الممارك... الأدبية والسياسية .

٣ - خلقت جيلا جديدا من مثقفى الأرياف ، ومعلمى الطفل ، وطبعتهم على الذوق العربى الأصلى وأعدتهم لنقل رسالتهم عن طريق التعبير للتلميذ المبتدى مما أعان المدرسة على أداء رسالتها ، وأعان المدرس على اكمال مالهديه من نقص وقصور .

٤ - أقامت جوا من الارتباط الروحى والفكرى بين الناشئة والشباب والسابقين من الكبار ، وضمنت للأدب الفصيح ثباته فى وجه المارقين .

٥ - لم تقتصر فى معاملاتها على اقليم مصر فحسب بل تخطت حدود مصر الى البلاد العربية ومنها انطلقت الى أقاصى الأرض وغزت عقولا وأما وكتابا ومتعلمين وطبعتهم بطابعها .

أما آثارها على الأدب انما يرجع الفضل فيه الى ثبات المبدأ ، والتعفف عن الدنيا ، والصلابة فى الحق ، والتزام الغاية بلا التواء أو انعطاف . وأهم الآثار التى استفاد منها الأدب هى :

أولا : تعد مرجعا هاما لتاريخ الأدب ودراسته .

(١) الكاتب احمد حسن الزيات - مخطوطة بمكتبة دار العلوم رقم ٣٧٨ للأستاذ

على الفقى ع ٣٠٦ .

- ثانيا : عملت على نشر الأدب ونقده وتقييمه .
ثالثا : كانت الرسالة مدرسة يتخرج فيها الأدباء .
رابعا : أطلت بنا على الأدب المعالى .
خامسا : الأثر الفكرى الانسانى . ويظهر هذا الاتجاه فى توجيه الفكر وتنمية المواهب ونشر المادة التى تدفع الصطل الأديبى الى آفاق أرحب وإلى نظرة أعمق وأشمل .

والاثر الفكرى لمجلة الرسالة يبدو فى نواح عدة أهمها :

الاتجاه الاسلامى - المجال العربى - المجال الاجتماعى - المجال الفنى (١).

"وجملة القول أن الرسالة ليست مدرسة واحدة ، ولكنها جماع المدارس التى نشأت ففيتها أدب الظلال والأدب الرمزي والانشائى والوصفى . ولعل هذا قد جاء نتيجة لتجارب كثيرة فقد سجل الزيات هذا المعنى فى العدد الثالث من الرسالة حيث قال : انه تلقى من القراء رسائل متباينة يطلب بعضها المزيد من التعمق والافاضة ومن يرغب الى شئ من الفكاهة والبساطة وقال : "الرسالة ترجو أن توفق بين الرأيين بأن تتخذ طريقها بين ثم تنشر فى الحين بعد الحين أعدادا خاصة بما تجمع لديها من البحوث المستفيضة والدراسات العميقة والقصص الضافية " وقد عالجت الرسالة كثيرا من القضايا الأدبية ، ومن ذلك قضية المنهج الأديبى والنقد ، وغيرها من القضايا الأدبية العامة " (٢) .

وظلت الرسالة تصدر من يناير عام ١٩٣٣ الى فبراير عام ١٩٥٣ حيث توقفت لظروف خارجة عن ارادتها بعد أن أدت رسالتها وقامت بدور كبير جليل فى حياتنا الأدبية والفكرية .

(١) المصدر السابق - ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٢) المحافظة والتجديد فى النشر العربى المعاصر - أنور الجندى ص ٦٦١ .

أسباب التنكر للبلاغة :

نعود الى كتاب (دفاع عن البلاغة) حيث بدأ الكاتب بمقدمة عن أسباب التنكر للبلاغة في العصر الحديث ، وأجل هذه الأسباب في ثلاثة أمور :
السرعة - الصحافة - الطفلة .

ثم تحدث عن كل منها بإيجاز :

السرعة :

وهي جناية اختراع الآلة على الناس ، وكانت جريرتها على الفكر بوجه أعم ، أن استحالة تقدير القيم التي يحتاج وزنها الى الروية والتأمل ، أو الى الأناسة والصبر ، فظهر الخبيث في صورة الطيب ، ودخل الرديء في حكم الجيد ، وقيس كل على بمقياس السرعة لا بمقياس الجودة .

ويرى الدكتور نايلي أن " من أبرز سمات العصر الحاضر الحركة والسرعة والنشاط فهو سريع في كل شيء . سريع في تفكيره واتجاهاته ، وفي صناعاته وانتاجه ، وفي تقلباته ومفاجآته ، حتى اصطلح الناس على تسميته - عصر السرعة . والسرعة قرينة البساطة أبداً ، لا تحب التركيب ولا التعقيد ، بل تبغضهما أشد البغض . . ولقد كان طبيعيا أن تتأثر الثقافة الأدبية بهذه السرعة وأن تتجه الى البساطة التي نلحها في القراءة والاطلاع ثم في التأليف والكتابة (١) ."

ورأى الاستاذ الزيات والدكتور نايلي ورأينا ورأى الكثيرون غيرنا في الشرق عن السرعة وجنابتها على الأدب ، هو رأي الغربيين أيضا . يقول السير هيو الهول : " لا يمكن للكاتب الخالق أن يبدع انتاجه كما يبدع أحد العمال في مصانع السيارات صنع قطعة الحديد التي يمارس صنعها مئات المرات كل يوم ويقذف بها السيالة . ان العمل الأدبي غير ذلك بالمرة لا تغنى عادة الكتابة فيه شيئا ولا يمكن أن تكون كثرة ممارستها يمهد للكاتب أن يكتسب السرعة في انتاجه مع الاحتفاظ بالجودة . ان المسمار الصغير لا يمكن للتأني في صنعه أن يجعل منه شيئا أكثر من مسمار ، أما العمل الأدبي فان المتأنس في

انتاجه يستطيع أن يتدرج به من الموضوع الانشائي التافه الى القطعة الأدبية الرائعة الى العمل الأدبي الخالد . . ان السرعة هي الداء الذي يقتل في الأدب الحديث كل عناصر الخلود (١) .

أما جريرة السرعة على البلاغة بوجه أخص ، فالأستاذ الزيات يرى : أنها أصابت الأذهان ، فلم تعد تلك الاحاطة بالأطراف ولا الفوص الى الأعماق ، فجاء لذلك أكثر انتاجها من الفناء الذي لا رجوع منه ، أو من الزبد الذي لا بقاء له .

وأصابت الأفهام ، فلم تعد تصبر على معاناة الجيد من بليغ الكلام ، فكان من ذلك انكبابها على الأدب الخفيف الذي لا غناء فيه ولا وزن له .

وأصابت الأذواق ، فلم تعد تميز الفروق الدقيقة بين الطعوم المختلفة ، فاختلط الحلو بالمر ، والتبس الفج بالناضج .

وقد تقع السرعة خطأ في موازين بعض النقاد فيحسبوننها شرطاً في حسن الانتاج . وربما عابوا الكاتب المروى بالابطاء وغمزوه بالتجويد وسفهوا قول الحكيم القائل : " لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده ، فان الناس لا يسألون في كم فرغ ، وانما يسألون عن جودته واتقانه " (٢) .

هذا هو رأى الأستاذ الزيات عن السرعة وجنائيتها على الأدب والبلاغة وهو كما ذكرنا من قبل رأى الكثيرين من الأدباء والنقاد في الشرق والغرب .

لكن للدكتورة بنت الشاطي رأى آخر فهي تقول : " . . ومعان الله أن يقيس أحد بهذا ، وأن تكون السرعة جانبية على الأدب ، انما تقابل الجودة بالتسرع لا بالسرعة المستطبعة المتيسرة الأداة ، والكاتب ينسى أن الالهام سر الفن ، ويرى العكوف البطيء على صنعة الكلام ونحت الألفاظ سر جماله . أما البلاغة الفنية التي نعرفها فتعجب بالندب بيهة المسعفة والخاطر الحاضر ، وما زالت اللوحة والخاطرة

(١) مجلة الثقافة - العدد ٤٩ ص ٤٢ .

(٢) انظر - دفاع عن البلاغة ص ٢٠١ .

سربناء المهرية لغة وفنا . فمتى كان بليد الذهن مثال الفنان ، ومتى كان البطيء
الموسوس مثال المفكر ؟

ويقول الاستاذ : ان السرعة أصابت الانواق فلم تعد تميز الفروق الدقيقة
بين الطموم المختلفة فاختلط الحلو بالمر والتبس الفج بالناضج . فهل عند
الاستاذ أن التفرقة بين الحلو والمر والفج والناضج تمييز لفروق دقيقة وأين
ان الفروق الكبيرة الواضحة ؟

أما انى لأعرف أن ما بين الحلو والمر ليس فرقا دقيقا يميزه الذوق السليم ، انما
تكون الانواق سليمة اذا ميزت الفرق الدقيق بين حلو وحلو وأدركت درجة الحلاوة
فى كل وأحسست نوعها على ضآلة الفرق ودقته . فأما أن يتواضع الذوق فيصير
مقياس صحته أن يميز بين حلو ومر وبين ناضج وفج ويصبح هذا التمييز ادراكا لفروق
دقيقة فتلك مرتبة يدركها الأطفال الرضع قبل أن يراضوا على دقة الحس ويسمو اليها
الجفاة الغلاظ قبل أن يهذب لهم ذوق " (١) .

وكلام الدكتور بنت الشاطىء هذا ، ليس كله صوابا ، فاذا سلمنا لها بأن التمييز
بين حلو ومر وبين ناضج وفج ليس من قبيل ادراك الفروق الدقيقة فانا لا نسلم لها
بأن السرعة بريئة من الجناية على الادب عامة والبلاغة خاصة . وقد أعجبنى رد الدكتور
رجب البيومى عليها حين قال : " ولتأذن لنا الدكتور الفاضلة ان ندلها على
المغالطات السافرة فى هذا القول ، فقد جعلت التسرع خاصا بالسهولة ، والسرعة
خاصة بالاستطاعة المتيسرة الاداء . وذلك فهم ذاتى لا يعلق بغير ذهنهم
الخاص . فمن قال ان الكاتب الذى يملأ الصحائف فى دقائق دون جدة طريفة
يكون متسرعا لا سريعا ؟ ومن قال ان الزيات ينسى أن الالهام سر الفن وقد تحدث
عنه أكثر من مرة فى دفاعه ؟ وهل تجهل السيدة الفاضلة أن الالهام شىء والتعبير
عنه شىء آخر ؟ فقد يكون الالهام سريعا طائرا ولكن انتقاله الى دنيا الحروف
والكلمات لاتفى السرعة بكماله على وجه دائم . وقد كان الحارث بن عتبة وعمنرو
بن كلثوم فسى الأدب الجاهلى مثالين للسرعة المرتجلة ، وكان

الناصفة وزهير مثالين للتنقيح والتؤدة ، فأى الفريقين أشعر وأخلد ؟ وهل يكون زهير بن أبى سلمى بليد الذهن وبطيئاً موسوساً لأنه تروى فى تسجيل ما ألهمه من معان كما وصفت الناقدة بذلك كل متأكد دقيق ؟ ثم لتسأل الكاتبة نفسها ألا تجد أنها اذا كتبت مقالا أدبيا وعادت النظر فيه على وجه متأكد فانه يكون على درجة من القوة أفضل منه لو فقد المراجعة المنقحة ؟ وهل يعد الزيات داعياً للمكوف البطيء على صنعة الكلام ونحت الالفاظ اذا ما دعا الى الجودة والاتقان قوما يتكلمون بالعامية ويكتبون بالفصحى فيتعرضون للتهافت متى جانبوا الدقة والاحتياط ؟ (١) .

الصحافة :

هى السبب الثانى بعد السرعة - وهى من فنون الادب المستحدثة ، ورأى الزيات فى جريرتها على البلاغة . . (أنها أوشكت ان تستبد بالمجال الحيوى للكتابة . وليس فى هذا الأمر على ظاهره نكير ولا مؤاخذه ، ولكن على الصحافة رواية الأخبار العالمية وتسجيل الأحداث اليومية ونشر الثقافة العامة ، وهى فى كل أولئك تخاطب الجمهور فلا مندوحة لها عن التبذل والتبسط والاسفاف والمط مراعاة للموضوعات التى تكتب فيها ، وللطبقات التى تكتب لها ، وللسرعة التى تعمل بها . ولو كان للصحافة كتابها وللتأليف كتابه لما لقيت البلاغة منها أذى ولا مضرة ، ولكن حالها مع الكتاب كحال السينما مع المسرح ، فهى أوفر فى المال وأقوى فى السلطان وأوسع فى الانتشار وأشمل فى المعرفة ، وأغنى فى الوسائل ، ولذلك استخلصت لنفسها أمراء القلم ، فهم يعملون فيها على ما تقتضيه أحوالها من مجاوبة السرعة وتوخى السهولة وإيثار العامية . وللصحافة سبعة أبواب لا يدخلها بلغاء الكتاب الا من باب واحد ، أما سائر الأبواب فهى لأنماط من ذوى الثقافات المختلفة قعد بأكثرهم وهن السليقة وضعف الاطلاع

(١) الزيات بين البلاغة والنقد ص ٢٩٦ .

عن مجارة الموهبين ، فسول لهم الفرور أن يخفضوا مستوى البلاغة ، وابتدلووا
حرم الفن ، ويوهمو الناس أن أدب الدهماء هو أدب المستقبل ، لأن العصر
عصر السرعة ، ولأن الشأن شأن العامة ، ولأن الديموقراطية تقضى باختيار لفظة
الشعب وإيثار أدبه

من أجل ذلك طغت العامية ، وفشت الركافة ، وفسد الذوق ، وأصبحت
العناية بجمال الأسلوب تكلفاً في الأراء ، والمحافظة على سر البلاغة رجعة إلى
الوراء ، ولم يكن للمخلصين للغة الوحي وأدب الرسالة إلا أن يكتبوا لأنفسهم
ولمن يعصمهم الله من أعقاب هذا الجيل (١) .

ومرة أخرى تتصدى الدكتورة بنت الشاطي لنقد الزيات في حديثه عن
الصحافة كما نقدته من قبل في حديثه عن السرعة . وهي ترى أن الاستاذ الزيات
أطلق القول في الصحافة . وذلك لأن الصحافة أدبية وغير أدبية ، وعيب ما في
صحافتنا صيفتها التجارية التي لم يمسهما الاستاذ ولو من بعيد . ثم علقت على
قول الزيات : " ولكن عمل الصحافة رواية الاخبار العالمية وتسجيل الاحداث اليومية
ونشر الثقافة العامة ، وهي في كل أولئك تخاطب الجمهور فلا مندوحة لها عن
التبذل والتبسيط والاسفاف والمط مراعاة للموضوعات التي تكتب فيها وللمطبقات التي
تكتب لها وللسرعة التي تعمل بها " فقالت : " والكلام هذا لا يستقيم لأن السرعة
لا تحتل التبسط والمط ، ولأن رواية الاخبار العالمية وتسجيل الاحداث اليومية
ونشر الثقافة العامة لا يقتضى التبذل والاسفاف . والاستاذ نفسه ينقض هذا
سرعا حين يقول بعد أسطر قلائل في الفقرة ذاتها من الصفحة نفسها " ولو
كان للصحافة كتابها وللتأليف كتابه لما لقيت البلاغة منها أداة ولا مضرة " وهذا
إبراء للعمل الصحفي من هذه التهمة والقاء بالتبعية على الفقر في الكتاب ، فكأن
الاستاذ يقرر في الوقت عينه أن العيب في فقر الكتاب الذين لو وجدوا لبطلت
الشكوى " (٢) .

(١) دفاع عن البلاغة ص ٢٠-٢٣ بتصرف .

(٢) مجلة الكتاب ص ٣٧٢ .

وأحب هنا أن أضع بعض النقاط فوق الحروف ، وأوضح للدكتور بنات الشاطبي أن الاستاذ الزيات لم يقصد إطلاق القول في الصحافة ، فهو - بالضرورة - يعرف أن الصحافة أدبية وغير أدبية ، كيف لا وهو منشئ ومحرر مجلة الرسالة التي كانت أشهر من نار على علم في مجال الصحافة الأدبية . فهو ان يقصد الصحافة (غير الأدبية) تلك التي شاعت وانتشرت في الجرائد اليومية . . صحافة السند وتش كما سماها الزيات في غير هذا المكان . . وهي صحافة لا تسمن ولا تغني من جوع . ولو أنها وقفت عند هذا الأثر لكان الأمر ، ولكنها طغت على مر الأيام وغطت على الصحافة الأدبية ، ومالت بالأدب عامة إلى العمامة والابتذال في الأفكار والأساليب . تماما كما طغت (السينما) بتفاهتها وابتذالها على المسرح الأدبي وروائعه ، وحين أراد المسرح أن ينهض بعد عثاره لم يجد مناصا من أن يجارى السينما في تفاهتها وابتذالها .

ومن هنا أستطيع القول بأن الدكتور أخطأت أيضا في فهم قول الزيات : " ولو كان للصحافة كتابها وللتأليف كتابه لما لقيت البلاغة منها أذاة ولا مضرة " فقالت : وهذا ابراء للعمل الصحفي من هذه التهمة ، والقاء بالتبعة على الفقر في الكتاب .

وأقول : ان المسألة ليست فقرا في الكتاب فهم كثيرون ، وأكرهم مجيئون ولكن الزيات يقصد : أن الصحافة (غير الأدبية) اجتذبت هؤلاء الكتاب - والدكتور منهم - وأغرتهم بوسائلها ، وطبعتهم بطابعها ، فمالوا بأقلامهم عن التأنق في اللفظ والعناية بالمعنى ، وشغلوا عن الاجادة والاتقان ، واتبعوا أهواء الصحافة وساروا في ركابها . ان فالاستاذ الزيات انما كان يأسى ويأسف لخلو مجال الادب من أربابه بسبب انجذابهم الى مجال الصحافة . وهذا هو معنى العبارة التي لم تتعمق الدكتور في فهمها . ولعلنا نلتصّلها للمعذر لان الاستاذ الزيات - على غير عادته - لم يكن دقيقا في اختيار بعض الالفاظ . فلو انه - مثلا - قال : " ولو ظل للصحافة كتابها وللتأليف كتابه " بدلا من " ولو كان

للمصاحفة كتابها " لوضح الأمر . علما بأن التعبير (كان) قد يأتي بمعنى الدوام والاستمرار ومنه قوله تعالى : " وكان الله سميعا بصيرا " .

كذلك من الألفاظ التي لم يكن دققا في اختيارها : التبسط والمسط . فاننا مع الدكتور في أن " الكلام هذا لا يستقيم لأن السرعة لا تحتل التبسط والمسط " .

ويهمنى في هذا المقام أن أؤكد أن صحافتنا العربية قد تدهورت الى حد كبير من حيث الكتابة والأسلوب ، وارتفعت أصوات الفيورين تنبه الى كثرة الأخطاء الإملائية والنحوية واللغوية . هذا بالإنفاذ الى تدنى الأسلوب والابتذال في التعبير ، مما أفسد أذواق الأجيال العربية ، وجنى على اللغة والأدب بوجه عام ، وعلى البلاغة بوجه خاص كما قال الزيات رحمه الله .

الآن نأفل :

بعد الحديث عن السرعة والصحافة أخذ الأستاذ الزيات يتحدث عن السبب الثالث من أسباب نكبة البلاغة فقال : " أما التطفل فقد رأيتَه ظاهراً الأثر على مواضع الصحافة . غير أن هناك ضرباً من التطفل المفرور يجوز أن نفرده بالذكر : ذلك هو تطفل فئة من أرباب المناصب لا يدح في كفايتهم الا يكونوا كتاباً ولا شعراء ، ولكنهم يأبون الا أن يضموا المجد من جميع حواشيه ، فهم يتكفون ماليس في طباعهم من صناعة البيان ، فيقعون في النقص وهم يريدون الكمال .

قد ينبغ أولئك السادة فيما يملك بالتحصيل والمزاولة ، كالتعليم والتأليف ، إمامة والسياسة ، ولكنهم أعجز من أن يخلقوا في رؤسهم ملكة الفن بمجسدت الإرادة أو الأمر أو الادعاء ، فاصرارهم على أن يعدوا في كبار الكتاب على ما فيهم من تخلف الطبع وخمود القريحة وضعف الأذنة ، دفعهم الى مشايعة الجهلاء في تنقص البلاغة وخفض مستواها الى الدرك الذي لا يعز مناله على القاعد .

وهذه المشايعة من قوم لهم في التوجيه الثقافي رأى مسموع وأثر ملحوظ أخطر على البلاغة من كل ماتعانيه في هذه المحنة (١) .

وعكذا شخص الأستاذ الزيات أدواء البلاغة ، وأسباب نكبتها ، وهي : السرعة والصحافة والتطفل . ويذكرني هذا الظهور بثالث آخر يهدد كيان الشعب - أي شعب - وهو : الفقر والجهل ولمرض .

وهذه الأدواء الثلاثة التي كشف عنها الزيات أمر جديد ، وحديث لم يسبق اليه ، فالسرعة والصحافة والتطفل أعداء للبلاغة لم ينتبه اليهم أحد من قبل ، ان كان الداء محصوراً قبل ذلك في الطريقة الكلامية ولمعانها على الطريقة الأدبية في دراسة البلاغة .

(١) دفاع عن البلاغة ص ٢٤٢٣ .

ومن الواضح أن الاستاذ الزيات كان موفقا في تشخيص هذه الأدواء الثلاثة ،
ويبدو أنه عاش في غمارها ، واكتوى بنارها ، ولعلها كانت بعض الأسباب التي
أودت بحياة ابنته العزيزة " مجلة الرسالة " .

والآن قد آن الأوان لنسأل : ما البلاغة التي يدافع عنها الزيات ؟ والتي
يلتمس لها الأعداء والمبررات ؟ فيدفع عنها الإهمال والتقصير ، وينسبها إلى
الثالث الجديد الذي لم يكن أحد يلتفت إليه قبل صدور كتاب " دفاع عن البلاغة " .
البلاغة التي يدافع عنها الزيات :

يقول : (تسألني بعد ذلك عن البلاغة التي أعنيها وأدفع عنها : أهى
بلاغة العقل العربي التي تجلت في نثر ابن المقفع والجاحظ والبديع ، وارتسمت
في منهج أبي هلال وعبد القاهر ؟ أم هى بلاغة العقل اليوناني التي تمثلت
في كلام الأصوليين والجدليين والمناطقية ، واستقرت في قواعد السكاكي والسعد ؟
أم هى بلاغة المعنى أم بلاغة اللفظ ؟ أهى بلاغة الفكر أم بلاغة الأسلوب ؟

والجواب : أن البلاغة التي أعنيها هى البلاغة التي تحدى بها القرآن أمراء
القول في عهد كان الأدب فيه صورة الحياة ، وترجمة الشعور ، وعبرة العقل .
هى البلاغة التي لا تفصل بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين
المضمون والشكل ، إذ الكلام كائن هى ، وروحه المعنى ، وجسمه اللفظ ، فإذا
فصلت بينهما أصبح الروح نفسا لا يتمثل ، والجسم جمادا لا يحس . . . (١) .

ويذكرنا قول الزيات هذا بقول ابن رشيق : " اللفظ جسم وروحه المعنى ،
وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته . . . " (٢) .

ونفهم من كلام الزيات وجوابه السابق أنه يعنى البلاغة الفنية ، تلك البلاغة
التي تحدى بها القرآن أمراء البيان ، خاصة وأنه ذكر قبل ذلك بقليل أن البلاغة
(كسائر الفنون الطبيعية موهوبة لصناعة مكسوبة) (٣) .

(١) دفاع عن البلاغة ص ٣١

(٢) العمدة : ج ١ ص ٩٩

(٣) دفاع عن البلاغة ص ٢٥ .

البلاغة بين العلم والفن :

ولقد دعونا من قبل أن يتحول درس البلاغة من علم الى فن ، وان تختلط القواعد البلاغية المبسطة بتمارين التطبيق الشفوي والتحريري ، وأن يكون التقدير ووضع الدرجات على أساس الأداء الفني لا التحصيل القاعدي . أى على أساس مدى الاستفادة من التحصيل القاعدي فى الأداء الفني .

وعلى هذا فالكلام عن البلاغة على أنها فن أمر يهمنى أن نعرضه ونعرف مسداه ومدى ما فيه من صلاحية وتجديد .

وانذا كان الزيات يتحدث عن البلاغة بوصفها فنا فانه يهمنى أن نعرف رأيه فى تلك البلاغة الفنية التى يمارسها ويدعو اليها ، كما يهمنى كذلك أن نعرف الوسائل التعليمية التى توصلنا اليها .

ان الغاية من علم البلاغة هو الوصول الى فن البلاغة ، والبلاغة الفنية هى العلم الذى يوجه الوصول اليه ، ولتقواعد البلاغة الاسباب ووسائل للوصول الى الهدف وهو البلاغة الفنية . وقد فرق الزيات بين علم البيان والبلاغة ، فهو يعقد القواعد وهى تخدمها وهو يمين الوسائل وهى تملكها ، وهو يرشد الى ينبوع وهى تغترف منه (١) .

وانذا كان موضوع هذا البحث (التجديد فى علوم البلاغة) فان الغرض من هذا التجديد تيسير الوصول الى فن البلاغة .

وهنا سؤال يطرح نفسه ، ويفرض هذا الحديث وجوده ، وهو : هل تستغنى البلاغة الفنية عن العلم ؟ أم أنها ترتبط به وترتكز عليه ؟

والواقع أن البلاغة بوصفها فنا قوليا استغنت فيما مضى عن العلم بأصوله وقواعده فالقدماء أمثال : محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأبى بكر وابن الخطاب رضى الله عنهما .

(١) المرجع السابق ص ٢٨

هو لا ، وأمثالهم كانوا بلغاء ، وكانت بلاغتهم فنا فطريا طبعوا عليه واكتسبوه ونمسه
بطريقة ما ، ليس منها علم البلاغة . فالغن البلاغى لا يحتاج الى علوم البلاغة وهو فى
غنى عنها ، ويستطيع أن يستقل بنفسه دون مساعدة علمية . وان كان ذلك قد
أصبح من الصعوبة بمكان بعد أن اختلطت الأجناس العربية بغيرها وخاصة فى
العصر الحديث .

أما البلاغة بوصفها علما نظريا فانها لا تستغنى أبدا عن التطبيق الشفوى
والتحريرى والممارسة العلمية فى ميادين الخطابة والكتابة والشعر . أى أن
البلاغة العلمية لا تستغنى عن البلاغة الفنية .

وبالبلاغة الفنية - وان كانت كما قلنا لا تحتاج بالضرورة الى البلاغة العلمية -
تحتاج فى هذا العصر الذى تغيرت فيه الفطر ، وتلونت الطباع ، الى صقل
ودربة وخبرة لا يوفرها الا دراسة علوم البلاغة ، ولكن على الطريقة الأدبية
لا الكلامية .

ونخلص من كل ذلك الى نتيجة حتمية وحقيقية واقعة وهى أن البلاغة الفنية
وبالبلاغة العلمية أصبح كل منهما لا يستغنى عن الآخر ولا ينفك عنه ، ومن الخطأ
الفصل بينهما فى درس البلاغة الجديد .

هذا وقد أشار الأستاذ الشايب الى هذه الصلة بين علم البلاغة وفنها ، وأقر
لذلك فصلا فى كتابه " الأسلوب " ، ورأى أن القدرة على التعبير هبة طبيعية ولكنها
متفاوتة الدرجات بين الناس ، وأن طالب البلاغة كغيره من طلاب الفنون الأخرى
لا يكتفى بالموهبة ، بل يحاول دائما صقلها بالدراسة والمران ليصل الى مستوى
النمو والابتكار (١) .

بل انه يرى أن الدراسة والمران يفيد الموهوبين وغير الموهوبين . فغير الموهوبين
ترتقى أذواقهم ، وتسمو مداركهم حتى يفرقوا بين الجيد والردى من القول ، وهذا

كاف بالنسبة لهم . أما الموهوبون فان الدراسة والمران يخلق منهم بلفاء ، ويصل بهم الى مستوى النبوغ والابتكار (١) .

واذا كانت البلاغة عند الزيات (كسائر الفنون طبيعة موهوبة لا صناعة مكسوبة) فانه يرى أيضا (أن الطبع والقريحة لا يفتنيان في البلاغة عن الفن . وربما كان فيهما ذلك الفناء في العصر الجاهلي وصدر الاسلام ، حين كانت الأهواء صادقة والأخلاق صريحة ، والحياة بسيطة . أما وقد زيف الصادق ، وشيب الصريح ، وركب البسيط ، فلا بد من حذق الصناعة وهدى القواعد لمعالجة ذلك) (٢) .

وبالتأمل في قول الزيات هذا نجده أطلق كلمة الفن وأراد بها العلم ، وذلك في قوله : (ان الطبع والقريحة لا يفتنيان في البلاغة عن الفن) ان كان حقه أن يقول : الطبع والقريحة لا يفتنيان في البلاغة عن الدرس والمران .

ولعل ذلك يعطينا انطباعا بأن الزيات ربط هو الآخر بين علم البلاغة وفنهما ، فاذا أطلق أحدهما أريد الآخر معه .

وعلى الرغم من أن الزيات في دفاعه عن البلاغة كان يعنى البلاغة الفنية - كما يقول - فانه قد تحدث كذلك عن البلاغة العلمية ودافع عنها .

وذلك كدفاعه عن قواعد البلاغة التي وضعها الأقدمون ، فهو يرى أن علم البيان هو الجزء النظري من فن الاقناع ، والبلاغة هي الجزء العملي ، وأن القواعد البيانية لم يضعها الواضعون الا بعد أن رجعوا الى أصول الأشياء ، ودرسوا علائقها بالنفس والحس ، ثم صاغوها قواعد وقالوا انها أمثل الطرق لاحسان العمل دون أن يخضعوا قريحتك لها .

كذلك الذوق ، لا يمكن أن يكون بغير القواعد طريقا مأمونة الى عمل من أعمال الأدب ، فانه موهبة طبيعية تختلف في الناس وفي الأجناس ، وتحتاج الى المراتبة بالدرس والعادة (٣) .

(١) المرجع السابق .

(٢) دفاع عن البلاغة ص ٢٨ .

(٣) انظر دفاع عن البلاغة ص ٢٨ - ٣٠ .

ونلاحظ أن الزيات هادئ في دفاعه ، أديب في علمه ، فهو لا يندفع ولا يهاجم كالعقاد - مثلاً - عندما دافع عن قواعد البلاغة وعلومها الثلاثة .

والزيات لم يدافع عن قواعد البلاغة فقط ، ولكنه دافع عن كثير من قضايا البلاغة العلمية ، فتحدث عن حد البلاغة وتعريفها ، وعن آلة البلاغة ووسائلها ، وعن اللغة والطبيعة والنفس وضرورة راستها لطالب البلاغة ، وعن الذوق المثقف الذي يصدر عن العقل والعاطفة معا ، كما تحدث عن الأسلوب وأطال الوقوف عنده من حيث اللفظ والمعنى ووجهات النظر المختلفة في هذا الشأن ، ثم تحدث عن صفاته من الأصالة والوجازة والتلاؤم .

وكل ذلك سنفصله بعد هذا الاجمال ، ونبين ما فيه من تجديد ودفاع . وأيضا كل ذلك يؤيد ما ذهبنا اليه من أن علم البلاغة وفنها قد ارتبطا أشد الارتباط ، بل قد التحما وامتزجا ، وأصبح الحديث عن أحدهما يفرض الحديث عن الآخر ، وأن من الخطأ البين الفصل بينهما في درس البلاغة الجديد .

تعريف البلاغة عند الزيات :

والزيات بوصفه مدافعا عن البلاغة ، وأحد دعايتها الى التجديد ، أراد أن يضع لها تعريفا جديدا بعيدا عن تعريف المتكلمين وجدلهم ، ولكنه لم يفعل ذلك الا بعد أن قدم بعض التعريفات البلاغية في الشرق والغرب ، ورأى أن التعريفات على مدلول البلاغة اختلفت باختلاف تصور الناس لها ، وتأثرهم بها ، وغرضهم منها ولكنها تعريفات مقتضبة لا تكاد تكشف عن جوهرها الفني . ولعل أول من حاول شرح البلاغة على نحو يشبه الفن ابن المقفع ، ان قال : " البلاغة اسم لمعان تجرى في وجوه كثيرة : منها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعاً ، ومنها ما يكون خطيباً ، ومنها ما كانت سياطه . فاعلم ما يكون من هذه الأبواب فالوهم فيها بالاشارة الى المعنى أبلغ - والايجاز هو البلاغة " . ومن أمثلة الأقوال المقتضية : قول ابن المعتز : " البلاغة هي البلوغ الى المعنى ولما يطل سفر الكلام " . وقول الخليل بن أحمد : " البلاغة هي ما قرب طرفاه وبعد منتهاه " .

ولبلغاء الغرب في البلاغة أقوال تشبه ما قال بلغاء العرب في اجمال المصنعي
وبعد الاشارة . قال لاهارب (١) : " البلاغة هي التعبير الصحيح عن عاطفة
حق " .

وقال سورين (٢) : " هي الفكرة الصائبة ، ثم الكلمة المناسبة " .
وقال لبروير (٣) : " هي نعمة روحية تولينا السيطرة على النفوس " .
وتخيلها سنك (٤) : الهيا مجهولا في صدر الانسان . ومثلها القدماء في صورة
آله يتكلم فيخرج من فيه سلاسل من الذهب تسلك السامعين فلا يفلت منهم أحد .
والتمثال على هذا الوضع لا يعثل غير بلاغة الخطيب .

وبعد كل ذلك يستخلص الزيات تعريفه للبلاغة ، فهي عنده بمعناها الشامل
الكامل : " ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة
أو الكلام " . فالتأثير في العقول عمل الموهبة المعلمة المفسرة ، والتأثير في
القلوب عمل الموهبة الجاذبة المؤثرة ، ومن هاتين الموهبتين تنشأ موهبة الاقتناع
على أكمل صورة .

وذهب الزيات بعد ذلك في حديث غير قصير يشرح ويحلل هذا التعريف متكئا
على شيء من علم النفس ثم يقول : ان " الغرض من تحليل هذا التعريف هو تجلية
المراد من قول البيانين : ان البلاغة هي مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال .
فليست الأحوال المفروضة أو المفروضة الا انفعالات العواطف في النفس ، أو اتجاهات
الخواطر في الذهن . وليست مقتضياتها الا الصور البلاغية المناسبة التي يهتم
اليها البليغ بطبعه أو فنه فيؤثر بها في هذه العواطف أو في تلك الخواطر التأثير
الذي يريد (٥) .

(١) لاهارب : ناقد فرنسي اشتهر بدروسه الأدبية التي ألقاها في الليسيه

وجمعها في مجلدين . توفي سنة ١٨٠٣ م .

(٢) سورين : شاعر فرنسي دراهي . توفي سنة ١٧٨١ م .

(٣) لبروير : كاتب أخلاقي فرنسي

(٤) سنك : أحد علماء البيان في روما

(٥) دفاع عن البلاغة ص ٣١ - ٤٢ بتصرف .

مع الدكتور بنت الشاطي * مرة ثانية :

لم ترض الدكتور عن صنيع الزيات بعرضه لكل هذه التعريفات البلاغية للعرب وغير العرب ثم استخلاصه هذا التعريف الذي نسبته الى نفسه . قالت : " ولقد تعب الأستاذ الزيات وأتعبنا في عرض تعريفات للبلاغة حشد فيها أقوال طائفة من الغربيين والعرب القدامى . ثم استخلص منها هذا التعريف الطويل العريض على حين اكتفت المدرسة الأدبية الحديثة بتعريف لا يتجاوز كلمتين اثنتين حين سمت البلاغة " فن القول " وهذا التعريف على ايجازه دقيق جامع مانع كما يقول المناطقه " (١) .

وحتى لا أعظم الدكتور قبل أن أرد عليها أعود - على سبيل التوثيق والتأكد - فأستعرض تعريف الأستاذ الزيات للبلاغة لأرى طوله وعرضه . لقد عرف البلاغة بأنها : " ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم عن طريق الكتابة أو الكلام . واني لا تسأل : أي طول وأي عرض في هذا التعريف ؟ أم أن المسألة مسألة تعصب لفرن القول وصاحب فن القول ؟ وماذا اذن تقول الدكتور في تعريف الامام محمد عبده للبلاغة - وهو لا يخفى على قلمها وأطلاعها بقول الامام : " ليست البلاغة في الحقيقة الامانة البيان وقوة النفس على حسن التعبير عما تريد من المعنى لتبليغ من مخاطبها ما تريد من أثر في وجدانه يميل به الى الرغبة فيما رغب عنه أو النفرة ما كان يميل اليه ، أو تمكين ميل الى مرغوب أو تقرير نفرة من مكروه ، أو تحويل في الاعتقاد وذوق النفس كذلك لمحاسن ما تسمعه ، أو وجوه النقد فيما يلقي اليها " (٢) .

ماذا تقول الدكتور في هذا التعريف ؟ ثم ماذا تقول في التعريفات المختلفة للبلاغة التي أوردها صاحب العمدة (٣) واستغرقت خمس صفحات كاملة من القطع الكبير ولم يقل أحد ان ابن رشيق قد تعب وأتعبنا معه في ايراد هذه التعريفات المختلفة للبلاغة .

(١) مجله الكتاب - المجلد الأول ص ٣٧٤ .

(٢) في البلاغة العربية - د . رجاء عيد ص ٨ .

(٣) ج ١ ص ٢٤١ تحقيق محيى الدين عبد الحميد .

وأجد من المنسب هنا أن أعرض رد الدكتور رجب البيومي على الدكتور فهد منطقي وطريف . قال : " أما أن الأستاذ الزيات أتعب قراءه وتعب في عرض تعريفه للبلاغة حشداً فيها أقوال طائفة من الغربيين والعرب فهذا افتراء عجيب ، لأن التعريفات قد وقعت في أقل من صفحة واحدة من القطع الصغير . . أفيكون الأستاذ تعب وأتعب في هذا المدى القصير . . ثم قالت ان المؤلف قد كتب للبلاغة تعريفاً طويلاً عريضاً . أفيدري القارئ أين الطول والعرض في قول الزيات عن البلاغة : ملكة يؤثر بها صاحبها في عقول الناس وقلوبهم من طريق الكتابة أو البيان ؟ أظن أن للطول والعرض مفهوماً خاصاً بالناقدة ولعلها تتحفظ به القراء . . ثم تقول : ان المدرسة الحديثة اكتفت بتعريف لا يتجاوز كلمتين اثنتين هو - فن القول - ومعنى هذا التفضيل الرقمي أنه لو عرف كاتب البلاغة بكلمة واحدة فقط لكان تعريفه أولى من تعريف المدرسة الحديثة " (١) .

ومعد : ما الجديد في تعريف الزيات ؟ وما وجه الدفاع فيه ؟ أما الجديد فهو أنه تعريف بسيط واضح لا يحتاج الى شرح ومحتجزات وهو واضح وتقارير ، وهو ماندعوا اليه في تجديد البلاغة من البساطة والوضوح في وضع الحدود والقواعد . وهو في ذلك قد نهي منحى الخولى في تسميته البلاغة " فن القول " ، والشايب حين اراد أن يسميها " الأسلوب " .

أما وجه الدفاع فانه غير ظاهر ، ولعله أراد أن يدفع عن البلاغة ما ران على تعريفها القديم من شروح لمقتضى الحال وما يتبع ذلك من محتجزات وتقارير ، وأن يساهم في ادخال بعض التعديلات والاضافات التي تجعل وجه البلاغة مشرقاً واضح القسما .

(١) الزيات بين البلاغة والنقد ص ٢٩٨ .

آلة البلاغة

بدأ الزيات حديثه عن آلة البلاغة بمهاجمة مدعى البلاغة والادب ، ورأى ان آفة الفن الكتابي أن يتعاطاه من لم يتهيأ له بطبعه ، ولم يستمن عليه بأداته ، وأكثر المزاويلين اليوم لصناعة القلم متطفلون عليها ، أغراهم بها رخص المداد وسهولة النشر واغضاها النقد . . ومن هنا شاع المبتذل وندر الحر ونفق الرخيص وكسد الغالى وكثر الكتاب وقلت الكتابة .

ولقد تحدث بعض البلغاء القدامى عن آلة البلاغة نذكر منهم أبا هلال العسكري وابن الاثير . ففي الصناعتين قال أبو هلال " ان من تمام آلات البلاغة التوسع فى معرفة العربية ، ووجه الاستعمال لها ، والعلم بفاخر الالفاظ وساقطها ومتخيرها ورد يثها ، ومعرفة المقامات ، وما يصلح فى كل واحد منها من الكلام (١) . "

وفى مكان آخر يقول : " ينبغى أن تعلم أن الكتابة الجيدة تحتاج الى أدوات جمّة وآلات كثيرة من معرفة العربية لتصحيح الالفاظ ، واصابة المعانى ، والى الحساب وعلم المساحة والمعرفة بالازمنة والشهور والاهلة (٢) . "

أما ابن الاثير فقد تحدث فى مثله السائر عن آلة البلاغة حديثا ضافيا حين أضاف - الى ما تقدم من العلم باللغة وسائر الفنون الأخرى - الطبع فهو الاصل والأساس : " اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر الى آلات كثيرة . وقد قيل ينبغى للكاتب أن يتعلّق بكل علم حتى قيل : كل ذى علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه فيقال : فلان النحوى وفلان الفقيه وفلان المتكلم ، ولا يسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة فيقول : فلان الكاتب . وذلك لما يفتقر اليه من الخوض فى كل فن وملاك هذا كله الطبع فانه اذا لم يكن ثم طبع فانه لا تغنى تلك الآلات شيئا . ومثال ذلك كمثل النار الكامنة فى الزناد والحديدة التى يقدر بها ألا ترى أنه

(١) الصناعتين ص ٢٧ .

(٢) " ص ١٦٠ .

إذا لم يكن في الزناد نار لا تخفى تلك الحديد شيئا (١) .

والآن : ماذا قال الزيات عن آلة البلاغة ، وما رأيه فيها ؟ لقد لخص الزيات
رأيه عن آلة البلاغة في أمرين :

أ - الطبع الموهوب .

ب - العلم المكتسب .

ونلاحظ للوهلة الأولى أنه لم يخرج في تعريفه لآلة البلاغة عن تعريف ابن الاثير
والعسكري " ولكن نلاحظ أيضا أنه في شرحه لهما (الطبع الموهوب والمكتسب)
الكتسبي كان أكثر دقة ووضوحا . يقول عن الطبع :

" والمراد بالطبع ملكات النفس الأربع التي لا بد من وجودها في البليغ ، ولا حيلة
في ايجادها لغير الخالق ، وهي : الذهن الثاقب ، والخيال الغصب ، والعاطفة
القوية ، والاذن الموسيقية . فان كنت على يقين جازم من وجود هذه الملكات فسي
نفسك فامض على ضوءها في طلب هذا الفن فانك لا محالة واصل .

وسألني عليك بعض الاسئلة لتعلم من أجوبتك عنها ان كنت موهوبا أو غير موهوب :

• هل يتأثر خيالك في يسر ، ويتحرك فؤادك في سهولة ، ثم يكون بين الخيال
والقلب تجاوب سريع ؟

• هل تجد لاذنك الحساسية الرهيفة لانسجام الألفاظ ، وازدواج الفقر ،
واقضاع التراكيب ؟

• هل يطغى مشاعرك جمال البلاغة في روائع الشعر والنثر ؟

• هل تحس في نفسك السمو اذا حمسها الاطلاع على الأمثلة الرفيعة من البلاغة

فتتحرك للمنافسة والمباراة ؟

• هل تشعر حين يتجه فكرك الى موضوع ما أن فكرته الجوهرية الأولية لا تلبث فنى
ذهنك أن تحيا وتنمو ، ثم تتشكل وتتولد ، ثم تتوالد وتنتشر ؟

• هل تشعر بالحاجة الملحة والتوقان الشديد الى الانتاج الناشئ عن فيض
الحقيقة وحرارة الفكر ؟

• هل يسهل عليك ادراك العلاقة بين الأفكار المجردة والموضوعات المحسوسة
فتخرجها في الصورة المقبولة والالوان المناسبة ؟

• هل تتمثل المعانى في ذهنك من تلقاء نفسها على أفضل الوجوه الصالحة
للتعبير والتصوير ؟

• هل تحس حين تفكر في موضوع شعري أن العواطف تنثال على نفسك ثم تتزاحم
وتتدافع طالبة الانبثاق والتدفق ؟

ان كانت أجوبتك عن هذه الاسئلة بنعم . . فأنت تملك الطبع الموهوب (١) .

وللاستاذ رجب البيومي رأى في هذه الاسئلة . فهو يرى أن : " هذه الاسئلة
جيدة التشخيص صحيحة النتيجة دقيقة الميزان ، ولكنها تؤتى من خطر واحد يعصف
بها كما تعصف الريح بالرماد . ذلك أن المسؤل في كثير من أحيانه لا يقدر نفسه
تمام التقدير ، فان دخلاء كثيرين من ادعياء البلاغة يجيبون عن هذه الاسئلة بنعم
دون نكوص ، لا لأنهم يكذبون على الناس وأنفسهم تعلم من خوائها ما تعلم ، بل
لأنهم يتأكدون أنهم موهوبون يتسمنون البلاغة في أرفع مراقبة . فكم من دعى يعتقد
أن خياله يتأثر في سرعة ، وأن قلبه يحفل بأرق المشاعر وأن أذنه حساسة تطرب
لموسيقا البيان ، وأن خواطره تنثال على نفسه انشيا لا اذا حاول علاج فكرة أو تحليل
عاطفة ، ثم تتولد وتتوالد وتنتشر ، وكم رأينا من شعر بالحاجة الى التعبير شعرا

(١) د فاع عن البلاغة ص ٤٣ - ٤٦ بتصريف .

ونشرا ثم فاجأنا بما يغشى النفوس ويصدع الرؤوس . لذلك كانت هذه الاسئلة على جودتها الجيدة لاتصلح الا للموهوب فعلا ، يأنس لها أنسا صادقا حين يجسد افصاحها عن ذاته واضحا سافرا ، أما غير الموهوب فتزيده غرورا حين يجيب بنمسم مكان لا " (١) .

أما آلة البلاغة الثانية وهى : العلم المكتسب . فالزيات يرى أن " الكاتب اذا كان ناقص العلم أو قليل الاطلاع ، يدركه الجفاف فلا يكون فى آخر أمره الا سارد ألفاظ ومقطع جمل . ذلك أن معارف الكاتب هى منابع انتاجه . والمسؤل المعرفة له كألوان التصوير للمصور يجب أن تكون كلها على اللوحة قبل أن يقبض على الريشة . والمعارف لا تستفاد الا بمواصلة الدرس وادمان القراءة .

وأقل ما يجب على طالب البلاغة درسه ، هو : اللغة والطبيعة والنفس أما اللغة : فلأنها أداة القول والكتابة . وللثقافة العامة منها قدر مشترك يجب تحصيله على كل مثقف . لكن الكاتب أو الشاعر محتوم عليه أن يدرسها دراسة خاصة : يتطلع من مادتها ، ويتعمق فى فقهها ، ويتبسط فى أدبها ، ويحيط بعلومها ، ويوغل ما استطاع فى استبطان أسرارها ، واستقراء أطوارها ، حتى تكون لسانه وقلمه أطوع من الشمع ليد المثل الماهر . ومن زعم أن علوم اللسان لا ينبغى حذقها لغير الأزهرين أو المتخصصين فهو هازل لا يريد أن يكون شيئا مذكورا فى هذا الفن

وكان الأشبه بطبيعة الموضوع أن نفصل الكلام فى تحصيل علوم اللسان ووضع الخطأ لها وبيان الفائدة منها . ولكننا فى مقام من يدافع ولا يعلم ، ويوجه ولا يقسم . وقد يما شكا عبد القاهر ما نشكو من زهادة الكتاب فى اللغة ، وانصرافهم عن النحو ، واستغفاهم بالبيان ... وظنهم أن الكاتب متى " عرف أوضاع لغة من اللغات . . وعرف المفرد من كل لفظة ، ثم ساعده اللسان على النطق بها ، وعلى تأدية أجراسها وحروفها ، فهو بين فى تلك اللغة كامل الاداة " .

ولقد حاول عبد القاهر أن يطب لهذا الداء^١ فوضع كتابيه القيمين (دلائل الاعجاز) و (أسرار البلاغة) . . . ثم عقم الدهر بمثل عبد القاهر ، وانقطعت الأسباب بين كتابيه وبين الزمن ، فتجددت معان وصور ، وتولدت أغراض وأساليب ، وأصبح هذان الكتابان في أول الطريق ضارا لا ترى بعده الا أغفالا ومجاهلا فهل في البيانين من أساتذة جامعاتنا من يحاول في البلاغة الحديثة ما حاول عبد القاهر في البلاغة القديمة ، فيجدوا ما درس ، ويكملوا ما نقص ، ويقيموا أدب الكتابة وأدب النقد على قواعد ثابتة من الفن الصحيح والعلم الحديث ؟ (١) .

وأنا أقف أمام هذا الكلام الأخير للزيات متعجبا . فهل يعقل أن الاستاذ الزيات لا يعلم بأن من أساتذة الجامعة من تقدم بخطة ومناهج جديدة للبلاغة ؟ فالاستاذ الشايب أصدر كتابه (الاسلوب) عام ١٩٣٩ والاستاذ أمين الخولى أصدر كتابه (فن القول) في عام ١٩٤٧ بينما أصدر الاستاذ الزيات كتابه (دفاع عن البلاغة) بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات هذا الى أن معركة البلاغة بين الدكتور العمارى والشيخ أمين الخولى دارت على صفحات مجلته (الرسالة) . فكيف بعد كل ذلك لا يشير الى كتابي الاسلوب وفن القول ويتفاضى عنهما وهو يهيب بأساتذة الجامعة البيانين أن يحاولوا في البلاغة الجديدة ما حاول عبد القاهر في البلاغة القديمة ؟ أما كان المفروض أن يعرض لهذين الكتابين وما ورد في كل منهما من تخطيط جديد للبلاغة وينتقدهما ويبين رأيه فيهما وهو يدافع عن البلاغة ؟ وإذا كان الاستاذ الزيات يرى أن طالب البلاغة يجب أن يدرس - على الأقل - بجانب اللغة الطبيعية والنفس فذلك ليس بجديد فقد سبقه الى هذا رأى منذ سنين الاستاذ الشايب في " الاسلوب " ، والاستاذ الخولى في " فن القول " وزاد على ذلك علوما أخرى ذكرناها هناك في مكانها .

والاستاذ الزيات يرى أن درس طالب البلاغة للطبيعة من الاهمية بمكان . وذلك لانها " كتاب الفنان الجامع ومصوره العجيب . منها موضوعه ومادته ، وعنهما اقتباسه ووحيه ، وفيها دليله ومثاله ، وبها أخيلته وصوره ، فيجب أن يطيل فيها

(١) دفاع عن البلاغة ص ٤٦ - ٥١ بتصرف .

النظر ، ويشغل بها الفكر ، ويرجع في كل ما يعمل لأصولها الثابتة وقواعدها المقررة ، ليتقى الضلال والخطأ ، ويأمن الاغراق والتكلف .

هذا الكتاب المحيط بالمعجز الذي ألقته يد القدرة قد تجمعت على هوامش متنه الهائل عقول بنى آدم منذ استبصروا ، يحاولون كشف أسرار وفهم حقائقه ، فوفقوا بالاستقراء^(١) والاستنباط الى ابتكار علوم ، وابتداع فنون ، تخصص في هذه أقوام ، وفي تلك أقوام ، كالجيولوجيين والجغرافيين والطبقيين والكيميائيين والفلكيين والمهندسين وسائر من يتصل علمهم أو علمهم بالأرض والسماء ، والبيس والماء ، والجماد والحي . والاديب وحده هو الذي يجب عليه أن يشارك في كل علم ويلم بكل فن ، لانه عرضة لان يكتب في كل أولئك ولو على سبيل التصوير والتشبيه (١) .

وأما دراسته للنفس فلانها ينبوع الشر لما يزره الشعر والنثر من مختلف الفرائز والعواطف والافكار والاحاسيس . . . واذ كان من خصائص فن الكاتب أن يخلق اشخاصا للقصص ، ويمثل أهواء على المسرح ، ويعالج أخلاقا في المجتمع ويحلل عقدا في الناس ، فمن غير المعقول أن يحسن شيئا من أولئك اذا لم يكن عليا بأسرار القلوب وأهواء النفوس وما ينشأ من التعارض والتصادم بين الفرائز والاخلاق ، وبين العواطف والمنافع . واذ كان مدار البلاغة على مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال ، فان ادراك الفروق الدقيقة بين الحالات المختلفة للمخاطب ، وصياغة الكلام على قوالب المقتضيات المناسبة للمخاطب ، وتصوير الاخلاق على نحو يفرى بالخير أو يحذر من الشر ، والقدرة على خلق الجمال في الأسلوب ، أو التعبير عما يخلقه الجمال فينا من العواطف ، كل أولئك يستلزم دراسة خاصة لعلم النفس وعلم الاخلاق وعلم الجمال (٢) .

وكأنما أحس الاستاذ الزيات أنه ساق كلامه على عجل ووضعه في تعميم وإيجاز

(١) دفاع عن البلاغة ص ٥١ و ٥٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٣ و ٥٤ .

فقال : هذا كلام أشبه بالمتن فى تعميمه وإيجازه . والعذر المسوغ لهذا الأسلوب أننا نخاطب الكتاب ونبين الحدود ونبرز الخصائص ، ومن أجل ذلك قصرنا الكلام على اللغة والطبيعة والنفس من جملة ما يجب على طالب البلاغة درسه ، لأنها فنى رأينا أشبه بعلوم التخصص له . والمفروض أن يخصصها بطول النظر بعد أن يأخذ قسطه الأوفى من ضروب الثقافة .

وبعد : ان حديث الزيات عن آلة البلاغة - هو كما يقول - حديث من يدافع ولا يعلم ، ويوجه ولا يقود . وهو يرى أن الذنب فى تأخر البلاغة وجمودها ليس ذنب البلاغة ، وانما هو ذنب أولئك المدعين الخاوين من الموهبة والعلم ، فهم الجانسون على البلاغة والأدب . ولو أنهم التمسوا لفن البلاغة آله ووسيلته من الطبع الموهوب والعلم المكتسب لافادوا البلاغة ونهضوا بها .

الذوق

يكتر تردد كلمة (الذوق) فى البلاغة ، كما يكتر تردد كلمة (العقل) فى الفلسفة . ذلك لأن حاسة الذوق هى أداة الفن ، كما أن ملكة العقل هى أداة العلم . فمن لا يذوق لا يدرك الجمال . ولم تؤت البلاغة الا من فساد الذوق فيمن يكتب أو فيمن يقرأ . ولم أجد فيما أشرعن أدبنا ، ولا فيما نقل السى لغتنا ، كلاما يفيد طالب البلاغة فى موضوع الذوق على ما له من بليغ الأثر فى انشاء العمل الفنى وصحة تقديره ودقة نقده . لذلك لم أر من الفضول ، وأنا فى مقام الدفاع عن البلاغة أن أحاول تجلية هذا المعنى^(١) .

كانت هذه هى الكلمات الأولى التى كتبها الأستاذ الزيات فى هذا الموضوع الهام (الذوق) .

الذوق وتجديد البلاغة :

ولئن كان الزيات يتحدث عن الذوق وهو فى مقام الدفاع عن البلاغة ، فإنه يهمنى أن نتحدث عن الذوق ونحن فى مقام الدعوة الى تجديد البلاغة . وما أصدق الزيات حين قال : " ولم تؤت البلاغة الا من فساد الذوق فيمن يكتب وفيمن يقرأ " .

ولئن تأملنا لوجدنا أن السرعة التى نعيش عصرها قد أفسدت الأذواق الأدبية وكذلك الصحافة فى عصر السرعة ساعدت على فساد الأذواق ، ثم هؤلاء المتطفلون الذين فرضوا أنفسهم على الجو الأدبى والصحفى فى البلاد . وكان الزيات حينما نبه الى هذه البليات الثلاث : السرعة - الصحافة - التطفل ، وما لها من أثر فى التنكر للبلاغة ، انما كان يقصد أن هذه البليات الثلاث قد جارت على الأذواق فأفسدتها ، فجنت بذلك على البلاغة .

وهل نستطيع فى هذا المقام أن ننسى الاذاعة والتلفزيون والمسرح والسينما وما لها من أثر كبير فى فساد الأذواق .

ان الذوق هو مناط الادراك والتقدير لأى فن من الفنون عامة ، وفن البلاغة خاصة . ومن هنا كان من حق الزيات وهو يدافع عن البلاغة أن يتحدث عن الذوق وأهميته وأن يدلى برأيه فى هذا الموضوع . وكان من حقنا ايضا ونحن نتحدث عن تجديد البلاغة الا نغفل هذا الموضوع دون تدبر ونظر .

وقبل أن نتطرق الى ماهية الذوق عند الزيات نجد من الملائم أن نشير الى مفهوم الذوق عند العرب فنذكر ما ذكره الدكتور احمد بدوى من أن العرب عرفوا للذوق معنيين :

أحدهما : الملكة الراسخة فى النفس الناشئة من ممارسة كلام العرب .

ثانيهما : الاستعداد الفطرى الذى يهبى صاحبه لادراك ما فى الكلام من جمال وما لهذا الجمال من سر .

وقد خرج الدكتور بدوى بهذا الحكم بعد الموازنة التى عقدها بين عبد القاهر وابن خلدون وأوضح اختلاف نظرة كل منهما الى الذوق . فابن خلدون اعتد بالذوق المثقف ثقافة أدبية لغوية ، أما عبد القاهر فيرى أنه استعداد خاص يهبى صاحبه لتقدير الجمال وفهم أسرار الحسن فى الكلام (١) .

والآن ماهو الذوق عند الزيات :

يقول : " الذوق حاسة معنوية يصدر عنها انبساط النفس أو انقباضها لسمى النظر فى أثر من آثار العاطفة والفكر (٢) " فهو بذلك يميل الى نظرة عبد القاهر الى الذوق فالحاسة المعنوية ان هى الاستعداد فطرى خاص .

ويرى الزيات ان الناس قد يما فطنوا (الى الشبه بين الذوق الحسى الذى يميز بين الطعوم ، وبين هذا الذوق المعنوى الذى يحكم فى نتاج الفنون . وأنهم لم يقفوا بوجه الشبه بين هاتين الحاستين عند طبيعة الادراك ، وانما تعدوا به الى قابليتهما للكمال والنقص ، واختلافهما بين الناس باختلاف الزمان والمكان والخلق والمادة .

(١) انظر أسس النقد الأسمى عند العرب ص ٨٧ وما بعدها .

(٢) دفاع عن البلاغة ص ٥٥ و ٥٦ .

على أن التنوع والتغير والاختلاف فى الذوق الحسى أضعف وأقل ، لأن مجاله مادي محدود ، وادراك المادى قريب ، واستيعاب المحدود ممكن ، وفصل الطبيعة والبيئة فى تطوير الفرائز بطى* لا يكاد يحس . أما الذوق المعنوى فمجاله مايمجيب وما لا يمجب من أعمال النفس والذهن . والمعجب ~~بشيء~~ المعجب من هذه الأعمال أمور لا تزال تتأثر بعوامل الزمن والاقليم والجنس والتربية والثقافة والحضارة والطبقة والسن . وكلما التبتت هذه الأمور التبتت الذوق الذى يسيرها ويدبرها ويفرق بينها ويحكم عليها . فالذوق الحسى مرجعه الى الطبيعة والطبيعة طريقة واحدة . والذوق المعنوى مرجعه الى المادة وللحادة طرق متعددة .

وان لا يمكن الظفر بذوق عام تصدر عنه أحكام الناس على الأعمال الفنية فان ما يعجب الحضرى قد لا يعجب البدوى ، وما يطرب المصرى قد لا يطرب الأوروبى . فكيف نجعل الذوق اذن ميزانا فى البلاغة وهو على هذا الاختلاف^(١) .

والى هنا وصلنا فى حديثنا عن الذوق الى طريق مسدود ، فالذوق لم يعد صالحا للحكم على الأعمال الفنية وبالتالى صدورها عنه .

وفى محاولة للبحث عن حل ومخرج يقول الزيات :

(ان للذوق مصدرين يستمد منهما الحكم فى جميع قضاياها : أحدهما : العقل المتزن ، وهو يحكم فى التناسب والقصد والترتيب والعلائق المشتركة بين السبب والنتيجة ، أو بين الطريقة والغاية . والذوق المستمد من هذا المصدر له ما للعقل من الوضوح الذى يشرق فى كل نفس مهيبة ، وقواعده كقواعد العقل لا تتغير لأنه ثابت مطرد . والفنان الذى أوتى ثقب ذهن يكون فى مأمن من الزيغ اذا اتبع قواعد الفن لأنها وضعت على هذا الأساس المكين .

والمصدر الآخر هو : الماطفة ، وهى الشعور الواقع على النفس مباشرة من طريق الحواس . وهنا كان مجال الاختلاف وسبب التباين ، لأن الحقيقة فى الفنون غير الحقيقة فى العلوم - هى فى العلوم محصورة مضبوطة ، ولكنها فى

الفنون منتشرة مبسطة ، ومن ذلك كان التدرج من الحسن الى الأحسن ، ومن الفائق الى الممتاز . ولم ينشئ هذه الفروق الا هذا الذوق العاطفي الذي يتولد من الصفات والعادات والحوادث فيجعل الحقيقة الفنية تختلف في نفسها من شعب الى شعب ، ومن قرن الى قرن ، حتى لتختلف في المكان الواحد ، وفي الزمان الواحد ، تبعاً لحالات العواطف وانطباعات الأحداث واختلافات الميول . .
(١) لابد للذوق ان من استمداد العقل والعاطفة كليهما في تكوين حكمه .

الذوق بين عبد القاهر وابن خلدون والزيات :

ونشعر بعد قراءة هذا الكلام أن الاستاذ الزيات لم يجد رأى عبد القاهر الجرجاني في الذوق مجدياً في العصر الحديث ، وأن الاستمداد الفطري الخاص لم يعد وحده صالحاً للحكم في العمل الفني أو التأثير فيه . فعدل عن هذا الرأي الى رأى ابن خلدون الذي اعتبر الذوق : ملكة راسخة في النفس ناشئة من ممارسة كلام العرب . وهذه الملكة سماها د . أحمد بدوي " الذوق المثقف " ثقافة لغوية وأدبية . وقد استخلص ذلك من قول ابن خلدون في مقدمته :

(اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان . ومعناها : حصول ملكة البلاغة للسان . وقد مر تفسير البلاغة ، وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه ، بخواص تقع للتركيب في افادة ذلك ، فالمتكلم بلسان العرب والبلغي فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وأنحاء مخاطبتهم ، وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده ، فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على ذلك الوجه ، وسهل عليه أمر التركيب ، حتى لا يكاد ينحرف فيه غير منحى البلاغة التي للعرب . وان سمع تركيباً غير جار على هذا المنحى مجه ، ونبا عنه سمعه بأدنى فكر ، وبغير فكر ، الا بما استفادته من حصول هذه الملكة ، فان الملكات اذا استقرت ورسخت في محالها ، ظهرت كأنها جبلة وطبيعة لذلك المحل . . لذلك يظن كثير من المغفلين ممن لا يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم اعراباً وبلاغة أمر طبيعي ، ويقول كأنست العرب تنطق بالطبع ، وليس كذلك ، وانما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت
(١) دفاع عن البلاغة ص ٥٧ و ٥٨

ورسخت فظهرت في بادى الرأى أنها جبلة وطبع ، وهذه الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع ، والتفطن لخواص تركيبه ، وليسست تحصل بمعرفة القوانين العلمية التى استنبطها أهل صناعة اللسان ، فان هذه القوانين انما تفيد علما بذلك اللسان ، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل فـ (١) محلها واما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتیاد والتكرر لكلام العرب . (١)

وعلى هذا فان الذوق عند ابن خلدون هو : الملكة الناشئة من ممارسة كلام العرب . ولو أن د . أحمد بدوى سماها : الذوق المدرب ، لكان أقرب .

ورأى الزيات في الذوق أقرب الى رأى ابن خلدون ، فهو يرى أنه " لا بد للذوق من استمداد العقل والعاطفة كليهما في تكوين حكمه " . ولا شك أن الزيات يقصد العقل المثقف المدرب .

والحقيقة أن الذوق في العصر الحديث يجب أن يكون ذوقا مثقفا مدربا حتى لا تختلف الأذواق اختلافا بينا وحتى نستطيع أن نجمع - ولو الى حد ما - على رأى واحد أو قريب في حسن العمل الفنى والأدبى أو قبحه . فحتى الآن لم نتفق - ولو الى حد ما - على حسن الشعر الحديث المرسل - مثلا - أو قبحه ، وتباينت فيه الأحكام ، واختلفت الآراء ، دون أن نصل الى نتيجة حاسمة . وما زال الشعر المرسل يصول ويجول بل يغطى على الشعر العربى العريق الأصيل . .

من أجل ذلك يجب ألا يترك الذوق على عواهنه بل يجب أن نقوم بترشييد الذوق وتعريفه الجيد والردى* وتدريبه على ادراك كل منهما . وانا اختلفنا بعد ذلك في تحديد درجة الجودة أو درجة الرداءة فهذا أمر ميسور وضرره مقصور .

الذوق بين الشايب والخولى والزيات :

اذا كان الزيات قد جعل للذوق مصدرين هما : العقل والعاطفة ، فان الاستاذ الشايب قد جعل للذوق ثلاثة مصادر هى : العاطفة والعقل والحس . وذلك حين قال : (وليس الذوق ملكة بسيطة كما قد يتوهم ، ولكنه مزيج من

العاطفة والعقل والحس ، وربما كانت العاطفة أهم عناصره وأوسعها سلطانا فى تكوينه ومظاهره وأحكامه ، وكان تأليفه هذا من أسباب اختلاف الأفراد ان يندرو أو يستحيل أن تجد اثنين يتفقان فيما يصيبان من هذه العناصر كيفا وكما ، وكان لذلك مظهره فى نقد الأدب ، فمن غلب عليه عنصر الفكر أثر شعراء المعانى أمثال أبى تمام وابن الرومى والمتنبى وأبى العلاء وفضل كتاب الثقافة كالجاحظ وابن خلدون ، ومن غلبت عليه العاطفة فتن بشعراء النسيب والحماسة والعتاب والخطباء والوصاف ، ومن كان شديد الحس فضل أسلوب البحترى وشوقي كما يفضل الموسيقا والرسم الجميل ^(١) .

وهذه المصادر الثلاثة - العقل والعاطفة والحس - التى جعلها الشايب مصدرا للذوق ترجع فى الحقيقة الى اثنتين ، لأن الزيات جعل العاطفة نتيجة للشعور الواقع على النفس من طريق الحواس ، فهما ان شئ واحد ^(٢) .

أما الاستاذ الخولى فقد جعل الذوق (هو الأساس الأول ، والعامل الأقوى ، واليه المنتهى ، وعنه المصدر ، وهو شئ لا سبيل الى تلقيه وتعليمه ، والتبصير بمصادره ومراجعته لأنه شئ ليس فى الكتب كما قال القدماء ، ولا هو مما يكسبه من حرم أصله . . هو الذوق الذى لو أجملنا كل محاولة فى تصيير البلاغة فن القول لاعتمدت عليه ، ولم تتم الا به ، وكان العدة الفردية فى تحقيقها ، فما نحتاج فى شئ من ذلك كله ، الى أكثر من ذوق مشفق : فطرة تمنحها السماء وتمدها ثقافة كاملة ، وذلك هو ملاك الأمر ومساكه ^(٣))

ونلاحظ أن رأى الخولى متفق وجار مع رأى ابن خلدون فى أن العبرة بالذوق المشفق لا غير . وانذا كان الأمر كذلك فان هناك سؤالا يطرح نفسه ، وهو كيف يتكون الذوق : أو بتعبير أدق : كيف نشقف الذوق وندره . يقول الاستاذ الزيات : (كان الذوق فى العصور الذهبية يتكون فى الأديب بالدراسة الفقهية لعلوم الأدب والقراءة النقدية لروائع الفن ، والصحبة المتصلة لأمراء البيئات ، وغشيان مجالسهم ، وطول الاستماع اليهم ، وأخذ النفس بمحاكاتهم ، وامتحان

(١) أصول النقد الأدبى ص ١٢١ ط ٧

(٢) الزيات بين البلاغة والنقد ص ٢٧٨

(٣) فن القول ص ٢١٣

الآراء والأذواق بمحاكمهم ، بعد أن يجمع الأديب وعاء قلبه على خير ما أشرع عن
العباقة الداهيين من بليغ النظم والنثر في الأحوال المختلفة والأغراض المتنوعة . (١)

ويرى الزيات : أن متأدبي اليوم لا يقرءون الا (صحف الاخبار ومجلات
الفاكهة وأقاصيص اللهو وملخصات العلم . وأكثر ما يقرءون صور منقولة أو مقبوسة
عن أدب الغرب لا تربي في القارئ الا ذوقا مذبذبا لا يثبت على لون ولا يستقيم
على خطة . ومثل هذا الذوق المطلق المستعار لا ينظر الى (الأملسى)
و (الأغاني) و (اللزوميات) الا كما ينظر الى العمامة والقباء والجبة ، فهي
في حكمه أشياء قضت عليها (المودة) وللمودة في كل يوم زى يتجدد معه الذوق
ويتعدد ! وليس معنى ذلك أن الذوق الأدبي العربي فسد في كل نفس ، انما
نتحدث عن الكثرة ، والكثرة في عهد الديمقراطية تتحكم في القلة : تحدث لها
المستوى ، وتعين لها الاتجاه ، وتنصب أمامها الفرض ، بله العدو ، فانها
الى الأصحاء مؤكدة سريعة .

على أن في كتاب العربية المعاصرين صفوة مختارة لا تزال في وسط هذه
الأذواق المتنوعة المتناقضة مخلصة للذوق الطبيعي الخالص ، تذود عنه ، وتدعو
اليه ، وتأبى أن تنزل به الى تمليق الدهماء ، ولو فقدت في سبيله انتشار الصوت
ورواج القلم . وأغلب هذه الصفوة من أبناء الأزهر ودار العلوم ومن تلمذ لهم ،
لأن الذوق الأدبي عندهم هدى من الوحي الالهى أنزله الله في القرآن ، وأرسله
في الأدب ، فجرى في النفوس المؤمنة مجرى العقيدة ، لا يحسن في مكان دون
مكان ، ولا يصلح لزمن دون زمن (٢)

وأخيرا يرى الزيات أن (مستقبل البلاغة منوط بتغلب الذوق الطبيعي
المأثور على الذوق المزيف المستحدث . واذا قلت ان سلامة القومية العربية موقوفة
كذلك على هذا التغلب لم نعد الحق ، لأن الأذواق والأخلاق والعادات هي
عناصر الشخصية التي تميز فردا من فرد وأمة من أمة . وسبيل الغلبة والفلسج
للذوق الحر تربيته وتقويته (٣)

(١) دفاع عن البلاغة ص ٦١

(٢) المرجع السابق ص ٦٢

(٣) المرجع السابق ص ٦٥ و ٦٦

والواقع أن الاستاذ الزيات لمس وترا حساسا في دفاعه عن البلاغة ولم يكن مهالفا حين قال : " ان مستقبل البلاغة منوط بتغلب الذوق الطبيعي المأثور على الذوق المزيف المستحدث " . وذلك أمر يهمننا أن نبرزه ونوضحه في مقام دعوتنا الى التجديد . ان يجب أن يراعى في تجديد البلاغة العناية بتربية الذوق والوصول به الى مرتبة الذوق المثقف ، وذلك عن طريق اختيار النصوص الملائمة المساعدة على تربية هذا الذوق . وكذلك عن طريق دراسة بعض العلوم التي ورد ذكرها كاللغة والطبيعة والنفس بجانب العلوم الأساسية اللازمة لتقويم القلم واللسان كالنحو والصرف .

ولقد ذهب الاستاذ الزيات في نظريته الى أهمية الذوق الى حد بعيد ونبه الى أمر خطير حين قال : " واذا قلت ان سلامة القومية العربية موقوفة كذلك على هذا التغلب لم تعد الحق " . وأزيد على ذلك : أن سلامة العقيدة موقوفة كذلك على هذا التغلب . فأمر الذوق ان جد خطير ، والعناية به وتربيته ليس واجبا بلاغيا فحسب ، ولكنه واجب قومي وديني كذلك .

الأسلوب

لعل ما عرضته عليك من اجمال القول في البلاغة كان توطئة لتفصيل الكلام في الأسلوب . ذلك لأن الأسلوب هو مظهر الهندسة الروحية لهذه الملكة النفسية يبرزها للعيان ويصل بينها وبين الأذهان ، وينقل أثرها المضر إلى الأغراض المختلفة والفايات البعيدة . وكتب البلاغة في لغتنا لم تمنعنا إلا بالجمال وما يعرض لها في علم المعاني ، والا بالصور وما يتنوع منها في علم البيان . أما الأسلوب من حيث هو فكرة وصورة معا فقد سكنت عن سكوت الجاهل به . وكان الظن بمن خلفوا عبد القاهر وأبا هلال وابن الأثير أن يفتنوا إليه بعد ما دلوهم عليه بذكرهم بعض خصائصه الفنية وصفاته اللفظية ، وان كان ما ذكره من ذلك جافاً فطيراً لم يخمر ، وخديجاً لم يكتمل ، وشائعاً لم يحدد ، ومشوشاً لم يرتب . ولكنهم صموا عن تنبيه العسكري ، وعموا عن توجيه الجرجاني ، ومضوا على نحائهم الأعجمية يفلسفون النحو والبلاغة لا لشيء غير الفهاهة والحدلقة^(١) .

ونستنتج من هذا الكلام للزيات أنه يدافع عن البلاغة الأولى ، بلاغة المدرسة الأدبية وأعلامها من أمثال عبد القاهر وأبي هلال وابن الأثير ، فان هؤلاء لم يقصروا وذكروا الأسلوب وتحدثوا عنه ، وان كان ما ذكره من ذلك جافاً فطيراً لم يخمر ، وخديجاً لم يكتمل . ولكن أليس هؤلاء الأعلام عذرهم ؟ فان النظرة الأدبية في عصرهم كانت تتوجه إلى البيت والبيتين ، والجملة والجملتين ، ولم تكن النظرة الشاملة إلى النص كله قد وجدت بعد .

ونستنتج من كلام الزيات أيضاً أن هدفه الأول في دفاعه عن البلاغة هو الكلام عن الأسلوب ، وأن ما فات كله إنما كان توطئة وتمهيداً لتفصيل الكلام عن الأسلوب .

ولسنا مع الاستاذ الزيات في هذا القول ، فان ما فات من آراء وأفكار كان كبير الأهمية عظيم الخطر . فأسباب التنكر للبلاغة لم يكن أحد يلتفت إليها من قبل ، وحديثه عن حد البلاغة وأكتمها حديث له أهميته وقدره ، أما حديثه عن

(١) دفاع عن البلاغة ص ٦٨ .

عن الذوق فقد كان دقيقا رائعا ، كشف به عن أهمية الذوق ومكانته وخطر شأنه لا بالنسبة للبلاغة فحسب ، بل بالنسبة للقومية العربية وتربية الشخصية العربية كذلك .

وليس معنى ذلك أننا ننقص من قدر الأسلوب وأهميته ، فإن الأسلوب من الدراسات الأدبية المستحدثة الهامة التي نادى دعاة التجديد بإدخالها فى منهج البلاغة الجديد .

والاستاذ الزيات . وان كان يرى أن الأسلوب بحث جديد ، الا أنه يرى - كما أوضح من قبل - أن للأسلوب جذورا فى القديم . ولذلك أتى بتعريف ابن خلدون للأسلوب ، غير أنه أتى به مقتضبا ناقصا من أوله حوالى ثلاثة أسطر ، ومن وسطه حوالى سطرين . ونحن نوره بأكمله .

يقول ابن خلدون : " ولنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة - صناعة الشعر - وما يريدون بها فى إطلاقهم ، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذى ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذى يفرغ فيه ، ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذى هو وظيفة الاعراب ، ولا اعتبار افادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذى هو وظيفة البلاغة والبيان - ولا باعتبار الوزن كما تستعمله العرب فيه الذى هو وظيفة العروض ، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية - وانما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنظمة لكيسة باعتبار انطباقها على تركيب خاص ، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ، ويصيرها فى الخيال كالقالب والمنوال ، ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا ، كما يفعل البناء فى القالب والنساج فى المنوال ، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربى فيه ، فان لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة (١)

ولست أدري ماذا تقول الدكتور بنت الشاطىء فى طول هذا التعريف وعرضه ، فهى اذا كانت تعتبر تعريف الزيات للبلاغة طويلا وعريضا وهو سطر واحد

فماذا اذن تقول فى هذا التعريف ؟ ! ولعل هذا ما حدا بالزيات أن يحذف منه أكثر من خمسة أسطر فلا أظنه حذفها استغناءً عن معناها . وإذا كان الأمر مجرد اثبات جذور للأسلوب فى القديم أما كان يكفى تعريف عبد القاهر عن الأسلوب بأنه " الضرب من النظم والطريقة فيه ^(١) . خاصة وأن الزيات رجل بليغ ويدافع عن البلاغة ويقول ان من صفاتها (الوجازة) كما سيأتى بعد قليل .

وبعد ما هو الأسلوب عند الزيات ؟

" هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام ^(٢)

ويذكرنا هذا التعريف بالاستاذ الشايب حيث عرض فى حد الأسلوب تعريفين أولهما : أن " الأسلوب معان مرتبة قبل أن يكون ألفاظاً منسقة ، وهو يتكون فى العقل قبل أن ينطق به اللسان أو يجرى به القلم ^(٣) . وثانيهما أن الأسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير ^(٤) .

ونلاحظ بين الزيات والشايب فرقاً فى تعريف الأسلوب . فالزيات يعتبر الأسلوب خاصاً باختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، بينما الشايب ينظر الى الأسلوب نظرة أشمل فهو عنده معان فى النفس قبل أن تكون عبارات على اللسان أو فوق الورق .

اختلاف الأسلوب ومداه :

إذا كان الأسلوب عند الزيات هو : طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام فإن " هذه الطريقة فضلاً عن اختلافها فى الكتاب والشعراء تختلف فى الكاتب أو الشاعر نفسه باختلاف الفن الذى يعالجه ، والموضوع الذى يكتبه ، والشخص الذى يتكلم بلسانه أو يتكلم عنه ^(٥) .

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٦١ .

(٢) دفاع عن البلاغة ص ٧٠ .

(٣) الأسلوب ص ٤٠ ط ٤

(٤) الأسلوب ص ٤٦ ط ٤

(٥) دفاع عن البلاغة ص ٧٠ .

وهذا الكلام فى اختلاف الأسلوب نجد مثله كذلك فى كتاب الأسلوب للاستاذ الشايب^(١) . ولكن الأستاذ الزيات يتناول هذا الاختلاف فى الأسلوب ويفيض فيه بفكر آخر أو بنظرة أخرى أبعد مدى فيقول :

" ولكن الأساليب مهما اختلفت باختلاف الأفراد ، وتنوعت بتنوع الأغراض ، فانها تتسم جميعا بسمات واحدة من عبقرية الأمة . ومنطق ذلك أن الصفات المشتركة فى آحاد الأمة تتلاقى وتتجمع فتكون خصائصها التى تميزها من سواها . وهذه الخصائص نفسها تنطبع فى لغتها فتكون طنرازا عاما فى كل أسلوب . وعلى قدر ما تكون هذه الخصائص فى الأمة تكون قابلية الأساليب فيها للاختلاف فالصفات القومية فى الأمة العربية كانت فى جاهليتها شديدة الظهور والعموم حتى لم يكن بين صفات الفرد وصفات الجماعة الا فروق لا تكاد تلحظ . ومن ثم تشابهت أساليب الشعر والخطابة فى ذلك العصر فلا تستبين فروقها الدقيقة الا للناقد البصير . ومن اختلف أسلوبه من الشعراء الجاهليين فقد اختلف لتغلب صفاته الخاصة .

فلما جاء الاسلام أخذت هذه الفروق تتضح وتباين حتى بلغت غايتها من ذلك فى العصر العباسى ، حين صارت اللغة العربية لغة الاسلام ، وصار الأدب العربى أدب الشرق . . .

وبهذه الصفات القومية العامة تميزت لغة من لغة ، واختلف أدب عن أدب ، فاللغات الشرقية فى جملتها تتميز من الغربية بالزخرف والأبهة والانتفاخ والتبجيل والتهويل والصوفية ، لأن شعوبها صبغوها بهذه الأصباغ من صفاتهم الخاصة . والفروق المعروفة بين الفرنسية فى وضوحها وافتها ، وبين الإيطالية فى رخاوتها ورقتها ، وبين الانجليزية فى خشونتها وقوتها ، هى نفسها الفروق بين أصحاب هذه الأمم الثلاث فى أصل الجبلية وموروث الطبع^(٢) .

طبيعة اللغة وأثرها فى الأسلوب :

يرى الزيات أنه كما تؤثر صفات الأمة فى طبيعة اللغة ، كذلك " تؤثر طبيعة اللغة فى أسلوب الكاتب ، فاللغات التى اكتسبت من مدنية أهلها رقعة

(١) أنظر الباب الثالث ص ٥٤

(٢) دفاع عن البلاغة ص ٧٠ - ٧٢

اللفظ وأناقة العبارة ، ومن شاعريتهم جمال الصورة وروعة الأخيلة ، تغنى الكاتب بموسيقاها وحلاها عن كل القريحة فى ابتكار المعانى واستنباط الفكر . أما اللغات التى لم تؤتها الطبيعة حظا موفورا من سحر اللفظ وفتون الصياغة ، فكتابها مضطرون الى أن يعرضوا أساليبهم من ذلك وجازة التعبير ووزانة التفكير ومد القارى بفيض من المعانى يشغله عن الفكر فيما فاتته من جمال الأسلوب .

واللغة العربية من النوع الأول ، طبعها أهلها منذ القدم على موسقة الألفاظ ، وتنويع المعانى بصور البيان ، وتفويف الجمل بألوان البديع ، لا فرق فى ذلك بين بدائها وحضارتها ، ولا بين فصاحتها وعاميتها ، حتى اطمأن كثير من رجال القلم الى أن يعفوا طباعهم من جهد التفكير ويحاولوا امتلاك القلوب بروعة الأسلوب ، فكانت المقالة أو القصيدة أشبه بالقطعة الموسيقية تخلب الأذن ولا يبلغ النفس والذهن منها غير رجوع ضعيف . ومن هنا قرئى أكثر النفوس أن الأسلوب انما يطلق على الجانب اللفظى من الكلام ، حتى قال الاستاذ الرافعى طيب الله ذكره : " فصل ما بين العالم والأديب ، أن العالم فكرة ، والأديب فكرة وأسلوبها " . ففصل بين الفكرة والأسلوب واعترف بالأسلوب للأديب وأنكره للعالم . ولعللى أوفق الى تصحيح هذا الرأى فيما يلى من هذا الحديث^(١) .

هذا الكلام من الأستاذ الزيات يجعلنا نعيد النظر فى تعريفه السابق للأسلوب ، فبعد أن قرر أن الأسلوب هو : طريقة الكاتب أو الشاعر فى اختصار الألفاظ وتأليف الكلام ، يعود فيستنكر ما قرئى أكثر النفوس من أن الأسلوب انما يطلق على الجانب اللفظى من الكلام ، ويستنكر فصل الرافعى بين الفكرة والأسلوب ويعود بتصحيح هذا الرأى فيما يلى من الحديث .

الأسلوب بين المعنى واللفظ أو بين الفكرة والصورة :

ومرة أخرى يحاول الزيات أن يوضح موقفه من الأسلوب ويزيل أى التباس سابق فيقرر أن " من رجال الأدب من يرى أن العلاقة بين المعنى واللفظ كالعلاقة بين الجسم والثوب ، لكل منهما على تلازمهما وجود ذاتى مستقل لـه

(١) المرجع السابق ص ٧٢ و ٧٣

أوصافه وخصائصه ، فالجسم يقوم بحساب الخلقة ، والثوب يقوم بحساب الصناعة .
ومنهم من يرى أن العلاقة بينهما كالعلاقة بين الروح والجسد ، لا يوجد هذا
بغير ذاك ، فإذا انفك أحدهما عن الآخر مات الحي وفسد الكائن . ونحن
- كما علمت من قبل - على رأى هذا الفريق فقد قلنا فى كلمة سبقت ان الأسلوب هو
الهندسة الروحية لملكة البلاغة ، وان البلاغة التى نعينها هى البلاغة التى لا تفصل
بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين المضمون والشكل : اذ الكلام
كائن حى روحه المعنى وجسمه اللفظ ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفساً
لا يتمثل ، والجسم جماد لا يحس^(١) .

وعلى الرغم من أن هذا الكلام - عن البلاغة التى يعينها والتى لا تفصل
بين العقل والذوق ولا بين الفكرة والكلمة الخ - ورد فى حديثه عن :
(حد البلاغة) لا الأسلوب ، فاننا نعتبر هذا رجعة الى الصواب ، وتنكر اللخطأ
فالواقع - كما يقول الزيات بعد ذلك - أن : " الفكرة والصورة فى الأسلوب كل
لا يتجزأ ، ووحدة لا تتعدد . وليس أدل على اتحادهما من أنك اذا غيرت فى
الصورة تغيرت الفكرة ، واذا غيرت فى الفكرة تغيرت الصورة . فقولك : أعنيك
غير قولك : اياك أعنى وقولك : كل ذلك لم يكن غير قولك : لم يكن كل ذلك
وقولك : ما شاعر الا فلان ، غير قولك : ما فلان الا شاعر . فترتيب الألفاظ
فى النطق يكون بترتيب المعانى فى الذهن وانا حين ذكرنا أن الأسلوب
هو الطريقة الخاصة فى اختيار الألفاظ وتأليف الكلام ، كما نريد بذلك اختيار
الألفاظ على الشكل الذى يرضيه الذوق ، وتأليف الكلام على الوضع الذى يقتضيه
العقل^(٢) .

وهكذا وضع الزيات النقط فوق الحروف فى موضوع الأسلوب وحدد موقعه منه
بوضوح . وزيادة فى التأكيد يأتى بتعريف آخر بنا على ما سبق " فالأسلوب اذن
هو طريقة خلق الفكرة وتوليدها وابرازها فى الصورة اللفظية المناسبة^(٣) ثم يذهب
يشرح ذلك : من ذلك نرى أن الأسلوب خلق مستمر : خلق الألفاظ بواسطة

(١) المرجع السابق ص ٧٣ و ٧٤ . وهذا رأى ابن رشيق أيضاً - أنظر العمدة

ج ١ ص ٩٩ و ١٠٠

(٢) المرجع السابق ص ٧٤ و ٧٥ بتصرف

(٣) " " ص ٧٦

المعاني ، وخلق المعاني بواسطة الألفاظ . ومن ذلك نرى أن الأسلوب ليس هو المعنى وحده ولا اللفظ وحده ، وإنما هو مركب فني من عناصر مختلفة يستمد ها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه . تلك العناصر هي الأفكار والصور ، والعواطف ثم الألفاظ المركبة والمحسّنات المختلفة^(١) .

أنصار الصياغة اللفظية :

ومرة أخرى بعد كل ما تقدم يعود الزيات فينضم الى أنصار الصياغة اللفظية ويبراهم أقرب الى الصواب من أولئك الذين كهروا بها وشنعوا عليها^(٢) . ويستشهد لذلك بآراء من الشرق ومن الغرب . فأبو هلال العسكري يقول : " ليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه . . . مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف . . . " . وقال لا برويير : " أن هوميروس وأفلاطون وفرجيل - وهوراس لم يبين شأوهم على سائر الكتاب إلا بعباراتهم وصورهم " . وقال شاتوبريخان : " لا تحيا الكتابة بغير الأسلوب . . . "

وقد غالى علماؤنا البيانيون فزعموا أن المعاني شائعة مبذولة لا يملكها المبتكر ولا السابق ، وإنما يملكها من يحسن التعبير عنها ، فمن أخذ معنى بلفظه كان سارقا ، ومن أخذه ببعض لفظه كان سالخا ، ومن أخذه فكساه لفظا أجود من لفظه كان هو أولى به ممن تقدمه^(٣)

ومعنى ذلك - في رأى الزيات - أن الأفكار تكون قبل أن يفرغها الفنان في قالبه الخاص . من الأملاك العامة ، فإذا عرف كيف يصوغها على الصورة اللازمة الملائمة تصبح ملكا خالصا له ، تسير في الناس موسومة بوسمه ، وتعيش في الحياة مقرونة باسمه . فالأسلوب وحده هو الذي يملك الأفكار وإن كانت لفيرك . ألا ترى أن أثر الاخلاق في بقاء الأم وفنائها معنى من المعاني الماثورة المطروقة ، فلما أجاد شوقي سبك اللفظ عليه في بيته المشهور :

انما الأم الأخلاق ما بقيت فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

(١) المرجع السابق ص ٧٩

(٢) المرجع السابق ص ٨٠

أصبح بهذه الصيغة من حسناته المعدودة وأبياته المروية ؟

على أنك مهما تستقر لا تجد امراً سليم الملمات ينكر ما لحلاوة الجرس وطلاوة العبارة من الأثر الفعال في بلاغة الكلام . وعلماء البيان مجتمعون على أن : " الكلام اذا كان لفظه غثا ، ومعرضه رثا ، كان مردودا ولو احتوى على أجل معنى وأنبله " (١) .

الصورة والفكرة مرة أخرى :

بعد ما ذهب الزيات الى فريق الصياغة اللفظية مؤيدا ومناصرا ، عاد يؤكد أن الأسلوب في الحقيقة صورة وفكرة معا ، ولكن المسألة مسألة نسبية فبالنسبة للصياغة فهي عند أرحح وأقوى أثرا . يقول : " خالص لنا من مخض هذه الأحاديث أن الأسلوب الفني يتكون من الصورة والفكرة ، كما يتكون الماء القراح من الهيدروجين والاكسجين . وكما استحال في فن الطبيعة أن يتكون الماء من أحد عنصريه ، فقد استحال في فن الانسان أن يتكون الأسلوب من أحد جزأيه . ولا أقصر وجهه الشبه بين الأسلوب والماء على أن تركيب هذا وذاك من عنصرين ضربة لازب ، انما أمد الشبه الى أن نسبة الصورة الى الفكرة في الأسلوب يجب أن تكون كنسبة الهيدروجين الى الاكسجين في الماء - وهي نسبة اثنين الى واحد - . واذن لا يعد من الأساليب الفنية المعاني الحكيمة التي تعرض في معرض بشع من الركاكة والغثاثة والتعقيد والخطأ ، ولا تلك الصور المموهة التي تنتفخ انتفاخ الفلماقيع ، وتبرق بريق الشرر ، ثم لا يكون من ورائها غير فراغ وظلمة " (٢) .

قال ابن رشيق : " ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب ، قياسا على ما قدمت من أدواء الجسم والأرواح . فان اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه وان كان حسن الطلاوة في السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأى العين الا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة . وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ، لأننا لا نجد روحا في غير جسم البتة " (٣) .

(١) الصناعتين ص ٤٩ ، وانظر المرجع السابق ص ٧٨ - ٨٢

(٢) المرجع السابق ص ٩٢ و ٩٣

(٣) كتاب العمدة ج ١ ص ١٠٠

صفات الأسلوب عند الزيات :

الأسلوب يختلف باختلاف الذهن والثقافة والنوع والفرض والحال والشخص الذى يتحدث اليه . فأسلوب القصة غير أسلوب الرواية وأسلوب العتاب غير أسلوب الشكر ، وأسلوب التأثير غير أسلوب الاقتناع وهكذا . ولكن لهذه الأنواع مهما تعددت واختلفت صفات مشتركة من جهة الذهن . هذه الصفات المشتركة هى التى تعيننا ونعنيها (١) .

ويذهب الزيات ينقد صفات الأسلوب القديمة " ذلك لأن أكثرها من الألفاظ التى أشاعها الكتاب فى الناس من غير تقييد ولا تحديد فظلت معانيها مبهممة ، ودلالاتها شائعة . من ذلك قولهم : الجزالة والسهولة والعدوية والرقّة والدقة والخفة والقوة والسلاسة والرصانة والنصاعة والوضوح والصدق والطلاوة والحملاوة والرونق والمائية والطبيعية والسبك والحبك والشرف والسمو والجمال والجلال ، الى آخر هذه النعوت المتداخلة التى لا تعين حدا ولا تبين مزية (٢) .

ولا أستطيع أن أترك هذا الكلام دون تعليق . فهذه الكلمات العربية التى استعملها العرب فى النقد والبلاغة ليست مبهممة ولا متداخلة ولا هى مما لا تعين حدا ولا تبين مزية . بل ان لكل كلمة معناها المحدد وايحاءها الجميل ، فقط يسأل عن ذلك العارفون باللغة .

فالجزالة - مثلا - جودة الرأى وعظمه وفصاحة المنطق ، وفى المنجد : الجزل : الغليظ العظيم ، وجزل الرجل جزالة : صار جيد الرأى ، وجزل المنطق : فصيح فهو جزل والجزل ضد الركيك من الألفاظ (٣) .

والرصانة - مثلا - معناها الاتقان والاحكام ، وفى المنجد : رصن الأمر رصنا : أتمه وأتقنه ، ورصن العقل وغيره رصانة : استحكم واشتد وثبت فهو رصين (٤) .

(١) المرجع السابق ٩٣ و ٩٤

(٢) المرجع السابق ٩٤ و ٩٥

(٣) المنجد ص ٩٠ ط ٢٣

(٤) المنجد ص ٢٦٤ ط ٢٣

والطلاوة - كذلك - معناها الحسن والبهجة ، وفي المنجد : اطلولسى
اطليلا : حسن كلامه ، والطلوة : بياض الصبح ، والطلاوة (مثلثة) : الحسن
والبهجة ، يقال : " هذا كلام ما عليه طلاوة " اذا كان غشا لا ملاحه فيه ^(١) .

وانا كنت قد اخترت هذه الكلمات الثلاثة وأوضحتها من المعاجم فلأنها
قد تكون مغللة في القدم الى حد ما أما بقية الكلمات كالسهولة والعذوبة والرقصة
والدقة . . . الخ فهي كلمات قريبة الى الأذهان والأفهام يكاد يعرفها العاصي
والفصيح على السواء . وانى لأعجب كيف يراها الأستاذ الزيات شائعة الدلالة
مبهمة المعنى وهو الذى أكثر من استعمالها فى أحاديثه هنا وهناك ؟ ! أما
انه لو قال : أننا أسأنا استعمال هذه الكلمات فى النقد والبلاغة لكان أولى .

ويعود الأستاذ الزيات الى تلك الصفات المشتركة من جهة الأسلوب فيرى
أنها لا تخرج عن صفات ثلاثة هى جمعتها وجماعها : وتلك الصفات الجامعة هى :
الأصالة - الوجازة - التلاؤم .

وتذكرنا هذه المصطلحات الثلاثة بصفات أخرى ثلاثة أيضا هى :
الوضوح - القوة - الجمال . فقد ذكرها الأستاذ الشايب واعتبرها صفات للأسلوب
كذلك ذكرها من قبله أصحاب (البلاغة الواضحة) ومن تبع طريقتهم بعد ذلك
من مؤلفى الكتب المدرسية .

هذا وفى الامكان بقليل من النظر ارجاع صفة الأصالة الى الوضوح والقوة ،
وارجاع الوجازة والتلاؤم الى الجمال . والله أعلم .

الأصالة :

يراد بالأصالة فى الأسلوب بناؤه على ركنين أساسيين من : خصوصية
اللفظ وطرافة العبارة . وتلك هى الصفة الجوهرية للأسلوب البليغ والسمة المميزة
للكاتب الحق . وملك الأصالة ألا تكتبكما يكتب الناس . ملاكها أن تكون أصيلا فى
نظرتك وكلمتك وفكرتك وصورتك ولهجتك ، فلا تستعمل لفظا عاما ، ولا تعبيرا
محفوظا ، ولا استعارة مشاعة .

أما خصوصية اللفظ : فهي دلالة التامة على المعنى المراد ، ووقوعه الموفق في الموقع المناسب . وآية مطابقته لمعناه ومبناه أنك لا تستطيع أن تبدله ولا أن تنقله . والخصوصية في اللفظ أصل الدقة في التعبير ، والوضوح في المعنى ، والصدق في الدلالة والكلمة في الجملة كالقطعة في الآلة ، إذا وضعت في موضعها على الصورة اللازمة والنظام المطلوب تحركت الآلة ولا ظلت جامدة ويضرب الزيات مثلا لذلك بما ورد . . . أن ابن هرمة سَمِعَ أدبيا ينشد قوله :

بالله ربك ان دخلت فقل لها هذا ابن هرمة (قائما) بالباب
فقال له : لم أقل (قائما) أكت أتصدق ؟ ! ، قال : (قاعدا) ؟ قال :
أكت أبول ؟ قال فماذا ؟ قال : (واقفا) . وليتك علمت ما بين هذين من
قدر اللفظ والمعنى ^(١) . ذلك مثال من أمثلة كثيرة تريك كيف يميز الفنان اللفظ
ويختاره ، وتميز اللفظ واختياره شديدان على من لم يؤته الله العلم بمعاني
الألفاظ والبصر بفروق المعاني . ولم يقع صاغة الكلام في البهرج والزيف إلا بمجافاة
الذوق ومخالفة اللغة .

أما الركن الأخير وهو طرافة العبارة : فأسه الابتكار في حكاية الخبر
وتصوير الفكر وتقويم الموضوع . وهيئات أن تحدد الجملة المبكرة التي تشير
الاعجاب وتحدث الأثر وتحرك الفتنة إلا إذا وجدت الكلمة الخاصة التي تحدد
الفروق وتجدد العلاقة وتبعث الحركة .

والأسلوب - كما يرى الزيات - خلق مستمر : خلق للفكر بطرافته ، وخلق
للترتيب بتنسيقه وتشويقه ، وخلق للأداء بالفاظه ولهجاته وصوره . وعلى قدر ما
يتضح الخلق في الكتابة تتضح العظمة في الكاتب .

ما تحققه الأصالة في الأسلوب :

ويعود الزيات الى الحديث عن الأصالة - بعد ما استطرد في خصوصية
اللفظ وطرافة العبارة - فيقرر أن الأصالة هي الكلمة الخاصة والعبارة الجديدة .

(١) القيام يقتضي الثبوت والدوام ، والوقوف لا يقتضيهما
تقول : وقف الحجيج بعرفة ولا تقول : قام .

وبخصوصية الكلمة وجدة العبارة تتحقق (الطبيعية) فى الأسلوب . وليست (الطبيعية) أن ترسل الكلام على سجيته من غير روية ولا تنقيح ، انما الطبيعية نتيجة النظر الطويل والجهد المتصل فهى على الرغم من اسمها تكسب ولا توهب .

وأقول : اذا كان من المعلوم أن (الطبيعية) موهبة لا كسب فلماذا يرغب الزيات الكلمة على عكس معناها مهما قال فى تبرير ذلك ؟ ! وهل ضاقت العربية بالأسماء المناسبة ؟ !

ومن الطبيعية بمعناها الفنى تكون (الدقة) . وما الدقة الا ترك فضول الكلام وتوخى صواب اللفظ

والدقة المشتقة من الطبع سبيل (الوضوح) . لأن غموض الكلمة ينشأ من غرابيتها أو اشتراكها ، وغموض الكلام ينشأ من تعقده أو فساد . والغرابية والاشتراك والتعقد والفساد هى الأضداد الطبيعية لمعاني الأصالة^(١) .

ذلك مجمل القول فى " الأصالة " وما تضمنته من صفات الدقة والصحة والصدق والطبيعة والوضوح^(٢) .

والأصالة بهذه الصفات التى ذكرها الزيات انما تتناول الجانب اللفظى من الأسلوب و " كان من حق الأصالة فى الشعور والتفكير أن تنال من الاستاذ ما نالته الأصالة فى الأسلوب والتعبير . فالمعاني والأحاسيس ليست شائعة ملقاة على جانب الطريق ، والا فأين تذهب الطبائع الأصلية الممتازة التى تسرى الدنيا والأشياء بعين خاصة فاذا هى تعيش فى كون خاص بها من صنع أحاسيسها وتفكيرها ؟ تلك فلتة من فلتات الحماسة للبلاغة من صاحب (دفاع عن البلاغة) يرد بها الغلو فى انكار قيمة التعبير فيجعل المزية كلها للتعبير^(٣) .

(١) دفاع عن البلاغة ص ٩٥ - ١٠٣ بتصرف

(٢) المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٣) مقال (على هامش النقد) لسيد قطب - الرسالة العدد ٦٧٦ ص ٦٦٥

الوجازة :

(اذا كانت الأصاله هى الصفة الجوهرية للأسلوب البليغ ، والسمة المميزة للكاتب الحق ، فان الوجازة باجماع الرأى هى حد البلاغة .

واذا كانت الوجازة أصلا فى بلاغات اللغات ، فانها فى بلاغة العربية أصل وروح وطبع . . . يظهر ذلك فى مثل قولك : (قتل الانسان) فان الفعل فى هذه الجملة يدل بصيغته المملوطة وقرينته الملحوظة على المعنى والمزمــــن والدعاء والتعجب وحذف الفاعل ، وهى معان لا تستطيع أن تعبر عنها فى لغة أوربية الا بأربع كلمات أو خمس .

وللزيات فى التفصيل رأى خاص فهو يرى أن : " التفصيل اذا سلم من اللغو ، كان كالاجمال اذا برى من الاخلال ، وكلاهما حسن فى موقعه بليغ فى بابيه . وقد يكون التفصيل من الايجاز اذا قدر لفظه على معناه ، فـان الايجاز الذى نعنيه أن يدل اللفظ على المعنى ولا يزيد عليه : فان كان ناقصا عنه فهو ايجاز الحذف والقصر ، وان كان مساويا له فهو ايجاز التقدير والمساواة .

ويذهب الزيات يوضح قصده فيقول : " انما أقصد بذكر الاجمال والتفصيل الى أن الأسلوب العربى الأصيل موسوم بالوجازة من أصل النشأة ، لأنه أسلوب أمة صافية الذهن دقيقة الحس سريعة الفهم ، تشعر بقوة ، وتعبر بقوة ، وتفهم بقوة . وقوة الروح والقلب ، وقوة العقل والخلق ، تلازمهما قوة اللسان والقلم ، أى البلاغة . والبلاغة والايجاز ، والايجاز امتلاء فى اللفظ وقوة فى الحيك ، وشدة فى التماسك .

وراح الزيات يلمس أمثلة كثيرة للوجازة نختار منها قوله " كان سيد البلغاء " محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يكره أن يجاوز الكلام مقدار القصد به ، فقد تكلم رجل عنده فأطال ، فقال له : " كم دون لسانك من حجاب ؟ قال : شفتاى وأسنانى . فقال له الرسول : ان الله يكره الانبعاث فى الكلام . فنضر الله وجهه رجل أوجز فى كلامه واقتصر على حاجته . "

وقيل لاياس : " لا عيب فيك الا أنك تطيل . قال : أخيرا تسمعون أم
شرا ؟ قالوا : خيرا . قال : فالزيادة في الخير خير " . روى ذلك الجاحظ
وعقب عليه بقوله : " وليس الأمر كمال قال اياس ، فان للكلام غاية ، ولنشاط السامعين
نهاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال ، ودعا الى الاستثقال والملا ، فـذاك
الفاضل هو الهذر ، وهو الخطل ، وهو الاسهاب الذي سمعت الحكماء
يعيبونه " (١) .

وكان أمراء النثر العربي من أمثال جعفر بن يحيى وسهل بن هـرون
يتوخون جانب القصد ، ويؤثرون طريق الايجاز ، حتى قال جعفر للكتاب :
" ان استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا " (٢) .

ونحن مع الاستاذ الزيات في أن الايجاز أصل من أصول البلاغة العربية ،
ولكنه ليس الأصل الوحيد ، فالبلاغة فيها الاطناب والمساواة كما فيها الايجاز ،
ولكل واحد من الثلاثة دواعيه وأسبابه ، وذلك أعرف وأشهر من أن نقرره أو نؤكد .
والقرآن الكريم الذي استشهد الاستاذ ببعض آياته على الايجاز ، فيه كذلك
آيات أخرى بنيت على الاطناب أو المساواة حسب الغرض الذي سيقته الآيات .
فلماذا ذكر هذا وأنكر ذاك ؟ " أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض " ؟ . ولعل
السبب في ذلك ما ذهب اليه الزيات من مفهوم خاص عن الايجاز فأدخل فيه
المساواة كما بينا ذلك من قبل ، بل أدخل فيه الاطناب كذلك فقال : " والتفصيل
اذا سلم من اللغو كان كالأجمال اذا برى من الاخلال " (٣) .

(١) البيان والتبيين ص ١٠٦

(٢) دفاع عن البلاغة ص ١٠٣ - ١١٥ بتصرف

(٣) " ، ، ، ص ١٠٤

التلاؤم :

وهو الصفة الثالثة والأخيرة من صفات الأسلوب الجامعة .

والتلاؤم يعنى عند الزيات الموسيقية أو (الهرمونية) . وهذا التلاؤم يفتح صفحة هامة من قضية البلاغة ، ويشير غبار تهمة " تريب المتهم ، وتمتسـف الدليل ، وتنكر الذوق ، وتنزل القيم الفنية منزلة العبث . تلك هى تهمة اللفظ بالأناقة ، والتركيب بالموسيقى ، والأسلوب بالرفعة . ولو كانت هذه التهمة الجريئة تقصد الجمال المزيف والحسن المجتلب لما حك فى الصدور من ناحيتها شىء ، ولكنها تقصد التعبير الجميل الذى يتميز به كلام الأديب من كلام الناس . "

وينبرى الزيات مدافعا عن البلاغة وجمال الأسلوب فيقول : " لماذا يثورون على تنميق الكلام بدعوى أن الفرض منه الفهم والعلم ، ولا يثورون على تزيين الطعام وتحلية الهندام وتزويق المسكن ، والفرض الأصيل منها الغذاء والوقا ؟

واذا كان أحد هم لا يحب أن يلبس الثوب المرقع ، ولا أن يسكن الكوخ النابى ، ولا أن يتزوج المرأة المسيخة ، ولا أن يسلك الطريق الوعر ، ولا أن يركب المركب الخشن ، فلماذا يكره أن يسمع الكلمات العذبة ، والفقر المنسقة ، والجميل الموزونة ، والأصوات المؤتلفة ، والنظر والسمع فى هذا المقام سوا " وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن الى ما يوافقه ، وتنفر مما يضاده ويخالفه . والعين تألف الحسن وتغذى بالقبيح ، والأنف يرتاح للطيب وينفر للنتن ، والفم يتلذذ بالحلو ويمنع المر ، والسمع يتشوف للصوت الرائع وينزوى عن الجهير الهائل ، واليد تنعم باللين وتتأذى بالخشن ، والفهم يأنس من الكلام للمعروف ، ويسكن للمألوف ، ويصفى الى الصواب ، ويهرب من المحال وينقبض عن الوخم ، ويتأخر عن الجافى الغليظ . ولا يقبل الكلام المضطرب الا الفهم المضطرب والرؤية الفاسدة (١)

والحق الصريح أن الذين يدعوننا أن نكتب كما نتكلم انما يزورون حقيقة الفن فيهم بنقيصة العجز منهم ، بدليل أنهم يجدون فى أنفسهم حلاوة الرضا ان وقعت فى كلامهم عفوا كلمة أنيقة أو جملة رشيقة أو سجمة محكمة

من ذلك نعلم أن جمال العبارة ، وجمال الأسلوب ، من الصفات المشتركة في الناس ، تتفق في الوجود والمظهر ، وتختلف في الطاقة والدرجة . فالعامة يستعملون الوزن والسجع والجناس متى جاشت في صدورهم عاطفة أو جرت على ألسنتهم حكمة ، فمواويلهم وأناشيدهم وأغانيتهم موزونة أو موقعة ، وأمثالهم وحكمهم وضوايقهم مزدوجة أو مسجعة . وكلما سمت الطبقة واتسعت الثقافة وصدق الشعور وصفا الذوق وأرهفت الأذن ، سما الأسلوب من الجميل إلى الأجل ، ومن الجليل إلى الأجل ، حتى يبلغ الأوج عند كلام الله .

ان جمال اللفظ وطلاوة التعبير تابعان لقوة العاطفة وجلالة الموضوع لا فرق في ذلك بين أدب العامة وأدب الخاصة^(١)

ويعد هذه الجولة في الدفاع عن الجمال الفني والصياغة الفنية يعدود الرياض إلى التلاؤم في حقيقة معناه وطبيعة مداه . فيقول " التلاؤم كلمة جامعة لكل وصف لابد منه في اللفظ ليكون الكلام خفيفا على اللسان ، مقبولا في الأذن ، موافقا لحركات النفس ، مطابقا لطبيعة الفكرة أو الصورة أو العاطفة التي يعبر عنها الكاتب أو الشاعر .

فالتلاؤم من حيث القبول في الآذان والخفة على اللسان ، يكون في الكلمة بائتلاف الحروف وتوافق الأصوات وحلاوة الجرس . ويكون في الكلام بتناسق النظم وتناسب الفقر وحسن الإيقاع . ومن هنا تنشأ السلاسة والعدوية والطلاوة والرخامة ، وانسجام التراكيب ومتانة الحبكة ، وكل صفة تنفي عن الكلام التناثر والنهب القلق والتعسف والتعقيد والهلالة والركاكة والفثاثة والحوشية والجفوة . ومدار ذلك على الذوق الفني السليم ، والاذن الموسيقية المرهفة

وأما التلاؤم من حيث موافقة الكلام لحركات النفس ومطابقته لصور الذهن ، فيكون بتقطيعه فقرات وفواصل تقصر أو تطول تبعا لحالات النفس والفكر . فلكل عاطفة درجتها من البطء أو الإسراع ، ولكل صورة طبيعتها من الظهور أو الضمور ومن القوة أو الضعف . قد تكون أشعة الإلهام كوميضات البرق تتعاقب على الذهن

(١) دفاع عن البلاغة ص ١١٦ - ١٢١ بتصرف .

بسرعة ، وقد تكون عواطف النفس فائرة تجيش بالألم أو تضطرم باللذة ، وحينئذ تكون الفقر القصيرة أنسب الصور للتعبير عنها . . . وقد تكون المعاني رزينة بطبيعة موضوعها لتوخيها الافادة أو الاقناع أو الشرح ، فتقتضى الأسلوب المرسل أو المفصل . . .

وتقطيع المنثور من الكلام جملاً أو فقراً أو فواصل عمل بلاغى تقتضيه حالة النفس وحركة الذهن وطبيعة التنفس . . وهذا التقطيع له هندسة وموسيقى ملاكهما التلاؤم بين أجزاء الفقر وفواصلها . فان كانت الفواصل متعادلة فهو التوازن ، وان كانت متماثلة فهو السجع .

الموسيقى بين السجع والازدواج :

والتوازن - ويسمى الازدواج - موسقة فطرية فى نفوس العرب جعلوا بها النثر أشبه بالنظم فى جمال الوصف وحسن الاقناع . فهو صفة ملازمة من صفات الأسلوب لا تكاد تنفك عنه فى جميع أغراضه ومختلف صورته . وهو فى ذلك يخالف السجع ، فان للسجع موضوعات ومواضع لا يطلب الا لها ، ولا يحسن الا فيها ، ولذلك يقبل فى غرض دون غرض ، ويجمل فى صورة دون صورة . . . قال أبو هلال فى الصناعتين : " لا يحسن منثور الكلام ولا يحلوا حتى يكون مزدوجاً . ولا تسكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج . . . " . وقال فى موضع آخر " واعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع ، فان جعلتها مسجوعة كان أحسن ، مالم يكن فى سجعك استكراه وتنافر وتعقيد " .

فالازدواج على اطلاقه ، والسجع على تقييده ، يؤلفان الموسيقى فى أسلوب البليغ منذ كان للعرب ذوق وللمعربة أدب

وأقطع الحجج على أن الازدواج والسجع من لوازم الأسلوب العربى ان القرآن وهو " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " قد تجوز فى بعض الألفاظ والصيغ محافظة عليهما . ١١ مسمس الدين بن الصائغ فى كتابه (احكام السراى فى أحكام الآى) : " وتتبع الأحكام التى وقعت فى آخر الآى مراعاة للمناسبة فعثرت منها على نيف وأربعين حكماً " نذكر منها على سبيل المثال :

- تقديم ما هو مؤخر في الزمان نحو: والله الآخرة والأولى
- تقديم الصفة الجملة على الصفة المفرد نحو: ونخرج له يوم القيامة كتابا
يلقاه منشورا .

- تقديم الضمير على ما يفسره نحو: فأوحى في نفسه خيفة موسى
- تذكير اسم الجنس مرة وتأنيثه مرة أخرى نحو: أعجاز نخل منقصر ،
وأعجاز نخل خاوية
- الافراد في موضع التثنية نحو: فلا يخرجكما من الجنة فتشقى
- تغيير بنية الكلمة نحو: طور سينين ، بدلا من طور سيناء .
- وضع اسم المفعول موضع اسم الفاعل نحو: حجابها مستورا ، بدلا من
ساترا .

كذلك نجد في كلام أفصح العرب وسيد البلغاء مثل ذلك ، فقد كان صلى الله عليه
وسلم يغير الكلمة لتلائم أختها في مثل قوله: " أعيذه من الهامة والسامة ، وكل
عين لامة " أى ملمة . أو في قوله: " أرجعن مأزورات غير مأجورات " وإنما أراد
موزورات من الوزر .

فلو كان الازد واج نافلة ، والسجع فضلة ، لما كان لهما هذه المنزلة من
كتاب الله وحديث رسوله ^(١) .

ونحن لا نجادل الأستاذ الزيات في أن السجع والازد واج أساسان من
أسس النثر العربي المأثور . . ولا نجادله في أن فيهما جمالا حين يحسن
استخدامهما . ولكن هذا لا يعنى أنهما مفروضان ضربة لازب على الأساليب
العصرية . . ولا أتردد في الجهر بأن القرآن لم يستخدم السجع والازد واج في كافة
أغراضه ، بل استخدمهما في المواضع الخطابية التأثيرية ، وفي هذه المواضع
وأمثالها دون سائر الأغراض يحسن السجع والازد واج .

فإذا خطر لنا أن نتأثر أسلوب القرآن ، فلنعرف مواضع كل طريقة من طرق
الأدباء فيه ، ولنفرق بين السمات المطردة فيه ، والسمات الخاصة بموضع دون موضع .
^(٢)

(١) دفاع عن البلاغة ص ١١٦ - ١٣٨ بتصرف

(٢) من مقال (على هامش النقد) لسيد قطب - الرسالة : العدد ٦٧٧ ص ٦٩٢

والآن . . هل آن لنا أن نتساءل : ما لنا في " دفاع عن البلاغة " — من تجديد ؟ فهذا هو ما يهمننا بالدرجة الأولى .

الواقع أننا أشرنا أثناء دراستنا لدفاع الزيات عن البلاغة الى الافكار الجديدة التي تضمنها هذا الدفاع ، ولكننا هنا نحب أن نضم شتاتها ، ونعيد النظر في أمرها .

ذلك أن دفاع الزيات عن البلاغة لم يكن دفاعا مباشرا كدفاع الدكتور أحمد بدوي عند ما رد على من عابوا على البلاغة وقوفها عند حدود الجملة والجملة ، وعند ما تحدث عن رسالة البلاغة وأنها قد أدت رسالتها خصوصا فيما مضى (١) .

وكدفاع العقاد عند ما رد بحماسة وعنف على من عابوا التقسيم الثلاثي لعلوم البلاغة ورأوا أنه وقف بها عن التطور والتوسع . (٢)

وكدفاع الدكتور عباس حسن عن السكاكي وكيف أنه خدم البلاغة خدمة جليلة بما وضع لها من قواعد وأصول جمعت شتاتها ولملت شملها وجعلتها علما قائما بذاته ومستقلا بنفسه . (٣)

وكدفاع الأستاذ أحمد موسى عند ما رأى أن ما قدمه السكاكي للبلاغة من تنسيق وتبويب عمل عظيم يحمده له التاريخ . (٤)

وكدفاع الدكتور سهير القلماوي عند ما أعفت السكاكي من مسئولية جمود البحث البلاغي وتمقيده ، وألقت بالمسئولية على سنة الحياة والتطور . (٥)

كل ذلك كان دفاعا مباشرا ، لكن دفاع الزيات — كما يلوح لي — كان دفاعا غير مباشر .

(١) أنظر ص ٤٨٤ من هذا البحث

(٢) أنظر ص ٤٨٦ " " "

(٣) أنظر ص ٤٨٧ " " "

(٤) أنظر ص ٤٨٧ " " "

(٥) أنظر ص ٤٨٨ " " "

لم يكن الزيات يرد على أحد بالذات ، وإنما كان يدافع عن البلاغة بصفة عامة ، ويدفع عنها تهمة القصور والجمود والفشل ، ويلحق هذه التهمة بأسباب ودواعي جدت في العصر الحديث . ثم ذهب يتحدث عن البلاغة التي يعرفها ~~ويحسها~~ ويدافع عنها ، ويوضح - كما في تصوره - حقيقتها وجوهرها . ولقد شغل الأستاذ الزيات بهذا الدفاع ، وانصرف إليه ، واستغرق فيه ، فلم يفكر في وضع خطة أو منهج جديد للبلاغة ، واكتفى بأن يكون مدافعا لا معلما ، وموجهها لا قائدا .

وحديث الزيات عن أسباب التنكر للبلاغة حديث جديد ، فالسرعة والصحافة والتطفل أمور جديدة لم يلتفت إليها أحد من قبل في مجال البحث عن أسباب تأخر البلاغة . والأسباب التي كنا نعرفها من قبل وكان لها أثرها في تأخر البلاغة هي طريقة المدرسة الكلامية من شيوع الفلسفة والمنطق في كتب البلاغة وطريقة تدريسها .

والأسباب الجديدة التي ذكرها الزيات جديدة بالنظر والتأمل ، لأنها أمور متوغلة في حياتنا ، ونعيشها رغما عنا ، وأثرها فينا بعيد الفور كبير الخطر .

إن القضاء على الأسباب القديمة من شيوع الفلسفة والمنطق في تعليم البلاغة وكتبتها أمر سهل جدا بالنسبة إلى الأسباب الجديدة التي نجد القضاء عليها من الصعوبة بمكان . فمن ذا الذي يستطيع أن يتخلص من السرعة وقد ضربت أطنابها في هذا العصر ؟ أو يتجاهل أثر الصحافة أو يقضي عليها أو يعدل في نظامها وتحريرها ؟ بل من ذا الذي يستطيع أن يتخلص من التطفل والطفيليين وقد كثر عددهم وانتشروا كالذباب في كل مكان ؟

لقد كان الزيات على صواب حين سماها : البليات الثلاث - وإذا كنا نريد أن ننهض بالبلاغة ونجدها فلا بد أن نجعل في اعتبارنا ونضع نصب أعيننا هذه الأسباب ، ونتلمس لها العلاج قدر الامكان ، إذ لا بد للبلاغة الجديدة - فهي رأيي - أن تكون محصنة ضدها . فد رهم وقاية خير من قنطار علاج .

كان هذا أول الجديد فى دفاع الزيات عن البلاغة .

أما الثانى : فقد كان حديث الزيات عن البلاغة التى يعنىها ويدافع عنها وهى البلاغة الفنية . ولكن الزيات ربط بين علم البلاغة وفنها ، وتحدث مدافعا عن كليهما معا ، وخلصنا من دراستنا هناك الى نتيجة حتمية وحقيقة واقعة ، وهى أن البلاغة الفنية والبلاغة العلمية أصبح كل منهما لا يستغنى عن الآخر ولا ينفك عنه ، وأصبح الحديث عن أحدهما يفرض الحديث عن الآخر ، ومن الخطأ الفصل بينهما فى درس البلاغة الجديد .

أما ثالث الجديد . فهو ما وجدناه فى حديث الزيات عن الذوق ، وأنه لم تؤت البلاغة الا من فساد الذوق فيمن يكتب وفيمن يقرأ ، ولقد لمس الزيات وترا حساسا فى دفاعه عن البلاغة حين قال : ان مستقبل البلاغة منوط بتغلب الذوق الطبيعى المأثور على الذوق المزيف المستحدث . وذهب الزيات فى نظريته للذوق الى أبعد من ذلك حين رأى أن سلامة القومية العربية موقوفة على سلامة الذوق وتغلبه . وأضفت هناك : أن سلامة العقيدة موقوفة كذلك على سلامة الذوق وتغلبه . فأمر الذوق اذن جد خطير ، والعناية به وبتربيته وثقيفه ليس واجبا بلاغيا فحسب ، ولكنه واجب قومى ودينى كذلك .

وكان الحديث عن الأسلوب وصفاته من الأصالة والوجازة والتلاؤم رابع ما وجدنا من الجديد فى دفاع الزيات عن البلاغة . والأسلوب فى حد ذاته أمر جديد ، ودراسة أدبية مستحدثة ، وان كان له جذور فى القديم كما أوضحنا ذلك فى مكانه . ولكن الصفات الثلاثة للأسلوب التى ذكرها الزيات وتحدث عنها صفات جديدة فى تكوين الأسلوب البلاغى ، وان كان بعض القدماء مثل المسكوكى والرمانى وابن سنان - تحدث عن التلاؤم لكنه حديث عابر ليس فى سعة حديث الزيات وافاضته . وهذه الصفات الثلاث من الأصالة والوجازة والتلاؤم ربطنا بينها وبين صفات الأسلوب الثلاثة - التى ذكرناها سابقا - من الوضوح والقوة والجمال - التى اقترحنا أن تكون أساسا لدرس البلاغة الجديد ، وأوضحنا كيف يكون ذلك فى مكانه من البحث .

ولعل الحديث عن الأسلوب - من وجهة نظر البعض - لا يعد جديدا ،
وذلك لشيوع الحديث عنه في الأونة الأخيرة . ولكننا نقول : ان الحديث عن
الأسلوب سيظل جديدا متجددا حتى تضمه البلاغة الى خطتها ومنهجها
الجديد .

وبعد : فان حديث الزيات عن البلاغة كان دافعا غير مباشر - كما
أوضحنا من قبل - ، وكان دافعا عن بلاغة جديدة لا تفصل بين العقل والذوق ،
ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين المضمون والشكل . بلاغة مزجت بين الملم
والفن ، فصار كل منهما يستمد وجوده من الآخر . وعلى المتطفلين في ميدان البلاغة
ومجالاتها أن يعرفوا ذلك ، وأن يأخذوا أنفسهم بألة البلاغة ووسائلها ان كانوا
يريدون أن يكونوا بلغاء .

وعلى أساس أن الزيات كان يدافع عن بلاغة جديدة أو يدعو اليها ، فاننا
نعتبر الزيات من الدعاة الى تجديد البلاغة . واذا كان لم يضع منهاجا أو خطة
جديدة للبلاغة ، فان في دفاعه عنها ملامح خطة أو منهج ، وأسلوب الزيات في
كتابته صورة حية مما يدعو اليه ، ويدافع عنه .

الفصل الثانى

هجوم على البلاغة

لم تكن الدعوات الى تجديد البلاغة كلها صادقة النية ، حسنة الطوية ، فقد كانت هناك دعوات مفرضة تهدف الى هدم اللغة ، والقضاء على البلاغة باسم التجديد والتطور .

" قالوا ان بلاغتنا العربية هي بلاغة الاعاجم وليست بلاغة العرب . يقصدون بهذا القول ان اعلام البلاغة العربية ليسوا من أصل عربي . وهي التهمة نفسها التي وجهها "رينان" الى الفلسفة العربية والحضارة العربية .

وقالوا ان بعض مباحث البلاغة العربية له نفاثر في بعض المباحث النقدية او البلاغية عند الاجانب . أى ان هذه الامة العربية ليست بذات أصيلة في ميدان البحث البلاغى . وبعض اصحاب هذه الدعوى يناقضون انفسهم ان تراهم يدعون الى اغتنام كل فرصة للافادة أيا كان مصدرها ، فى الوقت الذى يرون فيه ان افادة علماء البلاغة العربية من الثقافة الاجنبية يجعلها غريبة على الادب العربى والعقلية العربية ومن ثم لا تصلح مقياسا له مع هيأهم ولوعهم فى ايماننا بتطبيقات نظريات غريبة لا تمت الى ادبنا وعقليتنا بسبب من الاسباب والمجدد عند هؤلاء من يتصيد خياله من خيال الغرب ، ومن يبعد عن أساليب لغته وأحاسيس قومه .

وقالوا : ان البلاغة العربية بمقاييسها التى انتهت الى ما رسم أبو يعقوب السكاكى فى مفتاح العلوم قد تحجرت ولم تعد صالحة لرهاف الملكات التعبيرية الفنية " (١)

ولا يخفى ما فى هذه التقولات من ادعاء وبهتان وسوء طوية . ومن السهل على أى دارس ان يرد هذه الدعاوى .

فقولهم ان بلاغتنا هي بلاغة الاعاجم ليس غريبا علينا ، بل اننا نسمى بلاغة السكاكى ومد رسته بلاغة الاعاجم وذلك لان أصحاب هذه المدرسة هم فعلا من غير

(١) أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية ص ١٠١ و ١٠٢ بتصرف د . طبانة

العرب كما ان كتبهم جنحت عن طابع العربية فى الوضوح والافهام وتعمقت كثيرا فى مسائل الفلسفة والمنطق وعلم الكلام . وليس هذا بعيب يؤخذ علينا ولا على بلاغتنا ، بل انه لفخر ان يخصص هؤلاء العلماء وقتهم وجهد هم فى بحوث البلاغة والادب والنقد العربى بعد ان بهرهم الاسلام بروحه وثقافته فشاركوا العلماء العرب فى كثير من العلوم او الفنون .

ان معظم من الفوا فى النحو أعاجم ، ولم يقل أحد ان ذلك يعد انتقاصا للنحو العربى والنحاة ، فلماذا البلاغة بالذات ؟!

أما قولهم ان بعض مباحث البلاغة العربية له نظائر فى بعض المباحث النقدية أو البلاغية عند الاجانب فقد رد عليه د . طبانة بما كتبناه آنفا ، ونزيد عليه بأنه من الطبيعى أن تتشابه مباحث البلاغة فى كل اللغات تقريبا لانها تعبير عن مشاعر الانسان وأحاسيسه . هذا الى أن الغرب سبق واقتبس كثيرا من اصول علومنا وآدابنا وبنوا عليه علومهم وحضارتهم فلم نعب عليهم ذلك وتلك سنة الحياة وطبيعة النمو والتطور .

أما قولهم ان البلاغة العربية بمقاييسها التى انتهت الى ما رسم السكاكى قدس تحجرت ولم تعد صالحة ، فنحن نعجب ونتساءل : هل السكاكى هو المؤلف الوحيد فى البلاغة العربية ؟ وهل لم يسمع هؤلاء عن الامام عبد القاهر ومقاييسه البلاغية . أو عن الجاحظ أو أبى هلال العسكري وغيرهم .

والواقع أن اللوم فى ذلك علينا أكثر مما هو على الناقدين المغرضين ، فقد صبرنا كثيرا جدا على بلاغة السكاكى على الرغم من تواتر الشكوى منها ومن آثارها .

ان آثار مدرسة السكاكى فى علوم البلاغة لم تقتصر علينا فقط بأن باعدت بيننا وبين بلاغتنا ووضعت بيننا وبينها السدود والحدود فعزلتها عن الحياة ، بل انها كذلك أعطت الفرصة لبعض النقاد الاجانب وأشباههم من مثقفينا أن يطعنونا فى بلاغتنا ويتهموها ويتهمونا بالتأخر والجمود .

البلاغة المعاصرة وسلامة موسى :

ما سبق وذكرناه من هجوم على البلاغة ونقد لها أمر هين وليس بالغريب . ولكن الغريب حقا هو تلك البلاغة المعاصرة التي دعا إليها سلامة موسى ، وساق لها من الحجج والمبررات ما كاد يخدع الناشئة من أجيالنا والسادحين من القراء وأنصاف المثقفين .

وسلامة موسى ركب موجة الحملة على اللغة العربية وبلاغتها ، وتزعمها مدعي الإصلاح والتجديد . وفيما أتى به سلامة من آراء وأفكار جديدة نجد عجبا ~~سواء~~ فسي كلامه عن لغتنا أو عن بلاغتنا . ولكننا في هذا الفصل من البحث نقصر كلامنا على آرائه في البلاغة ، ونرد عليه هجومه ، ونبين ما فيه من باطل واضطراب .

وبينما الدعوات الصادقة المخلصة إلى تجديد البلاغة تتوالى من العلماء والأدباء ، وكلهم حرص وحب على لغتنا وبلاغتنا وتراثنا ، إذا بسلامة موسى يطلع علينا بآراء جديدة غاية في الغرابة والشذوذ . انه يدعونا إلى بلاغة جديدة قوامها العقل والمنطق ، لا مخاطبة الشعور ، وإثارة الانفعال والاحساس بالجمال . فالبلاغة القديمة في نظره بلاغة تزاويق وسهارج ، وهي ترف ذهني لا ضرورة له .

" ولذلك يجب أن يكون المنطق أساس البلاغة الجديدة ، وأن تكون مخاطبة العقل غاية المنشئ بدلا من مخاطبة العواطف . والبلاغة بفنونها المختلفة كما هي الآن في لغتنا العربية تخاطب العواطف دون العقل وهذا ضرر عظيم . فاننا حين ننصح لأحد الشبان بأن يسلك السلوك الحسن في الدنيا ، ويتخذ أسلوبا ناجحا في الحياة ، نشير عليه بأن يجعل العقل والمنطق من العاطفة والانفعال هدفه ووسيلته في كل ما يعمل . ولكن البلاغة العربية في حالها الحاضرة هي بلاغة الانفعال والعاطفة فقط . وإذا جعلنا المنطق أساس البلاغة فاننا عندئذ نجعل قواعد المنطق ونظريات اقليدس مما يدرس للتفكير الحسني هو الغاية الأولى للبلاغة ، ونبين قيمة الأرقام في التفكير الحسن . ثم تأتي بعد ذلك الفنون ، وهي عاطفية انفعالية للترفيه الذهني . ولكن يجب أن نذكر أن التفكير الدقيق بالمنطق أخطر وأثمن من الترفيه الذهني بالفنون . وإذا جعلنا المنطق أساس البلاغة فاننا سنبحث الكلمات من حيث معانيها ، ونبين كيف أن الناس كثيرا

ما يخلطون بين الشئ^١ واسمه ، وأن هذا الخلط يشقيهم لأنه يبعد هم عن التفكير
الناجح ، ويؤخر نجاحهم ، ويعطل المجتمع عن الرقى " (١) .

ماذا أقول فى هذا الخلط العجيب ! ! بلاغة تخاطب العقل دون العاطفة
وتعتمد على قواعد المنطق ونظريات اقليدس ، وتعامل بالأرقام فى التفكير الحسن .

ما هذا الهراء . . لقد ضجت البلاغة بالشكوى من بعض أساليب المنطق
التي داخلتها ، ونادى الجميع - محافظون ومجددون - بتخليصها من هذه الشوائب
المنطقية ، أفيكون علاجها فى رأى الاستاذ الهمام أن نفرقها فى المنطق ، ونضمها
الى لغة الأرقام والحسابات ، وأن تصبح أحد العلوم الرياضية كالجبر والهندسة .

أولا يعلم هذا الكاتب التحرير أن الأسلوب نوعان : أدبى وعلمى ، وأن
فى الأسلوب العلمى من دوحه له ومجالا لأن يخاطب العقل كما يريد ويقنعه بالحجج
والبراهين والمنطق ، دون اللجوء الى التأثير العاطفى ؟ أو يريد أن يجعل
البلاغة كلها أسلوبا علميا بحثا ! !

ثم اننا حين ننصح المتهور بالتعقل ، ونشير عليه بأن يجعل العقل والمنطق
دون العاطفة والانفعال هدفه ووسيلته فى كل ما يعمل ، حين ننصح الشاب
المتهور الطائش بذلك ، لا نلقى عليه خطبة رنانة ، ولا نسمعه نصا أدبيا ، ولا قصيدة
شعرية ، فبلاغتنا تقول : لكل مقام مقال ، ولذلك فمقتضى المقام أن نحدث هذا
المتهور الطائش حديثا رزينا هادئا يعتمد على العقل والمنطق والاقناع بأى نحدثه
بالأسلوب العلمى ، وقد يقتضى المقام أن نمزج حديث العقل بشئ^٢ من العاطفة ،
فيتمعاون الاقناع والتأثير على تحقيق الغرض المراد من نصح الشاب وتهذيبه
واعادته الى الصراط المستقيم والسلوك المتزن ، وهو ما يسمى بالأسلوب العلمى
المتأدب . وهما - أى الأسلوب العلمى ، والأسلوب العلمى المتأدب - خلاف
الأسلوب الادبى الذى يمتبره سادته الغربيون أرقى أنواع الأساليب ، وبه ترهف
المشاعر وتسمو ، وترقى الأحاسيس وترقى ، وتتناجى القلوب ، وتتعانق الأرواح ، ويصبح
الانسان انمنا ملائكيا ، يحب الخير ويهفو اليه ، ويكره الشر وينبذ عنه .

والتفكير الحسن ليس هو الغاية الأولى للبلاغة كما يزعم سلامة موسى ، فكل انسان بالغ عاقل يستطيع أن يفكر تفكيراً حسناً ، كما يستطيع أن يفكر تفكيراً سيئاً ، وهو في كلتا الحاليتين يعلم أن هذا التفكير حسن ، وذاك سيئ ، فكل الناس تعرفوا الخير والشر ، والحسن والسيئ ، والمعقول واللامعقول ، ولا يحتاج ذلك السيئ موهبة أو عبقرية .

أما غاية البلاغة - ان كان يريد أن يعرفها - فهي أولاً : تكوين ملكة لا ادراك الاعجاز ، وثانياً : ادراك الجيد والردى من الكلمات ، وثالثاً : تأدية المعنى واضحاً بعبارة صحيحة فصيحة لها في النفس أثر خلاب مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه والأشخاص الذين يخاطبون به ، أو هي باختصار : الكلام الفني الممتع . وجميع تعريفان البلاغة قديما وحديثا تدور حول ذلك . أما أن غاية البلاغة هي التفكير الحسن فذلك ما لم يقل به أحد من قبل ولا من بعد .

وانا كان لنا أن نصح للاستاذ معلوماته فاننا نقول له : ان التفكير الحسن هو الغاية من دراسة علم المنطق أو الفلسفة . كما أن بلاغة المنطق والأرقام موجودة في لغتنا ، ولكن اسمها - كما يعرفه الجميع - الأسلوب العلمي .

ثم هل نسي هذا العالم الأريب أن سادته من علماء الغرب المحدثين قد جعلوا البلاغة فنا من الفنون الجميلة الخمسة وهي : النحت والتصوير والعمارة والموسيقى والأدب ، ولم يقل أحد منهم بهذه البلاغة المنطقية التي يدعو اليها ، والتي تعتمد على العقل والاحصائيات والأرقام .

ان دعوته هذه فكرة داسفة تهديم أساس الشعر والنثر والفنون الجميلة عامة ، لأن الفنون وليدة المواطن ، واستجابة لنوازع نفسية لا صلة للمنطق بها ، ولو أننا أخضعنا كثيراً من النصوص الأدبية التي تروقنا للمنطق لوجدناها هباءً . فكلنا يعجب بقول المنخل اليشكري :

وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري

ونطرب لقول جميل :

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

وأى منطق فى هذا ؟ لو اتخذنا المنطق وحده دعامة للأدب لا نقلب الى حقائق جافة لا خيال فيها ولا جمال ولا سحر ، ولكان أخرى به أن يسمى علما لا أدبنا ، لأن خصيصة الأدب فى لغات العالم كلها أن معانيه خيالية ، وليس معنى ذلك أنها بمعزل عن منطق الحياة^(١) .

لكن الكاتب النحرير كما رأينا (يوجب أن يكون المنطق أساس بلاغته الجديدة ، ويسمى البلاغة القديمة " بلاغة الانفعال والعاطفة " ، ويعود فينقض بنفسه كلامه السابق حين يرى أنه يمكن أن تستخدم بلاغة الانفعال والعاطفة ، أى البلاغة القديمة كما سماها ، فى التوجيه الاجتماعى للأمة ، ولكن مع الحذر من أن يعود هذا التوجيه دعاية سيئة لأحد المذاهب الضارة^(٢) . ثم يعود مرة أخرى فيقرر أننا نسيء الى اللغة العربية والى شبابنا أيضا ، إذ أننا نعلمهم مبادئ البلاغة العاطفية بالمجاز والاستعارة والتشبيه . لكن يصلوا منها الى التعبير الفنى أو الى الرفاهية الذهنية بدلا من مبادئ البلاغة العقلية بقواعد المنطق حتى يصلوا الى دقة التعبير وتوقى الالتباس . والنتيجة من هذه البلاغة العاطفية هى الضرر لأنها تحدث لهم اتجاهها نحو التزويق والبهاج ، فاذا طلب اليهم التفكير عجزوا^(٣) .

والفنى نريد أن نصل اليه الآن هو الاجابة على السؤال التالى : هل يعترف الكاتب أن هناك فنا اسمه " الأدب " وفنيا اسمه " الأديب " ؟^(٤)

فان اعترف فقد هدم كلما قاله عن بلاغة المنطق والعقل ، وان أنكر فقد أنكر شيئا مشهودا معلوما بالضرورة لكل مثقف وغير مثقف . وأنكر كذلك نفسه لأنه يعتبر نفسه صحفيا أديبا ويستعمل أسلوب الأديب ويستعمل بلاغة الانفعال والعاطفة فى كتاباته ومقالاته . بل ان كتابه هذا " البلاغة المصرية " الذى يدعو فيه الى العامية والى بلاغة العقل والمنطق ونبت بلاغة العاطفة والأساليب المجازية نجده - وبيا للعجب - مكتوبا بالفصحى ، وملتصا بالأساليب المجازية^(١) ! فأين دعوته الى

العامية ؟ ولماذا لم يكتب بها ؟ ! وأين دعوته الى البلاغة المنطقية ؟ ولماذا لم

(١) مجلة الرسالة - العدد ٦٢٤ ص ٦٤٦ مقال د . الحوفى - البلاغة المصرية

(٢) البلاغة المصرية ص ٥٤

(٣) المرجع السابق ص ٥٥ و ٥٦

(٤) البيان العربى - ص ٢٩٦ - د . بدوى طبانة

يستعملها في كتابته كمودج تطبيقي لها خاصة وهو يدعونا اليها !! أليس هو أولى بتطبيقها كمودج يحتذى في بادىء الأمر !! وانى لأكاد أوقن أنه لو حاول ذلك لفشل ، ولجأت كتابته جافة عجفاً شوهاً . ولكنه وهو يدعونا الى بلاغة المنطق والعقل يستعمل بلاغتنا التي لا تعجبه ، بلاغة العاطفة والمجاز . وعلى سبيل المثال :

يقول : " فلو أن جيته ولد في قبيلة أفريقية لما استطاع أن ينتج الثمرات الزكية التي نقطفها من مؤلفاته لأن اللغة القبلية لم تكن عندئذ لتسعه بالكلمات التي تؤدى معانيه بل كانت تبقى هذه المعاني أجنة تؤلمه بالمخاض ولا تجد المخرج من ذهنه أو تخرج جهيضة (١) .

ويقول هينما تحدث عن اللغة والجنس فرأى أن الكلمات " أصوات نشأت بين البرمائيات كالضفدع لكى ينادى الذكر الأنثى ، وكانت غليتها الأولى لهذا السبب جنسية . بل ما زلنا نرى أغاريد الطيور التي تنضح بها الجوفى الربيع انما قصد بها فى الأغلب نداء الجنس الآخر للتناسل . والصوت يعبر عن العاطفة ولذلك يجب ألا نستغرب قول فرويد : ان الباعث الأول للنشاط البشرى هو الشهوة الجنسية ، ويجب ألا يصد منا هذا القول ، لأن فرويد قد بصر من خلال هذا القول الى الجذور الأولى التي تختفى فى جوف التطور (٢) .

وهكذا نجد سلامة موسى يدعونا الى نبذ الأساليب المجازية ، ويستعملها هو !! ومثله فى ذلك مثل عدو المرأة الذى يعشق المرأة ولا يستغنى عنها .

رأى سلامة موسى فى الأساليب البيانية :

ويزداد الاستاذ تناقضا فى منهجه ، ففي الوقت الذى يدعونا فيه الى نبذ الأساليب البيانية يدعونا الى استخدامها . فهو يدعونا الى استخدام كلمات العلوم الموجودة فى بيئتنا الاجتماعية باعتبارها الكلمات المجازية التي تتفق والمجتمع العلمى الذى ننشده .

(١) البلاغة المصرية ص ١٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٧

" وفيما يلي بعض التعابير التي اشتقتها أنا - أى سلامة موسى - من اللغة العلمية على سبيل المثال :

- التفاعل بين اللغة والمجتمع - كيمياء
- الاستقلال هو بؤرة الاشتعال الوطنى فى مصر - طبيعيات
- نعيش فى عصر متوتر بالمصاعب والمشكلات - سيكلوجية
- اللغة هى الجهاز العصبى للمجتمع - طب
- الحياة تفقد ايقاعها فى المرض - موسيقا
- أول ما تجرثمت الفكرة عندى - سيكلوجية
- يجب أن ننظر الى المستقبل ببصيرة تلسكوبية - فلكيات
- يعانى تخمة ذهنية - طب
- الايحاء أفعال من الاغراء - سيكلوجية
- يمشى فى تشاقل روماتزمى - طب
- يخشى الدنيا ويرى المصباح الأحمر أينما سار - ميكانيات
- الحرب هى قاطرة التاريخ لأنها تعجل التطور - ميكانيات (١)

أجل ، لقد دعانا الأستاذ الى استخدام هذه التعابير المجازية ، وقال :
انها تتفق والمجتمع العلمى الذى ينشده !!

هذا بينما منذ قليل عاب علينا أننا " ما زلنا نلتزم عبارات مقتبسة يعافها
الذهن الذكى . ومرجع هذه العبارات تلك البلاغة العاطفية الانفعالية التى
تعلمناها وغرست فى نفوسنا قيمة مزيفة للاستعارة والمجاز . فما زالت صحفنا مثلاً
تقول :

- | | | |
|----------------------|----------|--------------|
| - عرض على بساط البحث | بدلاً من | عرض للبحث |
| - وخاض غمار القتال | “ “ | قاتل |
| - حمى وطيس القتال | “ “ | حمى القتال |
| - دارت رحى المعركة | “ “ | دارت المعركة |

- وضعت الحرب أوزارها
- لتمييز أواصر الثقة
- صب جام غضبه
- أطلق سراحه
- نتجاذب أطراف الحديث
- بدلا من انتهت الحرب
- " " لتمييز الثقة
- " " صب غضبه
- " " أطلقه
- " " نتحدث

وقل منا من يقول : الحرب الضروس أو الموت الزؤام . ولكن العبارات السابقة الستى ذكرت لا تزال ترى كل يوم فى جرائدنا ، على الرغم مما فيها من استعارات ومجازات يمكن أن نستغنى عنها . بل على الرغم من أنها كلمات تحتاج الى مجهود كبير لتفسيرها لصبياننا مثل : وطيس - أوزار - أواصر - جام - رعى . وفى استغنائنا عن هذه العبارات اقتصاد ذهنى ومادى . ويجب ألا يفهم القارىء أننا نعارض الاستعارة كائنة ما كانت ، ولكننا نعارضها حين يمكن الاستغناء عنها (١)

وإذا كان الأمر كما يقول الأستاذ فإنه قد وقع فيما يحذر منه ويعارض فيه ، فان معظم الاستعارات التى اشتقها - آنفاً - من التعبيرات العلمية يمكن الاستغناء عنها . وعلى سبيل المثال يقول :

- الحرب هى قاطرة التاريخ لأنها تعجل التطور

يمكن أن تصبح العبارة - على رأيه - : الحرب تعجل التطور - ولا داعى للتشبيه .

- يخشى الدنيا ويرى المصباح الأحمر أينما سار : يخشى الدنيا دائما .
- يمشى فى تشاقل روماترمى : يمشى متعبا
- يجب أن ننظر الى المستقبل ببصيرة تلسكوبية : فلننظر الى المستقبل . وهكذا .

والواقع أن سلامة موسى لا ينظر الى البلاغة ببصيرة تلسكوبية وهو يخلط فسى كلامه ويناقض نفسه بين كل صفحة وأخرى .

وإذا كنت تريد أن تعرف بلاغة سلامة موسى على حقيقتها فتعال أعرض عليك نوعا من البلاغة المقدسة التي تعجبه والتي وردت ضمن بعض الأدعية التي وضعها ليتضرع بها أبناء طائفته إلى الله . يقول :

" يا رب أنت الواهب وواحد العربيات ، جرتنا بقدرتك الإلهية إلى ملكوت السما . . . يا رب أنت الحنفية واحنا الجردل ، املأنا من نعمتك ^(١)

ليت شعري كيف يجوز لمن يقول ذلك أن يتحدث في البلاغة وأساليبها . بل كيف يجوز له أن يكون أدبيا من لا يحسن فهم الشعر ويخطئ ويخلط فـسـى تفسيره ، يقول : " ولأبى تمام شطرة من بيت كثيرا ما تذكره : (السيف أصدق أنباء من الكتب .) . والواقع أن أبا تمام لم يقل كلمة هي أبعد عن الصحة والحقيقة من هذه الشطرة ^(٢) ويقول في مكان آخر : " كان أبو تمام شاعرا عربيا ، وكان ملتبسون شاعرا انجليزيا وقد قال الأول كلمته الكاذبة البشعة " السيف أصدق أنباء من الكتب " ^(٣) . ونتساءل في عجب : لماذا ؟ ! فنسمع خلطا وهذيانا ثم جهلا . أما الخلط والهذيان فقلوه : " لأن السيف لا تتحرك إلا للكلام الذي سبقها . والكلام هو القوة الروحية المتسلطة ، والسيف هو القوة المادية الخاضعة . أليس من الواضح أن السيف إنما جردت في حروب العرب والرومان لأن كلا منهما كان يفكر بكلمات تحمل قوات ذهنية وروحية ونفسية تختلف عما كانت تحملها الكلمات الأخرى عند الفريق الآخر ؟ ثم انظر إلى نابليون . لقد ضاع كل ما فتحه بالسيف في أوروبا وأفريقيا قبل أن يموت . أما الكلام الذي رتبته في " قانون نابليون " فلا يزال حيا إلى الآن . ولو أن نابليون عنى بالكلمات ولم يحتقرها ، لكان إلى جنب سيوفه ومدافعه دعاية لمذهبه الجديد في الحكم من حيث اتحاد أوروبا والغاء النظام الإقطاعي . ولكنه أهمل هذه الدعاية ، ولذلك استطاع أصحاب الكلمات القديمة بزعامه " مترنيخ " أن يفوزوا عليه ، وأن يطفئوا نور العصر الجديد إلى حين ^(٤)

(١) شيوخ الأدب الحديث ص ١١٥ - حبيب الزحلاوي

(٢) البلاغة المصرية ص ٩١

(٣) المرجع السابق ص ٩٣

(٤) المرجع السابق ص ٩١ و ٩٢

وهكذا بعد بنا سلامة موسى عن شطر أبى تمام ، وخلط بينه وبين نابليون
ومترنيخ وأوروبا ونظام الاقطاع والدعاية !! وتتساءل : أهذه بلاغة المنطق والعقل
والأرقام ؟ ! أم أن هذا هو التجديد فى شرح النصوص !! هذا هو الخلل
والهذيان . أما الجهل فهو قوله بعد ذلك : " وهل نسى أبو تمام أن المسيحية
تركت كتابا ، وأن الاسلام ترك كتابا ، وكذلك فعلت سائر الأديان ، وأن هذه
الكتب أصدق أنباء من السيف " (١)

وعجبنى . . . ان أى طالب فى الصف الثانى الثانوى لو سأله : ما
المراد بالكتب فى شطر أبى تمام ؟ لقال على الفور : المراد بالكتب هنا كتب
المنجمين . أجل .. كتب المنجمين فقط لا غير ، الذين يرحمون بالفيلسوف
ويدعون معرفة المستقبل وكان يجب أن يرجع الى كتب الأدب ليتعرف حقيقة الموضوع
قبل أن يقول ويقرر : أن المسيحية تركت كتابا ، وأن الاسلام ترك كتابا ، وكذلك
سائر الأديان ، وأن هذه الكتب أصدق أنباء من السيف . فأبو تمام لم ينس ولم
يخطئ ، ولكن المخطئ هو سلامة موسى .

فن البلاغة والحياسة العصرية :

وسلامه موسى يلبس الحق بالباطل ، ويسوق باطله على وجه معقول ومنطوق
منسق ، فيقدم المقدمات ، ويستخلص النتائج ، ويريدنا أن نقتنع بما يقول . ولكن
أنى للحق أن يخفى مهما حاول الباطل . أنظره يقول :

" انه ليس للحياة غاية سوى الحياة . وكل ما عدا الحياة انما هو وسائل
للحياة . فاللغة والأدب والفن والبلاغة انما هى جميعها فى خدمة الحياة التى
لها الاحترام الأول والمكانة المفضلة . فنحن نتعلم الفنون ، ونمارس البلاغة ، ونعنى
بالثقافة ، كى نصل فى النهاية الى مستوى عال من الحياة . ولذلك لا نحتاج الى
أن نشرح للقارىء أن بلاغة الحياة أهم وأخطر من بلاغة اللغة ، وأن أسلوب الحياة
أجدر بالأولوية والتفضيل فى التعليم من أسلوب الكتابة ، وأن فن الحياة هو أشرف
وأجدى الفنون على هذا الكوكب .

واذا جعلنا الحياة الشريفة السعيدة هدفاً ، نوجه اليه فنوننا وعلومنا وعقائدنا ، فاننا نستطيع أن ننزع عن هذه جميعها تلك القداسة التي تحول بينها وبين تنقيحها أو تغييرها . ويعود عندئذ " فن البلاغة " فنا تجريبيا مثل جميع الفنون . ويتغير كما تغيرت . فليس شك في أن التغير أو التنقيح قد عم فنوننا كثيرة في عصرنا مثل الرسم أو النحت أو البناء . ولكن فن البلاغة^(١) في اللغة العربية لم يتغير .

فحياتنا المصرية تختلف عن الحياة العربية قبل ألف سنة . فاذا كنا نسلم بأن فن البلاغة يجب أن يكون في خدمة هذه الحياة المصرية فانه يجب أن يتغير كي يخدمها . فلم يعد مجتمعنا في حاجة الى البهارج والزخارف البديعية نحطم رؤس أبنائنا بتعلمها وممارستها . ولكنا في حاجة الى أن نجعل البلاغة فنا للتفكير الحسن السديد^(٢) .

ماذا يريد هذا الرجل ؟ وما له يخلط بين فنوننا وعلومنا وبين عقائدنا ثم يريد أن ننزع عنها جميعها تلك القداسة التي تحول بينها وبين تنقيحها أو تغييرها . أما يكفيه أنه طعن في لفتنا وبلاغتنا حتى يريد - بحذر - أن يطعن في عقيدتنا !! ان الدعوة الى جعل اللغة والأدب والفن والبلاغة جميعها في خدمة الحياة أمر نقره وندعوله ونسعى اليه ، ولكن ليس بطريقة سلامة موسى ، طريقة السم في العسل ، ان بلاغتنا في حاجة الى التجديد ، نعم ، وليس ذلك بضائرنا ، فالدعوة الى التجديد تعالت بها أصوات كثير من العلماء الشرفاء المخلصين ، وكانت آراؤهم واقتراحاتهم موضع تقديرنا واحترامنا . أما أن تتخذ الدعوة الى التجديد طابع الهدم والتدمير بلفظنا وعقيدتنا فهذا ما لا نسمح به على الإطلاق .

ماذا يريد هذا الرجل من البلاغة الجديدة :

ويعود سلامة موسى بعد هذه المقدمات التي حاول فيها أن يلبس الحق بالباطل فيقول : **ويجب أن نشرح غايتنا من البلاغة الجديدة :**

- ١ - فهي قبل كل شيء " التفكير المنطقي السديد الذي يؤمن فيه الخطأ .
- ٢ - تحريك الذكاء وتدريبه بالكلمات .

(١) نلاحظ هنا أن سلامة موسى لم يفرق في كلامه عن البلاغة بين العلم والفن وكأنه يقصد هما معا . وقد أشرنا الى ذلك من قبل في دفاع الزيات .

(٢) البلاغة المصرية ص ١٠٧ و ١٠٨

٣ - أن نعرف كيف نستعمل الكلمات للتفكير التوجيهي .

٤ - أن نعرف كيف نستعمل الكلمات لتحريك الاجتماعي .

فأما القاعدة الأولى وهي أن التفكير يجب أن يكون منطقياً ، فتقتضى بدراسة كتاب موجز في المنطق . وإذا كان اللورد هوردر الطبيب الانجليزي ينصح لكليات الطب في بريطانيا بتدريس كتاب جيفونز في المنطق في السنة الأولى من الدراسة الطبية ، فاننا أحوج الى مثل هذه النصيحة في دراسة اللغة العربية في كلية الآداب أو في دار العلوم .

ويجب أن تكون الكلمات موضوعاً لتدريب الذكاء اللغوي في التلميذ والطالب . ولن يستطيع مدرس اللغة أن يصل الى ذلك الا اذا كان موسوعي المعارف قد درس احدى اللغات الأوربية وأتقن علماً عصرياً .

والى هنا الفائدة سلبية ، وهي أننا لا نقع في الخطأ والالتباس . ولكن يجب أن نتعلم اللغة للفائدة الايجابية ، وهي الانتفاع بها في ايجاد الكلمات (الموطرية) التي تحرك الفرد والمجتمع . أي نعرف القيم (السيكولوجية) للكلمات وما فيها من شحنات عاطفية أو تنبيهات ذهنية . فاللغة علم وفن . هي علم من حيث أننا يجب أن نعرف كيف ننتقد المعاني وكيف نسبر المعاني في الكلمة . وهي فن من حيث قدرتنا على استعمال الكلمات كي تبعث التحريك الاجتماعي أو التنبيه الذهني أو العاطفي في الفرد أو الجماعة^(١) .

وإذا نظرنا الى ما ذكره المؤلف عن غايته من البلاغة الجديدة وجدنا عيباً وخطأ واضطراباً . فهي عنده قبل كل شيء التفكير المنطقي السديد الذي يؤمن فيه الخطأ ، وإذا كانت تلك غاية البلاغة أولاً وقبل كل شيء ، فما هي غاية المنطق إذن ؟ ! أليس ذلك خلط في الرأي واضطراب في التفكير .

أما الغاية الثانية وهي : تحريك الذكاء وتدريبه بالكلمات فليست تلك مهمة البلاغة وإنما هي مهمة الأدب والنصوص والمطالعة والنحو أيضاً فعلى قدر ما يعنى الدارس ويستوعب من أساليب اللغة يتحرك ذكاؤه اللغوي ومن هنا قالوا : (احفظ ثقلان الكلام من الكلام) . ولذلك كانت دراسة روائع الأدب وحفظ نصوصه من أهم الأمور في تجلية موهبة الدارس وصلتها .

أما الفأيتان الثالثة والرابعة وهما : كيف نستعمل الكلمات للتفكير التوجيهى ، وكيف نستعملها للتحرريك الاجتماعى ، فهما يعودان أيضا الى ما قلناه فى الفأية الثانية ، لأن استعمال الكلمات سواء فى التفكير التوجيهى أو التحريك الاجتماعى انما يتولد وينبعت من كثرة ومد اومة الاطلاع على روائع الأدب من شعر ونثر . وحتى ان كان يقصد بالتفكير التوجيهى الكتابة ، ويقصد بالتحريك الاجتماعى الخطابة ، فان كلا من الكتابة والخطابة انما يرجع أساسا الى صقل الموهبة عن طريقة الدراسة والممارسة لروائع النصوص الأدبية . وان كان يقصد بالتفكير التوجيهى الأسلوب العلمى ، وبالتحرريك الاجتماعى الأسلوب الأدبى فان كلا الأسلوبين يحتاج أيضا الى التدريب اللغوى والممارسة .

وعلى كل فائق أسلوب المؤلف غير محدد وغير واضح ولا شىء فيه يلفت النظر غير تلك الكلمات الجديدة التى يكثُر من ترديد ها مثل : الكلمات الموطريسة ، القيم السيكلوجية ، السلبية والايجابية ، التنبيهات الذهنية . . . الى غير ذلك .

أما الفأية من البلاغة عنده فهى بعيدة كل البعد عن البلاغة العربية بل وعن غيرها من البلاغات . فلا يوجد - فيما نعلم - بلاغة عربية أو عربية قديمة على المنطق وتغاطب العقل وتجانى العاطفة وغايتها التفكير الحسن .

والغريب - وما أكره فى هجوم سلامة موسى - أن المؤلف بعد أن جرد البلاغة من العاطفة ، وجرد اللغة من الأسلوب الأدبى ، وجعل كلا من البلاغة واللغة منطقا واحصاء وأراقاما ، يعود مرة أخرى فيناقض نفسه ويقول : " فاللغة علم وفن . هى علم من حيث أننا يجب أن نعرف كيف ننتقد المعانى وكيف نسبر المعانى فى الكلمة ، وهى فن من حيث قدرتنا على استعمال الكلمات كي تبعث التحريك الاجتماعى أو التنبيه الذهنى أو العاطفى فى الفرد أو الجماعة " .

فهل بعد هذا اضطراب وخلط وتناقض ؟ !!

يقول د . طبانة " ورأينا فى هذا الكلام أنه ليس من طبيعة الأدب أن يلزم الأديب أو البليغ أن يكون أدبه منطقيا أو غير منطقى ، بل ان له أن يعبر تعبيرا جميلا عما يحس وعما يجد فى بيئته مما يؤثر فى نفسه ، أو يثير تفكيره أو عواطفه وانفعالاته .

ومجالات الأدب لا حد لها ، وإنما المطلوب هو فنية التعبير ^(١) .

وإذا كانت البلاغة - عند المؤلف - هي بلاغة العلم والمنطق والأرقام ، فإننا نورد هنا أيضا ما قاله الاستاذ عباس محمود العقاد من " أن الكتابة الأدبية فن ، والفن لا يكتفى فيه بالافادة ، ولا يغنى فيه مجرد الافهام ، وعندى أن الأديب فى حل من الخطأ فى بعض الأحيان ، ولكن على شرط أن يكون الخطأ خيرا وأجمل وأوفى من الصواب " ^(٢) .

ومن المتناقضات الكثيرة فى آراء سلامة موسى أم حجة أنه يعزده فيفرق بين الكلمة الموضوعية والكلمة الذاتية ، أى بين الأسلوب العلمى والأسلوب الأدبى ، أنظره يقول : " ونحن فى تفكيرنا نتخذ أسلوبين : الأسلوب الموضوعى ، حين نتجرد من احساسنا الشخصى أو لا نجد له مجالا . كما لو قلنا ، كرسى أو أسد أو شمس أو شارع . فكلنا على وجه التقريب يذكر هذه الأسماء دون أى انفعال ، وكلنا سواء تقريبا فى ادراك صورها وهذه الكلمات موضوعية ، أى أنها غير متأثرة بذواتنا . والمفكر العلمى يحاول على الدوام الوصول الى هذا الأسلوب الموضوعى فى التفكير أى أنه حين يبحث مشكلة يتجرد عن احساساته ويؤله وما يجب وما يكره . ولكن هناك الأسلوب الذاتى ، أسلوب الأديب والفنان ، فرجل الأدب يتحدث عن المثليات أو الجمال أو الذوق أو العظمة . وهذه الكلمات جميعها ذاتية ، أى تعبر عن احساساته وانفعالاته . ولذلك نختلف فيها كثيرا " ^(٣) .

وهذا الكلام ليس بجديد طبعا ، ولكن الجديد أنه قاله بعد أن أنكر واستنكر الأسلوب الأدبى وحمل عليه وعلى بلاغة العاطفة والانفعال . وكعادته عاد فنقض هذا الكلام بطريقة مائعة . ينول : " والكاتب الذكى هو الذى يحاول

(١) البيان العربى ص ٢٩٤

(٢) مقدمة " الغربال " لميخائيل نعيمة بقلم العقاد ص ٨ دار المعارف - القاهرة .

(٣) البلاغة المصرية ص ٦٥ ، ٦٦

أن يكون علميا موضوعيا ، وليس عاميا ذاتيا . ولكن يجب أن نذكر أن اللغوية ستحتوى على الدوام كلمات ذاتية تعبر عن الآداب والفنون ، وهى هنا ليست عامة ، ولكنها تعبر عن ذاتية ممتازة " (١) ثم يقول : " والتفكير السديد ينقلنا ، أو يحاول أن ينقلنا ، من النظر الذاتى للأشياء الى النظر الموضوعى ، ومسئول الوصف المائع العام الى الوصف بالأرقام " (٢) .

وأقول : ليت المؤلف أراحنا من كلامه المائع ووصف لنا ما يريد ، بالأرقام فلعل ذلك كان يقنعنا ويقنع غيرنا بنظرية اللغة الرقمية .

ضرر البلاغة العاطفية :

ويحذرننا سلامة موسى من أضرار البلاغة العاطفية القديمة ، واسماءة استعمالها ، فيقول : اننا (فى مصر نسيء الى اللغة العربية ، والى شبابنا أيضا ، حين نتخذ منهم طرقا عتيقة فى معالجتها يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ - أننا نعلمهم مبادئ البلاغة العاطفية بالمجاز والاستعارة والتشبيه الخ . . . كي يصلوا منها الى التعبير الفنى أو الرفاهية الذهنية ، بدلا من مبادئ البلاغة العقلية بقواعد المنطق ، حتى يصلوا الى دقة التعبير وتوقى الالتباس ، والنتيجة من هذه البلاغة العاطفية هى الضرر ، لأنها تحدث لهم اتجاهات نحو التزويق والبهاج . فاذا طلب اليهم التفكير عجزوا .

٢ - هذه البلاغة العاطفية قد حملت المعلمين على الكبار من شأن الاقتباس ، حتى اننا كثيرا ما نرى فى كتب الانشاء التى يتداولها التلاميذ غنايئة المؤلفين بما يسمونه " الجمل المختارة " . وهى عبارات تحتوى كلمات لها بريق أو رنين أو ضجيج . والتلميذ الذى يكلف استظهارها انما يفعل ذلك على حساب تفكيره . فكأننا نقول له " لا تنظر الى هذه الدنيا بروح الباحث المتفهم المفكر ، وانما استظهر العبارات المزخرفة وتكلف التزويق لأنها أحسن ما يمكنك أن تعبر به فى الانشاء " . ونحن فى هذا التوجيه نحمله على العناية بالقشور ، بل بما هو أئفه منها ، وترك اللباب ، أى التفكير السديد .

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ص ٦٧

٣ - ضرر ثالث هو أيضا نتيجة لما ذكرناه ، نعني به العناية بالأسلوب، ومحاولة التلميذ أو الطالب أن يتعلم أساليب الأقدمين ويحاكي أحسنها ، وكأنها غاية الانشأ^(١) .

ويعلق الكاتب على هذه الأضرار الثلاثة التي اخترعها وصورها له خياله المريض فيقول : " ونحن في كل هذا نكاد نجعل الذهن وعند ما يشب هؤلاء الشبان يتجهون ، اذا ألفوا كتابا أو كتبوا في صحيفة ، وجهة الاقتباس والتزويق دون التفكير والبحث . وهذا ما نراه شائعا في كتبنا ومجلاتنا^(٢) ،

ويتساءل الكاتب : كيف نعالج هذه الحال ؟ ويتطوع بالاجابة المثلى كما يتصور فيقول :

١ - نعالجها أولا وقبل كل شيء بأن نجعل قواعد المنطق تقوم مقام قواعد البلاغة القديمة . أى دقة التعبير بدلا من تزويق التعبير ، ومخاطبة العقل بدلا من مخاطبة العواطف .

٢ - ونعالجها ثانيا بأن نقاطع الاقتباس في الانشاء في المدارس الابتدائية والثانوية ونجعل التفكير يقوم مقام الاقتباس . فيجب ألا تكون هناك " جملة مختارة " تحفظ عن ظهر قلب . بل يجب أن يعود الصبي أو الشاب كيف يفكر ويبحث ويطلع .

٣ - يجب أن نعرف أن الأسلوب هو الناحية الاخلاقية للكاتب . فاذا كان الكاتب فنانا يعيش الحياة الفنية ، فأسلوبه فنى . واذا كان عالما فأسلوبه علمى ، واذا كان اجتماعيا . . . الخ .

وأسلوب الكتابة هو بعض أسلوب الحياة . فالرجل المستقيم الصريح فى معاملاته يكتب فى عبارة صريحة وفى كلمات لا تقبل الالتواء . فاذا طالبنا الصبى أو الشاب بأن يحسن الأسلوب فى كتابته ، فانما نطالبه فى الحقيقة بأن يتخذ أسلوبا حسنا فى معيشته وأن يرقى شخصيته . واذا استقرت هذه القواعد فى مدارسنا وتعلمها صبياننا وشبابنا فاننا سنجد عندئذ المؤلفين الفكريين والصحافيين النيرة المرشدة صحافة الشخصيات الكبيرة والتفكير العلمى الدقيق^(٣) .

(١) البلاغة العصرية ص ٥٥ و ٥٦

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق ص ٥٧

فإذا سلمنا بأن تحسين الأسلوب يؤثر في تحسين المعيشة ، فانتساءل : كيف يحسن الطالب أسلوبه في الكتابة ؟ أبالأرقام والأعداد والمنطق ، كما يقول سلامة موسى ؟ أم بتلمس وسائل الجمال الأسلوبى من تشبيه ومجاز وبديع مما ينكره ويستنكره الكاتب الخطير ؟ !

(ان الهدم سهل ، والذى يصنعه هم أولئك الذين ينتقدون الجمال فى اللغة ، ويريدونها عضواً أشل . . . والأحداث التى غيرت مجرى التاريخ وأهبت بين الجوانح نزعة الرقى . . . كانت وسيلتها الى الإصلاح . . . التعابير الجميلة التى تخاطب القلب قبل أن تخاطب العقل . ومن أمعن النظر فى أسرار هذه الأحداث تبين له أن أسرعها الى الانتشار وأبعدها أثراً فى المجتمع هى التى كان فى الدعوة إليها وفى شرح أهدافها أكبر نصيب ممكن من الجمال . . . ولو حاولنا أن نجارى الذين يدعون أن اللغة للأداء فحسب فماذا نفعل بالآثار الأدبية العالمية التى تزخر بالجمال ، وهى التراث الخالد الذى ينحدر من جيل الى جيل ، وفيه تجارب الانسان يلتمس فيها علاج النفس ويمتلك به ناصية الهنا . أنعرض عنها أم نلقى على عواتقهم تبعه تجريدها من كل رائع طريف وجعلها مرجعاً للجمود والبلادة .

ان الأساليب المجردة التى يطالب بها هؤلاء لا يمكن أن تميز كاتباً عن آخر ، فكأنها خارجة من قالب واحد فى معمل واحد فيها تتلاشى الشخصية الانسانية وتحل محلها الآلة التى لا تبدى ولا تعبد . . . وهكذا يمكن الاستغناء بكاتب عن بقية الكتاب . أما الأساليب التى تبهرنا ، وأما اللغة التى تحوز اعجابنا فهى التى تجعل كل كاتب شخصية مستقلة تتميز عن سواها بخصائصها الواضحة .

فى وسط هذا التيار الجارف من البيوسة المؤلمة ، تقف اللغة العربية موقف المجابهة . . ان أعداءها حاقدون ، والحجة التى يتكلمون عليها تغرى وتغوى ما أسهل أن يعلق فى أشراكها الذين لا يبالون بالبحث والتنقيب أو ما نسميهم يصرخون بأنهم يريدون مجازاة روح المصر وسائرة القافلة الانسانية السائرة الى الأمام . ويدعون أن التخلف الذى تعاني منه العروبة ما تعاني ،

من دواعيه لغتها وما في لغتها من تعقيد ، ويجهلون أو يتجاهلون أن هذه اللغة التي يعمييونها كانت رسالة حضارة نشرت أعلامها في الشرق والغرب ، ورافقت الفتوحات - وكانت طليعة فيها - ووطدت في الأصقاع التي دخلتها معالم العمران وظلت - بعد أن تقلصت البنود السياسية في البلدان المذكورة - تزود الأفكار بالروائع ، وتمون القلوب بالبدائع ، وتقع موقع الرضا والترحاب حيث حلت . ويجهلون أو يتجاهلون أن هذه اللغة هي من دقة التعبير وقوة الاشتقاق وجلالة الصيغ وغنى المفردات بحيث اختارها الكثيرون من العلماء غير العرب في الدولتين الأموية والعباسية للدراسة والتأليف . فقد رأوها من أصلح اللغات للتعبير عن أدق الشئون العلمية المختلفة .

ان العلة ليست في اللغة العربية ، بل في الذين لا يفهمونها ، ويهذرون وهم في معزل عن الحق (١) .

بين البلاغة والأعراب :

حفل هجوم سلامة موسى على البلاغة واللغة العربية بكثير من الدعوات المفرضة ، وقد عرضنا ونقدنا آراءه في البلاغة وتجديدها ، وفي الأسلوب الأدبي والأساليب البيانية .

وكما نود أن نعرض وننقد آراءه وأحافيره في اللغة العربية أيضا ، والستى ساقها باسم الإصلاح والتجديد والتيسير ، لنكشف بصورة أكثر وضوحا حقيقة سلامة موسى وحملته الهدامة المفرضة . أقول : كنت أود ذلك ، لولا ما أحاذره من الخروج على موضوع البحث .

ولكن من أحافير سلامة موسى اللغوية ما له علاقة ببحثنا ، كحديثه عن النحو الأعراب .

وذلك أنه يدعو الى " أن تقتصر في تعليم اللغة العربية على تمكين التلميذ من المطالعة والفهم بلا حاجة الى أية قواعد خاصة بالنحو ، وليس عليه من حرج أن يقرأ فيرفع المفعول ، وينصب الفاعل ، ما دام يفهم ما يقرأ . حسبه أن يسكن آخر الكلمات (٢)

(١) من مقال للأديب الياس قنصل بعنوان (العلة ليست في اللغة العربية) مجلة الفيصل - العدد الخامس عشر ص ١٥٣ - ١٥٤ بتصرف .

(٢) البلاغة العصرية واللغة العربية ص ١٣٨

وتتسائل في عجب : كيف يرفع التلميذ المفعول وينصب الفاعل ثم يفهم ما يقرأ ؟ ! ألم يطلع - وهو العالم النحرير - على ما قاله الامام عبد القاهر في هذا الشأن من أن " الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذي يفتحها ، وأن الاغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنه المعيار الذي لا يثبني نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع اليه ، ولا ينكر ذلك الا من ينكر حسه ، والا من غلط في الحقائق نفسه (١)

ان الاعراب هو مفتاح المعاني ، وهو مظهر الفصاحة ، وجمال البيان ، وبدونه نطمس كثيرا من معالم اللغة ، ونبعد كثيرا عن موسيقا الكلام ، ونفقد الصحة والسلامة في قراءة القرآن وفهم معانيه ، فلا بلاغة بغير اعراب . ان تسكين أو اخسر الكلمات ليس حلا مقبولا بل ولا مستساغا في كثير من الأحيان ، ولك أن تتخيل أو تحاول قراءة الفاتحة - مثلا - بتسكين أو اخسر كلماتها ، فسترى أن ذلك صعب على اللسان ، ولا طرب له في القلب والآذان . هذا الى ما يسببه ذلك من خلط في المعاني والأفكار . فهل هذا ما يدعو اليه المؤلف الخطير ؟ !

ويقول : " وبدلا من هذه القواعد النحوية يجب أن يتعلم الصبي أكبر مقدار مستطاع من الكلمات التي ترد في الجريدة والمجلة والمتجر والمصنع والدكان . " أي نعلمه الكلمات العامية . وهل اللغة العامية في حاجة الى تعليم ؟ ! وهل من الصواب أن نلغى قواعد النحو لنوفر للتلاميذ الوقت لزيادة ما يدخرون من الكلمات العامية ؟ !

ومن العجيب حقا أنه بعد أن دعانا الى الوقف في أواخر الكلمات أي اسكانها ، وادعى أن ذلك " هو الخطة السديدة التي يجب أن تتبع وعندئذ يتوافر للتلاميذ الوقت لزيادة ما يدخرون من الكلمات " يقول : " وهنا تدخل البلاغة " ! !

أي بلاغة يا سلامة تلك التي تدخل هنا ؟ ! ويسرع بالرد : " ونمــــنــــي بلاغة المنطق اللغوي للتمييز بين الكلمات من حيث الدقة والاقتضاد في التعبير ، وليس من حيث ألعيب الصغار عن الاستعارات والمجازات ، كوجه القمر ، وأنت بحر ، وعلم من فوقه نار . الخ " (٢)

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٣ و ٢٤

(٢) البلاغة المصرية ص ١٣٨

وماذا نقول فى هذا الخلط والهذيان والشقاق ، فهذا الرجل يستنكر الاستعارات والمجازات ويعتبرها ألعيب الصفار ثم يستعملها فى كتابته - كما بينا من قبل - ويدعونا الى بلاغة المنطق اللغوى والأرقام ثم لا يستعملها ، أو هو لم يستطع ذلك . لأنه غير صادق فى دعوته ، ولأن هدفه هدم الفصحى وبالتالى هدم الدين الذى يحقد عليه وعلى أهله .

وإذا كانت بلاغة العاطفة والاستعارات والمجاز ألعيب صفار ، فماذا نسمى بلاغته المضحكة المخجلة التى وضعها لكى يدعو بها أبناء طائفته ومنها : يا رب انت الواجور وحنا العربيات جرنا الى رحمتك ، يا رب انت الحنفية وحنا الجسرا والاملأنا من نعمتك .

حقا لقد صدق المثل : اذا لم تستح فاصنع ما شئت .

ويعود سلامة فيدعونا الى الاخلاق - فهو رجل أخلاق - ويقول : " يجب أن تكون لنا غاية أخلاقية فى تعليم اللغة العربية هى تعويد التلميذ القراءة بحيث لا يستطيع الكف عنها طيلة حياته " (١) .

وتعويد التلميذ على القراءة أمر محمود ولكن كيف نحققه ونرغب فيه اذا كان الأسلوب الذى يعرض عليه ويقرؤه أسلوبا علميا جافا لا روح فيه ولا عاطفة ولا حلاوة ولا جمال . وحتى البلاغة قد فقدت رواها وطلاوتها لانها أصبحت بلاغة صارمة تقوم على المنطق وتتعامل بالأرقام . أفلا يجد ربنا اذا كنا نريد أن نعود التلاميذ على القراءة أن نعرض عليهم الموضوعات المطلوبة فى ثوب قشيب وأسلوب جميل يرقى بأنواقهم فى الكتابة والتفكير ؟ .

ومن الخلط المجيب أن سلامة موسى يربط بين الخطابة والمناقشة ، ثم يعرف الخطابة بأنها الاكثار من الموضوعات التى يظالها التلاميذ ، وهو كلام يدل على خلط وجهل . اسمعه يقول : " غاية أخرى نتوخاها هى تكوين شخصيته - أى التلميذ - بالمناقشة والخطابة . ولا نعنى بالخطابة تلك الحركات المنبرية البهلوانية التى تعتمد على قوة الذراعين والحنجرة أكثر مما تعتمد على الفهم

والتمييز ، وانما نعنى أن نكرر من الموضوعات التي يطالعها التلاميذ مع المعلم
فتنشأ المناقشة المنيرة التي يتعلم منها التلميذ كيف يناقش وينتقد " (١)

وأقول ما كل من عرف الكتابة كاتب . وأكبر دليل على ذلك : سلامة موسى
وآراؤه في البلاغة واللغة .

وبعد : فان دعوة سلامة موسى الى تجديد البلاغة وبنائها على قواعد
المنطق والأرقام دعوة لم تكن لتنجح أبدا ، أو تأخذ طريقها الى القلوب والعقول .
ومهما تذرع في دعوته بالاصلاح والتجديد والتيسير ، وصاغ أفكاره الهدامه في كثير
من الخبث والدهاء ، وتظاهر بأنه مجدد صادق مخلص حريص على مصلحة اللغة
العربية ومستقبلها ، مهما فعل ذلك فان نظرة فاحصة تكشف عما في دعواته من هدم
وعصبية ، وما في نفسه من حقد وضمينة على العرب والعربية .

ولسنا نعتبر دعوة سلامة موسى الى تجديد البلاغة الا هجوما عليها ،
واستهانة بها وبأربابها .

ونعود فنقول : اننا لا نعفى علمائنا وأدباءنا الكبار ، والمسؤولين عن
الثقافة العربية ، من التبعية والمسئولية ، وما لاقت وتلاقى بلاغتنا ولغتنا من جور
وظلم واجحاف .

وقد آن الأوان لنقوم بعمل كبير ، ننصف به بلاغتنا ، وننهض بلغتنا ، ونعيد
العصر الذهبي للأمة العربية في العلوم والآداب .

وبلاغة : قمة اللغة العربية ، وذروة سنامها ، بحاجة الى هزة عنيفة ،
تسقط أوراقها الجافة ، وتسعد أوراقها الخضراء . وحديقة البلاغة بحاجة ماسة
الى العناية والتشذيب والارواء ، لتعود روضة غناء ، تؤتي أكلها كل حين بان
ربها .

الباب الخامس

قضية الاعجاز الكبرى وآراء المجددين فيها

الفصل الأول : الاعجاز النفسى

الفصل الثانى : الاعجاز العلمى

الفصل الثالث : الاعجاز العددى

الفصل الرابع : الاعجاز الروحى

=====
=====

قضية الاعجاز

قضية الاعجاز قضية قديمة ، كثر القول فيها وكثرت الآراء ، ولسنا هنا بصدد البحث فيما ثار حول الاعجاز قديما ، فقد تحدث فيه كـيـرون وقتلوه بحثا وتمحيصا ، ولكننا بصدد ما طرأ حوله من جديد ، وما استحدث من دراسات حديثة في هذا المجال .

اما وان الحديث عن الجديد لا بد ان يستضاء له بالقاء ضوء على القديم ، فاننا نعرض هنا للآراء القديمة باجمال ، توطئة للحديث عن الجديد في قضية الاعجاز .

ولقد اختلفت وجهات النظر في الاعجاز ، وتشعبت سبل القول فبعضهم رأى انه لعل للاعجاز " ولذلك صاروا اذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن ، الفائقة في وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر انواع الكلام الموصوف بالبلاغة قالوا : انه لا يمكن تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم منه مباينة القرآن غيره من الكلام ، وانما يعرفه العالمون منه عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده . واحالوا على سائر اجناس الكلام الذي يقع فيه التفاضل فتقع في نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ، ويتميز في افهامهم قبيل القائل من المفضل منه . قالوا : وقد يخفى سببه عند البحث ، ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به . قالوا : وقد توجد لبعض الكلام غزوة في السمع وهشاشة في النفس لا يوجد مثلها لغيره منه ، والكلامان معا فيصيحان ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة " (١) .

فأصحاب هذا الرأي يرون ان الاعجاز احساس وادراك وتذوق خاص بأولي العلم والمعرفة ، وانه لعل ظاهرة يمكن بها بيان سبب الاعجاز وهو " لا قد اراحوا واستراحوا ، ولكن انى للعقل البشرى ان يقنع بهذا الرأي .

ولعل ذلك هو ما دعا الخطابي الى ان يعود فيقول : " واعلم ان القرآن انما صار معجزا لانه جاء بانصح الالفاظ في احسن نظم التأليف مضمنا اصح المعاني " (٢) .

١- بيان اعجاز القرآن للخطابي ص ٢٢ .

٢- المرجع السابق ص ٢٤ .

فقد التمس للاعجاز بعض الأسباب والعلل ، بعد ان عرض رأى القائلين بأنه لا علة للاعجاز ، وان كان قد رأى رأيهم فى موضع آخر حيث قال : "قلت فى اعجاز القرآن وجهها آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه الا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعة فى القلوب وتأثيره فى النفوس" (١) وهكذا نجد الخطابى يرى الوجهين ويقول بهما .

ويرى الشيخ الامام عبد القاهر الجرجاني أن معرفة أسرار الاعجاز ممكنة وأن دراسة البيان هى الوسيلة لهذه المعرفة (وأنه لا بد لكل كلام تستحسنه ، ولفظ تستجيده ، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة ، وأن يكون لنا الى العبارة عن ذاك سبيل ، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل ، وهو باب من العلم اذا انت فتحتة اطلعت منه على فوائد جليلة ، ومعان شريفة ، ورأيت له أثرا فى الدين عظيما ، وفائدة جسيمة ، ووجدته سببا الى حسم كثير من الفساد فيما يعود الى التنزيل ، واصلاح انواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل ، وانه ليوء منك من أن تغالط فى دعواك ، وتدافع عن مغزاك ، ويربأ بك عن ان تستبين هدى ثم لا تهتدى اليه ، وتدل بعرفان ثم لا تستطيع أن تدل عليه ، وأن يسألك السائل عن حجة يلقي بها الخصم فى آية من كتاب الله تعالى او غير ذلك ، فلا ينصرف عنك بمقنع ، وأن يكون غاية ما لصاحبك منك أن تحيله على نفسه ، وتقول : قد نظرت فرأيت فضلا ومزية ، وصادفت لذلك اريحة فانظر لتعرف كما عرفت ، وراجع نفسك واسبر وذنق لتجد مثل الذى وجدت فان عرف فذاك ، والا فبينكما التناكر ، تنسبه الى سوء التأمل ، وينسبك الى فساد فى التخيل " . (٢)

ويأتى السكاكى فيخالف رأى عبد القاهر ، ويرى أن معرفة الاعجاز عن طريق الدراسة أمر غير ممكن (نعم للبلاغة وجوه مثلثة ربما تيسرت اماطة اللثام عنها ، لتجلى عليك ، أما نفس وجه الاعجاز فلا) .

١- المرجع السابق ص ٦٤ .

٢- دلائل الاعجاز ص ٣٣ ، ٣٤ .

ويقول د. العمارة : " لقد طال القول في امكان معرفة الاعجاز وعدم
امكانه ، واطال الشيخ عبد القاهر وفصل القول تفصيلا في رأيه ، وأصر
السكاكي في اكثر من مناسبة على أن هذه القواعد ليست الطريق لمعرفة
اسرار الاعجاز ، ثم رأيت كلاما اعجبني للعلامة ابن خلدون ، وهو كلام
جديد ، لعله كذلك وسط بين الرأيين ، رأيت يفرق بين المعرفة والادراك
ويرى أن معرفة الاعجاز ممكنة عن طريق دراسة البلاغة ، أما ادراكه
فغير ممكن عن طريق هذه الدراسة (واعلم ان ثمره هذا الفن انما
هو في فهم اعجاز القرآن . . . وهذا هو الاعجاز الذي تقصر الافهام عن
ادراكه ، وانما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخاطبة اللسان
العربي ، وحصول ملكته ، فيدرك من اعجازه على قدر ذوقه) (١) .
ويمكن بسهولة أن نفرق بين المعرفة والادراك ، ونضرب لذلك مثلا
بدراسة العروض ، فبعض الناس يعرف سلامة البيت واعتلاله عن طريق هذه
الدراسة ، فهو ينظر الى البيت يعرضه على ما عرفه من البحور وقواعد ها ،
ويتبين ما فيه من زحاف وعلة ، ويحكم بما يجوز من ذلك وما لا يجوز فهذا
عارف . . . وبعض آخر له اذن موسيقية تحس نبو الوتر - كما يقول حافظ
ابراهيم - يحكم على البيت بالصحة أو الاعتلال بمجرد سماعه ، وهذا هو
الادراك . . . وقد يما قال بعض الخلفاء العباسيين لاسحق الموصلي :
صف لي جيد الغناء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ان من الاشياء اشياء
تصيبها المعرفة ، وتعجز عن ادراكها الصفة . وما قاله اسحق في جيد
الغناء هو نفسه الذي يقال في جيد الكلام ، والجيد من الفنون بعامة (٢) .
وهذا هو رأي السكاكي ومن شاع في الاعجاز حيث يرى ان شأن
الاعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه ، وهو بهذا يتفق مع الشطر الثاني من

١- مقدمه ابن خلدون ص ٥٢١ ط الشعب .

٢- قضايا بلاغية - د. العمارة - ص ٢٧ و ٢٨ بتصرف .

رأى ابن خلدون الذى فرق بين المعرفة والادراك . ومن ذلك ما قاله
 رشيد رضا من أن " العلماء قد حاروا فى كشف حجب البيان عن وجوه
 اعجاز القرآن ، بعد ان ثبت عندهم بالوجدان والبرهان ، حتى قال بعضهم
 ان الله تعالى قد صرف عنه قدر القادرين على المعارضة بخلق العجز فى
 أنفسهم وألسنتهم وذلك ان ادراك كنه العجز ، والاحاطة بأسبابه وأسرار
 ضرب من ضروب القدرة ، والمقام مقام عجز مطلق ، فالقرآن فى البيان والهداية
 كالروح فى الجسد ، والاثير فى المادة ، والكهرباء فى الكون متعرف
 هذه الاشياء بمظاهرها وآثارها ، ويعجز العارفون عن بيان كنهها وحقيقتها^(١)
 وفيما قاله رشيد رضا اشارة الى مذهب الصرفة ، وقد دان بهذا المذهب
 بعض علماء الكلام من المسلمين ، كابراهيم بن سيار النظام ، الذى قال
 فى اعجاز القرآن ، " الآية والاعجوبة فى القرآن ما فيه من الاخبار
 عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز ان يقدر عليه الصبا ، لولا
 أن الله منعهم بمنع وعجز احدهما فيهم " (٢) .

وقد عارض كثير من العلماء القول بالصرفة ومنهم الامام عبد القاهر الذى ذهب
 الى ان الاعجاز انما يكمن فى النظم الذى هو توخى معانى النحو وأحكامه
 ورأى ان ألوان البلاغة من استعارة وكناية وتمثيل يعتبر من مقتضيات النظم^(٣) .
 لكن سيد قطب رحمه الله رد الاعجاز الى التصوير الفنى ورأى أنه الاداة
 المفضلة فى اسلوب القرآن (٤) وضرب لذلك أمثله وأدلة (٥) .

ونحن نرى أن ما ذكره سيد قطب من الادلة لا يتعدى كونه لونا من ألوان
 البلاغة وهو بذلك ينضوى تحت رأى عبد القاهر فى الاعجاز بالنظم ، والبلاغة
 والتصوير الفنى من مقتضياتها .

١ - من مقدمه رشيد رضا لكتاب اعجاز القرآن للرافعى ص ١٨

٢ - الملل والنحل للشهرستانى - ج ١ ص ٦٤ .

٣ - دلائل الاعجاز ص ٣٠٠ ، وثلاث رسائل فى الاعجاز ص ٤٨ - ٥١

٤ - التصوير الفنى ص ٤٩

٥ - المرجع السابق ص ٤٠ وما بعدها

ومن رأى سيد قطب — خلافا لمبدى القاهر — أن نظام الفواصل والمقاطع
يتمتع وجهها من وجوه الاعجاز (١) وكذلك ما فى القرآن من إيقاع موسيقى
متعدد الأنواع . ٢ .

وهكذا نجد أن علماء المسلمين اتفقوا على إعجاز القرآن الكريم لكنهم
اختلفوا فى وجوه إعجازه " فمنهم من قال : أن إعجاز القرآن الكريم بما
اشتمل عليه من النظم الغريب ، والترتيب العجيب ، والأسلوب المخالف لما
استنبط بلغاء العرب من الأساليب فى مطالعة ومقاطعته بوالفاظه وفواصله
وهذا هو مذهب بعض المعتزلة ———— .

ومنهم من قال : أنه معجز بما اشتمل عليه من البلاغة التى تقاصرت عنها
سائر ضروب البلاغات . وهذا هو قول الجاحظ من المعتزلة . . وعليه المحققون
من أهل العربية ————

ومنهم من ذهب إلى مجموع الأمرين : أى النظم الغريب ، وكونه فى الدرجة
القصى من البلاغة الخارجة عن طوق البشر . وهذا القول منسوب إلى القاضي
الباقلانى ———— .

ومنهم من قال : أنه معجز باشماله على الأخبار عن الغيب مطابقا
لما هو الواقع ، كما فى قوله تعالى : " وهم من بعد غلبهم سيفلبون " . وهو
رأى الأندلسى .

وقال بعضهم : أن إعجازه فى عدم اختلافه وتناقضه مع ما فيه من الطول
والامتداد ، وتمسكوا بقوله تعالى : " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
اختلافا كثيرا " وكان هذا القائل غافل عن وقوع التحدى بمقدار سورة منه . . .
ومنهم من قال أن إعجاز " بالصرفة " بمعنى أن العرب كان فى مقدورهم
الأتیان بكلام مثل القرآن الكريم قبل البعثة المحمدية ، ولكن الله تعالى صرفهم
عن المعارض — مع بقاء قدرتهم عليها أو بدونها على اختلاف فى الرايين .
وهو رأى النظام وأبى اسحق السفرايينى " (٣) .

" وفكرة الصرفة التى نادى بها بعض المعتزلة لم ينفهم المقصد منها على حقيقته

١ — المرجع السابق ص ٩٠ — ٩٢ .

٢ — المرجع السابق ص ٨٧

٣ — إعجاز القرآن البيانى — د . حفنى محمد شرف ص ٨ و ٩ و ١٠ بتصرف

فالنظام زعيم مدرسة الاعتزال يقول : " ان العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها " ، وقدرة الانسان مقيدة بمدى علمه ومدى ما يخطر بباليه ، والقدرة تابعة للعلم ، والارادة نفسها لا تأتي مرتبتها الا تالية للعلم ، فالانسان عند النظام " يعلم الشيء ثم تريده نفسه ثم تقوم قدرته بتنفيذه " ، فالعجز ليس في القدرة ولكنه في جهد وطاقة واستطاعة هذه القدرة ، والتي منحها الله الانسان بطاقة معينة واستطاعة محدودة وجهد مرسوم ، وهذه القدرة قد بذلت طاقتها فاستطاعت كل الاغراض ، أما بالنسبة للقرآن فانها حاولت وجربت ففجرت فانصرفت ، ومن ثم سمي مبدأ الصرفة أى الانصراف وليس الصرف " (١) وفي هذا الكلام نظــــر .

هذه خلاصة عجلة لآراء القدماء في الاعجاز اذ لنا بها أن نوطى القول للبحث فيما جد من جديد وما استحدث من دراسات حول اعجاز القرآن الكريم مهد البلاغة ومنبعها بل ان البلاغة لم تتكون أصلاً علماً له أصوله وقواعده الا من أجل معرفة الاعجــــاز . وهذا أمر معروف وقد أشرنا اليه اكثـر من مرة خلال هذا البحث .

أما ماذا جد من دراسات حديثة حول الاعجاز ؟ فهذا ما يهمننا بيانـه وما نحاول عرضه في هذا الباب من بحثنا .

ولقد شهد العصر الحديث عدة دراسات جديدة حول الاعجاز هي :—

(١) الاعجــــاز النفسى

(٢) الاعجــــاز العلمى

(٣) الاعجــــاز العددى

(٤) الاعجــــاز الروحى

وحول كل واحد من هذه الأوجه الجديدة للاعجاز نقدم الفصول التالية :—

الفصل الاول

الاعجاز النفسى

وصاحب هذا رأى هو الأستاذ أمين الخولى ، وقد بدأ بحثه باستعراض سريع لأراء العلماء السابقين فى الاعجاز ورأى أن هذه الآراء "كسات تستوفى نواحي القسمة العقلية وتدبر كل ترديد واحتمال ، نقائل : لا اعجاز فى اللفظ ولا فى المعنى ، ولكنها الصرفة ، وقائل بالاعجاز فيهما معـ الصرفة .

وقائل باعجازهما للبشر ولا سبيل الى تعليل هذا الاعجاز أو بيانه .
وقائل بالاعجاز مع امكان التعليل ، ومن هنا تتشعب الطرق ، وتتفرق السبل فى ذلك التعليل ، فيقال تارة هو النظم البديع والاسلوب المخالف لجميع أساليب العرب .

أو هى الجزالة التى لا تتأتى من مخلوق بحـال .
أو هو التصرف فى لسان العرب على وجه لا يستقل به عربى حتى يقع منهم جميعهم الاتفاق على اصابته فى وضع كل كلمة وحرف موضعه .
أو هو الاخبار عن الامور التى تقدمت فى أول الدنيا الى وقت نزوله ، من أمسى ما كان يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه .

أو هو الوفاء بالوعد المدرك بالحس فى كل ما وعد الله سبحانه وتعالى .
أو هو الاخبار عن المغيبات فى المستقبل مما لا يطلع عليه الا بالوحى .
أو هو ما تضمنه القرآن من العلم الذى هو قوام جميع الانام فى الحلال والحرام وفى سائر الأحكام .

أو هو الحكم البالغة التى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وشرفها من آدمى .

أو هو التناسب فى جميع ما تضمنه ظاهرا أو باطنا من غير اختلاف (١) .
ثم يقول بعد هذا الحصر المجمل لأوجه الاعجاز : " كل واحد من هذه الواجه مردود من لا يقول به بالكل مناقشون . وجمهرة هذه الآراء ، بل هذه الآراء

رأيا رأيا ، وقولا قولا ، ليست ذات صلة كافية بالفن الادبى من تلك
الوجهة التى قد منا القول فى ضرورة ابتناء الفن كله عليها
— والفن القولى بخاصة — وهى الوجهة النفسية الانسانية (١) .
والواقع أن الاشارة الى اعجاز القرآن النفسى ، وماله من بالغ الاثر
فى النفوس والقلوب لم يفت بعض العلماء القدامى .
فهذا ابن قتيبة فى كتابه (تأويل مشكل القرآن) يشير الى أثر القرآن النفسى
وكيف أنه " يشير الوجدان عن طريق الشعور ، ويهز القلوب لأن أسلوبه
يخاطب النفس الانسانية خطاب العارف بخفاياها ، فيبلغ فى التعبير
مبلغ الروعة ان يكلم الفرائز وينادى الطبائع " (٢) .
والخطابى لم يقف باعجاز القرآن عند بيان الفاظه وصحة معانيه وروعة
نظمه ، بل تخطى ذلك الى أثر البيان القرآنى فى النفوس وفى القلوب . فقال :
" قلت فى اعجاز القرآن وجهها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه الا الشان
من آحادهم ، وذلك : صنيعة بالقلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فانك لا تسمع
غير القرآن منظوما ولا منثورا قرع السمع الا خلص له الى القلب من اللذة والحلاوة
فى حالة ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ما يخلص منه اليه ، تستبشر به النفوس
وتنشرح له الصدور ، حتى اذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من
الوجيب والقلق ، وتغشاها من الخوق والفرق ، ما تقشعر منه الجلود ، وتنزعج
له القلوب ، يحول بين النفس وبين مغمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكهم
من عدو للرسول — صلى الله عليه وسلم — من رجال العرب وفتاكها اقبلوا
يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعوا
فى سمعهم أن يتحولوا عن رأيهم الاول ، وأن يركنوا الى مسالمة ، ويدخلوا
فى دينه ، وصارت عدوتهم موالاة ، وكفرهم ايمانا " (٣)
ومثل ذلك قال ابو هلال العسكري فأشار الى ما عظم القرآن من الحلاوة
وجلاله من الطلاوة (٤) . وكذلك الامام الزركشى (٥) . وغيرهم

١ - مناهج تجديد : ص ١٩٩ و ٢٠٠

٢ - ص ٦٦ من كتاب " تأويل مشكل القرآن " .

٣ - ص ٢٣ من ثلاث رسائل فى الاعجاز

٤ - مقدمة الصناعيين .

٥ - البرهان فى علوم القرآن ص ٥ .

اعتراض ووههم وتوضيح :

لكن الأستاذ الخولى لا يرى فيما سبق لنا ذكره من حديث السابقين عن حلاوة القرآن وطلاوته وأثره فى النفس شيئاً من الاعجاز النفسى الذى يقصده ويقول : انه يجب أن " لا يسبق الى الوهم ذلك القول القديم ، المعـمـاد حديثاً كذلك ، عن أثر القرآن على النفس الانسانية ، ووقعه عليها ، بوفعله فيها وما تجده من حلاوته ، وتستشعره من طلاوته . أو تلك الموسيقى الصوتية فى جرس حروفه ، وتأليف كلمه ، وائتلاف جملة . أو هاتيك العذوبة يتذوقها قارئه ، أو الاقبال النفسى على تلاوته ، وعدم اللالة من تكراره تلك نواح لا أعنيها فيما أريد الآن من القول فى صلة الاعجاز بعلم النفس ، فلن أقصد الى هذا المعنى وان كنت لا أكرهه ، ولا أعتمد عليه فى مشكلة الاعجاز ، كما لا أهدمه ثم هذا الملحظ لا يرتد فى جملة الا الى الألفاظ والعبارات ، وليس على مثل هذا وحده يقوم اعجاز كتاب وصف نفسه بأنه هدى ورحمة وبيان وتبصرة ، أولاً أقل من ألا يكتفى بهذا المعنى نفسى اعجاز مثل هذا الكتاب " (١) .

كذلك يرى الأستاذ أن " ثمة معنى بعيداً قد سبقت اليه أوهام قـوم فى هذا العصر ، فأثرت أن انفى القصد اليه هنا أو التعويل على شىء منه بذلك هو استخراج علم النفس ونظرياته من القرآن ، تدعيماً للزعم بأنه يتضمن كل شىء ... فنحن ندع علماء النفس فى تجاربهم العملية بمشاهداتهم الواقعية ، أو تأملاتهم النظرية ، ان صح لهم فى ذلك شىء ، ليكشفوا عن خصائص النفس الانسانية ، لا نقلقهم فى شىء من ذلك ، ولا نرى سبق القرآن اليه ، أو تقدمه على الأجيال بأصله ، وما الى ذلك ، بل نلتقاه منهم لنعتمد عليه فى بيان الوجه النفسى للاعجاز ، مؤيدين هذا البيان بفضل ما عرف محدثوا الباحثين عن الظواهر النفسانية " (٢) .

اجمال فكرة الاعجاز النفسى :

ان هذا القرآن من حيث هو فن ادبى معجز ، ثم من حيث هو هدى وبيان

١- مناهج تجديد : ص ٢٠١ و ٢٠٢ بتصرف .

٢- مناهج تجديد : ص ٢٠٢ بتصرف .

دينى ، لن يدار الأمر فيه الا على سياسة النفوس البشرية ورياضتها ، لان الفن هو : نجوى الوجدان ، والدين هو : حديث الاعتقاد وخطاب القلوب ، فصلته بالنفس ، ومناجاته للروح ، أوضح من أن يستدل لها ، أو تخص بالشــــــــــــــــرح

فالنظر الصائب اليه ، والقهم الصحيح له ، أو بعبارة أكثر صراحة تفسيره ، لا يقوم الا على ادراك ما استخدمه من ظواهر نفسية ، ونواميس روحية ، أدار عليها بيانه مستدلا وهاديا ومقنعا ومجادلا ومثـــــــــــــــــبرا ومهددا ، فأصبح ما يبنى عليه هذا التفسير هو القواعد النفســــــــــــــــية وأصعدقـــــــــــــــــا اهتدى اليه العلم قديما وحديثا عن تلك الشئون . فليس يضح أن تعلل عبارة من عبارته ، أو يحتج للفظ فى آية من آياته ، أو يستشهد لأسلوب من أساليبه ، الا بموقعه كله من النفس ، وبما كشف العلم عــــــــــــــــن هذا الموقع ، وما سبر من اغواره . فبالأمر النفسية لاغير ، يعلــــــــــــــــل ايجازه واطنابه ، وتوكيده وإشارته ، واجماله وتفصيله ، وتكراره واطالته ، وتقسيمه وتفصيله وترتيبه ومناسباته . وما قام من تعليل هذه الأشــــــــــــــــياء وغيرها على ذلك الاصل فهو الدقيق المضبوط ، وما جاوز ذلك فهــــــــــــــــو الادعاء والتحمل ، أو هو أشــــــــــــــــبه به شــــــــــــــــىء به

تلك جملة من الاعجاز النفسى ، قد يكشفها مترادف الأمثلة ، ويجليها متتابع الشواهد ، وينتهى الى تأييدها تفسير جديد للقرآن على هذا النمط . (١)

بعض بيــــــــــــــــان الاعجاز النفســــــــــــــــى :

يضرب الأستاذ الخولى مثلا للاعجاز النفسى بالتكرار ، ويرى أن " هذا التكرار فى القرآن قال فيه القدماء منذ عهد بعيد ، ولا يزال يقول فيه المحدثون حتى أمس القريب ، ولعل القائلين جميعا جاءوا هذه المسألة من غير طريقها النفسى ، الذى هو سبيل الاعجاز الفنى فى القرآن ، فكان كلام كل رجل منهم محتاجا لكلام من بعده ، وظل كلام الأئــــــــــــــــس يــــــــــــــــادى

مقال اليوم ليسنده .

فالحافظ منذ القرن الثالث تكلم في هذا وأيمان (١) ، وكان مما أورده
حكاية ابن السماك ، ان جعل يوما يتكلم ، وجارية له حيث تسمع كلامه ، فلما
انصرف اليها قال لها : كيف سمعت كلامي ؟ قالت : ما أحسنه لــــولا
أنك تكثر ترداده ، فقال : أردده حتى يفهم من لم يفهم ، قالت : الى
أن يفهم من لم يفهم قد ملّته من فهمه . كما نقل في هذا الموضع
أنه مكتوب في التوراة : لا يعاد الحديث مرتين ، وقول الزهري : اعادة
الحديث أشد من نقل الصخر ، ثم عرض بعد هذا كله لالتماس وجهه
الاعادة في القرآن فقال : " وجملة القول في الترداد أنه ليس فيــــه
حد ينتهي اليه ، ولا يوءى الى وصفه ، انما ذلك على قدر المستمعين من
له ، ومن يحضره من العوام والخواص ، وقد رأينا الله عز وجل رد ذكر
قصة موسى ، وهوده وهارون ، وشعيب ، وابراهيم ، ولوط ، وعاد
وشمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار ، وأمور كثيرة ، لأنه خاطب جميع
الامم من العرب ، وأصناف العجم ، وأكثرهم غبي غافل ، أو معاند
مشغول الفكر ، ساهى القلب ، وأما حديث القصص والرقعة فاني لــــم
أر أحدا يعيب ذلك . "

ولعل قيمة هذا البيان واضحة ، ومدى اقناعه محدود ، بعد طول
ما ساقه قبله في ثقل التكرار وملاؤه . . . " (٢) .

ومن الجاهل ينتقل الأستاذ الخولي الى القاضي الباقلاني
ويذكر أنه عرض للمسألة في كتابه (اعجاز القرآن) مرتين ، قال فــــي
أولها : (ومن البديع عندهم التكرار ، كقول الشاعر :
هــــلا سألت جموع كندة يوم ولــــوا أين أيننا
وكقول الآخر :

وكانت فزارة تصلى بنا فأولى فزارة أول لهم
ونظيره في القرآن كثير ، كقوله : " ان مع العسر يسرا " ، وكالتكرار في قوله :

١- البيان والتبيين ج ١ ص ٨٥ ط السندويش

٢- مناهج تجديد ص ٥٠ .

" قل يا أيها الكافرون " ، وهذا فيه معنى زائد على التكرار ، لأنه يفيد
الاخبار عن الغيب (١) وليس هذا التكرار في كلمة أو جملة مما يحتاج
الى القول الكثير .

وفى الثانية : عرض القاضى لموضوع التكرار الذى نحن بصدده ، فى
ثنائيا كلامه عن بديع تأليف القرآن وحسن نظمه ، وأنه يتبين لمن كان
من أهل الصنعة اذا عمد الى قصة من هذه القصص ، وحديث من هذه
الأحاديث ، فعبر عنه بعبارة من جهته ، وأخبر عنه بألفاظ من عنده
فانه يرى فيما جاء به النقص الظاهر ، ويتبين فى نظم القرآن الدليل
الباهر . . . وعرج من هذا على التكرار فقال : (ولذلك أعاد قصة موسى
فى سور على طرق شتى ، وفواصل مختلفة مع اتفاق المعنى ، فلعلك ترجع
الى عقلك وتستتر ما عندك ، ان غلطت فى أمرك ، أو ذهبت فى مذاهـب
وهمك ، أو سلطت على نفسك وجه ظنك) (٢) .

وأنت واحد أن هذا القول لم ينل من المسألة الصميم ، ولم يخـض
الغمـار ، وهل يريد أن يعلل التكرار بأنه مظهر لحسن النظم
ودقته ، أو لم يريد أن يدفع شبهة التكرار وما يثار حوله ؟! وإن كان يتحدث
فى ختام عبارته عن الغلط والوهم والظن !! (٣)

ثم هذا السكاكى شيخ البلاغيين يتناول المسألة فى كتابه (المفتاح)
ويسوقها من بين المطاعن على القرآن ليردها فيقول : " ومنها أنهم —
يقولون لا شبهة فى أن التكرار شىء معيب خال عن الفائدة ، وفى القرآن
من التكرار ما شئت ، ويعدون قصة فرعون ونظائرها ، ونحو : فبأى آلاء
ربكما تكذبان ، وغير ذلك مما ينخرط فى هذا السلك ، فيقال لهم :
أما إعادة المعنى بصيغ مختلفة فما أجهلكم فى عدها تكرارا وعدها

من عيوب الكلام .

إذا محاسنى اللاتى أدل بها كانت ذنوبى فقل لى كيف اعتذر

١- من ٥١ اعجاز القرآن للباقلانى

٢- ص ٨٨ المرجع السابق

٣- مناهج تجديد ٢٠٧

أليس لو لم يكن في إعادة القصة فائدة سوى تثبيت الخصم بلو قال عنده
التحدى لعجزه : قد سبق الى صوغها الممكن فلا مجال للكلام فيها ثانيا
لكفت . وأما نحو : نبأى ألا * ريكما تكديان ، وهل يومئذ للمكذبين
فمذهبوبه مذهب رديف يعاد في القصيدة مع كل بيت ، أو مذهب
ترجيع القصيدة يعاد بعينه مع عدة أبيات ، أو ترجيع الأذكار ، وعائب
الرديف أو الترجيع اما دغيل في صناعة تغني الكلام ، ما وقف بعينه
على الطائف أفانينه ، واما متعنت ذو مكابرة " (١) .

هذا رأى السكاكي في التكرار . ولكن " ان يهن الأمرنى الرديف
والترجيع فما أحسب احتجاجة لتكرار القصة بما قال يبين وجه ايثار القصة
بهذا التكرار ، أو ايثار الجنة والنار ، وهلا كان يجىء ذلك في القرآن كله ؟
وربما كان أقطع للمعذرة في هذا أن يجاء بقرآن ، أو قرآنات حسما لتعلل
من يتحدى " (٢) .

ثم يجىء بعد ذلك الامام يحيى بن حمزة العلوى فيتناول المسألة في
كتابه (الطراز) ويقول ما خلاصته : أن التكرير على جهة الشرح لفوائد
رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسلية له ، فليس تكرارا في الحقيقة .
وثانيا : انما كرر القصص لفوائد ، وما هذا حاله فليس تكرارا في الحقيقة .
وثالثا : لأن الله تعالى لما تحدى العرب بالاثيان بمثل القرآن ، ربما
توهم متوهم أن الاثيان بمثله مستحيل من جهة الله تعالى ، فلا جرم كسر
القصص ليعلم أنه غير مستحيل من جهته ، وانما الاستحالة كانت متعلقة
بالخلق ودونه .

ومن وجه آخر هو أن التكرير انما ورد لتأكيد الزجر والوعيد ، كقوله
تعالى ، " كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون " . ثم
ان التأكيد مستحسن في لغة العرب ، فلهذا وردت هذه التكريرات على جهة
التأكيد ، ولو كان ما أتى به مخالفا لأشاليب العرب في كلامهم لكان ذلك
من أعظم المطاعن لهم ، فلما سكتوا عن ذلك دل على بطلان ما زعموه من

من الطعن بالتكرير (١) .

ويعلق الخولى على ذلك بقوله : ان العلوى تحدث " عن تكرار القصص فقط ، وفى القرآن مكررات أخرى ، كالذى ورد فى قول الجاهظ من الجنة والنار ، بل كالذى يذكره هو نفسه — أى العلوى — من تأكيد الزجر والوعيد . ثم دفع توهم أن الله لا يستطيع الاتيان بمثل نفسه مطلب ليس قريبا ، والتوهم غريب ، وان يكن فليس يكون فى القصص فقط ، فقد يستطيع الاتيان بمثل القصص ، ولا يستطيع الاتيان بمثل الأحكام مثلا . ثم ليس سكوت العرب عن الطعن مانعا من أن يذكره من تأخر عنهم ، ولا فيه دليل على بطلان ما زعم المعترض به ، ما دامت اللغة وأدبها من نصيب من يستعملها ويعايز فيها (٢) .

وفى العصر الحديث جاء الأستاذ الرافعى ليكشف عن سر التكرار فى القرآن فقال : " فانه فى الحقيقة سر من أسرار الأدب العبرانى ، جرى القرآن عليه فى أكثر خطابهم خاصة ، ليعلموا أنه وضع غير انسانى ، وليحسوا معنى من معانى اعجازه فيما هم بسبيله ، كما أحس العرب فيما هو من أمرهم ان كان أبلغ البلاغة فى الشعر العبرانى القديم أن تجتمع له رشاقة العبارة وحسن المعروض ووضوح اللفظ ، وفصاحة التركيب ، وابانة المعنى ، وتكرار الكلام لكل ما يفيد التكرار ، توكيدا ومبالغة وابانة وتحقيقا ونحوها ، ثم استعمال الترادف فى اللفظ والمعنى ، ومقابلة الاضداد وغيرها ، مما هو فى نفسه تكرر آخر للمحسنات اللفظية ، وتحسين للتكرار المعنوى " (٣) .

ويقول الأستاذ الخولى : ان هذا البيان لا يكتفى فى توجيه هذا الحديث العام عن شئون فى الأدب العبرانى ، ولا يكون القول فيها بمثل هذا التعجل والالمام القاصر ، ولا ذاك التعميم ومجمل الكلام . ثم كيف كان هذا التكرار سرا لم يدركه الا اليهود الذين عنوا به ، وانه ان ذاك لما تجد العرب غرابته ويصح الطعن به ما دام قد خرج مخالفا لمألوفهم نابيا عن طريقه فى

١- انظر رأى العلوى ملخصا فى مناهج تجديد ص ٢٠٨ ، ومفصلا فى الطراز

ج ٣ ص ٤٤٤

٢ مناهج تجديد ص ٢٠٨ و ٢٠٩

٣- اعجاز القرآن للرافعى ص ٢٥٦ و ٢٥٧

مخاطبتهم •• والجا حظ نفسه حين يحلل بهذا تكرار ما خوابت بسسه
يهود ، يذكر أن في القرآن تكرارا لشئون أخرى من الثواب والعقاب
وليست هذه مما يخص به بنو اسرائيل ، أو يفردون بادراك سره (١) •
" تلك آراء في التكرار أشعر أنها لا تزال تفسح مكانا لمحاولة تحليل
يقوم على اعتبار نفسى انساني عالم ، تؤيده شواهد من أحوال النفس
البشرية واتجاهاتها ، ولعله يصح أن يكون من وجه ذلك ما يسوقه
النفسيون من : أن التكرار من أقوى طرق الاقناع ، وخير وسائل تركيز الرأي
والعقيدة في النفس البشرية ، على هيئة وفي هوادة ، دون استثارة لمخالفها
بالجدل أو المشادة في نظم البرهان والتعرض البادى للاستدلال ، الذي
آخر ما يسوق علماء النفس على ذلك من شواهد ومثل عملية تفنى عن
اختراع الوجوه في تحليل التكرار القرآنى ، وجعله مثار الجدل والاختلاف •
وأخيرا فان هذا — الاعجاز النفسى — وجه من وجوه الاعجاز
لم ينفج بعد ، فهو ما يزال فكرة في بدايتها ، تحتاج الى كثير من
الدراسة والبحث ، فحلها بعد ذلك تبيح الوجه المفضل من وجوه
الاعجاز

الفصل الثاني

الاعجاز العلمي :

ظهرت في العصر الحديث نزعة علمية حاولت أن تحلل الاعجاز القرآني بأسباب علمية ، هدفها اثبات مساهمة القرآن لكل ما يجد من مكتشفات ومخترعات .

ويقول د . حفي شرف : لعل السرفى هذا الاتجاه بفكرة **اعجاز** القرآن ، وتفسيره التفسير العلمي راجع الى رد الفعل الحنيف الذى أحدثه الاتصال بأوروبا وامتزاج الثقافة العربية والإسلامية بالثقافة الأوروبية ، وكذا ما بهر العلماء من علوم ومخترعات حديثة ، فحاول هؤلاء المفكرون أن يرجعوا الى تراثهم العربى الإسلامى مستنبطين من أصول هذه العلوم ، وخشوا اذا هم لم يفعلوا أن يظهر القرآن غير مسير للزمن فى أعين أنصاره ومتبعيه ، وأن تتزعزع الحقيقة فى قلوب أناس بهرهم زيج المدنية الحديثة ولأولها (١) .

وقد عارض بعض العلماء هذا الاتجاه فى تفسير آيات القرآن الكريم ورأوا أن نصوص القرآن يجب أن تكون بعيدة عن هذا التفسير العلمى ، لأن النظريات العلمية لا تكاد تأخذ صفة الثبوت والاستقرار ، فقد تثبتت القضية الكونية لدى جيل من الأجيال حتى تصبح أمراً ثابتاً لا يجوز عليه الاختلاف ، ثم يأتى جيل آخر وينقض ما أثبتته الجيل الأول ، وبذلك تتعرض النصوص القرآنية للتأويلات المختلفة ، وبذلك تصبح الآية الواحدة دليلاً للثبات فى زمن ، والنفى فى زمن آخر ، وهذا عبث يجب أن ننزه كتاب الله تعالى عنه (٢) .

هذا وقد أصدر كتاب الهلال عدداً خاصاً عن القرآن حافظاً بأقلام عديد من العلماء الذين تناولوا هذه الناحية من الاعجاز العلمى . ففى ديسمبر سنة ١٩٧٠ م وكذلك فى أعداد مختلفة من الرسالة ومجلة الزهر . وقد ذهب كل من الفريقين يؤيد رأيه ويرجح وجهة نظره :

فالذين يرون أن يفسر القرآن تفسيراً علمياً تؤيده النظريات المستحدثة

١- اعجاز القرآن البيانى : ص ٢٠٢

٢- الرسالة : العدد ٧٠٥

يحتجون بأن القرآن ليس للحرب فقد سئى يكون أعجازه بلاغيا يلهمهم
الفصحاء وحدهم ، ويدركه من فهموا أسرار البيان الحربى من ذكر وحذف
ووصل وفصل ، ولكنه أعجاز بشرى يشمل الناس كافة من أسيويين وأوربيين
وأفريقيين ، وهو لا الحسم من غير الحرب يستطيعون أن يفهموا
نواحيه العلمية والنفسية والاجتماعية ، فلو اقتصر الإعجاز القرآنى على الوجه
التشريعى أو البلاغى لقات هؤلاء جميعا أن يروا أقباسا وضيئة من
نور الله ، كما أن القرآن الكريم ليس خاصا بجيل واحد من الأجيال ، فنحصر
تفسيره فيما يروى عن الصحابة والسلف من الأقوال ، ومن حق كل جيل
أن يفهم منه ما يمتد إليه بحثه العلمى والنفسى والاجتماعى من استنباط
وقياس . فاذا حاول أبناء القرن العشرين أن يجدوا فى بعض آياته تعظيذا
لما سطعت به الفتوح العلمية من حقائق فانهم بذلك يزدادون ايمانا
مع ايمانهم . وهذا كسب كبير للنصوص الدينية فى عهد يفيض بالشكوك ويمتلئ
باللحاد . على أن هؤلاء الملاحدة المتشككين لا يجدون حجة يستطيعون
بها على المؤمنين اذا وجدوا الحقائق العلمية تؤيد ما يتشككون فيه من
هدى كريم ، فتخرس ألسنتهم أمام الحجج الساطعة ، ويجسد كتاب
الله من النظريات الثابتة أسسا تدعمه ، وأركاناً وطيدة تقويه وتحليه .
هذا هو أهم ما يحتج به أنصار التفسير العلمى للقرآن ، وأوردنا الاستاذ
محمد احمد الخمرأوى أكثر من مرة فى أعداد مختلفة من الرسالة (١) .
وقد وضع الاستاذ الخمرأوى حدودا وقيودا لهذا التفسير العلمى فقال :

يجب أن ننبه الى أمرين مهمين (٢) :

الأول : أنه لا ينبغى فى فهم القرآن أن نعدل عن الحقيقة الى المجاز
الا اذا قامت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازه ، لأن
مخالفة هذه القاعدة قد أدى الى كثير من الخلط فى التفسير .

أما الامر الثانى : فهو أنه ينبغى ألا نفسر كونهات القرآن الا باليقين
الثابت من العلم ، لا بالنظريات ولا بالفروض ، لأن الحقائق هى سبيل التفسير

١- الرسالة : الأعداد ٦٤٦ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦

٢- الرسالة : العدد ٧٠٥ .

الحق هي كلمات الله الكونية ينبغي أن يفسر بها نتائجها من كلمات الله
القرآنية ، أما الحدسيات والثانيات فهي عرضة للتصحيح والتعديل ان لم
يكن للإبدال في أى وقت .

وقد جاء الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى - رحمه الله - بقيد
ثالث حين قال : " يجب ألا نجر الآية الى العلوم كي نفسرها بولا العلوم
الى الآية كذلك ، ولكن ان اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها
بها " (١) .

ويمكن للقارئ أن يأخذ هذا القيد مستشفا من خلال القيديين
السابقين الا أننى آثرت أن أسجله صريحا واضحا ليكمل التوجيه المحتوم
لمن يتعرض الى كتاب الله بتفسير علمى رشيد (٢) .
أمثلة توضيحية للاعجاز العلمى :

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام : " ان الله فالق الحب والنوى يخرج
الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون " .
هذه الآية الكريمة اذا تعرض لتفسيرها رجل الدين فانه لا يرى
فى معناها أكثر من المعنى الظاهرى الذى يتمثل فى أن الله سبحانه
وتعالى هو الذى يهيمن بقدرته على مصير الحبة الباقية والنواة الساكنة
فيمسك كليهما الحياة وتنشق كل منهما عن جنين أو بادرة صغيرة فينبأ
حياة بعد سكون ، فنراها وقد ارتفع ساقها الى الشمس والهواء واتجه
جذرها الى الأرض باسحا عن عناصر الغذاء . هذا هو المعنى الظاهرى .
ومع أنه صالح لأن يثير مكانا للفكر عند الرجل العادى ، ويوضح له عظمة
الله فيما خلق ، ويريه كيف أن الحبة الصغيرة أو النواة الضئيلة تنفلق
وتنشق عن شجرة ضخمة أو نخلة عذيمة أكبر بملايين أو بلايين المرات من هذه
البذرة التى قد يعمل منها العشرات على أحد كفيه . مع ذلك فان رجل
العلم يرى فيها قولا عميقا راسخا رسوخ الجبال الراسيات .
لقد عرفنا مثلا عن طريق العلم أن للحبة أو نواة البقلة نوى من داخل
نوى وأنه جميعا ينفلق وفى قلقه تكمن فكرة الموت والحياة .
ولكن ما المقصود بالنواة ؟ انها لب الشئ أو وسطه أو مركزه .

١- مجلة الأزهر - المجلد السادس - ص ٦٣٥ .

٢- راجع البيان القرآنى : د . رجب البيومى : ص ٢٨٢ - ٢٨٥ .

فلنكل شيء في الكون مركزاً أو نواة ، ولا يقتصر هذا على دارتنا القاصية
في نواة البلعة أو ما يشبهها كما يذهب البعض في التكبير والتفسير ، ولكننا
نرى فيها صوراً رائعة نستطيع أن نسهل من مواردها الكثير .. ثم اذا بنا
في النهاية نرى وحدانية الخالق تتجلى لنا في وحدة خلقه من أصغر
الأشياء الى أكبرها .

فللذرة نواة تتوسطها وتسيطر على شخصيتها ، لأنها هي الأساس
وقد تنفلق النواة أو تتشطر ثم تلتحم .. وهي الأساس الذي تقوم عليه
حياة شمسنا من قديم الأزل ، كما أن الانواء أو الأنوار التي تنتشر
في كل أرجاء الكون من بلايين البلايين من النجوم أو الشمس ولبلابيين
السنين انما تقوم أساساً على هذه العملية .. فحياة الشمس كجرم سماوي
منير تعتمد على عملية انشلاق والتحام في نوى ذراتها ، وهو ما نعبر عنه
بالطاقة الشمسية أو النجمية ، ولو توقفت لتوقفت حياتها وحياتنا تبعاً لذلك .
اذن فهناك موت وحياة على المستوى الذري ، وكذلك على المستوى
الشمسي أو النجمي ..

وللخلية الحية في كل المخلوقات نواة تتوسطها ، وتهيمن على كل أسرار
الحياة فيها .. وهي بدورها تنفلق أو تنقسم ، ولولا هذه العملية لمسا
تكاثر المخلوقات على هذا الكوكب .

ولقد بدأت حياتنا بخلية ملقحة جاء نصفها من الأب ونصفها من الام ،
فأصبحت واحداً ، والواحد ينقسم الى اثنين فأربعة فثمانية فستة عشر ف
ف .. فمليون فمئات وآلاف الملايين .. فلق من وراء فلق لتتكاثر
الخلايا وتنمو وتتميز الى أنسجة وأعضاء .

اذن فلا بد أن تنفلق النواة .. ولكن من وراء هذا الفلق فلق آخر
في مكونات النواة ذاتها ، في أشياء تبدو لنا من خلال عدسات (الميكروسكوب)
كخلق أو دود صغير ، في كل خلية من الخلايا الجسدية ٤٦ من هذا الخلق
الدقيق ، وهذا الخلق هو عبارة عن مكونات يطلق عليها اسم (الكروموسومات)
أو المورثات وكأنما كل كروموسوم منها بمثابة نواة أصغر في داخل نواة أكبر
لان الكروموسوم ينفلق أيضاً عند كل عملية انقسام الى نصفين ، ثم يكتمل كل

نصف نفسه ليصبح واحدا •

ومن هذه العملية ينتج لنا ٦٢ كروموسوما يهاجر نصفها الى أحد قطبي الخلية والنصف الآخر الى القطب الثاني • • وعند كل قطب تتكون نواة جديدة بها ٣٦ كروموسوما ثم تبنى الخلية الأم بينهما حاجزا أو جدارا • • وبهذا تصبح الخلية الأم خليتين جديدتين تنمو كل منهما وتكبر لتصبح — أما — ثم تنقسم من جديد وهكذا تسير الأمور •

اذن نحن الخلية فلق أو انقسام بعد فلق النواة • • وفي النواة فلق وانقسام بعد فلق الكروموسومات • • ولكن السر لم ينته عند هذا الحد لأننا عندما ننظر الى الكروموسوم من خلال عدسات الميكروسكوب الضوئية فاننا لا نرى الا الظاهر أما الباطن فلا يزال عن عيوننا وعيون ميكروسكوبنا غامضا أشد الغموض • • والى هنا تظهر أجهزة الحلم الحديث وأدواته المتطورة الدقيقة ، ومنها الميكروسكوب الإلكتروني الذي يكبر مكونات النواة بدرجات فائقة ، فيرينا تفاصيل أدق وأسرار أعظم وكأنما في داخل الكروموسوم نوى جديد تجري عليه عملية الانفلاق كما هو الحال في فلق خلية ونواة وكروموسومات •

ان أقرب تشبيه يمكن أن نقدمه لتوضيح الصورة هي أن نتصور (سوستة) الملابس التي نفتحها فتتفرج الى نصفين ثم نخلقها فتصبح على هيئة شريط مقل • كذلك وجد العلماء أن في الكروموسوم أشياء أشبه بأشرطة مجدولة وعندما يريد الشريط أن يضاعف نفسه ، أو أن يخلق نسخة من ذاته فإنه ينفلق الى نصفين ، وعلى كل نصف أن يكمل نفسه ليصبح واحدا •

بقي أن نحرف أن شريطنا هذا ليس الا جزئيات عملاقة من الأحماض النووية - نسبة الى نواة — أو أنه شفرتنا الوراثية ، أو هو بمثابة كتابنا المكتسوب داخل نواة الخلية لكي تتحول معلومات من الهداية الى أوامر كيميائية تبنى لنا البروتينات وهذه بدورها تسيطر على كل العمليات الحيوية التي تجري في ملايين الملايين من خلايا الجسم •

والموضوع بعد ذلك طويل جدا وعلينا أن نعود الى هذا الجزء من الآية •

فالق الحب والنوى :

رأينا من اللغزات الخفيفة التي قدمناها أن الفلق ليس مقصودا
على تلك الصورة الظاهرية التي تعرض لها المفسرون من قبل ولكنه يتحداهما
الى خلية في نواة بلعة أو أى مخلوق نشاء ، ثم الى نواة في قلب خليصة
ثم الى كروموسوم في نواة خلية ، ثم الى جزئيات وراثية في كروموسوم نواة ••
وكلها تسير بكفاءة واحدة وهدف واحد وجميعها يسرى بنظم رائحة وقوانين
متقنة فاذا بنا نقف خاشعين متعبدين أمام هذه القدرة وهذا الجلال •
واذا بالحواس كلها تناد تصرخ من الأعماق : هنا فى الأرض نرى
عظمة الله هناك فى السموات نرى جلاله •• وكلما تعمقنا وجدنا سر
اعجازه فى نواة ذرة •• فى نواة جزى •• فى نواة خلية •• فى كل ما
يعيط من مخلوقات حية وساكنة •• صنع الله الذى أتقن كل شىء ••
ولكن ما يدرينا أن هذا القوى هو ما يعنيه القرآن ويقصده ؟
لسنا فى الواقع ندري ، ولا نستطيع أن نؤكد تمشيا بذلك مع روى العلم ••
ولكن يكفى أن نقول : ان كثيرا من الآيات القرآنية قد جاءت مكثيفة
بالإشارة والتلميح دون الاسهاب والتوضيح •• ذلك أن القرآن كتاب
دين وعقيدة فى المقام الأول ، وليس من المحقول أن يتعرض لكل هذه
الأسرار خاصة وأنه قد نزل على أعراب ليس لهم معرفة أو درايسة
بنوى ذرات وجزئيات وخلايا وكروموسومات ، ولكن الحبة ونواة البلعة تناسب
تفكيرهم •• وهى فى نفس الوقت تناسب تفكير القرن العشرين أو ما بعد
العشرين ، فلقد تركت الآية دون تحديد ومع ذلك فالت تستطيع أن تحدد
معناها بقدر ما حقت فى نظام الخلق ، وهى أيضا مازالت تناسب رجس
الشاعر والمزارع والأعراب ورجل الدين والعلم فسر اعجاز القرآن أنه صالح
لكل مستويات التفكير عند الانسان • (١)

" واذا كانت بعض الآيات الكونية لاتزال فى دور التطبيق الصريح
فان أكثر الآيات الطبية قد وجدت من العلم نصيرا مجندا ، فأصبح من
الاعجاز العلمى للقرآن أن نقرا قوله تعالى : والمطلقات يتربصن بأنفسهن
ثلاثة قروء ، وقوله : والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن

أراد أن يتم الرضاة ، وقوله : فليظار الانسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب • ونحو ذلك مما انبسط فيه مجال القول للمتخصصين فكان احدى معجزات القرآن الكريم (١) • ويرى الدكتور مصطفى محمود فى كتابه عن القرآن أن الآية الكريمة " يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل " هذه الآية لا يمكن تفسيرها الا أن تصور أن الأرض كروية • • ويشرح الآية الكريمة : " ثم (٢) ان علينا بيانه " بأن الله عز وجل سوف يشرحه ويبينه فى مستقبل الاعصر • هذا هو رأى الفريق الاول الذى يرى أن القرآن ليس وفقا على اللقويين وعلى رجال الدين وعدمهم ، وانما هو دائرة معارف يجب أن يشترك فى محاولة فهمها العالم والمتدين والفلكى والكيميائى وغير ذلك من العلماء المتخصصين فى فروع الثقافة الانسانية المتنوعة •

أما الفريق الآخر فيحارضون التفسير العلمى ، ويذهبون الى أن القرآن قد خاطب العرب أول من خاطب من الناس وهم قوم أميون لا يحتاجون فى فهم النصوص المبرحة الى التخلخل فى العلوم الكونية والرياضيات الهندسية وقد واجههم القرآن بما فى مقدورهم أن يستوعبوه من الكلام فأدى رسالته معهم على أحسن وجه يتاح اذ فهموا مبادئه ودرسوا شرائعه دون أن تكون لهم حاجة الى نظرية علمية أو فلسفية كونية ، فعلى المفسرين أن يفهموا من القرآن ما فهمه العرب الاوائل اذ أن كتاب الله لسان هداية ومدار توجيه أنزله الله على نبيه ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، لا ليتحدث عن استمرار البرق والرعد والمطر والرياح ، ولا ليحدد مواضع الشمس والقمر والنجوم والبحار والجبال ثم ان النظريات العلمية فى الكون - كما أشرنا سابقا = لا تستقر على حال فقد تثبت القضية الكونية لدى جيل من الأجيال حتى تصبح أمرا بديهيا لا يجوز فيه الاختلاف ، ثم يدور الزمن فيجد من النظريات ما يقلب الاولى رأسا على عقب ، فاذا فسرنا القرآن بمقتضى النظر العلمى فاننا

نجعل ميدانا للتأويل المتناقض المضطرب حتى ليجوز أن تتخذ من الآية الواحدة دليلاً للآيات في زمن والنفي في زمن آخر • ومثل ذلك عيث بالغ يجب أن ينتزه عنه كتاب الله (١) •

ومما جعل الأذان تصفى كثيرا لهذا الفريق أن أناسا ممن لا يجمعون بين النظر الدائب والعلم الصحيح قد دفعهم حب الابتكار الى تفسير بعض الآيات تفسيراً بدائياً لا يستند الى دليل ، فعين يظهر مكتشف ما من المكتشفات يسارع هؤلاء **السطحيون** فيقتطعون من كتاب الله ما يوهم صاحب النظر المتسرع أنه يسير مع المكتشف الحديث ، يملئون الصحف هراء بتمحلاتهم الكاذبة واغتياتهم المقيت ، ويدعون عند ذلك أن كتاب الله قد ألقى اليهم بأسراره ، فهم قديرون على أن يستنبطوا منه قضايا العلم الحديث ، وينسون أنهم في تمحليهم الكاذب يخبطون خبط عشواء •

نجد أحد هؤلاء يتحدث عن التصوير الشمسي فيستدل بقوله تعالى : " ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً " أو يتحدث عن القمر الصناعي فيستدل بقول الله : " اقتربت الساعة وانشق القمر " أو يلزم بآلة التسجيل الهوائى للاصوات فيستشهد بقوله تعالى : " وكل انسان أزمانه " طائرته في عنقه " أو يشير الى تحطيم الذرة فيقرأ قول الله : " وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب " •

من أجل ذلك كتب فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت رداً وافياً يفند به ما ذهب اليه هؤلاء الأذعياء من تحسف مقيت ، وبسط الحجج المقنعة على فساد نظريهم الطائش واستدل بالنقل والعقل على شططهم الكريه ثم قال فى ختام حديثه :

فلندع للقرآن عظمتة وجلاله ، ولنخلع عليه قدسيته ومهابته ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة الى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، وحسبنا أن القرآن لم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطعن اليها القول (٢) •

١- المرجع السابق • بتصريف • وراجع البيان القرآنى ص ٢٨٦ - ٢٨٦

٢- الرسالة : العدد ٤٠٨ لسنة ١٩٤١ •

الفصل الثالث

الاعجاز العددى

هذا وجه آخر جديد من وجوه الاعجاز طالما به حديثا الاستعداد
عبدالرزاق نوفل ألا وهو الاعجاز العددى فى القرآن الكريم .
وهذا الوجه من الاعجاز - كما يقول - وجه قاطع فان دليله العدد
والحساب ، والعدد لا يختلف والحساب لا يخطئ .
وهذا الوجه من الاعجاز لا يمكن لأى باحث أو دارس أو قارئ
أن يستعرضه الا يؤمن الايمان الكامل المطلق أن هذا القرآن لا يمكن
الأأن يكون وحى الله سبحانه وتعالى لأخر انبيائه وخاتم رسله
لأنه شئ فوق القدرة ، وأعلى من الاستطاعة ، وأبعد من حدود العقل
البشرى . ان التوازن والتناسق العددى فى موضوعات القرآن الكريم
لا يمكن أن يكون مصادفة قديمة ، أو واقعة عشوائية ، أو حادثة عفوية
لأنه توازن مقصود وتناسق غير محدود .
ترى أى قوة أو طاقة بشرية ، أو ما كانت من الأجهزة الحاسبة ، والعقول
الالكترونية ، يمكنها أن تحدد هذه الأعداد المتساوية فى ألفاظ الموضوعات
المتشابهة ، أو المماثلة ، أو المترابطة ، أو المتناقضة . . ثم توزعها
هذا التوزيع الدقيق منفردة ومتباعدة فى مختلف آيات القرآن الكريم
التي يبلغ عددها بضع مئات وست آلاف آية . . وتأتى الآيات بعد ذلك قمة
فى البلاغة والبيان وروعة فى الصياغة والاتقان . . ترى اذا كان لا يمكن
ولو تعاون البشر اجمعون ، فكيف بالأمر ان كان هذا الفرد من الأميين
صلى الله عليه وسلم .
ان التساوى فى عدد الألفاظ لموضوع بعدد ألفاظ موضوع آخر مما
يشير الى أكثر من أمر . . وما أخطرهما من أمور ، ويوضح أكثر من حقيقة
وما أجملها من حقائق .
لهذا طالبنا القرآن بالتدبر فى آياته والتذكر والتفكر فى أوجزه
معجزاته ، وتقول آياته الشريفة : " كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبسون

آياته وليتذكر أولوا الالباب " (١) ، " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب
أغفالها " (٢) .

وقد أوضح التدبر في آياته أنها معجزة بلاغية ، ودعوة أخلاقية ، ثم ثبت
أنها مراجع تشريعية وأصول قانونية ، وأخيرا قرر العلم أنها تسبقه فسمى
أيرادها للحقائق العلمية . . . وهذا نحن اليوم نبد بالتدبر وجهها جديدا
من اعجاز القرآن الكريم . . . انه الاعجاز العددي . . .

ها هو ذا القرآن الكريم يميزه - ضمن ما يميزه - التساوى والتوازن
والتناسق والتناسب العددي ، شأنه في ذلك شأن كل ما خلق الله من
موجودات كونية ، أفلا يكون قطعا وصداقا وحقا ويقينا هو وحى الله المنزل
على خاتم رسله وأنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ويكـ
بذلك هذا التساوى والتناسق والتوازن وجهها جديدا من أوجه الاعجاز
الحديثة التي تكشف عنها التدبر والتفكير والتأمل . . . الا أنه وجه لا تختلف
في نتيجته الآراء ، ولا تتعدد الاتجاهات ، فهو ليس بتفسير أو تأويل
تعارض فيه الاجتهادات ، وتتباين النظريات ، ولكنه حساب وأرقام وحقائق
الحساب دائما قاطعة ، وشواهدا الأرقام أبدا دامغة (٣) .

وعين خرج الجزء الأول من " الاعجاز العددي " الى الوجود ، انقسم
العلماء الى فريقين . . . فريق يعارضه ويرى أن الاعجاز العددي للقرآن
فتنة جديدة تقوم على المغالطات والاهام ، وأن هذا الاعجاز من شأنه
أن يحول القرآن الى كلمات متقاطعة . . . الخ . . . وفريق آخر يؤيده ويرى
أن هذا الاعجاز العددي رد دافع على الملحدين الذين لا يؤمنون
الا بالأرقام والحساب والأعداد التي لا تقبل الشك أو الجدل .
من الفريق الاول : الشيخ عبد الجليل عيسى ، والاستاذ عبد الكريم
الخطيب .

ومن الفريق الثاني : الشيخ عبد الرحيم فودة ، والعالم المجاهد الشيخ
عبد الحميد كشك ، والشيخ صلاح أبو اسماعيل ، والشيخ عبد الرحمن
البنّا ، ولقيف من عمدة وأساتذة ورجال جامعة الأزهر الشريف ، والدكتور
مصطفى محمود الذي اعتبر هذا الاعجاز فتحا جديدا في ميدان الدراسات

١ - ٢٩ من سورة ص .

٢ - ٢٤ من سورة محمد

٣ - راجع خاتمة الاعجاز العددي ج ١ ص ١٨١ - ١٩٢ ط ٢ .

القرآنية (١) •

ونفرا لهذا التشجيع الكبير من الأساتذة والعلماء أخرج الأستاذ
عبدالرزاق نوفل ثلاثة أجزاء في الأعداد العددى للقرآن الكريم • وقال
في خاتمة الجزء الثانى :

هذا التساوى العددى فى الموضوعات التى يتضمنها هذا الجزء
الثانى ، بالإضافة الى التساوى فى الموضوعات السابق ايضاحها فى الجزء
الأول ، إنما هى مجرد أمثلة وشواهد وعبارات وإشارات ، فما زالت الموضوعات
المتشابهة أو المترابطة أو المتناقضة المتساوية الأعداد أو المتناسقة
الأرقام تفوق الحصر ولا تدركها الطاقة •
والبحث فى الأعداد ذاتها ومناقشتها ، بل مجرد النظرة العابرة
لها ، يقود الانسان الى جانب آخر من جوانب هذه المعجزة العددية
يزيدها وضوحا وإشراقا وعمقا وبعدا •

فإن الأرقام التى ورد بها التساوى فى الموضوعات مختلفة عن بعضها
جدا ، ومتباعدة الواحدة عن الأخرى شوطا ، فليست المعجزة العددية
قاصرة على قلة من الأعداد تتكرر فى كل موضوعات القرآن الكريم ، إذ أن كثرة
الأعداد واختلافها تزيد من عمق المعجزة ، وتوضح مدى قدرها ، فمثلا
كانت الأعداد التى تساوت بها موضوعات الجزء الأول من الكتاب هى :

١٤٨ - ١٤٥ - ١١٥ - ٨٨ - ٧٠ - ٥٠ - ٤٥ - ٣١ - ٢٧ - ١٢ - ١٠ - ٧ - ٥ - ٤
• ٨١١ - ٣٦٨ - ١٨٠

وهذه أعداد تختلف بعضها عن بعض كثيرا ، فهى مثلا تبدأ من ٤
وتنتهى بالعدد ٨١١ وتكون ١٧ عددا تساوت به هذه الموضوعات •
والأعداد الجديدة التى تساوت بها موضوعات هذا الجزء الثانى هى :

٦ - ١١ - ١٢ - ١٤ - ١٦ - ١٧ - ٢٣ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٤١ - ٤٩ - ٦٠ - ٦٢ -
• ١٥٤ - ١٢٧ - ٧٢ - ٦٨

وهى أيضا أعداد كثيرة تبدأ من ٦ وتنتهى بالعدد ١٥٤ ولم تتكرر
فى المجموعة الأولى • • فالأمر إذن ليس فى بضعة أعداد تتكرر بها آيات

القرآن الكريم وإنما لكل موضوعين أو أكثر عدد خاص بها •• حقًا وصدقًا ••
سبحان الله •

ويرى الأستاذ عبدالرزاق نوفل أن هذه الأرقام لها دلالات خاصة وذات أسرار هامة ، ويتساءل في أي جيل سيكون الفتح بسر هذه الأرقام • ويقول : ان أمر الإعجاز العددي أبعد مما يرى وأعظم مما يتصور وأسمى مما يثان ، فهناك الأسرار التي ما زالت تحتاج الى جهد جهيد وفتح مبين ، وان بدأت بعضها في الإشراف فانما هي علامات على الطريق أو أضواء بين يدي نور عظيم •• ولكن لما نريد إعلانه هو أن هذا التساوي المريب ، وهذا التناسق المريب في كل موضوعات القرآن الكريم والفاصله يقطع بلا أدنى شك أو جدل أن القرآن وحى الله سبحانه وتعالى •• فما كان لرسول الله وهو الأمسى •• ولا للعلماء في زمانه •• ولكل علماء العالم ولو اجتمعوا في مختلف الأجيال إيجاد هذا التساوي والتوازن في هذه الموضوعات بهذا القدر وهذا الإعجاز • اعرضوا هذه المعجزة على الآليات الاحصائية ، والحقول الحاسبة ، لتسمعوا الرد القاطع والجواب الواضح :

" لا اله الا الله محمد رسول الله •• حقًا وصدقًا " •
(١) " كتاب أحكام آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " (١ من سورة هود) •
أمثلة من الإعجاز العددي في القرآن الكريم :

الدنيا والآخرة :

لقد تكررت الدنيا في القرآن الكريم ١١٥ مرة وذلك بمثل النص الشريف :
" وما الحياة الدنيا الا متاع الزور " (١٨٥ آل عمران) •
وتكررت الآخرة نفس العدد أي ١١٥ مرة وذلك بمثل النص الشريف :
" ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة " (١٠٣ سورة هود) •
رغم أنهما لم يجتمعا في أكثر من حوالي ٥٠ آية في مثل النص الكريم :
" وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا " (٢٧ من القصص) •

وانفردت الدنيا في آيات ، والآخرة في آيات أخرى ، ورغم ذلك يتساوى عدد مرات وورود كل منهما ١١٥ مرة الدنيا ، و ١١٥ مرة الآخرة في كل آيات القرآن الكريم (١) .

الصيف والحر . . والشتاء والبرد :

تساوى عدد مرات ذكر الصيف والحر بعدد مرات ذكر الشتاء والبرد في القرآن الكريم رغم اختلاف ورودهما في آياته الشريفة إذ لم يجتمعا في آية واحدة سوى مرة في النص الشريف :

" لا يلاق قريش يلاقهم رحلة الشتاء والصيف " (٢ من سورة قريش) .

ولم يرد بعد ذلك لفظ الشتاء أو مشتقاته ولا الصيف ومشتقاته ، فيكون الصيف ذكر مرة واحدة ، والشتاء ذكر أيضا مرة واحدة .

ولقد ورد الحر مرتين في مثل النص الشريف : " وجعل لكم سراويل تقيكم الحر " (٨١ من سورة النحل) ، ومرة واحدة بلفظ حرا في النص الكريم " قل نار جهنم أشد حرا " (٨١ من سورة التوبة) ، وأيضا مرة واحدة بلفظ الحرور في قوله تعالى : " وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور " (٢١ من سورة فاطر) .

وبذلك يكون الحر قد ورد ٤ مرات .

وورد البرد بلفظ بردا مرتين في مثل النص الكريم : " قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم " (٦٩ من سورة الأنبياء) .

وكذلك ورد بلفظ بارد مرتين في مثل النص الشريف : " اركض برجليك هذا مستغتسل بارد وشراب " (٤٢ سورة ص) .

ويكون البرد قد تكرر ٤ مرات قدر ما تكرر الحر .

وأن الصيف والحر تكرر ٥ مرات ، قدر ما تكرر الشتاء والبرد تماما (٢) .

الشياطين والملائكة :

تساوى عدد مرات ورود لفظ الشيطان وعدد مرات ورود لفظ الملائكة

في القرآن الكريم ، فقد تكرر لفظ الشيطان ٦٨ مرة في مثل النص الشريف :

١- الإعجاز العددي ج ١ ص ١٣

٢- المرجع السابق : ص ٥٥ و ٥٦

" ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا " (٦ من سورة فاطر) .
وتكرر لفظ الملائكة ٦٨ مرة أيضا في مثل النص الكريم : " اذ يوعى ربك
الى الملائكة أنى معكم " (١٢ من سورة الأنفال) .
وبلفظ شيطانا في آيتين في مثل النص الكريم : " ان يدعون الا شيطانا
مريدا " (١١٧ من سورة النساء) .
وبلفظ شياطينهم مرة واحدة في النص الشريف : " واذا خلوا سوا
شياطينهم قالوا انا معكم " (١٤ من سورة البقرة) .
وهنا يتصدى سؤال : هل المراد بشياطينهم في هذه الآية :
الشياطين الحقيقية المقابلة للملائكة أم المراد بها روماء المنافقين ؟
وقامت معركة بين الشيخ عبد الجليل عيسى وبين الأستاذين عبدالرزاق
نوفل وعبدالرحيم فودة حول عد الشياطين في هذه الآية من الألفاظ
المقابلة للملائكة :
قال الشيخ عبد الجليل عيسى : ان المؤلف اذ يقابل بين الاسم ونقيضه
لا يلتفت الى المعنى ، فهو مثلا اذ يدل على التساوى العددى بين
كلمة الملائكة وكلمة الشياطين ، يدخل لفظ الشياطين الواردة في قوله
تعالى : " واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم " يدخلها فى
جملة عدد الشياطين ، مع أن المراد منها فى الآية روماء المنافقين
كما أنه لم يجعل المقابلة بين الملائكة وابليس ، أو بين الملائكة وابليس
والشياطين ، لأن ذلك لا يحقق له المساواة العددية التى يطلبها (١) .
ورد عليه الأستاذ عبدالرزاق نوفل وقال : انى أخالفه الرأى فى
هذا التفسير ، فمتى قرر القرآن على أى جمع أنهم شياطين فهم
شياطين واحترام قول القرآن يقضى بذلك ، ولا ينسب سيادته أن الشياطين
منهم شياطين الانس وشياطين الجن اذ يقول الله تعالى : " وكذلك
جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن " فهل بعد أن يقرر القرآن
على روماء المنافقين أنهم شياطين نعتز ونقول بغير ما قال القرآن (٢)

١- الأخبار : عدد ١٩٧٥/٦/٢٧

٢- الأخبار : عدد ١٩٧٥/٧/٤

وأيد الأستاذ عبدالرحيم فودة رأى الأستاذ نوفل فقال : وقد قرأت مما نشر عن بعض الأخطاء التي أخذت على هذا الكتاب فلاحظت أنها هينات هينات . . . كإنكار ذكر الشياطين في مقابلة الملائكة بدعوى أن الممراد بهم في قوله تعالى : " وإذا خلوا الى شياطينهم " رؤساء المنافقين ولم يأخذ في الاعتبار أن لقب شيطان يطلق على المتمردين من الانس والجن .

على أن الباحث لم يزعم أنه فسر معانى الكلمات حتى يؤخذ عليه قطبها من السياق ، ولم يزعم أنه أصاب التوفيق والصواب في كل مما كتب ، وإنما كان همه منصرفا الى اظهار وجه من وجوه الاعجاز هو كما قال : التساوى والتوازن والتناسق والتناسب العددي . فأى فتنة أو خطر فى هذا ؟ (١)

ورد عليهما الشيخ عبدالجليل عيسى ، فحقب على رد نوفل بقوله : انسى لأجل بالرد على مثل هذه البدهيات ، ولكنى أسأل هذا العالم : هل رأى انسانا تحول الى شيطان ؟ وإذا سمع الناس يقولون : ان فلانا شيطان ، فهل يفهم من هذا أنه شيطان حقا ؟ ان الشيطان لا يظهر للناس عيانا كما يقول تعالى : " انه يراكم هو قبيله من حيث لا ترونهم " . ان هذا استعمال مجازى ، وآسف أن يدور السوار حول هذه البدهيات . (٢)

أما رده على الأستاذ فودة فيتلخص فر قوله : ان هذا الاطلاق على متمردي الانس لا يدخلهم بحال فى عالم الشياطين الذى هو عالم حقيقى مستقل بصورة الخلق التى خلقه الله عليها ، كما أنه لا يدخل الانسان القوى الى عالم الأسود اذا قالوا عنه : أسد فى شجاعته وقوته كذلك لا يدخل الانسان الى عالم الثعالب أو الذئاب أو الكلاب اذا قيل عنه انه ثعلب أو ذئب أو كلب أو نحو هذا مما يطلقه بعض الناس على بعض بصفة بارزة فيهم تشبه بصفة هذا الحيوان أو ذاك . (٣)

ولندع هذا الخلاف بين العلماء الأجلاء ونكتفى بذكر ما قاله الأستاذ

١- الأخبار : عدد ١١ / ٧ / ١٩٧٥ .

٢- الأخبار : عدد ١٤ / ٧ / ١٩٧٥ .

٣- المرجع السابق

نوفل من أنه قد اجتهد فان أصاب قلبه أجران وان أخطأ قلبه أجر واحد وهو لا يطمح في أكثر من هذا •

ولنستمر في عرض التساوى بين الشياطين والملائكة :

وقد ذكر الشيطان باللفظ الأخرى ٢٠ مرة اذا أضيفت الى عدد ورود

لفظ الشيطان وهو ٦٨ لا أصبح المجموع ٨٨ مرة •

وباقى الألفاظ التي تخص الملائكة فقد وردت بلفظ الملك ١٠ مرات

في مقل النص الشريف : " ولا أقول لكم انى ملك " (٥٠ من سورة الانعام) •

وبلفظ ملائكته ٥ مرات في مقل النص الكريم : " ان الله وملائكته

يصلون على النبي " (٥٦ من سورة الاحزاب) • وبلفظ ملكا ٢ مرات

بمثل النص الشريف : " ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر " (٨ من سورة الانعام)

وبلفظ الملكين في آيتين شريفتين مثل : " وقال ما بهاكما ربكما عن هذه

الشجرة الا أن تكونا ملكين " (٢٠ الاعراف) •

وعدد هذه المرات ٢٠ أيضا اذا أضيفت الى عدد ورود لفظ الملائكة

وهو ٦٨ أصبح المجموع ٨٨ مرة أيضا •

وهكذا تتساوى مرات ذكر الشيطان والملائكة بالعدد ٦٨ ، وتتساوى

الألفاظ الأخرى للشيطان وهي ٢٠ مرة بالألفاظ الأخرى للملائكة وهي ٢٠

ويتساوى المجموع الكلى لكل من الشياطين والملائكة فيرد كل منهما

٨٨ مرة في القرآن ا ريم (٢) •

هذا هو بعض الاعجاز العددى في القرآن الكريم الذى يراه الاستاذ

عبد الرزاق نوفل دليلا ماديا وبرهانا ساطعا على أن القرآن من عند الله ،

" ولو كان من عند غير الله لوجدود فيه اختلافا كثيرا " ، فهذا التساوى

العددى بين الألفاظ التي وردت متساوية في القرآن الكريم رغم بعد زمن

نزل الآيات واختلافها من السور لهو أكبر دليل على أن القرآن من وحى

الله عز وجل ، فما كان لرسول الله وهو الأمي ، ولا للعلماء في زمانه ولا

لكل علماء الوجود ولو اجتمعوا في مختلف الأجيال ، ايجاد هذا التوازن

والتساوى في هذه الموضوعات بهذا القدر وهذا الاعجاز (٢) •

١- الاعجاز العددى : ج ١ ص ١٧ - ١٩ •

٢- المرجع السابق ص ١٥٩ •

الاعجاز العددى فى الحروف :

اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى تبتدى بها أوائل السور القرآنية بمثل : أ ل م ، أ ل ر ، ق • كهيعص ، • الخ •
قال بعض المفسرين : انها من أسماء الله التى استأثر بها فى علم غيبه •
والبعض كان يتلو : ا ل م ذلك الكتاب لا ريب فيه ، بمعنى أن اللسان يقول : من جنس هذه الحروف جئنا بذلك الكتاب الذى لا ريب فيه • ونحن نتحدى أن يأتى أحد بمثله رغم أن هذه الحروف فى ميسور الجميع •
وقال كثرة المفسرين : الله أعلم •

لكننا فى العصر الحديث شهدنا أخيراً محاولة جريئة لاكتشاف المدلول العددى لهذه الحروف ، قام بها الأستاذ رشاد خليفة باستخدام العقل الألكترونى ووصل الى نتائج مثيرة ••

فقد وجد بالاعضاء أن استهلال سورة بحروف معينة يقابله دائماً تفوق حسابى بمعدل توارى وتكرار هذه الحروف فى نفس السورة • ففى سورة (ق) مثلاً نجد أن الحرف ق — يتكرر فى السورة بمعدل أعلى من باقى الحروف ، ثم ان معدل فى السورة هو أعلى معدل فى سور القرآن على الإطلاق • ونفس الشئ فى ا ل م البقرة ، وأكثر من هذا تأتى المعدلات فى سلم تنازلى من ا الى ل الى م ونفس الترتيب :

ا وردت ٤٥٩٢ مرة ، ل وردت ٣٢٠٤ ، م وردت ٢١٩٥ مرة •
نفس الحكاية فى ا ل م آل عمران :

ا وردت ٢٥٧٨ مرة ، ل وردت ١٨٨٥ مرة ، م وردت ١٢٥١ مرة •
بنفس الترتيب التنازلى ا ل م ، وهى تتوارى فى السورة بمعدلات أعلى من باقى الحروف •

ونفس الحكاية فى ا ل م سورة العنكبوت :

ا وردت ٨٧٤ مرة ، ل وردت ٥٥٤ ، م وردت ٣٤٤ ، بنفس الترتيب التنازلى ، ثم هى تتوارى فى السورة بمعدل أعلى من باقى الحروف • نفس الحكاية فى ا ل م سورة الروم

ا وردت ٥٤٧ مرة ، ل وردت ٣٩٦ ، م وردت ٣١٨ مرة بنفس الترتيب التنازلى ، ثم هى تتوارى فى السورة بمعدلات أعلى من باقى الحروف •

نفس الحكاية في ا ل م ر الرعد :

ا ترد ٦٢٥ مرة ، ل ترد ٤٧٩ مرة ، م ترد ٢٦٠ مرة ، ر ترد ١٢٧ مرة

نفس الترتيب التنازلى ا ل م ر ، ونفس الترتيب الذى جاءت به بالقرآن •

وفى جميع السور التى ابتدأت بالحروف ا ل م نجد السور المكية

تتفوق حسابيا فى معدلاتها على باقى السور المكية فى المصحف • والمدنية

تتفوق حسابيا فى معدلاتها على باقى السور المدنية •

كما نجد أن جميع السور التى افتتحت بالحروف جم اذا ضمت الى

بعضها البعض فان معدلات توارد الحرف ح والحرف م تتفوق على

السور المكية فى المصحف •

وكذلك السور التى افتتحت بالحروف ا ل ر وهى ابراهيم ويونس

وهود ويوسف والحجر ، وأربع منها جاءت متتابعة فى تاريخ النزول

اذا ضمت لبعضها أعطانا الحقل الألكترونى أعلى معدلات فى نسبة

توارد حروفها ا ل ر على كل السور المكية فى المصحف •

وبالمثل ا ل م ص سورة الأعراف يقول لنا الحقل الألكترونى أن

معدلات هذه الحروف هى أعلى ما تكون فى سورة الأعراف وأنها تتفوق

حسابيا على كل السور المكية فى المصحف •

وفى سورة طه نجد أن الحرف ط والحرف ه يتواردان فيها بمعدلات

تتفوق على كل السور المكية •

أما فى سورة يس : فاننا نلاحظ أن الدلالة موجودة ولكنها انعكست

لأن ترتيب الحروف انعكس فالياء فى الأول بعكس الترتيب الأبجدي ، ولهذا

نرى توارد الحرف ي والحرف س فى السورة أقل من توارده فى جميع

المصحف مدنيا ومكيبا (١) •

دلالة خاصة للمعدد ١٩ :

ثم يكشف الأخ رشاد خليفة دلالة خاصة للمعدد ١٩ ويرى أن

الله يقيم بهذا الرقم حجة على الملحد الذى يقول ان القرآن مع صنع

ببشر ، كما جاء فى سورة المدثر : " انه فكر وقد رقتل كيف قدر ثم

١- من أسرار القرآن : (د • مصطفى محمود - ص ٧٠ - ٧٤) •

قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا
الا سحر يومئذ ان هذا الا قول البشر سأصليه سقر وما أدراك ما سقر
لا تبقى ولا تذر لواءة للبشر عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار
الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا
الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا " (١) •

ويفسر الأستاذ رشاد خليفة هذه الالغاز فيقول : ان آية (بسم
الله الرحمن الرحيم) الفاتحة •• وقد نزلت بعد هذه الآيات مبن
المدثر، هذه الآية من ١٩ حرفا، ثم ان كل كلمة منها تتكرر في القرآن
١٩ مرة، أو مضاعفات ال ١٩ :

كلمة اسم تتكرر ١٩ مرة

كلمة الله تتكرر $19 \times 142 = 2698$ مرة

كلمة الرحمن تتكرر $19 \times 3 = 57$ مرة

كلمة الرحيم تتكرر $19 \times 6 = 114$ مرة

ثم ان جميع الحروف المقطعة في أوائل السور تتكرر الى مضاعفات ال ١٩ بطول
المصحف هكذا :

الحرف ق يتكرر في سورة ق $19 \times 3 = 57$ مرة

الحروف كهيمص تتكرر في سورة مريم $19 \times 42 = 798$ مرة

الحرف ن في سورة القلم يتكرر $19 \times 7 = 133$ مرة

الحرفان يس في سورة يس يتكرران $19 \times 10 = 190$ مرة

الحرفان طه في سورة طه يتكرران $19 \times 18 = 342$ مرة

الحرفان حم في جميع السور المفتحة بهما يتكرران $19 \times 114 = 2166$ مرة

الحروف عسق في سورة الشورى تتكرر $19 \times 11 = 209$ مرة

الحروف ال م ر في سورة الرعد تتكرر $19 \times 79 = 1501$ مرة •

ثم ان الكلمات :

لا حول ولا قوة الا بالله = ١٩ حرفا

بسم الله الرحمن الرحيم = ١٩ حرفا

وهي كلمات يتحفظ بها المؤمن من الشر والسوء ومن زبانية العذاب الذين

١- سورة المدثر - الآيات من رقم ١٨ - ٣١ •

قال ربنا في سورة المدثر أنها ١٩ " سأصليه سقروما أدراك ما سقرو
لا تبقى ولا تذر لواءة للبشر عليها تسعة عشر " •
فهل كل هذه مصادفات ؟

واذا سلمنا بمصادفة واحدة فكيف نفسر الباقي ؟
وقوانين الاحتمال ذاتها تنفي تكرار المصادفات بهذا التواتر الا أن يكون
الامر ترتيبيا مقصودا •

ولا يمكن أن يبدأ مؤلف كتابا بأن يقول لنفسه : سوف أكرر الحرف الفلاني
كذا والحرف الفلاني كذا وسوف ألتمز في مقالاتي بالألا تتجاوز مجموعات الحروف
كذا مضاعفات ١٩ ، ثم ان القرآن نزل مفرقا على ٢٣ سنة وكانت الآيات
تنزل على النبي من وسط السورة وهو يجهل أولها كما يجهل آخرها
ثم تكتمل بعد ذلك السورة ربما بعد عشرين سنة ، فهناك استحالة أن يكون
الامر تأليفا من الرسول عليه الصلاة والسلام •

بل ان الحد الاكثرون يصح لنا أخطاء وردت في احصاءات المعجم
المفهرس لألفاظ القرآن ويؤكد استطراد هذه القاعدة ••

ان البعض ينظر باستنكار واستهجان الى هذه النظرة الاحصائية
لحروف القرآن وكلماته ، ويرى أنها تصرف القارى عن تدبر معاني
الكتاب الكريم ، ويخشى فتح هذا الباب •

ونحن لا نشجع أحدا على الانصراف عن تفهم القرآن الى عد حروفه ،
وليس عند كل قارئ عقل الكثر ، والمشكلة غير واردة ، والخوف ليس
له مبرر • انما هو اجتهاد ي طرح أماننا ملاحظة ، وعلى من يفكر أن يجمد
لنا تفسير • وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام عن القرآن انه كتاب
لا تتفص عجائبه ، وهذه عجيبه من عجائبه •

وقال ربنا : " الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان " (١٧ الشورى)
وأى ميزان ؟ انه ميزان يدق حتى يزن الشعرة والحرف والرقم •
انها ظاهرة جديرة بالاهتمام ، وحجة جديدة على أن ذلك الكتاب الذى
نتداوله وفتلوه ليس من الكتب الخادية فى شىء (١) •

وأخيرا .. هل لنا أن نقول : لماذا نرفض هذا الكشف الجديد
ما دام يقوم على احترام كتاب الله تعالى ، ويبين وجهها جديدا من وجوه
الاعجاز .

الفصل الرابع

الاعجاز الروحي

ما زالت قضية الاعجاز القرآني وستظل تشغل العلماء والباحثين والمفكرين فالقرآن الكريم لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ، وستجد فيه أجيال المسلمين في العصور القادمة وجوها أخرى جديدة في الاعجاز وباب الاجتهاد في اعجاز القرآن مازال مفتوحا ، وسيظل مفتوحا أبد الدهر . ولقد اختلف القدماء في وجوه الاعجاز ، وتجمع لدينا من آرائهم ثلاثة

عشر وجهها لاعجاز القرآن الكريم (١) .

وفي العصر الحديث سمعنا وقرأنا عن : الاعجاز النفسي ، والاعجاز العلمي ، والاعجاز الحديدي . وهذا الذي بين يدينا وجه رابع من وجوه الاعجاز الجديدة التي تمخض عنها القرن العشرين .

وصاحب هذا الرأي الجديد هو العالم المفكر الأديب محمد فريد وجدى فقد رأى أن الحناية في العصر الحديث متجهة الى اعجاز القرآن البلافي ، واعتبار هذا الوجه أرجح من الوجوه الأخرى ، وأحسن أن الاعجاز الحقيقي إنما هو في الاعجاز الروحي الذي يكمن في أسلوب القرآن الكريم .

يقول : ان المتكلمين في اعجاز القرآن قد حصروا كل عنايتهم في الناحية البلافية ، ونحن وان كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة الا أننا نرى أنها ليست الجهة الوحيدة لاعجازه ، بل ولا هي أكثر جهات الاعجاز تسلطا على النفس ، فان للبلاغة على الشعور الانساني تسلطا محدودا لا يتعدى حد الاعجاب بالكلام والاقبال عليه ثم يأخذ هذا الاعجاب والاقبال يضعف شيئا فشيئا بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه في مبدأ توارده عليها ، وليس هذا شأن القرآن فانه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيد تأثيرا ، فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه اعجازه في مجال آخر .

وهذا الوجه الآخر الذى يراه يتمثل فى : أن القرآن روح من أمر الله تعالى ، فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح فى الأجساد فيحركهم بها ويتسلط على أهوائها . . . وأما تأثير الكلام فى الشعور فلا يتعدى سلطانه حد اطرابها والحصول على اعجابها . .

وقوله تعالى : " وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا " يكفى وعده فسى ارشادنا الى جهة اعجاز القرآن ، وقصور الانس والجن عن الاتيان بمثلهم وبقائه الى اليوم معجزة خالدة تتلأل فى نورها الالهى ، وتتألق فسى جمالها المقدس ، فلا جرم كانت روحانية خاصة هى عندنا جهة اعجازه ، والسبب الاكبر فى انقطاع الانس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره ، وارتعاد فرائض الصناديد والجبابرة عند سماعه ونأهيك بروحانية الكلام الالهى .
ثم قال : ولا مشاحة فى أن القرآن فصيح ، قد أخرس بفصاحتهم فرسان الخطابة وقادة البلاغة وهو حكيم بهر الفلاسفة وهو حق ألزم كمال ضال الحجة وهو هدى وشفاء لما فى الصدور ، وكل هذه صفات جليلية تؤثر فى العقل والشعور والحواطف والميول فتتحكم فيها تحكم المالك فى ملكه ، ولكنه فوق ذلك روح من أمر الله تصل من روح الانسان الى حيث لا تصل اليه أشعة البلاغة والبيان ، ولا سيالات الحكمة والعرفان ، وتسرى من صميم محفاه الى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ، ولا يتخيلهم خيال شاعر .

هذه الروحانية تظهر جليا عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاقتباس فى صفحة كبيرة فإليك ترى تلك تتجلى لك من بين السطور وخلال التراكيب كأنها الشمس فى رابعة النهار مهما كانت درجة تلك الصفحة من البيان ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ (١) .

هذا ويرى د . رجب البيومى أن الشقة قريبة بين من يقول بالاعجاز البلاغى وبين الأستاذ محمد فريد ، وتساءل : أيمكن أن تظهر روحانية القرآن دون أسلوب بليغ يحملها للناس ؟ اذ يستحيل علينا بداهة أن نتصور هذا الظهور دون كلام يقال ، واذا ثبت أن الأسلوب القرآنى هو موضح

هذه الروحانية النافذة فقد صارت الشقة قريبة بين من يقولون بالاعجاز البلاغى وبين الأستاذ الكبير ان لم تكن هناك شقة على الإطلاق...
واذا كانت بلاغة البشر تفقد تأثيرها باستمرار التلاوة دون بلاغة القرآن فلأن الأسلوب القرآنى يعمل من وسائل اعجازه ما يرتفع به عن بلاغة البشر ، وعلينا أن نبحث عن ذلك فى مفاوى نظام وطريقة تعبيره وتصويره... وكون القرآن روحا من أمر الله لا يحصر اعجازه البيانى بل يدفع الدارس الى استشفاف هذا الروح فيما يتراءى من قوة أسرته ودقة دليله وبلاغة تصويره مما يسيطر على النفوس سيطرة تدفع الى الاعتراف المؤمن والاستسلام البصير *

ولعل الأستاذ وجدى لا يريد أن يحصر الاعجاز القرآنى فى بلاغته التعبيرية موافقة لمن يرى أن حصر الاعجاز فى البلاغة التركيبية يدفعنا لطول النظر الى اكتناه أسرارهِ والوقوف على دقائقهِ ، ومتى عرفت هذه الأسرار وجلت تلك الحقائق أمكنت محاكاته وسهلت معارضته فلم يبق وجه لاعجازه * وهذا كلام براق فى ظاهره ، ولكنه لدى التدقيق لا ينهض على ساق ، لأن ادراك السر البلاغى فى قول معجز لا يحصل المدرك قادرا على الاتيان بمثل ما أدرك سره وجلا حقيقة وجه...
والمسألة أوضح من أن يستدل عليها ، لاني نرى الناقد الأدبى يدرك أسرار القصيدة الرائعة بيتا بيتا وكلمة كلمة ثم لا يستطيع بد ذلك أن يأتى لمثلها لأنه غير شاعر بطبيعته ، فلو كان الولوج الى أسرار الجمال فى البيان الأدبى داعيا الى محاكاته لكان كل ناقد كبير شاعرا كبيرا أو قصاصا شهيرا ولكن التذوق النقدى شىء وملكة الابداع الفنى شىء سواه...
فليكن القرآن ذا روح قوية غالبة ، ولكن هذه الروح تستكن فى كلمات وآيات وسور وهى موضع الاعجاز (١) *

وهكذا طلع علينا العصر الحديث بأربعة وجوه جديدة للاعجاز ولكل وجه وجهة هو موليتها ، وفكرة يجليها ، ولكل جيل أفكاره وتصويراته وكشوفه والقرآن الكريم لا تنقضى عجائبه ، وستجد فيه أجيال المسلمين شغلى

العصور القادمة وجوها أخرى جديدة ، وباب الاجتهاد فسي
بيان اعجاز القرآن مازال مفتوحا ، وسيظل مفتوحا أبد الدهر .

الخاتمة

=====

الصراع بين القديم والجديد هو قضية الزمن ، وديدن الحياة ، وتجديد البلاغة العربية قضية طال عليها الزمن دون أن نبت فيها برأى ، فعلى كثرة من تكلموا وكتبوا فى تجديد البلاغة نجد لها ما زالت تدور فى فلك السكاكى ومدرسه . ولقد جرت محاولات فى العصر الحديث للتخفيف من حدة كسب البلاغة القديمة ، وصياغتها فى أسلوب جديد يميل الى البساطة والوضوح ونحن لا ننقص من قدر هذه المحاولات ومن حاولوها ، ولكن نقول : - ان هذه المحاولات لم تثمر ثمرتها المرجوة ، فما زالت الكتب الحديثه فى البلاغة تدور فى فلك علم الكلام ومنهج السكاكى .

واذا كانت البلاغة العربية من أجل العلوم قد را ، لأن ثمرتها - كما يقول ابن خلدون - فهم الاعجاز وادراكه . وأيضا لأن دراستها تفتح الذهن وترى الذوق وتدربه على الرقة والدقة حتى يميز بين الجيد والردئ من الكلام اذا كانت البلاغة بهذه الأهمية دينيا وتربويا فان من واجبنا صيانة هذا التراث البلاغى ، والعمل على تداوله وازدهاره . وما أنه ليس تحفا وأحجارا كريمة فيجب العمل على تجديده وتطويره بما يرغب فى الاقبال عليه وتداوله .

اننا لسنا أعداء للبلاغة القديمة ، ولكننا أعداء لجمودها وتأخرها ، ولا يرضينا أبدا ما تمنيه بلاغتنا الحبيبة من زهد فيها ، وانصراف عن درسيها ورغبة الأدباء والنقاد عنها .

ونتيجة لاهمال تجديد البلاغة ، واخفاق تدريسها للأجيال القريبة الماضية ، ظهر كتاب وشعراء هبطوا بالكتابة والشعر . ونزلوا بالآداب العربى عن عرشه فسمعنا وقرأنا الشعر الحديث ، ثقله فلا تدرى ان كان شعرا أو نثرا ، ثم هو بعد ذلك أعجمى الروح ، غرس الملامح ، لا أثر له ، ولا بريق فيه . ولم تعد نسمع فى مجال الأدب والصحافة الا منكرا من القول وزورا . وأكد أجزم بأن كل ذلك أثر من آثار واهمال البلاغة والقعود عن تجديدها . بل انى لا أبالغ اذا قلت : ان افتقاد الشخصية العربية أو ضعفها واهتزازها فى أعين القوميات

الأخرى إنما هو أيضا أثر من آثار اهتلال البلاغة وعدم نجاح تدريسها لأجيالنا المتعاقبة ، فعظمة الانسان العريس مرتبطة الى حد كبير بفصاحته وبلاغته • فالمرء بأصغرية والانسان — كما يقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه — : المرء مخبوء تحت لسانه ، حتى اذا نطق أفصح عن عظمته أو نقصانه ، فاللسان هو الذى يوضح عظمة الانسان ، وهو فى الوقت نفسه جزء من هذه العظمة لأن البلاغة ليست فى اللسان فقط ، بل هى فى الفكر والعقل قبل أن تكون فى اللسان والبيان • فسو التعبير جزء من سمو التفكير وسمو التفكير والتعبير سمو للشخصية • والبلاغة لها دخل كبير فى كل ذلك •

وليس من المجهول أن هناك أيادى خفية مجتدة من قبل الاستعمار الثقافى والغزو الفكرى ، تريد أن تقضى على الفصحى وآدابها وبلاغتها ، لتقضى بالتالى على دينها وقرآنها ، ولتمحو الشخصية العربية المسلمة من الوجود ، فلا يبقى اطم استغلالها واستعمارها مجابهة ولا مقاومة •

من أجل كل ذلك فانى أرى أن تجديد البلاغة والنهوض بها أصبح واجبا قوميا ودينيا فى آن واحد ، وهو واجب الجامعات العربية أولا ، ثم الجامعات العلمية والهيئات الثقافية ثانيا •

ومن أجل كل ذلك أيضا كان اقدامى على هذا البحث فى تجديد البلاغة • ولقد اقتضى هذا البحث أن نقسمه الى مقدمة وتمهيد وخمسة أبواب وخاتمة • وفى المقدمة ، أوضحت موضوع هذا البحث وظروفه ودواعيه ، وبينت فى اجمال حال البلاغة قديما وحديثا •

وفى التمهيد ، تحدثت عن نشأة البلاغة وتطورها ، وبينت مدارسها وخصائص كل مدرسة ، ثم تحدثت عن صلة البلاغة بالعلوم العربية الأخرى ومكانتها بين هذه العلوم ، ثم تتبعت مسيرة البلاغة حتى مرحلة نهوضها على يد الامام عبد القاهر ، ثم استقلالها على يد السكاكى ، ثم جهود البحث البلاغى بعده حتى العصر الحديث ، وأوضحت كيف أن البلاغة أصبحت فى حاجة ماسة الى التجديد •

وهذا التمهيد فى الواقع كان يستحق — وحده — أن يكون بحثا

مستقلاً ، فهو مسيرة طويلة مع البلاغة في عصورها المتعاقبة منذ تكونت جذورها الأولى حتى وصلت إلينا في العصر الحديث . وهو تمهيد كان لابد منه — لمعرفة القديم وتصوره وعرض آراء المتقدمين والمتأخرين فيه ، وقبل أن نقدم على دراسة الجديد ونقلب فيه وجهات النظر ، فأول التجديد قتل القديم فهما . ولقد كنت أحاذر في هذا التمهيد الاطناب الممل والايجاز المخل وهي مهمة ليست باليسيرة في مثل هذا البحث الدقيق . (١)

ولقد كان للتجديد بؤاد ومقدمات كما كان له مقاصد واتجاهات ولذلك كان الباب الأول : " بؤاد التجديد واتجاهاته في العصر الحديث " . وقسمت هذا الباب الى فصلين : تحدث في الفصل الأول عن التجديد ومفهومه وبؤاده .

وقد كان لهذه البؤاد والبدائيات أصوات تعلو حيناً ، وتخفت أحياناً ، الى أن كانت البادرة التي أشعلت الحماس ، وأثارت الرأي ، تلك هي معركة البلاغة التي حمى وطيسها على صفحات مجلة الرسالة بين الدكتور علي العماري والأستاذ أمين الخولي ثم انضم اليهما آخرون (٢) . وتثور قضية التجديد البلاغي فيعكف الأستاذ أمين الخولي على كتابه " فن القول " ويضمنه آراءه وخطته في تجديد البلاغة (٣) ، ويصدر الأستاذ احمد الشايب كتابه " الاسلوب " ويضع فيه منهاجاً كاملاً لبلاغة جديدة (٤) ، ويشارك الأستاذ احمد حسن الزيات في القضية فيدفع الى الميدان بكتابة " دفاع عن البلاغة " (٥) وفي الجامعة الأمريكية يلقي البشري محاضراته " ثورة على علوم البلاغة " (٦) وفي المجمع اللغوي يلقي د . عبد الرزاق محيي الدين بحثه " مفاهيم بلاغية " (٧) ويكتب الدكتور العماري بحثه " البلاغة العربية وحاجتها الى التجديد " (٨) ،

-
- | | |
|--|--------------------------------------|
| ١ — راجع التمهيد في البحث ص ٧ . | ٢ — انظر حركة الرسالة ص ١٩٠ من البحث |
| ٣ — راجع خطة فن القول ص ٣٦٣ من البحث . | ٤ — راجع منهاج الشايب ص ٢٤٢ |
| ٥ — انظر ص ٤٨٤ | ٦ — انظر ص ١١٤ |
| ٧ — " " ١٥١ | ٨ — " " ١٤٣ |

وتعتقد الندوات والمحاضرات بين المعنيين بالدراسات البلاغية ، وتذاع على الهواء ، كالندوة التي عقدت بين الدكاترة : غنيم هلال ، ودوى طبانه ، وأحمد بدوى . (١)

وفى جامعة الأزهر ينشأ قسم خاص بالبلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية ويقوم أساتذته بالدعوة الى تجديد البلاغة وتطهيرها ، وفى آداب القاهرة والاسكندرية وعين شمس ودار العلوم ترتفع الأصوات بضرورة اصلاح البلاغة وتجديدها .

كل ذلك آثار قضية البلاغة بعد ركود ، وأيقظها بعد سبات ، وأخذ العلماء والأدباء وأساتذة البلاغة يدلون بأرائهم ، ويعلنون عن اتجاهاتهم فى تطوير البلاغة وتجديدها .

ولهذا كان الفصل الثانى من الباب الأول " اتجاهات التجديد ومظاهره فى العصر الحديث " .

وباستقراء آراء الدعاة الى تجديد البلاغة نجدهم يتجهون فى شبه اجماع الى تخليص البلاغة مما شابها من مسائل المنطق والفلسفة ، ومباحث الأصوليين وما اليها .

ثم يختلفون بعد ذلك :

- فبعضهم يرى الاعتماد على تراثنا فى البلاغة وجعله أساسا للتجديد . وأن التجديد يجب أن يكون نابعا من روحنا ومجتمعنا وتكويننا وفطرتنا وذاوقنا .
- وبعض آخر يروى أن الكتب القديمة يجب أن تُلغى ويلقى بها فى بحر الظلمات ويحل محلها كتب أخرى مؤلفة على منهج حديث مستقل مبنى على أساس من الدراسات الغربية الحديثة .
- وبعض ثالث يرون مزج البلاغة العربية بأصول الدراسات البلاغية الحديثة فى شتى اللغات الأوربية ، وأنه من الخير الجمع بين ما يصلح من تراثنا وما يصلح من بلاغة الغرب ، وأن التعايش بين القديم والحديث أفضل نتاجا وأقوى أثرا .

ومعد هذا العرض العام في الباب الأول لبوادر التجديد واتجاهاته ، تناولت في الباب الثاني " دعوات التجديد البلاغية " وتحدثت عنها بالتفصيل ودعوات التجديد في العصر الحديث ، انما نعى بها تلك التي بدأت مع هذا القرن العشرين ، حيث بدأت النهضة العربية في العلوم والآداب تأخذ سبيلها وتشق طريقها بعد أن انفتح العرب على النهضة الغربية الأوربية ، واطلموا على الكثير من علومها وآدابها .

وقد قسمت هذا الباب الى ثلاثة فصول :

عرضت في الفصل الأول لبحوث عديدة في تجديد البلاغة ، للأساتذة : أمين الخولي ، وعبد العزيز البشري ، وأنيس القدسي ، والدكاترة ، احمد بدوي ، وعلى الخطاري ، وعبد الرزاق محيي الدين ، ثم عرضت لتقرير لجنة المعارف المصرية وما تضمنه من تخطيط جديد للبلاغة . وقد عقت كل بحث برأى ورأى غيرى ان وجد .

وفي الفصل الثاني : عرضت لآراء بعض المتخصصين من أساتذة البلاغة في الجامعات ممن أولوا بدلوهم في قضية التجديد ، فهم الأقدر من سواهم على معرفة حاجة البلاغة ، وتفهم مشكلاتها . وإذا كان الطبيب يستطيع بالكشف على مريضه أن يحدد الداء ويصف الدواء ، فانهم — ولا شك — يعرفون داءها ، ويستطيعون أن يصفوا دواءها ، ولذلك رأينا ألا نهمل آرائهم مهما كان حجمها .

هذا عدا بعض الآراء الأخرى التي عرضناها في ثنايا البحوث السابقة . وهذه الباقية من الآراء في البلاغة وتجديدها ، حلقة مكملة للبحوث السابقة في الفصل السابق ، وتلقى كثيرا من الأعضاء على قضية التجديد في البلاغة .

وفي الفصل الثالث — من هذا الباب الثاني — تناولت حركة الرسالة ، تلك المعركة البلاغية التي قامت على صفحات الرسالة في منتصف هذا القرن بين المحافظين والمجددين ، وبينت كما كان لها من أثر في إثارة قضية التجديد في البلاغة . وكنت هنا وهناك أطل برأى أئيد ما أراه صوابا ، وأصوب ما أراه خطأ ، وأوضح ما أراه غامضا ، وأضيف ما أرى اضافته ، مستشهدا في كل

ذلك بما يؤيد وجهة نظري أو يجيزها على الأقل .
وإذا كانت البحوث والآراء التي عرضتها في هذا الباب الثاني قد تضمنت
بعضها تخطيطا صغيرا ، أو فكرة محدودة ، في تجديد البلاغة ،
فقد جعلت الباب الثالث " مناهج جديدة للبلاغة " خاصا بالمناهج
الكبيرة المتكاملة التي وضعت لتجديد البلاغة وقد قسمت هذا الباب إلى
أربعة فصول :

تحدثت في الفصل الأول عن منهج الشايب وكتابه " الأسلوب " ثم عرضته
على ميزان النقد ، وبينت ماله وما عليه .

وتحدثت في الفصل الثاني : عن منهج الخولي وكتابه " فن القول " ثم
عرضته هو الآخر على ميزان النقد ، وقارنت بينه وبين منهج الشايب .
وفي الفصل الثالث : عرضت للمنهج المدرسي الحديث ، وتحدثت عن
البلاغة في مدارسنا ، وبيننا أثر المنهج ، ومدى نجاحه أو فشله ، وأسباب
ذلك .

وفي الفصل الرابع : عرضت رأيا جديدا في تدريس البلاغة . فقد لاح لى
بعد كثرة ما قرأت واطلعت على بحوث ومناهج وآراء في تجديد البلاغة أن هناك
رأيا لم يطرح بعد ، وأن درس البلاغة اليوم في حاجة إلى علاج سريع — ولو
مؤقتا — يخرج به من نطاق السكاكي والقزويني ، ويساعد الدارسين
على استيعاب البلاغة فنا وعلما .

ولقد أمنت النظر فيما يفعلون بدرس البلاغة ، فوجدتهم يعلمون الطالب —
أول ما يعلمونه — الفصاحة بأنها خلط اللفظ من تنافر الحروف ، والغرابية ،
ومخالفة القياس ، ويضربون لذلك أمثلة ركيكة — تصيب النفس بالضيق والكدر .
وقلت لنفسي أهذا هو أول ما ينطبع في ذهن الطالب عن الفصاحة والبلاغة ؟
وتساءلت : لماذا يعرف القدماء الفصاحة تعريفا سلبيا فيقولون : هي
خلط اللفظ أو خلوصه من التنافر والغرابية . . . ويتركون التعريف الإيجابي
فلا يذكرون عنه شيئا . . . أما كان التعريف الإيجابي للفصاحة أولى وأجمل
وأوقع في النفس من التعريف السلبي ؟

ان التعريف السلبي للفصاحة - قد أدى بالقدماء الى استعمال
أمثلة رديئة ، يفاجأ بها الطالب في بداية درس البلاغة ، فترك في نفسه
انطباعا سيئا ، لما كان أغفانا عنه لو أنهم لجثوا الى التعريف الايجابي وعرفوا
الفصاحة تعريفا أدبيا جميلا مشرقا وقد أوضحت ذلك بالأمثلة والشواهد في
مكانه من البحث . مينا كيف أن القزويني بعد بنا عن الفصاحة ابنى ضدها ،
وبدل أن يحدثنا في البداية حديثا ايجابيا عن جمال الفصاحة وأثرها في النفس .
ويضرب لها أمثلة ضيقة مشرقة ، يحدثنا عن أضداد الفصاحة من التناثر والغرابية
والتعقيد ، ويضرب لها - بالطبع - أمثلة - معتمدة موحشة .

ولقد عرضت - فيما عرضت - في هذا البحث لعناصر الأسلوب
الثلاثة : الوضوح - القوة - الجمال . ذكرها كتاب البلاغة الواضحة
في ايجاز واقتضاب ، وذكرها كتاب الأسلوب في اسهاب واطناب .

وهذه العناصر الثلاثة (الوضوح والقوة والجمال) أرى أن تكون
الأساس الجديد في درس البلاغة . بوجه عام ونجمل
كل المباحث البلاغية تدرس في ضوءها .

فمقتضى الحال يمكن أن يدرس بطريقة جديدة في ضوء الوضوح والقوة والجمال
وكذلك الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ، وأيضا في الحذف والتقديم
والقصر ، وفي الايجاز والاطناب والمساواة ، الى غير ذلك من مباحث البلاغة .
وقد أوضحت وجهة نظري ، ووضعت النقاط فوق الحروف في الفصل الخاص
بذلك في هذا البحث .

ولا أستطيع القول بأني وضعت للبلاغة خطة حديثة ، أو منهجا جديدا
ان هي الا فكرة مدنية يمكن أن تنمو وتتطور بالمدايسة والممارسة اذا لاقت
القبول والاستحسان . وهي في رأي علاج سريع مؤقت لدرس البلاغة اليوم ، حتى
يستقر أولو الأمر على منهج جديد للبلاغة العربية .

ولقد تعرضت بلاغتنا في هذا العصر لهجوم كبير ، وتجن خطير ، اتسم
بالدهاء والخبث ، وتوقع بدعوى الاصلاح والتجديد ، لذلك جعلت الباب

الرابع " البلاغة بين الدفاع والهجوم " وقسمته الى فصلين :
تناولت في الفصل الأول • آراء الذين دافعوا عن البلاغة مثل : الدكتور
احمد بدوي والأستاذ العقاد والدكتور عباس حسن والأستاذ احمد موسى
والدكتورة سهير القلماوي • ثم تحدثت عن الزيات وأوضحت دفاعه عن البلاغة
وآراءه في تجديدها ، وما ينبغي أن تكون عليه في العصر الحديث •

وفي الفصل الثاني من هذا الباب الرابع تحدثت عن سلامة موسى ومن
دار في فلكه ، وعن كتابه (البلاغة العصرية) وما تضمنه من هجوم
خبيث على بلاغتنا ولغتنا باسم الاصلاح والتجديد ، وشككت آراءه وفندتها ،
وبينت الأسباب والدواعي التي كانت وراء هذه الجملة المفوضة ، والتي تفرض
علينا أن نسارع الى بلاغتنا الجبينة فننفض عنها آثار الماضي ، ونفتح لها
باب التجديد والتطور ، حتى لا يتهمها المفرضون ويتهمونا معها بالجمود
والتأخر •

وان فيما عرضه هذا البحث من بحوث ومناهج لخير معين على تطوير
البلاغة وتجديدها •

ولم يكن في الامكان أن نختم هذا البحث دون أن نتناول قضية الاعجاز
الكبرى وآراء المجددين فيها ، فهي قضية تتصل بالبحث البلاغي اتصالا وثيقا
بل هي من أهم قضايا البلاغة على الإطلاق •

لهذا كان الباب الخامس خاصا بقضية الاعجاز وما طرأ عليها من دراس
جديدة في العصر الحديث •

وقد قسمت هذا الباب الى أربعة فصول ، تحدثت فيها عن أربعة أوجه
جديدة للاعجاز ، هي على الترتيب :

الاعجاز النفسي ، والاعجاز العلمي ، والاعجاز المادي ، والاعجاز
الروحي •

وفي الخاتمة : لخصت هذا البحث ، وأوضحت خطته ، وأبرزت أهم
كما أجمعت رأيي الجديد في تدريس البلاغة •

ولقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن أتهج المنهج التاريخي ، فأتببع
الفكرة البلاغية منذ نشوئها ، وأسير معها في تطورها عبر العصور حتى العصر
الحديث ، ثم أتبع ما طرأ من أفكار جديدة ومناهج مطورة لتطوير البلاغة
وتجديدها .

ولم يكن المنهج التاريخي وحده هو الذي فرض نفسه على هذا البحث ،
بل إن المنهج الفني - كذلك - فرض نفسه ، وسيطر على طول هذا البحث
وعرضه . ذلك أن طبيعة هذه الدراسة اقتضتني أن أتناول أعلام البلاغة
ومدارسها وأبرز آثارها بالنقد والتحليل والموازنة ، كما أتناول - كذلك -
كل رأي جديد وفكرة مستحدثة في تجديد البلاغة مينا ما فيها من ابتكار
أو تقليد . ولذلك فإن المنهجين التاريخي والفني يتعاقبان في هذا البحث
ويؤازر كل منهما الآخر .

وفي كل ما عرضت في هذه الدراسة من آراء وبحوث ومناهج ، كان رأيي
يطل هنا وهناك ، يقوم تلك الجهود وينقدها ، ويشيد بما يستحق الإشادة
منها من غير تعصب أو هو .

وبهذه في ختام هذا البحث أن نستخلص منه التوصيات الآتية :
١ - يجب أن يراعى في تجديد البلاغة تسهيل دراستها ، وتقليل ما يثقل
فيها من جهد ووقت ، مع تحقيق المطلوب من دراستها تحقيقاً علمياً
يتمثل في : أ - القدرة على إدراك الجمال الأدبي .
ب - القدرة على التعبير الرائع .

٢ - استبعاد الأبحاث المضمخة في البلاغة ، وما خالطها من مقدمات منطقيّة
واستطرادات فلسفية مثل : الدلالات ، والجامع الوهمي والخيالي
والعقلي ، كما نستغنى عن أبحاث الأصوليين ، وعن الاطالة في بعض
التعاريف ومحتجزات القيود والخلافات اللفظية ، فإنه لا معنى لأن يستغل
الطالب وقتاً وجهداً في خصوصية غريبة يطالع فيها حجج الفريقين ، ويتمسك
نفسه في تفهم جدل الخصمين ، ثم يقال له أخيراً : إن الخلاف
لفظي ، أو يجد النتيجة لا تكافئ الجهد .

- ٣ — إعادة تنظيم البلاغة على أسس تتصل بالذوق والفن والجمال والتأثير .
- ٤ — وضع مقدمة فنية يدرك الدارس من خلالها قيمة الفنون عامة ، والفن القولى خاصة .
- ٥ — الاستعانة بما يناسب بمباحث البلاغة من الدراسات النفسية ، ويساعد على توضيحها ، وتقدير مسائلها .
- ٦ — أن تتجاوز دراسة البلاغة مجال البحث في الكلمة والجملة والجملة والجملة إلى البحث في الفقرة والقطعة الأدبية والأساليب المختلفة .
- ٧ — ادخال دراسة الأسلوب وعناصره وأنواعه في البحث البلاغى .
- ٨ — الحرص على أن تتصل البلاغة اتصالاً وثيقاً بالنوع القرآنى الفياض الزاخر بشتى الصور البيانية ، وأن نخلق جواً من الجمال القرآنى يهيمن على فن البلاغة ودرسها .
- ٩ — تجديد البلاغة قضية قومية دينية فى آن واحد ، ويجب ألا يخفت صوت هذه القضية حتى يتم وضع خطة جديدة متكاملة .
- وان فيطوّر فى هذا البحث لخير معين على وضع هذه الخطة .
- ١٠ — منهاج الخولى فى تجديد البلاغة أفضل منهج حتى الآن ، وهو على ضخامته له أسس وصيررات ، وقام على مقارنات واقعية بين القديم والجديد ، ولكنه كما قال صاحب : ليس الصورة الأخيرة للبلاغة أو فن القول ، وانما هو تخطيط لمحاولة يود أن تظل أبد الدهر .
- لو أمكن — رهن التفسير والتبديل والاضافة والتحسين من تهيات لهم القدرة على ذلك .
- والواقع أن هذه الخطة الخولية فى تجديد البلاغة خطة متطورة واعية ، غير أنها تحتاج الى لجنة متخصصة لتطبيقها والافادة منها ، فقـ
- تتصل الأستاذ الخولى من مهمة التطبيق ، وتركها لمن يأتى بعده من المهتمين بشئون البلاغة . ونحن — بفضل الله وقوته — سنحاول فى المستقبل القريب — ان شاء الله — أن نساهم فى تطبيق هذا المنهج أو جزء منه حسب ما يتاح لنا ، فان هذا المنهج — على قصوره واقتصاره على الناحية النظرية — جدير بالمنايا والتطبيق . وقد يظهر فى

المستقبل القريب أو البعيد من يستطيع تعديل هذه الخطة ، أو يأتي
بأفضل منها ، ولكن حتى ذلك الحين يجب أن نهتم بخطة الخولـى
ونستفيد منها .

١١ — وجهة نظرى الجديدة لتدريس البلاغة التى قد تمها فى هذا البحث
انما هى بمثابة اسعافات أولية ضرورية سريعة حتى يتفق أولو الأمر ويستقروا
على خطة جديدة لتدريس البلاغة .

فالتعريفات السلبية للفصاحة وغيرها يجب استبعادها مع أمثلتها ووضع
الضرورى منها فى الهامش ، ووضع تعريفات ايجابية بدلا منها تـكـوـن
أمثلتها وضيفة مشرقة .

والوضوح والقوة والجمال ركائز ثلاثة يجب أن يبنى عليها الدرس البلاغى
بوجه عام . فما توافر فيه الوضوح فقط فهو الكلام العادى ولغة التخاطب
وما توافر فيه الوضوح والقوة معا فهو الكلام الفصيح ، أما ما توافر فيه
الثلاثة . الوضوح والقوة والجمال فهو كالـكـلام البليغ .
ولكل من هذه المستويات الثلاثة درجات ورتب ومقامات . وقد أوضحت
المراد بكل من الوضوح والقوة والجمال فى مكانه من البحث .

محمد : فان هذا البحث الذى بين أيديكم عبارة فكر ، وشرة جهود
ومعاناة طويلة ، أرجو بها مخلصا أن أكون قدمت لبلاغتنا الحبيبة ما يضىء
لها الطريق الى عند أفضل ومستقبل أجمل ان شاء الله .

ولقد قرأت رسالتى هذه على سبيل المراجعة عدة مرات ، وفى كل مرة كنت
أغير وأبدل ، وأزيد وأنقص ، وأقدم وأؤخر ، أجبر نقضا هنا ، وأضيف
رأيا هناك . وهكذا لو قرأتها مائة مرة لفعلت ذلك فى كل مرة ، فالنقص
من صفات البشر ، والكمال لله وحده ، وفوق كل ذى علم عليم .

نسأل الله العلى العظيم أن يثمننا بما علمنا ، وأن يعلمنا
ما ينفعنا ، وأن يزيدنا علما .
انه سميع مجيب .

المصادر والمراجع

=====

- ١ - ابن أبي الأصبح المصري بين علماء البلاغة - د . حفنى شرف - مكتبة نهضة مصر - القاهرة .
- ٢ - أبو هلال العسكري وثقايسه النقدية - د . بدوى طبانة - مطبعة مخيمر - القاهرة ١٩٥٢ .
- ٣ - الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث - أنيس القندسى - طبعة بيروت
- ٤ - الاتقان فى علوم القرآن - جلال الدين السيوطى - مكتبة البابى الحلبي ط ٣ القاهرة ١٩٥١
- ٥ - أثر القرآن فى تطور النقد العربى - د . محمد زغلول سـلام - دار المعارف . القاهرة ١٩٦١
- ٦ - أثر القرآن فى تطور البلاغة العربية حتى القرن الخامس الهجرى - د . كامل الخولى - دار الأنوار . القاهرة ١٩٦٢ .
- ٧ - أثر النحلة فى البحث البلاغى حتى نهاية القرن الخامس الهجرى - د . عبد القادر حسين - دار نهضة مصر ١٩٧٥
- ٨ - أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد الأدبى - د . رجب البيومسى - مجلة كلية اللغة العربية بالرياض المعداد الخامس ١٩٧٥
- ٩ - الأدب والنصوص للصف الأول الثانوى - د . حسن شاذلى فرهود وآخرون - ط وزارة المعارف السعودية
- ١٠ - أرسطو - تلخيص الخطابة - ابن رشد - تحقيق عبد الرحمن بدوى - مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠ .
- ١١ - أساس البلاغة - الزمخشري - دار الكتب . ط ٢ . القاهرة ١٩٧٢ م .
- ١٢ - الأساس فى النقد والبلاغة - د . عبد الله الوهيبي وآخرون - دار الاصفهاني بجدة
- ١٣ - أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني - دار المنار - القاهرة

- ١٤ — الأسس الجمالية فى النقد العربى — عز الدين اسماعيل — ط ٢ —
دار الفكر العربى • القاهرة ١٩٦١
- ١٥ — الأسس النفسية للنقد الأدبى — د • عبد الحميد يونس — دار
المعرفة • القاهرة ١٩٥٨
- ١٦ — أسس النقد الأدبى عند العرب — د • أحمد بدوى — نهضة
مصر ١٩٦٠
- ١٧ — الأسس المعنوية للأدب — د • عبد الفتاح الديدى — دار
المعرفة • القاهرة ١٩٦٦
- ١٨ — الأسلوب — أحمد الشايب — مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦
- ١٩ — أسواق الذهب — أحمد شوقى — دار الهلال — القاهرة ١٩٣٣
- ٢٠ — أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب — عباس محمود العقاد — دار
المعارف — القاهرة ١٩٧٠
- ٢١ — الأشباه والنظائر — جلال الدين السيوطى — ط الهند
- ٢٢ — أصول النقد الأدبى — أحمد الشايب — مكتبة النهضة المصرية
• ١٩٦٤
- ٢٣ — الأضواء فى اللغة الغربية — أحمد محمد صقر وآخرون — دار نهضة
مصر ١٩٧٢ •
- ٢٤ — اعجاز العددى للقرآن — د • عبد الرازق نوفل — مطبعة دار
الشعب — القاهرة •
- ٢٥ — اعجاز القرآن — عبد الكريم الخطيب — دار الفكر العربى — القاهرة —
١٩٦٤
- ٢٦ — اعجاز القرآن — الباقلانى — دار المعارف — القاهرة ١٩٦٣
- ٢٧ — اعجاز القرآن والبلاغة النبوية — مصطفى صادق الرافعى — المكتبة
التجارية • القاهرة ١٩٦٩
- ٢٨ — اعجاز القرآن البيانى — د • حنفى محمد شرف — مطابع الأهرام
التجارية • القاهرة ١٩٧٠

- ٢٩ — اعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة — منير سلطان — منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٨
- ٣٠ — الاعجاز والايجاز — الثعالبي — مكتبة دارالبيان — بيروت *
- ٣١ — الأغاني — أبو الفتح الاصبهاني — طبعة دار الكتب المصرية
- ٣٢ — الأمالي لأبي علي القاسمي — دار الفكر — بيروت
- ٣٣ — أمالي علي عبد الرازي في علم البيان وتاريخه — علي عبد الرازي — مكتبة النيل • القاهرة ١٩٣٠
- ٣٤ — أمراء الشعر العربي في العصر العباسي — أنيس المقدسي — طبعة بيروت
- ٣٥ — أنوار الريح في أنواع البديع — ابن معصوم المدني — النجف الأشرف مطبعة النعمان ١٩٦٨
- ٣٦ — الايضاح في علوم البلاغة — الخطيب القزويني — مكتبة صبيح • القاهرة ١٩٧١
- ٣٧ — الايمان — ابن تيمية — دار الطباعة المحمدية • القاهرة
- ٣٨ — البحث الأدبي — طبيعته مناهجه — أصوله — شوقي ضيف ط ٢ دار المعارف — القاهرة ١٩٧٦
- ٣٩ — بحوث وآراء في علوم البلاغة — أحمد مصطفى المراغي — مطبعة العلوم • القاهرة ١٩٤٠
- ٤٠ — بديع القرآن — ابن أبي الأصبع المصري — تحقيق د • حفي شرف مطبعة مصر ١٩٥٧
- ٤١ — البديع — ابن المعتز — ط كراتشوفسكي — المكتبة المركزية بمكة رقم ٣ / ٤١٤
- ٤٢ — البرهان في علوم القرآن — الامام الزركشي — دار احياء الكتاب العربية — القاهرة ١٣٧٦ هـ
- ٤٣ — بغية الايضاح — عبد المتعال الصعيدي — مكتبة الآداب ومطبعتها القاهرة ط ٦

- ٤٤ — بلاغة أرسطو بين العرب واليونان — د . ابراهيم سلامة — مكتبة
الأنجلو — القاهرة ١٩٥٢
- ٤٥ — البلاغة التطبيقية فى علم البيان — د . أحمد ابراهيم موسى —
ط ١ . القاهرة ١٩٦٣
- ٤٦ — البلاغة تطور وتاريخ — د . شوقى ضيف — دار المعارف
ط ٣ . القاهرة
- ٤٧ — البلاغة العالية — عبد المتعال الصعدي — المطبعة السلفية
القاهرة ١٣٥٥ هـ
- ٤٨ — البلاغة العربية فى دور نشأتها — د . سيد نوفل — مطبعة
الاعتماد — القاهرة ١٩٤٧
- ٤٩ — البلاغة العربية نشأتها وتطورها — د . حفنى شرف — مكتبة
الشباب . القاهرة ١٩٧٣
- ٥٠ — البلاغة المصرية واللغة العربية — سلامة موسى — مطبعة
التقدم . ط ٤ . القاهرة ١٩٦٤
- ٥١ — البلاغة عند السكاكى — د . أحمد مطلوب — مكتبة النهضة
بغداد ١٩٦٤
- ٥٢ — البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري — محمد حسنين أبو موسى
دار الفكر العربى — القاهرة .
- ٥٣ — البلاغة الواضحة — على الجارم ومصطفى أمين — دار المعارف
ط ٢٣ . القاهرة ١٩٦٩
- ٥٤ — البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها — أمين الخولى — بحث
لقى فى الجمعية الجغرافية بالقاهرة ونشر فى "مناهج تجديد" .
كما نشر فى صحيفة الجامعة المصرية مايو ١٩٣١ .
- ٥٥ — البلاغة والنقد بين التاريخ والفن — د . مصطفى الجوينى —
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ .
- ٥٦ — بل ثورات على علوم البلاغة — مقال نشر بالهلال عدد مارس ١٩٣٦ .

- ٥٧ — بيان اعجاز القرآن — ابن أبي الاصبح المصري — تحقيق حنفى شرف
ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٨٣ هـ .
- ٥٨ — بيان اعجاز القرآن — الخطابى — مطبعة دار التاليف — القاهرة ١٩٥٣
- ٥٩ — البيان العربى — د . بدوى طبانة — دار العودة — بيروت .
- ٦٠ — البيان — د . على محمد حسن العمارى — دالالات الاتحاد العربى
للطباعة . القاهرة
- ٦١ — البيان القرآنى — د . رجب البيومى — مجلة مجمع البحوث
الاسلامية . القاهرة
- ٦٢ — البيان والتبيين — الجاحظ — المكتبة التجارية ط ١ . القاهرة
- ٦٣ — تاج المروس — الزبيدى . المطبعة الخيرية ١٣٠٦ هـ القاهرة
- ٦٤ — تاريخ الأدب الفرنسى — جوستاف لانسون — ترجمة
محمود قاسم — المؤسسة العربية الحديثة . القاهرة ١٩٦٢
- ٦٥ — تاريخ الجاهلية — د . عمر فروخ — ط بيروت ١٩٦٤
- ٦٦ — تاريخ الدعوة الى العامة وأثرها فى مصر — د . نفوسة زكريا —
دار نشر الثقافة بالاسكندرية ١٩٦٤
- ٦٧ — تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها — أحمد مصطفى المراغى —
مطبعة الحلبي . القاهرة ١٩٥٠
- ٦٨ — تاريخ النقد الأدبى عند العرب — طه أحمد ابراهيم — دار الحكمة
بيروت .
- ٦٩ — تاريخ النقد العربى الى القرن الرابع الهجرى — د . محمد زغلول
سلام — دار المعارف . القاهرة ١٩٦٤ .
- ٧٠ — تاريخ النقد العربى من القرن الخامس الى العاشر الهجرى — د . محمد
زغلول سلام — دار المعارف .
- ٧١ — تأويل مشكل القرآن — ابن قتبية — مطبعة الحلبي . القاهرة ١٩٥٤
- ٧٢ — تحرير التجبير — ابن أبي الاصبح المصري — تحقيق حنفى محمد شرف
المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٣٨٣ . القاهرة

- ٧٣ — تجريد البناني على مختصر الفتازاني — المطبعة العلمية • القاهرة
١٣١٥ هـ •
- ٧٤ — التركيب اللغوي للأدب — د • لطفى عبد البديع — مكتبة
النهضة المصرية ١٩٧٠
- ٧٥ — التصوير البياني — د • حفي شرف — مكتبة الشباب • القاهرة ١٩٧٠
- ٧٦ — التصوير الفني في القرآن — سيد قطب — دار الشروق — بيروت
- ٧٧ — التطور والتجديد في الشعر الأموي — د • شوقي ضيف — دار المعارف
القاهرة ١٩٥٩
- ٧٨ — تلخيص البيان في مجازات القرآن — الشريف الرضى — دار احياء
الكتب المصرية • القاهرة ١٩٥٥ •
- ٧٩ — تلخيص المفتاح — القزويني — مطبعة الحلبي ط ١ • القاهرة ١٩٣٨
- ٨٠ — توضيح المعاني — د • علي محمد حسن العطارى — القاهرة
الحديثة للطباعة ١٩٦٤
- ٨١ — تهذيب السعد — محمد محي الدين عبد الحميد — مكتبة الحسين
التجارية • القاهرة
- ٨٢ — الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين — العقاد — المكتبة
الثقافية • القاهرة
- ٨٣ — ثلاث رسائل في اعجاز القرآن — الخطابي والرماني والجرجاني —
دار المعارف • القاهرة ١٩٦٨
- ٨٤ — ثورة على علوم البلاغة — عبد الميزب بشرى — محاضرة القاها في الجامعة
الأمريكية بالقاهرة ونشرت في كتابه : المخارج •
- ٨٥ — الجامع لأحكام القرآن — القرطبي — مطبعة دار الكتب • القاهرة •
- ٨٦ — الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور — ضياء الدين بن الأثير
القاهرة
- ٨٧ — الجمان في تشبيهات القرآن — ابن نايقا البندادي — منشأة
المعارف بالاسكندرية ١٩٧٤
- ٨٨ — جواهر البلاغة — أحمد الهاشمي — طبعة بيروت •

- ٨٩ — حاشية الدسوقي — شروح التلخيص — محمد عرفة الدسوقي — المكتبة التجارية ١٩٣٦ القاهرة
- ٩٠ — حاشية الخضرى — المطبعة الشرقية • القاهرة ١٣٢٠ هـ
- ٩١ — حاشية مخلوف المنياوى على شرح الدمنهورى لمتن الخضرى (الجواهر المكنون فى المعانى والبيان والبديح) دار احياء الكتب العربية — القاهرة ١٩٢١
- ٩٢ — حديث الأربعاء — د • طه حسين — دار المعارف • القاهرة ١٩٥٧
- ٩٣ — حركات التجديد فى الأدب العربى — يوسف خليل — دار الثقافة للطباعة والنشر • القاهرة ١٩٧٥ •
- ٩٤ — حسن التوصل الى صناعة الترسل — شهاب الدين الحلبي — المطبعة الوهابية ١٢٩٨ هـ
- ٩٥ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة — السيوطى — دار احياء الكتب العربية • القاهرة ١٩٦٨ •
- ٩٦ — الحقيقة والمجاز فى القرآن الكريم — د • على محمد حسن العمارى — مطبعة السعادة • القاهرة ١٩٧٤
- ٩٧ — الحيوان — الجاحظ — طبعة الساسى • القاهرة
- ٩٨ — خزانة الأدب — البغدادى — دار الكتب المصرية •
- ٩٩ — خصائص الشعر الحديث — د • نعمات أحمد فؤاد — دار الفكر العربى • القاهرة
- ١٠٠ — الخطابة — أرسطو — ترجمة ابراهيم سلامة — مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٠
- ١٠١ — الخواطر الحسان فى المعانى والبيان — جبر ضومط — مطبعة الوفاء بيروت ١٩٣٠
- ١٠٢ — دائرة المعارف الاسلامية — مجلد ٤ — مادة بلاغ — •
- ١٠٣ — دائرة المعارف فى القرن العشرين — ج ٧
- ١٠٤ — دراسات فى الأدب والبلاغ — ابراهيم أبو الخشب واحمد البهى — القاهرة ١٩٥٩ •

- ١٠٥ — دراسات في الشعر العربي المعاصر — د . شوقي ضيف —
القاهرة ١٩٥٣
- ١٠٦ — دراسات في علم النفس الأدبي — حامد عبد القادر — مطبعة
مصر ١٩٤٩
- ١٠٧ — الدر النفيد — الحفيد الميسري — طبعة الخانجي . القاهرة
١٣٢٢ هـ
- ١٠٨ — دفاع عن البلاغة — أحمد حسن الزيات — عالم الكتب ط ٢ .
القاهرة ١٩٦٧
- ١٠٩ — دلائل الإعجاز — عبد القاهر الجرجاني — طبعة بيروت .
- ١١٠ — الذخيرة — ابن بسام — دار الثقافة بيروت ١٩٧٩
- ١١١ — سر الفصاحة — ابن سنان الخفاجي — مكتبة صبيح . القاهرة ١٩٦٩
- ١١٢ — شروح التلخيص — مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٤٢ هـ
- ١١٣ — الشعر — أرسطو — تحقيق شكري محمد عياد — دار الكتاب العربي
القاهرة ١٩٦٧
- ١١٤ — الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث — مصطفى عبد اللطيف
السحرتي — القاهرة ١٩٤٨
- ١١٥ — الشعر والشعراء — ابن قتيبة — القاهرة ١٣٣٢ هـ
- ١١٦ — شيوخ الأدب الحديث — حبيب الزحلاوي — مكتبة نهضة مصر
- ١١٧ — الصبغ البديعي في اللغة العربية — د . أحمد موسى — دار الكتاب
العربي للطباعة والنشر ١٩٦٩
- ١١٨ — الصراع الأدبي بين القديم والجديد — د . علي المماري — دار
الكتب الحديثه ١٩٦٥
- ١١٩ — الصناعتين — أبو هلال العسكري — مطبعة الحلبي . القاهرة .
- ١٢٠ — الصورة الأدبية — د . مصطفى ناصف — مكتبة مصر — القاهرة .
- ١٢١ — الصورة البديعية — د . حفي شرف — مكتبة الشباب — القاهرة ١٩٦٦
- ١٢٢ — صور البديع وفن الاسجاع — علي الجندي — دار الفكر العربي القاهرة

- ١٢٣ — الصور البيانية بين النظرية والتطبيق — د . حنفى شرف — المكتبة التجارية — القاهرة
- ١٢٤ — ضحى الاسلام — أحمد أمين — مطبعة الاعتماد . القاهرة
- ١٢٥ — ضياء الدين بن الأثير وجهوده فى النقد — د . محمد زغلول سلام — مكتبة نهضة مصر
- ١٢٦ — طبقات فحول الشعراء — محمد بن سلام الجمحى — مطبعة المدنى — القاهرة
- ١٢٧ — الطراز — يحيى بن حمزه الحلوى — مطبعة المقتطف . القاهرة ١٩١٤
- ١٢٨ — عبد القاهر الجرجانى — بلاغته ونقده — د . احمد مطلوب وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٣
- ١٢٩ — عبد القاهر الجرجانى — د . أحمد بدوى — أعلام العرب (٨) . القاهرة
- ١٣٠ — الفريال — ميخائيل نعيمة — القاهرة ١٩٢٣
- ١٣١ — عروس الأفراح — بهاء الدين السبكى — مطبعة السعادة . القاهرة ١٣٤٢ هـ
- ١٣٢ — العصر الجاهلى — شوقى ضيف — دار المعارف . القاهرة ١٩٦٠
- ١٣٣ — عصر ورجال — فتحى رضوان — مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٧
- ١٣٤ — علوم البلاغة — أحمد مصطفى المرافى — المكتبة العربية ومطبعتها القاهرة ط ٣
- ١٣٥ — الحمدة — ابن رشيق القيروانى — المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة ١٩٥٥
- ١٣٦ — فجر الاسلام — احمد أمين — مكتبة النهضة . القاهرة ١٩٥٩
- ١٣٧ — فصول فى الأدب والنقد — طه حسين — مطبعة المعارف . القاهرة ١٩٤٥
- ١٣٨ — فلسفة البلاغة — جبري ضومط — المطبعة المثمانية . القاهرة
- ١٣٩ — فلسفة المجاز — د . لطفى عبد البديع — مكتبة النهضة المصرية .

- ١٤٠ — فن القول — أمين الخولى — دار الفكر العربى • القاهرة
١٤١ — الفن ومذاهبه فى الشعر العربى — د • شوقى ضيف — ط ٤ • دار
المعارف • القاهرة ١٩٦٠
١٤٢ — الفن ومذاهبه فى النثر العربى — د • شوقى ضيف — دار المعارف
١٩٦٥
١٤٣ — فن المقالة — محمد يوسف نجم — دار الثقافة • بيروت ١٩٦٣
١٤٤ — فنون بلاغية (البيان والبديع) د • احمد مطلوب — مكتبة النهضة
بغداد
١٤٥ — فى الأدب الجاهلى — د • طه حسين — دار المعارف • القاهرة
١٩٥٢
١٤٦ — فى الأدب والنقد — د • محمد مندور — مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر • القاهرة ١٩٤٩
١٤٧ — فى البلاغة العربية — د • رجاء عيد — مطبعة غريب • القاهرة
١٤٨ — فى تاريخ البلاغة العربية — عبد العزيز عتيق — دار النهضة
العربية — بيروت ١٩٧٠
١٤٩ — فى الميزان الجديد — د • محمد مندور — مطبعة نهضة مصر •
القاهرة
١٥٠ — فيض الخاطر — أحمد أمين — مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١
١٥١ — قصص العرب — محمد أبو الفضل ابراهيم وآخرون — دار احياء
التراث العربى • بيروت ١٩٦٢
١٥٢ — قضايا بلاغية — د • على العمارى — مخطوطة
١٥٣ — قضايا جديدة — د • محمد مندور • بيروت ١٩٥٨
١٥٤ — قضايا النقد الأدبى والبلاغة — محمد زكى العشماوى — دار الكتاب
العربى • القاهرة
١٥٥ — قواعد النقد الأدبى — لاسل أبركرمبى — ترجمة محمد عوض — لجنة
التأليف والترجمة والنشر • القاهرة ١٩٣٦

١٥٦ — الكامل — المبرد — مطبعة التقدم العلمية ط ١ • القاهرة ١٣٣٤هـ
١٥٧ — الكتاب — سيويه — تحقيق عبد السلام هارون — دارالقلـم
القاهرة ١٦٦

١٥٨ — كتب وشخصيات — سيد قطب — طبعة بيروت
١٥٩ — الكشف — الزمخشري — مكتبة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٩٦٦
١٦٠ — كشف اصطلاحات الفنون — التهانوي الهندي — طبعة الآستانة
١٣١٧ هـ •

١٦١ — لسان العرب — ابن منظور — سلسلة تراثنا • القاهرة
١٦٢ — لغتنا والحياة — د • عائشة عبد الرحمن — دار المعارف • القاهرة
١٩٧١

١٦٣ — اللغة الشاعرة — عباس محمود العقاد — مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠
١٦٤ — المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر — ضياء الدين بن الأثير
طبعة حجازي • القاهرة ١٣٥٤ هـ
١٦٥ — مجاز القرآن — أبو عبيدة معمر بن المثنى — طبعة الخانجي • القاهرة
١٩٦٢

١٦٦ — المجازات النبوية — الشريف الرضي — مطبعة الحلبي — القاهرة ١٣٥٦هـ
١٦٧ — محاضرات في البيان العربي — د • يوسف البيومي — مطبعة السعادة
القاهرة

١٦٨ — محاضرات في البلاغة العربية — علي البدري — دار الطباعة المحمدية
القاهرة ١٩٧٤

١٦٩ — المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر — أنور الجندى — مكتبة
الأنجلو المصرية ١٩٦٥

١٧٠ — المختار — عبد العزيز البشري — دار المعارف • القاهرة ١٩٥٣
١٧١ — المختار من صحاح اللغة — محمد محيي الدين ومحمد عبد اللطيف
السبكي — المكتبة التجارية الكبرى ط ٣

١٧٢ — المدخل الى دراسة البلاغة العربية — السيد احمد خليل — دار
النهضة العربية — بيروت ١٩٦٨ •

- ١٧٣ — المدخل الى النقد الأدبى الحديث — د . غنيمى هلال — مكتبة
الانجلو المصرية ١٩٦٢
- ١٧٤ — مذكرة فى الفصل والوصل — سليمان نوار — القاهرة ١٩٣٤
- ١٧٥ — المسوغات العقلية فى البلاغة — مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق
المجلد الثلاثون
- ١٧٦ — مصرفى تاريخ البلاغة — أمين الخولى — نشر هذا البحث فى مناهج
تجديد —
- ١٧٧ — المطول — سعد الدين التفتازانى — مطبعة أحمد كامل . القاهرة
١٩٣٠
- ١٧٨ — المعتمد فى علم البيان — محمد حسن ضيف الله — دار الكتاب العربى
القاهرة ١٩٥٩
- ١٧٩ — معجزات قلب القرآن — هاشم محمد سعيد دفتردار — بيروت ١٩٧٦
- ١٨٠ — مع المتنبى — طه حسين — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ال
قاهرة ١٩٣٦
- ١٨١ — المفتاح — السكاكى — مطبعة الطبى . القاهرة ١٩٣٧
- ١٨٢ — مقدمة ابن خلدون — ابن خلدون — طبعة الشعب
- ١٨٣ — مقدمة لدراسة بلاغة العرب — أحمد ضيف — القاهرة ١٩٢١
- ١٨٤ — مقدمة نقد النثر — د . طه حسين — مطبعة مصر
- ١٨٥ — الملل والنحل — للشهرستانى — ط لينج ١٩٢٨
- ١٨٦ — مناهج بلاغية — د . أحمد مطلوب — وكالة المطبوعات بالكويت
١٩٧٣
- ١٨٧ — مناهج تجديد — أمين الخولى — دار المعرفة . القاهرة ١٩٦١
- ١٨٨ — مناهج الدراسة الأدبية — شكرى فيصل — بيروت .
- ١٨٩ — من أسرار القرآن — د . مصطفى محمود — كتاب اليوم العدد ١١٥
القاهرة
- ١٩٠ — من بلاغة القرآن — د . أحمد بدوى — مكتبة نهضة مصر
- ١٩١ — المنجد فى اللغة والأعلام . ط ٢٣ دار الشروق . بيروت

- ١٩٢ — من حديث الشعر والنثر — د . طه حسين — دار المعارف .
القاهرة ١٩٥١
- ١٩٣ — من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقد — محمد خلف الله
أحمد — المطبعة العالمية . القاهرة .
- ١٩٤ — المنهاج الواضح — حامد عونى — مكتبة الجامعة الأزهرية . القاهرة
- ١٩٥ — منهج الزمخشري فى تفسير القرآن وبيان اعجازه — مصطفى الجوينى —
دار المعارف . القاهرة ١٩٦٨ .
- ١٩٦ — منهج المرحلة الثانوية — ادارة المناهج والبحوث بالرياسة العامة
لتعليم البنات ط ٢
- ١٩٧ — منهل الورد فى علم الانتقادات — فسطاكي الحمصى — مطبعة
الأخبار . القاهرة
- ١٩٨ — الموازنة بين شعر أبى تمام والبحتري — الأمدى — تحقيق
أحمد صقر — دار المعارف — القاهرة ١٩٧٢
- ١٩٩ — مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح — ابن يعقوب المغربي —
شرح التلخيص
- ٢٠٠ — المرجز فى تاريخ البلاغة — د . زكى المبارك — دار الفكر — بيروت
- ٢٠١ — نزهة الألبا فى طبقات الأدبا — أبو البركات عبد الرحمن بن محمد
الانبارى (مصور) ١٢٩٤ هـ
- ٢٠٢ — نصوص النظرية البلاغية — د . داود سلام ود . عمر الملا حويش —
مطبعة الأمة . بغداد
- ٢٠٣ — نظرية العلاقات — د . محمد نليل — دار الطباعة المحمدية ١٩٦٤
- ٢٠٤ — النقد الأدبى — أحمد أمين — دار الكتاب العربى . القاهرة
- ٢٠٥ — النقد الأدبى — د . يوسف البيوض — دار الجيل للطباعة . القاهرة
- ٢٠٦ — النقد الأدبى — د . حفى شرف — مطبعة الرسالة ١٩٧٠ . القاهرة
- ٢٠٧ — النقد الأدبى الحديث — د . غنيمى هلال — دار النهضة العربية
١٩٦٤ . القاهرة .

- ٢٠٨ — النقد الأدبي أصوله ومناهجه — سيد قطب — دار الفكر العربي
القاهرة ١٩٥٩
- ٢٠٩ — النقد الأدبي في القرن الرابع للهجرة — د . احمد مطلوب — وكالة
المطبوعات بالكويت ١٩٧٣
- ٢١٠ — نقد النثر — قدامة بن جعفر ، تحقيق د . طه حسين
والعبادي — مطبعة مصر ١٩٣٨
- ٢١١ — نقد الشعر — قدامة بن جعفر — مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٦٣
- ٢١٢ — النقد العربي الحديث ومذاهبه — د . محمد عبد المنعم خفاجي
دار الطباعة المحمدية . القاهرة
- ٢١٣ — النقد المنهجي عند العرب — د . محمد مندور — نهضة مصر —
القاهرة
- ٢١٤ — النقد الموضوعي — سمير سرحان — مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة
- ٢١٥ — النقد والبلاغة — د . مهدي علام وآخرون . المطابع الأميرية ١٩٥٩
- ٢١٦ — النقد والبلاغة لعماد المعلمين — توفيق محمد احمد وعبد الكريم
أسعد — دار الأصفهاني بجدة
- ٢١٧ — النكت في اعجاز القرآن — الرطاني — دار المعارف ١٩٦٨ القاهرة
- ٢١٨ — نهاية الايجاز في دراية الاعجاز — فخر الدين الرازي — مطبعة
الآداب ١٣١٧ هـ
- ٢١٩ — وجهة نظر — د . زكي نجيب محفوظ — مكتبة الانجلو المصرية —
القاهرة
- ٢٢٠ — وحى الرسالة — أحمد حسن الزيات — مطبعة الرسالة — القاهرة .
- ٢٢١ — الوساطة بين المتنبي وخصومه — القاضي الجرجاني — تحقيق
أبو الفضل ابراهيم — مطبعة مصر ١٩٤٥
- ٢٢٢ — الوسيلة الأدبية فالى العلوم العربية — حسين المرصفي — مطبعة
المدارس الملكية — القاهرة ١٩٢٤ .
- ٢٢٣ — وفيات الأعيان — ابن خلكان — تحقيق احسان عباس — دار
الثقافة — بيروت .

المخطوطات :

=====

- ١ — أمين الخولى فى مناهج تجديده — د . كامل سـعفان — مكتبة
آداب عين شمس
- ٢ — البلاغة بين عهديـن — د . محمد نايل — مكتبة اللغة
العربية
- ٣ — قضايا بلاغية — د . على العـمارى — مكتبة
اللغة العربية .
- ٤ — قضية اللفظ والمعنى — د . على العـمارى — مكتبة
اللغة العربية
- ٥ — الكاتب أحمد حسن الزيات — د . على الفقى — مكتبة
دار العلوم
- ٦ — منهج البحث البلاغى بين عبد القاهر والسكاكى — د . سيد حجاب —
مكتبة اللغة العربية

الدوريات :

=====

الأخبار — عدد ١٤ رمضان ١٣٨٣ هـ والأعداد ٦/٢٧ و ٧/٤

١٩٧٥/٧/١١

دائرة المعارف الاسلاميه — مجلد ٤

دائرة المعارف فى القرن العشرين — ج ٧

صحيفة دارالعلوم — العدد الثانى من السنة الثالثة — وعدد أكتوبر

١٩٣٨

كتاب الهـلال — عدد خاص عن القرآن الكريم ديسمبر ١٩٧٠

مجلة آداب اسكندرية — المجلد الأول ١٩٤٣

- مجلة الأدب — مارس ١٩٥٦
مجلة الأزهر — المجلد السادس ، والمجلد ٢٤
مجلة الثقافة — العدد ٤٩
مجلة الرسالة — الأعداد ١٤٦ ، ٤٠٨ ، ٦١٧
٦١٧ — ٦٢٨ ، ٦٢٦ ، ٧٤٦
٦٨٧ — ٧٤٦
مجلة الفيصل — العدد ١١ ر ١٥
مجلة الكاتب — يناير ١٩٤٦
مجلة الكتاب — المجلد الأول
مجلة كلية اللغة العربية بجامعة الامام محمد بن سعود — العدد
الخامس ١٩٧٥
مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق — مجلد ٣٠
مجلة مجمع اللغة العربية — ج ٢٢
مجلة الهلال — عدد يناير ١٩٣٨ ومارس ١٩٣٦
ملحق الأهرام — عدد ١١ / ٣ / ١٩٦٦

الفهرس

=====

ص

١

المقدمة :

٧

التمهيد : نشأة البلاغة وتطورها - مدارسها وخصائصها
صلة البلاغة بالعلوم الأخرى - نضوج البلاغة
على يد الامام عبد القاهر - استقلالها
على يد السكاكي - جمود البحث البلاغى
بعد السكاكي - حاجة البلاغة الى التجديد .

الباب الأول : (بؤادر التجديد واتجاهاتها) ٤٣ - ٧٧

الفصل الأول : التجديد - مفهومه ٤٤
بؤادره .

الفصل الثانى : اتجاهات التجديد - ٦٣
ومظاهره فى العصر الحديث

الباب الثانى : (دعوات التجديد البلاغية) ٧٨ - ٢٤٠

الفصل الأول : بحوث فى البلاغة وتجليدها ٧٩

الفصل الثانى : آراء فى التجديد ١٦٨

الفصل الثالث : حركة الرسالة ١٩٠

الباب الثالث : (مناهج جديدة للبلاغة) ٢٤١ - ٢٨٣

الفصل الأول : منهج الشايب ٢٤٢

الفصل الثانى : منهج الخولى ٣٤٥

الفصل الثالث : المنهج المدرسى الحديث ٤٦٧

الفصل الرابع : رأى الباحث فى تدريس البلاغة ٤٧٦٠